ينفرد هذا الكتاب عن غيره بأن كاتبه عاش تجارب فريدة لم تتح لغيره. الكاتب
يهودي نمساوي رحل إلى الشرق الأوسط كمراسل لصحيفة ألمانية إلا أن
طبيعته كمفكر يبحث عن الحقيقة أفضت به إلى اعتناق الإسلام، وأصبح من
كبار المفكرين الإسلاميين، ولم يتوقف عند هذا الحد بل شارك وساهم في
أهم أحداث عشرينيات القرن العشرين في الشرق الأوسط، مع الفلسطينيين
ضد النزوح اليهودي المكثف إليها، ومع عمر المختار في ليبيا بعد أن وصل
إليه في مغامرة خطيرة مخفوقة بالهلاك، ومع عبد العزيز بن سعود أثناء
حروبه في إقامة المملكة وتوجيه أجزائها، وحضر كثاف الشعب العراقي ضد
الاحتلال الإنجليزي، وجاء إلى مصر في فرحة ثورتها ضد الاحتلال الإنجليزي،
وال تعالى بمحمد رضا أثناء توليه رئاسة وزارة إيران قبل أن يتحول إلى شاه إيران
وكتب تحتلا رائعا لظاهرة تخصص شيعة إيران ورحل إلى أفغانستان وخلاف
حكامها، ثم إلى مسلمي الهند ليلتقى بمحمد على جناح والشاعر محمد إقبال
ومع وضع مشروع إقامة دولة إسلامية مستقلة عن الهند هي دولة باكستان،
ونجحوا في تحقيق ذلك. كان الكاتب من أهم المدافعين عن الإسلام في الغرب
برؤية فريدة ومنظور واع للإسلام لم يقدمه غيره، ونشر بالولايات المتحدة
إنجلترا، ثم ترجم ونشر بالألمانية والهولندية والسويدية والفرنسية والأردنية.
الطريق إلى مكة

تأليف: محمد أسعد
(ليوبولد فايس)
ترجمة: رفعت السيد علي

الموضوعة للأعمال العالمية

2000
المشروع القومي للترجمة

إعداد: جابر عصفور

العدد: 894
الطريق إلى مكة
محمد أسد (نيوكلا دفيس)
رفعت السيد علي
الطبعة الأولى 2005

هذه ترجمة كتاب:

The Road to Mecca

by: Muhammad Asad

Simon and Schuster, 1954


حقوق الترجمة والنشر باللغة العربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

72058.84.2396

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel: 7352396 Fax: 7358084.
تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبير بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة.
المحتويات

7

7

الفصل الأول: العطش

الفصل الثاني: بداية الطريق

الفصل الثالث: رياح

الفصل الرابع: أصوات

الفصل الخامس: روح وجسد

الفصل السادس: أحلام

الفصل السابع: منتصف الطريق

الفصل الثامن: جن

الفصل التاسع: رسالة فارسية

الفصل العاشر: دجال

الفصل الحادي عشر: جهاد

الفصل الثاني عشر: نهاية الطريق
مقدمة

ما أرويه في هذا الكتاب لا يُعد سيرة ذاتية لأمرٍ يشعر بالفخر
لدور قام به في الحياة العام، كما لا يُعد رواية لمغامرات خصوصها
على الرغم من أننى صادفت مغامرات عميقة - فإنها لم تشتر
لى أكثر من مجرد أحداث مرافقة ومصاحبة لما كان يدور داخل
ومن أصابته، عدا كل ذلك فهو لا يُعد قصة حياة رجل يفتَش
بقصد ونية عن إيمان عميق أو عقيدة بذاتها؛ فذكر الإيمان حل
على غرار رحلة السنين دون أن أسعى إليه. حكاية ببساطة هي
حكاية اكتشاف رجل أوروبي بالإسلام كدين متكامل في أي
مجتمع إسلامي.

لم يختر بذمنى ولا طاف بخاطري أن أكتب تلك الحكاية؛ لأننى لم أُعتقد في أي
وقت أن أحداث رحلات حياتي من الممكن أن تشكل أي أهمية لأي إنسان
باستثناء أنا بالطبع، إلا أن عودتي إلى باريس بعد غياب واغتراب دام أكثر من
خمسة وعشرين عامًا عن عالم الغرب الذي أنتهى إليه، ثم انتقلت بعدها إلى نيويورك
عام 1952، صادفت ما جعلني أفتح بوجه نظر جديدة. فبحكم وظيفتي مندوبًا
لحكومة الباكستانية لدى الأمم المتحدة في نيويورك، كنت موضع اهتمام الصحافة
والرأي العام، كما كنت محل فضول كبير من الأصدقاء والمعارف الغربيين من أوربيين
وأمريكيين، اعتُقد كل من عرفني في البداية أننى لست «خبيثًا» أوروبيًا يعمل لدى
حكومة شرقية لغرض وظيفي بحت، وظفنا أننى قد ساهمت نمط حياة وفكر الأمة التي
أمثلها، إلا أن جهوده المتفانية والكثيفة في الأمم المتحدة من أجل قضايا البلد الذي أمثلته وتحقيق أهدافه السياسية والثقافية التي تهم كل العالم الإسلامي، أصابتهم بالحيرة والدهشة. واشتد الفضول، وتزايد عدد من يتساءلون عن حياتي وخبراتي وتجاربى، وكان لابد لي من أن أحكى حكايتي.

رويت لهم كيف بدأت حياتي العملية في باكورة شبابي مراسلاً للصحف الأوروبية من دول الشرق الأوسط، وبعد أعوام من التمرّح والتنقل المتواصل بين دول الشرق الأوسط اعتنقته الإسلام عام 1981، وعشت بعد ذلك ستة أعوام في أماكن مختلفة من الجزيرة العربية شرّرت خلالها بصادات الملك ابن سعود، ثم توجهت بعد ذلك إلى الهند، والتقيت هناك بالشاعر والفيلسوف الإسلامي والأول الروحي لمشروع إقامة دولة باكستان الإسلامية محمد إقبال، الذي كان له الفضل في إقناعي بالعمل على مواصلة سفرى إلى شرق تركستان والصين وأندونيسيا، وأن أبيقري معه بالهند لبلاورة التصور الفكرى لإقامة دولة إسلامية مستقلة تحمل اسم باكستان، والتي لم تكن في ذلك الوقت إلا حلمًا يراود خيالي، مثل لى ذلك الهدف، كما مثل إقبال دفعًا جوهريًا وطريقيًا لا بديل له لإعادة إحياء الأعلام الإسلامية الخامدة وإحياء هوية سياسية واحدة لشعوب إسلامية نبتت من جذر واحد وتعتقل كلها عقيدة واحدة.

كرست نفسى أعوامًا طويلة لتحقيق ذلك الهدف النبيل، كدرس، وكاتب، ومحاضر.

ومع مضى الأعوام اكتسبت شهرة واسعة كشاعر ومفسر للشريعة والثقافة الإسلامية، ولذا حققت الخمل وأعلن عن قيام دولة باكستان الإسلامية المستقلة عام 1947، كلفتني الحكومة الوليدة بإنشاء إدارة خاصة تسعى لإحياء النهضة الإسلامية على أن أتلغي إدارتها، كان ذلك المشروع يهدف إلى وضع البرنامج والخطط، وبلاورة نظريات، وتحديد أهداف وأطر المفاهمة الإسلامية للدولة والمجتمع الإسلامي كأسس يرتكز عليها التوجه النهائي للدولة الإسلامية. وبعد عامين من العمل على إنجاز تلك المهمة الجليلة، نقلت للعمل بوزارة الخارجية باكستانية وعينت رئيسًا لإدارة شؤون الشرق الأوسط، وركزت كل جهودي لتأسيس علاقات وروابط قوية بين باكستان وبدول العالم الإسلامي، ثم عينت بعد ذلك مندوبًا لباكستان لدى الأمم المتحدة بنويرورك.
كان ذلك يعني أن الأمر يتجاوز عمل رجل أوروبي في مجتمع إسلامي تصادف وجوده به، فقد كان تحولاً واعياً وإرادياً عن ثقافة وكفر معين تسببت به من مولد إلى شبابي، إلى ثقافة أخرى وفكر آخر مغابرين كلية لما دمرت عليه، وكان ذلك التحول هو ما بدا مدهشًا و غريبًا ولا يمكن تبريره من وجهة نظر من عرفتهم وصادقتهم من أبناء الغرب. لم يتصوروا كيف يمكن لأمرئ غربي المولد والتنشئة والتربية أن يقدم نفسه إليهم بلا تحقق وبكل وضوح كمندوب لدولة إسلامية، كيف أمكن أن يبدل إرث الثقافى الغربي ويعتني بإسلام، وتساغوا عن ذلك الدافع الذي يجعله يتقبل مفاهيم دينية واجتماعية أبدى في نظرهم بمراحل كثيرة من كل المفاهيم الغربية المتضreira (ويؤمن أهل الغرب بذلك بقيقان تام يتجاوز احتمال المراجعة).

هى تساعات بدون، لماذا يتبنى الغربيون تلك الأحكام ويؤمنون بها بيقين لا يقبل المراجعة؟ هل اهتموا في أي وقت بالبحث الجاد للتوصل إلى رؤية صحية وسلطة للإسلام، أم أن ما يوقنون به لا يستند إلا إلى مجموعة من الأقوال المروية بالغرب والمفاهيم الشاذة التي ورثوها ضمن إرثهم الثقافي من أجيال سابقتهم دون بحث أو تمحيض؟

هل يعود ذلك إلى توارث نمط الفكر اليوناني - الروماني القديم الذي كان يقسم الأمم إلى إغريق ورومان في جانب وبقى البشر المسلمين «براءة» في جانب آخر، وأن ذلك النمط من التفكير انتقل إلى الفكر الغربي وتأثر به حتى إنهم أصبحوا عاجزين - ولو نظرية - عن قبول فكرة وجود قوم إيجابية في ثقافات أخرى تقع خارج محطاتهم الثقافية والفكرية والمعرفية؟

من عصر الإغريق والرومان ظل المؤرخون والفلسفة الأوروبيون ميللين إلى رؤية تاريخ العالم بوجهة نظر ونصطلحات وخبرات ثقافة الغرب فقط، وطبعًا لتلك الرؤية الحبودة فإن أي حضارة غير أوروبية يحكم لها أو عليها بمقدار تأثيرها على مصائر أهل الغرب فقط، وهكذا كان تاريخ العالم وتعدد ثقافاته، لم يكن أكثر من مجرد امتداد لتاريخ الغرب.
لابد بالطبع أن تخلق تلك النظرة الضيقة منظورًا مشوًّى، لقد اعتاد الأوروبى والأمريكي على قراءة ما يخص الحضارة الغربية ويناقش قضاياها بتفاصيل وأشكال متعددة، وفي حين لا تحتوي قراءاته إلا على النذر اليسير عن شؤون العالم وحضارته، وجعله ذلك يوقع بأن التحريض الحضارية للغرب ليست فقط الأفضل والأسنى، بل إنها فوق أي قياس مقارنة بحضارات العالم الأخرى؛ وهكذا، يؤمن المواطن الغربي أن نمط الحياة لديه هو النمط الوحيد الصالح والملائم للحياة، وأنه النموذج الأولد الذي لا بد أن نتّاس عليه أية أنماط أخرى، ويستتبع ذلك بالطبع أن أية مفاهيم معرفية أو ثقافية أو أُس******ات اجتماعية أو قيم أخلاقية تختلف عن النمط الغربي، إنما تتميّز إلى مستوى أدنى من الحياة.

لقد اقترنت الثقافة الغربية أثر الإغريق والمسلمون في تصنيفهم للعالم، وأثبتنا أن حضارات "الأخرين" ليست إلا خطوات متعثرة على مسار التقدم والتحضر الذي قطعه الغرب معصومًا من أي خطا، أو على أفعال الأحول أنها ليست إلا بعض الفصول المتتابعة في كتاب: تُعدُّ الحضارة الغربية في فصل الختام.

حين شرجت وجهة نظرى لصديق أمريكا - وهو مفكر متميز - قال "أوافقك على أن الإغريق والمسلمون كانوا حدودين في منهجهم الفكرى ونظريتهم إلى الحضارات الأخرى المغايرة، ولكن ألا تُعدُّ تلك الحدودية نتيجة حتمية لصعوبات التواصل اللغوي والفكري بينهم وبين بقية شعوب العالم في عصرهم؟ أولاً يتم تجاوز تلك الحدودية في عالمنا المعاصر؟ ألا نشغله أنت في الغرب بما يجري خارج مدار فلكنا الثقافي؟ هل نسيت تلك الكتب الكثيرة التي ألفها هنا بالغرب عن الفنون والفلسفات الشرقية، تلك الكتب نشرت في أوروبا وأمريكا في آخر ربع قرن. نادرًا ما نقرأ الأساطير التي وضعت عن الأفكار السياسية التي تشمل بالأهل أهل الشرق. لا يمكن لأي منصف أن يتجاهل أو ينكر تلك الرغبة لدى أهل الغرب لفهم نتاج الثقافات الأخرى؟". أجبته: "قد تكون على صواب إلى حد ما، لا شك أن النظرة المعتادة للحضارة الإغريقية - الرومانية في تصنيف العالم لم تعد بالحدة نفسها في تقسيم الغرب
للحضارات وفخت وطاقاتها إلى حد كبير، ويعود السبب إلى النضج الفكري ل كثير من مفكري الغرب، فتخلى عن كثير من التصورات الخاطئة، بل أصبحوا يتشككون في جوانب كثيرة لثقافاتهم وحضاراتهم الغربية، وبدأوا في البحث والتنقيب في أماكن أخرى من العالم لاستجاء ثقافاتهم ومعارفها. وأيضاً كثر من الباحثين والمفكرين أنه لا يوجد مصدر واحد ولا قصة واحدة لتاريخ الإنجازات البشرية: فمصادر التقدم متنوطة لا أحادية: ويرجع ذلك ببساطة إلى أن الجنس البشري، من منظور تاريخي لا يعد جنساً واحداً، بل أجناساً متباينة ذات أهداف متباينة فيما يختص بمعنى الحياة البشرية ومختلفها. رغم ذلك لا أشعر بأن الغرب لم يصبح أقل شعوراً بتفوقه وعلوه تجاه الحضارات الأخرى، وأنه يبنى التقسيم الإقليمي، الرماني: أصبح الغرب فقط أكثر تسامحاً. وأذكر أن النظرية التي يشتق نظرته إلى الإسلام قد ما شمل الحضارات الشرقية الأخرى، التي تقدم نوعاً من الجاذبية الروحية للغرب الجائع رهيني، وهي توجهات روحية بعيدة كل البعد عن جوهير التقدم الغربي مما لا يشكل أي تحد لقيم الغربية.

سألت باهتمام: «ما الذي تعنيه؟»

أجبته: «حسنًا، حين يقوم أي دارس أو باحث غربي بدراسة الهندوسية أو البونية، يظل طوال الوقت على يو ودائم بالأختلافات الجوهرية بين تلك العقائد وعقيدته، قد يعجل بفكرة أو بآخر في تلك العقائد، إلا أنه لا يضع في اعتباره جديًا أنه قد يعجل واحدة من تلك العقائد; فهو يؤمن سلفًا بملك الاستناذة، ولذلك يدرس ويقارن تلك الديانات باتزان ودون خوف، بل أحيانًا بتهديد وتعاطف. أما حين يصل الأمر بالباحث الغربي لدراسة الإسلام - الذي يعد هو الآخر غريباً على القيم الغربية كالهندوسية والبونية - نجد أن تلك الموضوعية تتورى وتخيل وتشوهها إحساسية عاطفية ومعنوية. ربما يرجع ذلك - فيما أظن - إلى أن قيم الإسلام قريبة فرحبًا شديدة من جوهير تلك القيم السائدة في الغرب مما يشكل تحديًا حقيقياً للفهم غربي عديدة، روحية واجتماعية.
شرعت أشرح له نظرية توصلت إليها منذ عدة أعوام مضت، نظرية تفسير العداء العميق الذي نصادفه للإسلام في محتوى الثقافة الغربية واتجاهاتها السياسية المعاصرة.

قلت له: حتى تصل إلى تفسير مقنع لذلك العداء لابد لنا من العودة إلى التاريخ القديم لندرك الخلفية النفسية للعلاقة المحبطة بين العالم الغربي والعالم الإسلامي؛ فما يعتقده الغرب تجاه الإسلام في عصرنا الحالي ترجع جذوره إلى الانطباعات التي تولدت بين الأمم الأوروبية في أشغال الحروب الصليبية.

تعصب صاحبية متسائلًا: "الحروب الصليبية؟ أظلّ لا تعني أن ما حدث من ألف عام تقريباً مازال مؤثراً على البشر في القرن العشرين؟" قلت له: بل هو كذلك، أعرف أن ذلك يبدو غير معقول في القرن العشرين، ولكننا نذكر ما واجه علماء التحليل النفسي حين أثبتوا أن كثيراً من المكونات المعنوية للشخص البالغ والذين تختلف ميوله وأدواته وأغراضه وأهدافه وأهوائه عن أي موضع آخر يلتزم فيما أطلق عليه "الخصائصية الفردية". وأن كل تلك التعقيدات الفردية يمكن تتبعتها وكشفها بالوصول إلى مصادرها الأولى، فيما مر به الامور من تجارب وخبرات وأحداث تعرّض لها في مقتبس طفولته المبكرة?

حسنًا، ألا تكون الأمم من مجموع أفرادها؟ تطور الأمم ومكوناتها الفكرية مرتبطة بالخبرات والتجارب والأحداث التي مرت بها في طفولتها الحضارية، قد تكون تلك التجارب والخبرات مبهمة وقد تكون مؤصلة طبقًا لتصورات الطفولة السائدة عن حديث معين، وأثر كل حدث وتجرية يتوقف على درجة حديثه والألم الذي يسببه. وكان القرن السابق لحروب الصليبية مباشرة هو نهاية القرن الأول للميلاد، ومن الممكن أن نعتبر أنه يشكل الطفولة المبكرة للحضارة الأوروبية الغربية الحالية...".

استطاعت مذكرى صديقي - وهو مؤرخ - أن ذلك القرن هو العصر الذي بدأ أوروبا تتبنى فيه لأول مرة معالجات ثقافتها الخاصة مستقلة تمامًا عن الإرث الرومانى المنسى، ثقافة جديده ظهرت للوجود بلغات أوروبية غير رومانية ولاتينية، استلهم الخبرات والرؤى الدينية للمسيحية الغربية في ذلك القرن كانت الفنون الرفيعة تستجيب

12
على مهل من السبب الوحيد الناتج عن هجرات الشعوب الأوروبيّة التي كانت أقرب إلى الحروب، والتي قام بها القوط والهون والآفار، بدأت النهضة بعد أن تخلصت من الأطفال الوراثة التي سادت في الأعوام المبكرة من العصور الوسطى، عالم حضارى جديد كان ينهض ويبزّر إلى الوجود وتتشكل ملامحه. في تلك المرحلة الأولى من تكوينها تعرضت أوروبا لانف صدمة يمكن أن تتعثر لها، أو هي بالأحرى "جرح"، لا وهي صدمة الحرب الصليبية...

كان للحروب الصليبية أقوى تأثير "جمعي" على حضارة كانت بالكاد قد بدأت تعني ذاتها. بمصطلحات تاريخية، كانت الحرب الصليبية أول ونجح محاولة مبكرة في رؤية أوروبا ذاتها، وقد تبعت تحت رابطة ثاقبة واحدة، ولم تمر أوروبا بتجربة مماثلة لا قبلها ولا بعدها، فقد خاضت الأمم الأوروبيّة تلك الحرب متقاطعة لأول مرة على هدف واحد.

وجها مسموحة اجتاحت كل أرجاء القارة الأوروبيّة، حماس ملتهب تجاوز وعبر كل الحواجز التي كانت تفصل بين تلك الأمم والقبائل والطفاقيات المختلفة. كانت أوروبا تجذب بشعوب وقوميات لا يربطها رابط الفرائض والساقسن والجرمان والبروندان والصقلية والثورماند واللومبارد، ممالك إقطاعية ودول مدن من شدّرات الإمبراطورية الرومانية وبيغانيا بعد أن تهارها النهائي، ولم يكن يرتبط ذلك الخليط المتباين إلا رابط واحد، هو أنها جميعاً تعتمد الدينية المسيحية: أثناء الحرب الصليبية وسببها ارتفع الربط الديني إلى مستوى جدّي؛ فقد أصبحت قضية مشتركة لكل الشعوب الأوروبيّة المسيحية على حد سواء - مفهوم سياسي ديني "السياحية" - ولدى المفهوم الثقافي لـ "أوروبا" ككل، حين حث الحباب أوروبان الثاني المسيحيين في خطابه مدينة كليومنت، في نوفمبر عام 1095، على خوض الحرب ضد "السنجل الشرير" الذي يسيطر على الأرض المقدسة، أعلن - ربما دون أن يدرى - ميثاقًا مشتركًا للحضارة الغربية.

وهي التجربة الجارحة والمريرة للحروب الصليبية أوروبا وعيًا بثقافاتها وبوحدها، إلا أن تلك الحرب ذاتها قدر لها أن تبرز الإسلام بوجه شائن مزيّف في عيون الشعوب
الأوروبية. ولا يعود الأمر ببساطة إلى أن الحرب الصلبية كانت تعني فقط صراعًا عسكريًا وإراقة دماء. فحروب كثيرة نشبت بين أمم كثيرة ثم نسيت أثارها مع الزمن، كما نشأت عداوات بين في حينها أنها لا تمحى ثم تحوّلت مع الزمن إلى علاقات صداقة وتعاون مثمر. الخسائر التي نجمت عن الحروب الصلبية لم تقتصر على الصدام المسلح; كانت الخسارة الكبرى الأولى والأهم خسارة فكرية. نتجت عن تسليط الفكر الأوروبي ضد العالم الإسلامي عبر التصوير الإرادي المشوه والكرهي لتعاليم الإسلام ومعناها العليا. فحتى يستمر الزخم الداعي لاستقلال الحرب الصلبية، دمغوا الرسول بالمصائب كربهة، وادعوا أنه معاد للمس히، ووصفوا ديانته بلصع الأوصاف، وأنها منبع الشرور الأخلاقية والانحراف والشذوذ. وكان زمن الحرب الصلبية هو الزمن الذي أثير فيه في أنحاء أوروبا أن الإسلام دين حرام خالص وعنف وقسوة، وأنه دين طقوس لا دين تطهر من القلب. دخلت كل تلك الأفكار الشاذية عن الإسلام الفكر الغربي، ولم تخرج منه بعد ذلك أبدًا، وكان أيضًا ذلك العصر الذي حول فيه مصطلح الحرب الصلبية اسم محمد (ع.ج.ف). وهو محمد (ع.ج.ف) الذي عُلّم السلف أن الإيمان بِنَمْ سبقه من الرسول من شروط الإسلام على سبيل الذريعة والأذراء إلى «ماهوند»، كانت روح البحث الموضوعي مازالت في علم الغيب بالنسبة لأوروبا، كان من السهل على القوى المسطرة على أوروبا أن تبني نظرية الكراهية السوداء لدين وحضارة تختلف عن دينها وحضارتها. ولذلك لم يكن من المصアナ أن مؤلفات «تشانسين دي رولان» المحدرجة، والتي يصف فيها النصر الأسطوري للمسحيين على المسلمين، «الكفار» في جنوب فرنسا، قد كُتبت بعد تلك المعركة بثلاثة قرون، وقبل الحرب الصلبية الأولى مباشرة. وتحولت بعد ذلك لتصبح مثل التشديد القومي لأوروبا، وليس من قبّل المصادر أخرى أيضًا، أن قوة الحرب الصلبية كانت علامة فارقة في بداية تكون الثقافة الأوروبية المشتركة، والتي اختلفت عن الثقافات السابقة المحلية: لقد كانت كراهية الإسلام ومعاداتها مهد الحضارة الأوروبية التي زعمت عليه.

إنه لن سخريّة الأقدار - تاريخيًا - أن يظل ذلك العداء للإسلام - الذي كان دينيًا في منطنه - موجودًا في لا يعنى أهل الغرب حتى بعد أن فقدت المعتقدات الدينية زخمها
وقوتها لديه. ولا يبعث ذلك على الدهشة في حقيقة الأمر؛ فنؤمن نعرف أن المرء قد يتخلى عن كل معتقدات الدين التي ورثها وَبِنَقَلُ إليه في طفولته، بينما تظل بعض المشاعر العاطفية التي ارتبطت بتلك المعتقدات ماثلة في ذهنه بطريقة لا عقلانية تُعادي المنطقة بقية أيام حياته - وهذا هو ما حدث بالضبط لشخصية الجمعية الغريبة. أشباح وظلال الحرب الصلبية مازالت تحوم في الغرب حتى اليوم، بمازالوا يتعاملون مع الإسلام بروية تحمل بقايا ذلك الشبح العنيف...

ظل صديقنا صامعًا لفترة طويلة. مازالت أذكر هيئة الطويلة النحيلة وهو صامت يذره الغرفة جيدًا ولا يزال، يده في جيبه معطية، يهتز رأسه كما لو كان مفاجأ، وقال أخيرًا: "يَقْدِ مَوَانِعُ هُمَا مَا، وَقَدْ تَقُولُ الْفَتْحُ، وَقَدْ يُقَدِّمُ أَنَّى لَيْ بِالْحِكْمَةِ عَلَى نَظُورِكَ، بَارْجُالٍ أُرْسُلُ، وَإِنَّ الْأَيَا حَالًا، أَلَا يَرَى عَلَى ضَوْءِ مَا ذَكَرْتَ لِى عَنَ حَيَاكَ، وَلَمْ تُرِدْ أَنْ تَشْرَكُمْ معَكَ فِي هَذِهِ الْجِيْبِ، مَا تَا، يُقَدِّمُ أَنْ تَكْبِرْ قَصَةَ حَيَاكَ؟ أَنَا أَلَّوْقَ يَقِيَ أنَّا سَتَتَكُنُ مِن الْمَكَّةِ.

أُحِيَتْهُ ضَاحَكًا: "حَسَنُ، كَأَنْي أَفْرَا نَفْسٍ بَيْنِ الْوَلَدِ الْدِّيْلَمَا، وَأَضْعَ مِثْلُ ذَلِكَ الْكَتَابَ، أَفَرَغَ مِنْ أُمَّ شَيْ، فَالْكِتَابَ حَرْفَتُ الْأَسْاسِيَّةٍ ...

وَالذِّي لاَ تُسَبِّحُ مَثاُلًا فَقُدْ تَقَدِّمَ الْمَزَّةُ جَانِبَهَا الْمَا، وَبَيْنِ آوْنَهَا، وَلَوْ لَمْ تَقْصِي ضَئِيلًا، فِي رَفْعِ تِلْكَ الحُبُّ السَّمِيْكَةَ، وَالأَسْتَارَ النِّفْثُ الَّتِي تَفْصِّلُ الْإِسْلَامَ وَحَضُورَهُ عَن الْأَقْلِ الْعَرَبِيِّ. لَكَمْ كَانَ طَرِيقًا إِلَى الْإِسْلَامَ فَرِيدًا مِنْ عَدَّةِ أَوْجَهٍ، فَإِنَّا لَمْ تَحْوَلَ إِلَى الْإِسْلَامَ لأَنَّى عَشَتْ زَمَنًا طِويلاً بِهِ مُسْلِمِينَ، بِلْ عَلَى الْعَمَّ - قَرْنُتْ أَنْ عَيْشَ بِيْنَهُمْ لَأَنَّ عَتْقَتْ الْإِسْلَامَ.

أَلَا كَأْنَ أَكْثَرَنَّعًا مَثَلًا لَّيْحَقَتْ بعَدْنَا مِنِّ الْفَهْمِ المُشْتَدَّ بِالْإِسْلَامَ وَعَوْامَ الْعَرَبِ، بِتَقْدِيِمِ تَجَارِبي الْخَاصَّةِ جَدًّا لِلْقَارِئِ الْعَرَبِي، أَكْثَرَ مِنْ النَّفَعِ الَّذِي أَقَدَمَهُ فِي الْعَمَلِ الْدِّيْلَمَا، وَالَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَقْمَ بِرَجَالِ أَكْفَاءِ غِيرِهِ مِنْ أَبَنَاءِ الْبَلْدَ الَّذِي أَقِمَهُ؟

15
ففى كل الأحوال يمكن لأى امرئ ذكر أن يتمثل باكستان لدى الأمم المتحدة - ولكن
كم من الرجال بمقاربة مخاطبة المواطنين الغربي ببعض مكانتها المثلية كما يمكن أن يتألق أنا مسلم - إلا أنني أنتهى إلى الغرب - وبذلك يمكنني أن أتكلم بلغة واعية مفهومة
للمسلمين ولأهل الغرب...

وهكذا، قرب نهاية عام 1952 استقلت من عمل بوزارة الخارجية الباكستانية
وبدأت في كتابة هذا الكتاب، ولا أرى إن كان سيشكل «قراءة ممتعة» كما توقع
صديقى الأمريكي أم لا. لا أستطيع إلا أن أعيد استشارة (تنشيط) ذاكرتي -
مستعينا فقط ببعض المذكرات القليلة، وببعض البيانات المتناثرة، وببعض المقالات
الصحفية التي كتبتها أثناء تلك الأحداث التي واجبت حياتى الماضية - وأغمض الخيوط
المتشابكة في ذاكرتي عن أحداث حياتى، تلك الخيوط المتدة لأعوام كثيرة، وبامتداد
مساحات شاسعة من الجغرافيا.

هذه ليست قصة حياتى بأجمعها، ولكنها عن السنوات التي قضيتها بالجزيرة
العربية قبل أن أنتقل إلى الهند - تلك السنوات المثيرة التي قضيتها مرتضى بين كل دول
المنطقة على وجه التıcير من أقصى صحراء ليبيا حتى مرتفعات باميرز المغطاة باللبيد
في أفغانستان، وبين مضيق البوسفور حتى بحر العرب. لقد ذكرت في النص - ولأبد
أن أظل ذلك في الأذهان - المدى الزمنى الذي استغرقته آخر رحلة صلاحية من
أعمق الجزيرة العربية إلى مكة في أواخر صيف عام 1932؛ فعلى مدى تلك الأيام
الثلاثة والعشرين اتضح في ذئنى تمامًا نمط حياتي وما أحب أن أكون وما أود أن
أحقق عبر تلك الحياة.

والجزيرة العربية الموصوفة والمصرورة في هذا الكتاب لم يعد لها وجود. تدعى
تفردها وتنكملها تحت تيار النفط المتدفق وما جلب من عوائد. بساطتها التامة اختفت
وتلاشت، وعذخت معها الجوانب الإنسانية الفريدة من الفطرة. ومع الألم الذي تحسه بفقد
الأشياء الثمينة، التي تفقدها إلى الأبد، مازلت أذكر مسار رحلتي الأخيرة عبر
الصحراء، حين سرننا، وسرنا، كنا رجلاً على نافتين، عبر الأضواء السابقة في الصحراء....
الفصل الأول

العطش

ركوب مواصلات يبدو بلا نهاية، رجلان على ناقتين، وشمس ملتهبة
حارقة، كل شيء يسبح في ضوء مبهر قوي، كتيبان رسلية تعكس
أضواء حمراء وبرتقالية تبحر البصر، كتبان بعد كتابين بلا نهاية.
وحدة وصفت محرقة، رجلان على ناقتين يتأرجحان في رpsilon لا
يتغير إيقاعها على وقع المُطي الذي تُجلب الثغس، تجعل تنسي
في أي يوم آخر، وتنسي الشمس المرحقة، والرياح المُلتهبة.
والطريق الطويل الذي لا تبدو له نهاية.

[1]

مجموعات متناورة من حشائش جافة صفراء تنمو على حواف الكثبان، في أماكن
متباعدة تتائر أشعار الحمدة وتشكل على الرمال أشكالا تشبه أفعا عملة، الحواس
كلها في غشية ناعسة، الجسم يتحمل على سرجة الناقة، لا يصل الإدراك عبر السمع إلا
صوت انسحاق الرمال تحت أخفاف الناقة، وصوت احتماك كلافة ركاب السرجة
بالركبتين. الوجه ملثم بالفطرة للحماية من الشمس والرياح المحملة بالرمال، تشعر كما
لوكنت تحمل وحدتك مثلا تحمل الأغراض المادية المحسوسة، عبر ذلك الإحساس
الشيق بالوحدة - عبره تمامًا تختلط الأفكار.. حتى أبار تايم، أبار تايم المظلمة
أعمالها، إلا أنها تهب الهدوء الذي يرفي لهيب الظلام...
سمعت صوتًا: "لا بد من عبور التفود حتى نصل إلى تايماء..." لم أدر إن كان هائطًا طاف بذهني أم أنه صوت مرافقتي سانده: "هل قلت شيئًا يا زيد؟".

رد مرافقتي: "لا يوجد من يجازف بعبور التفود فقط من أجل زيارة منطقة أبار تايماء، إلا أن بالطبع...

كنت عائدة برقة زيد من منطقة قصر التايميين شمال نجد على تخوم العراق، بعد أن أنهيت مهمة أسرنيها إلى الملك ابن سعود، في وقت أقصر من المتوقع، ووجدت أن أمامي وقتًا متوفرًا أقصيه أيضًا شئت، فقررت أن أزور واحات تايماء القديمة، والتي تقع على مسافة بعيدة عن موستعنان الذي كنا فيه، مسافة ترسب على مائتي ميل إلى الجنوب الغربي. واحات تايماء المذكورة باسم تايماء في العهد القديم، والتي قال عنها النبي أشعيا، "وشبع تبا الأما أعطاه ما حين كان مظلماً". جعل ماء تايماء الغزير وأبارها العظيمة التي لا مثيل لها في كل الجزيرة العربية، منطقة تجارية كبيرة قبل الإسلام فكانت مقصد ومحط ترحال القوافل السارية في أرجاء الجزيرة العربية وموطنًا للثقافة العربية المبكرة. تسوّقت قبل ذلك كثيرًا لزيارة تلك المنطقة، لم أسكن المسالك والدروب الالتفافية الطويلة التي تسلكها القوافل للوصول إلى تايماء، اتخذت طريقًا مباشرًا من قصر التايميين عبر قلب صحراء التفود الكبرى، ذات الرمال有多رة المتعددة على مساحات شاسعة تفصل بين الأراضي المرتفعة وسط الجزيرة وبين صحراء سوريا. لا تطرق ولا مداوات ولا أثر للسهر في تلك البحر الشاسعة من الرمال الحمراء الملفقة. تتولى الرياح مهمة إزالة أي آثار على سطحها لقدم بشر أو حيوان، لا يبقى أثر يسترخى به من يقطعها أو من تحمله أقداره على اختراقها. تحت رقع هيبات الرياح التي لا تتقطع تتغير أشكالًا ومواضع كتبان الرمال على الدوام، تنتقل في إيقاع بطيء إلا أنه مستمر ودوى، غير محسوس لكنه لا يتوقف، وتندبر أشكالها من شكل إلى آخر، ومن موضع إلى غيره، تتتسكع التلال الرملية وتتحول إلى ودبان، وتتركم الرمال في وديان فتحولها إلى كتبان، تترشحها حشائش صفراء جافة ميتة، تصدر أصواتًا خفيفة واهنة عند هبوب الرياح، أعشاب ذات طعم مُر تعاونها حتى الإبل.
على الرغم من أنني قد قطعت تلك الصحراء قبل ذلك في اتجاهات مختلفة ولأسباب متباينة، فإنني لم أغرِّب على عبورها بمفردي دون دليل من الدبو، وهكذا كان زيد دليلى ورفقى في تلك الرحلة.

كانت تلك المنطقة موطنه وموطن قبيلته؛ فهو من قبائل شمار، التي تحيا على المشارف الشرقية والغربية لصحراء النفود الكبرى. وبين تجاعيد أعمار الانتهاء المفاجئة الغفيرة، تتحول تلك الكثبان الرملية إلى مروج تمرج بالعشب والكلأ، تفرِّع قبائل شمار إيلها على ذلك الكلا عدة أشهر من كل عام. كانت تلك الصحراء تسرب في nous زيد، كما كان قلبه يخفق متشابحاً مع نبضها.

ربما كان زيد واحداً من أبرز من قُبِل من رجال الجزيرة العربية: جبهة عريضة، ودِين نحيل، قائمة متوسطة الطول وممشوقة، مليء بحيوية فائقة. فوق بشرته قمحية اللون تبرز وجثة في قوة، وشُفتان مزمنان في حزم يزيد من جاذبيته، في أن واحد تختلط أممات الحزم بالجمال الحسي مما يكون جاذبياً مميزاً لبعض صحراء العرب، عدا الاعتداد بالذات ومذبة إنسانية جميلة وصادقة. كان زيد خليطاً رائعاً من الطبيعة البدوية وحياة الدبابة في نجد، إلا أنه احتفظ في أعماقه ببقين الشاعر الفريقية البدوية وصدقاته فلا انفعالات سريعة الارتداد، كما اكتسب الحكمة العملية التي تثير أهل الدومن أن يكون ضحية لأفاف حياة الدومن المعاصرة. كان يشق الغيامات مثله دون اختلاف ولا اصطلاح. منذ نعومة أطلوره امتثالاً جاذبة بالأحداث الثيرة: فقد كان صبيًا مقاتلاً ضمن فرقة غير نظامية من قوات الجبال الركاب كانت تتعاون الحكومة التركية في شبه جزيرة سيناء أثناء الحرب العالمية الأولى؛ ثم محارباً بين الدافعين عن موطن قبائل شمار ضد قوات ابن سعود، ثم عمل مهربًا للسلاح في الخليج الفارسي، وعاشقاً جموعًا لنساء كثيرات في مناطق مختلفة من العالم العربي (كن بالطبع زوجات شريعيات، ثم بنلقتهم)، وعمل بتاجرة الخيول في مصر، ثم جندية مرتزقة بالعراق، وفي الأعوام الخمسة الأخيرة، كان مراقباً لمي في انتقال عبر أجزاء الجزيرة العربية.

الآن، في أواخر صيف 1932، كنت نرتحل معاً، كما فعلنا كثيرًا من قبل، نشق طريقنا عبر الكثبان الرملية الموقعة المقفرة توقفنا كلما وصلنا إلى أحد الأبار التي
تقدمها عن بعضها مسافات طويلة، تستريح ليلاً تحت قبة من نجوم ترقص السماء، وفي الأذان صوت أبدى رتيب لوقع أقدام الإبل فوق الرمال الساخنة: وأحياناً، يرتفع حواء زيد منشداً بصوت أصيل على وقع خطى الإبل: تستريح ليلاً. بعد زيد القهوة العربية ويطحى الذرة، وتتعرض أحياناً منافسات عنيفة، يذهب النسيم البارد على أيدانا في هؤلاء الليل ونحن مدمن على الرمال؛ ثم تشرق الشمس من بين هامات الكثبان الرملية، حمراء كالاء، ثم تتصب حرارتها بعنف كالألعاب النارية، وأحياناً أرى معجزة انتباع الحياة في الأشجار التي تبدو ميتة وجافة حين تنساب إليها قطرات من الماء بالمصادفة.

كنا قد توقفنا لأداء صلاة الظهر. وبينما كنت أتوضأ من قرب ما، تساوالت قطرات على بقعة من حشائش جافة بين قدمي، مجموع من سيقان الحشائش الجافة الباهتة، صفراء ذابحة بلا حياة تحت حرارة الشمس وحشة. حين تساوالت عليها قطرات الماء، بدا كما لو كانت رعشة تسري في أنف أنوراتها الجافة المتغضنة، رأت أوراقها وأنا مشدوة وهي تتفتح ببطء وارتفاع. نثرت قطرات ماء أخرى عليها، تتحرك أنسال أوراقها واستدامت ثم استنفرت ببطء، باستحيا وتردد... كتبت أنفساني دهشة وأنا أصعب مزيداً من الماء على بقعة الأشجار. تتحرك أسرع وانفردت سيقانها المائلة واستنفرت أوراقها بحيوية أشد. كما لو كانت هناك قوة خفيفة تدفعها للاستيقاظ من أحلامها الليلة بالموت والنفاذ. كان مشهدًا رائعًا لا يمكن أن ننساه، بدأ أنسال أوراق الأشجار الضيقة تتهدد كما تتعدد أطراف نجفة البحر، كانت مخزودة بشروخ خفيفة لا يمكن كيج جماح متعتة، احتفاء جامع من الليلة الحية: عادت الحياة منتصرة إلى ما كان يبدو من لحظات من الموتى. رآيت ذلك وقع تحت بصري، حدث بانتقاد مشبوه، بقوة طاغية تتوقع إلى الحياة، وتُفوق في فتحتها وعزمتها القدرة على الفهم والتفهير.

لا تحس بعظمة الحياة وسطتها، إلا في الصحراوات. الاحتفاظ بالحياة صعب وعسير في الصحراوات، والحياة فيها كاللهبة، كالكذب، ودائماً تحمل باللمفاجات. تدشّك الصحراء على الدوام بفماجاتها حتى لو كنت كتاباً بها لأعوام طويلة، لا تكف أبدًا عن
إظهار المفاجأة المهيبة وفي اللحظة التي تظن فيها أنك قد أخطت بها بقوسِها وقفرها، تجدها تستيقظ من حلمها، وتهب أنفاسها ورحتها، وتجد عشيًا قد ظهر في موضع لم يكن به في اليوم السابق إلا شظى حمص ورمال. وتتبع أنفاسها مرة أخرى فترى أسراً من طيور صغيرة تحلق وتتحول في سمائها... من أين؟ وإلى أين؟ طيور ضئيلة بأجنحة طويلة، خضراء زمردية راهية، وأسراب من جراد تظهر محلقة في السماء فجأة، تبدو وتنتاب في سرعة، رمادية كالحمرة، بإعداد لا تنهياء كحضود المقاتلين الجائعين...

تجد الحياة في الصحراء في أورج عظمتها وتدفقة وحيويتها: عظمة التنوع، دائمًا ما تثير الدعابة والحيرة: في هذه الصحراء يكن شذى الجزيرة العربية الذي يصعب تسميته، كما يكمن في ربيع صحاريها الأخيرة، يحبس في التغيرات الدائمة في قفارها الشاشعة، في مواقع منها تجد أرضًا صخرية نارية للنماض، صخور سوداء ذات سطح خشن، ثم كثبان رملية تبدو بلا نهاية، ووديان بين جبال صخرية، تغليها أعشاب شوكية، ينشق فجاً من بينها أزنب برى مذعور يمرق كالسهم وتمر أمامك كالبرق، ثم مناطق من رمال ناعمة تبرزها آثار أقدام غزال البراري، وقطع أحجار أسود لونها، استعملت كموقد للطهر أو إعداد القهوة، أقامها عاشر سبيل طهوا عليها طعامهم في أزمان لا تعرف مداها؛ ثم قرية صغيرة بين أشجار نخيل في منطقة أبار تعلوها بكرات خشبية تسبح عليها دلاء الماء بالحمل من أعمقها، بكرات تصدر أصواتًا كأنها موسيقى رائعة للآذان المتعطشة وكأنها تغني للحلف الجافة التي أنضاحت العطش: وقد تجد بئراً في واد صحاري، يتجمع حولها رعاة البدو لتكبير قطعان ماعزهم وإبلهم العطشى، ترتفع أصواتهم بغناء جماعي، وهم يرفعون الدلاء المليئة بالمياه والمصنوعة من جلد من أعمق بئر مليئة بالمياه، يسبكون ماء الدلاء في أحواض السقي المصنوعة من الجلد والتي تقلل عليها الأذان والإبل العطشى في شغف وحبور.

ثم من جديد سهوب شاسعة جرداء تلوها شمس حارقة دون رحمة؛ وتجمع مجموعات أعشاب ذابلة خشنة صغيرة، ونباتات مشرقة زاهقة على سطح النماض المليئة الأفريعة

21
كالأشخاص كأنها تشير بإيماءة ترحيب بالإبل الجائعة، ثم شجرة أكاسيا وحيدة تدغصونها في رحابة تحت سماء بلوى السحب الأزرق. من بين الروابي والكتل الصخرية تظهر فجأة سحالي ذات لون ذهبي يشع عندها أنها لا تشبر ماءً طوال حياتها، تدور عيناها مبتسماً ويسارًا في نظارات جائزة، ثم تختفي فجأة كما تختفي الأطباق والأشباح.

في فروع جبال صخرية تنتمى شيمور مصنوعة من جلد الماعز السوداء، وقطع من الإبل يمسى إلى مرابطة قبل غروب الشمس، راعي القطع يقوده فوق بعير يركبه بلا سرج، حين تتعقب أصوات الهواء لجمع القطع ودفعه للمسير، يتصاعد الفراق اللانهائي أصواتهن ونداءاتهن وتبثبها بلا صدى.

تلمح أحلى أشياء وأبطالاً عند الأفق البعيد: ترى أم سُحُب أم غيم كثيفة تقترب الأشباح واصلة مغيرة ألوانها ومواضعها من لحظة لآخر، ثم تتخذ شكل جبال بنية رمادية إلى أنها طافية في الهواء كالسحوب، ترفع قلباً فوق خط الأفق، عند الاقتراب منها تبدو كامعة صخرية من دبابيس عملاقة ذات قم مدببة عالية في الهواء، ثم تخفض تلك الأشكال وتقترب من أرض الأرض وتطفل إلى أشكال بحيرات وأنهار متدفقة ترعش على سطوحها اللامعة أشكال جبال وأشجار، مياهها تدومك إليها وتتبعك باتجاهها، ثم تكتشف فجأة أن ذلك من مدافعين الجن، وأن ما تراه ليس إلا سرايا طالما أضمها بالمرتين إلى أمال زائفة مخادعة ثم إلى الهلاك: في تلك اللحظات امتدت يدي بلا إرادة مني لتحمل جمال الماء الماء الملة بسرج الناقة...

هناك ليل تحمل بأنواع أخرى من المخاطر، قد تكون في منطقة قبيلتان متحاربتان يغيران على بعضهما ليلة، حينئذ مدأ أن تتجرب إشعال النار ليلة، يظل يظلَّ طول الليل حادًا كل حواسك وينتيك بين ساقيك. في المناطق التي يسودها السلام قد تلتقي بعد تراح طويل بقيق، وفي الليل تستمع إلى أحزان وهموم المتحليين حول النيران، رجال لوح الشمس وجههم: يتحدثون عن أشياء عظيمة كما يتحدثين عن أمور بسيطة، عن الحياة والموت، عن الجوع والتخمة، الفخر والحب والكرامة، عن الترق الشديد وشُهْوَة البدين وإرهاز ظمُّ الشهوات، عن الحرب، عن غياب النخيل في قراهم.
الثانية، لا تسمع أبداً حديثًا يافعًا يخلو من معنٍ، ولا ثرفة حوارية لزجاج الوقت.
فالمرء لا يسمع الثرقة بلا معنى في ترحاله عبر الصحراء...
في أيام العطش يلحن عليك نداء الحياة، حين يتصرق لسانك بسقف فمك ويصبح مثل حطبة جافة، ولا يظهر في الأفق أمل غير رياح السموم اللافحة وعواصف الرمال.
في أيام أخرى، حين تحل ضيفًا على مضارب بدى، ويقدمون إليك آنية مليئة بحلب دسم من إناء النوق في بداية الربيع، حين تزهر الأكام والكتبان وتطويها الخضراء بعد فصل المطر وتغدو قطعان الحيوانات وأثاثها ثقيلة مليئة بالليل، ومن ركن الخيمة تسمع أصوات نساء ضاحكات وهن يطهون خروفًا على النار، نبروه إكرامًا للضيف.
مثل كرمة من الحديد الأحمر تتراورى الشمس خلف التلال الرملية، في اللساء تبدو السماء مكتشطة بالنجوم، وتبدو أعلى وأعمق من أي سماء تبدو في مكان آخر من العالم; نتام تحتها نومًا عميقًا يخلو من الأحلام، ثم يحل الفجر الرمادي الشاحب بشممات باردة حتى يحل صباح ساطع الضياء، ليالي الشتاء باردة، حفقات رياحها الباردة تهب على مخيم المرحلين المتجمعم حول النار بتكاثرون من بعضهم طلبًا للدب: أيام الصيف حارقة وأنت ترتحل على ظهر غريب تثير على وقع حُصاء، الوجه مثخن بالكوفية للوقاية من الرمال الساخنة التي تذروها الرياح، تتغوص حواسك في غلاف من النعاس، بينما يحوم فوق رأسك طير مفترس في خطوط ترسم دوائر على صفحة السماء.

مرَّ العصر منسنيًا ببطء بكثبانها وصمته ووحدة تغلفنا. بعد فترة، قطع الصمت التقاطعا ببدو مرحلين، أربعة أو خمسة رجال وامرأتين يركبون الجمال، ويسحبون بغلاً يحمل على ظهره خيمة سوداء مطوية، وأوانى طهور وأدوات متباهية، ويعتلى كل حمولة البغل طفلان. حين اقتربوا توقفوا على مسافة منا:
- السلام عليكم.
رددنا: «عليكم السلام ورحمة الله».
سألونا: «إلى أيّن؟»
أجيبنا: «تآمأ، إن شاء الله».
سألونا: «من أيّن؟»
أجيب: «من قصر التايمين».

ساد الصمت بعد ذلك، كان المتحدث شيخًا ضئيل الجسم، حاد الملابس بلحية سوداء مدببة، كان كبيرهم: نظراته الحادة الثاقبة مرت على وجه زيد في تمعن، ثم استقرت في ربيعة على وجه ساره، سارت عليه، أجنبي نور بشارة بيضاء يظهر باب توقيع قادماً من مكان مجهول في تلك الديرة المفقرة، أجنبي قادم من بلاد العراق التي يحتلها البريطانيون، وقد يكون (قرأت أفكاره التي ارست على صفحته وجهه) كافراً يقحم أرض الجزيرة خفية، راحت أصابعه تعبث في حيرة بمقدم سرح نافقة، بينما التف حولاً باقى جماعته بغير نظام، كانوا ينتظرون ما سيقوله. بعد لحظات، بدأ من الصعب عليه أن يحمل صمته أطول من ذلك، فسألنا:

«من أي عرب أنت؟»

كان يقصد إلى أي قبيلة أنتم، ولكن قبل أن أتمكن من الرد، أضاءت ملامحه
ابتسامة مفاجئة ذات على تذكره لي:

«أوه، تذكرتك تواً، لقد رأيتك بصحبة عبد العزيز، ولكن كان ذلك من زمن طويل
مضي - ربما من أربع أعوام...»

فرد ذراعه علامة على الترحيب والود، وتذكر الأيام التي رأني فيها في القلعة الملكية في الرياض، كان قد أتى إلى الرياض كزعيم لقبائل الشمر معنًا ولاء قبيلته لأبن سعود، كان البدو عادة ما يكترون أنه أديمه الأول، عبد العزيز، بلا ألقاب رسمية ولا
صفات تشريف: فهم في تلك الأيام وفطروا برون الرجل في الملك قبل أن يروا الملك في

24
الرجل، كانوا يجلوته بلا جدال في إطار ما تفرضه البيئة الصحراوية. رجنا نتبذل الذكريات، ونتحدث عن رجال عرفناهم، نتبادل الطرائف وما إليها، عن ألف ضيف في ضيافة الملك، يتلقون عند حزيلهم الهبات والهدايا التي تختلف من ضيف إلى آخر حسب مكانة: من حصانة من النقود الفضية أو عباءة إلى أكياس مليئة بهدايا ذهبية، أما الخيول والجمال فقد كان غالبًا ما يمنحها إلى زعيم القبائل.

لم يكن كرم الملك وسخائه ينبع من خزانته بقدر ما كان ينبع من قلبه وأريجته. كان صدق مشاعره وحميميتها أثمر من أي هبات أو هدايا وهو ما جعل كل الشعب يلفح حوله، بمن فيه من أبا بالطبع، فقد أحبته حبًا صادقًا. فعلى مدى أعوام إقامتى بالجزيرة العربية، كانت صداقة ابن سعود لي مثل ضوء دافئ يغمر كل جوانب حياتي.

كان يناديوني بصفة الصديق، كما كان يعاملني بهذه الصفة، ذلك على الرغم من كونه ملكًا وكان لست إلا مراسلاً صحفياً. كنت أناذي بدورى بلبقي الصديق، لا بسبب ما أظهره تجاه طوال فترة إقامتى في مملكته فقد كان ذلك جميلاً من خصائصه تجاه كثيرين من اصدقائي، ولكن لأنه كان يفتح لي قلبه ونفسه في مناسبات كثيرة، تماماً مثلما كان يفتح خزانته لكثيرين من أبناء شعبه. كنت أحب أن أناذيه بلقب الصديق، فعلى الرغم من أخطائه - وهي ليست كثيرة - كان رجلاً لا يضارع. لم يكن فقط "طيب القلب"؛ فطيبة القلب وحدها أحيانًا ما تبدو رخصصة، وما أعجبني في شخصه يماثل من يعجب بنصل سيف دمشقي قدم، فاسيف الدمشقي سلاح "جيد".

فهو يجمع كل الصفات التي تتطلبها من سلاح من ذلك النوع. وكذا كنت أعد ابن سعود رجلاً جيدًا، فقد كان صادقًا مع ذاته ومنسفًا معها في كل سلوكيات، ودائماً ما كان يضحي لتحقيق ما ارتأى بعزيمة صادقة، وإن أخطأ في جانب ما، فلأنه لم يحاول أبداً أن يكون شيئًا آخر غير ذاته.

* * *

كان أول لقاء لي بالملك عبد العزيز بن سعود في مكة بعد أيام عام 1927، كان ذلك بعد اعتناق الإسلام بعدة أشهر. وكان أيضًا بعد موته زوجتى المفاهمين.
كانت بصحتي عند أول جمع لي، وأحدث رحيلاً الفاجعة في نفسى تأثيرًا شديداً، شعرت بالمرارة واجتبت الناس، واعتزلت كل معارف؛ حاولت مرارًا أن أخرج من تلك المرحلة المؤللة من حياتي وأتنى وحدتي الوحشة. كنت أقضى جل وقتى وحيدًا بمسكنى؛ متجنبًا كل البشر إلا أقل القليل منهم، وعلى مدى أسابيع طويلة لم أقم بزيارة مجاولة للقصر. ثم قمت ذات يوم بزيارة واحد من ضيوف ابن سعود من الأجانب وهو الحاج أجنوس سالم من مسلمي أندونيسيا - قبل لي أثناء تلك الزيارة إذ بناء على أمر الملك تم وضع اسمى على قائمة ضيوفه - ويبعده أنه قد نما إلى علمه سبب تخلفي عن الحضور إلى قصره قبل ذلك، وأنه تقبل ذلك بصمته الفاصلة سهيلة، وهكذا، كنت صيدًا لم يتسلن له أن يرى ماضيتي من قبل. توجهت في المورد المحدد إلى بيت جميل في جنوب المكة يقع على حافة صخرية تشرف على بداية الطريق المتجمد جنوبًا إلى اليمن. من شرفات المنزل الربح تبدو أجزاء ومناطق عظمى من المدينة: مآذن الكعبة، آلاف من البيوت تبدو ككمبكتس بيضاء وأسوار شرفات أسطحها مشيدة من أحجار ملونة، خلف البيوت تبدو تلال الصحراء الساقطة تعلوها سماوات متواجدة كعذاب منصورة.

ربما كنت سامتدي في تأجيل زيارتي لقصر الملك، لو ما أكن قد التقى بالأمير فيصل مصافحة، والأمير فيصل هو الابن الثاني للملك عبد العزيز، والتقت به في مكتبة الكعبة الواقعة تحت العقود المحيطة بها. كنت أشعر بممتنا الجلسوس في تلك القاعة العمدية التي تسمى على جدرانها خزائن المخطوطات العربية القديمة، عدا المخطوطات الفارسية والتركية: وكان الهدوء المخيم يدخلها وضوئها الخافت يبيتان في نفسى مشاعر من الدمعة. في أحد الأيام، كسر الصمت المكين حفيق ملايس وهمس رجال تسقيهم مجموعة من الحراس: كان الأمير فيصل يقطر في مروره المعتاد من خال للكبة. كان الأمير فيصل طويلاً ونحيلًا وعليه سبما الجلال والمهابة التي تتجاوز عمره البالغ ثم وعشرين عامًا على الرغم من أنه كان بل لحية، ومع صغر سنه، فإنه كان حاكماً للحجاز نائبًا عن الملك بعد أن غزاها الملك وأخضعها لحكمه قبل ذلك بعامين (كان سعود، ابن الملك الأكبر وولي العهد، نائبًا للملك على نجد)، وكان الملك يقضي نصف العام في مكة، عاصمة الحجاز، ونصف العام الآخر في الرياض، عاصمة نجد).
قام أمين الكتبية، وهو أحد باحثي مكة من الشباب جمعتني به صداقة لحين من الزمن، بتدعمي إلى الأمير فيصل، فصافحتني، وحين أنتهيت أمامه، مديبه ورفع هامته بلطف وابتسامة دافئة تضيء وجهه قائلاً: «نحن أهل نجذ لا نحب أن ينحني رجل أمام رجل آخر، لا ينحني الرجل لغير الله»، بدأ عطفاً رقيق الحاشية، حاملًا بشكل ما مع بعض التحفز والحياء.

برحنت الأيام بعد ذلك على صدق انطباعي الأول عن الأمير فيصل بعد أن عرفته شخصيًّا معروفة وثيقة دامت لأعوام، كانت هيبيته ونيل سلوكه طابعًا أصيلًا في شخصيته غير مفتعل ونابع من داخله، حين تبادلنا الحديث في ذلك اليوم في مكتبة الحرم، شعرت فجأة برغبة عميقة للقاء من أنجب مثل ذلك الأمير.

قال الأمير فيصل: «سيسير الملك لقاؤك، لماذا تتجنب لقاءً حتى الآن؟»

في الصباح التالي أتى مساعدًا الأمير في سيارة لاصطحبني إلى قصر الملك. شقت السيارة طريقها عبر شارع العالي التجاري المزدحم بصويرة، كان الشارع مزدحمًا بالإبل، وكان مركزًا لبيع السلع البديوية بمخلف آزوعها - سروج إبل، عبوات طنافس، قرب مياه جلدية، سيوف ذات أفكرة فوضية، خيام، أباريق القهوة النحاوية - أفضى الطريق التجاري عند نهايته إلى طريق آخر أبعد وأورع وأرضح، حتى وصلت السيارة إلى دار كبيرة يقيم بها الملك. كانت أمام الدار أعداد كبيرة من الإبل المسجرة، وعد من الحراس المسلحين وساحة إبل يعنون بها وكان من الواضح أنها إبل ضيوف الملك، انتظرت في قاعة فوضوية ذات عمد على أرضها أبسطة عادية، وحول الجدران صفت آرائك رحبة مغطاة بمفارش كافية اللون، ومن النوافذ بدأ غصون خضرة لأشجار تقع خارجها، أشجار زرعت بشقة ونقاء في تربة مكة العصبة الزرع، ظهر عبد أسود قائلاً: «الملك يدعوك». دخلت غرفة أخرى أثل مساحة وأكثر إضاءة، وأحد جوانبها مفتوح بأجمعه على الحديقة. كانت الأرض مغطاة بطنافس فارسية ثمينة، وكان الملك جالسًا تحت نافذة عريضة تطل على الحديقة، مربعاً ساقية على ديوان عريض؛ تحت قدميه جلس سكربر يلتقي تعليماته ويدونها. حين دخلت
نيبيب قادراً ذراعيه في ترحيب قاله: "أهلاً وسهلاً"، وهي تعني للضيف أنه إذا نزل بين أهل له، وأنه يخطو في سهولة ويسر حيث شاء، وهي من أقدم وأبرع عبارات الترحيب العربية.

تطلعت في تعجب لقامة ابن سعود الفارعة. وحين لزم وارد أنه وجهته (كنت على دريا بعادات أهل نجد في تخبطة العظام). كان على أن أنشى على أطراف أصابع قدمي، بينما احتني هو قليلًا حتى أتمكن من لثم جبهته، ثم أومأ إلى سكرته الذي جلست من جديد، ثم أمسك يدي وذرني برقة للجلوس إلى جواره. قال الملك: "بهميني دقيقة، أشكي على الانتهاء من هذه الرسالة".

استمر في إملاءه على سكرته في هدوء، وبدأ حوارًا معي، دون أن يخلط للحظة بين ما يُلمع وما يوجهه إلى من حديث، وبعد عدة جمل رسمية، قدمت إليه خطاب تعريف بشخصي، بدأ في قراءته، مما يعني أن يقوم بثلاثة أعمال في أن واحد، دون أن يقطع إملاءه، أو الاطمئنان على راحتي، ونادي الخدم لتقديم القهوة.

أثبتت لي الفرصة أن أتامله عن كثب. كان متناص الأعضاء رغم ضخامته - كانت قامته لا تقل عن ستة أقدام ونصف القدم - لا يبدو طويل قامته إلا حين ينهض واقعًا، كان وجهه، الذي تحيط به كوفية ذات مريحة تقليدية بيضاء وحمراء يعلوها عقال منسوخ من خيوط ذهبية، يحمل أميات الرجولة والقوة. وكانت له حياة وشارك محفوفان على طريقة أهل نجد، وكان عريض الجبهة، ذا أنف مستقيم طويل، أما فمه فقد كان يشبه بالرقة ولا تتهاون، وحين يتحدث يبدو وجهه مفعناً بحيرة فائقة، أما في أوقات صمته فقد كان يبتدي على وجهه حزن دفين، كان ينسحب بآفكاه إلى عالم داخلي فريد، وكانت عيناه العميقتان في محجريهما يشيءان بذلك الانطباع. كان بهاء وجهه يتأثر أحيانًا يتعبير غامض يبتدي من جهة عينه اليسرى، التي كان يبدو على سوادها جزء من بيضاء. وعلمت بعد ذلك برمزم قصة الإصابة التي ألت بعينه اليسرى، التي يتعلق أغلب الناس أنها إصابة طبيعية. أما الحقيقة، فهي أن تلك الإصابة ألت به في ظروف مأساوية، فقد وضعت له إحدى زوجاته من أوعاع طويلة مضت بتحريض من

28
قبلتها التي لم تكن على وئام مع ابن سعود، مادحة سامة في وعاء البخور، وهو وعاء نحاسي يستعمل في المناسبات الاحتفالية لحرق البخور المطر كمامة أهل نجد. كانت تهدف إلى قتله بذلك السم حين يستنشقه، وطبقًا للتقاليد، لابد أن يبدأ البخور أولًا بالملك ثم تمرر بعد ذلك إلى ضيفه. وحين تنشق أول استنشاقه، أحس ابن سعود على الفور أن هناك شيئًا مريبًا في البخور فألقت البخورة بسرعة بعيدًا عنه، كانت يقظته وبداهته سببًا في إنقاذ حياته، إلا أن عينه البسيري قد طالب بها بعض من تلك المادة السرية فتصيبها ذلك التلف وبعض القصور في الرؤية بالعين البسيري، وبدلاً من الانتقام من تلك الزوجة كما يفعل غيره من الملوك والحكم، غفر لها؛ فقد كان على يقين من أنها قد تعرضت لضغوط لا قيل لها بها، وأنها كانت ضحية عائلتها التي تنتمي لقبائل ابن رشيد، كل ما فعله أنه قام بتطبيقها، وأرسلها إلى قومها في حائل، محمولة بالذهب والهيات.

*****

بعد ذلك اللقاء الأول، داوم الملك على استدعائ يوميًا على وجه التقرير، ذهبت إليه ذات يوم وأنو أنيت النية أن أستنثنه في السماح لي بالرحيل في رحلة طويلة إلى أعمق الجزيرة العربية لمشاهد موطنها المختلفة، وكان أمل ضعيفًا في نيل تلك الموافقة: فلم يكن ابن سعود يسمح للأجانب بزيارة نجد كشرع متوازن أصبح له قوة القانون. بينما كانت أهم إدارته عن رغبتهم، سدد إلى نظرة بدت وكأنها تتنذر إلى مكتون خواطرة وأفكاره. ثم اتسم أنيت قائلًا: «هل تأتي معايا يا محمد إلى نجد وتمك معنا بالرياضة بضعة أشهر؟» أصابتى الدشة كما أصابت الحاضرين، فพฤت مثل تلك إلى أجنبي للإقامة في نجد لم تعق من قبل وهو التقرير. أدرف قائلًا قبلي أن أفقي من دهشتي: من الأفضل أن تفقد ومعي بالسيرة في الشهر القادم».

أخذت نفسًا عميقًا، وأجبته: «أطل الله عمرك يا إمام، ولكن مفاتيحة السفر بالسيرة لي؟ ما فائدة أن أنتقل بسرعة من مكة إلى الرياض في خمسة أو ستة أيام دون أن
أشاهد أي مناطق في البلاد خارج الطريق؟ إن أشاهد من السيارة إلا كتبان الرمال، وربما بعض الناس في أفق بعيدة تبدو كالأطياف. إن لم يكن لديكم مانع، فمن الأفضل لي قطع تلك المسافة على ناقة، وذلك أفضل لى من كل الجوانب يا طويل العمر.

ضحك ابن سعود قائلاً: "أبكي هذا الشوق إلى مشاهدة عيون أبناء شعبى من البدو؟ لابد أن أحذرك مقدمًا: فالبدو أناس مختلفون، ونجد أرض صحراوية بلا جمال يميزها عن غيرها، وسرج الجمل ياسب وصلب والطعام شحيح خلال الرحلة - لتجد إلا الأرز والتمر وقد تجد اللحم في أحيان نادرة. ولكن إن شئت واستقر عزمك على ذلك ستترك تضافر بالجمال، على أن حال أتينى لا ينصح الندم على معرفتك بشعبى: إنهم فقراء، وجهلاء، إلا أن قلوبهم مليئة بالإخلاص.

بعد ذلك ب bíسابع، انطلقت من مكة بعد أن منحنى الملك نافتين وزادأ للطريق وخبمة. وأمر بأن يصحبني دليل إيرشدي إلى الطريق ووصلت إلى الرياض بعد شهرين من مغادرتي مكة. كانت تلك الرحلة هي الأولى لي عبر الأرجاء الداخلية للجزيرة العربية، المرة الأولى لركبتها لاحقًا بعد ذلك: أما الشهور التي طلبت من الملك أن أقضي بها معه في الرياض فقد امتدت إلى أعوام - لم أشعر بمرور الزمن، ولم أدر كيف امتدت إلى أعوام قضايتها بين أغلب أرجاء الملكة مرتاحاً من مكان إلى مكان. لم يعد السرج ياسب ولا صلبًا بأي حال...

* * *

قال الوزير صحاب الملامح الحادة وقائد الجماعة المرحطة التي قابلتنا: "أطال الله عمر الملك عبد العزيز، فهو يحب البدو، وإذا يحب البدو تساطعت في داخله: "لماذا لا يحبونه؟ إن راحة يده هو إدارته مبسطة على الدوام لكل بدو نجد، وهي إحدى صفاته التي ذاع صيتها، إلا أن تلك الصفة لم تلت رضائي ولا إجادى، فكثرة الهدايا والهبات.

30
والآموال التي يفظنها عليهم ابن سعود في سخاء جعلتهم يعتمدون كلياً على كرمه حتى إنهم فقدوا أي داعف للعمل على تحسين نمط حياتهم بالذكاء والجهد، وانزلقوا بالتدرج إلى حالة الضعف إعانات، وبذلك ظلوا قائمين وراضين بجمالهم وسلوكيهم.

في أثناء حديثي مع الشيخ ذي الملابس الحادة، بدأ على زيد نفاد الصبر، فينبدأ في الحديث مع أحد الرجال، كانت عيناه تتحتان من أن لا أخبره على وجهي، كما لو كان يذكرني أن أمانتنا طويلًا طويلة مازال علينا أن نقطعه، وأن تبادل أحاديث الذكريات مع أولئك الذين ليس مسرح من خطى الجمال، ركب دو الشمائل ركابهم وواصلوا مسيرهم باتجاه الشرق سرعان ما اختفوا خلف الدلال، ومن مكاننا وصلت إلى مسامعنا كلمات أغنية بحرية راج راح وقفت من منها يشتري بها، لاح جمالهم على المسير، ودفعًا للسفن الطويل، وبينما ولنا، فينا وزيد وجهينا باتجاه الغرب، إلى تأينا، كان صوت الحادي يتلاشى رويدا رويداً، حتى اختفى تماماً وساء الصمت من جديد.

ارتفع صوت زيد فجأة محرساً الصمت السائد: "انظر، أرنب برى« حول بصورة بسرعة قرأت كتلة من الكوابل الرمادية تطفو متفرقة بين تجمع عشبي، في حين كان زيد ينزلق بسرعة من على سرح ناقته وحل عصا الصوابل التي تثبت مقدم السرح واندفع باتجاه الأرنب مؤخرًا العصا فوق رأسه ليقفف بها الأرنب في اللحظة التي أودع فيها على قذف العصا، اشتبك قدمه في جذر جاف لشجرة حمدة، فسقط منبطحاً على وجهه، بينما اختفى الأرنب في محل الصحراء.

ضحكت، بينما كان زيد ينلهض من عثرته، وهو يطلع إلى العصا التي كانت يده في حشرة وأسي وقلت له: "أضعت علينا عشاءًا شهيًا، لا عليك يا زيد، من الواضح أن ذلك الأرنب لم يكن من نصيبنا ولا قسمتنا...».

أجاب بذهن شارد: "لا، لم يكن مقصوماً لنا، ثم تبين أنه كان يخرج في خطواته وعلامات أمر شديد تبدو على وجهه. سألته: "هل أصبت قدمك؟".
قال: «كلا، لا شيء، التوقيت كاهلي فقط، ستيحنس بسرعة» إلا أنه لم يتحسن. فبعد ساعة وهي على ناقله كان وجهه يطهر بحبات العرق من شدة الألم المتزايدة، وحين انتقل بصري إلى كاحله، وجدته قد تورم بشدة.

قلت: «لا فائدة يزيد من ارتحالنا وأنت على هذه الحال، فلنضع رحالنا هنا، ليلة من الراحة تعبد قدماك سليمة إن شاء الله».

* * *

لم يستمر زيد على حال طوال الليل من شدة الألم جافاه النوم حتى مطلع الفجر، كان تتبلبه وتحركاته الفقيلة من شدة آله تقلق نومي الذي لم يكن مريحًا.

عند الفجر قال: «لا أرى إلا ناقة واحدة، وحين تطلعتنا حولانا، اكتشفنا أن إحدى الناققين قد اختفت، وكانت ناقة زيد. أراد زيد أن يركب ناقتي وينطلق باحتى عن الأخرى التي شردت، إلا أن كاحله المصاب جعل من الصعب عليه حتى الوقوف، ناهيك عن السير وركوب الناقة والنزول عنها.

قلت له: «استرح أنت يزيد، ساؤذهب أنا للبحث عنها، لن تصعب عودتى، سأرجع مقتفيًا آثار ذهابي».

على ضوء الفجر الوداع ركب ناقتي وانطلقنا باحتى عن الناقة الشاردة، تبتعت أثار أقدامها على الرمال في السهل الرملي حتى الكثبان. مضيت ليلة ساعة متبهمًا أثر الناقة، ثم ساعة أخرى، ثم ثانية، وأثر الناقة ظل متمداً إلى مسافات لا تنتهي ولا ألحق بها، أزهك الناهر على الانتصف فتوقفت لالتقاط أنفسني، ترجلت، أكلت حفنة تمر، وارتحت من قربة الماء المعقدة في سرج الناقة. الشمس في كبد السماء، إلا أنها لم تكن بسطوثها المعتادة. كانت سحب داكنة — وهي غير معتادة في ذلك الوقت من العام — تغطي أجزاءً من صفحة السماء دون حركة، كانت السحب كثيفة بأشكال عجيبة، وهبت ريح شديدة أطاحت بحواض الكثبان الرملية الناعمة.
على قمة تل رملي عال في مواجهتي ظهر شكل غريب أمامي ثم نظرت إليه، هل هي حركة للبيعان؟ هل هي الناقة الشاردة؟ حين دقت النظر، وجدت أن الحركة تنتقل من أعلى التل إلى حافته الجانبية، كانت الحافلة تتحرك حركة طفيفة مموجة رقعة للأمام يمتد، تشترا جهاز موجة تتمدد ببطء. ثم زحفت عتمة حمراء وغطت صفحة السماء كانت قادمة ونابضة من خلف الكثيب المواجه لي، وأصبح شكل الكثيب في تلك العتمة الحمراء بلا ملامح ولا معالم، بدا كما لو كان حجابًا قد أرسل عليه، وامتدت العتمة الحمراء بسرعة وحلت على كل المرئيات من حولي، ثم هيّبت على وجهي دقة قوية من رياح محملة بحبات الرمال، ودارت من حولي في بوتاهة شديدة، ثم راحت الرياح تهب في عنف من كل الاتجاهات، تكتس وجه الوالد الرملي في هبات عاتية، وانتقلت الحركة المموجة التي كانت تبدو على النتا المواجه لي وشملت كل الكثبان والتلال الرملية التي يصل إليها بصحراء، وخلال دقائق أظلمت السماء وتحولت إلى لون بني مثل صدأ الحديد المدوج في قتامته وأمتلأ الجر بعوامات من الرمال الدقيقة وتعلق في الجو مثل ضباب أحمر. كانت العاصفة الرملية قادمة وكان كل ما رأيته مقدمتها المنذرة.

دُرّشتُ ناشفة الباركة، ارتفعت، حاولت أن تنهض لتركض، إلا أنني قبضت على لجامها بقوة، قامتم بكل قوة لأحافظ على توازني حتى لا تعب ذوي العائدة التي تحولت إلى قوة الإعصار، كافح حتى قمت قدما الناقة الأمامي، ثم قصدت الخلفين، ألتقي بنفسي خلفها فوق الرمال وفتحت عيني حول رأس ووجه ودفنت رأس تحت رقبة الناقة حتى لا أختنق من الرمال الناعمة. أحسمت بالثقة وهي تتفن خطمه في كتفي لسبب ذاته. شعرت بالرمال تتراكم حول جسدي وتدفنه داخلها بوصة بعد وصلة من الجانب البعيد عن الناقة. رحت أغر ووضع جسمى مرة بعد أخرى حتى لا تدفني الرمال الهائجة. لم أصبت متخفوع ولا بخيل، لم تكن أول عاصفة أصابها، مكثف منبطحًا، محكمًا لف العباءة حول رأس ووجه، ولم يكن هناك ما أفعله غير الانتظار، وهدير الرياح وخفقات جلبابي الذي أصبح مثل شراع مركب حل حباله يضمّن سمع، أصبح جلبابي مثل رأة خفافة في الرياح، مثل رايات القبائل التي تحملها عالية على صواريها في مسيراتها: نذرتي برآيات خفافة رأيتها من خمسة أعوام مضت كان يحملها فرسان نجد من البدو - آلاف منهم وكتاب واحداً منهم - 33
عامتين من عرفات إلى مكة أثناء الحج. كان الحج الثاني لي، وكتبت قد قضيت عامًا في الامتحال بين أرجاء الجزيرة العربية، وقررت العودة إلى مكة في الوقت المناسب لمشاركتي في وقفة عرفات، شرق المدينة المباركة، في طريق العودة من عرفات وجدت نفسى وسط جمع غفير من بدو نجد يرتدي ملابس الإحرام البيضاء، يركبون جمالهم في سهل متراب، بحر متلاطم من الرجال بملايين الأحمر عليه، على جمال صفراء بلوء العسل، وجمال بنية ذهبية، وجمال بنية داكنة. تركز في هدير وترتج الأرض من ركض آلاف الجمال المنفوذة كموجة عاتية لا يملك لها أحد صداً، وأعلام القبائل مرفوعة عالية تخفق في الرياح، وهدير أبناء القبائل وصياحهم يعلن عن قبائليهم وآخر أسلافهم في الحروب والنزال، أبناء نجد يتبوع الحج والحراب عنهم من منبع الفقر. أما باقي الحجيج من الأماكن الأخرى، من مصر والهند وشمال أفريقيا وياف - غير المتدينين على ذلك الحماس البديوي - فقد تفرقوا في ذرع عند اقتراب جحافل الجمال العادية منهم، فلن يظل حيًا من يقف في طريق الجمال ومسيرة القبائل الماضي كالرعد والروت الفوري نصب من يسقط من على سرج جمله وسط آلاف الآلاف من راكبي الجمال العادية كفاصفة.

ومهما كان جنون من يقومون بتلك الانتقالة الراكونة العايفة من عرفات إلى مكة، فقد شاركت فيها وانتقلت إلى عدوى حماسها وأسلمت نفسى لجموعة واندفاعها وزيتها وإحساس بفرحه وسعادة مفرطة يلمان قلبي. كانت الرياح التي مر فوق رأسى وأنا أدفعها في إبط الناقة تنشد قائلة: «لا تكون أجنبيًا ولا غريبًا بعد الآن، لن تكون غريبًا أبداً بين أبناء هذه الأرض...».

لم أعد أجنبيًا ولا غريبًا: أصبحت الجزيرة العربية موطني، تحول ماضي العرب إلى حلم بعيد، لم يصبح حلمًا غير واقع تمامًا حتى أنفسه، كما لم يعد واقعًا تمامًا ليشكل جزئيًا من حاضري. لا يعني ذلك بالطبع أنني أصبحت من أكلي اللوتس (6) بل...

(6) شعب ورد ذكره في أديب هوبيرس يفتاخ بؤسء اللوتس ويجها في تراق وكس نتائجًا لذلك (الترجمة)
على العكس، فكلما كتبت عدة أشهر في إحدى المدن - مثل المدينة على سبيل المثال - التي كان لي بها زوجة عربية وطفلاً ومكتبة مليئة بالكتب عن التاريخ المبكر للإسلام - يزداد كله ورغبتي الشغف إلى المغامرة والحركة، وأشتكى إلى جو الصحراء للتجوال. إلى رائحة الإبل وإحساسي بسرورها. من العجيب أن دوافع اللحمة للتجوال التي كانت تجعلني لا أستطيع في موضع أغلب نواحي حياتي (كنت في ذلك الوقت قد تجاوزت الثانية والثلاثين من عمرى) كانت تغربي مرة بعد أخرى وتدفع إلى أنواع من المخاطر والفاعضات المهددة وما إلى ذلك. وعلى الرغم من ذلك لم تكن تلك المخاطر من تلك الرغبة، كما لم تكن مغامرتى وتطلعى إلى المعثور على مكان أشعر فيه بالاستقرار في هذا العالم. أن أصل إلى مرحلة أستطيع بعدها أن أخلق علاقة بين ما يحدث لي وبين ما أفكر به وما أحسه وما أرغب به. لم يعد الأمر على وجه الصحبة، فما يمكن شخصيًا هو شغف الشديد باكتشاف عالمي داخلى، وقد دفعني تلك الرغبة إلى عالم مختلف تمامًا، مختلف في مداركه الدفينة وفي مظهره الخارجي، عالم يتباين كليًا مع عالم الذي ودت أن نشأت فيه في أوروبا وما كان يمكن أن يشكله ذلك العالم من شخصيتي.

* * *

بعد أن خمدت العاصفة، نزعت جسمى من الرمال التي دفنتني، كانت ناقتى أيضًا نصف مدمجًا في الرمال، لم يكن هناك أسوأًا من تلك التجربة التي لابد أن تRemaining text cut off.
خلفها، اكتشفت أنني في أرض بكر جيدة بمعالم جديدة وتضاريس جديدة ولا أية أثار قديمة على سطحها، أرض بكر تمامًا.
لما يبعد هناك ما أفعله إلا محاولة العودة إلى مكان خيمتنا – حيث تركت زيد – بالياسع بإتجاه حركة الشمس والحسن الداخلي الغريزي بالإتجاهات عند من اعتننا قطع الصحاري والترحال عينها، إلا أن الوسائط لا يمكن الاعتماد عليها تمامًا، فكتبت الرمال تعرف السير في خط مستقيم فلا تستطيع المحافظة على الاتجاه الذي خمنته إذ لابد من الدوران حولها.
أصابتي العاصفة الساخنة بعطل شديد، توقفت أنني لا أستطيع عن موضوع خيمة زيد إلا بمقدار ساعات، وكتبت مرة أخرى جريزة ما من قريتي الصغيرة من ساعات. خمنت أنني لا أستطيع عن موضوع الخيمة، على الرغم من أن ناقتني أيضًا لم تكن من يومين منذ مرة أخرى وقفتها فيها عند بئر، فإن الجمال ذات بأس في احتلال العطش وقطع المسافات الطويلة ومكنني أن أعتمد عليها حتى أصل إلى زيد. وجهت خطم الناقة في الاتجاه الذي خمنت أنني ستجد فيه زيد وخيمتنا، وفعتها في حُطَّر سريع. مرت ساعة ثم سعتان ثم ثلاث ساعات، ولا أثر لزيد ولا الخيمة. لم تكن التلال الرملية برتقالية اللون تشكل معلناً داخلياً؛ فكلاً تقريباً ذات شكل موحد.
في وقت متأخر من العصر وصلت إلى موضوع صغيري من الأرض يبرز فوق سطح الرمال، كان من صخور الجرانيت، والجرانيت من الصخور النادرة وسط ذلك البحر اللانهائي من الرمال، وتبكت تلك المنطقة ذات الصخر على الفور: لقد مرتنا بها أنا وزيد عصر البارحة، وكانت علي مسافة يسيرة من الموضوع الذي أقمنا خيمتنا به أحسست براحة عميقة. بدا لي أنه لم يبق من الصعب الوصول إلى موضوع الخيمة إذا سرت في اتجاه الجنوب الغربي كما فعلنا البارحة حين كنا عند تلك الصخرة.
كنا قد قطعنا المسافة أثناء وزيد من عند الصخرة إلى مكان خيمتنا في ثلاث ساعات، ولكن بعد أن سرت بالناقة ما يزيد على ثلاث ساعات لم أجد أثراً للخيمة ولا لزيد. هل
فقدت الاتجاه مرة أخرى، حيث السير باتجاه الجنوب الغربي الذي حافظت عليه أولاً، مستمرًا بوضوح الشمس، ومرت ساعات، بلا أي أثر للخيمة ولا لزبد. حلّ على الظلام، ولم يكن ملائمًا مواصلة السير. كان من الأفضل أن أستريح حتى يشرق نور النهار، ترجلت على راحتي، عقلتها، حاولت أن كل حفنة من التمر، إلا أن عطشى كان شديدًا، فوهبها للناقة، وتمتدت لأسفلًا جسمي بدن الناقة.

لم تتم رواية مثلية غير مريح، لم يكن استغرقاً في النوم كما لم يكن قطعة واعية، امتلاك نومي بلحالة مزعجة نتيجة لانهاء بدني، وكان نومي متقطعًا من شدة عطشى الذي تحول إلى نوع من الألم، عدا ذلك، كان في الأعمق الداخلية الدفينة التي لا يتواصل المرء إلى كنها، والتي يخشى المرء أن يكشف عنها حتى لذاته، خوفُ هلامي رمادي خجول، يتوتر إلا أنه تشعر بوجوده في الأعمق. ما الذي يحدث إذا لم أصل إلى زيد والخيمة وقرية الماء، إذ لم أعلم، لا يوجد ماء ولا مأوى لي، لن يسمى لمسيرة أيام في كل الاتجاهات.

عند الفجر نهضت من جديد، أعدت حسابات أثناء الليل وجمعت أنني ابعت كثيرًا إلى الجنوب، وأن زيدًا والخيمة في مكان ما إلى الشمال والشمال الشرقي من موضعى، وجهت الناقة إلى اتجاه يقع ما بين الشمال والشمال الشرقي وأنا عطشان وُنهك وجاوج، أمضي في خطوط مترامية حول الكثبان من واد إلى واد، أدور حول الكثبان مرة إلى اليسار مرة إلى اليمين، عند الظهر توقفت لأستريح، كان لسانى قد التقش وقلعت به مثل جلد جاف قديم متشقق، وحلقى ينضب بالألم وعيناي ملتهبان، التقشت بطن الناقة، وسحقت عباعي ونفعتها، رأسي، حاولت أن أنم، إلا أن النوم لم يواتني، بعد الظهر بدأت السير من جديد، ولكن في اتجاه أميل إلى الشرق، أيقنت أنني مضيت باتجاه الغرب أكثر مما ينبغي، إلا أن الخيمة وزبد لم يظهرما في أي أفق.

حذلت ليلة جديدة، تحول العطش إلى إماذ وألم مبرح، وبلغ الاشتياق إلى جرعة ماء أشرى، رغبة ملحة استحوذت على عقلى وفكري، اختلفت ونمت أو رغبات وأفكار

37
أخرى عداها. بمجرد أن أضاء الأفق بنور الفجر الوليد، ركبت من جديد حتى طلع الصباح، سرت حتى الظهر، واصلت السير حتى العصر، ولا جدّد يلوح في الأفق إلا كثبان رملية وحرارة محرقة. كثبان بعد كثبان بلا نهاية، أم ريدا كانت تلك هي النهاية؟ نهاية كل الطرق التي سلكتها، ونهاية كل ما أسعى إليها وكل ما تمّني تحقيقه؟ نهاية انتهى إليها شعب أن أصبح غريباً عنه بعد الآن؟ دعوت من أعماقى: يارب، لا تجعلني أنتهى بهذه الوسيلة....

في العصر ارتفعت كثيباً عالياً على أتمّن من إلقاء نظرة أشمال على الأحشاء من حولى، مرت بقعة داكنة في الشرق البعيد، كنت أصبح فرحاً، إلا أنني كنت أضعف من القيام بذلك، لأد أن اللون الداكن هو الخيمة، ريزيد والقريتان الكبيرتان الليلتان بالبياض.

كانت ركبتا يرتجلان حين ركبت ثائقتني. سرت ببطء وحرص في اتجاه البقعة الداكنة حتى لا أفقد الاتجاه، بكل تأكيد ليست البقعة الداكنة إلا الخيمة ريزيد. في تلك المرة سرت في خط مستقيم، لأثير حول التلال والكثبان بل أصدّى فوقها وأحذر عنها وكان ذلك يضعف المسافة، إلا أن الأمل يحكي أنه خلال ساعاتين على أكثر تقدير، سامس إلى الماء. بعد أن عبرت آخر كثيب، أصبح الهدف أشد وضوحاً أمامي، شدت لجام الناقة، ورحت أتامل ذلك الشيء الداكن الذي كان يبدو نصف ميل، أوشك قلبى على التوقف: فالشكل الداكن لم يكن إلا البروز الصغير الجرانيتي الذي مررت به أنا وزيد من ثلاثة أيام ومررت بها بمفردي من يومين مضياء....

على مدى يومين كنت أهيم في دائرة.

[4]

حين ازدتقت من فوق ظهر الناقة، كانت قوتي قد تلاشت، لم أعباً بأن أفعل الناقة، كانت هي الأخرى في حالة من الإجهاد تمنعها من الشرود. بكيت، إلا أن عيني الجافتين المتورمتين لم يكن بهما دمعة واحدة.
كم مضى على من زمنٍ حين يكبت آخر مرة... بدت كل حياتي وكأنها ماضيًا سحيقًا. البدء، كل شيء أصبح ماضيًا، لا يوجد حاضر. لا يوجد إلا عطش، وحر افلاح، وذئاب.

امضيت حتى الآن ثلاثة أيام بلا قطعة ماء، وخمسة أيام من آخر مرة ارتوت فيها الناقة. قد تتحمل العطش ليوم آخر، أو يومين، أما أنا فأنا أعلم أن المكنى الاحتمال أكثر من ذلك، ربما يصيبني الجنون قبل الوقت، ووقع ألم بدني في شراك الرعب الذي ألم بعقلتي، كان كل منهما يصب في الآخر وينيمه، ذنبب ونظرًا وتمرق...

أدرت أن أستريح، إلا أنني كنت على يقين من أنني لو استرحت الآن لن آنهض بعد ذلك أبدًا، جبرت أقدامي المتشقلة وركبت الناقة، أجهزتها بالضرب والنقش على النهوض، أشكت على السقوط من فوق السرج حين سقطت للأمام وهي تنهض على ساقيها الخفيفتين، وكدت أتسقط للخلف حين نهضت على قامتيها الأمامية. تحركت الناقة باتجاه الغرب المشدود، بالسخرية، ما الذي يعنيه "الغرب المشدوذ" في هذا البحر المخادع المتماوج من الرمال؟ إلا أنني كنت أترق إلى الحياة، هكذا مضبت ماضيًا متهالكًا، مضيت أنا والناقة متشاقلتين بما تبقى فيها في ظلام الليل. لابد أن الصباح كان قد أشرق حين تهاوت ساقتيًا من على السرج. لم تكن السقطة عنيدة؟ كانت الرمال ناعمة فاحتضنتني برفق، ظلت الناقة واقفة بموضعها لفترة، ثم انهارت من عليانها باركة على ركبتها ثم ركبت إلى جواري مادة عمقها على الرمال. تعاينت أنا في منطقة الظل الضيقة التي كونها جسم الناقة وانطلاق بالحياة محتميًا بها من حرارة الشمس ومن ألم بدني ومن العطش والخوف الثابرين من داخلى. لم يعد لدِئ أي قدرة على التفكير بل حتى لم أعد قادرًا على إغلاق عيني. كل حركة جفن أضمحت كحديد ممِّحم يجري على صفحات العين. عطش وحر، عطش وصمت قاتل، صمت جاف بابس يعش كالنجل ويكفكون في وحدة ويواس، صمت يجعل من تدفق دمائه في أذنيك ومن زفيرة الناقة من حين إلى آخر بيدوان بشكلٍ محدد كأنى آخر أصوات تسمعها على الأرض، وأنا كلايين، الإنسان والحيوان، آخر كائنات حية، آخر كائنات مشؤومة على الأرض.

تتدهشن من فوقننا، في بحار العطش المضيئة في صفحة السماء، حولت نضر في بطء دون أن ي있ض علينا، كانت رأس دبس على صفحة سماء شديدة الشحوب، منطق بحرية فوق كل الأفق...
تورم حلقي، انقباض وضيق وانفجاع، كل شهير أنتفخه كان يغمر آلافًا من إبر الشائكة المؤلقة من قاعدة أسنان حتى طرفه - ذلك اللسان - الذي كبير وضخم، والذي يجب ألا يتحرك إلا أنه لا يكف عن الحركة المؤلقة، للنفخ داخل الحلق، ثم للإمام، كمبرد خشن في تجويف جاف. كان كلما بدأنا بحثنا يحترق ويعتصر في قبضة آلام لا تتقؤ. لنتولت تجلب كلما كانت بلوى الفؤاد إلى لون أسود حاكم. تتحرك يدي بلا إراده مني ومرت على العلام المثبتة على سرج الناقة، ثم تبقت عن الحركة، موجة إدراك بامكتهبت على عقلى الضبابي ويرزقت من بينها خمس طبقات موجودة بندقية مع فكرة غمامة عن النهاية السريعة للإمام التي يمكن أن تجنبها بضغطة على زنادها... همس هائف باذخ أسرع، تناول البنقية قبل أن تخفق القدرة نهائيا على تحريك يدك، ثم شعثت بشفقتين تنفرجان وتحممتان بكلمات دون صوت، كلمات تأتي من حشائش وأعمال ميتة في ثنايا عقل: «لبنونكم، سبئونكم...» أكثبت الكلمات التي كانت غامضة شكلًا وصوتًا وتتفق في شكل ومقطعي في آية من آيات القرآن، راحت تتبري على شفقتى وفي اعتقالي:

فلبنونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وثمار الصبارين (155) الذين إذا أصابتهم مصيبه قلوا إنا إلهنا إلا إله راجعون (165) أتليكم عليهم صلات من زينهم وزوجته وأولئك هم المهددون 4. صدق الله العظيم.

كلما أحسست أنه أصبح ملتهبا يصبح في ظلام دامس، من وسط الظلم المتهدب أحست بنسمات هواء بارد، وسمعت حفيفه الحاد - حفيف هواء عليل يهب على أشجار حافة جدول ماء، والطير يقف في تيار جرار بين ضفتي بعضها، كان المكان هو مسقط رأسه، وأنا مستلق على الضفة صبيً صغيرًا في التاسعة، أفك سيفان العش والحشائش وأطلع إلى أبقار بيضاء ترعى بالقرب مني وفي عيونها دمعة وهدوء واستكانة وإبرام الرضا. على مسافة كانت هناك نساء قرويات يعملن في حقل، كانت إحداهن تربط منديلها أحمر على رأسها، وترتدية تنورة زرقاء ذات خطوط عريضة بيضاء، على حافة الماء أشجار صمغاء باسقة فوق صفحة الماء تتحرك نحلة بيضاء ترتعش صفحة الماء تحت وقع خفقات أجنبتها، هواء عليل يهب على وجهي كزفير.
الحيوانات: أه، حقاً، كان رفيق حيوان: كانت بقيرة بيضاء بيقينية قد دنت من وجهي، كانت تمس وجهي برفق، وتزمر من خطمي، شعرت بحركة أقدامها إلى جواري...

فتحت عيني، شعرت بزفرة بعيروي وحركة أقدامها بجواري. كان قد نهض نصف نهوض على ساقيه الخلفيتين ورقبيته ورأسه مرفعان، انسفت فتحتى أأنفه كأنه يشم رائحة طيبة ظهرت فجأة في هواء الظهيرة. زفر بقوة من جديد، أحسست بتسويعات الإثارة التي تجتاح رقبيه باتجاه أكتافه وتساب إلى جسد نصف الناهض.

كنت قد رأيت جمالاً قبل ذلك زفر وتشرب حين تشم رائحة الماء بعد أيام طويلة في الصحراء، إلا أن هذه المرة لم يكن هناك ما؟ ألم ترى أن هناك ما؟ رفعت رأسى وتابعت الاتجاه الذي أدارت التلاجة وأسها. كان ذلك الاتجاه كثيب رملي قريب واطئ؛ تعلو صفحة سماء فلورية خالية ولا صوت من أي اتجاه، ولكن كان هناك صوت، صوت خافت يشبه تردد وترقيق بعيد، خافت رقيق وعميق، كان الصوت أنيَّ بالكاد من خلف الكثيب، بدأ قريبًا جدًا بعد لحظة.. ولكن أنيقت في جزء من ثانية. أنه أبعد من إمكان الوصول إليه، وأبعد من الذي لم يكن أن يبلغه صوتى الحبوب في أعمقها. أنارت أن هناك بشاراً على مسافة ما، ولكن يستحيل أن أصل إليهم، بل لم يكن بإمكانى أن أقف على قدمي من ضعفي وهزالي، ظهر الصوت أكثر رقة، كان البجو ينشدوان أثناء ترحالهم على إيقاع خطر الجمال. حاولت أن أصيح فلم يخرج من لثمي صوت. اصطدمت بيد بطريقة عادية بقريبتيه (ه) العلاقة بالسرج.. بين خيالي رأيت الطلقات الخمس الموجودة بها.. بجهد فائق رحت أحلها. كان حمل طاقة يماثل رفع جبل وطيب، نجحت آخر الأمر، أسندت القريبية على كعبها وأطلق طائفة رأسية في الهواء، دوت الطلقة في الهواء كالعواء، جذبت الشاحن وأطلق طائفة ثانية، وأصبحت السمع توقف الغناء الذي كان شببه القيثار. للحظات لم يكن هناك إلا صمت عميق. فجأة ظهر فوق الكثيب رأس رجل، ثم ظهر كتفاه، ثم رجل آخر إلى جواره. نظر إلى أسفل للحظة، ثم استدارا وصاحتا بكلام ما إلى أشخاص في الجانب الآخر من الكثيب، ثم انزلق الرجل المتقدم عادياً إلى أسفل باتجاهي.

(ه) القريبة: سلاح ناري قديم يجمع بين البنقية والمسدس. (المترجم)
بعد لحظات كان هناك تجمع حوالي: أثنا, ثلاثة رجال - ما هذا الزحام بعد الوحدة الطويلة؟ كانوا يحاولون رفعي, كانت حركتهم مضطردة. شعرت بشيء بارد حارق, شيء مثل اللغم والنار في أن واحد على شفتي, رئي, ووجه فجأة داكنة لقدمة فويق. كانت أصابعه تستصرر قطعة مبللة من القماش القذر بين شفتي, وبه الأخرى تحل قربة ماء مفتوحة القوة, تتحرك فمي غريزياً باتجاه فوتها, إلا أن البديل دفعني برفع بعيداً عنها. غمس القماش في الماء وقطعه قطراً بين شفتي. حاول أن أضغط فكي لأمنع الماء من الوصول إلى حلقي اللثية, إلا أن البديل ضغط فكي لإبعادهما عن بعضهما ثم قطر بعض قطراً أخرى في فمي. لم يكن ماء: كان رصاصًا مصهرًأ.
لماذا يفعلون ذلك بئ؟ أردت أن أخبر من ذلك العذاب, إلا أنهم أعادوني إلى موضع,
أولئك الشياطين... جلدي يحرق. كل بدني يسبح في لهب حارق، هل يغون قتلي؟ أه لو كانت لدى القوة والقدرة على جذب قريني للدفاع عن نفسى, إلا أنهم لا يدعون
أنهض: أمسكون على الأرض وفتحوا شفتي وجسدي بالقوة من جديد وسكونوا بعض الماء, وكان لابد أن أبترع... الغرابية الشديدة لم يكن حارقًا كما كان من لحظات مضت, كما راحت الكوفية المبللة التي وضعوها حول رأسى تبعث في إحساسًا بالراحة, وحين صبوا بعض الماء على مانيسى, كان إحساسى بالملبس المبللة يبعث في بدني رعشة لذة ممتعة...
ثم ساد الظلام, كنت أسقط, وأتشر في السقوط في جب عميق, وكانت سرعة سقوطى تجعل الهواء يدوى في أذني, وتحول الدوّى إلى ضجيج, ضجيج من سواد وظلام, ظلام, ظلام.
ذراعك، لا ترى إلا ظلالاً فوقك، ظلاماً متسوّجاً تسوده خيمة بدوية تجدها فوق رأسك.
خيمة من شعر الماعز الأسود، خيمة بفتحة أمامية ضيقة يظهر منها جانب من صفحة السماء مرصعة بنجوم لا حصر لها، وتحتها انتناج رقيق لحافة كتيب رمل يتباقع تحت ضوء النجوم... أظلمت فتحة الخيمة وشغبها جسم رجل يقف بها، كان إطار عبادته الخارجي يرسم صورة محددة على صفحة السماء من خلفه، ثم سمعت صوت زيد يقول في فرح وتعجب: ل деревة استيقظ، لقد استيقظ، دنا بوجهه الحازم الجاد من وجهي وأمسك كتفي بكفية، دخل الخيمة رجل آخر، لم أتمكن من رؤيته بوضوح، وبمجرد أن تحدث بتلك اللهجة البطيئة الوقورة عرف أنه بدء من قبائل شمار.
من جديد شعرت بعض حارق، وذذبت بليقة إنا الهيل الذي مده زيد باتجاهي، تجرعته في نهم ولم أشعر بألم عند البلع، في حين راح زيد يقص على كيف تصادف أن حطت جماعة البيو رحالها بالقرب منه حين هبت العاصفة، وكيف عادت نافقة الشاردة من لقاء ذاتها أثناء الليل، ولاقفلوا على مصير، خرجوا جميعًا للبحث عنى، و بدأوا يفقدون الأمل بعد مرور ثلاثة أيام على غيابي، ثم سمعوا صوت الطلقات التي أطلقها من خلف الكتيب الرملي، وعلمت منهم أنهم أقاموا الخيمة فوقى في المكان الذي عثروا عليه فيه وأمروني أن أظل بها طوال الليل والنهار التالي. لم يكن أصدقأنا البدو في عجلة من أمرهم، وكانت قربهم مليئة بالمياه، بل إنهم وهبوا ثلاث قرب لناقتي العطش، كانوا يعلمون أن هناك واحة على مسيرة يوم واحد باتجاه الجنوب، حيث الماء ونباتات الحمدة التي ترعى عليها الإبل.
عاونتي زيد في الليل على الخروج من الخيمة، مد لي بطانية فوق الرمال، تمدّدت فوقها تحت النجوم الساطعة.

* * *

بعد ساعات لا أدرى عددها استيقظت على رائحة القهوة الطازجة مثل حضن امرأة. ناديت: زيد، أهوى بسعادة أن صوتى على الرغم من ضعفه الواضح قد فقد حشرته: أعطني بعض القهوة.
رد: زيد: "بالله سأفعل يا عم!", كان قد نشأ على عادة عربية أصيلة في مخاطبة من
بِعُظِّرِ لهم التبجيل والاحترام بلقب العين، سواء كان أكبر أو أصغر منه عمراً (بالمناسبة،
كانت أصغر من زيد ببضعة أعوام)، استطرد: "سأعطيك قهوة بقدر ما يود قلك".

احتبست القهوة، وتطعت إلى وجه زيد المليء بسعادة زينة، قلت له: "لم أذا يا أخى
نعرض أنفسنا لهذه المهاك بدلًا من المكوك في بيوتنا مثل العقلاء من الناس؟
رد زيد: "لا يلبق بنا أن ننتظر في بيوتنا حتى تتبيس أعضائنا وتجتاحنا
الشيخوخة. عدا ذلك، ألم يموت الناس أيضًا في بيوتهم! لا يحمل الناس مصائرهم
حول أعناقهم أيها ما كانوا!".

كانت الكلمة التي استعملها زيد للدلالة على المصير هي كلمة قسمة المروفة في
الغرب في شكلها التركي "قسمت". بينما كنت أرى قبضاً آخر من القهوة، جال
بخاطر أن ذلك التعبير العربي يحتوي على معنى مختلف وأعمق: "وهو ما يكون للمرء
فيه نصيب أو حصة.

"مالك في نصيب".

 أصحاب الكلمات وتزاً، رقيقًا مراوغًا في ذاكرتي... وابتسامة عريضة كانت تصابح
ذلك القول حين سمعته أول مرة... ابتسامة تبدو من خلف سحابة من الدخان، دخان له
رائحة نفاذة، مثل دخان الخشيش. بل- كان دخان الخشيش، وكانت الابتسامة لواحد
من أعرق مرايا وقبائل، الذي التقيت به بعد مروره بتجربة غريبة وخطيرة: كنت
أحاول النجاة من خطر يبدو محيقاً - يبدو فقط - فهربت في سياق محرم في فرارى
منه دون أن أدرى إلى أحضان خطر حقيقي كدت ألقى فيه حتفي - وقادي كلاماً -
الخطر المفترض، والخطر الحقيقي الذي كنت متأقابلته إلى نجاتي من موت محقق...

كان ذلك من ثمانية أعوام مضت، كنت متوهجًا على جوان بصحبة خادمي الترقي
إبراهيم من شيراز إلى كيرمان جنوب إيران. كانت كيرمان مدينة نائية قليلاً السكان،
وليس لها طريق ممهد يؤدى إليها وتقع على بحيرة نيريس. كنا في الشتاء، وكانت
الأرض موجهة غارقة في طين وماء، وكانت المنطقة عبارة عن سهول واسعة ممتدة بلا قري في أي جوار قريب، بحدها من الجنوب كوه - إيب - جيشنجان، والتي تعلو جبال الجياع، وفي اتجاه الشمال تتنازل الأرض متجهة إلى مستنقعات تحيط بالبحيرة. في عصر ذلك اليوم، دعنا حول كل منزلك، أثرت البحيرة فجأة أممًا: سطح هائل من المياه الساكنة الراكدة خضراً اللون، بلا صوت، ولا نفس، ولا حياة، مياهها شديدة اللزادة حتى إنه لا يمكن لأي نوع من الأسماك أو الأحياء المائية أن يحيا بها. أما سواحل البحيرة فلم يكن عليها إلا بعض الشجيرات المتناقصة والأعشاب الصحراوية، فلم تكن التربة الملحية المجاورة لشواطى البحيرة تسمح لأي نوع من النباتات بالنمو كان سطح الأرض مغطى بشجر مخيم محتل بالمياه وعلى بعد مائتي ياردة من موضعنا، ظهر أثر مرير ضيق يفصل البحيرة عن المستنقعات وسلك المسافرون.

حل الوسائد، ولم نصل بعد إلى خان - إيب - خيت، وهي استراحة على الطريق يقضي فيها المسافرون الليل. كان علينا أن نصل إلى ذلك الخان بأي ثمن، فلم يكن تلك الأصقاع أي مأوى آخر. كما كان قرينا من المستنقعات يجعل من استمرارنا في السير في غاية الخطورة، وبالفعل، كان بعض أهل المنطقة قد حذرنا في الصباح Ala Nasif وحذنا بذلك الطريق، فأثر خطوة غير محسوسية قد تقودنا إلى الغرق في المستنقعات. عدا ذلك، كانت خيولنا قد أصبحت في غاية الإجهاد بعد سير طويل مرهق على أرض رخوة، وكانت لابد أن تستريح في الآخر وتقضي لاسترداد عافيتها.

مع حلول الظلام تتساقط مطر غزير، مضينا راكبين مبلتين ومركبين وصمامين، معتمدين على غزيرة الخيل في معرفة الأتجاهات أكثر من اعتمادنا على أبصارنا التي لم تكن تميز شيئًا في ذلك الظلام الدامس. مرت ساعات ولم يظهر أي آثر للخليخ، ربما تكون قد تجاوزنا في الظلام وقضى الليل في العراء تحت وابل منهم من الأمطار التي كانت تزداد ساعة بعد أخرى. خاضعت حوار الخيل في المياه، والتصق ملاصقتنا بأيدناها بعد أن شربايتا بالمياه، بدنا لنا أشكال سوداء وداكنة في ظلام الليل تحت وشاذا من سيل مياه الأمطار، ارتفعنا حتى العظام، وجعلنا إدراكنا أن المستنقعات
قريبة منا نرتعد أكثر خوفًا من السقوط فيها فإذا انحرفت الجياد في أي ثانية عن طريقها كما قال لنا أهل المنطقة في الصباح، إذن فليرحمك الله.

كنت أقوم في المقدمة، وإبراهيم من خلفي ربما على مسافة عشر خطوات. مرة بعد أخرى راح ذلك الخاطر يطفو بذهني: هل تتجاوزنا خان - إِي - خيتي في هذا الظلم الدام؛ يالفه من احتمال مربع، أن يفرض علينا قضاء الليل تحت تلك الأمطار الباردة؛ وإن تقدمنا أكثر من ذلك هناك احتمال سقوطنا في المستنقعات.

فجأة سمعت صوتًا ناعمًا كأنه خوض حوافر الجواد في طين أملس طري؛ وأحسست بجوادى وكأنه ينزلق على وجه لزج، وغطس قليلاً. ورغم إحدى قامتيه في خوف وغضب، لينزلق من جديد، اختراق الاحتمال ذهنى في قسوة: المستنقع! جذبت اللجام بشدة وشددت كعبى بقوة إلى بطن الحصان الذي رفع رأسه عاليًا وبدأ في جذب قواته في غضب وتهبط. ابتنق العرق البارد من كل مسام جسدي. كانت ليلة حالكة الظلام حتى إنني لم أتمكن من رؤية كفى في غمرة تقلصات جسد حصاني المنتظمة أحسست أنه ينام على نضالً باشًا ضد القوس في أعمال المستنقع. ويا تفكير جذب السوط العلقي بجانب الحصان ورحت أصوله على قائمتيه الخلفيتين بكل ما أوثقت من قوة لأدفعته لبذل أقصى ما لديه من قوة - فإن توقف عن المسير لابد أن تبتهل سواه المستنقع وأنا معه بالطبع إلى أعمال أرجح البصر المستنقع... قفز الجواد الذي لم يعود على ذلك الضرب المجنون - وكان من خيول كاشجاي التي تميز بسرعة والقوة - على قائمتيه الخلفيتين، إلى أرض صلبة استقرت عليها كل قوئه من جديد، قفز وانزلق، وجر نفسه للأمام من جديد، لينزلق مرة أخرى وطوال الوقت كانت قوارئه تقوام بياس ذلك الغيرين اللزج في شبه سيلوية.

اندفع شيء ما لم أمتله في الظلم بقوة فوق رأسى مصدرًا حقيقًا... رفعت نرائي لحماية رأسى فتفقت عليه ضربة مؤلة لم أعرف مصدرها... من أين؟ تراكب الأفكار والاحتمالات بسرعة فوق بعضها فشلت فكرى. من بين أصوات تساقط قطرات المطر ولهان الجواد استطعت أن أميز لثوان بدت كأنها دهر، صوت شفط المستنقع لنا...
أيقنت أن النهاية قد حانت. خلت ساقى من الركاب استعدادًا للقفز من فوق صهوة الجوانب لأجرب حظي في النجاة بنفسى - ربما استطاع الحاجة لو تركت جسمي مدمجًا على صفحة المستنقع على حين غرة وأنا لا أكاد أصدق بالنجاة صدر عن حوافر الجوان صوت ارتطامها بارض صلبة، مرة مرتين... بزورة راحة عميقة جذبت العنان وأوقفت الجوان المرتد. لقد نجوا...

في تلك اللحظة فقط تذكرت مرافقي في السفر وناديت في الظلام وأنا أفيض رعبًا: "إبراهيم!"، ولم أسمع ردًا. غمرت برودة قاسية أعماق قلبي، ناديت من جديد: "إبراهيم!" - لم يكن حولي إلا ظلام دامس وسيل أمطار منهم. ألم يتمكن من النجاة؟ بصوت متشنج من الخوف ناديت: "إبراهيم!"

ثم سمعت مالك أصدقته في البداية، فقد أتاني صوته من مسافة بعيدة إلى الخلف:

"هنا... أنا هنا.

وحنا وقف عقلي عند تفسير كيفية انفصالنا بمثل هذه المسافة الطويلة. ناديت من جديد: "إبراهيم!

أتاني صوته من جديد: "هنا... هنا" - اتجهت إلى مصدر الصوت بعد أن ترجلت عن جوادي وسحبت منه عنانه مختبئًا بحرص كل بوصة من الأرض، سرت ببطء متناح وعائمة شديدة صوب الصوت البعيد: حتى وصلت إلى إبراهيم الجالس بهدوء، فوق سرج جواده.

بدارت: "ما الذي حدث لك يا إبراهيم؟ ألم تنزلقت أنت أيضًا إلى المستنقع؟
رد متساسلاً: "مستنقم! كلا - لقد وقفت في موضعى حين وجدتك تركض بالجواد
فجأة مبتدأً عنى."

أركض مبتدأً؟!.. فهمت سر اللغز. لم يكن كل كفاحي للنجاة من المستنقع إلا ثورة تخيلاتي. لقد خطا جوادي داخل بقعة طينية خلت عنها أتاني سقطنا في المستنقع، فسقطت الجوان وجعلته يركض بجنون، ودخاني الظلام حين فسرت ركض الجوان بأنه
صراع يائس للنجاة من المستنقع ورحت أرکض به في الظلام، غير مدرك لوجود الأشجار المتاقدة المنتشرة بالوادي... تلك الأشجار، لا المستنقع، كانت هي الخطر الحقيقي الذي كاد يودي بkeiten أثناءّ عدوّي بالجواد: وفرع الشجرة الذي ضرب نراق كن من الممكن أن يكون فعلاً أضحكت بحلم رأسي أثناءّ عدوّي الجنين بالجواد في الظلام الدامس وبذلك أصل برحتي إلى نهاية محتوية في لحد بلا شاهد في جنوب إيران...

كنت حائطاً على نفسى، وتضاعف حنّقى لأننا فقدنا الإحساس بالاتجاه بعد ركضي الجنين بالجواد وأصبح من المستحيل الآن أن نغمر على المرّ الذي كنا نسير به قبل ذلك. أي أنني أستحيل الآن أن نغمر على الخان... مرة أخرى كنت على خطى...

فقد ترجل إبراهيم عن جواده ليجلس الأرض بيده ويفحصها رمّا يعثر على أثر السبّاب الذي كنا نسير عليه؛ وبينما كان يزحف بتلك الطريقه على يده وركبتهم، اصطدم رأسه فجأة بجدار - كان الجدار هو الجانب المظلم من خان - إيه خيت.

لو لم أكن قد تخلىت أنني قد سقطت في المستنقع، ربما كنا قد سرعاً لمتجاوزي الخان، وكنا ضمنا بالفعل في المستنقع الذي كان على بعد مائتي ياردة فقط من الخان كما علمت بعد ذلك...

كان الخان أحد المباني القديمة من عصر شاه عباس الأول، كان مكونًا من حجرات عظيمة الاتساع مشيدة من الحجارة ودراجات مستوية بينها، كانت الأرواب قد أصبحت متهالكة والدافئ متداولة. وفي أماكن متفرقة لا تزال توجد آثار نقوش فنية قديمة فوق أقواس الأرواب وخصوص شققته القدم: أما الحجرات القليلة الصالحة للإقامة فقد كانت مفرودة بالخشى المخلوط بروث الخيل الجاف. حين دخلنا أنا وإبراهيم القاعة الرئيسية، وجدنا الشرف على الخان يجلس بجوار ذراع مشتعلة على الأرض، إلى جواره كان هناك رجل حافظ القديم ضئيل الحجم يرتدي مطرقة ثانية كثير الرقع. حين رأيناه نهضنا، وإنحنى الرجل الضئيل برزائه أقرب إلى تمثيل السارح وهو يضع راحة يده اليمنى فوق موضع قلب. كان معطفه مركعًا بقطع كثيرة من أقمشة مختلفة الألوان.

48
والأنواع: كان قدراً، أشعث، إلا أن عينيه تميزتا بحيوية فائقة في وجه هادئ مرتخي الملامح.

غادر المشرف القاعة ليتقدم خليتا ويقدم لها الفداء، في حين خلعت أنا معطفي المشبع بماء الأمطار، بينما انهمك إبراهيم على الفور في إعداد الشاي على النار المشتعلة، وينتازل النبلاء والعلماء الذين لا ينتظرون من كرامتهم ومهابتهم حين يجاملون من هم دونهم تقبل الرجل الضئيل قدحًا من الشاي قدمه إبراهيم إليه.

ويدون أن تظهر عليه أية أمارات لفضول زائد، وبيطريقة من يبدأ حوارًا في إحدى قاعات الاستقبال الرسمية، استدار الرجل الضئيل نحو متسائل: "جنايك إنجلزي؟" أجبته: "كلا، أنا نمساوي.

سألتني: "أي من غير اللائي إن سألتك أمر عمل الذي دفعل إلى المجيء إلى هذه الأصقاع؟" أجبته: "أنا مراحل للصحف، وأنتقل في أنحاء بلدكم لأصفها لأبناء شعبي، إنهم يحبون أن يعرفوا كيف تعش الشعوب الأخرى، ويمذا يفكرون.

هز رأسه وعلت شفتاه ابتسامة مواقفة واستغرق في صمته، بعد فترة تناول وعاء تدخن فخاري وأخرج قصبة من طيات معطفه البالي، وثبت القصة إلى الوعاء الفخاري المليء بالفطر، ثم سحق شيئًا في راحة يده خمنت أنه طماق ووضعه بجانب عناية فائقة على حجر القاعة كأنه أغلق من الذهب، ثم غطاه بالجر المشتعل. وينحوه واضح راح يشفط الدخان من القصة، فيجعل بعدن وبصق مخلطًا من حلقه، كان الماء داخل الحلق يقرر برائحة حين بدأت رائحة نفاذة تملأ أرجاء القاعة وتعرفت على الرائحة في الحال: كانت رائحة القنب الهندي، المشيش، ففهمت سر سلك الرجل الغريب، لقد كان حساسًا مدميًا. لم تكن عيناه غامتين كما يحدث لعين مدمني الأثيوس (ه) فقدمته.

(ه) مادة مخدرة تستخرج من زهرة نبات التشيششي (المترجم)
الأفيون تظهر عليهم معالم الانفصال عن الواقع وعما يحيط بهم، كما تبدو عليهم حدة غير نابعة من ذواتهم، ويحدثون إلى معالم بعيدة لا يدركون غيرهم وغير موجودة في العالم المحيط بهم.

تطلعت إليها في صمت، حين انتهى من التدخين، سألكي:

ـ ألم تجري؟

رفضت شاكرًا، كنت قد جربت الأفيون مرة أو مرتين (دون الشعور بأي متعة)، إلا أن تجربة الحشيش بدت لي شاذة وغير مغرية، ضحك الحشيش بلا صوت وتفضصني بعيني نصف المغضنتين وتعبير ساخر على وجهه، وقال:

ـ أنا أعرف ما تفكر به يا صديقى المحترم، أنت تعتقد أن الحشيش من أعمال الشيطان وتخشى تجربته. هذا كلام فارغ، الحشيش هبة من عند الله... وهو ممتاز جدًا خاصة للعقل. انظر إلى يا حضرتى، دعنى أفسر لك الأمر، الأفيون شر - لا يوجد شك في ذلك - فهو يوقظ لدى المرء دوافع وتطالب إلى أشياء مستحيلة، ويجلد أخلاقه مليئة بالأطماع، يجعله مثل الحيوانات. أما الحشيش فيكبكت كل المطامع ويجعل المرء لا مباليًا بكل ما هو موجود في هذا العالم. وهنا مربط الفرس، إنه يجعل المرء راضيًا بما قسم له. إن وضعت جبالًا من الذهب أمام حشاش... ليس فقط أثناء تشخيه الحشيش، بل في أي وقت - فإذاك لا تجد حبرًا يخوم واحدة تجاه ذلك الذهب. أما الأفيون، فإنه يحول البشر إلى ضعفاء وجبانة، في حين يقتل الحشيش كل الخوف ويبعث في المرء شجاعة مثل شجاعة الأسود. لو طلبت من حشاش أن يغوص في أعماق بحرية ثلجية في الشتاء، فإنه سيقفز بكل بساطة إلى أعماق البحرة وهو يضحك في سعادة... لأنه تعلم أن خلاصة من أطماعه يخلصه أيضًا من الخوف. ومن يتجاوز الخوف فإنه يتجاوز أيضًا الخاطر وينجو منها، مؤمنًا أن ما يقع له من أحداث ليست إلا تصبيحه...»

ضحك في حبور من جديد تلك الضحكة القصيرة التي تهتز كل بدنه، ضحكة بلا صوت، تجمع بين السخرية والحكمة. ثم توقف عن الضحك وكسر تكشيرة ساخرة خلف سحابات البدخان، وعيناه اللامعتان مثبتتان على هدف ثابت بعيد غير مرن. 50
نصيبين من الحياة... رحنا أفكر في تلك العبارة وأنا مستلق تحت صفحة السماء المرصعة بنجوم الليل العربي الوهود. «أنا هذه الحزمة من اللحم والعظام والمشاعر والإدرار. خلقت في مسار هذا الوجود، وحين أكون داخل أي حدث اكتشف أن الخطر ليس إلا وهمًا: وأن ذلك الخطر لا يستطيع أن يقهير إرادتي، وأن كل ما يحدث ويعقع ليس إلا بعضاً من التيار المكون للحياة والذي يحتضن كل الوجود الذي أنا بعض منه. أفلم يكن على سبيل المثال أن يكون الخطر والأمان، والمروت والسعادة، والمصير والتحقيق، ليست كلها إلا وجهًا متباغتا لتلك الحزمة الضئيلة من اللحم والعظام التي هي أنا؟ يالها من حرية مطلقة بلا حدود، ياالله، ما أعظم هباتك للإنسان...».

كان لابد أن أغلق عيني، فقد كانت السعادة التي أشعر بها في تلك اللحظة حادة وقوية إلى درجة الإيلام، مسدنتي أجنحة السعادة القادمة من بعيد مع أنفاس الرياح التي تحول على وجهي.

[1]

دبت العافية في بدني مما مكنتني من الجلوس، وأحضر لي رضي أحد سروح الإبل لأنكَ عليه. قال وهو يضعه خلفي: «استرح ياامي. السعادة تمثل قلبي حين أراك بخير بعدما عدت وين الأمور». قلت له: «أنت بصري مخلص يا زيد. لا أدرى ماذا كنت أفعل بهدوك كل تلك السنوات لم تستجب لرسالتني وتحضر إلى من العراق». قال: «لم أندم أبداً على تلك الأعوام التي قضيتها معك ياامي. مازلت أذكر اليوم الذي تلقين فيه رسالتك مرح على تلك خمسة أعوام حين أرسلت تطلب مني القدوم إلى مكة... كان مجرد التفكير في رؤيتك من جديد يملئني بالسعادة، خاصة أن الله انعم عليك في ذلك الوقت بنعمة الإسلام. كنت في ذلك الوقت قد تزوجت من فتاة عراقية، عذراً، أبعنتني عليها فو ما يطقي عقله، باللياليات العراقية... لحن خصور دفعة، ونهوض صلبة مثل هذا» وَقَبَضَ بكمه على كورة السرح الصالبة وهو يبسم للذكرى وأردد: «من الصعب أن تترك تلك الأحاسين وتمضي بعيدًا... لذلك قلت لنفسي... سأذهب إلى مكة ولكن ليس
على الفور، بعد بضعة أسابيع أخرى، إلا أن الأساديع مرت وبتلتها شهر. وعلى الرغم من أنى قد طلبت تلك المرأة مرتين - بنت الكلب، كانت عيني على ابن عمها - فإنني لم أستطع ترك العمل مع عجائب العراق، ولا أن أترك بسهولة أصدقائي الذين عرفتهم هناك ومواهب بغداد والبصرة، كنت دائمًا أقول لنفسى: ليس الآن، بعد فترة أخرى...
وفي يوم كنت أركب ناقتي مبتدأً عن معسكرنا بعد أن قبضت رابط الشهر المنقضي، وذكرت أفكار في قضاء الليل لدى أصدقائي، في تلك اللحظة تذكرت وذكرت ما قلته في رسائلك عن موت زوجتك الفالية - رحمها الله وتقبله، وكنت تشعر بالوحدة بعد موتها، وفي لحظة قررت العودة إلى مكة، وفي نفس اللحظة مدت يدي ونزعت النجمة العراقية من على عقالى ورفعتها بعيدًا، ودون أن أعود إلى معسكر لجتمع أفرادى وأخوائي أدرت وجه التمثيل بجانب صحراء النفوذ، وانطلقنا إلى نجد، لم أتوقف إلا عند أول قرية لإتباع قرية ماء وبعض الوفاء، لم أتوقف بعد ذلك إلا في مكة بعد أربعة أسابيع من انطلاقنا...
قلت: "هل تذكر يزيد أول رحلة لنا معًا في أحوال الجزيرة العربية باتجاه الجنوب قاصدين وادي بيشا حيث بستاتين النخل وحقول القمح، ثم إلى صحرا رانيا التي لم يطأها أحدهم قبلي؟"}
قال زيد: "كيف أنساه يا عم؟ وجدت مصراً على زيارة الأربع الخالى في المنطقة التي يدفع فيها الجن الرمال إلى الغابة تحت نار الشمس... وما رأيك بالبدو الذين يعيشون على حدود الربع الخالى الذين لم يروا زجاجًا في حياتهم حتى إنهم ظنوا أن زجاج نزارتك مصنوع من الطلاء المجدب؟ كانوا هم أيضًا مثل الجن ذاته، يقرأون الأثر على الرمال كما تقرأ الشعوب الأخرى الكتب، ويقرأون على صفحات السماء والهواة ما ينثيث بالعاصفة قبل هبوتها. أتذكر يا عم ذلك الليل الذي استأجرناه من رانيا، ذلك البدو الكبير الذي كنت تزيده قليلًا بالرصاص حين أرد أن أركبته وسط الصحراء؟ كان في شدة غيظه من ألا التصور التي كانت معاك.
ضحكتا من أعماقا من ذكرى تلك المغامرة التي مرت عليها أعوام كثيرة. في حينها لم يكن فيها ما يبعث على الضحك. كنا على مسيرة ستة أو سبعة أيام جنوب الرياض.
حين تلبست الدليل حالة من الضيق والغضب بل والرفض حين شرحت له وظيفة الله التصوير التي أحلها، وأنها تصور ما أريد تصوريه... كان بديءًا متكعثًا ينتمي إلى تنظيم الإخوان في الرياض. قرر أن يتركنا في الصحراء! لأن معنا آلة مكونة تصنع صورًا والصور محرمة دينياً.

كان لا يمكنه فرائه أو لم تكن في منطقة مجهولة لي واصل، فإن تركنا بمفردنا فإنا لابد هالكين في تلك الصحراء. حاولت في البداية أن أقنع ذلك البدوي الشرير أنه لا ضرر من آلة التصوير ولكن بلا جدوى، لم تقلع معه كل وسائل الإقناع وأدار ناحته باتجاه رانيا بديعًا تركنا وحدينا بالصحراء. قلته له بحزم إن تركنا فإن ذلك سيفكه حياته! لأنه إن تركنا فإنما يتركنا للموت في الصحراء. لم يهتم بما قلت وهمز ناحته للمسير، صوتي بندقيتي نحوه، وأثارته باني ساقط النار عليه إن غادرنا وكت مواصفًا على فعل ذلك، وكان ذلك كافياً لأن يختار بين سلامته الشخصية وسلامته الروحية، وبعد قليل من التمتع وافق أن يتورثنا فقط إلى أول منطقة مأهولة على مسيرة ثلاثة أيام، أو نذهب إلى القاضي الشرعي لتحكم إليه في شرعية آلة التصوير.

جربنا أنه وزيد من كل سلاح معه، وتناوبنا حراسه أثناء الليل حتى لا يهرب... بعد عدة أيام وصلنا إلى القريعة وتوجهنا إلى قاسيها، في البداية أصدر حكمًا مؤيدًا للدليل: لأنه كما قال: «من العار والحرام صنع صور للأحياء» (قياسًا على فهم خاطئ لحديث للرسول ﷺ). من أن رسم الكائنات الحية حرام، ولا تحتوي الشرعية الإسلامية على أي تحريم في هذا الشأن. عند ذاك أخرجت القاضي الخطاب المفتوح الموجه إلى الملك «إلى كل أمراء البر وكل من يطلب على هذا الخطاب». استطالب وجه القاضي أكثر وأكثر وهو يتابع القراءة: «محمد أحمد ضيفنا وصديقنا وعزيزي علينا، كل من يظهر وداً له فقد أعذر وداً لنا، وكل من أظهر عداوة تجاهه فإنما يظهر عداوه لنا».

كان لخاطب إبن سعود وخطمه الذي ذهله به خطابه فعل السحر على القاضي المتشدد، فحكم بعد قراءة الخاطب بأنه «تحت ظروف معينة، يجوز عمل صور...» إلا أننا تركنا الدليل المتعصب يمضي إلى حاله، واستجابنا دليلاً آخر لโคتنا إلى الرياض.
قال زيد: «هل تذكر تلك الأيام في الرياض ياعمي، حين كنت ضيوفًا على الملك، لم يعجبك في ذلك الحين امتلاء مرايا الخيل القتيمة بالسيارات الجديدة اللامعة... وكرم الملك...»

قلت له: «هل تذكر أنت يوم أرسلنا الملك في مهمة استغلال سر تمويل تمرد البدو، وكيف رحلنا على مدى ليالي عديدة، ثم تسللنا إلى الكويت، حتى توصلنا إلى سر الريالات القضية الجديدة والبنادق التي كانت ترد إلى المتمردين عبر البحر?»

رد زيد: «تلك المهمة الأخرى ياعمي التي كلفك بها سيد أحمد أطلال الله عمره حين أرسلك إلى طبرق... وكيف عبرنا البحر سراً في دهوة!... وكيف وصلنا سفرنا حتى الجبل الأخضر في ليبيا، متخفين من رقابة الإيطاليين لعنة الله عليهم، وكيف التحقنا بالمجاهدين تحت زعامة عمر المختار؟ تلك الأيام المثيرة».

هكذا رحنا نسترجع الذكريات ونذكر بعضنا بأيام كثيرة مضت، أيام بلا حصر قضيناها معاً، وراحت عبارة «هل تذكركون»، «هل تذكركون» تترجح فيما بيننا وتتوغل بنا في أعمق الليل، حتى بدأت جموع الأشخاص المشتهلة تخدم تارهما، لم يبق منها إلا توجه جموع بعضها، ووجه زيد يتق увер إلى ظلال تدريجية مع انطفاء لهب الأشخاص، حتى غاص وجهه في ظلام دامس كانه أصبح ذكرى في نظرى الذي أثقه الله.

في صمت الصحراء الذي تثيره النجوم، مع هبات نسيم عليل يداعب سطح الرمال الناعمة، تداخل صور الماضي والحاضر، ثم تتفصل متداعية واحدة إثر أخرى مع أصوات استغاثة عاجبة، عادت الذاكرات عبر الأعوام إلى أعواما الأولى بالجزيرة العربية، وأول حج أودى فيه مكة، وإلى عتبة وكابنا أحاطت تلك الأيام الهزيلة: إلى وفاة السيدة التي أحبتها كما لم أحب أي امرأة أخرى إلى اليوم، والتي ترقد الآن تحت تراب مدينة مكة، لا يميز مركزها قبرها إلا حجر بسيط دون كتابة عليه، والذي كان نهاية طريقها وبداية طريقي: نهاية وبداية، النداء والصدى تشعقاً بفراغة في الوادي الصغير لكة.

(الدهر: مركز شراعي مألوف في سواحل الجزيرة العربية. (المترجم)
"زيد، هل هناك مزيد من القهوة؟"

"بأمرك يا عمِي.

رفع في إفطار القهوة النحاسي بعض اليسرى وفتح جانين صغيرين بلا مقبض يرطنها في صغرى بيد اليمنى واحده لي والآخر له. وصب بعض القهوة في مقاسة، وقدمه إلى. من تحت الظل شقيقه كوفيته على وجهه راحته عيناه.

"ترعيتي في بقكة وجهته، كما لو كان الأمر أخطر كثيرا من احتساء فنجان قهوة. تكلما العينان، العميلان بأعشابهما الطويلة ذات نظارات صارمة وحازمها بيد فيهما الحزون العريق في حالات السكون. إلا أنها مستعدة على الدوام إلى التحول إلى مرح وسرور مافاجئ. تكلما العينان تقرأ فيما حياة مئات الأجناس التي عاشت في البيوت والصحاري في حريت: تكلما العينان لرجل انحدر من أسلاف لم يستعبوا من شعوب أخرى كما لم يستعبوا شعوبًا آخر.

أجمل ما فيه خفة حركة: هادئة، واعية بإيقاعها، في غم جلة ويبلا تكاسل: اكتمال مع اقتصاد وقسط ينكر بكامل وتناغم الفرق الوسيقي. لا ترى هذا النمط من الحركة إلا بين البيد. انعكس اتساع الصحراء عليهم وعلى حركتهم، وباستثناء بعض المدن والقرى لم تناثر الحياة في الجزيرة العربية البشرية بقدر ما أثرت الجزيرة العربية بقسوة صحرائها وصرامتها في البشر وأجبرتهم على سلوكيات معيشية بأختزال كل الأفعال التي تمتها عليهم رغباتهم، وأخذت الضرورات الخارجية إلى حدها الأدنى، حتى تصبح محددة تمامًا وأساسية ولاستمرار الحياة، تلك الحياة التي ظلت على ما هي عليه لأجيال طويلة متعاقدة واكتسبت بمر الزمن بريق وبلغان الحدة الناعمة للبلورات: تلك البساطة المروية في السلوكيات والأشكال واضحة في إيمانهم وحركاتهم وفي سلوكياتهم وسائر حركاتهم.

- "قل لي يا زيد، إلى أين نتوجه غدا؟"

نظر إلى وابتسامة تعلو شفته: "كيف تسأل يا عمي، إلى تايمبا بالطعن..".

قلت: "لا يا أخي، كنت أريد الذهاب إلى تايمبا، ولكنني لم أعد أشعر بأي رغبة في ذلك. سنتوجه إلى مكة...".
الفصل الثاني

بداية الطريق

[1]

كان الوقت قريبَّ للمساء، وكانت قد مرَّت بضعة أيام بعد مواجهة تجربة الموت عطشًا، وصلنا إلى واحة صغيرة بسيطة قرنا أنا وزيد أن نبيت ليلتنا. بدت التلال الرملية الشرقية تحت أشعة الشمس الغارقة كأنها تطل من عمق ذات ألوان زاهية مثل ألوان قوس قزح، وظلل متجانسة كأنها مرسومة من ألوان الباستيل ومن ظلال الضوء. كانت الألوان المتباينة في غاية الرقة حتى بدت وكأن النظر إليها يدميها، ثم ينثني تدفق الظل الذي يتحول إلى غليظة من الإعظام المتزايد. ومع الإعظام المتزايد كان مازال بإمكان تمييز التيجان الفضية لأشجار النخيل، والمنازل الواطئة التي تكاد تتواري خلفها، البيوت وأسوار بساتين النخيل مشيدة من الطين المجفف، البكرة الخشبية التي تعتمل فوهة البئر تصدر صريرًا كالترانيم.

أنخىنا الإبل على مسافة من القرية تحت أشجار النخيل، أنزلنا مخل الأمتعة المعلقة على جوانبها، كما حالنا السروج ورفعتهم عن الجمال لتبرد. تجمع حولنا بعض الأطفال والصبية في فضول، عرض واحد منهم - له عينان واسعتان ويرتدي ملبس رثة - على زيد أن يريه مكانًا به أغصان جافة تصلح لأشعالها؛ وبينما ذهب معه زيد
لجب الأغصان، أخذت الإبل إلى البئر لأسقيها. حين أدللت الدار الجلدي إلى أعماق البئر ثم رفعته مليئًا بالمياه، أقبلت بعض نساء القرية وهم يحملن جرارًا نحاسية وفخارية للنها بالماء، كان يحملن الجرار على رؤوسهن في اتزان ورشاقة دون أن يسندنها بحزمين التي امتدت على الجوانب لحفظ توازن الجرار حاملات أطراف أغطية رؤوسهن بالبدل الأخرى فقبول مثل طور تخفق بأجنحتها.

قلن: «السلام عليكم أيها السافر».

ردت: «عليكم السلام ورحمة الله».

كانت تبايين سوداء، ووجههن سافرة. كما هو حال نساء البدو والقرى في تلك المنطقة من الجزيرة. فبدت عينهن سوداء واسعة. وبالرغم من استقرارهن بالواحات من أجساد طويلة، فإنهن لم يفقدن صفات الأسلاف التي تمت إلى حياة البرية القبلية. في اقتصاد الحركة، لم يخجل أن يمددين أيديهن ويتناولن حبل الدلو من يدي في صمت وسخين الماء من البئر لسقى إبلىً تماماً كما حدث من أربعة آلاف عام مضت، كما فعلت الأسلاف مع خامد إبراهيم (عليه السلام) حين أتى من أرض كنعان البحث عن زوجة لأسقى (عليه السلام) ابن سيدته بين بنات جامعية في بادان - آرام. تذكر التوراة ذاك؟

وأناج الجمال خارج المدينة عند بئر الماء وقت الظهيرة وقت خروج المستقيئات. وقال أبيا الزب إله سيدى إبراهيم يسر لي اليوم وأصبح لطيفًا إلى سيدى إبراهيم. ما أنا قادرون على عين الماء وناتج لدينها خارجهم ليستغنين ما. فلدين أن الفتاة التي أقول لها أملي جربك لأشرب فقول إذا أستغنى أنا أسقى جمالًا وأنت أيتها في التي عينتها لبديك إسقى. وفيها أعلم أنك صنع لطيفاً إلى سيدى.

وإذا كان لم يفرغ بعد من الكلام، إذا رفعت التي وادت لبثالكلي ابن ملكة ناحور أخى إبراهيم خارجة وجرتها على كتفها. وكانت الفتاة حسنة المظهر جدًا، وعذراء لم

(ه) سفر التكوين : 10-202 : 24 (الترجمة).
عرفها رجل، فنزلت إلى المنام رمأت جرتها وطلعت. فلخص العبد لقائها وقال استعينى قليل ماء من جرتك. فقالت أشبع يا سيدتي، وأسرعت وأنزلت جرتها على يدها وسقته. وما فرغت من سقيه قالت استقي لجمالك أيضًا حتى تفرغ من الشرب، فأسرعت وأفرغت جرتها في السفقة وركضت أيضًا إلى البئر لتصرب. فاستحق لكل جمالك.

طفت القصة التوارة على سطح أفكارك، وأنا واقف بناقتى أمام بئر واحة صغيرة في قلب صحراء النفود العظمى وتأمل عدد النازل التي تناولت جملة البئر من يد وسقيت الماء من البئر لتصرب جمالي. كنت هناك جمالي في بئر - منظر، وقريبا - بعيدة وكذا عصر إبراهيم (عليه السلام): إن تلك النسوة في تلك المنطقة، وما أثرها سلوكهم من تذكر أحداث مرت عليها أربعة آلاف عام، جعلنا ما مضى من قرون كأنها أحداث الأمس القريب.

"فليبارك الله أديبك يا أخواتي، وأحكفكم.

ردت: "وأنت أيضًا يحفظك الله يا المترحل".

واستدرن إلى جرارات فمالاتهما بالماء، وعندما بعيتهن.

* * *

بعد عودتي إلى موضع أمتعتنا تحت النخيل، أنسخت الأبل وكملتها حتى لا تشرد في الصحراء أثناء الليل. كان زيد قد أشعل النار وانهك في إعداد القهوة. كان الماء يغلي في إبريق القهوة الذي ينفي البزج من الحصى على شكل قوس، وكان هناك إبريق أصغر جارياً تحت كوع زيد. في يده اليسرى، أمسك بمقبض ملقة معدنية ضخمة يبلغ طول مقبضها نحو قدمين يحمص بها على النار قبضة من حبيب القهوة، في الجزيرة العربية تصنع القهوة طازجة كل مرة، بمجرد أن يغفو أبو حبيب القهوة، يضعها في ماء حساسي ويتحمثها. ثم يصب الماء الطلق من الإبريق الكبير إلى الإبريق الصغير، ويرغب فيه البن المطحون ويوضعه على حافة النار حتى تتضاع ببطء، حين تتضاع القهوة يضيف إليها عددًا من حبيب الهليل التي تزيد القهوة مرارة، لأي، طيفًا للقول الشائع في الجزيرة العربية، لا بد أن تكون القهوة الجيدة "مرة كالتها متهبة كالمشق".
لم أكن مهيبًا لتناول قهوتي باستمرار، كنت مجهدًا ولزجًا من العرق الذي غمر بدني بعد ساعات طويلة فوق سرج الناقة. أما مالكسي فقد كانت متسخة ولزجًا أيضًا تلتصق ببدني، كنت أتلهف إلى الاستحمام؛ فعدت سائرًا إلى البئر بين أشجار النخيل.

كان الظلام قد أرخى سده ويساتين النخيل مهجورة في ذلك الوقت من الليل، لم يكن هناك على البئر حيث تقع البيوت إلا كل بئر، خذلت مالكسي ونزلت إلى البئر، أمسكت بالأحجار النائمة وارتكتز عليها بقدمي واستعنت بحبل الدار حتى وصلت إلى المياه ثم غضت فيها. كانت المياه باردة وأوصلت رفعها إلى صدرى والجبال مداها إلى جواري في الظلام، منتسبيًا وتحظى الدلاء الغ(routes) مشحذة بالاستعداد، تحت قدمي كنت أشعر بالتدفق الرقيق للماء تتدفع إلى أعلى من عين تحت الأرض وتغذى البئر بثبات رقيق لا يتوقف.

بالأعلى كانت النسمات تتمهم على حافة البئر فترتد اله黑名单ة إلى أعمقها كطينيت يصدر من قواعدة حين تضغطها على أنذى، مثل تلك القواعدة الضخمة التي كنت أشغف بالاستماع إلى طنينها وأنا طفل في منزل أبي الذي نشأت به من أعوام طويلة مضت، طفلًا صغيرًا كنت، بالكاد، تصل عيناه إلى حافة الماء وتتطاير سطحها بصعوبة. أذكر أنني كنت أضغط القواعدة على أنذى وينتهيي الحيرة والتساؤلات: هل تلك الأصوات موجودة داخلها على الدوام؟ أم تصدر منهما فقط إذا ضغطتها إلى أنذى؟ هل تبعث ذلك الطنين بصفة مستمرة أم أن استماعي إليها هو الذي يبعثه من داخلها؟ حالت مراها أن أخذ القواعدة بأن أبعدها عن أنذى حتى يتوقف الطنين ثم أقربها فجأة في غفلة منها إلى أنذى: فسمع الطنين من جديد - لم أتيقن أبدًا إن كان الطنين دائمًا داخلها حتى لو لم أسمعها على أنذى أم لا. لم أعلم في ذلك الوقت بالطبع، أنني أخطأت ذهني بسؤال حيًّ صافرة أحكم منها على مدى دهور طويلة. كانت القضية هي: هل يوجد واقع مستقل عن إدراكنا، أم أن أدوات إدراكنا هي التي تخلق الواقع الذي ندركه؟ لم أدرك ذلك وقتها، ولكن حين أتذكر ذلك أكتشف أن التفكير في تلك المعضلة لايتمنمن طولطريحتى أعوام قريبة مضت - كما لازمته من وقت لآخر كل عقل بشري.
من فكر سواء في الوعي أو في اللاوعي: فهما تكّن الحقيقة الموضوعية، فإن العالم يتبدو لكل منا في شكل وجود انعكاساته على فكر كل امرئٍ على حدة، ولذلك لا يدرك أي منا من الواقع إلا ما له علاقة بوجوده الشخصي. ومن هنا نجد تفسيراً ملائماً لاعتقاد البشر المستمر منذ البداية التشاطرة لوعيهم في وجود حياة ثانية بعد الموت، وهو اعتقاد شديد العميق، شائع الانتشار عبر كل الحضارات عند كل أجناس البشر، ويتخلصون من فكرة الموت بنوع آخر من التفكير «بالتمنَّى»، ويبدو أنه يمكن القول بلا تجاوز أن ذلك النمط من التفكير كان ضرورياً لا يمكن تجنبه ويتواجد تمامًا مع التركيبة الخاصة للعقل والفكر البشرى. التفكير المجرد بعبارات نظرية في موت الفرد كفناء نهائى ليس صعبًا، ولكن إدراك ذلك واستيعابه وقبوله لن المستحيل. لأن ذلك يعني أنه يمكن أن يستوعب أيضًا فناء كل الواقع كما يدركه، وبعبارات أخرى، أن تنخيل العدمية: وهو ما لا يقدر عليه العقل البشري.

لم يعلمنا الفلسفة والبديهية الإيمان بالبعث بعد الموت، كل ما فعله أن أعطوا شكلًا ومحتوى روحيًا لإدراك غريزي قدم البشر.

* * *

ابتسمر في داخلي لتعراض ما أفكر فيه من أمور ذهنية عميقية مع ما أنا منهك فيه من أعمال أرضية دونية من إزالة العرق والاقترار التي تراكمت على بندي من سفر دام أيامًا. ولكن على أي حال هل هناك حد واضح مميز بين ما هو دنيوي وما هو ذهني عميق مهب؟ هل يوجد على سبيل المثال ما هو أكثر دنيوي من الانطلاق بحثًا عن جمل شارد، وهل يوجد ما هو أثر أو أعصي على الفهم من وشك على الموت عطشًا؟ ربما كانت الصدمة الناجمة عن تلك التجربة القاسية هي ما جعلت حواسى وأفكارى أكثر حدة وتتيقظًا كرد للإدراك لذاتي: الاحتكار إلى الفهم والإدراك بعمق أكبر لمسار
حياتي الشخصية، إلا أنني استدركت متسائلًا: هل يوجد حقًا من يستطيع أن يفهم المعني والمغزى من حياتي مدام هو على قيد الحياة؟ نحن لا نعرف بالطبع ما حدث لنا في فترات ومرحلان عمرنا المختلفة، وقد ندرك ونفهم أحيانًا ماذا وكيف حدث لنا ما حدث، إلا أن هدفنا ووجهتنا - مصرنا - لا يمكن أن تلمسه أو نحيط به; لأن المصير هو مجموع ما اعتمل بداخلنا وحركنا في الماضي والحاضر، وكل ما سيستمر بداخلنا وحركنا في المستقبل... ولهذا فهو لا يصبح عن مكونه إلا عند نهاية الطريق، ولن أن يظل مغلقًا على الفهم أو نصف مفهوم مادمنا على درب الحياة.
كيف لي أن أحدد، وأنا في الثانية والثلاثين من عمرى، ما الذي كان عليه مصيرى، أو ما هو الآن؟
أحيانًا بحريني على أني أخرى حياة رجلين حين استعيد ما مضى من حياتي بعد التذكر، وحين أنفس في هذا التفكير، أتسأل، هل ذلما الجانبان من حياتي متغايران إلى هذا الحد - أم أن هناك خلف كل الأشكال المختلفة في النمط والاتجاه، مشاعر واحدة ودفء واحدًا لحماه معا؟
رفعت رأسى فرأيت جزءًا مستديرًا من السماء بحجم فوهة البئر مليئة بالنجوم. في وقتها الساكنة ب بلا حركة أحسست أنني أرى انتقالها البطيء عن مواضيعها في حركة مستديمة لا تتوقف، صفوف بعد صفوف على مدى ملايين السنين. انتقلت نكود إلى ذلك الصف الضئيل من الأعوام - الذي يكون عمري - السنوات الباقية في ذاكرتي عن دفء وأمان غرفة طفلتي في مدينة كنت على دراية بدوبيها المتعزلة وأركانها النائية مثل دراية بفصولها المشروعة ومعالمها البارزة، ومن بعد تلك المدينة مدن أخرى مليئة بالتبادل والمزادات، وأمال لا نهاية تموج في صدور شباب في مقتل أعمارهم، ثم بعد ذلك الانتقال إلى عالم جديد ومختلف بين أناس لهم سلوكات مختلفة يبذلون في نظرى غير متحضرين أول الأمر، ومع مرور الزمان أحسست بالتألُك عميق معهم، وأني أنتمي إليهم أكثر ما كنت أنتني إلى شعبى في موطنى. ثم بعد ذلك مرتحلًا بين الفيافي والقفار وصحاروات بلا نهاية، ثم في مدن قديمة قدم الوعي الإنسانى، في بيد بلا إفق.
وجبال تذكر وكحتها بحشة القلب الإنساني، والوحدة في هجر الصحاري؛ والنمو البطيء المطرد ليقف إن م، ثم ذلك اليوم بين جليل منطقة هنبو- كون في أفغانستان، بعد مناقشة طويلة مع صديق أفغاني، صاح بعدها: «ولكنك مسلم، إلا أنك لا تعلم ذلك...»، وذلك اليوم بعد شهر آخر، حين تبعت أنثى مسلم، ثم جهتي الأول إلى مكة، وممت زوجتي، والياسين الذي تلاه؛ ثم تلك الأعوام الطويلة التي قضيتها بين عرب الجزيرة العربية بعد إسلامي: ثم أعوام طويلة من الصداقة العميقة مع ملك خلق بسيطه مملكة من عدمه ثم توقف على ست خطوة واحدة من العظمة الكامنة، وأعوام من التجوال في صحارى الجزيرة العربية، ومهم خطرة أحسدها إلى الملك وقتها بها في مناطق القبائل المتمردة، ورحيله إلى مواقع ثور ليبيا الذين يجاهدون في سبيل استقلال بلادهم، ثم الإقامة الطويلة بالمدينة حيث كسرت كل جهدى لتعزيز معرفتي بالإسلام في مكتبة مسجد الرسول، (النبي)، وحجي السنوى إلى مكة، وزوارى من فتيات بدويات، ثم تطليقى له: والعلاقات الإنسانية الحيمة التي يربطني بكثير من الأصدقاء، ثم أيام من الانطواء والوحدة، وخوض المناقشات رفيعة المستوى مع مثقفين وعلماء مسلمين من جميع أرجاء العالم الإسلامي، ثم رحلات إلى مناطق لم يطاف بها أجنبي من قبل بالجزيرة العربية: كل تلك أعوام من الانعصار في عالم ينشاه العرب ويجهول وجودها.

وجدت صف أعوام حياتى طويلةً، لا قصيرًا كما بدا لي، طفأ الأعوام الغارقة في أعماق النسيان على السطح، أماطته اللامع عن وجهها من جديد ورحبت تناديتي بأصوات مختلفة متباينة: يغيب، وبخفة متتالية في أعماق القلب، اكتشفت أن طريقى كان طولًا ولياً للغاية حتى الآن. قلت لنفسى: كنت على الدوام تجري بلا توقف، لم تكن حتى اللحظة شكلًا محدداً لحياتى يمكن أن تتلمسه، كما لم توصل إلى الآن إلى إجابة للتساؤل، إلى أين تمضي؟... تتقلت بين بلاد كثيرة، وكنت ضيفًا على بيوت لا تستطيع عدها، إلا أن توقف ورغبتك إلى ما لا تعرفه لم يصل إلى إشباع حتى اللحظة، لم تزل غربًا حتى اللحظة، لم تضرب جذراً في مكان».

لماذا تدور بذهني تلك الأفكار، حتى بعد أن وجدت مكانًا بين شعب أهمن بما يؤمن به، لماذا لم أضرب جذراً في مكان؟
منذ عامين، حين اتخذت زوجة من بنات المدينة، رغبت أن تهبني ابنًا. وقد وهبتني ابنًا، طلبت بعدمها أشعر أن العرب هم أهل وعشيرتي وأصهاري وأخوتي في الإسلام. أردت لابنتي أن يضرب بجذوره عميقًا في هذه البلاد، وأن يشب واعيًا بإرث الحضاري الإنسان العظيم. وقد يبدو هذا كافيًا لأي أمرئ لجعل أي مرشح مثل راغبًا في الاستقرار، وأن يشيد ببيثًا لأسرته. لماذا إذا إذن ليحتلى وترحالي؟ وماذا لا تشبعني تمامًا تلك الحياة التي اخترت نمطها بنفسها؟ ما الذي ينقصني بهذا الوطن؟ بالطبع ليست القضايا الفكرية التي تشغل أهل أوروبا والغرب عامة. لقد تركتها خلفي، ولم أشعر أنني افتقدتها في أي لحظة، في الحقيقة، أصبحت بعيدًا عنها بسًا غالبًا، حتى إنه أصبح من الصعب أن أكتب إلى أي صحفية أوروبية من الصحف التي تدفع لي ما أُجري عليه، في كل مرة أرسل فيها تقريرًا، كنت أشعر بأني أحبجر في بحر بلا قرار: يختلف الحجر في ديار الجزائر، بلسد الصوت يتم عن وصوله إلى قاع البحر.

كنت متمحكة في أفكار ملتهبة ومحيرة، نصف غاطس في مياه بحر مظلمة في واحة عربية، فجاءت طفأ صوت من أعمق ذاكرتي، صوت رجل عجوز من قبائل الأكراد بشمال إيران، قال لي ذات يوم: المياه الراكدة في بركة تتعطى وتشبع بالطين والعكر، أما المياه المتحركة المتذفقة، فإنها تظل نقيًا، هناك الإنسان في سكونه أو تجواله.

كان سهرو ألم بي، احتكت الحيرة. بدأت أنظر إلى نفسى بين مغارة من بعيد، أتصفح نفسى كمن يفر صفحات كتاب ليختار من بين محطيات ما يصلح للقراءة، وبدأت أدرك أن حياتي لم تكن لتأخذ مسارًا مختلفًا Uma هي عليه الآن، أبدًا.

والآن، حين أسأل نفسى: "ما الحصاد الكلي لحياتي التي عشتها حتى اللحظة؟ أجد أن بعضًا مني يجيب: "خرجت لتنبيل عماليًا عالميًا، كنت عالماً جديداً لنفسك بدلاً من عالم قديم لم تملكه قط، أدركت بوضوح ثام أنني قد أخذت على عاتقى مهمة قد تستغرق عمرًا بكامله."
تسقت خارجًا من البئر، ارتديت ملابس نظيفة كنت قد أحضرتها معي، ثم عدت إلى الموضع الذي وضعنا رحالنا فيه، كان زيد قد أعد القهوة، احتستها ثم تمتدد منتعشًا ومستدفًا بالذار التي أعلها زيد.

[2]

كانت دراعي متشابكتين تحت عنقي، وأنا مدفوع على الرمال، أتأمل ليل الجزيرة العربية الذي يغشائي، ليل حالي تزين سماءه نجوم كثيرة. هي نجم في قوس عظيم.
ثم تلاه أخرى بعد فترة، ثم ثالث: أقواس من ضوء تختفي حجب الظلام. ترى أمي كل شهيرة من كواكب مدمرة، أم شذرات كوارث كونية تسحب في فراغ الكون الهائل؟ أو ساففت زيد، سيرد بنتها ليست إلا رمادًا من نار ترمى بها الملائكة الشيطان الذين يحاولون التسلل في ليل معينة إلى السماء للتجسس على الأسرار الإلهية... ربما تكون تلك الوليمة الشديدة التي تهيئ في الشرق موجهة إلى أبيس نفسه ملك الشياطين؟

أصبحت أعرف كثيرًا من الأساطير المرتبطة بالسماء والنجم، أكثر مما هو معروف عنها في موطن طفولي وشبابي في النمسا.

كيف يمكن أن يكون شيئًا آخر؟ منذ أن جئت إلى الجزيرة العربية وأنا أعيش كما يعيش أهلي، وأرتدي الأزياء العربية مثلهم تمامًا، وأتحدث العربية، أحلامي التي أراها في المنام باللغة العربية، العادات والتصورات والوجدان العربي صاغ أفكارى دون إرادة مني؛ لم تعقلني أية تحفظات فكرية من التي تحول دون الأجنبي والتواصل إلى حالة من التفهم الحقيقي وال التواصل مع شعب آخر.

فجأة، وجدت نفسى أضحك بصوت عال، ضحكة سعادة وتحرير - كانت ضحكة بصوت مرتفع حتى أن زيد نظر إلي بدهشة وأدارت نافذتي رأسها باتجاه مستطاعة في بئر وشموخ، كان سبب سعادتي اكتشافي المفاجئ أن طريقي في الحياة كان سهلًا ومستقيمًا بالرغم من طوله البالغ، وربما ما بين عالم لم يملكه إلى عالم أملكه تمامًا لأنه من صنعي وإرادتي.
لا يشبه مجيشى إلى هذه البلاد عودة الغائب إلى وطنه?

عودة القلب إلى موطنه الأول الذي هجره من آلاف الأعوام، وعد الآن ليتعرف على سماوات تلك المنطقة، سماواتى، بسعادة وفرح يؤلان من حديثهما. هذه السماء العربية، الأشد ظلاماً والأكثر عناً، الحافلة بالنجوم أكثر من أي سماء أخرى. كانت هذه السماء ذاتها التي علت أسلافها الأوائل أثناء هجراتهم وتجولهم في قوافل جواً، من الرجال المقاتلين، انطلقوا من آلاف السنين من هذه الأرض مع قوة تناميهم، يدفعهم الطمع إلى امتلاك أرض خصبة والحصول على الأسلاط باتجاه أرض كنعان الخصبة، إلى مستقبل مجهول: تلك القبيلة النبطية الصغيرة من العباريين، أعداد ذلك الرجل الذي سبود بعد ذلك في مدينة أور الكلدانين. ذلك الرجل، إبراهيم، لا ينتمى إلى مدينة أور التي ولد بها. فلم يكن إلا إبنًا من أبناء قبائل عربية عديدة شقت طرقها في وقت ما مهاجرة من شع وهدف الجزيرة العربية إلى أرض الأحجار بالشمال التي سمعوا أنها تفيض لبنًا وعسلًا - أراضي آمنة في الهلال الخصيب، بلاد سوريا وما بين النهرين.

كانت تلك القبائل المهاجرة تنجح أحيانًا في هزيمة بطرد القبائل التي سبقتهم وينصبون أنفسهم حكامًا بدلًا منهم، ثم يختلطون وينجوبون تدريجيًا مع المهزومين ويخطون معاً إلى أعتاب تكوين أمة جددة - كما فعل الآشوريون والبابليون الذين أقاموا ممالكهم على حطام الحضارة السومرية، وكما فعل الكلدانين الذين تنامت قوتهن في بابل، أو العموريون الذين عرفوا بهذين باسم الكتانيين في فلسطين والعدينين على سواحل سوريا. في عصور أخرى كانت القبائل المهاجرة شديدة الضعف لا تقدر على هزيمة من سبقوهم إلى الاستقرار فيذىون داخلها، أو يدفعون بهم من جديد إلى الصحراء، ليبحثوا من جديد عن مراة أخرى أو أرض أخرى لغزوها.

كانت عشيقة إبراهيم من تلك القبائل الضعيفة، وكان أصل اسمه كما - ذكره سفر التكوين - آب - راب الذي يعني بالعربية القديمة "شيذة الرغبة"، سكنوا مدينة أور على حافة الصحراة، في عصر لم تتمكن فيه القبيلة من الاستيلاء على أرض في بلاد النهرين، كانوا على وشك الهجرة إلى الشمال بمحاذاة نهر الفرات باتجاه حاران ثم
إلى سوريا. كان "مشهد الرغبة" هو السفري الأول الذي قاده الله إلى أفاق مجهولة اكتشَف فيها ذاته، وكان هو وحده من كان بإمكانه أن يتفهم لماذا أنا هنا - فهو الآخر جال كثيرة وظل في رحيل دائم عبر بلاد كثيرة قبل أن يشيد ببنيان حياته على أساس متن يمكنه أن يلمسه بيديه ويرى أبعاده، نزل هو أيضًا ضيفًا على بيوت كثيرة في أماكن شتى قبل أن يسمع له بضرب جندوه في مكان، حديثتى تبدو ضئيلة بجوار تجربته الإبلية التي تكتنفها الأسرار. لابد أنه علم في حياته - كما أعلم أنا الآن عن حياتي - أن المعنى الكامل في ترحالي يكمن في رغبة خفية أن ألتقي بذاتي عن طريق التقاليد بعالم يعد الألفة به إجابة على جوهر مسألة الوجود، والواقع الحقيقي، الذي يختلف كلية عما ألفته في طفولتي وشبابي.

ما أطوله من طريق يمتد بين طفولتي وشبابي في قلب أوروبا حتى حاسري الحالي في الجزيرة العربية، إلا أنه طريق متعت عند تذكر معالمه، خاصة إذا عدت به عكسًا، مرتحلاً إلى الماضي.

تلك الأعوان المبكرة من طفولتي في مدينة لوردو البولندية – كانت في ذلك الوقت من ممتلكات النسا - منزل هادئ ورصين مثل الطريق الذي يظل عليه: شارع طويل جميل إلا أنه مترقب قليلاً، تحفة من جانب أبي شجرة البندق، مهد بكثيل خشبية كانت تضخم وقع خطوات الخيل عليها. أحببت ذلك الطريق بوعي يفوق وعي طفولتي، لا لأنه طريق بيتي فقط، ولكن كما أظن لأنه كان يبعث مشاعر نبيلة بامتلاك الذات التابع من مرح وسعادة أبعد مدينتي كما بدت لي في طفولتي بحضانتها الساكنة على حافتها وساحة المقاور الكائنة في مكان خفي غير ظاهر داخل تلك الغابة. وتمضى العرابات الجميلة ذات العجلات الصامتة المغطاة بالكارتشوك، إلا من صوت الإيقاع الرتيب لحوافر الخيول، أو إن كنا شتاء، تغطي الشارع طبقة جليد بسمك لا يقل عن قدم، تتزلق عليه الزلاجات، ويخرج البخار كالسحب من مناخي الخيول وينوي صوت أجراسها المعلقة برقباتها في
الворот القارس: أو كنت أنت ذاك الجالس على الزلاجة، وتشعر بالصقيع يمرق ملمسًا لوجبك ويجد خديك، فإن قلبك الطفولي يوقن أن شكل الخيول التي تجر الزلاجة، يحملك إلى سعادة لا تبدأ أبداً ولا تنتهي.

كانت هناك أيضًا أشهر الصيف في الريف؛ حيث كان يعيش جدي لأمي، وكان من رجال المعاصف الأثرياء، اقتنى ضياعه بالريف ليسعد بها أسرته. كان يملك الضياع جنونًا جارى تحف به أشجار الصفصاف؛ تحوطه مراة عشبية مليئة بأثاث متكاسل، والضوء والأزهار محمولن برواف الحيوانات والقوش والذين وضحك الفتيات القريوب اللاتي ينشغلن في المساء بحلب الأبقار، تشرب الحليب الدافئ الذي تعلوه رغوة طازجة، مباشرة من السطل - ليس لأنك عطشان - يقدر ما تجده مثيرًا أن تشرب ابنًا محليًا لتهو...

وكل الأحياء من شهر (آب) أغسطس، أيام حارة تقضيها في الحقول بين عمال المزرعة المشغولين بحصاد القمح، وعند النساء اللاتي كن يجمعن سيقان القمح ويربطنها في حزم: منهن شبابات في مقتبل العمر، متمتعات عند النظر إلى أجسادهن القرية المشدعة، وأصحابن الشاهدة، وأذرهن القوية الدافئة، تشعر بقوتها حين يحظك بها معتصرات إياك فيما يبدو وكأنه مداعبة بريئة في راحة الظهيرة بين أعمدة القمح: كنت صغيرًا قل أفهم ما يبعد عن اللعب من تلك الاحضانات الدافئة...

هناك رحلات اصطحبني إليها أبي وأمي إلى فيينا وبرلين وجبال الألب وغابات بوهيميا، ويبحر الشمال وبحر البلطيق: أماكن بعيدة جداً عن مدينةنا حتى إنها كانت تبدو لي كنها عالماً آخرًا جديداً. بفكر مرتين وقدرناها، كانت أول صافرة القطار البارد، وأول دورة لرحلاتها تجعلني قليلاً يوشك على التوقف من توقعى للمجازر التي سأراها ونكشف لعشن نفسها، ورفة اللعب، أولاد وبنات، شقيقتين وشقيقتين، وأبناء أعمام وأخوات: وأيام الأحاذ العظيمة التي كانت تعني الحرية بعد أيام الأسبوع الكثيفة المضنية في المدرسة: نخرج معًا لإقامة المخيمات في الأماكن الخلابة.

القاءات الأولى المختلسة مع البنات الجميلات من سنى، وحمرة الخجل من الإثارة التي لا يفيق المرء منها إلا بعد ساعات وساعات.

68
طفولة سعيدة كانت، مشبعة حتى بعد انفصالها. كان أبويا يعيشان عيشة رغدة، وعاشوا الجانب الأعظم من حياتهما من أجل أطفالهما. كانت أمي هادئة الطباع وكان هدوها متصلاً ببساطتها، وهي بساطة كيف كانت نفسها عليها في أوقات الأخيرة، كان أبى من داخله قلقًا متوترًا، وربما كان ذلك ما انتكس عليه وتطبعت به.

* * *

إن كان على أن أصف أبى، فلا بد أن أذكر أن ذلك الرجل الذي كان حبيبًا إلى نفسى، كان نحيلًا، متوسط القامة، ذا الابتسامة الطيبة، العينين تفهمينًا عاطفيًا، ولم يكن متواضعاً مع ظروفه. في شبابه المبكر حلم بتكييف حياهه العلمي، خاصة الفيزياء، إلا أنه لم يتمكن قط من تحقيق هلمه واضطر إلى أن يرضى بمهنته التي عمل بها وهي المحاماة. وعلى الرغم من نجاحه في عمله بعلاقته الذكية المفتوحة، فإنه لم يجد ذاته في ذلك العمل، وربما كان ميله إلى الوحدة ناتجًا عن إدراكه الدائم أن اهتماماته الحقيقية قد خذلته.

كان أبى - جدي - حبّيًا يهوديًا في مدينة شيرنوڤيسك عاصمة إقليم بوكوفينا الذي كان تابعًا للنمسا. مازلته أتذكروه كرجل عجوز ملهم بالشمائل والخصال، له كان رقيقان ووجه رقيق اللامع تحيطه لحية طويلة بيضاء، وعدا اهتمامه الشديد بالرياضيات وعلوم الفلك. وكان يدرسهما في أوقات فراغه - كان أيضًا لاعبًا ماهرًا للشطرنج، بل من أمهير لاعبي الحى الذي كان يقتنوه. وكان الشطرنج سببًا في الصداقة العميقة التي ربطت بينه وبين القس المسيحي الأرثوذكسي اليوناني. كانا يقضيان أمسيات كثيرة حول رقصة الشطرنج، وكانا كثيرًا ما يقطعان الانتهاك في اللعب مناقشات مطولة حول الجوانب الميتافيزيقية في دينيتهما. قد يرَّؤس بأن مثل ذلك الاهتمام من جانب جدي بالمسائل العقلية فإنه لم يدب وذ بابحاث ابنته - أبى - دراسة العلوم. ولكن على عكس ذلك، قرر بلا تراجع أن ابنته البكر لابد أن يحافظ على التقاليد الروحية التي
حرصت عليها العائلة على مدى أجيال طويلة، ورفض مجرد التفكير في أي مهنة أخرى لأبي عدا وراثة مهنته الحبرية. ربما قوى من إصراره واقعة مؤسفة أسامة سمعة العائلة وحرصت أسرة جدي على إخفاء أخبارها وتكتمها: فقد "خان" عم جدي تقاليد العائلة بطريقة مشينة وتحول عن الديانة اليهودية، دين أجداده.

كان من الواضح أن ظل الجد الأسطوري هذا، والذي لم يكن اسمه يذكر قصصه مسموع، قد نشأ بنفس الطريقة المشددة، رسموه جربًا كامل الصلاحيات في سن مبكرة، وزوجته امرأة لم يكن يحبها، وحيث إن مهنة الحبر لم تكن تُدرَّ ما يكفي للمعيشة في أيامه، فقد كان يزيد من دخله بالتجارة في القراء، وكان ذلك يلزم قيامه برحلة سنوية إلى سوق القراء المركز في أوروبا في مدينة ليجز، ودائماً يوم، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، انطلق بعريته التي تجرى الخيل في النصف الأول من القرن التاسع عشر، إلى واحدة من أسفاره التجارية البعيدة. في مدينة ليجز باع القراء الذي كان قد جمعه كما يفعل كل عام، إلا أنه باع العربية والحصان أيضًا، وحقق لحيته وأزال سوالفه، ونسى زوجته التي يبغضاها، ثم توجه إلى إنجلترا. وظل فترة يعمل أعمالًا وضيصة، ودرس الرياضيات والفلسفة في المساء. واستشعر أحد الذين عمل لديهم مواهب العلمية، فعاونته على متابعة دراسته بجامعة أوكسفورد، وتخرج فيها كباحث واعد، ثم تحول إلى المسيحية. وبعث وثيقة طلاق إلى زوجته اليهودية، ثم تزوج فتاة مسيحية من طبقة النبلاء، ولم تعرف عنه عائلتنا شيئًا بعد ذلك، استثناء أنه قد تميز كعالم فلك وأستاذ جامعي ناجح، وحصل في آخر حياته على لقب "فارس" الإنجليزي.

كان ذلك المثال المروع سببًا في إصرار جدي لأبي على اتخاذ موقف صارم تجاه ميل إلى دراسة العلوم الدينية، أصر على أن يصبح أبي رجل دين، وحقق له ذلك.

لم يكن أبي من الذين يستسلمون بسهولة، فبينما كان يدرس التلمود بالنهر، كان يقضي أغلب الليل في الدراسات التي يحبها سرًا، دون مساعدة مدرس راح يدرس تاريخ تطور الرياضيات. في وقت ما، وثق بأنه فشل بها بما يفعل، وبالرغم من قلقها، إلا أن طبيعتها السريعة لم تنشأ أن تحرم ابنها من تحقيق رغبة عمره. في سن الثانية
والعشرين كان قد درس ما يُدرس في المدارس في ثمانية أعوام في أربعة أعوام فقط، وتقدم إلى امتحان البكالوريا واجتازه بنجاح وتفوق. وبعد حصوله على الشهادة وانتهاء الجراحة، اجتزاه على إفساح السر المخيف إلى جدي، وترتب على ذلك مشهد مأساوي، ولكن جاء رضيخ في النهاية ووافق على أن يترك أبى الدراسات الدينية، وأن يكمل تعليمه الجامعي.

لم تسمح الحالة المادية للأسرة على أي حال لأبي أن يحقق حلمه الكبير في دراسة الفيزياء، ووجد أنه لابد أن يعمل بمهنة مربحة تُدر عليه دخلاً فتحول إلى المهامة. بعد ذلك بأعوام استقر في مدينة لو - وو في جاليشيا الشرقية وتزوج أمي، وكانت واحدة من أربع بنات لمصرفي ميسور الحال، في تلك المدينة، في عام 1900، ولدت كاثانى الأبناء الثالثة لأبي.

ظلت رغبة أبي العازمة لدراسة العلوم تبدو في قراءاته الموسعة للموضوعات العلمية، كما بدت في اهتمامه الشديد الذي لا يظهره بوضوح بابته الثاني - أنا مع أنى أظهرت ميلًا لدراسات لا تتمثل مباشرة باكتساب المال ولا تعد بتحقيق "مهنة" ناجحة فلم يكتب لأمالي في خلق عالم من ابنه النجاح. بالرغم من أننى لم أكن غبى، فإنهى كنت لا مباليًا، كانت الرياضيات والعلوم الطبيعية على وجه الخصوص تصيبنى بالضجر والملل، في الوقت الذي كنت أشعر فيه بمعينة كبيرة في قراءة الروايات التاريخية الرومانسية المثيرة التي كان يكتبها "سانايك فتش"، وقصص الخيال العلمى التي كان يكتبها "چول فيرن"، وروايات الهنود الحمر التي كان يكتبها "چيمس فينمر كوير" و"كارل ماي"، وبعدما أشعار "ريكة"، والاستماع إلى المقطوعات الموسيقية الإيقاعية لـ"السو سيراخ زارا فوسترا". كانت أنغام الجاذبية الأرضية وقوانين الكهرباء لا تقبل ضجراً عن قواعد اللغة اللاتينية واليونانية، كنت أنتهى من دروسها وبرودة تسري في أوصالي - وغنى عن القول أنى كنت أختبئ اختبارات تلك المواد بشق النفس. أصاب ذلك أبي بإحباط شديد، إلا أنه وجد بعض العراء في رضاء المدرس.

71
وطبقًا لتقاليده عائلتنا، تلقيت دروسًا دينية خاصة بالمنزل، وكانت عن القصص الدينية العبرى، لم يكن ذلك عادةً إلى اهتمام خاص بالدين لدى أبى، فكانت ينتميان إلى جيل يرى الطقوس الدينية باللهجة والشفاء، فعلى الرغم من أن تلك الطقوس شكلت حياة أسلافنا الأوائل، فإنهم لم يبدأوا أي جهد لتوافق حياتهم اليومية مع تعاليم الدين أو حتى بالالتزام الأخلاقي الذي تعلمه عليهم تلك التعاليم. في مثل ذلك المجتمع تراجعت مفاهيم العقيدة الدينية وتقلصت إلى موقف من اثنين: ممارسة طقوس جامدة من قبل المتمسكون بالعمرود أرثهم الدينى، أو لمبالاة ساخرة من قبل الآخر.

«تحرراء الذين يعتبرون الدين خرافة عقلياً عليها الزمن والتي يتقبلونها في بعض المناسبات كمظاهرة لا يد منها إلا أنهم يسخرون منها سراً، كما لو كانت موقعة عقلياً لا يمكن الدفاع عنه. كان أبوئي ينتميان إلى الصنف الأول، إلا أن الشكل قد اعتراز أن أبى كان يميل إلى الصنف الثاني. على أي حال أصدر أبى أن أوائل على دراسة النصوص الدينية لساعات طويلة كل يوم، وكذلك، وجدت نفسى وأنا في سن الثالثة عشرة أقرأ العربية ببطلاقة وأتحدثها بإتقان، كما ألمت بالآرامية (وهو ما يفسر سرعة إتقانى للعربية بعد ذلك)، ودرست التوراة في نصوصها الأصلية، والشاعر، وال ביبراء.»

وهي نصوص التلمود وتفسيره.. أصبحت عالماً بمضامينها، وكان بإمكان شرح الفرق بين التلمود البابل والتمود الأورشليمي بإتقان ومتمرس، ثم اقتسمت في دراسة التفسير المعقد للتوراة المسمى «تجوم»، درسته كما لو كنت أكرس نفسى لنصب ديني.

على الرغم من النبض في دراسة الدين، أو ربما بسببه، نمت لدى مشاعر بالتعالى تجاه جوانب كثيرة من العبادة اليهودية وما تتضمنه من وجه فكري. لم أرفض بالتأكيد الحقوق الأخلاقية التي أكرمتها النصوص اليهودية ولا الوعي الرفيع والسامي بالرب لأنبياء اليهود - ولكن ما رفضه عقله هو مابدا من أن الرب في النصوص التوراتية والتمودية يهتم اهتماماً غير مفهوم ولا ميرور له بالطقوس التي لابد على عباده من أدائها، كما وجدت أن الرب مشغول فوق العادة بمصير أمينة دون غيرها، وهم اليهود بالطبع. مالت نصوص التوراة التي تؤثر نسل إبراهيم إلى إبراز الرب لا
كخالق وحافظ لكل خلقه من البشر، بل كرب قبل يسخر كل الخلق لخدمة ما يحتاجه “الشعب المختار”؛ ويعده بمكافحتهم لتحقيقهم في غزواتهم إن كانوا مخلصين له، كما يعرضهم للتعذيب على أيدي الكافرين به حين يبتعتون عن طريق الإخلاص له كما وصفه له. على ضوء ذاك العين الجوهرى، نجد الحمس والترغيب الدينى لبنياء اليهود المتآخرين لا يстанавلى كونه رسالة إسلامية لكل البشر.

على الرغم من أن تلك الدراسات الدينية أتت بنتائج عكسية - فقد أبدعتى أكثر مما أبدعتى من عقيدة أهل وأجدادي - فإن تلك الدراسات أفادتني في الأعوام الأخيرة في فهم الغرض الجوهرى لأية دين، كما هو، ومهما يكن شكله، لم يؤد شعورى بالإجهاض تجاه الديانة اليهودية في ذلك الوقت إلى البحث عن معنوات روحيه أخرى. فتحت تأثير تلك البيئة الإلارادية الدينية اليهودية، وجدت نفسى أندفع، أنا وأولاد كثيرين من عمري، إلى رفض ذلك الواقع وكل مؤسساته الدينية؛ حيث إن عقيدتي لم تمنع لي أكثر من مجموعة من الزواج، لم أشعر بأي تأثير فارق في ابتعادي عن تلك التعاليم. لم تكن الأفكار الدينية والفلسفية تعني في قليل أو كثير، ما كنت أطلع إليه لم يكن يختلف كثيرًا إما يطلع إلي باقي أبناء جيلي وهو: خوض المغامرات والأفعال المثيره.

في أواخر عام 1914 كانت الحرب العالمية مشتعلة الأور، وبدأت في نظرى أول فرصة سانحة لتحقيق أحلامي الطفولة، كنت في الرابعة عشرة، وربت من الدراسة والتحقت بالجيش النمساوي تحت اسم مستعار، كنت أحاول ما يشبه به عمري، ومن إلتقى على أن عمري ثانية عشر عامًا، وهو الحد الأدنى للعمر أتى لتحقق بالخدمة العسكرية، إلا أنه لم أكن أعمل عمًا الماريشالية في حقيقية الظرى. فبعد أسبوع أو نحو ذلك، نجح والدي المسكون في اقتناء أثري بمعاونة الشرطة، وعدت في حراستهم إلى فيينا بشكل مخز، حيث كانت أسرتي قد استقرت بها من فترة سابقة. بعد ذلك بأربعة أعوام التحقت بالجيش بطريقة مشروعة، ولكن الود كنت كفت عن الحلم بعظمة أحقوقها في الحياة العسكرية، ورحت أبحث عن مسارات أخرى ل تحقيق ذاتي، على أي حال، اندلعت ثورة بالنساء بعد التحاقي بالجيش بعدة أسابيع، وانهار التمباين النمساوية، كما انتهت الحرب العالمية الأولى.
على مدى عامين بعد انتهاء الحرب درست بلا نظام وبدون تواصل تاريخ الفن والفلسفة بجامعة فيينا ولم أجد نفسي ميلاً إلى تلك الدراسات. فلم تكن المهن النظرية تستهويني. كنت شغوفًا بالوصول إلى جوانب حميمة محضية إلى نفسى من الحياة، وأن أفتح تلك الجوانب دون أن أضفي على نفسى وسائل مصطنعة كما يفعل كثيرون. وأن أصل نفسى إلى مثل روحية حقيقية كنت أوقن أنها موجودة إلا أنني لم أتوجه إليها.

ليس من اليسير أن أشرح ما كنت أعني بعبارة "مثل روحية" إلا أنه لم يدر بخليدي أن أحقق ذلك وأدرك أن طريق الوسائل التقليدية للمدين، أو في نفس الصدد عن طريق أي مقولات جاهزة مهما كانت متقنة، لم تكن تلك الضبابية الفكرية وغياب الواضح حتى أكون منصفًا لنفسى من صنعى أنا؛ فقد كانت ضبابية فكرية وغياب وضوح رؤية أصاب جيل بأجمعه.

كانت العقود الأولى للقرن العشرين تصدت بالخواص الروحية للأجيال الأوروبية. كل القيم الأخلاقية التي اقتنتها الأمم الأوروبية على مدى قرون عديدة أصبحت هشة متداعية تحت وطأة التداعيات المرعبة لما حدث بين عامي 1914 و1918 وهي السنوات التي استغرتها الحرب العالمية الأولى، في الوقت الذي لم تدب فيه أي قيم روحية جديدة في أي أفق. كانت مشاعر الهشاشة وعدم الإحساس بالأمان متقشحة بين الجميع. إحساس داخلي بالكارثة الاجتماعية والفكرية أصابت الجميع بالتشكيك في استمرارية أفكار البشر وفي كل مساحاتهم وأهدافهم. بدلاً من شيء كان هناك طاف فوق فيضان لا يشكل له، والقلق الروحي لدى أجيال الشباب لا يجد مستتًراً لأقدامه الويلة، ومع غياب أي مقاييس يقينية أخلاقية. لم يعد بدقة أي فرد من الأجيال السابقة أن يجيب إجابات مقنعة على أسئلة كثيرة كانت تؤرق وتحتر كجيل الشباب. العلم يقول: "المعرفة أصل كل شيء"، وينسي العلم أن المعرفة بدون هدف أخلاقي لا تؤدي إلا إلى فوضى عارمة.

كل المصلحين الاجتماعيين والثوار، والشيوعيين، كانوا يسعون بلا شك إلى بناء عالم أفضل وأسعد حالاً، وكلهم كان يفكرون بمصطلحات ورؤية خارجية في المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، وحتى يتجاوزوا ذلك العيب، طرحوا نظريَّة "الفهم المادي 74". 
للتاريخ، كنوع من الميتوافيزيقية المضادة للميتوافيزيقية، من جهة أخرى كان المتدينين التقليديين لا يجدون إلا أن يشبووا إلى ربيع صناف مستمرة من سلوكياتهم البشرية وعاداتهم الفكرية، والتي أصبحت على المدى الزمني جامدة بلا معنى: وحين كنا نرى – نحن الشباب صغار السن – أن تلك الصفات المدعاة من البشر على الررب تنطف دائمًا في مقارنة جادة ومتناقضة مع البؤس الواقع في عالم البشر من حولنا، كما نقول لأنفسنا: "إن القوى الحركة والتحكم في المصائر والأقدار لا بد أن تكون مختلفة عن مضمن تلك الصفات التي يصفها البشر على الررب – ولذلك – فإنه لا يوجد ررب".

أيكون بعض منا أن سبب ذلك التخطيط الفكرى قد يكمن في السناجات التي يتصرف بها حراس العقلية ممن يظنون أنهم لا يتقبلهم البطل ويزعمن أنهم وهم أصحاب الحق في "وصف" و"تعريف" الررب، ثم يلبسونه ملابسه وأرديتهم، وبعد ذلك يفصلونه عن البشر ومصارفهم.

على المستوى الفردى أدى عدم استقرار المبادئ والأخلاق إلى فوضى أخلاقية وغوغاوية فكرية، كما أدى بالأفراد إلى البحث عن مفاهيم شخصية وفردية لا يمكن أن يحقق حياة سعيدة متوارتكه.

ربما كان ذلك الإدراك الغريزي هو ما دفعني إلى اختيار دراسة تاريخ الفن كموضوع أساسي في دراستي الجامعية.

افترضت في ذلك الوقت أن وظيفة الفنون الحقيقية هي إثارة الرؤى وتحثها لخلق نموذج منطقى متواضط يعيد ربط صورة الأحداث المهمشة. على الرغم من ذلك لم تشبعني تلك المبادئ الدراسية التي واجتني عليها. كان أسفانتي ومنهم أسماء كبيرة مشهورة مثل "شتر زيجوفسكى" و"دفوراك" مهتمين بشكل أساسي باكتشاف القوانين الجمالية التي تحكم الخلق الإبداعي الفني أكثر من اهتمامهم بالتوصل إلى النبض الروحى الكامل في جوهر الأعمال الخلاقية الداخلية: بعبارة أخرى، كان منهجهم موجهًا إلى جانب ضيق يتعلق بالإجابة عن مشكلة الشكل كما يبدو من خلال الفنون الإنسانية.
كانت أيضًا دراسات التحليل النفسي التي درستها في تلك المرحلة التي اتسمت بالحرية والتخطيط الفكري أقل إشباعًا منها مثل تاريخ الفنون، ولكن لأسباب مغايرة.
كانت علوم التحليل النفسي في ذلك الوقت تشكل ثورة فكرية عظمى حتى إنني أحسست في أعمالي أن تلك العلوم قد فتحت مغالب أبواب المعرفة التي كانت موصدة.
وأنها تبشر بتعزيز تفكير الإنسان ومعرفته بذاته ومجتمعه. لقد فتح اكتشاف الدوافع الكامنة في الأدوم والتي تشكل الشخصية الإنسانية طرفاً واسعة تتبع فهمًا أوسع للذات. كان من الممكن أن أُشكِّل تلك الدراسات الجديدة في التحليل النفسي، فكان للفكر "البرودي" تأثير واسع على أفكارنا، وما أكثر الليالي التي قضيتها على مقاهي "فيينا" مستمعًا إلى مناقشات ساخنة ومثيرة بين رواد التحليل النفسي المبكرين، كان منهم "ألفرد أدناه"، و"هيرمان ستانكل"، و"أوتو جروس"، إلا أن الحرية والقلق والتشويش حلل على من جديد بسبب عجرفة وتعالج العلم الجديد، الذي حاول أن يختزل أفكار الذات البشرية ويوحدها إلى سلسلة من ردود الأفعال العصبية.
كانت النتائج "العقلية" التي توصل إليها رواد التحليل النفسي، ومن أمنها بهم تبدو مباغتة في الدقة، والسبب في تبسيط المشاكل البشرية، وما أثرهم ووضعهم في موضع أصحاب الحقائق المطلقة، إلا أنهم في النهاية لم يجدوا أي طريق يحقق حياة جيدة للبشر.
وعلى الرغم من أن تلك المشاكل شكلت ذاتيًا، فإنها لم تزعجني؛ فلم أكن اهتم كثيرًا بالاتجاهات الميتافيزيقية التي تبحث عن أروة الطبيعة، كما لم تشغلني أي تساؤلات حول "الحقائق" الكلية المطلقة. كان اهتمامي ينصب في ذلك الوقت على النواحي التي يمكن إدراكها بالإحساس بها من جوانب الحياة: البشر، والأنشطة البشرية، والعلاقات بين البشر. وكان ذلك هو الوقت الذي بدأت فيه في تكوين علاقات بالنساء.
في مجري التفكك والانحلال العام للفهم الأخلاقي الذي كانت راسخة قبل الحرب العالمية الأولى، تحللت كوابح وقيدت كثيرًا كانت تسود العلاقة بين الجنسين. والذي حدث لم يكن ثورة مقنعة مضادة للقيد والتحريمات الصارمة الأخلاقية للقرن التاسع عشر.
بقدر ما كان رد فعل سلبياً نقل العلاقات بين الجنسين من حالة كانت تحكمها مقاييس أخلاقية معينة تبدو وكأنها مقاييس أبدية لا تقبل التشكيك إلى حالة معاكسه مضادة. أو تراجع البنود بين معتقدات الأمس التي أمته باستمرارية وديمومة الجنس البشري وتقدمه المستمر، إلى مرارة الوضوح العارى الذي قدمه «شبنجل»، والنسبية الأخلاقية التي قدمنها «نيتشه»، إلى النهستية(6) الروحية (العدمية الروحية) التي راعتها من التحليل النفسي.

حين أطلعت خلفي إلى تلك الأعوام التي تلت الحرب العالمية الأولى، أشعر أن الشباب من الجنسين الذين تحدثوا وكتبوا بحماس بالغ من "حرية الجنس"، كانوا أبعد ما يكونون عن روح الحماس الحقيقية التي كانوا يظهرنها: كانت نشواتهم وعيًا شديدًا بالذات أقرب إلى الحماس والاستهتار الشديد الذي لا يرقي إلى الثورة، كان لعائلتهم الجنسية المتحررة جانب عرضي غير مقصود - يؤدي في الغالب إلى اتصالات جنسية غير شرعية.

وحتى لو كنت مازلت أشعر في ذلك الوقت أنني مازلت مقيدًا ببعض بقايا الأخلاقيات التقليدية، كان من الصعب أن أتجنب الانجراف إلى سلوكيات أصبحت واسعة الانتشار. لقد افتتحت أنا أيضًا بذلك التحول وأبتهجت له مثل كثيرين غيري من أبناء جيلى مما كان يعتبر "تمزداً على التقاليد البالية الجوفية". تحوّلت العلاقات بسهولة إلى ممارسات جنسية، وتحوّلت بعض الممارسات إلى حب عاطفي. وعلى الرغم من كل ذلك لا أظن أبدًا أنني كنت متحرراً، لأن كل العلاقات التي خضعتها ومارستها، مهما تكن سطحيتها وقصر مداحها، كان دافعها السعي إلى أمل متفائل، غامض إلا أنه مسيطر، يسعى إلى إثبات أن الفردية المخفية والعزلة التي فصلت البشر عن البشر قد يعطيها التحام رجل وامرأة.

(6) نظرية ترى أن القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة، وأن الوجود لا معنى له، وأن المجتمعات البشرية في حالة من السوء تجلل الهدم مرغوبًا به ذاته. (المترجم)
نما قلقي، ونزاع محيط إمام دراستي الجامعة يبدو مستحيلًا، وإذا أدرك تفكك تلك الدراسات للإمام وأجري تجربة شخصية في الصحافة، عرف أن ذلك القرار بأسابيع كانت أقوم بها أمضيت في تسليمه برغبيتي، أصر على أنه يجب على قبل أن أقرر العمل بالكتابة الصحفية لابد أن أثبت أولًا أنا يمكنني الكتابة، وبعد مناقشة حادة بيننا قرر أن درجة الدكتوراه لم تمنح أبدًا من يخص على عامًا من أن يكون كتابًا ناجحًا. كانت حجته مقولة ومنطقية، إلا أنني كنت صغير السن، متقدمًا نحو ما أراه، شديد الأمل والطموح، وعليه بالقلق. حين أيقنت أنه لن يغير رأيه، لم يعد هناك ما أفعله إلا أن أبدأ حياتي بنفسني. بدون أن أخبر أحدًا ببنياتي، ودعت مدينة فيينا ذات يوم من أيام صيف عام 1920، وركبت القطار متجهةً إلى مدينة برااغ.

كل ما كنت أحمله عدا أمتعتي الشخصية، خاتمًا من المساء تركته لي أمي قبل موتها في العام السابق. بعث البابا إلى أحد سكان مقهى المثقفين في برااغ وعلى الرغم من خديعتي في تلك الصفقة، إلا أن ما تلبثت أن تไหลت من ثمن للخلاق بدا وكأنه ثورة. وتكية الثورة في جدتي واصلت سفرها إلى برااغ، وواصلت إلنا قدمني بعض أصدقائي القديمي الذين كنت أعرفهم في فيينا قبل أن يرحلوا إلى براين، إلى دورات الأدباء الساحرة، وفنائي براين الذين يجتمعون عادة على مقهى فيستين الفتيق.

كان على منذ تلك اللحظة أن أدير أمور حياتي دون أن أنظر معونة من أحد؛ كما اقتربت ألا أ 있게 ولا أتوقف أي معونة من أبي. بعد ذلك بسعيًا، بعد أن هذا غضب أبي، كتب إلى قائلًا: أتوقع أن ينتهي بك الأمر إلى متسكع ومتسول في حفرة على جانب أحد الطرق، فردت عليه قائلًا: لست أنا من يتسول على جنبات الطرق، سيطر نجم حتى أصل إلى القمة، أما كيفية وصولي إلى تلك القمة، فلم تكن واضحة في ذهني لأي شكل من الأشكال، كلما كنت أدرك رغبتني في العمل بالكتابة الصحفية، كان يمالى الاقتراح بالطبع أن عالم الصحافة ينتظرني بأذرع مفتوحة.

بعد بضعة أشهر نفد كل ما كان معني من مال، فبدأت أبحث عن عمل، وبالنسبة لشبب صغير السن يتطلع إلى امتنان الصحافة، فإن الاختيار الواضح هو صحيفة يومية كبيرة، إلا أنني بالطبع لم يكن أستلم اختيارًا لأي صحيفة، وتحقق من ذلك يومًا
بعد يوم، استندد ذلك أسابيع طويلة من التسكم المضني على أروقة «برلين». فقد أصبح أجر قطار الأشخاص أو الحافلات العامة عززاً للناس. ومفاوضات مهنية ومزيرة مع رؤساء تحرير صحفي ومصممو أخبار ومساعدي محترفين حتى أتى أن الأمر يتطلب معجزة ليقفوا كاتبة بلا خيلة ولا سطر واحد مكتوب في أي صحيفة قبل ذلك. ولا تتسنى له آني فرصة لدخول الساحة المقدسة لأي صحيفة. ولم تقع معجزة تيسر لي تحقيق هدفي. بدلًا من ذلك تعودت على تحمل الجوع وأمضيت عدة أسابيع لا أكلي فيها إلا وجبة واحدة يومية مكونة من كوب من الشاي وشيطرين صغيرة. فقد كان إيجار الغرفة التي أسكنها يتضمن الإفطار. لم يتمكن أصحابي المتقدمين في مقهى «فيستين» من تقديم معونة إلى شاب غض بلا خreira مثلي، وعدا ذلك، كان أغلبهم يعيشون في ظروف لا تختلف كثيراً عن ظروف، يحييون من يوم إلى يوم على حافة العدم والخوار، ويناضلون بكل قوة ليحافظوا على أنجحهم فوق سطح الماء. أحياناً، حين كان الحظ يسع واحداً منهم بنشر مقال أو بيع لوحة، كان يقدم احتفاليةً ترق في الجعة والمفاف ويدعوني للمشاركة في تلك النحافة المفاجئة، كما كان أعيان الثقة من الأغنياء يقومون أجبارً بدعوة الصالبيك من المثقفين إلى العشاء في منازلهم، ثم يحملون في فزع ونحن نحشو أمعاءنا الخاوية بشرائح الخبز المحمر المغطى بالكليتاب ونجرع معه ما يصل إليه أبدًا من شمبانياً، ونرد له جمله بالاحترام منقحة مليئة بصمات حكايتي للأقلام حسب الصورة من رؤيتها «لحياة اليومية»، إلا أن تلك الدعوات كانت استثنىً، فالقاعدة في أغلب الأيام كانت جوعًا مطلقًا - أما الليل فقد كان يثير بالآلاف الليث وشرائح الخبز المغطية بالزيت. فكرت عدة مرات في الكتابة إلى أبي وأطالب معونته، وكانت متانةً أنه لا يتردد لحظة في معاونتي، إلا أن كرامتي كانت تحول دون ذلك في اللحظة الأخيرة بل كتب له عوضًا عن ذلك عن أخبار الوظيفة الرائعة الموقعة والأجر الجيد الذي أطله عن تلك الوظيفة... وأخبرت والدي الراكب الذي كسر تلك الحلقة. قدمتي أحد الأصدقاء إلى ف. و. مورنو، الذي داعي شهيرته ك infix سينماتى كان ذلك قبل أن تجتذبه فوليوارد إلى سري من مشاهدة. ثم موتة المفاجئ غير المتوقع، كان «مورنو» شخصية محضة ذات تأثير، وحاز إعجابي أيضاً على الفور، سألته «مورنو» إن كنت أود أن عمل معه في فيلم جديد سيبدأ تصويره، وعلى الرغم
من أن الوظيفة كانت مؤقتة، فإنني رأيتها وكأن السماء تفتح لي بابًا، فقلت بتعلثم:

«نعم، أقبل...».

قضيت شهرين عظيمين متحررًا من القلق والحصار المالي ومعجبًا بـ«مورنو» التي لم أر مثيلًا لها من قبل، عملت مساعدًا له. ازدادت ثقتتي بنفسها إلى حد بعيد، ولم يكن ذلك بالطبع بسبب أن بطلة الفيلم - وهي ممثلة شهيرة فائقة الجمال - لم ترفض مغألزة مساعد المخرج الشاب لها. حين انتهت تصوير الفيلم كان على «مورنو» أن يسافر إلى خارج ألمانيا لتصوير فيلم آخر، وتركته وأنا على اقتتاع بأن أيامي السينما قد انتهت.

بعد ذلك بفترة قصيرة، دعاني صديق يدعى «انطون كوه» - وهو صحافي من فيينا اشتهر في برلين ككاتب مسرحي - إلى الاشتراك معًا في كتابة مشاهد فيلم تقاضي عربوني لكتابة. قررت الفكرة بحماس وبدأت جهودًا كبيرة في كتابة النص، على أي حال، دفع المنتج بـ«المبلغ المتفق عليه» قسمتاه أنا و«انطون» مناصفة. واحتفلنا بدخولنا إلى «عالم السينما» دعوًا الأصدقاء إلى العشاء في واحد من أشهر مطاعم برلين، حين تلقينا قائمة الحساب وجدنا أن كل ما حصلنا عليه تعذر ثمنًا لسرعان البحر والكافيار والنبيذ الفرنسي، إلا أن حظنا كان قد تحسن، فقد بدأنا على الفور في كتابة مشاهد فيلم آخر، ملهاة تخيلية عن شخصيتي «بلزاك» وبتسار»، وجدنا مشترية السيناريو في اليوم ذاته الذي انتهينا فيه من كتابة. في تلك الليلة رفضت أن نحتفل بنجاحنا، وبدلاً من ذلك نزحت في إجازة ليلة أسابيع قضيتها على بحيرات باباريا. بعد عام آخر مليء بالنجاحات الجيدة والسيئة التي قابلتها في مختلف مدن وسط أوروبا وحفل بكثير من الوظائف المؤقتة، نجحت أخيرًا في اكتشاف عالم الصحافة.

* * *

وقع احترازي لعالم الصحافة في خريف عام 1921، بعد فترة أخرى من التمتع بالمالية. كنت جالسًا ذات عصر بمقهى «دي فيستين» متعبًا ومكتئبًا، وجلس أحد
الاصدقاء إلى الطاولة التي كنت أجلس عليها، وحين علم بالمشاكل والمتاعب التي أمر بها، قال مفترضاً: "قد تكون هناك فرصة لك. لقد بدأ "داميرت" في إنشاء وكالة ألمانية، وسيطلق عليها اسم "دورادنت تليجرام" وأنه متأكد من أنه سيحتاج إلى عدد كبير من مساعدة التحري، ويمكننا أن أقدمك إليه إن أحببت." كان "داميرت" من الشخصيات المعروفة في الأوساط السياسية في برلين، وكان عضوًا بارزاً في الحزب الكاثوليكي المركزي، وكون ثروة مجهوده الشخصي، كما كان يتمتع بسمعة طيبة: وراقت لي كثيراً فكرة العمل معه.

في اليوم التالي أصطفى صديقي إلى مكتب دكتور "داميرت" دعا وكان الرجل الأنيق المهندب الذي كان في منتصف العمر إلى الجلسة قائلاً: "حدثنا السيد "فنجال" (وكان ذلك اسم صديقي) عتك. هل عملت من قبل بأي صحفية؟ أجبته: "كلنا ياسبدي" ثم أردت: "لا أن لدى خبرات كبيرة، تستطيع أن تدعني خبيرًا بأمور أوروبا الشرقية وأجيد عدة لغات." (في الحقيقة كانت اللغة الوحيدة من لغات أوروبا الشرقية التي أجيدها هي اللغة البولندية، كما كنت لا أعرف إلا القليل عما يدور في ذلك الجانب من العالم، إلا أنني كنت قد قررت ألا أهدى الفرص التي تتاح لي بسبب تواضع لا مبرر له.

رد قائلاً فيما يشبه الابتذال: "هذا مثير" ثم أردف "لدي فرصة للخبراء"، إلا أنني لسوى الحظ لا أحتاج إلى خبير في شؤون أوروبا الشرقية في اللحظة الراهنة" رأى علامات الإحباط التي ارتسمت على وجهي فأناشيده: "لا أنا مازال لدى فرصة عمل لك - قد تكون أقل من قدراتك...". سأنا في هيئة إيجار المسكن الذي لم أستدهيته يراني لي في ذهني: "ما تلك الفرصة يا سيدي؟".

قال: "في الحقيقة أنا بحاجة إلى مزيد من موظفي الهاتف. أوه، كلا، كلا، لا تنزعج
ليس عامل بداء هاتف: أعني أنني أريد موظفي هاتف يتلقو الأنباء ويملؤها بالهاتف إلى الصحف المحلية بالولايات..."

81
كانت الوظيفة بالطبع دون توقعاتي. نظرت إلى دكتور «داميرت» ونظر إليني، وحين رأيت تعدادات نظرة التخريج البدائية حول عينيه تتزايد، أيقنت أن الموافق قد وصل إلى نهائتي. قلت وأنا أشتهى من أعماقى بضحكة قصيرة مفتوحة: «قبل الوظيفة».

بدأت مهنتي الجديدة في الأسبوع التالي، كانت مملة وربت على الضجر وتبعد كثيرًا عن مهنة الصحافة التي ألم في مزاولتها. لم يكن هناك ما أفعله إلا نقل الأنباء بالهاتف عدة مرات في اليوم من أوراق مكتوبة إلى الصحافيك المحلية المشتركة بالوكالة، إلا أنني كنت موظف هاتفي جيدًا كما كان المقابل جيدًا أيضًا. دام الحال على ذلك لمدة شهر، وفي نهاية هاتفى ساقيت إلى المصادفة فرصة ساحقة لم أحلم بها.

كانت روسيا السوفيتية تعاني في عام 1921 من مجاعة شديدة قاسية. كان الملايين من أبناء الشعب يعانون من وطأة المجاعة حتى إن مئات الآلاف لقوا حتفهم جوعًا حتى ذلك الوقت. كانت كل الصحف الأوروبية تعرض أخبار المجاعة وال موقف العصيب في روسيا السوفيتية؛ وسارت هيئة كثيرة لوضع خطط لإرسال مساعدات غذائية للتخفيف من وطأة المجاعة. وكان من تلك البرامج برنامج تزعمه «هربرت هوفر» الذي قام ببرامج مماثلة قبل ذلك لمساعدة دول وسط أوروبا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، كما كان الكاتب الروسي الشهير «مكسيم جوركي» يقوم بنشاط كبير من داخل روسيا للعمل على تخفيف وطأة المجاعة، كانت نداءاته المؤثرة لدول العالم عبر وسائل الإعلام تهتز المشاعر في أوروبا، وأصبح أن زوجته ستقوم قريبًا بزيارة عوامص وسط أوروبا وغريبيًا لتحويل الرأي العام لم يد المساعدة بوسائل أكثر فعالية.

وانتهى فرصة عمرى، عن طريق أحد معارفى (وانتهى فرصة عديدة في أماكن ومواقع غريبة عن طريق معارفى وأصدقائي) وجذبني حتى وضعتني في قلب الأحداث السائحة.

وانتهى الفرصة تلك المرة عن طريق الباب الليلى لفندق «إيسلاند»، وكان أحد أفخم فنادق «برلين»، حين رأيت بادرني قائلًا: «السيدة جوركي هذه سيدة عظيمة، لا يمكن لأي امرأة أن يحلم أنها من بولندا...».
لصفحة في دهشة: "السيدة جوركي؛ أي رأيتها بحق الجحيم؟" خفض محدث صوته حتى تحول إلى همس: "إنه تقيم في فندقنا هذا. وصلت بالأمس إلا أنها تقيم هنا باسم مستعار، الدير وحده هو الذي يعلم حقيقة شخصيتها. إنها تريد أن تتجنب مطاردة الصحفيين لها".

سألته متشككًا: "وكيف عرفتها؟".

رد باعتزاز: "نحن اليابانيون نعلم كل ما يدور بال الفندق". ثم تنهد متسائلًا: "هل تعتقد أنها ستكون فرصة عظيمة لو تمكنت من إجراء حوار وحيد مطول مع السيدة جوركي، وسيضاعف من قيمة الحوار أنه لا توجد صحيفة واحدة في براين تعرف بوجود السيدة جوركي. اشتعال الحماس في أوسالي مثلما تشتعل ألسنة اللهب في أغصان جافة.

سألت صديقي: "هل بإمكانك أن تروي إياهما بئية وسيلة؟".

أجاب: "لا أدرى، إنها تبذل كل جهدها لك لايعلمه أحد عنها شيئًا... إلا أنني قد أستطيع القيام بشيء لك. لو جئت إلى الباب في المساء، قد يكون بإمكاني أن أشير إليها خفية.

بعد أن اقفلت معه، ذهبته راكضًا إلى مكتب في وكالة أنباء يونايد تليجرام: كانت المكاتب خاوية على وجه التقدير بعد انتهائه وقت العمل، ولحسن الحظ كان رئيس التحرير مازال بمكتبه. أمسكت بتلبيسه قائلًا في تعجيل: "هل تعطيني بطاقة صحافية إذا وعدتك أن أعود إليك ببطاقة صحافية مذودة؟".

سألته بتشكك: "أي نوع من الخبزات".

قالت: "أعطيك البطاقة وأنا أعود إليك بخبزات كبرى. إن لم أفعل بإمكانك أن تستعيد البطاقة مني الليلة".

في النهاية، وافق صائد الأنباء العجوز، وخرجت من مكتبته أنيه فرحًا ببطاقة صحفي مكتوب بها أني أمثل وكالة يونايد تليجرام.

83
قضيت الساعات التالية في بهو فندق "إيسبانليند". في التاسعة مساءً وصل صديقي ليبدأ نوبة عمله. من الباب غمر لي بعينه ثم اختفي خلف طائرة الاستقبال، ظهر بعد دقائق وأخبرني أن السيدة جوركي خارج الفندق، قال: "إذا انتظرت بالبهجة، فمن المؤكد أنك ستراعي عند عودتيا.

في الحادية عشرة انتهيت إشارة صديقي، كان يشير خفية إلى سيدة كانت بالكاد قد تخطت الباب: كانت رقيقة دقيقة الحجم في حوالي متصفي الأربعينيات من عمرها، ورتدى رداء أسود محبوكة على جسدها، وعلى ملطف أسود من الحزام كان ينساب من خلفها على الأرض. وضعت حركتها بأسلوبها الموقفة صيحة حتى إن كان من الصعب تخيل أنها زوجة شاعر "الشعب العامل"، وأعجبته التخيل أنها مواطنية سوفيتية، اعترضت طريقها وانحنيت في احترام وجهتها إليها الحديث بأغريب نغمة في صوتي:

"السيدة جوركي؟"

أخذتها المفاجأة لوحلاً ثم استرت عيناها بريقهما جميل وردت بلغة ألمانية لا تشوبها إلا لكنة سلافية بسيطة لا تكاد تبين: "أنا آختات. أنا لوست السيدة جوركي - اسمي كذا.. كذا (وذكرت لي اسمًا روسيًا طويلًا إلا أنا نسيته) أصررت على رأيي قائلًا: "كلا بسيدة جوركي. أنا متأكدة أن لم أخطئه، وأعلم أيضًا أنك لا تودين أن يزعجك الصحافيون - إلا أن هذا الأمر يعني لي الكثير - بل الكثير جدًا إن سمحت لي بالحديث بضع دقائق فقط. هذه أول فرصة لي لأبتسم بها ذاتي. أنا متأكدة أنك لا تودين تدمير فرصتي وما يزبر على ذلك من آثار سيئة على مستقبلي العلوي في الحياة؟"

ثم أظهرت لها بطاقتها الصحفية قائلًا: "لقد حصلت عليها اليوم فقط، وينتمي على إعادتها إلا إذا قدمت حديثًا أجريه مع السيدة جوركي".

استمرت السيدة الأرستقراطية في التعبير: "إذا أخبرتك بكلمة شرف أنني لست السيدة جوركي، هل ستصدقني حينذاك؟".

قلت لها: "كلما تذكرتني لي مقربًا بكلمة شرف متك سأصدقك على الفور.

مدرسة منها ضحكة رقيقة مفاجئة وقالت: "بيدي أنك شاب لطيف" (كان رأسها الجميل يصل بالكاد إلى كتفي) لكن أذهب عليه أكثر من ذلك. أنت تكسب، هل تمنحنى
شرف تناول الشاي في جناحي؟ وهكذا، كان لي شرف تناول الشاي مع السيدة جوريك في جناحيها الخاص.

على مدى ما يقرب من الساعات وصفت بحرارة بالغة أحوال المجلة التي تمر بها بلادها، وحين غادرتها بعد منتصف الليل، كان معى مجموعة سميكة من الأوراق التي سجلت بها الحوار.

فتح مساعدو التحرير الليليون في يونايت تليجرام أعينهم في دهشة عندما رأو نى في تلك الساعات من الليل، إلا أنني لم أتمكن بهم فقط كان لدى عمل عاجل لابد أن أتمه، كان على أن أنتهي من صياغة الحوار بسرعة قدر ما تستطيع، ثم حجزت مكالمات هاتفية عاجلة لكل الصحف المحلية المشتركة في يونايت تليجرام دون إذن أو تصريح من رئيس التحرير.

في الصباح التالي دب القبيل الصحفية، فبينما خرجت صحح برلين اليومية الكبرى دون أية إشارة لوجود السيدة جوريك في برلين، كانت كل الصحف المحلية المشتركة لدى وكالة أثيو بيونايت تليجرام تنشر على صدر صفحتها الأولى خبر إجراء الممثل الخاص للوكالة حديثًا شاملًا مع السيدة جوريك الموجودة سرعًا في برلين، وقدم موظف الهاتف سبقًا صحفيًا كبيرًا.

بعد الظهر عقد دكتور «داميرت» اجتماعًا للمحررين بمكتبه، وتم استدعاء لحضور الاجتماع، وبعد محاضرة استهلالية ركز فيها على أنه لا يجوز إرسال أي مادة صحفيّة إلى الصحف المشتركة بالوكالة مهما تكن أهميتها إلا بعد إجازتها من محرر الأخبار، أخبرني أنني قد رقيت إلى درجة محرر.

أخيرًا أصبحت صحفيًا.

[4]

سمعت أصوات أقدام خفيفة قادمة على الرمال: إنه زيد، عائد من البئر بعد أن مات القرب بالليالي، أسقطها على الرمال بالقرب من النار فصدر عنها رنين ارتطام الماء

85
بالماه، ثم أكمل إعداد العشاء: طهى أزرًا ولحم بعير كان قد اشترته من القرية عند
حول المساء. وبعد أن قلب الطعام بالمغرة التقلب النهائي والبخار يتطاير من الإناء،
استدار إلى متسائلاً: هل تأكل الآن يا عم؟

ودون أن ينتظر ردًا، أفرغ الطعام في قصعة متسعة في كومة كبيرة، قرب القصعة
أمامي، ثم تناول وعاءًا نحاسيًا ملأها بالماه لأثره بديء: بسم الله، آنام الله، عليك نعمة الحياة.

انهمكنا في الأكل، جالسين متزريعي الساقين في مواجهة بعضنا ومن بيننا القصعة
وبتناول الطعام بصاحب يدنا اليمنى.

رحبنا نأكل في صمت، لم يكن أي منا من مكره الحديث، عدا ذلك، كنت قد وجدت
نفسى غارقًا في خضم ولجة ذكريات توالى على ذهني، أفكر في العمر الذي عشت قبل
قدومي إلى الجزيرة العربية، قبل أن أعرف زيد، لذا لم أتمكن من الحديث بصوت
مرتفع، فرحت أتحدث في صمت مع نفسى وإلى نفسى، أثنى على الحاضر عبر
أحوالى في الماضي.

بعد أن تناولنا عشاءنا، وبينما أنا متكىء على سرج الناقة، وأصابع تطبع بالرمال،
أحمل في نجوم الجزيرة العربية الصامتة على صفحة السماء، فكرت أنه كان من
الممكن والرائع لو رجعت بصحتي من يمكنني أن أحيي له ما حديت لي في تلك الأيام
البيضاء، إلا أنه لم يكن بصحتي إلا زيد. كان زيد عظیمًا ومخلصًا في وفاء نادر، وكان
رفيقى في أيام الوحدة. كان أريجًا، دقيق الفهم حسن الإدراك، وخصاله حميدة.

ألقيت عليه نظرًا جانبية - كان وجهه بملامح حادة تحيطها خصل طويلة من الشعر،
كان منحنيًا بانهالك على إبريق القهوة، أدرت رأسى باتجاه النافذتين الباركتين تلوكان
طعامهما في أثاث - أيقنت أنني أحتاج إلى مستمع آخر: امرأة لم يلعب دورًا في حياتي
الماضية، و بعيد عن مشاهد وروائع وأصوات الأيام والليالي الحالية: امرأة استطيع
أمامه أن أسرد الأفكار التي ترد إلى ذهني واحدة بعد أخرى بلا تزويق، فقد ترى عيناه
ما تلك الأفكار وأراها أنا من جديد ويذكى يساعدنى على اصطياد أطراف حياتى وهي
تمت من شبكات كلامى.

إلا أنه لم يكن يوجد معي إلا زيد. وزيد هو الحاضر.

86
الفصل الثالث

رياح

[1]

سرنا، وسرنا، رجُلنا نطلق، وانطلاق الصباح مبتداءً. كسر
زيد حاجز الصمت السائد: شيء غريب، شيء غريب جداً.
سألته: ما الغريب يا زيد? قال: أليس غريبًا يا عمي، أنا كنا
مترجّحين منذ أيام قليلة إلى تأيما وغيِّرنا وجهتنا الآن إلى مكة؟
أنا متأكد أنه لم يكن بنيتك التوجه إلى مكة قبل تلك الليلة التي
تبت فيها. أعرف أنك مرتلك مثل البيوض، مثل تمامًا، هل كان ذلك
من عمل الجن ياعمي؟ من يغير وجهته هكذا فجأة، منذ أربعة
أعوام مضت طلبت متي أن أوفيك بمكة، والآن تأمنى فجأة أن
نغير اتجاهنا إلى مكة، هل نترك أنفسنا هكذا توجهنا الرياح
كانتا لا تعرف ما نريد؟

أجبته: كلا يا زيد - أنت وأنا، نترك أنفسنا للرياح لأننا نعرف ما نريد: قلوبنا تدرك
ما نريد، حتى لو كانت أفكارنا أبطأ في ملاحقة ما تريد قلوبنا، إلا أنها تدرك في
النهاية ما يدور في القلوب ثم نعتقد بعد ذلك أننا اتخذنا قرارًا...».

* * *

87
ربما كان قلب يدرك هذا في ذلك اليوم مندع عشرة أعوام مضت، حين وقف بجوار سور السفينة التي أقامت في أول رحلة لها إلى الشرق الأوسط، كأن السفينة يتجه جنوبًا عبر البحر الأسود إلى مضيق البنبر، وكانت هيئة مضابئة ليبن في عمتها أي شيء، وتلقي الليل نهار ضبابي أيضًا، كان الماء يلون الرصاص، ينتشر زده ويترايل على سطح السفينة؛ أما محرك السفينة، فكان له إيقاع يشبه دقائق القلب.
وقف بجوار السور العدد، أطلع عبر قمتة الضباب الشاحبة. إن سكيني امرأ
عما كنت أفكر به وما توقعاتي التي أحملها في ذهنى في أول رحلة لها إلى الشرق الأوسط، ما وجدت إجابه محددة لتساؤلها. ربما كان الفضول، ربما، إلا أنه لم يكن فضولًا يصفح عن نفسه بطريقة سافرة مباشرة، على الأقل، لم تكن في ذهنى أهداف عظيمة القمة. وجد قلقي الداخلي علاقة تربطه بالضباب السائد على صفحة البحر. لم يشغف فكرى أي أزور بلادًا غريبًا وشعبيًا مختلفًا، كما لم يشغف فكرى مسبوق قريب أو مدن غريبة بالشلالات غير مألوفة أوشك أن أصل إليها، يشير بناء غريبة وسلكيات مغايرة سائرنا عاجلًا. اعتبرت أن تلك الرحلة حدد وقع بالمصاحفة، وتحمل أن تكون مبهجة، إلا أنها لا تحمل أهمية خاصة على الإطلاق. في تلك اللحظة تعكر فكرى وتشتت بهموم الماضي.
الماضي؟ هل لي أي ماض؟ كان عمري اثنين وعشرين عامًا. إلا أن أبناء جيلي- أولئك الذين وُلدوا مع مطلع القرن العشرين - عاشوا عصرًا سريع الإيقاع عن أي زمن عاشته أجيال أخرى سابقة، بدأ الماضي الذي أذكره كما لو كنت أنظر إلى مدى زمني سهير غائر القدم، نهضت من مخيلتي كل الصياح والمشاك والمحامرات التي خضعتها فيما مضى من عمري، كل التطلع والشوق واللهمة والسعي وخيبة الأمل والخدران والنساء وأول علاقات في حياتي.
كانت الليالي تبدو لنا بلا نهاية، نسير تحت ضوء النجوم، لا ندرى على وجه التحديد ما الذي نريد، أسرى برفقة صديق في سوانع تخلو من المارة، نتحدث عن أشياء تبدو لنا جوهرية، متناقلين عن جيبينا الخاربة وافتقد الأمان في الأيام القبلة. تلك المشاعر من عدم الرضا السعيد التي لا يعرفها إلا الشباب والرغبة العارمة في هدم العالم.
مناقشات مثقفين لا تصل أبدًا إلى نهاية ولا إلى حلول... على مقهى الثقفيين في فنلندا وبرلين، مناقشات ساخنة خاصة بقضايا الإغراء في النشر، في تعبيرات ومصطلحات عن الحرية السياسية ومعناها، عن علاقة المذكر والأنثى... جوع إلى العرفة، وأحيانًا إلى الطعام... ولد إلى الغرام بلا قيد: فراش مبعثرة أغطيته عن الفجر، في الوقت الذي تكون فيه بإثارة الليل قد نودّت وانطفأت جذورها تتحول إلى لون رمادي فاتر لا حياة فيه: وحين يأتي صباح جديد ينضنّر المرء رماد الفجر ويسعى من جديد بخطوات متزنة ويشعر أن الأرض ترتّب في مرح تحت وقع أقدامه... والإثارة المصاحبة ككتاب جديد أو وجه جديد؛ البحث، ثم التوصل إلى أنجاس إجابات، وتكون هذه اللحظات النادرة حين يتبدى العالم فجأة، وإثارة لحكاية، وكأنه سكن تماما وأضنه، ومضلة عابرة من الفهم واعدة بكشف لم يصل إليه أحد من قبل: ومضلة كاشعة تحمل إجابات كل الأسئلة الحائرة.

* * *

كانت سنوات عجيبة تلك السنوات التي شكلت واستهلت عشرينيات القرن العشرين في وسط أوروبا. كان الجو العام يسوده اندلاع الأزمة الإنسانيّة والأخلاقيّة، وأدى إلى شروع اليأس الذي عبر عن نفسه في أعمال موسيقية تجريبية تتسم بالجراة، وعبر اليأس عن نفسه في التصوير والفنون التشكيلية والسخرية، كما بدأ في تلمس اتجاهات جديدة دارت حول تسلسلًا رائدًا من شكل الحضارة المطلوبة، إلا أن كل ذلك أفضى بمحاصصة التفاوض الإجباري إلى فراق روحي وضموض متشائم ولد من فقدان الأمل المتزايد في مستقبل البشر.
على الرغم من حداثة سنى، فإنه لم يخف عنى أنه بعد كارثة الحرب العظمى لم تعد الأمور تحتمى على أى قدر من الصواب في عالم أوروبى مظلم عاطفياً. إلهم الحقائق لم يعد إلأى روحياً: بل أصبح إلهم البحث عن الراحة والرفاهية. ولا يداني أنه كان هناك كثيرون أحسوا وفقروا بشكل روى وبدلا جهودًا ياشة ضد التيار ليصالحوا معتقداتهم الأخلاقية والروحية مع روح الحضارة المادية السائدة، إلا أن من نجح منهم كان استثنائى نادرًا. أما الأرواح العادية الذين يمثل الغالبية، سواء الديموقراطي أو الشيوعي، العامل اليدوى والفكر - فقد بدو جميعًا وكتابه باتوا لا يؤمنون إباعيدًا واحد: هو عبادة التقدم المادي، وإن كان بأنه لا يوجد أي هدف للحياة أمان من تحويلها بصفة دائمة مستمرة إلى حياة سهلة ومريحة، أو كما يذكر المصطلح الذي ساد: "الاستقلال من الطبيعة". كانت معايد وكتابات تلك العقيدة في المصانع العملية، ودور السينما، والعمل الكيميائي، والراقص، والكهرباء، كما كان قساوستهم ومبشرهمهم رجال البنوك، والمدنيسون، والساسة، ونجوم الأفلام، والإحسائيون، وكيبار رجال الصناعة، ورجال الطيران، ومفاضلوا الأحزاب الشيوعية، كان الفزع الأخلاقى واضحًا في افتقال أي اتفاق حول معنى الخبر وأهل وخصوص كل القيم الاجتماعية والاقتصادية لقانون "النفعية". حتى إنه صيغ بصبغته نساء الشوارع، اللاتي راح يهين أنفسهن لأى عامر في أي وقت يطلب منهم ذلك، التبق الذي لا يشفع للقوة والمستمرة عند الضرورة الذي يقود إلى انفصال المجتمع الغربي إلى مجموعات متناحرة متعدية مسلحة حتى أساتذها ومصرة على إفناء بعضها البعض حينما تتعارض اهتمامات تلك الجماعات أو تتناقص وعلى الجانب الفكري، كان الناتج بشرًا تناصرو أخلاقياتهم في إحراز المنفعة ومثلهم الأعلى للحق هو النجاح المادي.

رأيت كيف اضطربت حياتنا وافتقدت السعادة الحقة، وكيف تقلص التواصل والتعاطي بين فرد وآخر على الرغم من الإصرار الهستيري على تماسك "المجتمع" وال"الأمة"، وإلى أي مدى شردنا بعيدًا عن الفطرة، وإلى أي مدى ابتذلت أرواحنا شاهدت كل ذلك وعشت، إلا أنه لم يصعب - كما لم يصب بعضًا من عشت بينهم - ورأيت أن الحل، أو على الأقل الحل الجزئي للكثير موجودًا في ثقافة أخرى، كانت
أوروبا هي بداية ونهاية تفكيرنا: حتى اكتشفت الحكيم لاو-تسي، وأنما في سن السابعة عشرة أو نحوها.

* * *

بدا اكتشافاً لـ "لاو-تسي"، اكتشافاً حقيقياً، لم نكن سمعت عنه قبل ذلك، حتى وقعت عيناي على ترجمة ألمانية لـ "تاو-تسي-كنج" موضوعها على طائرة مكتبة بفيينا. أثار الاسم الغريب بعض فضولي ففتحت الكتاب بطريقة عشوائية، وجرت عيناي على فصل قصير من الحكيم. شعرت برجفة مفاجئة في أعماق، طمعة من السعادة المفاجئة. جعلتني آنيا ما حولي ولا أشعر بوجودي وأنجني في مكان مسحوراً ومتخادعاً بما قرأت: كان ما أقرأه يظهر لي جوهر حياة البشر في صفاتها، خالية من النزاعات والصراعات، تسمو إلى سعادته ف والحالة التي لا تنقض أمام القلب البشرى إذا هفا إلى رفع ذاته إلى حريته وخلاصه. وجدت فيما قرأته صدقًا خاصًا، تعرفت إليه ونفذ إلى عقل ومشاعري بفرح يماثل فرح العائد إلى وطنه بعد غياب طويل... على مدى أعيوب، كان "لاو-تسي"، بساعة نافذة أتطلع من زجاجها النقد إلى حياة جديدة من ضيق الرؤى ومخاوف الذات، والهواجس الطفولية التي تursed البشر إلى محاولة تأمين وجودهم في كل لحظة عن طريق "تحسين الوسائل المادية". بما ثم، لم نكن أرى أن تحسين الوسائل المادية غير ضروري بالنسبة ل، بل على العكس، ظلت معتقداً أنها مهمة وضرورية. إلا أني كنت متفهماً في الوقت ذاته أن ما أو الوسائل المادية لا يمكن أن تحقق نهائية أو هدف جوهرية وهو تحقيق سعادة البشر، إلا إذا صاحبها تصالح وتوافق مع المكونات الروحية وإيمان بالقيم المطلقة. أما كيفية تحقيق إعادة التصالح تلك، وأي نوع من القيم ذلك التي كان يدور بخليدي، فلم يكن واضحًا تمامًا في ذهنى.

كان من الصماقة بالطبع أن أتوقع إمكانية تغيير البشر لأهدافهم، وبالتالي توجيهاتهم ومسماعهم. مجرد أن يبشروا أحد بذلك، كانت رؤية لاو-تسي تذهب إلى أن البشر لا بد أن يفتح نفسه للحياة بدلاً من جذبها ومحاولة قهره بالعنف.
لم يكن التبشر وحده، ولا الإدراك الذهني وحده أن يغير أي منهما على حدة
المجتمع الأوروبي، فما كان ينقص المجتمع الأوروبي الإيمان النابع من القلب،
وإلى سلام صادق وعميق للقيم لا يحتوي على "أو..." ولكن مثلى يتحقق مثل ذلك
الإيمان...؟

بشكل ما لم يتبدّل إلى ذهن في ذلك الوقت أن أفكار لا- تسي لا تهدف فقط إلى
اختراق الذهن لتحقيق تغيير في المواقف الفكرية، بل كان يسعى أيضًا إلى تغيير
المفاهيم الجوهرية التي تتبع منها المواقف الفكرية. لم يدرك ذلك لكنه قد
أدرك أن أوروبا لا يمكن أن تحقق ذلك الصفاء الروحي الذي يتحدث عنه لوار- تسي
إذا إذ امتلكت أوروبا شجاعة التساؤل عن أصل وحقيقة جذورها الروحية والأخلاقية.
كنت بالطبع أصغر من أن أصل بوعي إلى مثل ذلك الاستنتاج: أصغر من أن أتمكن
من الإحاطة بالتحدي الذي يطرحه الحكم الصيني بكول عظمة مضامينه. حقيقة،
صدمتى رسالة حتى الأمثال، لقد كشفت لي عن أفق للحياة يمكن فيه المرء أن يصبح
هو وقده شيئاً واحدًا، أي أن يتحدد المرء مع ذاته: ولكن حيث إن لم أدرك بوضوح
كيف يمكن للكلفسة أن ترسم مقاييس يمكن تطبيقها في الواقع العملي للحياة
لذاك النسق الأوروبي، بدأت تدريجيًا أشكال في إمكانية تطبيقها. لم أITERALحت حتى إلى
نقطة ما أتوقف عنها وأتساءل إن كانت طريقة الحياة الأوروبية في جوهها هي
الطريقة الوحيدة المثالية للحياة. أي أنني كنت مثل كل المحيطين بي، مغلف تمامًا
ومشبع كليًا بالنظرة الثقافية الذاتية الأوروبية.

وهكذا، وعلى الرغم من أن صوت لوار- تسي لم يصب أحدًا داخلي، فإنه تراجع
خطوة بعد خطوة إلى أن احتل مكانه بين التأملات الفكرية الذهنية المجردة، ويمور
الوقت كنت أن تكون أكثر من رؤية فكرية رائعة في صياغة شعرية جميلة. داومت على
قراءته من أن آخر؛ وفي كل مرة كنت أشعر بطلقة الروى السعيدة، ثم أضع الكتاب
جانبًا مع الإحساس بالأسى أن ذلك لم يكن إلا نداءً حاليًا إلى برج عاجي لا يوجد إلا
في الخيال، وعلى الرغم من قسوة التناقضات والنزاعات ومرازة عالم تسوده الأطماع
كنت جزءًا منه، إلا أنني لم أكن أبحث عن برج عاجي أحماه في من صنع لوار- تسي.
وجدت نفسى لا أشعر بعمق ولا حماس للأهداف والمساعي التي كانت تسري في الحياة الفكرية الأوروبية وتوج بها الآداب والفنون والاتجاهات السياسية وطنين المناقشات الحامية. فمع أن هذه الاتجاهات بين كل التيارات والاتجاهات إلا أن هناك جانبًا مشتركًا جمعهما كلاً في افتراض واحد، وهو الافتراض الساهم بناءً من الممكن انتشار الحياة من فوضى الحالية والأدوار إلى الأفضل. كنا أوقن أن التقدم المادي في حد ذاته ليس هو الحل، على الرغم من أنني لم أكن أعرف على وجه اليقين أي يمكن أن أجد الحل. كما لم أتمكن من إقناع نفسى بذلك الحماس الذي اعتذر كجليل من أجل التقدم.

لم أكن تعيسًا، كما لم أكن انطباعيًا، بل كنت في ذلك الوقت سعيدًا بما هو أكثر من النجاح في حياتي العملية. لم أنني استمرت سعادتي من وظيفتي، كان عملي في وكالة يونايتد تليجرام يرجع إلى تمكين من عدة لفات، و كنت قد أصبحت نائبًا لرئيس تحرير قطاع أخبار الصحافة الإسكندنافية، وفتح أمامي ذلك العمل سبلًا وطريقًا عريضة إلى عالم أربى وأوعى. كان مقصدي «دي فيستين» ومن بعده مفصولة «رومانيشي» ملتقى الكتاب والمفكرين والبرزين والفنانين ومتابعي الصحفين وممثلين ومنتجين، وكانوا كله يملون لي البيت الفكرى، ربطتني بهم جميعًا علاقات صداقة توفرت بها الدنيا. كان لي أيضًا شهرتى التي لم تقل عن شهرة كثيرين منهم. كانت حياتي مليئة بصداقات عميقة، وعلاقات حب وعزم عابرة. كانت الحياة مثيرة، مليئة بأحلام وعده صاخبة الألوان.

كلاً، لم أنني تعيسًا بالتأكيد - لكي لم أكن أشعر بالراضي ولا بالإشبع، لا أدرى بالتحديد ما الذي أسعى إليه وما الذي أتوق إلى تحقيقه، وفي الوقت نفسه كنت مقتناً مع فورة الشباب ووجوده، أحسى ساعد في يوم ما، ما أبحث عنه وأحققه. هذا كنت أتأرجح بين ما أحسسه في قلبي من رضا و عدم رضا مثل كثير من شباب تلك السنوات الغريبة: فمع أن أيًا منما لم يكن تعيسًا، إلا أن قليلاً من كان سعيدًا Leyي وبريئًا. لم أنني تعيسًا، ولكن عزوفتي عن المشاركة في الاتجاهات والصراعات المتعارضة للتوجهات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية نما مع الوقت ليتحول إلى إحساس عاملي من عدم الانتهاء الكامل، وصحب ذلك الإحساس غموض آخر، رغبة عارمة للانتهاء، إلى من؟ وأن أصبح جزءًا من كل... أي كل؟

93
ثم في أحد أيام ربيع عام 1972، تلقت رسالة من خالدي دوريان، كان خالى دوريان أصغر أشقاء أمي، ربطتني به علاقة صداقة أكثر منها قرابة. كان طبيبًا نفسيًا وأحد تلاميذ عالم النفس الشهير "فرود"، وكان في ذلك الوقت يشغل وظيفة طبيب نفسى في مصحة عقلية في مدينة القدس. لأنه لم يكن صهيونيًا ولا يتعاطف مع الخطط الصهيونية - كما كان لا يميل إلى العرب، فقد شعر بوحدة وعزلة في عالم لا يفعل به إلا أن يعمل وينتقل أجرًا. لم يكن متزوجًا، وإذا فكر في ابن شقيقته كفيف من النذر.

والتالي إلى تلك الأيام المثيرة حين كان يتردد إلى ذلك العالم الجديد، علم التحليل النفسي، وأخذ رسالة قائلًا:

"هذا لا تأتي وتقيم بضعة أشهر هنا! سأستقبل نفقات سفرك قدومًا وعودة، وسأترك لك تحديد موعد عودتك إلى برلين. وحين تكون معى هنا، ستعيش معى في منزل عربي قديم مشيد من الحجاره، جو لطيف صيفًا وبارد حتى التجمد في الشتاء، ستقضي وقتًا ممتعاً معًا. لن كتب كثيرة هنا، حين تلبي من تأمل المناقع الغربية حولنا، يمكنك أن تقرأ ما تشاء..."

اتخذت قرار السفر بتصميم ومعزيمة تصفت بها دائمًا قراراتي الكبرى. في الصباح التالي أخبرت دكتور "دامبرت" في وكالة يونيتيد تيليجرام أن هناك اعتبارات وأسبابًا مهمة تتحدى على التوجه إلى الشرق الأوسط، وأتى سائرك العمل خلال أسبوع.

لو أخبرني أي أمراً في ذلك الوقت أن أول معرفة مباشرة لي بالعالم الإسلامي ستؤدي إلى ما يفوتك كثيرًا ما يخرج به أي مسافر في رحلة أو إجازة عمل، إنها تصبح نقطة تحول عظيمة في حياتي، لكي قد ضحكك كثيرًا من مثل تلك المزحة المجاورة للعقل. ليس بالطبع لأنني محصن ضد إغراءات البلاد التي ترتبط في ذمني - ونحن كل الأوروبيين - بالجوز الرومانطيق لحكايات ألف ليلة وليلة: فقد توقع أن أرى ألاوان وأصنافًا من البشر وأزيا مختلفة متباينة والمرور بمواقف رائعة مثيرة، إلا أنني لم أتوقع أيًا مغامرات روحية. لم تمثل لي تلك الرحلة وأنها أعدت نفسي لها أي وعد خاص أو حلم بتحقيق أي جانب شخصي. كل ما كان يدور بذهني عن تلك الرحلة كنت أتعامل
معه برؤية غربية، فقد كان رهانًا لا إزايل محصورًا في تحقيق أعمق في المشاعر والإدراك من خلال البيئة الثقافية الوحيدة التي نشأت بها وهى البيئة الثقافية الأوروبية. وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؟ لم يكن إلا شابًا أوربيًا صغيرًا في مقتبض عمره، نشأت على الاعتقاد بأن الإسلام وكل رموزه ليس إلا محاولة الثقافية رومانيته حول التاريخ الإنساني، محاولة لا تحقق حتى «بالاحترام» من الناحية الروحية والأخلاقية، وبالتالي لا يستحق الذكر، فضلاً عن أنه أقل من أن يقارن بالعقيدتين الوحيدتين اللتين يرى الغرب أنهما تستحقان الاهتمام والبحث، وما المسيحية واليهودية.

ذلك الفكر الضبابي الغامض، والانحياز الغربي ضد كل ما هو إسلامي (لا يشمل ذلك بالطبع الظهور الرومانيته الفؤاكلوري لظاهر الحياة الإسلامية كما تبدو في نظر الغرب) ولو تعاوَنت بعد مع ذاتي، لابد أن أقرر أنتي أيضًا كنت غارقًا حتى أذن ففي تلك الرؤية الذاتية الأوروبية والعقلية الذاتية الثقافية التي تسمى بها الغرب على مدى تاريخه.

* * *

والآن، كنت على سطح سفينة في طريقي إلى الشرق. كان السفر ممتعًا من برلين حتى القسطنطينية، وفي هذا الصباح الضبابي على متن تلك السفينة، ظهر شراع أحمر من بين حجر الضباب ومرق بجوار السفن، عرفت أن الشمس تظهر، كانت حزم من ضوء شاحب، رفيعة كالخيوط، تเสมอ على العتبة الضبابية السائدة على سطح الماء، كان للعتبة الضبابية لون شاحب مثل الألوان المعدنية. تحت تواصل تزايد أشعة الشمس الموسَكة على الإشراقة، ترسبت الكتل البنية الضبابية ببطء، وتأقل على سطح الماء، ثم تفرقت عن بعضها، ثم تناهرت محيطة بجوانب حزم ضوء الشمس المتزايد كأقواس متغايرة، مثل أجنحة الطير.

سمعت من خلفي صوتًا عريقًا ممتنعًا يقول: «صباح الخير» استمرت وتعرفت على الفؤار على رفيقي في السفر ذي الرداء الكنسي الأسود، والذي قابلته في الليلة الماضية.
وجه وزود تعليمه ابتسامة محببة جعلته أميل إليه بسهولة. كان قسًا جزئيًا نصف بولاندي ونصف فرنسي ويعمل معلماً للتاريخ في واحدة من كليات مدينة الإسكندرية، وكان عائداً إليها بعد اقتضاء إجبارته. كنا قد تبادلنا الحديث في الليلة السابقة حول موضوع مختلفاً اتضح منها أننا مختلفين في ناحيتي فكرية عديدة، وكتبت ناضجة بما يكفي لأدرك أنه طراز من الرجال الأنثوياء الجادين، كما يتعين بروح مرح.

رددت تجاهتي: «صباح الخير يا أب فيليكس، انظر إلى البحر...» كان نور الصباح قد أشرق واستعادت المرئيات ألوانها الطبيعية بعد انقشع الضباب. وقفنا على مقدم السفينة تهولاً بيا رياح الصباح. حاولت متابعة تغيرات الألوان السريعة والمتغيرة في أمواج المياة المتلاصقة على صفحة البحر: أزرق، أخضر، رمادي. من الممكن أن تكون زرقاء إلا أنها عكست لونًا أرجوانيًا من الشمس المصاعدة، انزلاقات اللون المنعكس على صدر الأمواج، بينما تظاهر زبد أبيض من نصل الأمواج وتشكل كأنه رغوة جليدية تجرى على حافة ألوان معدنية متجاذبة ثم تحولت الأمواج العالية إلى مجرد حركة ارتجاجية وسطح مياه مرتفع. إلى آلاف الدوامات الدقيقة المستنقعة عن بعضها وتحولت ألوان قلابها إلى الأخضر الهاش، ثم يتصاعد اللون الأخضر في قلب الدوامات متحولًا إلى لون بنفسجي مركف: ثم يتحول في حائزة إلى لون النبيذ القاسي، ثم في وهلة إلى لون التركيز الأزرق ويصبح حافة موجه، ويتكرر من جديد؛ مرة بعد أخرى في الرغوة البيضاء التي نشرت شباكها على تلال الأمواج المتلبدة...

مرة بعد مرة في تتابع لا ينتهي.

بعثت حركة الأمواج وألوانها المتفاوتة في نفسى إحساسًا بالقلق والتوتر لقدمتى على متابعة تبايناتها السريعة. حين تطلعت إليها بنظرة شاملة، أحسست لثوان أنه يمكن أن تمام بكل ذلك من خلال صورة كلية متكاملة: فعادية التركيز الإرادى وربط مفهوم منفصل مع مفهوم آخر لم يؤد إلى إدراك سلسلة من الصور المفصلة التي لا يربطها رابط ومن مشكلة المجزع من الفهم والإحاطة، والتشتت الفهمى الغريب المقلق، تولت فكرة سعت في ذهني بوضوح شديد - أو هكذا بدت لي في ذلك الوقت - قلت بطريقة لا إرادية معتبرًا عن الفكرة التي رأيتها: «من يمكن من إسلام بكل تلك المتغيرات السريعة بحواسه سيكون بإمكانه السيطرة على قدره ومصيره.»
رد الأب فيليكس: «أعرف ما تعنيه، ولكن لماذا يرغب البشر في السيطرة على أقدامهم؟ النجاة من المعاناة؟ لا يكون من الأفضل أن يتحرر البشر من أقدامهم؟»
قلت: «أنتم تتكلم تقريبًا مثل بونزي يا أب فيليكس. هل تعتبر أيضًا أن النيرفانا هي هدف الوجود؟»
رد قائلًا: «أوه، كلا بالتأكيد لا أعني ذلك... نحن الوسيطين لا نسعى لإخماد الحياة وتشعشع... نحن نسعى فقط إلى السمو بالحياة فوق مستوى المادة والحس إلى مملكة الروح.»
سأت: «ألا يعد ما تذكره نوعًا من إلغاء الذات والوجود والحياة لحساب الروح؟»
رد قائلًا: «لا، ليس كذلك يا صديقي الشاب، فما أنكره هو السبيل الوحيد للحياة الحقة، السلام...».
فجأة ظهر أمامنا مضيق البسفر، بدأ طريقًا مائيًا واسعًا تحفه من جانبيه أمواج يتضارع منها زبد أبيض من ارتبطها بالتلال الصخرية على جانبيه. تناورت على التلال الصخرية قصور عالية شغلت جانبًا من سماء ضفتي الضيق، من بينها حدائق بدت كشرفات تطل على المياه، وقلع عشانيّة قديمة بدت وكأنها كتل صخرية ضخمة معلقة على حافة الماء مثل أعمدة طيور جارحة.
سمعت صوت الأب فيليكس يتابع حديثه، وكأنهأت من مسافة بعيدة: «أنت تعرف أن أعمق رموز الطموح البشري هو رمز الجنة، ستتجه في كل الديانات في صور تحليلية مختلفة، إلا أن المعنى هو ذات المعنى، وهو تحديدًا، الرغبة في التحرر من القدر والصبر. البشر في الجنة بلا مصير، لقد استسلموا لإغراء البند وسقطوا فيما نسبه الخطيئة الأولى. إذن الروح أمام متطابقات البند التذبذبية، والتي تعتبر بقايا حيوانية في الطبيعة البشرية. أما الجوهر البشري، أي الجانب الإلهي المقدس فهو الروح فقط، الروح تجاهم ساعية إلى النور، النور هو الروح المقدس، ولكن بسبب الخطيئة الأولى فإن طريق النور إلى النور ملء بالعثرات المادية، وهي الجانب غير المقدس... البدن... واحتياجاته ورغباته وفرائشه. ما تهدف إليه التعاليم المسيحية، أن يحرر البشر أنفسهم...»
من تلك المتطلبات الدائمة والمتطلبات الشهوانية العالية وأن يعود البشر إلى ميراثهم الروحي الذي أخذوه من الرب.

ظهرت على حافة الصخر الواقية في تلك اللحظة قلعة "رومليح حصار" العثمانية الشهرية ذات البحرين، كان أحد مجمعاتها الصخرية ينزل ممتدًا حتى حافة المياه، وعلى الشاطئ، قربها الدائرة التي تكون فيها جدران القلعة، كانت هناك مقبرة تركية صغيرة بشواهد حجرية محكمة.

قلت: قد يكون الأمر كذلك يا أب فيليس، إلا أنني أشعر - وهو الشعور ذاته لدى
أعداد كبيرة من جيالي - أن هناك خطا ما في الفصل بين ما هو "جوهري" وما هو "غير جوهري"، أي الفصل بين الروح والجسد... باختصار لا أ Await على إنكار لأهمية الاحتيابات الجسدية السفلى، أو الفريدة، أو المصير المرتبط بالأرض والاحتياجات الدينية، ما أورن به وما أرغب به في اتجاه مختلف: فانا أحلق بشكل للحياة... وانا
أعرف أنني لا أعرف ملامح هذا الشكل بوضوح - في ذلك الشكل من الحياة تجاه الروح والبدن، لتحقيق أعمق وأعمق للذات، في ذلك النوع من الحياة الذي أنشده لا تغير الروح والبدن عدرين لبعضهما ولا متانة في مسعهما، وبذلك يمكن للإنسان أن يحقق التوحيد بين ذاته، وقدره، حتى يمكنه أن يقول عنوصوله إلى تلك القمة "أنا هو قدرى، وقردي هو أنا".

رد الأب فيليس: "لقد كان ذلك هو الحلم الهيليني؛ فاليين قاد البشر ذلك الحلم الهيليني؟ قادهم إلى أغاز أورفيس وديونيس، ثم إلى فلسفة أفلاطون ورونينوس، وهكذا، حتى عاد بهم من جديد إلى قين حتى يتنافس الروح والجسد في مسعاهم... إن الخلاص المسيحي يسعى إلى تحرير الروح من هيمنة الجسد، وهو معنى نستمد من إيماننا بضرورة السعي للبنية على الصليب... وهذا توقف بغية عن مواصلة حديثه والتف إلى وهو يغمق قائلاً: "أنا است على الدوام من المبشرين... سامحني إن كنت قد تحدثت إليك بمعتقداتي وإيماني، الذي يختلف عن متقدمك وإيماني...".

قلت له مخففًا: عن الحرج الذي أجسسه: "لا عليك، أنا بلا إيمان" رد الأب فيليس:
بلى، أعرف ذلك، نقص الإيمان، أو معنى أدق، عدم القناعة على الإيمان، تلك هي العلة.
في عصرنا الحالي أو العصر المفتشي، إننا، مثل آخرين كثيرين، نعيش على وهم عمره آلاف السنين، وهو أن الذكاء وحده يمكن أن يقود الإنسان في جهاده، إلا أن الذكاء لا يمكن أن يقود الإنسان إلى معرفة الروح: فالذكاء غارقة في تحقيق أهدافها المادية الدنيوية. الإيمان: الإيمان وحده هو الذي يمكن أن ينتشلا من ذلك الغرق والاستفراج اللامع، رواة متطلبات البذل.

سأناه: "الإيمان؟ أنت من جديد تذكر الكلمة على لسانك. هناك شيء لا ألفهم: لقد قلت إن العقل لا يمكن أن يصل وحده إلى اليقين، وإلى الحياة الحقة؟ وأن هناك حاجة إلى الإيمان بجانب العقل كما ذكرت. أنا أوافقك تمامًا على ذلك. ولكن كيف يمكن للمرء أن يتواصل إلى الإيمان إن لم يكن لديه إيمان؟ هل هناك وسيلة لتحقيق ذلك؟ أعني معرفة طريق إدانته؟

رد الأب فيليكس: "ياسديق العزيز، الإرادة وحدها لا تكفي. الطريق متاح فقط برحمة الله. إلا أنه لا يتاح إلا أن يصل بقلبه ومن أعماقه حتى ينير الرجاه طريقه".

قلت متسائلاً: "يتحلى! ولكن حين يكون المرء قادرًا على ذلك يا أب فيليكس فإنه يكون لديه إيمان أصلًا. إنك تدور بعيدة في حلقة مفرغة - لأنه إذا كان المرء يصلى، لا بد أن يكون مقتنعًا أولاً بوجود الإله الذي يصلى له. كيف وصل إلى هذا الافتراض؟ هل من خلال عقله؟ أم يشير ذلك إلى أنه يمكن الوصول إلى الإيمان من خلال العقل؟ وعده ذلك، هل تُعنى "الرحمة" أي شيء لم يمر بتجربة إيمانية من هذا النوع؟

رفع القس كطفيبة ببساطة، ذا وكأنه يريد أن يقول: "إذا لم يكن المرء قادرًا على معرفة الرب بنفسه، فمن الأفضل أن يترك نفسه ليقذف إلى تجارب الآخرين الذين يعرفون الله بقلوبهم".

* * *

بعد عدة أيام أخرى رسموا في الإسكندرية، وفي مساء اليوم نفسه كانت متوجهًا إلى فلسطين. انطلق القطار بنا من الإسكندرية في عصر ذلك اليوم عبر أرض دلتا النيل
المنبسطة. عبرنا قنوات مائية كثيرة متفرعة من النيل تعلو صفحتها مياهها مراكب شراعية. كانت المدن الصغيرة تظهر وتختفي، وجتمع من منازل طينية قرية صغيرة ذات مآذن ونافذة، وحقل القطن، وقصب السكر، وأشجار نخيل شاهقة. وقطعان جاموس أسود يعود وحدها بلا راع من البرك الطينية التي كانت تتمرد بها طول اليوم. على مسافات كان يظهر رجال في ثياب طويلة: بدأوا كأنهم طافون، كان الهدوء شفيفًا، ونقفًا تحت سماء صافية زرقاء كالزجاج الشفاف. على ضفاف القنوات كانت نباتات الياسمين تتمليء في رشاقة تحت وقع النسيم، ونساء يملأن جاراً فخارياً بالمياه: كان مشهوراً، كان نحيفات طويلاً الساقين. ذكرى مشيئين بأشجار طويلة الساقين تتمليء في طراوة إلا أنها قوية في مواجهة الرياح. كانت للشباذ الصغيرات منهن ونساء الخروات نفسها: رشيقاً وخفيفة الوضع. زادت المتعة، وناعم بثلث، كنت نفسك في طغى إلى الراحة. الرجال نحاف القامة بوجه عام، يسيرون في جماعات عائدين من الحقول، بدت حركتهم متحاولة وتختفي بالتدريج مع اختفاء نور النهار: كل خطوة كانت تبدو ذات وجود مستقل بذاته، كل خطوة مكتملة بذاتها: بين دهر ودهر هناك تلك الخطوة. ربما كان إحساسي بالخفة والنوعة راجعًا إلى أضواء الغروب المبهجة في أراضي دلنا النيل، وربما كان راجعًا إلى هؤلاء المشاهد الجديدة على. ولكن مهما يكن السبب، شعرت فجأة في داخلي بكل وطأة، وثلج أوروبا: وطأة الهدف الإلزامي في كل ما نفعله. فكرت: ما أشاق اقتناعي من الواقع. نحاول الإمساك به، ولكنه يستعصى على الإمساك، وحين يظهر الإنسان يجد الإنسان نفسه منصاعًا للاستسلام.

كانت خطوات الفلاحين المصريين قد اختلفت على الافد في الظلم الذي كان يتزايد، مازالت تتربع في ذهني مثل ترنيمة وتبتين كلما هو سام رفيع.

وصلنا قناة السويس، فاستدار القطار بزاوية قائمة وواصل سيره لفترة باتجاه الشمال بمحاذاة ضفنت القناة، التي بدأ رمادية ذاك. كانت القناة تبدو ك.moveToNext ممتدة تحت ضوء الليل الشحيح.
أعمال ضوء القمر القناة إلى واقع قريب من الحلم، بدت صفحة المياه مثل طريق
واسع عريض، كشريط داكن لمعدن لامع، تحول المشهد بسرعة مدهشة من أرض
خصبة خضراء يوادي النيل إلى سلاسل من كثبان رملية أحاطت بالقناة على جانبيها
فبدت باحة في مواضع وحيدة وبارزة في مواضع أخرى.
في السكون المخيم بدت مياكل رافعات الرمال العاملة من قاع القناة، ومن خلفها
على الضفة الأخرى، ظهر شبح رجل يركب جملة تبحث السير في الظلام، لمته
بعضوية ثم اختفي في أعماق الظلام.
ما أعظمه من مرمر مائي يتسم بالبساطة: يمتد من البحر الأحمر، إلى البحيرات
المرة، ثم عبر البحيرات إلى البحر المتوسط. مرر جعل خفقات المحيط الهندي تصل إلى
أراضي موانئ أوروبا.
انتهت رحلة القطار في مدينة القطرة، وعبر ركب القطار القناة في صندل بحري;
كان قطار فلسطين سيبدأ رحلته بعد ساعة. جلست أمام محطة القطار، كان الهواء
رقيقًا والجو دافئًا وجافًا والصحراء ممتدة إلى اليمين واليسار. انتشر دخان في الهواء
من أن آخر كنت أسمع عوام، ربما كانت ذئابًا أو كلامًا. نزل ببعض من العبارة وهو
يحمل حملاً ثقيلًا من مخالب الإبل مصنوعة من أنقشة ملونة، سار باتجاه مجموعة
تقف على مبعدة ويجاورهم مجموعة جامحة من الجمال مسرجة وجاهزة للرحلة، كانوا
ينتظرون ذلك الذي وصل، فقد ألقى بحمولته الثقيلة على ظهر أحد الجمال، وتبادل
حيثًا سريعاً مع من كانوا ينتظرونه وركبوا الجمال التي نهضت أولًا على قواهمها
الخلفية، ثم انتصب على قواهمها الأمامية فمام الراكبين إلى الأمام بحدّة ثم إلى
الخلف، ثم انطلقوا وأقدم الجمال تبعه أصواتًا ناعمة من خروجاً على الرمال،
لحظات كان يمكن أن تتابع الآثار المتبينة للإبل المتأرجحة في عودها ولاسLV
الفضفاضة للبرد ذات الخطوط البنيّة والبيضاء تقدم باتجاهي عامل من عمال السكة
الحديدية، كان يرتدى سروال العمال الأزرق ويبدو أن به ممرّاً، أشعر لفافته من
لفافتي، وسائقي بلغة فرنسية ركيّة: "أنت ذاهب إلى القدس؟ وحين أجبته بالإيجاب،

101
استطاع متسائلًا: "أول مرة؟" هزت رأسى مرة أخرى، كان على وشك الاستمرار في الحديث إلا أنه استدار قائلًا: "هل رأيت القافلة القادمة من صحراء سيناء؟ لا! إذن تعال معى لترأهم، مازال أمامك وقت.

سرنا في فراق صامت صامدين دريًا ممهدًا باتجاه اليلات الرملية. نحن كلب في الظلام، وبينما كنا مضين في طريقنا، نتعثر في النباتات الشوكية، وصلت إلى مسامعنا أصوات مشوشة ومتشابكة للكثير من الناس وعندنا زراعة حادة لحيوانات تهواء الصحراء الجاف، فجأة، ظهر شعاع ضوء ضيق من أسفل التل كما لو كان صادراً من أعماق الأرض، ويرتفع تدريجيًا كف القطب المتجمد التل، كان ضوء نار عظيمة مشتعلة في واد ضيق بين تلين رملتين، والوادي مغطي بأشجار شوكية كثيفة، حتى يصبح أن ترى أرضه، تبينت بوضوح أصوات رجال يتكلمون وسمعنا أصوات تنفس الجمال ظهر فجأة شبح رجل أمام الفنار، كان يركض حتى منحدر التل ثم يعود من جديد، بعد أن تقدمت خطوات أخرى، تبينت ما يحدث بوضوح، كانت هناك دائرة واسعة من الجمال الباركة وكيم عظيم من سروج الجمال ومخلّى الأحامل منتظرة هنا وهناك، وبيتهم أشباح الرجال، كانت رائحة الحيوانات مركزية، كانت حيوانات الشعراء، أحيانًا ما يتحرك جمل جسمه في تغيّر شكل شبيهه في الظلام، ويرفع منها ومدّها في الظلام مع صوت شخير، كما لو كان ينتهي، هكذا سمعت لأول مرة تنباتات الجمال. ثَتت بعض الماعز بنعومة؛ ورمجر كلب؛ أما خارج ذلك الوادي فقد كان الوجود مظلمًا بلا نجمة واحدة في السماء.

كان الوقت قد حان، فبدأت العودة إلى محطة القطار، سرت متمهلاً نازلاً أسفل المر الذي قدمت منه منهذشاً ومحتزاً من أعماق، تجربة غامضة سكنت جانبًا من قلبي وإن تبرحه بعد ذلك أبداً.

* * *

102
سار القطار عبر صحراء سيناء. كنت مجدداً، إلا أن النوم جافاني من شدة برودة الصحراء. واهتزازات القطار العنيفة فقد كان يضطه على قضايني مدمراً على رمال ناعمة غير متماسك. جلس أمامي رجل بدواي في عباءة بني فضفاضة وكان هو الآخر يعاني من شدة البرد فلف وجهه ببطء رأسه. كان جالساً مرتعباً، وعلى ركبتيه أراح سيفه النحني ذا الفهم المزين بنقوش فضية. كان الوقت يقترب من الصباح، ويمكن تمييز الأشكال الخارجية لتلألل الرمال، وتجمعات نباتات الصبار.

مازلت أذكر كيف انبثق نور الفجر، دماني، أزاح بعض العتبة، حدد الأشكال وراح ببطء يرسم خطوطها الخارجية. ودفعت بالتدريج تلال الرمال التي كانت غارقة في الظلام إلى عالم المرئيات. ظهر تجمع من الخيام واندفعت مسرعاً إلى الخلف، بقرب الخيام كنت هناك شباك صيد ذات لون فضي داكن مشوهة بين أعمدة لتتجف وكانت تتزايير مثل ستائر الضباب: شباك صيد في الصحراء، تتزايير مع هبوب رياح الصباح، مثل حجاب الأحلام، شفافة، في لواقعتنا الحلم، مابلين حلقة الظلام، ونور النهار.

إلى اليمين كنت الصحراء وإلى اليسار امتد البحر. على الساحل كان راكب جمل يمضى وحده متهادياً. من الواضح أنه كان راكبًا طوال الليل فقد كان مستغرقًا في النوم على سرج الجمل، وكلاهما يهتز في حركة متناقة: الرجل والجمل. ظهرت من جديد خيام بدوية السوداء، ونساء بدريات خارج الخيام يحملن جيروًا فخارية على رؤوسهن، في طريقهن لجلب الماء. من بين طيات شبه الضوء الذي راح يتزايد إلى ضوء، انبثق عالم شفاف وواضح. يتحرك بنبضات غير مرئية، معجزة على بساطتها إلا أنها لا تنتهى.

انسكت ضوء الشمس على الرمال بقوة متزايدة وتحول نور الفجر الرمادي إلى لون ذهبي أحمر ناري. افترقا واحات العرش، بدأ نخيلها كأنه أعمدة كاتدرائيات ضخمة مشيدة من نخيل بسابعها المقص. لوحة تشكيلية رائعة من اللونين البنية والأخضر، من النور والظل. كانت هناك امرأة تحمل جرة على رأسها تسير تحت النخيل وتصعد
منحدرًا ببطء، ترتدى عباءة طويلة ملونة بالأحمر والأزرق، بدأ سيدة سماوية خارجة من ثنايا أسطورية.

اختفقت تجمعات نخيل العريش بسرعة كما ظهرت. دخلنا في منطقة نورها كنور المحار والأصداف. خارج إطار نوافذ القطار المترامية الهوارة، كان يعم سكون لم أجب مثيرًا له في أي مكان زرتته. كل الأشكال والرموز كانت خارج نطاق الأمن واللغد. أشكال متميزة بسرقة الرؤوس، رمال ناعمة حولها الرياح إلى أكمام رخوة تومض بآوان برتقاليين تحت أشعة الشمس الوليدة، مثل مخطوطة نفيضة قديمة، رقيقة، متماسكة، تحتني حcke أسطحها احترامًا جادة صارمة، وتتهبط في رقة على الأجناب.

بضلال ألوان مائية شفافة - أرجواني ليلى وقرمز قائم في التجاويف السطحية والفراغات البيئية وسحب متداخلة وجمعنا نباتات صبار متأتئة هنا وهناك وأعشاب خشنة سميكة في مناطق أخرى. بدو حافة وقائمة جمال مُحملة بسعف نخيل آتية من مكان وضائع إلى مكان أجهله. كنت متخيدًا ومشدوحًا بالصحراء الشديدة الانتعا.

توقفنا عدة مرات في محطات صغيرة، كل ما فيها لا يزيد على بضعة أكواخ مشيدة من الأخشاب وألواح الصفيح. وأولاد عليهم أسماء باحية مرقطة يتجولون داخل القطار وخراج يبيعون ثمار التين، والبيض المسلوق وأرغفة خبز رقيق طازج. نهض البديع الذي كان جالسًا أمامي ببطء وأرار غطاء رأسه عن وجهه وقت فتح نافذة القطار المجاور له، كان وجهه نحيلًا داكنًا حداد اللامع، يشبه وجه الصقر الحادة. اشتدت فطرة، ثم هم بالجولس. حين وقعت عيني على: دون أن ينطق بكلمة، قسم الفطرة نصفين وقدم لي نصفها، حين لاحظ تردد ودهشتي، ابتسم: لاحظ أن ابتسامته تلق بوحجه كما كانت لائقة عليه النظرات الصغرية الحادة. قام كله لم أفهم معناها في ذلك الوقت ولكني أعرف الآن أنها كانت تفضل. أخذت نصف الفطرة وهرمز رأسي شاكراً مسافر آخر يرتدي ملابس أوروبية وطريحة أحمـر - تدخل مترجماً: وإنجلزية متعثرة.

قال: يرقد لك أنت على سفر، وهو على سفر، وطريقكما واحد.

حين أفكر الآن في ذلك الحدث الصغير، يتبنين لي أن كل الحب الذي أحبته للشخصية العربية بعد ذلك، لا بد وأنه قد تأثر تأثرًا كبيرًا بتلك الواقعة الصغيرة. كان
لتك الفئة الكريمة من ذلك البندى، الذي شعر بالصداقية تجاه مسافر معه بالصدفة
رغم حاجز اختلاف الأجناس واقتسم معه خبرة ما أشعرني بأنفاس الإنسانية الحرة
الخالية من أي عظام وعقل نفسية بشرية.

بعد فترة قصيرة وصلنا إلى غزة القديمة، كانت قلعة طينية تحيى حياتها المنسية على
تل رمل بين نباتات صبار كثيفة، جمع رقيق البندى أجوده وحياته بابتسامة أسى
وهرة من رأسه، وغادر عري القطار، مثيرًا للغبار من خلفه برائته الطويلة الفضفض
الذي كان يكنس الأرض. كان هناك بدوان آخران يقفان على رصيف المحلة صاحباه
وقياله على خده.

وضع التاجر الذي يتحدث إنجلجيزية ركيزة كفه على ذراعي قائلًا: "هيا ننزل، أمامنا
ربع ساعة قبل أن يسرق القطار من جديد".

خلف مبنى المحلة كانت هناك قافلة من الجمال البارزة: كانت القافلة كما أخبرتى
مرافقًا ليبدو من شمال الحجاز. كانت لهم وجه داكنة مترية عفوية بهودة. كان مرافقي
البندى بالقطار قد انضم إليهم، فبدأ لي أنه شخصية مروعة بين قومه، فقد تجمع حوله
أفراد القافلة في دائرة عفوية ويتحدثون معه. تحدث إليهم التاجر، فاستداروا إلينا في
مودة - فيما أحسبت أنا ببعض التكبر والتعالى، إحساسًا مني بتحضيري عليهم.
أحاطهم جو من الحرية، وراوحتي رغبة عارمة في فهم حياتهم والإحاطة بها. كان الجو
جافًا كان يختنق البدن وأذاب تكبري ومشاعر التعالى الأخرى. كانت هناك حالة من
انعدام الإحساس بالزمن مما جعل كل المرئيات الموجودة والأصوات والروائح تكتسب
قيمة خاصة بها. بدأت تشرق في ذهني فكرة أن من يحيون في الصحراء يستجيبون
للحياة ويستشعرونها ويتجاوبون معها بطريقة مغايرة تمامًا عن أي بشري يحيون في
مناطق أخرى; خمنت أنهم متحرون من أي مخافر - وربما أيضًا من أي أحلام - التي
يتصف بها سكان المناطق الباردة الغنية، وتحرون بالتأكيد من عواقب وفتيز كثير;
فهم يعتمدون بشكل أكبر على إدراكهم الخاص، واستقرأ على نسب من القيم مغايرة
لأية أنساق أخرى.
ربما كان إحساس السبق بالتغيير والتحول الذي سيقع لحياتي القادمة هو الذي جعل مشهدًا للبدو يذكرني. كان إحساسًا بعالم تخلص من كل محدودية البشر وشوابه، وكان له أنفسه تجعله متماسكًا من داخله ومنفتحًا على الخارج في الآن نفسه: عالم يوشك أن يصبح عالمي أنا أيضًا.

لم أكن أعي بالطبع ما يخبئه المستقبل ويقره لي، كان إحساساً يشبه إحساس من يدخل منزلاً غريباً عليه لأول مرة ويجد رائحة في مدحه لا يستطيع تحديدها إلا أنها تخلق لديه إحساسًا داخليًا بأحداث ستقع فيه وستقع له أيضًا، وأنها إن كانت مبهجةً، تبعث الجياع والنشوة في نفسك وقلبك. ونتذكر تلك اللحظة بعد ذلك بزمن طويل، حين تتحقق كل الأحداث التي أحست بها دون تحديد، حينها تقول لنفسك: "أحسست بذلك من زمن طويل مضي في لحظات دخولي البيت الأولي، عند مدخله".

[6]

هبت دفقة من الرياح القوية. لوحة اعتقد زيد أنها مقبلان على عاصفة رملية أخرى. لم تتحول الرياح إلى عاصفة إلا أن حدتها لم تخف، تتباعت هباتها القوية ثم تجمعت وتلاشت الفاصل الزمني بينها لتصبح ريحًا متوافقة حين كنا نبتين إلى أمل رمل، كانت واحة من أشجار النخيل محتشمة وسط الودى وراء ساتر ملا الجو بدوامات الرمال التي تزروها الرياح، كانت الواحة مكونة من بيوت منفصلة يحيط كل منها سور من الطين.

كانت تلك المنطقة نوعًا من مناطق تجاوز الرياح، ففي كل يوم من مشرق الشمس حتى مغربها تظل الرياح تضرب ذلك الودى الرمل بجناحها قوية لا تكل، ثم تبدأ في الليل، وتهب في الصباح التالي كما كانت في اليوم السابق; لذا كانت أشجار النخيل لا تنمو أبدًا إلى أطوالها الطبيعية تحت وطأة تلك الرياح الدائمة وتحول منابتة قريبة فروعها من سطح الرمال، وسعفها عريض ممتد، إلا أن النخيل في تلك الواحة مهدد.
بالدفن تحت الكتبان الرملية، بل إن الواحة بأجمعها مهددة بالدفن تحت الكتبان أو لم يتم أصحابها بزراعة أحرفنة من أشجار الطوفاء، حول مواضع النخيل والبليوت، وأشجار الطوفاء طويلة الساقان وأشد مقاومة للكتبان الرملية، من جذورها القوية وفروعها البائعة الخضراء على الدوام، يكتون حائط حي حول النخيل والمزرعات الأخرى، يقدم لهما أمتنًا غير مأمون.

ترجعنا وحطتنا رحانا أمام منزل أمير القرية، ن Tiến أن نستريح في ذلك الموضع لاتقاء قيظ الظهيرة، كان موضوع صنع قهوة الغريبة والضيوف بسيطًا عاربًا بدل على فقر الواحة وأمامه وسادة من قش لجلوس الضيوف أمام موضوع النار، ولكن وكالمعتاد، فاق الكرم العربي أي فقر وتغلب عليه: مجرد أن جلسنا على وسادة القش، كانت الثيران تتنز في موقد القهوة، كما بعث تستين هاون طحن حبوب القهوة الحمضية رجاعًا من الحياة في المكان الصامت، ووضعت أمامنا قصيدة عظيمة بها كوم كبير من التمر البني لدجوع الضيوف المرحلين.

دعنا مضيفنا، وهو رجل عجوز ضئيل الحجم له عين دامعة حوله، يرتدي رداءٌ قطنيًا بسيطًا وغطاء رأس - أن نتناول وجبتنا قائلاً:

»وهبكم الله الصحة والعافية، والبيت بيتكم، كلو، باسم الله. هذا كل ما لدينا«.

وأشار بيد إشارة اعتذار، حركة بسيطة عفوية عبرت بصداق وبساطة عن رضاه بنصيبه من الحياة، نوع من التعبير الطبيعي الذي يميز من يحيون بالفترة النقية - أردف قائلاً: »لكن التمر ليس رديئًا، كلو، مما نستطيع أن نقدمه لكم«.

كان التمر من أفضل أنواع التمر التي نجتها في حياتي، وسعد مضيفنا حين رأنا مقبلين بشهية على تناول تمرهم، بدأ يحدثنا من جديد: »الرياح، الرياح تجعل حياتنا شاقة؛ إلا أنها إرادة الله. الرياح تدمر زراعاتنا. نقاوم الرمال حتى لا تنفتها. لم تكن الحال كذلك من قبل. في الأزمنة السابقة لم يكن هناك رياح كثيرة في هذه المنطقة، وكانت الواحة كبيرة وغنية، الآن تضاءت: بهجرها أكثر من الشباب، مثل تلك الحياة القاسية لا يحتملها أي فرد. الرمال تحاصرنا وتزحف علينا يومًا بعد يوم. في القريب
لا بدي لله منك لمكان نجفي، تلك الرياح، إلا أننا لا نشك، كما نعرفون، فقد قال الرسول ﷺ:

«قال الله في الحديث كثير: لا تعلموا الدنيا، فأنذا الدنيا...»

لا بد أننى أجبلت فقد توقف العجز عن الكلام، ونظر إلى في انتباه وتركيز، وكما كان قد أدرك لما أنجلت، إنها ابتسامة أقرب لابتسام النساء، وبدت غريبة على وجه النخيل الجاف، ثم كرر بعنيدة كما لو كان يحدث إلى نفسه: «فأنذا الدنيا».

كان في إيماءة سلالة، سلاح، صاحب قوة فخار وتهج وقبول ورضوا بما وهبته له الحياة، ولم أنبأ حتى عند الأكثر حظا من الناس قبولا، بالواقع ورضوا به مثل قبول ذلك العجز.

وإشارته مبهمة غامضة من ذراعه التي رسمت دائرة في الفراق تأخرت على كل شيء في حياته: القدرja، الجدران، الداكنة المتهالكة، الرياح وطينتها الدائمة، زحف الرمال، التبق إلى السعادة، التسليم بما يفقه القدرة عليه ولا يمكن تغييره، القصص المليئة بالتمر، أشجار النخيل خلف أسوار الأشجار الطرافة، النار المقدمة، ضحكة فتاة شابة بالفناء الخفيف للدار: كل تلك الأشياء وحركة يد التي أحاطه بها يراه وما لا يراه كنت

كمن يستمع إلى غناء روحى عميق لا يعرف العجز أمام المصائب والحواص ويفهم

سلام النفس التي أسلمت نفسها

عاد بإ مأدة إلى زمن قديم مضى، إلى يوم خريف بالقدس من عشرة أعوام

مضت، حين حدثتي رجل عجوز آخر عن التسليم لله، طريق وحيد يحقق به المرء صلة

وثيقة بالله، ومن ثم، مع مصيره وقده...

* * *

في خريف عام ١٩٢٢ كنت أعيش مع خالى دوريان في منزله بمدينة القدس

القديمة. كانت الأمطار تهطل كل يوم تقريباً، وكنت أجلس بجوار نافذة تطل على فناء

واسع خلف المنزل يملك رجل عجوز عربي يطلقون عليه الحاج لأنه كان قد حج إلى

مكة، وكان يؤجر حبيباً للركوب وله البضائع، وكان الفتايا والمريحة اللحية به يشبه

نوعاً من الخان أو النزل.
كانت أحمال الخضروات والفواكه تصل كل يوم قبل الفجر محملة على الجمال من القرى المجاورة بالمدينة، ثم تجزأ وتسرل على الحمير إلى محلات البيع المنتشرة في جواري القدس القديمة الضيقة. في ضوء النهار ترى الجمال وهي باركة تسرح في الغناء الخفيف، ولا يكشف الرجال الذين ينبعثون بها عن الصياح، إلا إذا أعطتهم شدة الأمطار على الاحتماء بالزيتونة. كان سئامو الجمال والحمير رجاءً فقراء يرتدون أساملاً بالغة، إلا أنهم كانوا يبدون ويسكنون مساكن النبلاء حين يجلسون معًا على الأرض لتناول وجبة طعام من خي البقح والرقيق مع قطعة جبن أو حبات من الزيتون، لم يعتن إلا الإعجاب بجمالهم وبيساطتهم، وهدوؤهم النفسى العميق. كان الحاج يعرج في سيره ويستعين بعكار - كان يعانى من التهاب المفاصل وركبته منثورتان - وكان مثابة الزعيم بينهم، فقد كانوا يطيعونه بلا نقاش. كان يجمعهم عدة مرات كل يوم للصلاة، وإذا لم تكون الأمطار غزيرة، كانوا يصلون في الساحة المكشوفة. ينتظم الرجال في صف واحد طويل جنبًا إلى جنب ويقفون أمامهم إمامًا عليهم، بدأ في نزول مثل جنود في تكامل وتوحد حركتهم. كلهم يلحنون في اتجاه مكة، ثم يتنصبون، ثم يسجدون، ويلمسون الأرض بجبابهم، كأنهم يستجيبون لأوامر غير مسمومة من قائدهم، الذي كان يقف بين السجدة والسجدة حافي القدمين على سجادة صلاته، مغطى عينين وذراعاه مضعمتان إلى صدره، يحرك شفتيه بلا صوت، ويبدو عليه الاستقرار التام فيما يفعل: كان يصل إلى كل وجدانه.

أصابتي الصحراء حين شاهدت صلاة تتضمن حركات آليّة للبنين، فسألت الحاج ذات يوم - وكان بفهم بعضًا من اللغة الإنجليزية -: "هل تعتقد حقًا أن الله ينظر مثل أن تظهر له إيمانك بتكرار الركوع والسجود؟ إلا لا يكون من الأفضل أن تنظر إلى داخلك وتصلا إلى ربك بقلبك وتأت ساكن! لماذا كل هذه الحركات بالجسد؟".

بمجرد أن انتهيت من تساؤلاتي أحسست باندهام، فقد أكون قد جربت مشاعر الرجل الدينية، إلا أنه لم يبد على الحاج أي أنشىاء أو جرح. ابتسم كاشفقًا عن فم يخلو من الأسنان ورد قائلاً:
«بأي وسيلة أخرى تعتقد أننا يمكن أن نعبد الله؟ لم يخلق لنا الروح والجسد معًا؟ وكونه خلقنا جسدًا وروحًا، ألا يجب علينا أن نصلب بالجسد والروح؟ اسمع، سأخبرك لماذا نصلح نحن المسلمين كما نصلح، تتوجه إلى الكعبة، وهي أول بيت لله في مكة، ونعلم أن وجه كل المسلمين في أي موضع كانوا من الأرض تتوجه إليه أثناء الصلاة، فتشعر أننا جسر واحد نتوجيه إلى مركز واحد بفكركا ووجودنا. نبدأ أولاً بالوقوف منتصبين، ونتلو بعض آيات القرآن، واضعين نصب أعيننا أنها كلام الله، أنزل البشر لهدائهم ونفعهم في الحياة الدنيا. ثم نقول "الله أكبر" مكريرًا أنفسنا أنه لا يوجد من يستحق العبادة غير الله وحده، ثم نركب أمامه لأننا نجلب فوق كل شيء، ونسحب بعظمته وقدرتنا. ثم نسجد على الأرض وجباهنا على أدبيها حتى نشعر أننا لن نزال ولا تراب، وأننا لا شيء أمامه، وأنه خلقنا والحافظ لنا، ثم نرفع وجهنا ونجلس، وندعو أن يغفر لنا، وأن ينزل رحمته وسكونيته علينا، وأن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يهبننا الصحة والرقي، ثم نسجد من جديد على الأرض ونمس الأرض بجباهنا اعتراضاً بعظمته وقدرتنا. ثم نجلس وندعو أن يصلح على النبي محمد - عليه الصلاة والسلام - الذي بُلِّغ رسالة الله إلينا، كما ندعو أن يصلح على الأنبياء الذين سبقوا محمد - عليه الصلاة والسلام - وأن يباركنا وبارك كل من اهتدى بهديه، ثم ندعو أن يرزقنا من خير الدنيا وحسناتها، وأن يهبن حسنات الآخرة، ثم نخدم صلاتنا بأن ننبر رؤوسنا إلى اليمين ثم إلى اليسار، قائلين في اتجاه السلام عليك ورحمة الله. وهكذا نحن كل من اتبعوا الحق، أينما كانوا، مكاً صلى نبيتنا، وهكذا علم من أمنوا كيف يصلون في كل عصر وفي كل آن; فهم يسلمون أرواحهم وآيديهم الله - وذلك ما يعنيه الإسلام - فيكون البشر في علاقة سلام مع الله ومع ما قدره لهم.

لم يستخدم الرجل العجوز الكلمات التي ذكرتها حرفياً، إلا أن ما ذكرته كان معناها، وهي المعانى التي تذكرتها من حديثه. بعد ذلك بسنوات أينقت أن ذلك الشرح البسيط من الحاج قد فتح لي أول باب للإسلام، ولكن في ذلك الوقت، بدأت أشعر بتواضع لم أ,color=red,حلف من قبل كما رأيت - وكن أرى ذلك كثيرًا - رجلاً يقف حافي القدمين على سجادة صلاته، أو على بعض القش، أو على أرض عارية، وذراعه معقودتان على
صدره ورأسه منحن في خشوع، مستغرق بكل حواسه، غائب عما يدور حوله، سواء كان في مسجد أو في ممشى جانبي لشارع مزدحم: رجل في سلام مع ذاته.

* * *

كان المنزل العربي المشيد من الحجر مهبلاً بالفعل كما ذكر لي خالى دوريان في رسالته. كان ينحض على حافة المدينة القديمة بالقرب من باب يافا. ترحب غرفته الواسعة عالية السقف بأنها مترعة بذكريات حياة نبلاء كثيرين مردوا عليها في عصور سابقة، وتجاوزت الجدران بصيد الحاضر الحي الذي يسرى إليها من الحوانيت التجارية المجاورة. مشاهد وأصوات وروائع لم أعايشها أبداً من قبل.

من شرفة السطح كنت أرى مشارف المدينة القديمة وشبكية شوارعها المتعرجة وحواريها المنحوتة في الصخر. على الجانب الآخر وفي ساحتها الواسعة، يظهر الموضع الذي كان به ميكل سليمان: المسجد الأقصى. وهو الأقصى بعد الكعبة ومسجد الرسول بالدينة. ينحض على الحافة الأبعد، وفي منتصف الساحة مسجد قبة الصخرة. من خلفهم كانت منازل المدينة القديمة تتدرج نزولاً حتى وادي قدرون، خلف الوادي تتأثر تلك زرقاء القم. فرحت منحدراتها أشجار الزيتون. باتجاه الشرق كانت هناك بقعة خصبة أخرى، بها بساتين تتحر باتجاه الطريق عميقة الخضرة، تحيط بها أسيجة حجرية، المدينة الجثمانية(6). ومن بين أشجار الزيتون والسرو، كانت ترتفع قباب الكنيسة الروسية المذهبة والنشيدة على شكل البصل الجاف.

مثل مشهد يتارجح بين الحلم والحقيقة، وكرجع الصدى، ويليون شفاف إلا أنه يموج بألاف الألوان التي لا اسم لها، فوق قدرة الكلام على الوصف، بل فوق قدرة العقل على التخيل، كان يبدو من فوق قمة جبل الزيتون وادي الأردان والبحر الميت.

(6) المهمة التي اعتقل فيها المسيح خارج القدس. (الترجمة)
تلأل على تلال ممتلئة التوزيع، واضحة مدركة كالتنفس، ومرق شديد الزرقة يتماوج بينها هو نهر الأردن، ثم استدارة البحر الميت من خلفهم جميعًا. وإلى أبعد من ذلك كان هناك عالم آخر يستقل بذاته وجماله، تلال منطقة موأب الترابية: سهوب ذات جمال أخاذ متعدد الأشكال والأوصاف يبعث في القلب ارتجافًا نشوة.

كان القدوس بالنسبة لي عالمًا جديدًا تمامًا. عبق التاريخ ينفض من كل زاوية وحجر بالمدينة العتيقة. الشوارع التي شهدت نبوات أشبعا، حجارة الشوارع التي سار عليها المسيح، الجدران التي كانت عتيقة أيضًا حين تردد منها صدى صوت حكى فرسان الإمبراطورية الرومانية التي غزت المدينة، الأقواس الحجرية على الطرقات التي تحمل على صدرها نقوشًا ونصوصًا إسلامية من عصر صلاح الدين، سماز زرقاء صافية.

اللون، بل هو مثلى ومن عاش وتربى في طقس وجوء ودأًا، مثل نداء ووعد.

بيوت وشوارع وحارات تتبعث بنبض خاص، والناس تلامهم حيوية خاصة ونبيل حركة وإشارة. كان الناس - العرب بوجه خاص لأنهم من خلقوا لدى الانتباه بأنهم أصحاب المدينة - يرتون ملابس فضفاضة غنية بالألوان تتحرك بالملاس الجوية التوراتية المتسدلة حتى الأرض، يرتدي كل منهم أزياء مميزة له من فلاحيين أو بدو (كان البدو يدفعون إلى المدينة على الدوام للشراء أو البيع).

أمام منزل دوريان، وعلى بعد أربعين ماردة، نهرت حواصق قلعة داود ذات الجدران المنحدرة التي ظهر عليها آثار الزمن، كانت في الماضي تكون جانبيًا من استحکامات المدينة مع أسوارها القديمة. ربما شيدت القلعة على الأسس التي أرساها هيرود الروماني، وعلوها برج مراقبة رفيع يشبه المئذنة (على الرغم من أنها لا علاقة لها بالك داود، فإن اليهود اعتادوا إطلاق اسمه عليها). ويدعون أن قصره الملكي كان بهذا الموضع من جبل الزيتون.

على جانب من المدينة القديمة يوجد برج عريض، تمضي من أسفله بوابة تفضي إلى طريق رئيسي، وقطرة من حجر فوق خندق مائي. كانت القنطرة الحجرية ملتقى البدو الذين يقدون إلى المدينة. ذات يوم رأيت بديوي يقف عليها دون حركة، بدأ في وقفته.

112
المنتصبة ومن خلفه سماء فضية داكنة مثل شخص بث لتوه من ثنيا الأساطير القديمة. كان له وجه ناتئ عظام الوجنتين، تحيطه لحية كثيفة قصيرة داكنة، تحمل ملامحه حما وانسحابا في أمر ما يشغله، كن كان يتوقع شيئا إلا أن ما يتوقعه غير قابل للحق. كان قطانه الواسع ذو الخطاوط البنية والبيضاء باليا، رأيت بهن خيالي أن ملابسه قد بليت بعد أن تعرض لمخاطر كبيرة جعلته دائم الخرار من وضع إلى موضع، ربما كان واحدا من جماعة المقاتلين الذين صحبوا داود في شباب وفسي فراره من غيرة الملك شاهل الحكمة، قد يكون داود مختبئا في هذه اللحظة في أحد كهوف تلك منطقة يهودا، وذلك الرجل الواقف على القنطرة، صديقه الشجاع والمخلص، جاء خليسا مع رفيق آخر إلى المدينة ليستطعوا أخبار ما يدوره شاهل من مكان، وINTERNET إن كانت الأرض بما تسع بعدة داود أم لا، وأنه الآن ينتظر راحة، مليئة بالهواجس: لم تكن الأنباء سارة، لا يمكن لداود أن يعود...

فجأة، تحرك البدو نازلاً عن القنطرة، وتبتختت تخيلات البقطة بابتداعه. تذكرت مجدداً أن ذلك البدو من العرب، بينما كانت الشخصيات التي أتخيلها تورية من العبرانيين. إلا أن دهشتي لم تستمر غير برهة: فقد أدرك على الفور بوضوح يتفجر أحياناً داخلا مثل البرق الواضح، أن داود وعصر داود، مثل إبراهيم وعصره، كانا أقرب إلى جنورة العربية وبالتالي أقرب إلى بنو العرب المعاصرين منهم إلى اليهود المعاصرين الذين يدعون أنهم من سلالتهم. كثيراً ما كنت أجلس على الإفريز الحجري تحت بوابة يافا أراقب الجموع الداخلة إلى المدينة القديمة والخارجة منها.
ف عند البوابة كان البشر يتلحمون، ويدافعون، العرب واليهود، كل الأنساط والأشكال المختلفة لكليهما. كان هناك فلاحين أقوياء الأواند بأغفية رؤوسهم البيضاء والبنية أو عمامات برتقالية. وكان هناك بدو بوجوههم الحادة الواضحة الهزيلة، يرتدين عبائاتهم ويسيرون بثقة غريبة بأنفسهم، وغالباً ما تكون أكفهم على خواصرهم والكوبان مفرودان متباعدان، كما أو كانوا على ثقة أن كل من يقالبهم سيستحق لهم الطريق. نساء الفلاحين لهن زي منبز أسود أو أزرق مزين بزركشة بيضاء على الصدر، يحملن في الأغلب سلالاً على رؤوسهن يمشين مشية لدئة هيئة. من الخلف تبدو من بلغت الستين
كان هناك أيضًا اليهود: يهود فلسطين يرتون عباءة واسعة ويضعون الطرابيش على رؤوسهم، أما وجههم فتماثل بشدة وجهة العرب! أما يهود بولندا وروسيا فقد كان يبدو عليهم أنهم حملوا معهم كثيرًا من ضيق حياتهم الماضية في أوروبا وكانوا يطلبون مساراتهم بيهود المغبر وتونس الفخورين بالبرنس المغبر الأبيض الأمير للبلد التي أتوا منها. وعلى الرغم أنهم كانوا خارج نطاق التجاوز البشري والعبارة التي من حولهم، فإنهم هم من أسرى نسق الحياة والسياسة اليهودية، وكانوا مسؤولين عن الاحتكاكات والصدام والنزاع بينهم وبين العرب.

ما الذي كان يعرفه الأوروبي العادي عن العرب في تلك الأيام؟ علماً: لا شيء! كان اليهودي الأوروبي إلى فلسطين جاء مصحوبًا بمفاهيم غامضة، ولم يكن لديه نية وذكاء ذهني، كان سيطر أنه لم يكن لديه فكرة عن الوجود العربي بها. أداً أيضًا قبل أن أتى إلى فلسطين، لم يعرف أحدًا أنها أرض عربية تخص العرب. كنت أعرف فقط بشكل مهم أن «بعض» العرب يعيشون فيها. إلا أنني تخيلت أنهم بعض قبائل متعلقة في خيام، وأنهم رعاية يسكنون وأواخر صحراوية، وأغلب ما قرأته عن فلسطين في أوعمي السابقة كتب صهاينة - يعرضون قضيتهم فقط. لم أكن أعرف أن مدن فلسطين موطن عربية يعيش فيها العرب - كانت النسبة السكانية عام 1922 تبلغ خمسة من العرب مقابل كل يهودي، ويعني ذلك بكل وضوح أنها بلد عربى.

حين ذكرت هذا الأمر السيد «أوزيشكين»، رئيس جمعية ورواد المجتمع الصهيوني الذي التقت به في ذلك الوقت، كان يبدو لي أن الصهاينة لا يميلون إلى إعطاء أي أهمية إلى حقائق الأغلبية العربية، ومساءستها للظاهرة الصهيونية. ولذا لم يبد على «أوزيشكين» أي رد فعل لما قالته غير إظهار ازدرائه للعرب، وقال: «لا توجد حركة مقاومة عربية حقيقية في فلسطين ضدنا، لا توجد حركة مقاومة ذات جذور بين الناس.»
كل ما تراه وتظنه مقاومة ليس إلا صراعًا وصياغًا من بعض الساخطين الملتئمين، وسينهارون خلال بضعة أشهر أو بضعة أعوام على الأكثر.

كانت رؤيته بعيدة تمامًا عن تصديقي. من البداية كان يملكني اعتقاد أن فكرة إقامة مستعمرات يهودية في فلسطين ليست إلا فكرة مصطنعة، والأسوأ من ذلك، أنها تهدد بتحويل ونقل كل التعقيدات والمشاكل المستعصية على حل في المجتمعات الأوروبية إلى بلد كان سيظل أسعد حالاً أو لم يأتوا إليه. لم يكن اليهود يأتون إلى فلسطين كما يعود الغائب إلى منزله، بل كانوا يحاولون ويسعون أن يجعلوا منازلهم مخدوعين بالنموذج الأوروبي. باختصار، كانوا غرباء يقفون على الأبواب، ولذا لم أجد أي غضب في إصرار العرب على مقاومة فكرة إقامة وطن قومي لليهود في قلب بلادهم.

كان وعد «بلفور» الذي صدر عام 1917 واعداً اليهود «بوطن قومي» في فلسطين مناورًا سياسية في غاية القسوة والوحشية. وتم إصداره لترسيخ السياسة التي اتبعتها كل القوى الاستعمارية، وهي سياسة «فرق تسد». فيما يخص فلسطين كان ذلك هو القرار الأقصى والأكثر إثمًا؛ ففي عام 1916 وعد البريطانيون شريف مكة وهو الشريف حسين بدولة عربية مستقلة من البحر المتوسط إلى الخليج الفارسي مقابل تحالفهم مع ضد العثمانيين الأتراك، ثم حثوا بعدهم بعد ذلك بعام باتفاقيات أخرى أقاموها مع فرنسا تحمل اسم «سايسكس - بيكو» (أطلقت فيها بريطانيا يد فرنسا في سوريا ولبنان) كما تضمنت الاتفاقية استثناء فلسطين من وعدهم للشريف حسين.

ومع أنني كنت يهوديًا، فإنني تبينت موقفًا معاديًا للصهيونية، وأدانت الموقف اللا أخلاقي للفئة العظمى التي تدفع بالمهاجرين اليهود من كل أنحاء الأرض حتى يصبحوا أغلبية ويذرو الأراضي والبلاد من أصحابها الشرعيين الذين يحيون فيها من أزمان سعيدة.

لذلك كنت أميل إلى الوقوف في صف العرب في كل مناسبة تثار فيها المسألة اليهودية العربية. وكان موقفني يصعب فهمه للكثير من اليهود الذين صادفتهم أو
جمعنتي بهما مناسبات مختلفة في تلك الشهور، لم يفهموا ما الذي أرادوا في العرب الذين لا يرون فيهم إلا أساسًا متخلفين هم، ولم ينك زورتهم إلى أيهم توقع من نظرية الأوروبين إلى الأفريقيين في وسط إفريقيا. لم يهتموا بأي قدر بما يشغل فكر العرب ولم يكلف أحد نفسه عناء تعلم اللغة العربية، تقبلوا جميعًا بلا أي قدر من التشكك أن فلسطين حق لهم وأنها إرثهم التوريتي.

مالات أذكى مناقشة خصطرة مع الدكتور حاييم وإيزمان، قائد الحركة الصهيونية بلا منازع؛ فقد أتي في واحدة من زياراته الدورية إلى فلسطين (كانت إقامته الدائمة على ما أظن في لندن)، والتقى به في منزل صديق يهودي. لم يملك إلا الإعجاب بالطاقة الفائقة لذاك الرجل. وهي طاقة ظهرت في حركات بقته بخطوات الواسعة التي كان يقطع بها الغرفة جيئة ونتهاً وقوة عقلية وذهنية يدت في جبهة عريضة ونظرات نفاذة. كان يتحدث عن المصاعب المالية التي توقع تحقيق حل الوطن القومي اليهودي في فلسطين، واستجابة اليهود الضعيفين في الخارج. تمكنى انطباع أنه هو أيضًا، مثل أغلب الصهاينة، يميل إلى إلغاء المسئولية الأخلاقية لكل ما يحدث في فلسطين على "العالم الخارجي". دفعني ذلك إلى استغلال فترة صمت في حديثه إلى مستمعين ينصحون وكان على رؤسهم الطير وسائطه: "ماذا عن العرب؟".

بدا كما لو كنت قد ارتكبت خطأ جسيمًا بتلك الملاحظة الشاذة؛ فقد أدار الدكتور وإيزمان وجهه ببطيء إلى، ووضع القدح الذي كان يحمله بيده، وكبر سؤال: "ماذا عن العرب؟" وأكمل: "حسبًا، كيف تتوقع بابا حال أن تكون فلسطين وطن القومى وتلك المقاومة العنيفة من العرب تواجهن؟ وما ذلك يشكلن أغلبية؟".

هذ الزعيم الصهيوني كتبه كإجابة لتساؤله ثم أردف بفجأة:

"نتوقع ألا يكونوا أغلبية بعد بضعة أعوام".

ربدت قائلًا: "ربما، أنت تسعى في هذا الأمر على مدى أعوام طويلة ولن أكن تعلم حقائق الموقف أفضل مني، ولكن بعيدًا عن المشاكل السياسية التي قد تضمنها..."
المعرضة العربية أو لا تضعها في طريق تحقيق أهدافكم - لم يؤرق الجانب الأخلاقي
من المشكلة في أي وقت؟ ألا تظن أنه من الخطأ من جانبكم طرد شعب عاش طول
عمره في هذا البلد؟
أجاب "وايزمان" رافعًا حاجبته في تحفز: "ولكنها أرضنا، نحن لا نفعل أكثر من
استرداد ما سُلِبَ منا بطرق الخطا.
ردت: "ولكنت كنت بعيدًا عن فلسطين على مدى أولى عام تقريبًا، قبلا كنت سيد
هذا البلد، ليس كله بالطبع، لمدة تقل عن خمسين عام، ألا تعتقد أن العرب بإمكانهم
بالمنطق ذات الطالة بإسبانيا - فهم على الأقل حكموا إسبانيا لمدة سبععمائات عام
وخرجو منها من خمسين عام فقط؟
تحويل الدكتور "وايزمان" إلى حالة من نفاد الصبر الواضح، قال: "كلام فارغ،
العرب غزوا إسبانيا فقط، لم تكن أبدا أرضهم، والصحيح والصواب في نهاية المطاف
أن يطردهم الإسبان منها.
ردت على حجته قائلً: "عفوًا، يبدو الأمر وكأن هناك تجاوزًا في الرؤية التاريخية.
فرغم أي شيء جاء العرباء اليوم أيضًا كجزء من فلسطين. قبلهم بعصور طويلة كانت قبائل
سامية وغير سامية تسكن فلسطين - العثمانيون والألمونيون والفلسطينيين، والموابيين،
والحثيين. واستمرت تلك القبائل في المعيشة في فلسطين حتى بعد غزوة العرباء
لها، وكذلك في عصر ملكي يهود وإسرائيل، واستمروا في العيش هنا بعد أن طرد
الرومانية أسلافنا اليهود من أرض فلسطين. وهم مازالوا يحيون على الأرض ذاتها
حتى اليوم. حتى إن العرب المسلمين الذين غزوا فلسطين وسوريا في القرن السابع
الميلادي كانوا أيضًا أقليات مقارنة بسكان البلاد: كان السكان الذين يشكلون الأغلبية
هم من نقل عليهم اليوم عرب فلسطين وعرب سوريا أي سكان البلاد الذين تعبروا.
بعضهم تحوت إلى الإسلام عبر القرون الماضية، وظل آخرون على ديانتهم المسيحية
وتزداد من أسلموا مع إخوانهم في الدين أهل الجزيرة العربية، ولكن هل تنكر أن
الكثرة الرئيسة للشعب الذي يعيش على أرض فلسطين، ويتحدث العربية، سواء مسلم أو

117
مسيحي، هم الا得住د المباشر ونسل السكان الأصليين الذين كانوا على هذه الأرض من آلاف السنين؟ وكانوا أيضًا يعيشون هنا قبل وصول العبرانيين بقرون طويلة؟

ابتسم الدكتور وأيزمان في أبد رداً على حماسي وأدار الحوار في اتجاه آخر وموضوع أخرى.

لم أشعر بساعدة تاحة ما تمتخضت عن تلك الواجهة. لم أتوقع أن تكون الخطة الصهيونية بهذا التهافت وافتقاد المنطق والحجّة: أملت أن يبعث دفاعي عن القضية العربية بعض التشكيك لدى قادة الخطة الصهيونية. عدم يقين قد يدفعهم إلى مراجعة أفكارهم ودعاوهم، ربما أدى عدم اليقين إلى استعداد أكبر لقبول وجود حق أخلاقي وراء الممارسة العربية.. إلا أن أي من ذلك لم يحدث. بل على العكس، وجدت أن أقابل بحاجات بارد من النظارات المتسائلة: نظارات استكار لتهورى وجرأتي على التشكيك فيما لا يقبل الشك، وهو حق اليهود في أرض أسلافهم...

تعجبت، كيف يمكن لأناس تميزوا بيذاعاً مبادئ مثل اليهود أن يفكروا في الصراع بوجهة نظر أحادية فقط؟ لم يرد إلى أنهم أن مشكلة اليهود في فلسطين من الممكن أن تحل على الندى البعيد بتتفاهم وتعاؤم ودوي مع العرب؟ هل هم فاقدو البصر بدرجة مبئس منها لا يمكن أن تؤدي إلى سياستهم في المستقبل من ألم؟ معاناة، وماراة، وكراهية ستكون وتولد في نفس العرب ضد جزيرة يهودية صغيرة... حتى لو نجحوا مرحلياً - وسط بحرى عربي معاد؟

وتужبت أيضًا، كيف أمة، عانت مثل تلك المعاناة العسيرة ووقععت عليها مزام
عديدة في مسيرة هجراتها الطويلة المؤسفة، ثم توقع الظلم الذي عانت منه، برؤية أحادية الجانب، على أمة أخرى، ببرينة من الآلام والفظائع والويلات التي تعرض لها اليهود في أرجاء العالم. مثل تلك الظاهرة، كما أعرف، لم تكن الأولى في التاريخ، إلا أنها لبعت حزني الشديد لأنها تقع هذه المرة على مرآة متي.

* * *

118
لم يؤذى المشهد السياسي في فلسطين إلى مجرد تعاطفي مع العرب، ولكن أدى أيضًا إلى إيقاف اهتمام الصحفي: أصبحت مراسلاً خاصًاً لصحفية فرانكفورتر
زيتونج، الألمانية، وكانت واحدة من أهم الصحف الأوروبية. حدد ذلك أيضًا بالمصادفة.
فذا مساء، كنت أعيد ترتيب المجلات والجرائد المتراكمة في حقي بي، ووجدت البقالة
الصحيفية التي كنت أحملها في برلين كمثال لوكالة أثناء يونانيد تليجراف. حين همست
بتميزها، أمسك خالي دوريا بيد وتساءل مازحاً: لا ترجوها! لا تزعموا هذه البقالة
إلى الجنوب السامي البريطاني، ستلتقي بعد عدة أيام دعوة للغداء في دار العشيرة.
ألا تعلم أن الصحفيين كائنات مغروبة فيها في هذا البلد؟

وعلى الرغم من أنني مرتقت البقالة التي لم أشعر بجدواها، فإن مزحة دوريا
أثارت في ذهني استجابة من نوع آخر. لم أكن بالطبع مهتمًا بالحصول على دعوة غداء
في دار العشيرة. ولكن، لماذا لا استغلم فرصة وجودي في فلسطين في الوقت الذي لا
تنافيه فرصة السفر إلى الشرق الأوسط إلا لقلة قليلة من صحفيي وسط أوروبا؟ لماذا
لا استعيد عمل بالصحافة؟ لا مع يونانيد تليجراف، بل مع إحدى الصحف اليومية
الكبرى؟ فجأة، وكما اعتدت أن أنجز قرارات كبرى، قررت في تلك اللحظة أن أقترب
الصحافة الحقيقية.

على الرغم من عملني لمدة عام ليونانيد تليجراف، لم يكن لدى أي اتصال مباشر بأن
صحيفة مهمة، وحيث إنني لم أنشر أي شيء باسمي قبل ذلك، لم يكن اسمي معروفًا
لأي صحيفة يومية، إلا أن ذلك لم يفت في عضدي. كتبنا مقالًا عن انطباعاتي كما
رأيتها على أرض الواقع في فلسطين وأرسلت نسخًا من ذلك المقال إلى ما يقل عن
عشر صحف ألمانية مصوحية بعرض مني أن أكتب سلسلة من المقالات عن الشرق
الأدنى وما يدور فيه.

كان ذلك في الشهر الأخير من عام 1927 - وهو وقت الأزمة الاقتصادية الألمانية
الكبرى. كانت الصحافة الألمانية تعاني بشدة من أجل الصعود في مواجهة الأزمة
اقتصادية، ولم يكن هناك إلا عدد قليل من الصحف التي تقدر على دفع راتب مراسل
بالخارج بالعملة الصعبة، ولذا لم يهتمني أن تواكب على رعب عشر من الصحف التي

119
أرسلت إليها نسخًا من المقال بالرفض والاعتدار الرقيق. واحدة فقط من العشر صحف قبلت عرضي، وكان من الواضح أنهم قد أعجبهم ما كتبته، وعينوني كمراسل خاص جائل في الشرق الأدنى، واحتوى الملف الذي أرسلوه على عقد لأوقعه وأعيد إرساله إليهم. كانت تلك الصحيفة الوحيدة التي قبلت عرضي هي "فرانكفورتر نيوزنجري".

أصابني الذهول ليس فقط لنجاحي في خلق علاقة صحافية وأي صحيفة! ولكن من أول مرة حققت صفة يحصدنها عليها كثير من الصحفيين الكبار.

كان بالعقد بالطبع عبقة صغيرة، فيسبorning الأزمة الاقتصادية الألمانية ومعدل التضخم العالي، لم يكن بإمكان الصحيفة أن تدفع لي راتب بالعملة الصعبة وكان الراتب الذي عرضه بالعقد مع اعتداد رقيق بمالرك الألمانية، وكتبت أن كنا هم يعرفون أن ذلك الراتب بمالرك الألمانية لا يكفي لشراء طوابع البريد التي سأضعها على الملفات لأرسل فيها مقالاتي. ولكن أن يكون مراسلاً خاصًا "لفرانكفورتر نيوزنجري" كان تيمنًا يفوق بمراحل العمر المالي المؤقت من عدم قدرتهم على الدفع بأي عبقة أجنبيه. بدأت بكتابة مقالات عن فلسطين، أملًا أن يتيح لي بعض الحظ أن أسافر إلى جميع أرجاء الشرق الأدنى.

* * *

أتسبب إلى الآن أصدقاء كثيرون بفلسطين، من اليهود والعرب. وفي الحقيقة، نظر إلى الصهيونية نظرات دهشة واستياع بسبب تعاطفي مع العرب الذي كان واضحًا في مراسليتي التي أبعث بها إلى صحيفة "فرانكفورتر نيوزنجري". كانوا في حيرة من أمرهم. إن كان بعض العرب قد "اشتروني" (كان الصهيونية يؤمنون بأن شعب فلسطين اعتاد على شرح مواقفه بالمال) أم أنني من نوى الأفكار الشاذة الذين يهون الإثارة.

ولكن، لم يكن كل اليهود الذين كانوا بفلسطين في ذلك الوقت من الصهيونية. كان بعضهم قد قدم إلى فلسطين من دون دافع سياسي، ولكن يشعف ديني للأرض المقدسة وما تشتهيه في أنفسهم الأحداث التوراتية من حين لحين لرؤيتها.
انتهى صديقي الهولندي «جاكوب دي هان» إلى تلك الفئة الأخيرة، كان قصيرًا، بديلاً، ذا لحية شقراء في بدايات الأربعينيات من عمره، وكان قد درس القانون في واحدة من كبرى جامعات هولندا وكان في ذلك الوقت مراسلاً خاصًا لجريدة "هانداستاند" التي تصدر من "أمستردام" ولصحيفة "ديلي إكسميريس" اللندنية. كان ذا إيمان ديني قوي - مثله مثل يهود أوروبا "الأرثوذوكس" - إلا أنه لم يقبل المخطط الصهيوني، كان يؤمن بأن عودة شعب إلى أرض الميعاد لابد أن تنتظر حتى تتحقق عودة المسيح كما ورد في التوراة.

قال في أكثر من مناسبة: "نحن اليهود طردنا من الأرض المقدسة وتشتتتنا في جميع أرجاء العالم لأننا رضينا في أداء اللمحة التي كلفنا الرب بها. لقد اختارنا لنبشر بكلمته، ولكن في ذروة عدلنا الأفوف اعتقدنا أنه اختارنا «كشعب مختار» من أجل خاطرنا نحن - وهكذا خانا ما اختارنا لأنفسنا. لم يتبق لنا إلا أن نتقى ونظهر بلوننا. وحين نصببح مستحقين تلك الأمانة من جديد، وأن تكون حملة رسالتهم، فإنه سيرسل مسيحي ليقود عبده إلى الأرض الموعودة..."

سألته: "ولكن ألا تشكل الفكرة السياحية هذه أساسًا للحركة الصهيونية أيضًا؟ أنت تعلم أنك لا توافق عليها، ولكن أليست رغبة طبيعية لكل شعب أن يكون له وطن قومي خاص به؟".

نظر الدكتور دي هان إلى بسخرية: "هل تعتقد أن التاريخ ليس إلا سلسلة من الحوادث؟ أنا لا أعتقد بذلك. لم يجعلنا الرب نفقد الأرض بلا غاية محددة ولم يشتبثنا بلا هدف، إلا أن الصهاينة لا يرون أن يقبلوا ذلك ويتعذرنا به صراحة بينهم وبين أنفسهم. إنهم يعانونهم أيضًا من ذلك العمي الروحي الذي تسبب في انهيارنا. ولم تعلمهم الألف عام من الشتات أي شيء، وبدلاً من السعي لفهم الأسباب الدقيقة لتعاستنا، فإنهم يسعون الآن لتمييزها، بيناء "وطن قومي" على أساس مستمدة من القوى الغربية السياسية: وفي عملية بناء وطن قومي، ينتكون جريمة أكبر بحرمان شعب آخر من وطنه."
كانت آراء "چاکوب دی هان" السياسية سببًا في أن يكون مكرهًا بشدة من قبل الصهاينة (وبالفعل، بعد مغادرتي لفلسطين بفترة وجيزة، أصيرت بصدمة حين علمت أنه اغتيل بإطلاق الرصاص عليه من قبل إرهابيين صهاينة). حين تعرفنا، كانت علاقاته الاجتماعية محدودة بعد قليل من اليهود الذين يؤمنون بوجهة نظر مماثلة لوجهة نظره، وبعض الأردنيين، والعرب. وفيما يخص العرب فقد بدا لهم أن أرايه وزنها وتأثيرها، ومن جانبهم كانوا يقدرونه وكانوا يدعونه كثيرًا إلى بيوتهم، وفي الحقيقة، كانوا في تلك الفترة غير متحاملين على اليهود. لما هم الآن لم يحدث ذلك إلا بعد إعلان وعد بلفور، فبعد قرون من الجيرة الطيبة وحسن العناصر والوعي بالأصل المشترك بدأ العرب بعد وعد بلفور ينظرون إلى اليهود. كأعداء سياسيين، ولكن حتى في التغيرات السياسية التي واجبته بداية العشرينات من القرن العشرين، كان العرب يفرقوون بين الصهاينة واليهود الذين كانوا على علاقة طيبة بهم مثل الدكتور "دي هان".

* * *

تلك الشهر المثير الأشرى التي عشتها في بلد عربي حركت قطاعًا طويلًا من الانطباعات والانعكاسات: بعضها كان آمالًا ذات طبيعة شخصية لم أدر كنهها ولم أتمكن من التعبير عنها كنت تتطلب منى إبرازها بوضوح إلى مجال عقلي الوعي.

لقد واجهت مسألة مغزى الحياة وجبًا لوجه وكأن ذلك جديدًا تمامًا على حياتي. الأنفاس البشرية الدافئة تتدفق من مجري دم أولئك الناس إلى أفكارهم وإيماناتهم، بلا تمزقات روحية مؤلمة من عدم الاعتدال والخوف والطمع والإحباط الذي جعل من الحياة الأوروبية حياة قبيحة وسينيمة لا تعد لأي شيء.

أما مع العرب فقد وجدت لديهم ما كنت أبحث عنه بعقل الباطن دون أن أحسه. بشكل واضح، وجدت لديهم سهولة معنوية وفكرية في التعامل مع كل مشاكل الوجود، إحساس سام مشترك، إذا جاز أن نطلق عليه ذلك. بمرور الوقت أحسست بضرورة
فهم روح تلك الشعوب المسلمة: لا يمكن ذلك بسبي أن ديناتهم جذبت اهتمامي. في ذلك الوقت لم أكن أعرف إلا القليل عن الإسلام. ولكن لأنني وجدت لديهم تأجيجًا عضويًا بين الفكر والحواس الذي فقدها نحن الأوروبيين. اعتقدت أنه من خلال فهم أقرب وأفضل لحياتهم يمكن أن أكتشف الحلقة المفقودة التي تسبب معاناة الغربيين. وهي تأكل التكامل الداخلي للشخصية الأوروبية. جذور تلك المعاناة. قد أكتشف كنه ذلك الشيء الذي جعلنا نحن أهل الغرب نتأثر من الحرية الحقة بشروطها الموضوعية التي يتمتع بها العرب. حتى في عصور انهيارهم الاجتماعي والسياسي، والتي يفترض أنها كانت تميزنا في عصور أسبق. أو كيف يتسنى لنا أن ننتج تلك الفنون العظمى في الماضي، الكلدرائيات القوطية، في القرنين الوسطي والتغيرو الروحي والمعنوي الذي صاحب عصر النهضة. روعة "رامبرانت" في لوحاته، وروائع "بافاً، وهمو وجالل". الفخر التياه في فنون مزارعينا. هدير "بيتهوفن" وشقيقه وسعيه نحو الجوائز الغامضة ونجمه الموسيقية. إذا أدركتها يمكنها. وقتها أن تصبح في سعادة: "أنا وقريبي شيء واحد.

لأننا لم تعد ندرك طبيعتهم الحقيقة، ولا أن نستخدم قوانا الروحية على الوجه الصحيح. لن يهض بيننا "بيتهوفن" أخر ولا "رامبرانت" آخر. بدلاً من ذلك، لم نجد إلا ما نراه الآن من أن هناك معاشي يأشب نحو "أشكال جديدة من التعبير" في الفن، الاجتماع، والسياسة، وذلك الصراع بين الشعارات المتعارضة والمبادئ الشبكية وكل منتجنا الآلهة ونافذًا السحاب التي لا يمكن أن تكون ذات جدوى في استعادة تكامل نفوسنا المحطمة... إلا أنه يتبقى تساؤل—هل ضاعت العظمة الروحية للماضي الأوروبي إلى الأبد؟

ألا يمكن استعادتها، أو بعض منها باكتشاف كنه الخطأ الذي ألم بنا؟ ما كنت أشعر في البداية أنه لا يبدو أكثر من تعاطف مع الأهداف السياسية وشكل الحياة العربية والأمان المعنوي الذي أحسه بنيهم. تحول بطريقة لا أدركتها إلى ما يشبه المسألة الذاتية. زاد وعى برغبتي الطافية لعرفة كنه ذلك الشيء الذي يكم في أسس الأمن
المعنى وال seinsى يجعل حياة العرب تختلف كلية عن حياة الأوروبيين: ارتبعت تلك الرغبة بشكل عام ض بمشاكل الشخصي الدقيقة.

بدأت أبحاث عن مداخل تتيح لها فهم أفضل للشخصية العربية، والأفكار التي شكلتهم وصياغتهم وجعلتهم يختلفون روحيًا عن الأوروبيين. بدأت أمراً كثيرًا بتركيز في تاريخهم وثقافتهم ودينهم... وفي غمرة اهتمام أحسست بأنني قد توصلت إلى اكتشاف ما يحرك قلوبهم ويشكل فكرهم ويحدد لهم اتجاههم، أحسست أيضًا بضرورة اكتشاف القوى الخفية التي تحركني أنا ذاتيًا، وأشكال دوافعي، وشغف فكري، وتعدني أن تهدني إلى سبيل....
الفصل الرابع

أصوات

مضينا راكبين، وزيد يغني. أصبحت الأغاني أبيتا، وعلى مسافات
أبعد، وتراغب أيضا. تنحسر الرمال من مكان إلى آخر كأشعة
عن مساحات من الحمص وصخور البازلت الحادة، وأمامنا،
بعيداً إلى الجنوب تبدو كتلة هائلة فوق مستوى الأفق: كانت
مرتفعات جبال شمالي كلمات أغاني زيد تنفذ غير واضحة بين
ثانياً نعاس، لم يلبق ذهنها الكلمات بوضوح، بل وكأنها تحتوي
على مغزى أعمق من معانيها السطحية المباشرة، واحدة من
أغاني مسافر الصحراء على ظهر الأسد، أغاني تنفع الإبل إلى
المحافظة على خطاه وتنفعها إلى السير السريع. أغاني يغنيها
رجال اعتادوا على رحابة الصحراء واتساعها بلا حدود.

دائماً تبدو أغاني الصحراء ذات نغمة واحدة ومستوى صوت رتيب، طويل الإبقاع
قوى وأجش يتأتى من أعلى الحلق، ويتلاشي بنعومة في هواء الصحراء الجاف، تبدو
الأغاني كأنها تنفس الصحراء صاعد من صوت البشر. مضينا راكبين، وزيد يغني،
كما كان والده يغني، وكما غنى كل رجال قبيلتهم، والقبائل الأخرى التي سيقبلا
ألف الآلهة: مرت آلاف الأعوام حتى تشكلت تلك الأغاني ذات المعاني المكتفية

125
أحادية النغم. وبعكس الموسيقى الغربية متعددة الأصوات والتي تعبّر في الغالب عن مشاعر فردية، تبدو تلك الأغاني العربية كأنها رمز صوتي لمخلوق معنوي للايين البشر وتنتقل عواطفهم المكثفة. ولدت الأغاني من أزمات قديمة في بيئة الصحراوء على إيقاع الرياح والعواصف وهجرات القبائل وأحاسيس الآفاق الواسعة والمسافات الكبيرة ومن تأمل الحاضر الأبدي، ومثل كل ما هو مهم في حياة البشر ويشير على جوهره، ظل تلك الأغاني لذا تغير على مدى أجيال من الصعب أن تجد مثل تلك الأغاني في الغرب، بسبب التعددية لا في الأصوات ولا في الموسيقى نفسها، بل في مشاعر البشر ورغباتهم: برودة الطقس، وغزارة الرياح، وتتابع الفصول توجد تعددية شكلية لمظاهر الحياة تتباين في دلالاتها ومعانيها ولذلك يشعر الرجل الغربي برغبات كثيرة ودافع قوي لفعل أشياء من أجل فعلها. يتبخر أن عليه أن يبتعد وبيني ويتغلب حتى يرى ذاته متحركة مرة بعد أخرى في تعقيدات الحياة المتغيرة. وينعكس ذلك على موسيقاه أيضًا وغنائه الغربي الصاخب والصوت الآتي من الصدى، يوجه ببطيئة «فافستية» تدفع بالرجل الغربي إلى أحلام كثيرة، ورغبات متعددة: الزمن ليس إلا عنوانًا، يتطلعون إليه بتشكيك وريبة، ولا يحمل الحاضر لهم أبدًا أي معنى من معاني الخلد والأبدية والدمومة...

أما عرب الصحراوء فلا يوجد في صحاريهم وبواديهم الواسعة المتقدة ما يغري بالحلم: الصحراء قاسية واضحة كالنهاية لا تعرض لون المشاعر. الظاهر والباطن، الذاتي والعام، لا تتناقض بينهما عندنا بقدر ما هي أوجه متباينة لحاضر لا يتجنى: لا تهيمن على حياة مخكوف دفينة، وحين يقوم بفعل فإنه يقوم به لضرورة خارجية لرغبة داخلية ولا احتياجًا لتأمين ذاته. نتيجة لذلك لم يتقدم في الإنجاز المادي بنفس سرعة الرجل الغربي - إلا أنه احتفظ بروحه سليمة.
تساءلت في داخلى بفضول، إلى أي مدى يستطيع زيد وقمه أن يحافظوا على سلامته أرواحهم في مواجهة الخطر المتسلل إليهم والذي يكاد أن يطبق عليهم في قسوة وشراسة؟

إذنا نحيا في عصر لا يمكن فيه للشرق أن يظل على سلبيته في مواجهة تقدم الغرب، آلاف القوى: سياسية، واجتماعية، واقتصادية. تحاول اقتحام أبواب العالم الإسلامي.

هل سيضخغ الغرب القرن العشرين، وإن خضع، أن يفقد تقاليده وجوهره الروحي؟

[2]

خلال الأعوام التي قضيتها بالشرق الأوسط، كمجرد متعاطف من 1922 إلى 1926، ثم كمسلم من بعد ذلك له أهداف مشتركة مع العالم الإسلامي، شهدت حصار الغرب للحياة الثقافية الإسلامية والاستقلال السياسي للعرب والمسلمين. وإذا حاولت الشعوب الإسلامية دفع تلك الهيمنة، يتهم الرأي العام الأوروبي تلك المقاومة، بطريقة البراءة الجريئة، بأنها «كرهية الأجانب».

اعتادت أوروبا لأزمان طويلة أن تتعامل مع كل ما يقع في الشرق الأوسط برؤية مصالحها فقط فيما أسمتها «مجالات المصالح» الغربية.

وبينما أبدي الرأي العام الغربي خارج بريطانيا تعاطفاً تجاه الكفاح الأيرلندى للاستقلال عن بريطانيا. كما تعاطف الرأي العام الغربي (خارج ألمانيا وروسيا) مع أحلام بولندا في الاستقلال، إلا أن ذلك التعاطف الغربي لم يمتد ليشمل تطلعات المجتمعات الإسلامية. ووجهة الغرب دائمًا تنحصر في التمزق السياسي العربي والتفاوت الاقتصادي للشرق الأوسط. وكل ذلك دفع في شؤون الدول الإسلامية يوصف بنفاق بأنه دفاع عن المصالح «المشروعة» للغرب بل والأغرب أنه يتم تبريره بأنه لتذرع تقدم ورقى شعوب تلك البلدان.
كان دارسو الشرق الأوسط على استعداد دائم لبلع ذلك الطعم من الادعاءات، متجاهلين أن كل تدخل مباشر أو غير مباشر من خارج البلاد لا يؤدي إلا إلى تعويق تطور ونمو أي مجتمع إسلامي بعكس ما يُدعون لا يرى الدروسان إلا خطوط السكك الحديدية التي مدتها القوى الاستعمارية، ولكنهم لا يرون ما دمره المستعمر من الصناعات الوطنية، ويحصون أعدادًا من «كيلاً - واط» خطوط الكهرباء، ولا يرون ما يمرون من اعتزاز قومي وروح قومية. إنها الشعوب الغربية نفسها التي لم تقبل أيًا دخول بعثة الإمبراطورية النمساوية لمنطقة البلقان، ويقبروا بتسامح شديد دخول بريطانيا إلى مصر، ودخلت روسيا إلى وسط آسيا، ودخلت فرنسا دول المغرب العربي، ودخلت إيطاليا إلى ليبيا.

لم تمر أبداً في أذهانهم فكرة أن أكثر العلل والآفات الاجتماعية والاقتصادية التي يعاني منها الشرق الأوسط ليست إلا نتيجة مباشرة ›المصالح› الغربية، وهذا، يهدف التدخل الغربي بشكل أو بآخر إلى توسيع وزيادة قوة الاضطرابات الداخلية لتصبح سيطرة الشعوب المعني على مقدراتها.

* * *

تحققت من ذلك لأول مرة وأنا في فلسطين عام 1922، وتأكدت من السياسة المراوية ذات الوجهين التي تتبعها الإدارة البريطانية فيما يخص الصراع العربي – الصهيوني، واتضح لي بكلام أبعاده في بدايات عام 1922، بعد أن قضيت عدة أشهر متجولًا في أنحاء فلسطين، كما ذهبنا إلى مصر التي كانت في حالة غليان مستمر ضد ›الوصاية› البريطانية عليها. كانت القنابل تلقى على مناطق يرتادها الجنود البريطانيون، وترد عليهم قوات الاحتلال بإجراءات في غاية القسوة والتعسف، من إعلان للأحكام العرفية العسكرية، إلى الاعتقالات السياسية، ونفي قادة المقاومة، واغلاق الصحف ومصادرةها إلا أن كل تلك الإجراءات القاسية لم تمنع من عزيمة الشعب المصري وتعلقه إلى الحرية ونضاله من أجل تحقيقها. كان يسري في كل الأمة المصرية
ما يمكن وصفه بموجة من التشنج العاطفي. لم يكن تشكيج يأس، بل تشكيج عزيمة وتصميم من اكتشاف جذور قوة الكامنة.

كان الباحثون فقط وهم أصحاب الإقطاعات الزراعية الكبيرة متحالفين مع الحكم البريطاني، أما الأغلبية الساحقة من الشعب - بما فيهم الفلاحون الفقراء - الذي كان الفدان الواحد من الأرض الزراعية بعد أن تم يتلك أسرة بكاملها، فقد دعموا جميعًا الحركة السانحة للاستقلال.

في صباح أحد الأيام تصاعد نداء بعثة الصحاف الجائلين في الشوارع: «القبض على قادة الوفد بأمر الحاكم العسكري». في اليوم التالي كان قادة عدد قد حاول من ثم اعتقالهم، كانت الفجوة تمثل مرة بعد أخرى: نالت شوق المصريين إلى الحرية كما تنامت كراهية المحتل، ولم يكن لدى أوروبا إلا كلمة واحدة وإزار كل ما يجري: «كراهية العرب للأجانب».

كان مجيئى إلى مصر في ذلك الوقت لتوسيع مجال تغطيتي الصحفية كمراسل لجريدة «فرانسفورتر زيتونج». ولم تسمح أحوال خالي «دوريان» المالية بتمويل تلك الجولة، إلا أنه قدم لي مبلغًا ماليًا صغيرًا يكفي لدفع ثمن السفر من القدس إلى القاهرة بالقطار وما يعينى على المعيشة لمدة أسبوعين بالقاهرة.

وجدت مسكنًا بسيطًا في القاهرة في حارة ضيقة يحيا بها الفنانون البسطاء، وبعض أصحاب المحلات الصغيرة من اليونانيين. كانت صاحبة المنزل سيدة كتيبة طويلة، ثقيلة الوجهة، داكنة البشرة، وكانت تتجرب النبيذ اليوناني القوي من الصباح حتى المساء، وتتناول عليها حالات مزاجية متبادلة. كانت ذات مزاج عاطفي سريع التقلب وعنيف، ويبدو أنها لم تحقق ذاتها أبدًا من أي جانب من جوانب حياتها، إلا أنها رغم كل ذلك كانت ودودًا جاهي، وكنت آشيا بشاعر طيبة في حضورها.

بعد أسبوع أو نحو ذلك، أشئتك الأموال القليلة التي كانت معى على النقاد. لم أرغب أن أعود ببطء السرعة إلى فلسطين لأمكث في منزل خالي من جديد، فبدأت أبحث عن وسيلة لكسب العيش.
كان صديقي الذي تعرفت عليه بالقدس، الدكتور "دي هان" قد زودني برسالة توصية إلى رجل أعمال هولندي بالقاهرة، توجهت إليه وطلبت نصحه بشأن إيجاد فرصة عمل. كان رجل أعمال هولندي يتسم بشخصية طيبة واهتمامات ثقافية تتجاوز مجال عمله. علم من رسالة التوصية التي كتبها إليه "جاكيوب دي هان" أنني مرسلا لصحيفة "فرانكفورتر نيزتنج"، وحين أطلعته بناء على طله على بعض مقالاته الأخيرة، رفع حاجبيه في ذهنة:

- "قل لي، كم يبلغ عمرك؟
- "الثانية والعشرون".
- "قل لي أيضًا، من فضلك: من أعقاتك على كتابة هذه المقالات، هل عاوزك دي هان؟"

ضحكت وأجبته: "كلا بالطبع، كتبتها بنفسني، دائماً أقوم بعملي بنفسني، ولكن لماذا تفك في ذلك؟".

هز رأسه وكأنه فاجأه تساؤلي: "لأنها مدهشة... كيف وصلت إلى هذا النتاج حتى تكتب مثل هذه المادة الصحفية؟ وكيف تمكنت أن تعبير في نصف جملة عن معان تبدو ملغزة في ظاهرها؟".

رافقته المديح الذي تضمنه رأيه ورفع ذلك من معنوياتي وإحساسي ذاتي. في سياق حوارنا تبينت أن الرجل ليس لديه عمل لي، إلا أنه يعتقد أن بإمكانه أن يجد عملًا لي في شركة مصرية تعامل معها.

كان المكتب الذي أرشدني إليه يقع في أحد أحياء القاهرة القديمة، ولا يعرف كثيرًا عن مسكنه: كان يقع في ممر بين مبنيين، كان أحدهما من المباني العريقة القديمة التي تحولت إلى مكاتب شركات وشقق رخيصة للإيجار. كان مدير العمل، وهو مصري أكبر مني عمرًا، أصيل الراس، وكان في حاجة إلى موظف بعض الوقت يتولى مسئولية مساراته باللغة الفرنسية: أقنعته أنني أستطيع أن أقوم بذلك مع أنه لا خبرة لي إطلاقًا بالأعمال التجارية. توصلنا إلى اتفاق بسرعة وسهولة، وهو أن أعمل ثلاث ساعات يوميًا.
مقابل أجر بسيط، إلا أنه كان يكفي لدفع إيجار المسكن والعيش بالكاد على الخبز والليم والزيتون.

كان في الأضواء الحمراء في القاهرة يقع في المنطقة الحصرية بين مسكتي ومكان عملة الجديد، حيث يكمله بحوار ضيف مثير تجغده كبار وصغار الداعم.

بعد الظهر، في طريقها إلى العمل، تجد تلك الحوارة خالية بسواءها صمت وسكون عبر النوافذ الأربعة تتمطى في تواك وكس، ومن نافذة أخرى فتيات المنزل ترتشفن فناجين القهوة بصحة رجال ملثمين على وجههم علامات الجدية ويتخذون في عبوس عن أشياء تبدو بعيدة عن إثارة البدن واللحيم المحرم.

حين يحل الهدوء، وفي طريق عودتها من العمل إلى مسكتي، يستفيق الحي بأجمعه وتتبد فيه الحياة، يصبح بموضوعي العد العبري تسحبه الطبول والدفوع وضحكات النساء. حين تسير تحت أعمدة الإثارة والقناني الملابسة، تجد فجأة نزاعًا ناعمة تتف في رقة حول رحب كبير، نزاعًا بيضاء أو داكنة أو قمحية اللون، إلا أنها جميعًا على اختلاف ألوانها توسوس بصوت الآسات والسلاسل الذهبية والفضية، ورتات خلاخيل القدمين الفضية، وتتفوح منها رائحة المسك ورائحة البشرة الدافئة.

لابد أن تكون قوى العزيمة والإرادة حتى تظل بمنأى عن أسر تلك الأضواء الدافئة وتتغير من نواة متكررة، "باحبى" و"سعادتك". لابد أن تتشب طرفي، بين أطراف بضة لامعة تتغري بالنظر وتدبر الرأس بما تتضمنه من إيحاءات. كل رأيع مصر تراهم في تلك الأماكن، من مغاربة إلى جزائريين وسودانيين ونوبيين، وأبناء الجزيرة العربية وأزمينيا وسوريا وإيران... رجال في ثياب حريرية طويلة يجلسون على أرائك بجوار حوائط النازل، يشعرون بالبهجة، يضحكون ويدععون فتيات الليل أو يدخون الأكاجيل صامتين متمارين. ليسوا جميعًا من "زياتن" المتعة: جاء كثير منهم لقضاء بعض الوقت في مكان غريب سمعوا عنه، مبهج ومثير في جو غير تقليدي.

أحيانًا لابد أن تتنهى بسرعة قبل أن يصطدم بك دروع من السودان يرتدى

131
أسلوب بالاية، يغني أغاني المتسولين وجهه مغيب وذراعاه مفرويستان للأمام، سحب البخار تصاعد من مباخر تترابط وتدور وتمس وجهك برائحة ذكية. تتصدع أصوات الغناء العامي وتتفتح من أكثر من موضع، مع التكرار بدأ في منهم معاني بعض الأفواه العربية. ومرا تسمع أصوات مصاحبة للمحطة - الأصوات الحيوانية لتلك الفتيات ومن يمارسون المحترمة في أزيائهم التي لا تخفي أبدانهم وترافو بين الأزرق الفاتح، والأصفر، والأخضر، والأبيض، والذهبي، كلها من الحرير ونسيج التويلي، أو نسيج شفاف أو حرير دمشقي - كانت ضحكاتهم تبدو كأنها خطوات القطط على أحجار الطريق، ترتفع محلية، وتتفتح، انتتصاعد ضحكات أخرى من أماكن أخرى.

كيف يمتلك المصريون تلك القدرة على الضحك؟ كيف يساريون الأيام والزمن يومًا بعد يوم فوق شوارع القاهرة، منتصبًا القامة بخطوات مرحة في قصصهم الطويلة التي يسمونها "جلابة" المخططة عادة بكل ألوان الطيف - مرحين، عقولهم حرة، حتى يعتقد المرء أن كل ذلك الفقر الطاحن وعدم الرضا والاضطرابات السياسية لا تؤخذ بجدية إلا بشكل نسبي، وجد أن مرحمهم الصاحب المتفجر يبدو دائمًا على استعداد لترك مساحة إلى صفاء النفس، والهدوء الذي يصل إلى التراثي والكسيل.

للهذا السبب، يعتبر أغلب الأوروبيين (ومازالوا) أن العرب سطحيون، إلا أنني اكتشف أن ذلك الحكم على العرب ينبع من ميل الغرب إلى البالغة في وصف الانفعالات التي تبدو لهم متجهمة وجادة ورقيقة بأنها "عميقة" وأن يصفوا "بالسطحي" أي سلوك فيه خفة ومرح. أدركت أن العرب قد ظلوا متحرين من تلك التوترات الداخلية والضغوط النفسية التي يتصف بها أبناء الغرب بصفة خاصة: فكيف لنا إذن أن نطبق عليهم مقاريسنا الخاصة؟

أو بدأ أنهم سطحيون، فربما كان ذلك عائد إلى تدفق مشاعرهم وانفعالاتهم مباشرة إلى سلوكاتهم. وربما يتحولون تحت وطأة "التغير" إلى فقد تدريجي للك ثقائلي في تواصلهم مع الواقع: فمع أن التأثير الغربي يعمل في بعض المجالات والمذاهب كحافز
ومخصص للفكر العربي المعاصر، إلا أنه لابد أن يعمل على خلق المشكلات الخطيرة نفسها التي تهيمن على المشهد الروحي والسياسي في الغرب.

* * *

مقابل المنزل الذي كنت أقطن به في القاهرة، مقابله تمامًا في تلك الحارة الضيقة أو المر، كان هناك مسجد صغير ذو مئذنة قصيرة كنت أسمع منها الأذان للصلاة خمس مرات كل يوم. يظهر رجل ذا عمامه ببضاء في شرفة المئذنة، يرفع كفاه إلى جنبي وجهه، ثم يرفع عقيرته بالاذان: "الله أكبر، أشهد أنه لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله"، في تحوله البطيء في شرفة المئذنة ليوجه النداء إلى الجهات الأصلية الأربع، يرتفع صوته متسلقًا الأعالي، يتضخم ويتضاعف في الجو الصافي، بعمق الأصوات الحلقة للكلمات العربية، ينمو، ينمو ويتدفق، جهراً عميقًا، عاممًا وقويًا واسع المدى، إلا أنك تدرك أن تلك الصفات الجمالية الصوتية التي تميز الأذان إنما هي ناتجة عن توجه إيماني، لا من نوع من الصناعة الفنية.

كان أذان المؤذنين الذي كنت أسمعه في الأيام التي قضيتها بالقاهرة هو ذاته الأذان الذي كنت أسمعه عليه بالقدس، وقدر لي أن أسمعه بعد ذلك في كل البلاد الإسلامية رغم اختلاف اللغات واللغات وأصوات الأذان: جعلني توجد الأذان أدرك في تلك الأيام عمق التوحيد الإسلامي بين كل الشعوب الإسلامية، وأدرك أن الاختلافات مصنوعة ولا معنى لها، تميز ذلك التوحيد عقيدة واحدة، وتوحيد أساليب التفكير والتمييز بين الصواب والخطأ والحلال والحرام، وإدرار واحد لا يجب أن يكون عليه صلاح الحياة.

بدأ لي أنه لأول مرة أصادف مجتمعات تكون فيها الرابطة بين فرد وأخرى لا تعود إلى انتقاء لجنس واحد ولا اهتمامات مادية اقتصادية ومصالح مشتركة بنية على المتفقة، بل تعود إلى ما هو أعمق من كل ذلك وأشد رسوخًا: إلى الاشتراك في رؤية
واحدة إلى الهدف من الوجود، رؤية تزيل كل الحواجز التي يمكن أن تعزل فردًا عن فرد آخر من بني البشر.

عدت في صيف 1923 إلى القدس، وقد أثرتني التجارب بفهم أفضل لطبيعة الحياة في الشرق الأوسط وما يتعلق بها من جوانب ومشاكل سلسلية. وبحسب ديني في الأرض - أجري عبر الأردن عن طريق صديق الحبيب "النحاس" ودعائي إلى زياره بلده. كنت لأول مرة أرى بلداً عربيًا بديعًا يلبي جمهوره. كانت العاصمة عمان في ذلك الوقت قد بنيت على حطام المستمرة اليونانية القديمة التي أسسها بطلوميوس فيلاديفيوس وأسماها فيلادلفيا - مدينة صغيرة لايزيد سكانها عن ستة آلاف نسمة، تموج شوارعها بالبدو القادمين من الصحاري والبراري، كانت الخلية تدور في شوارع عمان، كل بدو كان مسلحاً بمساجح في حزامه وبندها على ظهره، وكانوا من أصول تركية (وكان الحراكسة هم من أسسوا هذة المدينة بعد هجرتهم من بطنهم شمال القفقاس بعد الغزء الروسي لبلادهم في القرن التاسع عشر)، يتجولون في جماعات كبيرة بالأسواق التي كانت تنمو بالحركة وتناسب مدينة أكبر من عمان.

كان الأمير عبد الله في ذلك الوقت يعيش في معسكر من الخيام على تل يشرف على المدينة حيث لم تكن بها مبان كافية وملائمة، وكانت خيوطه أكبر من باقي الخيام، وتتكون من مساحات تفصلها عن بعضها حواجز من أقمشة الخيام السميكة المزركشة وتحتوي على أساس سبسيط فقد كان بكر واحد من تلك المساحات جلدهد أسود يستعمل فراشَّةً للنوم، وفي غرفة الاستقبال كان هناك زوج من سروج الإبل يستعمله متكزاً لن يجلس على البساط.

لم يكن بالخيمة أحد - باستثناء خادم أسود يرتدي زيًا مقصبًا ويضع خنجرًا مذهبًا في حزامه. عند دخولنا إليها آنا والكابتن رضا توفيق بك كبير مستشار الأمير عبد الله. كان رضا توفيق بك تركيزً وآستاندًا جامعيًا سابقًا ووزير تعليم سابقًا أيضًا. بتزكية على مدى ثلاثة أعوام قبل وصول كمال أتاتورك إلى الحكم. أخبرني الدكتور رضا أن الأمير عبد الله لن يتاجر كثيرًا؛ إذ كان يعقد اجتماعًا مع بعض زعماء قبائل البربر.
بسبب الهجوم الذي شنه أهل نجد على جنوب الأردن. وشرح لى الدكتور رضا طبيعة المشكلة قائلًا: «أولئك النجدين الوهابيون لعبوا دورًا في الإسلام لا يقل عن دور الإصلاحيين البيروتانيين في العالم المسيحي، فبقدر ما منعوا كل تقديس للأولى، والأسلاف الصالحين، ونهار عن كل الخرافات الغيبة الغامضة التي تسائلت إلى الإسلام عبر القرنين؛ كانوا بنفس القهر أعداء العائلة الشريفة التي يتزعمها الشريف حسين ملك الهاجن، ووالد الأمير عبد الله، وطبقًا لما ذكره لى رضا توفي قبله، فإن وجهات النظر الدينية التي تبناها الوهابيون لا يمكن رفضها، لأنهم اقتربوا بالفعل من روح القرآن ومضمونه أكثر من أي أتباعات أخرى كانت سائدة في العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وأنها من الممكن أن تؤدي مع مضى الزمن إلى تنقيه الفكر الإسلامي من كل ما علق به من مدخلات، إذ أن تطرفهم الشديد أدى إلى نفور كثير من المسلمين مما تدعو إليه الحركة الوهابية، وكانت تلك العقبة موضع ترحيب من بعض الجهات التي تخشي عودة اتحاد الشعوب العربية لدرجة الرعب.

بعد فترة وجيزة دخل الأمير عبد الله - كان في حوالي الأربعين من عمره، متوسط القامة، له لحية قصيرة شقراء، يخطو بعوومة إنساءًا خفًا من الجلد الأسود، وعباءة عربية فضفاضة من الحرير الأبيض الشفاف، فوق جلباب عربي أبيض. بادرني قائلًا:

«أهلاً وسهلاً»، وكانت أول مرة توجه لها فيها تلك التحية العربية الحميدة.

كان بشخصية الأمير عبد الله جانب جذاب وأسمر، روج وبورقية، تعبرات دافئة، وسرعة بديئة. لم يكن من الصعب اكتشاف سر شعبته في تلك الأيام وحب شعبه له. وبالرغم من عدم تقبل كثير من العرب للدور الذي لعبه في تنفيذ السياسة البريطانية في تمرد العائلة الشريفة بالجزيرة، وعبر الأردن ضد الحكم التركي لصالح البريطانيين، مما أعتبر خيانة مسلمين لمسلمين آخرين، إلا أنه اكتسب مكانة متميزة بسبب دوره الذي أدى للقضية العربية ضد الصهيونية، إلا أنه سباقًا يوم تؤدي فيه مشقته المنتظرة مع التغيرات السياسية إلى جعل اسمه مكروحاً ومبغيًا في كل أرجاء العالم العربي. كنا

135
نحتى القهوة في أقداح صغيرة يدور بها الخادم الأسود، وتحدثنا كأن الدكتور رضا يتداخل أحياناً للترجمة، وقد كان يجيد الفرنسية إجادة تامة عن المصاعب الإدارية في الدولة الوليدة، بسبب اعتياد كل فرد على حمل السلاح، وعدم أنصياع أي بدوى إلى أي قانون إلا قانون عشيرته.

قال الأمير: العربي فيه كثير من حسن الهم و الإدراك حتى البدو يبدأ يدرك أن عليهم التخلص من الفوضى إذا أرادوا أن يتحرروا من الهيمنة الأجنبية، وحالات الثار بين القبائل التي لابد أن يكون عقبتها من تحوّل الزماناتها و لا ينود.

تناقشنا حول طبع القبائل البدوية العنيفة التي اعتادت على قتال بعضها لأنفه الأسباب، كانت ثائرات الدم تستمر على مدى أجيال و يثير الثائر المستحق من أب لابنه حتى على مدى قرون، وتؤدي إلى مزيد من إرهاق الدماء في سلسلة ثائر متتابلة لا ينتهي وما ي🥗كل عنه من كراهية مريرة تُؤدي على مدى دهر مع أن السبب الأصل الذي بدأ بسبب القتال يكون قد ذكر لم تكن هناك إلا وسيلة واحدة لوضع حد تلك الانتقادات: وهي تزويج شاب من القبيلة صاحبة الثار من فتاة عذراء من القبيلة التي عليها الثائر، وتعد دماء العذراء رمزًا للدم المطلوب من القبيلة الذي عليها الدم. كانت بعض القبائل قد أنهكت من سلسلة الثائر المتباذل المستمر من أجيال، واستنذف قوى كل من القبائل المتائفين: في مثل هذه الحالة، كان طرف ثالث يدير ترتيب هذه الزبالة التي تتهي سلسلة الانتقام المتبادل.

قال لي الأمير عبد الله: لقد فعلت ما هو أفضل من ذلك، لقد كنت مجالس تعويض لثار الدم مكونة من رجال أجيال محل ثقة جميع يدورون في أنحاء البلاد لترتب خطب العروض الرمزية والزواج بها بين القبائل المتنازلة، ولكن، وهنا أرجح جفنة دائمًا أؤكد لأعضاء تلك المجالس أن يهتموا عند اختيارهم للعروس العذراء، حتى لا تنتقل الآثار داخل قبيلة العريس الذي أسوء اختيار زوجة له... ظهر صبي في حوالي الثانية عشرة من عمره من خلف أحد المجازن، ضيى خلال ضوء الخيمة المغطاة بطلقات سريعة وقفز في سرعة على ظهر جواد طائر يلب على قائمته خارج الخيمة.

136
وخدام يمسك لجامه: كان ابن الأكبر للأمير عبد الله، الأمير طلال بقامته النحيلة. انقض على الجواش ويريق في عينيه رأيت فيه وجدًا بلا حلم جعل العرب يبدون أبعد ما يكونون، عن كل ما عرفته عنهم وأنا في أوروبا.

حين لاحظ إنجابي الواضح بابنه، قال الأمير عبد الله: "إنه مثل أي صبي عربي آخر، يكبر وفكرة واحدة في رأسه: الحرية، إنا لا نعتقد أننا بلا أخطاء، إلا أننا نحب أن نرتكت أخطائنا بأنفسنا، ونعلم كيف نتجنب الوقوع فيها من جديد. تمامًا، كما نتعلم الشجرة كيف تتعرعر باستقامة وذلك بقيامها بالنور بنفسها، أو كما تشق المياه الفريدة مجارها لتدفق فيه. لا نريد أن يوجهنا أحد إلى الحکمة من قبل شعوب لا توجد لديها أصالة أية حکمة، ليس لديهم إلا القوة فقط والدفاع والأموال ولا يجدون إلا الفقد أصدقائهم الذين كان يمكنهم الاحتفاظ بهم بسهولة...".

* * *

لم يكن بإمكاني البقاء لأحد غير محدد بفلسطين دون مورد مالي ومصر أخرى عاونتي "چاکوب دی هان". كان له اتصالات وعلاقات كثيرة عبر كل أوروبا كصحف معروف. وانت تروسته بي لدى صحف كثيرة إلى اتفاقيات مع صحفيين ناشئين، واحدة في هولندا والأخرى في سويسرا، لكتابة سلسلة مقالات ألقى أجرها بالجدير الهولندي والفرنكاس السويسرية، ولأنها صحف محلية غير واسعة الانتشار فلم يكن بإمكاني دفع أجر مجزر، إلا أنه لامرأ مثل بسيط العادات، بدأ الأجر كافية لتمويل جوانب أخرى جديدة لها عبر الشرق الأوسط.

(0) لم يكن بإمكان أحد في ذلك الوقت (1933) أن يتنبأ بالصراع المعرفي الذي سيشاق ويفسد العلاقة بين الأمير عبد الله وأبنه الأمير طلال. كان الألم في حروقه خضع واجهاداً التماس سياسات بريطانيا في العالم العربي، كما كره الأد أحاديث وخطاب ابنه الوطني، كما لم يتنبأ أحد ببداية إمارة تغل على الاضطراب الفعلي للأمير طلال، والذي أخذ ذريعة للإطالة به من على عرش الأردن عام 1952.
قررت أن أبدأ بسوريا، إلا أن السلطات الفرنسية التي كانت تحتل سوريا وتواجها بعدة شهد من قبل شعب سوريا، رفضت إعطاء تأشيرة دخول لشخص يحمل الجنسية المنساوية حيث كانت النسما معاوية لفرنسا في الحرب العالمية الأولى، ولم يكن هناك ما يستطيع عمله إزاء ذلك فقرر التوجه إلى حيفا، ومنه أسافر بحراً إلى استانبول، وكانت ضمن الجولة التي أخطط لها.

في رحلة القطار من القدس إلى حيفا، وقعت لي كارثة جديدة، فقد فقدت محفظة الذي كانت به حافظة تقدمي وجواز سفرى. لم يبق معي إلا بعض قطع نقود معدنية كانت بجيب سروالى. واتضح أن سفرى إلى أسطنبول أصبح مستحيلًا أيضًا. لم يبق أمامي إلا العودة إلى القدس بالسيارة العامة؛ وإن أدفع ثمن العودة عند الوصول إلى القدس مفترضاً إياها من خالى دوريان كالمعتاد، وفي حالة عودتي إلى القدس لابد أن أنتظر عدة أسابيع حتى أحصل على جواز سفر جديدًا من القنصلية النمساوية بالقاهرة (لم تكن هناك قنصلية للنسما في ذلك الوقت في فلسطين) ثم أنتظر وصول قطرات مالية أخرى من هولندا وسويسرا.

هكذا وجدت نفسى في الصباح أمام مكتب السيارات العامة على مشارف مدينة حифا. وانتهت من التفاوض حول أجر الركوب، وتبقيت ساعة على انطلاق السيارة إلى القدس، وإضافة الوقت، رحت أتشمى جيئة وذهاباً على الطريق، تمثلني مشاعر الضيق من نفسى ومن القدر الذي أجرني على تلك العودة المهينة ومن جولة انتهت قبل أن تبدأ. كان الاستواء يضايقنى على الدوام وشعرتى فكرة عودتي إلى القدس مهجومًا ودلل بين ساقى بمرارة أشد وراد من إحساسي بالمرارة تشكيك دوريان الدائم في قدرتي على تحقيق خططى بتلك الأمور الضئيلة الهزيلة، فوض كل ذلك لن أتمكن من زيارة سوريا، والله وحده يعلم إن كانت نتائج لي فرصة أخرى لزيارة سوريا. لن أرى دمشق لماذا؟

تساعد بمرارة، هل دمشق محمرة على؟
هل هي فعلًا محمرة على؟ كانت الإجابة سريعة ومنطقية فلا جواز سفر ولا مال.
لكن هل من المحتم أن يكون هناك جواز سفر ومال؟
حين وصلت إلى ذلك الدي من التفكير، توقفت فجأة عن السير. من الممكن إذا كانت هناك عرفة كافية وقدرة على التحمل أن أقطع الرحلة سيرًا على الأقدام، وأن أقبل كرم ضيافة الفلاحين العرب، وتحتم أن أتمكن من عبر الحدود خفية دون جواز سفر ولا تأشيرات دخول.

قبل أن أعي أبعاد الأمر تماماً، كان عقلي قد اتخذ القرار: سأخذه فوراً إلى دمشق.

في دقيقة أخبرت مشرفي السيارة العامة أنني قد غيرت رأيي، ولن أسافر إلى القدس. وفي بضع دقائق أخرى استبدت ملابسي لملابس العمل الزرقاء والكوفية العربية (وهى أفضل حماية عربية للمرء من ضغط الشمس)، وقمت بشراء بعض المتطلبات الضرورية وضعتها في حقيبة ظهر صغيرة، وأنهيت إجراءات إعادة حقيبة سفرتي التي كانت معي إلى دوريان بالقدس. وانطلقت مبتدئًا طريقي طويل إلى دمشق.

كان من الصعب التمييز بين إحساسى الطاغى بالحرية الذي ملأني وإحساسى الطاغى بالسعادة التي اعتزنت. كانت معي بعض العملات المعدنية في جيبى، منطلق إلى مهمة غير مشروعة قد تنتهي بي إلى السجن، ومشكلة غير الحدود تبدو أمامى غير واضحة وغير مفهومة، راحنت على قدرتي العقلية وحدها: وبعث ذلك في نفسى قدرًا كبيرًا من السعادة.

****

سرت على طريق الجليل. بعد الظهر كانت سهول أزدراون تقع إلى أسفل على يمينى، مرصعة بمساحات من الظل والضوء. مررت بالناصرة، وقبل حلول الظلام وصلت إلى قرية عربية تحوطها أشجار الفلفل والصبار، على باب أول منزل كان يجلس بعض الرجال والنساء. توقفت وسألتهم إن كانت هذه القرية هي الرائنة، وبعد أن ردوا بالإجابة وأوشكت على مواصلة سيرى، نادتني امرأة منهن: «يا سيدى، ترتاح قليلاً؟»
كما لو كانت تتنبأ بعطشى، مدت إبريقًا ملئًا بالماء البارد تجاهي، شربت حتى الارتواء، سألت أحد الرجال، وكان من الواضح أنه زوج السيدة التي سقطت في "لا تأكل معنا كسرة خنزير، وتقصي ليل عندنا"؟

لم يسأني أحد منهم من أكون، وإلى أين أمضى، أو ما عمل وبيقت الليل عندهم ضيفًا عليهم.

إن تكن ضيفًا على العرب، فهو شيء ذائع الصيت ومعروف لأطفال مدارس أوروبا.
فإن تكون ضيفًا على العرب يعني أن تدخل عندهم لأسوأ، وعلى مدى بقائهم عندهم يعاملونك كما لو كانوا أشقياك شقيقتك. نزول ضيفًا على العرب ليس مجرد تقليد نبيل يجعل منهم مضيحيين بذلك السخاء: إنها حريتهم الدفينة. متحرون من مشاعر عدم الثقة ويفتحون حياتهم بكل سهولة أمام ضيفهم. إنهم لا يحتاجون إلى جدران سميكاء مثل تلك التي يقيمها أبناء العرب بينهم وبين جيرانهم.

تنالوا العشاء معهم، الرجال والنساء، كانوا جالسين متربعين الساقين على بساط حول قصعة كبيرة مليئة بالخزج الجاف المهمش، وعلى يمين كان أصحاب الدار يقطعون قطعة من أغذية خزج طرية وقيلة يدورونها ويغفرون بها مما بالقصعة دون أن يمس أصحابهم ثريد اللين الذي بالقصعة. أما أنا فقد أعطوني ملعقة، إلا أن رفضتها وحاول أن أكل مثلهم بنجح مما أسعد مضيحي لحلاكاتي لهم في طريقتهم الطيبة في تناول الطعام.

عند النوم تمدنا جميعًا، حوالي دستة من البشر في الغرفة نفسها - رحت أحمل في القواعط الخشبية بسقف الغرفة الذي كان يتللى من جبال بها فلل مجفف، وبذنجان، كانت هناك طاقات بالجدار موضوع بها أوانى طهو نحاسية وفخارية، دارت عينائي باتجاه الرجال والنساء النائمين، وسانت نفسني، هل كان من الممكن أن أشعر بمثال ذلك المشاعر لو كنت في موطن؟

في الأيام التالية، بدأت تلال الأردن ذات اللون البنفسجي وظلالها الزرقاء الرومانية والباديسية في الاختفاء التدريجي كلما واصلت السير لتحل محلها تلال
الجليل الخضراء الأكثر بهجة، من أن إلى آخر تجد نبع ماء يشق مجرى لياهله بين الأشجار، والحياة النباتية أصبحت أغر وآكلف، أشجار الزيتون تنمو بكثافة، وجمعات أشجار صبار داكنة طويلة؛ كان آخر أزهار الصيف مازالت تنثر هنا وهناك على جوانب التلال.

سرت جزءًا من الطريق برفقة أصحاب قوافل الجمال، وسعدت بصحبتهم البسيطة، ارتونا من الماء الذي أحمله في وجاء مائي، دخنا لفائف التبغ معًا، ثم انفصلنا عنهم حين تفرعت مقاعد كل منها، قضيت ليالي في منازل العرب وأكلت معهم من خبرتهم وسرت أيام في منخفض الجليل الحار بجوار بحرية الجليل، ثم في برودة الجو المحيطة ببحرية هابيل التي كان سطح مياهها يشبه مرآة معدنية يعلوها ضباب فضي رقيق تشوبه حمرة خفيفة تحت أشعة الشمس الغاربة. بالقرب من شاطئ البحيرة كان يسكن الصيادون الفقراء في أكواع من حصير مثبت على قوائم من أفصل السيان الغبطة. كانوا في غاية الفقر، وعلى الرغم من ذلك بدا عليهم أنهم لا يريدون أكثر من تلك الأكواع في العمر، وذاك الملاك البسيطة التي محبت ألوانها، وحفن من الدقيق لعمل الخبز، والسامك الذي يصطادونه: ودائماً يبدو عليهم أن لديهم ما يزيد من حاجتهم، حتى إنهم يصرون على استضافة الغريب ليشاركهم طعامهم القليل.

* * *

كانت أقصى نقطة شمال فلسطين هي مستعمرة المنطقة اليهودية، كنت أعلم أنها منطقة تفصل بين منطقتي الإدارة البريطانية لفلسطين والإدارة الفرنسية لسوريا. وبناء على اتفاق بين الحكومتين كانت مستعمرة المطة ومستعمرتان أخرىان سيخضعان للإدارة البريطانية. في أثناء ذلك الأسابيع قبل انتقال المستعمرات إلى السيطرة السياسية البريطانية، لم تكن المطة تحت سيطرة أي من الحكومتين، ولذلك كانت مكانًا مثاليًا أتسلل منه إلى سوريا. كانت أوراق الهوية الشخصية مهمة جداً كما فهمت بعد ذلك لن
ينقلوا عبر الطرق الرئيسية، وكانت السلطات الفرنسية في غاية التشدد، وكان من المستحيل أن يمضى على طريق رئيس داخل الأراضي السورية دون أن يوقف قوات الجندية الفرنسية. كانت الملاحة مازالت تعد رسميا تحت الهيمنة الفرنسية، وكان كل فرد بال غ فيها يحمل أوراقا شبورية من السلطات الفرنسية، وأصبح من الضروري الحصول على مثل تلك الأوراق.

قامت ببعض التحريرات في حذر، وأوصلى ذلك إلى منزل رجل من الممكن أن يتنازل عن أوفرته كان رجلاً ضخماً في أواخر الثلاثينيات من عمره، وكان وصفه ذلك مذكرًا في الوثيقة التي يحملها. كانت الوثيقة مطوية قد وضعت وسعتها، وعليها بقع من الزيت. أخرجها من حجر سترته، ولكن الوثيقة كانت بغير صورة شخصية، بدا الأمر أكثر سهولة.

سألته: «كم تطلب ثمناً لها؟»

أجاب: «ثلاثة جنيهات».

أخرجت من جيبى كل العملات المعدنية التي أملكها وعددتها خمسة وخمسين قرشاً، وهو ما يزيد قليلاً على نصف الجنيه.

قلت له: «هذا كل ما أملك، وحيث إنني لابد أن أحتفظ بشيء لباقي رحلتي فإن أستطيع أن أعطيك أكثر من عشرين قرشًا (وكان ذلك واحدًا من خمسة عشر مما طلبته).

بعد دقائق من المساومة، استقر الثمن على خمسة وثلاثين قرشًا، وأصبحت الوثيقة ملكي. كانت ورقة مطبوعة على عمودين - أحدهما بالفرنسية والأخر بالعربية - أما بيانات حالمها فقد كانت مكتوبة بالحبر على السطور المنقولة. لم تهمني خانة «الصفات الجسمانية» لأنها كانت عبارة عن ذلك الوثائق تذكر بالموضوع. ولكن العمر المسجل في الوثيقة كان تسع وثلاثين سنة - بينما كان عمري ثلاثة وعشرين عامًا - نبدو على ملامحي بعضين عامًا فقط. كان لابد لأكثر الضباط إفهماً في عمله أن يلاحظ فارق العمر بين ما هو مدون وما أنا عليه; لذلك كان من الضروري أن أخرج العمر.
المذكور في الوثيقة. إذا بدأ العمر في أحد العمودين فقط، فإن التغيير لن يكون صعبًا، إلا أنه لسوء الحظ كان العمر مسجلاً بالغتين. وعلى الرغم من حرسي الشديد أثناء تغيير العمر، فإن ما انتشرته لا يمكن وصفه إلا بأنه أسوا أنواع التزوير وأوضحها، وأي آمرئ ذي عينين سيكتشف على الفور أن الأرقام قد تم تزييرها في العمودين، إلا أنه لم يكن بإمكانى أفضل من ذلك. وكان على أن أعتمد على حسن الحظ، وعلى إهمال رجال الجندمة.

في الصباح الباكر قادني صاحب الوثيقة إلى ممر خلف القرية، وأشار إلى بعض الصخور التي تبعد نحو نصف ميل وقال: "هذه سوريا". سلكت الممر، وعلى الرغم من أن الوقت مازال باكرًا في الصباح، فإن الجو كان حارًا، كانت امرأة عجوز تجلس أسفل الصخور التي تقع سوريا خلفها؛ نادت اللي العجوز بصوت مرتعش: "هل تجد بجرعة ماء لامرأة عجوز يابسة؟"، نموذجها وعاء الماء المعلق يكتب كتبة وقد مالته قبلا بالماء البارد، شربت حتى ارتوت ثم أعادته إلى قائلة: "بارك الله، وحماك وهذا، إلى ما تسعى إليه".

ردت عليها: "شكرًا لك يا أمي، لا أبغي أكثر من هذا.

مضيت في طريقي، وبعد فترة القفز خلفي باتجاهها، رأت شفتي العجوز تتحركاً كما لو كانت تصلح وشعرت بارتفاع معنوياتها.

وصلت الصخور وتوارثتها: الآن أصبحت في سوريا. كان أمامي سهل واسع وعازم عن الأفق البعيد ساحرة أشجار وأشياء تبدو منازل، خمت أنها أبد أن تكون مدينة باناس. لم أرث لذلك السهل العاري والخالي من أي شيء يسترنني لأنني كنت على منطقة الحدود، إلا أنه لم يكن هناك اختيار آخر. أحسست كما يشعر الماء أحياناً في الحلم حين يجد نفسه في شارع مزحوم وهو عار تمامًا.

كان النهار قد انتصف حين وصلت إلى جدول ماء يقسم الوادي، وحين جلست

وملخت حداثي وجريبي، رأت على معددة أربعة من الخيالة يتحركون باتجاهي، كانت
بنادقهم على السور، أمامهم، بدأ أنهم من رجال الجندية المشؤومين، واتضح أنهم كذلك. لم يكن هناك أي جدوى من محاولة القرار؛ لذلك أتى ذلك أنما سيحدث لن يد واقع. لو ألقوا القبض على الآن، فمن المتوقع أن أتى ضربات بمقابض البنادق ثم أساق إلى المطلة خارج سوريا.

خضت في جدول الماء وجلس على حافته الأخرى وانهمكت في هدوء في تجفيف قدسى منتظراً اقتراب رجال الجندية. وصلوا أمامي على الحافة الأخرى، تطموا إلى في ارتياح: فعل الهم من أنني كنت أردني زيًا عربيًا، فقد كان من الواضح أنني:

أدربي:

سانى أحدهم في حدة: «من أين أنت؟»

أجبته: «من المطلة».

عاد سؤالي: «إلى أين ذهب؟».

أجبته: «إلى دمشق».

سانى: «لماذا!؟».

رددت في مرح: «رحلة ترفيه».

سانى: «معك أوراق تثبت شخصيتك؟».

أجبته: «بالطبع...»

أخرجت الوثيقة، وكأنني كنت أخرج معها قلبي الذي طفر إلى فمي، فحص رجل الجندية الوثيقة وطلع إليها وعاد قلبي منزلاً إلى موضعه بدأ في الخفقان بارتياح من جديد؛ فقد رأيتها مسك الوثيقة مقلوبة، اتضح لي أنه لا يعرف القراءة... وكانت الأختام الحكومية الكبيرة الثلاثة كافية لإقناعه، أعاد تطبيق الوثيقة بثاقل وأرجعها إلى قائلًا: «نعم، الوثيقة سليمة، اذهب.»
لولعة، ألهمت على فكرة أن أصابعه بحرية، إلا أنني وجدت من الأفضل أن تظل العلاقة رسمية تمامًا. أدار الرجال خيلهم وانطلقوا مبتدين، بينما واصلت سيرى.

قبل وصولي إلى بانيس، ضاقت الطريق. فما كان موصوفًا في خريطتي بأنه «طريق صالح لسير العربات» تبين أنه ليس إلا مرآة يصعب تمييزه في جميع مواضعه، اختفي الطريق تماما في منطقة تلال صخرية تنتشر عليها صخور كثيرة. تجولت عبر تلك التلال لساعات، صاعدًا وهابطًا، حتى صادفت بعد الظهر بعض العرب يقوبون حميزة يحمل عنبًا وجبينًا في طريقهم إلى بانيس فسرت معهم ما تبقى من الطريق، أطعمني بعض عنقاقيدي العنب، وأضفَتُ قبًا عند حديقة على مشارف المدينة. كان يثير من الماء الصافي يتدفق في سرعة في مجرى ضيق على جانب الطريق. استمتقت على بطني ومغمرت رأسى حتى أذني في الماء البارد وشربت حتى ارتوت.

رغم إجهاد الشديد، فلم أن تبقى في بانيس، فألقتها أول مدينة على الجانب السوري، لابد أن بها مركز شرطة لراقتة الحدود، كانت مقاتلتى لرجال الجندية قد تركت في نفسى طيًا فيما يخص الأفراد السوريين في تلك القوات، فقد افترضت أن أغلبهم لا يعرفون القراءة. أما أي مركز شرطة فلا يُدأ أن به ضابطًا وهنا سيختلف الأمر. لذلك انطلقت في مهمة عبر شوارع ضيقة ومساكن جانبية، مبتدئًا قدر الإمكان عن الشوارع الرئيسة الواسعة التي يحتل أن يقع بها مركز الشرطة. في إحدى الحواورى سمعت عرقًا على عبد يصاحبه غناه جماعي لرجال على وقع تصفيق بالأيدي، استدرت عند زاوية الحارة تجاه الموسيقى - وتسمعت في موضعى: فأمامى تماماً، على مسافة لا تزيد على عشر خطوات كان هناك باب كبير مكتوب عليه بالفرنسية «مركز الشرطة»، وبعد من رجال الشرطة السوريين بينهم ضابط جانبي على مقاعد في الشمس، ما بعد الظهرة الحالية يستمتعون إلى عزف واحد منهم ويتلاهونه بالغناء الجماعي. كان قد ذكرت أن الراغعون، فقد رأوني، بل إن الضابط - وكان سوريًا - تابعى: «أنت تعلم هذا» لم يكن بإمكانى إلا الطاعة. تقدمت على مهل، ثم اجتاحت عقلة فكرة سريعة. أخرجت ألة تصويري، وحيثي الضابط بابًا بالفرنسية، وواصلت

145
دون أن أعطى فرصة لسأبب: "أتعبت من المطلة في زيارة سريعة، ورأيت ألا أعود قبل أن ألتقط صورة ذكارية لك أنتم وأصدقائك، فقل أتريني غناكم وأشجعكم".

والعرب يحبون التملق، كما يحبون التقلص صورهم؛ وافق الضابط في سرور وطلب مني أن أرسل إليه الصور بعد طبعها (وقد فعلت وأرسلت إليه الصور مع تحياتي). لم يهتم بعد ذلك سؤالي عن أية أوراق، بل إنه دعا إلى قدم من الشايخ وتمني إلى رحلة طويلة حين كنت أغردهم للعودة إلى المطلة كما زعمت له، عدت أمامهم من حيث أتيت، ثم سرت في دورشي واسعة حول المدينة، وغذت السير باتجاه دمشق.

* * *

بعد أسبوعين بالضبط من مغادرتي حيفا، وصلت إلى قرية كبيرة - أو مدينة صغيرة - هي جبل شمس، كان يقطنها أغلبية من الدروز والسيحات اختارت منزلًا يبدو عليه يسر الحال وطلب من الشاب الذي فتح لي الباب أن يسمح لي بالبيت عندهم، وباهالًا وسهلاً، استقبلت فتح الباب على مصراعيه، وخلال دقائق كنت كمقدم من أفراد البيت.

وحيق إن كنت قد أصبحت في عمق سوريا، ومتاح لطرق عديدة للوصول إلى دمشق، وأوليتي صاحب الدار الدرزي تقني وطلب منه النصح. وكتبت على يقين أن العرب لا يخونون ضيوفهم، ووضعتم أمامه كل الحقائق، بما فيها أنى أسافر بوئسية مزورة.

قال لي إنها مكانة كبيرة إن رحت على الطرق الرئيسي؛ لأنها توجد دوريات تجوب الطريق من مجدل شمس حتى دمشق من رجال الأمن الفرنسيين، ثم قال: "سأرسل وادي لراجفتحك وأشار إلى الشاب الذي فتح لي الباب عند قدمي: "سيبقى ولدي من طريق الجبال حتى لا تسير على الطرق الرئيسي".

بعد الهاشة جلسنا في شرفة أمامية مفتوحة وتحدثنا عن المسار الذي سنسلكه في الصباح. كنت أفتقد على ركبتى خريطة المكتوبة بالآلانية للمنطقة الفلسطينية وسوريا التي أحضرتها معى من القدس وأحاول أن أثبت عليها المسار الذي ذكره مضيفي الذهبي.
حين كنا منهمكين في ذلك ظهر فجأة من زاوية الطريق ضابط سوري بذر الشرطة حتى إنه لم يتسرع لي وقت لتطبيق الخريطة، عدا إخفائها. على الفور أدرك الضابط أنني غير، فبعد أن مر من أمامنا، وله يرقص رأسه محييًا مضيفًا، استدار عائداً ببطء تجاهنا: سأل بالفرنسية بلطف: "من أنت؟".

أعدت عليه القصة المختلفة من أنتي من المطلة في رحلة ترفيه، وحين طلب رؤية أوراقك الثبوتية، كان على أن أطلع عليهما. تطلع إلى الوثيقة بتركيز وانتباه، زعم شفته قائلًا في عيونه: "ما هذا الذي يبدع؟ وأشار إلى الخريطة الألمانية. قلت له إنه شيء غير مهم، إلا أنه أصر على رؤيتها، وفجأة بنشوبها اتتاه بإجراءات خريطة، تطلع إليها لثوان، ثم طواها بعناية وأعادها إلى مبسطها، ثم قال بلغة ألمانية رقيقة: "لقد خدمت أثناء الحرب في الجيش التركي جنبًا إلى جنب مع الألمان", ثم حبان بالطريقة العسكرية، وعبس ملامحه من جديد ومضى منصرفًا. قال مضيفي: "لقد ظن أنك ألماني. إنه يحب الألمان ويكره الفرنسين. لا تخض فلت بسببك ضرًا".

في الصباح التالي انتهكت بصحة الشاب الذي إلى أصعب مسيرة مرت بها في حياتي. سرت لما يزيد على إحدى عشرة ساعة، لم تسترح إلا لتناول الغداء، سرت عبر تلال صغيرة وفي باب ممرات جبلية، وعبر مجار مائية جافة، ثم صعودًا إلى تلال جديدة بين كثلا صغيرة عملاقة وعلى حواف صخرية حادة، صعودًا وهبوطًا، حتى تهالكت وأحسنت أنني أن أستطيع أي سير أكثر من ذلك. ولا وصلنا مدينة القبلة على مشارف دمشق، كنت قد تهالكت تمامًا، كان حذائي قد بلوء، وترمز قدمي، أردت أن أتوقف لقضاء الليل، إلا أن مراقبة الشاب رفض بشدة وحسم، لأن المنطقة بها كثير من رجال الأمن الفرنسيين، ولأن القبلة مدينة ولست قريه، ولن أجد مكانًا أبيت فيه دون أن ألف الأنتار كان البديل الوحيد هو ركوب إحدى سيارات الأجرة التي تجد المسافة بين القبلة ودمشق.

في مكتب النقل المتاحك الواقع بالميدان الرئيسي لمدينة القبلة، أخبروني أن على أن أنتظر نصف ساعة حتى موعد رحيل السيارة التالية. ودعت مراقبة الشاب الذي
احتضنتى معدّةً كما لم كنت شقيقه، وغادرتى عائدةً إلى قريته. جلست وحقيقة ظهر إلى جوهرى بمكتب السفر، غفوت تحت أشعة الشمس الغاربة، وأقنت على من يهز كتفي بطريقة خشتة ليوصفي؛ كان رجل آمن سورى. ألقى على الأسئلة المعتادة، وبعثتها الإجابات المعتادة، إلا أن الرجل لم يبد عليه الانتباه وقال لي:

«هيا إلى قسم الشرطة وقل ما تريد للضابط المسؤول.»

كنت في غاية الإجهاد حتى إنني لم أبال إن اكتشفوا حقيقة أخرى.

كان الضابط في قسم الشرطة جاويشًا فرنسيًا ضخم الجثة، يرتدي سترة مفتوحة الأوزار، يجلس خلف مكتب عليه زجاجة عرق لم يبق بها إلا نقل من ماء، والى جوارها كوب متسخ.

كان شملًا تمامًا ويبدو عليه الغضب، تطلع إلى رجل الأمن السوري بنظارات نارية.

قالوا: «ماذا هناك؟»

أخبره رجل الأمن السوري بالعربية أنه وجد أنى رجل غريب في الميدان الرئيس وأنه يشك في أمرى؛ أخبرته بالفرنسية أنى ست غريبًا وأنى متزم بالقوانين.

صاح الجاويش الفرنسي: «متزم بالقوانين؟ لست إلا أوفيًا لمشتردي، تلمع جيئة ذهابًا لمسايرةكنا، أين أوراك؟» حين كنت أبحث في جيبي بأصابع متوترة لإخراج الوثيقة، دق المكتب بقبضته، وتابع قائلًا: «لا تشغل بالك، أخرج من هنا» حين كنت أغلق الباب خلفي، لحته يبد يده إلى الزجاجة ويتجرع ما بقي منها.

ما أجمل الراحة بعد العناء، بعد ذلك السير الطويل على الأقدام، ما أجمل الري، لا، ليس ركيزةً، بل انزلق في سيارة تطوى الطريق المتسع العريض في سهل من البساتين الخضراء في الطريق إلى دمشق. في الأفق البعيد هيفي: بحر مرتفعي الطرف من قمم الأشجار الخضراء، بينها بعض القلب اللامعة، وماثن مساجد ثرى بصعوبة تحت السماء، بعيدًا إلى اليمين من الطريق، كان هناك تل وحيد عارِ، تلمع حافته تحت ضوء الشمس، وظلل ناعمة تزحف تحت سفحه، في السماء فوق التل، كانت تسبح غيمة مستطيلة، تلمع حوافها بأضواء الشمس الذهبية ومن خلفها زرقة

148
عميقة للسماء، ومن بعيد وراء السهل الأخضر، ظهرت جبال رمادية اللون، إلى اليمين واليسار، وهواء منعش من كل اتجاه.

تتابع المشاهد من بساتين فاكهة تحتويها أسوار طينية، إلى راكبو حمير وعربات تجرها حمير، مجموعات من جنود (فرنسيين). تحوّلت العتمة إلى لون الماء الأخضر. مرق جوار السيارة ضابط دورية فرنسي يقود دراجة نارية، يضع عيونه كبرة لحماية عينيه من الهواء المتدفع فبدأ مثل سمكة أعماق كبيرة، ثم أول بيوت المدينة، ثم: دمشق، موجهة إلى الأصوات والضجيج بعد صمت السهل الواسع. كانت أول أضواء الليل تضيء بعض النوافذ والشوارع، أحسست بسعادة وبهجة لا تذكر أنى شعرت بمثلها من قبل، إلا أن سعادتي لم تدم طويلاً؛ فقد توقفت السيارة عند نقطة توقف على مشارف المدينة.

سأقل السائق: «ماذا هناك؟»

أجاب: «لا شيء، كل السيارات القادمة من خارج دمشق لابد أن تسجل وصولها في نقطة التوقف...»

خرج رجل شرطة سوري من المبنى الذي يشرف على الطريق وسأل السائق:

«من أين؟»

أجاب السائق: «من القشلة فقط...»

قال الشرطي: «في هذه الحالة، ماذا في الطريق؟» (كان ذلك يعتبر انتقالاً محلياً من مسافة قريبة لا تستحق التمحيص) بدلاً السائق وضع عصا القيادة التي زمرت وأثنى تحركنا وتبتسم بارتيحاً من جديد. في تلك اللحظة صاح صوت من الشارع «غطاء السيارة ملحوظ»، أوقف السائق السيارة المتهالكة بعد أمطار قليلة من نقطة التوقف لفحص غطاء السيارة الذي تدلى على أحد الجوانب، وبينما كان منهما في تثبتته، اقترب منا رجل الشرطة في ترخاخ وهو يراقب المشاهدة التي يعالجها السائق، ثم سقطت نظاراته مصادفة على وجهي، رأيت وداني يتسبب أماراً الاهتمام والانتباه تبدو عليه فجأة. كانت نظاراته تتفحصني بثقل اقترب أكثر، نقل نظره إلى حقيبة الظهر التي كنت أضعها على أرض السيارة.
سألتي في ارتياب: «من أنت؟»

وبدأت: «من المطلة...» إلا أنه كان يهز رأسه في عدم تصديق كلما أعلنت في الرواية التي ذكرتها كثيرًا قبل ذلك، ثم همس بشيء للسائق، لم أتبع منه إلا بضع كلمات هي: «جندى إنجليزي... هارب» لأول مرة أدرك أن الرَّؤي الأزرق والكوفية البنية بالعقال الذهبية وحقيقة الظهير بطرارها العسكري (وكتب قد اشترتها من محل بيع الأشياء القديمة بالقدس) تشبه جميعاً إلى الجنود الأيرلنديين الذين اخترتهم السلطان البريطاني للخدمة العسكرية في فلسطين، وذكرت أن هناك اتفاقية بين السلطات الفرنسية والبريطانية تنص على إعادة الفارين من الخدمة لدى أي منهما إلى الطرف الآخر...

حاولت بلغتي العربية الركية أن أشرح للشرطي أن أستفار من الخدمة، إلا أنه تجاهل كل ما أقوله وصاح: «اشرح كل ذاك للمفتش».

وهكذا، أجبت على التوجه إلى نقطة الشرطة، بينما اعتذر السائق بكلمات مبهمة عن عدم استطاعته انتظره، وقاد السيارة مبتدأً حتى احتاج عن نظره.

لم يكن المفتش موجوداً بالنسبة عند دخول إليها، كان على وشك الوصول في أي لحظة. أنهلوتي غرفة خالية لا يوجد بها إلا أريكة مستديرة، وعداً باب الدخول إلى تلك الغرفة، كان بها بابان آخرين فوق أحدهما مكتوب بالفرنسية: «حراس السجن»، وعلى الآخر كلمة واحدة: «السجن».

انتظرت في تلك الغرفة ذات المحتويات التي لا تسر ما يزيد على نصف الساعة، وكلما مر دقيقًا يزيد يقيني أن رحلتي قد وصلت إلى نهايتها؛ لأن «مفتشًا» أكثر وعيًا من ضابط، ولم يكتشف أرلي الآن، لابد أن أقضي أسابيع في السجن حتى موعد المحاكمة، ومن بعدها العقوبة المخفية وهي ثلاثة أشهر بالسجن، بعدما نسي عنى قدمي مصحيحًا بشرطة راكبة - إلى حدود فلسطين - ثم يتنجك كل ذلك بطريقة من فلسطيني لخرق قوانين الجوازات. لا تكن الهمة في الغرفة التي كنت أنتظر بها تقتاس بالي حال مقارنة بالعمتة والإحباط اللذين كانتا يداعب في ذلك الوقت.

150
سمعت نُجاة صوت محرك سيارة توقفت أمام المركز. بعد لحظات دخل رجل يرتدي ملابس مدنية ويضع على رأسه طرفيًا أحمر، كان سريع الخطى، ويبعه الشرطي الذي أحضنن وهو يحدث إليه بحماس، كان من الواضح أن المفتش في عجلة من أمره.

لم أعرف بالضبط كيف وقع ما وقع، إلا أن ما فعلته في تلك اللحظة الحربية كان نتاج ومضنة نادرة للعبقيرة الكامنة، والتي تؤثر في مسار الأحداث في مواقف حربة - ربما تؤدى عند رجال آخرين إلى تغيير مسار التاريخ - بقزارة واحدة اقتربت من المفتش، ودونما انتظار لأي سؤال منه، وجهت إليه سيل من الشككية بالفرنسية من الإهادات الخروق التي قام بها رجل الشرطة الذي أخذني في حين أتي مواطن بريء، وهو يعتقد أنى من الهاربين من الخدمة في الجيش البريطاني. وسبب تخيل خوف السيارة التي كنت أستقلها إلى المدينة. حاول المفتش أكثر من مرة أن يقاطعني، إلا أنني لم أتيح له فرصه للكلام وحاصسته بسأيل من الحديث المتواصل. بلا توقف خمنت أنه لم يدرك منه حتى عشرة، وربما لم يدرك إلا اسماء «الملطة» و«دمشق» التي رحت أكرها بعدد لا نهائي من المرات. كان من الواضح أنه متوتر ويعتبر الضيق لأخره من مهمة كان لا بد أن يقوم بها فورًا. إلا أنني لم أكتبه من الكلام واستمرت دون أن توقف حتى لالتقاط أنفسى وواب كلماتي لا ينقع في النهاية رفع يدي في يأس وصاح:

"توقف بحق الله. هل معك مستندات؟"

توجهت يدي بصورة آلية إلى جيب الصدر، وأنا مستمر في سيل الكلام، ودفعت إليه وثيقتي المزورة. ويبدو أن الرجل السكين كان يشعر أنه يوشك على الغرق، فقد رفع حافة الوثيقة المطلوبة دون أن يفضها، وبح الخانم الرسمي، وألقها من جديد صائحاً:

"حسن، حسن، اذهب، فقط اذهب" - ولم أنظر أن يكرهها أكثر من ذلك.

* * *

151
قبل ذلك بعدة أشهر، كنت قد التقيت بمدرس دمشق في القدس، ودعاني أن أكون ضيفه متنبي جنّ إلى دمشق، وفور وصولي بدأت السؤال. عرض صبي صغير أن يرشدني واصطحبني يدًا بيد ليداني على المنزل.

المساء المتأخر في المدينة القديمة، حوار ضيق، أضافت الشرفات المتعدة فوق الرؤوس إلى عتمة الشارع الضيق. مدخل فاكي ينير مصابح كيروسين، وتكوين أمام محلة أكواب من البطيخ وسلسل العنبر. الناس كالأشباح: أسمع أحياناً أصواتًا حادة لنساء خلف النوافذ العربية من الخشب المعشق. قال الصبي مشيرًا إلى منزل: «هنا».

دققت الباب. أجاب شخص من الداخل، رفعت الساقطة ودخلت عبر ردهة معبة. ميزت في الظلام أشجار فاكهة خضراء وحوضًا صغيرًا بتوسطه فسقية. نادى شخص من الدور العلوي: «تفضل يا سيدى»، صعدت درجات ضيقة على امتداد الجدار الخارجي، أفضى الدراج إلى شرفة علوية مفتوحة وأفضت الشرفة إلى أدنى سديق المفتوحة في ترحيب حار. كنت في غاية التهالك، تركت جسمى يتداعى بذكرى مصيدة على النار الذي خصني به. خشخشت أوراق الأشجار تحت وقع النسيم بالفناء الأمامي والحديثة الخلفية، ومن بعيد تتأتى إلى سمعي أصوات مبهمة كثيرة: أصوات مدينة عربية كبرى توشك أن تنام.

* * *

تجلوه في تلك الأيام الصيفية في الشوارع التجارية العتيقة الضيقة لدمشق، بإحساس رائع من الإثارة ناجم عن رؤية جديدة، وكليًا مفتوحة على جوانب لم ترد إلى وعي من قبل وعلى رأسها عمق الجوانب الروحية عند أهل دمشق. كان الإحساس بالأمن الداخلي لدى الأفراد ظاهرًا من خلال تفاعلاتهم مع بعضهم البعض، وفي حرارة وجميلة التقاليد أو افتراقهم؛ في مشهد صديقين يسيّران معًا وأيدهم متماسكة كالأطفال والعائدين يحسّسان بعمق الصداقة التي تربطهم، كما تراه في سلوك أصحاب.
المحل التجارية تجاه بعضهم، تبدو كأنها لا تحمل خشية خروف ولا منافسة ولا حصدًا ولا ضغينة. قد يترك صاحب متجر متجر في حراسة جاره ومنافسه حين يضطر أي ظرف لترك متجر لبعض الوقت. رأيت في مرات كثيرة بعض الزبائن يقفون أمام متجر خلا من صاحبه، وحين يبدأ عليهم الردد إن كانوا ينتظرون عودة صاحبه أم يصرفون إلى متجر آخر، أجد أن جاره ومنافسه يدخل بلا تردد مكان جاره الغائب ويبيع للزبائن ما يريدون، ليس من بضائعه، ولكن من بضاعة جاره الغائب. ويتورك هنما ببعه على طاولة جاره الغائب. في أي مكان من أوروبا يجد المرء مثل تلك العمليات التجارية الأمينة تجاه المنافسين؟

كانت بعض الشوارع التجارية مكتظة ببدو خشنيين في أزيائهم الواجهة الطويلة الفضفاضة: إنهم يحملون معهم جميع أعراضهم اللازمة للحياة، يعرفون طريقهم إلى ما يريدون. رجال طوال القامة، بنظارات حادة جادة يقفون في جماعة ويجلسون جماعة أمام المحلات. لا يترددون كثيرًا كلمة واحدة، جملة قصيرة بلغتها قابلها بالفهم، وتحل محل محادثات ومحاولات طويلة. أولئك البدو لا يعرفون لغو الحديث، ولا الكلام لجرد الكلام، فنذكر علامة تأكل رميًا، نكرؤن بوصف الجبنة في آية من آيات القرآن تقول: «لا يسمعون فيها أمارَا ولا تأثِّب أبنا» (6). الصمت صفة من صفات البدو الجوهري. يضمنون أطراف عبائتهم الواجهة المخططة بالأبيض والبنى أو الأسود ويمضون أو يجلسون صامتين؛ يمرون بك في صمت وينظرن نظرة مستطلعة مثل نظرة الطفل المستطلع، تباهينهم، ومتواضعين في حساسية عالياً. حين توجه إليهم الحديث بلغتهم وتضيء أعينهم بالابتسامة مفاجئة، غير مستقرقين في نواتهم وتسعدهم أن يشعر الآخرون بهم، تمس عظيمة، متحفظين تمامًا، إلا أنهم متفتحي الفكر على كل شيء في العالم.

يوم الجمعة - سبت المسلمين - تترك أن هناك تغييرًا في وضع الحياة في دمشق.

دوامات صغيرة من الفرح والسرور مع إجلال وحماية دينية. فكرت في الأيام الأحاد في

(6) (سورة الواقعة - آية 25).
أروبا؛ في الشوارع الصامتة في المدينة اليوم الأحد، والمحل الخالية؛ تذكر كل ذلك الأيام.
من الأحاد الخاوية والإحساس بالقهوة الذي كانت تلك الأيام تجلبه.
لماذا هي كذلك؟
آن بدأ أهله وأدرك: الحياة اليومية لأغلب الناس في الغرب تشكل عبئًا قليلاً لا يحلهم منه إلا إجازة يوم الأحد، لم يعد الأحد يوم راحة بل يوم هروب نسيان وهمي مصطنع من وظيقة الواقع الذي يحييهم، ويكون ثقله مضاعفًا وخطرًا ذلك اليوم الأسبوعي للشرب.
أما عند العرب، فلا يبدو أن يوم الجمعة يوم هروب أو نسيان، ليس لأن شأر الحياة تتساقط بسهولة في حجوزهم بلا جهد ولا مشقة، بل يعود السبب ببساطة إلى أن أعماله -حتى أشقها- لا تتعارض مع رفاهيهم الشخصية. لا توجد لديهم ألياً لأنثقتها في العمل؛ على العكس من ذلك، هناك تواصل عميق ودوري بين العمل، بما يعمله ذلك تصبح الراحة ضرورية حين يشعر بالإجهاد، لقد رسخ الإسلام ذلك التناغم بين العمل وعمله كحملة تنسق مع التركيب والتكوين البشري، لذلك لا توجد راحة إجبارية يوم الجمعة. الحرفيون وأصحاب الحال الدمشقية يعملون يوم الجمعة بضع ساعات، ثم يفقون أشغالهم ببضع ساعات يذهبون فيها للجوامع لصلاة الجمعة ويعدهم يلتقيون بالأصدقاء أو المقاولين، ثم يعودون إلى أعمالهم وصناعاتهم لبضع ساعات أخرى في سعادة واسترخاء نفسي، كل واحد وما يعود. محلات قليلة تغلق يوم الجمعة، ويستثنى وقت صلاة الجمعة تجد الشوارع مليئة بالناس مثل بيضة أيام الأسبوع.
ذهبت مع صديق وصديقي إلى الجامع الأول يوم الجمعة. الأقدام الرخامية التي تعلوها قبة عظيمة كانت تلمع تحت ضوء الشمس الساقط من الوضوء. الجامع يفوح برائحة السمك، الأرض مغطاة بتبسة حمراء ورقاء. أصطف مئات الصليين في صفوف طويلة منتظمة خلف الإمام، ركعوا، سجدوا، مسوا الأرض ببجاعتهم، ثم نهضوا من جديد؛ كلهم في توحد مثل الجنود. كان المكان يسود الصمت والناس وقية، يسمع المرء صوت الإمام العجوز من أعمق صحن الجامع الواسع، يتلو آيات من القرآن؛
وحيون يركع أو يسجد، يتبعه كل المصلين كرجل واحد، يركعون ويسجدون لِهِ كَمَا لَوْ كَانَ حاضِراً، أَمَامَ آمِينِهِمْ.

في تلك اللحظة أدرك أن قرب الله منهم وقربهم منه. بدأ لي أن صلواتهم لا تتغير في حياتهم اليومية، بل كانت جزءاً منها لا تعنيهم صلواتهم على نفس أنفسهم الحياة، بل تعمقها أكثر بذكريم لله.

قلت لأصدقائي ومضيفي ونحن ننصرف من الجامع بعد الصلاة: «ما أُغرب ذلك وأعظمته، إنكم تشعرون أن الله قريب منكم، أهُمْ أن يملؤيه أَنَا أَيضاً مِثل ذلك الشعور».

رد صديقي: «ما الذي يمكن أن تحسمه غير ذلك يا أخي؟ الله يقول في كتابه العزيز: إنه أقرب إليتنا من حبل الورد».

* * *

منفِعُوًّا بمدركاتنا الجديدة، قضيت جل وقتي في دمشق أقرأ من الكتب كل ما له علاقة بالإسلام. كنت لغت العربية تسعفني في تبادل الحديث، إلا أنها كانت أضعف من أن تمكنني من قراءة القرآن، لذا لجأت إلى ترجيحات لعلّ نحن القرآن - واحدة فرنسية والأخرى ألمانية - استعراضهما من مكتبة. أما مع مدّ وانتือน القرآن، فقد اعتمدته فيه على أعمال المستشرقين الأوروبيين، وعلى ما يشرح لصديقي.

ومهما كانت ضالة ما عرفت، إلا أنه كان أشبه برفع ستار، بدأت في معرفة عالم من الأفكار كانت غافلاً عنه وجاليةً به حتى ذلك الوقت.

لم يبد لي الإسلام دينًا بالمعنى المتعارف عليه بين الناس لكلمة دين، بل بدا لي أسلوبًا للحياة وليس نظامًا لاهتمامًا بقدر ما هو سلوك فرد ومجتمع يرتبط على الوحي بوجود الله الواحد. لم أجد في أي آية من آيات القرآن أي إشارة إلى احتياج البشر
إلى "الخلاص الروحي"، ولا يوجد ذكر "الخطيئة الأولى" موروثة تقف حالياً بين المرء وقهره الذي قدره الله له - ولا يبقى لابن آدم إلا عمله الذي سعى إليه. ولا توجد حاجة للتهرب والزهد لفتح أبواب خفية لتحقيق الخلاص، ولا تخلص الخلاص حتى مكمل لكل البشر بالولادة، والخطيئة لا تعتلى إلا ابتعاد الناس عن الفطرة التي خلقهم الله عليها. ولم أجد أثر يدل على الثنائية في الطبيعة البشرية: فالبدن والروح يعملان في المنظور الإسلامي كوحدة واحدة متكاملة لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

أظهري في البداية اهتمام القرآن لا بالجوانب الروحية فقط، بل بجوانب أخرى غير مهمة من الأمور الدنيوية، ولكن مع مرور الوقت بدأ أدرك أنه حيث إن البشر وحدة متكاملة من بينو وروح - وقد أكد الإسلام على ذلك - لا يوجد وجه من أوجه الحياة يمكن أن نعتده مهمشياً بل إن كل جوانب حياة البشر تأتي في صلب اهتمامات الدين. في كل المجالات، لم يدع القرآن المسلمين ينسون أن الحياة الدنيا ليست إلا مرحلة في طريق البشر نحو تحقيق وجود أساسي وأبدي، وأن الهدف النهائي دقة روحية. ويرى أن الرخاء المادي لا ضرر منه إلا أنه ليس غاية في ذاته: لذلك لا بأس أن تقتن شهية الإنسان وشهواته ويتناضج فيها بعوجا أخلاقياً من الفرد. وهذا الواعي لا يوجه إلى الله فقط بل يوجه أيضاً إلى علاقته بغيره من البشر: لا من أجل الكمال السياسي وحده، بل لخلق حالة اجتماعية تؤدي إلى تطور روحي للمجتمع بجميعه، حتى يتمكن المجتمع كله من أن يحيا حياة كاملة...

نظرت إلى كل تلك الجوانب الفكرية والأخلاقية بتقدير وإجلاء. كان منهجه في تناول مشاكل الروح أمتعة كثيراً من تلك التي وجدتها في التوراة، هذا عدا أنه لم يأت لبشر دون بشر ولا لأمة بذاتها دون أخرى، كما أن منهجه في مسألة البعد يعكس الإنجيل، منهج إيجابي لا يتجاهل البعد، الروح والبدن معًا يكونان البشر، كتوائم متلازمين تساطر، لا يمكن أن يكون ذلك المنهج هو السبب الكامن وراء الإحساس بالأمان والتوازن النفسي والفركي الذي يميز العرب والمسلمين؟

* * *

156
ذات مساء دعائي مضفي إلى مصاحبه إلى احتفال في منزل أحد أصدقائه
الثرياء من أهل دمشق بمناسبة مولد ابن له.

سرنا عبر شوارع متهيأة في المدينة القديمة، كانت حواري ضيقة حتى إن الشرفات ذات الطرز العربية توشك أن تلمس. الأزهار والزهور يسودان المنازل المشيدة من الحجر؛ من أن أخر كانت تقابلنا بعض نساء محجبات بحبس سوداء ويسورن بخطوات قصيرة سريعة، أو تلتقي برجل ملتح يرتدي قفطانًا طويلًا، يظهر من منحنى الطريق ويختفي في بطن خلف منعتف بليه، الحي القدح مليًا بشوارع ضيقة تتكسر وتتقاطع مع بعضها البعض في كل الاتجاهات، توجد إليها دائمًا أنها تلود إلى كشف مذهل، إلا أنها تفضي إلى حارة ضيقة أخرى مماثلة لا تختلف عنها في شيء.

إلا أن الكشف قد جاء في النهاية. توقف صديقنا أمام باب لا يميزه شيء عن غيره من الأبواب، كان الباب في منتصف سور من الطين المدهون بالأسنان. قال: «هذا وصلنا» وقبضنا عليه الباب المغلق. ففتح الباب وأصدر صريرًا، وجدنا أمامنا رجلًا طامعًا في السن يبسق بفم خلا من الأسنان «أهلاً، أهلاً وسهلاً» مضيفًا عبر ردهة قصيرة دارت بنا مرتين وزاوية قائمة أفضت بنا في النهاية إلى فناء ذلك المنزل الذي لا يشي مظهره الخارجي بأكثر من سور طيني مدهون بالأسنان. كان البناء واسعًا ومكشوفًا، أرضه مصممة وكأنها رتفعة شرط بناء هالة الاتساع بمراعاة من الرخام الأبيض والأسود. في أطول مستوى كان هناك حوض فضفاض من الحجر شائك الأضلاع من منتصف يخرج ماء الفضفاض موسوسة رقراقًا في مربعات بين رخام الأرضية تمت أشجار الليمون والتفنيل، تتشر أشجار أزهارها عبر الفناء وسعة بامتداده وإلى داخل المنزل، أما جدران المنزل التي تحيط بالفناء فقد غطتها من الأرض حتى قمتها يقوس من الرخام دقيقة الصناعة رقيقة الجمال في أشكال هندسية رقيقة متس שישة لا يقطعها إلا نافذة الغرف التي تطل على الفناء ويوكر فيها رخام عريض ممزوج بأشكال بديعة الصناعة. على أحد جوانب الفناء كان هناك فرجاي على ارتفاع ثلاثة أقدام من الأرض ترتقي إليه بدرج عريض من الرخام وعلى جوانب هذا الفرجاي يسمني ليوان صفّ صفيّ أزلائه

157
مقصبة بينما فرشت أرضه ببسيطه شمية. كانت خروج الليلوان مغطاة بمرايا ضخمة يصل ارتفاعها إلى خمسة عشر قدماً - كان القناء بأشجار، ومربعات أرضه من الرخاخ الأبيض والأسود، ونقوش الرخاخ المرارة بالحواف، والنوافذ الرخامية والأبواب المنقوشة التي تفضي إلى داخل المنزل، والألواح الكثيرة لأزياء الضيوف الجالسين بالليوان والمجمعين حول الفسقية - تضاءك له خلال مرايا الليلوان: حين تنظر إلى تلك المرايا والتي يقابلها مرايا أخرى على الحواف القابلة، يعكس المشهد مرتين، أربع مرات، بل مئات المرات بلا نهاية وبذلك يتحول إلى مشهد سحري من عقود رخامية لا نهاية لها، وفسقية بلا نهاية، وأعداد لا نهائية من الضيوف، وعابات من أشعار الليمون وأزهر نبات الدفلى - مكان يشبه المحم، يتصاق تحت سماء النساء التي تازأت وردية من آخر بقايا أشعة الشمس التي غابت.

مثل ذلك المنزل البسيط من الخارج، والبهيج الثرى من الداخل. كان جديداً تماماً على شخص مثله، ومرور الزمن أدرك أنه النظم والطرز لبيوت المسلمين التقليديين ميسورى الحال، ليس في سوريا والعراق ومدحا، بل في إيران أيضًا. لم يهتم العرب ولا مسلمو إيران في العصور المبكرة لإسلام بالواجهات الخارجية، فالغرق من المنزل أن نحيا داخله ووظيفته محدودة بداخله، ويتلف لذاك كلية عن التوجه العثمى «الدفى» الذي يتبع معماريته الحديثين. لقد سقط أهل الغرب في نوع من الرومانسية المعموسة، وفي عدم فهمهم لمبادرات الدانية فإنهم يشيرون مشاكل لا منازل؛ أما العرب والإيرانيون فإنهم بينون منازل لا مشاكل.

أجلسني صاحب الدار إلى يمينه على الأريكة. ودار خادم حاي الفقدين بإطاح صغرى من القهوة مصفوفة على صينية من نحاس متقطعة بأشكال، اختلط الدخان المتصاعد من الأريج بإبخرة ماء الورد بالليوان، ورتفع في موجات تجاه الفروانيس الإيجادى التي كانت تضاء واحدًا بعد آخر على امتداد الجدران وبين الخضرة الداكنة للأشجار.

كان جمع الضيوف - وكلهم رجاء - في أزياء متباينة: رجال في قفاطين من الحرير الدمشقي أو الصينى الخالص بلون العاج، عليها جبة من الصوف بالوان خفيفة.
متداخلة، وعمامة ذات حواف مذهبة تحكم وضع الطروش على الرأس؛ بعض آخرين في ملبس أوروبية، إلا أنهم كانوا يجلسون متربعين الساقين على الأرائك، وبعض زعماء البدو يشكلون المعتاد: عيون سوداء تلمع ببريق حزى بالظلمة، ولهي صغيرة حول وجوه نحيلة داكنة. ملبسهم الجديد يصدر حقيقةً مع كل حركة ويحملون جميعًا سيفًا في أغمدها فضية. كان جميع الضيوف مسترخين في دعوة واطمئنان عميق: أسرقراطية حقيقية. كان الجو الطيب يحوطهم، طقس جاء وصاحي الجو نفسه الذي أحسته على حافة الصحراء، يحيط بهم في بساطة ولا يقتحمه. بدأ مثل أصدقاء متباعدين، مثل زائرين مارين بمكان؛ حياتهم الحرية الخالية تنظّرهم في مكان آخر غير هذا.

دخلت فتاة راقصة من أحد الأبواب، صعدت الدرج حتى الليوان. كانت في مقتبل شبابها، لا تتجاوز العشرين من عمرها، ذات جمال طاغ، ترتدي سراويلًا ضفاضًا من الحرير الشفاف في ثياب، وزوج من الأخفاف الذهبية بقدميها، وصرير موشة بما يشبه اللؤلؤ، لا يغطي ولا يخفي ثيبيها بقدر ما يرفعهما ويزيد من نفورهما وفورتهم، كانت تتتحرّك بإحساس من العظمة يحسه من اعتاد أن يكون موضع إعجاب ومرغوبًا: سارت همّسات الاستحسان والسرور بين الرجال عند رؤيتهم جسدًا للحفر الفائز بالحيوية والشباب وبشرتها المسودة في لون العج.

رقصت بمساحة مضاءة، إيقاع دخّل في إثرها، رقصة تقليدية تنمو بالإيماءات الدينية الموجبة وهي رقص يلقي إقبالًا في الشرق. رقص يثير كوابع الرغبات ويعد بتحقيق يهير الأفراح.

همس صديقى وهو ينظر باجاهها: «ما أجمل، ما أروى؟» ثم ضرب بكفه على ركبتي برفقة وقال: «أليست كالكاف الحانية على الجرح؟» وكما ظهرت بسرعة، اكتفت أيضًا بسرعة، لم يتبين منها إلا بريق خافث في أعين الرجال. احتل مكانها على البساط في الليوان أربعة موسيقيين. بعضهم من أفضل الغاردين في سوريا كما أخبرنى أحد الضيوف واحد منهم كان يحمل عودًا طويل العنق، وآخر كان يحمل طبلة، والثالث يحمل آلة القانون البترية، وكان الرابع مصري يحمل طبلة نحاسية. بدأوا في شد الأوتار ونقر

159
الطبل برقة، كل منهم على أثره دون توافق، كل منهم يضبط آله وإيقاعها قبل أن يبدأ العزف في إيقاع متناقص. أحدم صاحب القانون أصابعه على الأرباط، أما حامل الطبلة النحاسية فقد كان يقرر عليها بأصابعه ويتوقف برة ثم يعود النقر، وعازف العود راح يجري نغمات قرار كاتش الذمن في تتبع سريع، نغمات أوبرت بدت كأنها تتوافق بالصدفة مع إيقاع الطبلة ثم نغمات القانون وقبل أن تعت تمامًا ما يحدث، بدأ اللحن الجماعي يريد العازفين الأربعة معًا في لحن متناقص واحد، لحن؟ لا يستطيع أن أقول لحناً، فقد بدا لي أنني لا أستطيع إلى أداء موسيقى بقدر ما أشاهد، حدثًا مثيرًا. فعدا النغمات الصادرة من الآلات الوترية نما إيقاع جديد، يرتفع في دراوات حادة، ثم فجأة، يهبط وتتفاوت... مثل إيقاع ارتفاعان وانخفاضًا أداء معدنية، أسرع ثم أبطأ، أرق ثم أشد، هدوء ودوار، تنويعات لا نهاية، نعم يشي بالدوام، صوت يرتفع في سكر مقال، نمو، ويتواصل بقوة، يتحصم العقل، ثم فجأة وبعد أن يصل إلى قمة عالية من التناغم ينتهي ويسود صمت. أحست أنني وقفت في هوى تلك الموسيقى. شدتني النغمات التي كانت أحادية إيقاعها الظاهرة تستدعى إلى ذنم رابط وقوع وتكار الظواهر الأبدية في هذا الوجود. وتقو أبواب المشاعر الدفينة وتسيل منها خطوة بعد خطوة كل ما كان يموج داخلها دون أن نعيه... تعري أمامنا أشياء كانت داخلنا على الدوام وتجعلها واضحة حقيقية وحارة صادقة تدفع قلب إلى الخفظ.

كنت قد اعتدت بالطبع الموسيقى الغربية التي تتدفق فيها كل افتعالات المؤدي في أداء فردي يعكس على المستمع حالتة المزاجية، إلا أن تلك الموسيقى العربية تبدو كأنها تتدفق من مستوى ما في اللامعى، من توتر واحد إلا أنه ليس إلا توترًا، وبالتالي يمثل مزاج ومشاعر شخصية لدى كل مستمع على حدة...

بعد ثوان من الصمت، تندفعت إيقاعات الطبلة النحاسية من جديد، ثم تبعتها كل الآلات معًا، نغمات راقيه لطيفة، لحن أنثوى أرق من سابقه، وراح الالمل ومن ضبطوا أصواتهم في إيقاع واحد، يحتضن كل صوت الآخر برفقة ونعومة ثم كانتها اتحدت معًا في دفعة واحدة، راحته، وانهضت معاً، كانت الأصوات تلتحق بعضها، وتتدفق حول
بعضها في موجات ناعمة تتصادم في البداية مرة بعد أخرى، مع إيقاع الطبلة النحاسية الذي يبدو كحائط تتداخل على دقات الأصوات، إلا أن الأصوات تصاعدت فغلت الحائط وسّعته وسّعته طبقًا لإيقاعها هي وجرته إيقاع عأم حلويني متصاعد: أما الطبلة النحاسية التي قام في البداية فسرعان ما سقطت فرصة للهجوم العائلي من الأصوات المنشفة واتحدت في نشوة مع باقي الأصوات، وفقد لحن البداية التماور رقته النساوية وراح يعود بعنف متزايد، أسرع وأعلى، وأكثر حدة، إلى غضب بارد من عاطفة راحة تخلصت من كل الكوابح وتحولت إلى تصاعد متسلق إلى قمم غير مرئية من القوة والامتلاك، ومن تدفق النغمات الدائرة حول بعضها، انبثق تتابع عظيم من اتساق النغمات - اندفاع عجات متناقضة من ديمومة إلى ديمومة، دون قياس ولا حرص ولا هدف، مبهورة النفس، كالأسر متميزة على حد سكين، عبر حاضر المرء الأبدى، إلى وعي بالحرية والقوة، فوق كل فكر، وفجأة، في منتصف تدفق حميم: توقف مباغت وصممت مطلق. أمن، ونقي.

مثل خشخاشة أوراق الشجر، استعداد المستمرون أنفسهم، وهمسات مبهورة تسرى: «الله، الله»، كانوا مثل أطفال حكما عقلاء يلعبون ألعاب طفولة حفظوها عن ظهر قلب، إلا أنها ما زالت تغريهم بلعبها. كان كل من بالقوة يبسم في سرور ويهجة...

كتا راكبين، سائرين، وزيد يغلى: اللحن نفسه على الدوام، اللحن نفسه أحادي النغمة. روح العرب أحادية النغمة - لا بمعنى نفر الخيال والإبداع، فهم يحوّلون الكثير منه؛ إلا أن غزونته لا تمضى منطقة مثل غزونة الرجل الغربي خلف فراش ثلاثي الأبعاد ذي جوانب انتفاخية متعددة. أما الموسيقى العربية فتفكر في كل مرة عن رغبة واحدة أو انتفاخ واحد يحمل تجربة عاطفية أو معنوية واحدة إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه تلك العاطفة العلوية. وتدين الشخصية العربية بقوتها إلى أحادية النغمة هذه، برغبة حسية ترمى إلى تكثيف المشاعر في خط متصاعد مستمر. وتدين إليها أيضًا
 nềnطائها، وهي خطاً لأنه لا بد من المرور بالتجارب الشعورية في فضاء الأبعاد الثلاثية المجسدة بعيدًا عن المشاعر المجردة وحدها. كما تستمد منها قوتها: في الإيمان بإمكانية الصعود الخطي المضطرد للمعارف الانفعالية، والتي يمكن في مجال العقل لا تؤدي إلا لعرفة الله. لقد نما التوحيد على أسس من ذلك الميل الفطري المميز فقط لأهل الصحراء، وظهر أول ما ظهر بين العبرانيين المبكرين الأوائل، واكتمل برسالة محمد ﷺ المظفرة. ومن خلفهم جميعًا تثق الصحراء الأم.
الفصل الخامس

روح وجسد

1

مرت الأيام، وقصرت الليالي، ونحن نمضي راكبين باتجاه الجنوب في سير حثيث. كانت الإبل في أفضل حال. فقد شرعت الناقتان حتى الارتفاه وطبعا كميات وفيرة من الكلا والأعشاب. مازالا أمامنا أربعة عشر يوماً حتى نصل إلى مكة، وربما أكثر. إن أمضياها وقتاً أطول في حائض وفي المدينة من بعدها، وهم تقعان في طريقنا إلى مكة.

كانت قد سيطرت على حالة من افتقار الصبر: حالة من التعلم لم أدر لها سببًا أو تفسيرًا. فحتى تلك اللحظة كنت أتمتع بالرحالة في استرخاء نفسي، دون دوافع ملحية تدفعني إلى الوصول إلى مقصدي بسرعة; كانت الأيام والأسابيع التي أقضيها مترحاً تحقق إشباعًا محبًّا إلى نفسي، ولم يكن مقصدي يشكل الأهمية نفسها أبدًا.

بدأت الآن أشعر بما لم أشعر به خلال كل الأعوام التي قضيتها بالجزيرة العربية: تعجل بشفاف صرح الوصول إلى نهاية الطريق. أي نهاية لرؤية مكة؟ تضييت بمكة المكرمة قبل ذلك أوقاتًا طويلة، وأعرف حياتها اليومية بكل تفاصيلها، حتى إنها لم تعد تثير في نفسني أي إحساس يتوالى شيء جديد، أو أنه نوع جديد من الكشف أشعر به مقدمًا؟ لابد أنه كذلك. فمكة دائمًا ما كانت تجذبني بإحساس وتقع داخلي استشعره.
في نفسي، كما لو كان ذلك المركز الروحى للعالم الإسلامى، بتجمعاته البشرية القادمة من كل أرجاء الأرض، نعمًا من الوعد، بوابة مصرور إلى عالم أربب من الدنيا والعالم الذي عشتُ حتى اللحظة. لم يكن تجلى ونفاد صبرى يعني أننى سانتمي رملة الجزيرة العربية: كلا بالطبع، فانا أعيش صحرائها وبدنها، وشبعها وأسلوب حياتها كما أحبته، على الدوام قبل ذلك: فمنذ اللحظة الأولى التي رأيت فيها لأول مرة في صحراوى سيناء. من عشرة أعوام مضت بدأ من الجزيرة العربية، سكنت في قلبي حبهم ولم يهن، بعد ذلك أبدا، ثم أكلت الأعوام التالية انطباعاتها الأولى المبكرة: إلا أنه منذ تلك الليلة التي نزلت فيها البئر للاستحمام من يومين، نمت داخلنا قناة أن الجزيرة العربية قد وهبتنا كل ما يمكن أن تهب لي.

كنت مازلت شابًا، قوى البنية، وصحتى في أفضل حال، يمكنني ركوب الإبل لساعات طويلة دون تعب أو إجهاد. يمكنني أن أرتحل، وقد فعلت ذلك على مدى أعوام. مراعياً ظروف الصحراء، بنا خيمة وودين وسائل الراحة التي لا يستغني عنها أهل "مدينة" نجد، ويراين أنها ضرورية في رحلات الصحراء الطويلة على الإبل. أشعر كأنى في منزلى في رحلات الصحراء، اعتدت دون أن أشعر. عادات وتبادل عرب نجد، فهل ذلك ما أردته؟ هل عشت كل ذلك الزمن في الجزيرة العربية لأصبح عربيًا فقط؟ أم أن ما فات كان تحضيرًا وإعدادًا لشيء أجهله وسيماتى في حينه؟

* * *

كان افتقد الصبر الذي أشعر به يماثل افتقد الصبر الذي أحسسته عند عودتي إلى أوروبا بعد أول سفر لي إلى الشرق الأدنى: إحساس من أجبر على التوقف قبل وصلة من توصله إلى كشف عظيم سيسود عن نفسه الحامض أو أتيح لي مزيد من الوقت...

كان قد خفف من وطأة الانتقال من عالم العرب عائدًا إلى أوروبا بقائي لشهر في تركيا بعد أن غادرت سوريا في خريف عام 1942. لم يكن مصطفى كمال أتاتورك في
تلك الأيام قد بدأ حركته "الإصلاحية"، وكانت تركيا مازالت تحيا بكل تقاليدها الموروثة الأصلية، ولائمتها حتى ذلك الوقت إلى العالم الإسلامي كان نمط الإطار العام للحياة يمضي نفس الوريرة الغربية للحياة العربية، إلا أن إيقاع الحياة التركية الداخلي بدأ
أفتش وأشد وظيقة وأقل شفافية - وأكثر تأثيرًا بالقرب من البلاد العربية.

حين رحلت بطريق البر من اسطنبول إلى صوفيا وليلجارد لم يكن الانتقال فجائيًا من الشرق إلى الغرب؛ فالأشكال والصور كانت تتغير تدريجيا خلال ذلك الانتقال، ينقهقر عنصر من عنصر الحياة ليحل محله عنصر آخر بشكل مغاير ومتغير، فبعد شهر، بدأت مآذن المساجد تقل أعدادها وتزداد بينها السلاف، فقطن الرجال الطويل يختفي تدريجيًا يحل محلهم كلما انتهت غربًا. وقف في فتح حزام لمزارع شرق أوروبا، الأشجار المنتشرة ويساند الأنسجقال حل محلها غربات كثيفة في مناطق الصرب - حتى وصلت إلى حدود إيطاليا: فجأة وجدت نفسى في أوروبا.

بدأت انطباعاتي عن تركيا تفقد حيريتها، وأنا بالقطار المتجه إلى مدينة "تروست" إلى "فيينا"؛ أما ما ظل رامًا فهو الثامن عشر شهراً التي قضيتها في البلاد العربية، صدموني إدراك أننى كنت أتطلع إلى المشاهد الأوروبية التي اعتقد عليها بعينى من هو غريب عنها. بدأ الناس في نظرى في أغية القبع، وحركاتهم حادة خالية من الراحة، ولا علاقة مباشرة بين حركاتهم وما يريدونه ويشعرونه، أدركت فجأة أنه بالرغم من المظهر الذي يشى بالوفانية وإدراك الهدف في مساعيه، إلا أنهم لا يعون أنهم يحييون في عالم يصنعهم المستقبلي. انقطع لي أيضًا أن حياتي بين العرب غيرت منهجي ورؤيتى لما كنت أعدهما مهمًا وضرورة للحياة. تذكرت بشيء من الحيرة أن أوروبيين آخرين قد مروا بتجارب حياتية مع العرب وعايشوهم لأثمان طويلة: فكيف إن لم تعتبرهم دمها الاكتشاف كما اعتبرتي؟ أم أن ذلك قد وقع لهم أيضًا؟ هل أهتم أحدهم حتى أعماقه كما أنا عليه الآن؟

(لم أتوصل إلى إجابة عن تلك التساؤلات إلا بعد أعمام وأنا في الجزيرة العربية:

وقد أجوب على تساؤلتي الدكتور "فان دور فولن" سفير ألمانيا في جدة، وكان واسع

165
الثقافة والمعارف، ويعتبر بإيمانه المسيحي بانتشارها شديد وجوده بين الغربيين المعاصرين.

وهكذا، بالرغم من أنه لم يكن أخًا في الإسلام، فإنه اعترف لي أنه يجب الجزيرة العربية أكثر من أي مكان آخر عرفة، ولم يستثن من ذلك بلده الذي ينتسب إليه. وحين أشرفت خدمته بالحجاز على نهايتها، ذكر لي مرة أخرى: "أعتقد أن لا يوجد من يتصف بسلامة الحس ويظل مميزًا ضد سحر الحياة العربية، أو ينزع ذلك السحر من قلبه بعد أن يكون قد عايش العرب لفترة من الزمن، حين يغادر المرء المنطقة العربية سيحمل داخله دائمًا بيئة الصحرا، وينظر إليها من بعيد برغبة قوية وشوق. حتى لو كان يحيا في بلده الأغنية، والأجمل..."

توقفت لبضعة أسابيع في فينيا واحتفت بتصاححي مع أبي. كان قد تجاوز غضبه على لعدم إكماله دراستي الجامعية ومغادرتي منزل الأسرة بتك الطريقة الفجوة. على أي حال، كنت مراسل لجريدة "فرانكفورت نتوبن"... وهو اسم كان يلقى التقدير والتبجيل في وسط أوروبا في ذلك الوقت، وهذا حققت مصداقية في نظره فيما زعمت له قبل ذلك من أنني ستحقق ما أصب إليه و"أصل إلى القمة".

رحلت بعد ذلك من "فيينا" مباشرة إلى "فرانكفورت" لأقدم نفسى شخصيًا إلى الصحيفة التي كنت أمثلها بالخارج على مدى عام، كنت في طريقتي إليها، وإذا أخذت بنفسي، فالرسائل التي كنت أكتبها من "فرانكفورت" أظهرت لي أن مقالاتي كانت تلقى ترحيبًا وتقديرًا بالصحيفة. ويشعرن من وصل بنفسه إلى المكان الذي كان فيه اسمًا فقط خطوط داخل ذلك الصحرى الفضي العريق المثير في طرابزه العمان، أرسلت بطاقتي إلى رئيس تحرير الجريدة، وكان وقتها الدكتور "هنريك سيمون" الذي كان مشهورًا في أرجاء العالم.

حين دخلت مكتبته، تطلعني بدهشة دون أن يتوقفه بكلمة، حتى إنه نسي أن ينهض من مقعده، إلا أنه تمالك نفسه بسرعة، ونهض ليصافحني قائلًا: "الجنس، أجل، كنت أنتظر وصوتك"، لكنه استمر بعد ذلك في التطلع إلى في صمت حين بدأت أشعر بعدم الارتياح. قلت: "هل هناك خطا ما يادكتور سيمون؟".

166
رد بسرعة: «كلا، كلا، لا يوجد أي خطاً - أو على الأصح، كل شيء خطأ!» ثم ضحك وأردت قائلة: «توقعنا أن نساقبل رجلاً في منتصف العمر بوعينات ذات إطار ذهبي - والآن أجد أمامي صباحاً أوه، اغترني; ما عمرك على أي حال؟».

تنكرت فجأة ذلك الهولندي المرح الذي التقته في القاهرة وسألت السؤال ذاته من عام مضى: فضحك وقتها: «أنا أريو على الثالثة والعشرين يا سيدي - كدت أتم الرابعة والعشرين»، ثم أضافت: «هل تجد أنني أصغر مما يجب للعمل في فرانكفورتر ذيتونج؟».

أجاب سيمون ببطء: «كلا، ليس لفرانكفورتر ذيتونج، ولكنه سن صغير بالنسبة للمقالاتك. لقد كنت أوقن أن الرجل الناضج وحده هو الذي بإمكانه أن يقهر ذاته ويجعل شخصيته وإرادته الشخصية، كما فعلت عند كتابة مقالاتك. إن ذلك كما تعلم هو سر الصحفي الناجح والناضج: أن يكتب بموضوعية عما يراه ويسمعه، ويفكر دون أن يخلط كل ذلك مباشرة بخبراته وإرادته الشخصية والذاتية. من جهة أخرى، وهذا الأمر ورد إلى ذهني الآن، فالشاب الصغير هو الذي يكتب بذكاء الحساس الذي وجدته في مقالاتك، وكذلك القدر من الإثارة والتشويق... ثم تتهد وأردت: «أتمتني لا تتأكل تلك الروح وألا تصبح من المتعالين ولا من المنتهكين مثل باقي الكتاب...».

ويبدو أن الدكتور «سيمون» قد وجد في صغير سن ما قوي من إثارة أنتي مراسل صحفي واعد ومثير، فوافق بحماس على عودتك إلى الشرق الأوسط بسرعة قدر ما استطعت. وكما كانت عودتي أسرع كان أفضل. أما من جهة التمويل، فلم يعد هناك عائق، فقد تم التغلب على التضخم المالي الألماني، وأدى ثبات قيمة العملة الألمانية إلى انتعاش اقتصادي وأصبحت الصحيفة في وضع مالي يسمح بتمويل مراستها في بلد العالم.

قبل أن أرحل من جديد، كان لابد أن أنتهي أولًا من الكتاب الذي تعاقدت مع الجريدة على كتابته.
وإلاً رغم من نفاد صبرى وتطلى إلى العودة إلى الشرق الأوسط، فإن الشهور التي قضيتها بمدينة "فرانكفورت" كانت فائقة الروعة. لم تكن "فرانكفورت نيتنجي" مجرد صحفية كبرى، بل كانت أقرب إلى مركز أبحاث. كان يعمل بها تغذرين كامل خمسة وأربعون محررًا، عدة نواب التحرير ومساعدي تحرير الأخبار. كان العمل التحريري في الصحيفة شديد التعقيد، كل منطقة من العالم لها مختصوها.

وكل موضوع سياسي أو اقتصادي عالمي أو محلي يسند إلى المحترف: كان ذلك ناجح تاريخ طويل من الصحفية التي جعلت من مقالات ورسائل الصحيفة أقرب إلى التوقيع العربي أكثر من كونها انعكاسًا إخباريًا يوميًا للأخبار، لذلك اتخذها السياسيون والمؤرخون كمصدر موثوق يعتمدون على أخبارها وتحليلاتها بمصداقية ودقيقة. واعتماد عليها. وكان من المعروف أن مكتب الصحيفة في برلين يؤيده ببعض من اللعاب والمذكرة التي يتم تسليمها إلى الحكومة الأخرى (نقل عن بسمارك أنه قال ذات مرة عن مدير مكتب الأخبار الخارجية في برلين: "يودنيش وهو يوجه هذه達到يه "دكتور شاتين سافير فرانكفورت نيتنجي في بلاط برلين.

وأن يكون عملاً عملاً في مثل تلك الصحيفة، كان مصدر فخور واعتزاز لشاب في سن، وعلى الرغم من أن مقالاتي عن الشرق الأوسط قد قوبلت باهتمام شديد من كل المحررين وغالبًا ما كانت موضوعات اجتماعات التحرير اليومية، فإن نصري الكامل تحقق في اليوم الذي كلفت فيه أن أكتب مقالًا افتتاحيًا بالصحيفة عن مشكلة الشرق الأوسط.

* * *

كان من نتائج عملي في جريدة "فرانكفورت نيتنجي" النضج المبكر لتفكرى الواقع كما نتجت عنه رؤية ذاتية أكثر وضوحاً من أي وقت مضى في بدأت في مزج خبرتي بالشرق بعالم الغرب الذي أصبحت جزءًا منه من جديد. فمن شهر عديدة مضت اكتشفت العلاقة بين الأطهار النقدي والعاطفي السائد في نفوس العرب وبين عقيدة الإسلام التي يؤمنون بها، كما بدأ يتبلور في مقتني أن نقص
وتتفق التخلص النفسي الداخلي للإثريين وحالة الفرضي الأخلاقية التي تسمر عليهم قد تكون ناجحة عن عدم وجود إيمان ديني وقد تكون الحضارة الأثريون الحديثة في غيابه.

كان المجتمع الأثريون الذي أراه يبحث عن إيمان رحيل جديد بعد أن ابتعدوا عن طريق الزيب والإيمان به وكان قليل من الأثريون من يدرك ذلك. أما الأغلبية فقد كانت تمضى بوعي أو بلا وعي في إطار فكري يتلخص في التالي:

«حيث إن السببية، وتجارب العلم، والحسابات العقلية، لا تتوصل بعد إلى إثبات على محدد عن أصل الحياة البشرية ومصير البشر بعد الموت؛ فإننا لابد أن نركز كل طاقتنا في التطوير المادي وتطوير إمكانيات العقل البشرى ولا نتفاخم لموصي الله الروحي والدينى فوق عالم المادة والمسائل الأخلاقية المعتمدة على فرضيات تتناقض مع البرهان العلمي». وهكذا، في الوقت الذي لم يفكر فيه المجتمع الغربي في وجود الله، لم يترك له مكانًا في إنسانه الفكري. في الأعوام المبكرة من شبابي أصابني الإحباط وخيبة الأمل في العقيدة اليهودية التي أمتني إليها، واتجه فكرى إلى المسيحية بعد أن وجدت أن المفهوم المسيحي للإله يتميز عن المفهوم التوراتي؛ لأنه لم يقصر اهتمامات الإله في مجموعة معينة من الناس ترى أنها وحدها «شعب الله المختار»، ووجدت أن الإله في المسيحية يضفي ألوهته على كل البشر. وعلى الرغم من ذلك كان هناك جانب من الفكر المسيحي قلل أيضًا من إمكانية تحقيقه وصالحته لكل البشر، إلا وهو التقييم والتمييز بين الروح والبدن، أي بين عالم الروح وعالم الشؤون الدينية وسبب تنائي السياحية المبكر عن كل المحاولات الإصلاحية التي تهدف إلى تأكيد أهمية القصد والأغراض الدينية، كفت من قرون طويلة عن أن تكون دافعًا أخلاقيًا للحضارة الغربية، وسادت فكرة أنه ليس من عمل الدين عامل ملتف، فالقصص منه تقوية وتغذية الإحساس الفاضح بالأخلاق خصوصا السلوكيات الجنسية لدى الذكور والإفرات، ما أدركه الموقف التاريخي المتتبع للكنيسة على ترسخ ذلك الاتجاه في التفكير بين ما للإله وما للفكر» ونتج عن ذلك الفصل تترك الجانب الاجتماعي والاقتصادي يعاني.
من فرغ الله، وما ترتب على ذلك من غياب الأخلاق في الممارسات السياسية
المسيحية والمعاملات الاقتصادية مع باقي دول العالم. وتمثل ذلك فشلاً في تحقيق ما
هدفت إليه رسالة المسيح، أو أي دين آخر، فالهندو الجوهري لأي دين هو تنفيذ البشرية
ليست فقط كيف يدية ويشروكون بل الأمهر كيف يعيشون معشية صحيحة وينظمون
العلاقات المتبادلة بطريقة سوية لا غين فيها، وإحساس الرجل الغربي أنه قد خذل
الدين فقد كرده فعل عبر القرون كل إيمان به المسيحية. ويفقد إيمانه، فقد اقتناه بأن
الكون والوجود تعبير لقوة خلق واحدة وأن الواقع وحدة عضوية واحدة، ويفقد تلك
القدرة، عاش في خواء روحي وأخلاقي.
كان احداث الغرب التدريجي بعيداً عن المسيحية مظهرًا من مظاهر
التمدد على نمط الحياة الذي فرضه بولا كارلسون الذي أخبر في وقت مبكر
من المسيحية كل تعاليم المسيح الحقيقي، كيف يظل العالم الغربي مدعويًا أنه
عالم مسيحي؟ وكيف يأمل بلا إيمان، أن يتغلب على الفوضى الأخلاقية المعاصرة التي
يتغير فيها؟
عالم يعاني من غياب وتهلكات عنيفة: هذا هو عالمنا الغربي. إرقة دما، عنف
ينتشر على نطاق واسع، تدمير وانهيار قيم إنسانية كثيرة، صدامات بين النظريات
والمقدسات والممارسات، صراعات وحروب مريرة لإيجاد سبل أخرى للحياة: كلها
علامات بارزة في حياة الغرب المعاصرة. ومن بين دخان مجارب الحرب العالمية الأولى
نشبت حروب أخرى أصغر بأعداد لا تحسب، وثورات، وثورات مضادة، ومن بين
الكوارث الاقتصادية التي جرفت كل شيء، تبين أن تركيز العالم الغربي على المادة،
والتقديم التقني لا يجل، ولا يفضي إلى حلول للفوضى القائمة.
كان اقتناه في شبابي الكبير أن الإنسان «لا يحيا بالخبز وحده» قد تبقى إلى
اقتناع فكرى بأن عبادة «التقدم» المادي ليس إلا بديلًا شبحيًا للإيمان السابق القديم
بالقيم المجردة، وأن إيمان الزائف بللمادة يجعلهم يعتقدون أنهم سيفهمون كل
المصاعب التي تواجههم حاليًا. كانت كل النظام الاقتصادي التي خرجت من معطف
المادة علاجًا مزيجًا ومخادعًا ولا يصلح لعلاج البؤس الروحي للغرب: كان بإمكانهم في أفضل الحالات شفاء بعض أعراضه، إلا أن من المستحيل علاج سبب العلة.

في الوقت الذي كنت أعمل فيه مع هيئة التحرير لصحيفة "فرانكفورتر نيتونج" قمت بزيارات كثيرة إلى برلين، حيث كان يقيم أغلب أصدقائي، وفي واحدة من تلك الزيارات التقت بالسيدة التي ستصبح زوجة لى بعد ذلك من اللحظة التي قدموني فيها إلى "إيزا" بمقهى "رومانسكى" انجبت إليها بشدة، لا بسبب جمالها الرقيق - كانت ذات وجه دقيق، رقيقة الملحم، وعينها حادة ذات لون أزرق عميق الزرقة، فم رقيق عطوف - بل ما يزيد على ذلك من حسد داخلي صادق وحسن تحمي وتوقع للأمور والناس والواقع. كانت رسامة، لم تكن أعمالها تميزة بين نوى الأعمال الفنية، إلا أن تلك الأعمال كانت تحمل صفاءً شديداً مثل ما كان عليه فكرها وحديثها.

على الرغم من أنها كانت تكبرني بخمسة عشر عاماً - كانت في أواخر الثلاثينيات من عمرها - إلا أن وجهها الرقيق، وبدنها النحيف في مرنة، كان يعطيان انطباعاً لن يراه أنها أصغر عمراً.

كانت خير تمثيل للجنس الإسكندنافي، وليتها كل صفاهم، كانت سلالة إحدى أسر "هولشتاين" العربية وهي من أسر شمال ألمانيا العربية، وتوازي في نبل المحتد الأسر البريطانية العربية التي خدمت التاج البريطاني، إلا أن نمت حياتها الحر جعلها متحررة من تقاليد تلك الأسر. كانت أرملة وكان لها ابن يبلغ السادسة من عمره، كرست كل حياتها له.

ويبقى أن الإحباط كان متبادلًا من أول لقا، فبعد تعاوننا الأول أصبحنا نلتقي بعد ذلك كثيرًا، ولأنى كنت محتاجًا بانطباعاتي عن العالم العربي، فقد نزلت إليها تلك
الانطباعات: ويعكس أغلب أصدقائي، أظهرت تفهمًا غير عادي وتعاطف، حتى إنني عندما كتبت مقدمة لكتابي الذي أصف فيه رحلتي إلى الشرق الأوسط، أحستست وأنا أكتب تلك المقدمة أنني أقدم نفسي إليها: كتبت في تلك المقدمة:

"حين يرحل الأوروبي إلى دولة أوروبية أخرى لم يرها من قبل، فإنه يمضى في بلد مختلف وقد يلاحظ بعض الاختلافات والفروق في بعض الجوانب، وبغض النظر إن كنا ألمانيا أو إنجلترا، وبغض النظر إن كنا نزور فرنسا أو إيطاليا أو المجرب، إلا أن الروح الأوروبية، روح الحضارة الغربية توحدنا جميعًا: فنحن نحيي داخل إطار محدد تمامًا من التماثل، ويمكن أن يفهم بعضنا البعض كما لو كنت نتحدث لغة واحدة. وتطلق على تلك الظاهرة "البيئة الثقافية الواحدة" وهي ميزة بالطبع، إلا أنها تعد غريبًا في الوقت نفسه: لأننا نجد أنفسنا أحيانًا مغمورين في تلك الروح المشتركة كما لو كنا مقيمين في ضمادات من القطن: وأن تلك الروح تهددوننا ما يهدد الطفل قبل نومه، مما يبعث على خمول القلب ويدفعنا إلى نسيان وتناسى المسيرة التي خضناها في العصور الغابرة. تلك الأزمة الخلاقة القديمة، والتي بُرِثت على أوروبا بعد واقع لم تكن فيه أوروبا شيئًا. أما الرجال الذين أخذوا على عاتقهم تلك المهمة الصعبة، سواء كانوا المكتشفين أو المغامرين أو الفنانيين المبدعين - فإنهم كانوا يبحثون جميعًا عن النابيع الداخلية المفيدة في أعمالهم. ولنهاج سلامتهم العمليات ونبحث أيضًا عن حياتهم، إلا أننا ميلونين بالخارج، التي تدفعنا إلى تأمين حياتنا دون أن نصل إلى أطلالها وأعمالها، ونشعر أن هناك خطوة تمكن في مثل تلك الدوافع والمقاصد. لقد بدأ بعض الأوروبيين يشعرون الآن بالخطر المترتب على تجنب الخطر. في هذا الكتاب أصف رحلة إلى منطقة "الاختلاف" عن أوروبا كبيرة، حتى إنه لم يكن تجاوزًا ولا اجتيازًا، وهو اختلاف يقترب بشكل ما من حد الخطر. والخطر ناجم عن تركنا أمان بيننا الوحدة، التي لا نجد فيها ما يثير ولا ما يهدش، ونخوض غرابة أخرى لعالم "آخر" مختلف. دعونا لا نخدع أنفسنا: فقد ذلك العالم "الآخر" قد نظهر بعض التقدم لهذا أو ذاك من الانتباهات عن أمورنا أو تصادفنا هناك، إلا أنه لا يمكننا - بعكس ما يحدث في دولة غربية - أن
نتفهم بوعي الصورة الكلية. ما يفصلنا عن ذلك العالم للآخر ليس المسافة الجغرافية وحدها. كيف نتواصل معهم؟ لا يكفي أن نتحدث للفتتم؛ وحتى نتفهم ما يشعرون به تجاه الحياة لابد للمرء أن يدخل بينهم بكامل وعيه وإرادته وحيانا في تجمعاتهم. هل هذا ممكن؟

 بل هل هو ممتع؟ قد تكون صفعة سيئة أن نستبدل بعاداتنا التي اعتدناها من أنشاغا فكرية فكرًا غريبًا غير معروف لنا.

 ولكن هل نحن مستثنؤون في هذا العالم؟ لا أعتقد ذلك.

 فإحساسنا أننا مستثنئون يركز أساسا على خطأ يكمن في طريقتنا الغربية في التفكير. فنحن نميل إلى التقليل من أهمية القيم الخلاقة من لاحترامهم كما نميل إلى السلوك العدوانى تجاههم. كثيرون منا بدأوا يدركون أن المسافة الثقافية والفرق الحضارية يمكن التغلب عليها بوسائل أخرى غير الاغتصاب الثقافي؛ إذ ربما يمكن التغلب على ذلك التغيير الثقافي بتسليم حواستنا إليه.

 ولا أن ذلك العالم للآخر الغريب يختلف كلية عن كل ما عرفناه في بيننا. فإنه يفاقكه أحيانًا إذا أظهرناه الاهتمام والانتماء الكافيين، وينزعنك يأتيك معروفة من أجل كما هي منسية من أجل. إلا أن تلك الحقائق المنوية تصل إليك من خلف الهاوية الفاصلة مع أنفس الانتزاج. في هذا الموضوع أؤكد على أهمية معرفة الآخر، أما بالنسبة لى فإن معنى التجوال وأهميته يكتنان في إيقاظ لوبي على هناك عاملًا آخر من حولنا، وأن عينا بوجوده يزيد من إيقاظ وعينا بواقعنا الشخصي وال),$...".

 ولأن "الإزا" قد فهمت تخمينًا ما حاولت قوله وإن لم يكن بوضوح كامل، مثل من يحاول تبين معالم شيء في الظلام، وإن لم أتمكن من إيضاح ما يعترف في ذهني في تلك المقدمة المتلعة، فإنها كان لدي إحساس قوي أنها - هي وحدها - تستطيع أن تفهم ما أسى إليه، وإن تساعدنى على البحث عنه.
مر يوم آخر من أيام الرحيل، صمت داخلي يسيطر علىّ وصمت الليل الخارجي يحويته. الرياح تزحلق ببرودة فوق كثبان الرمال فتنسحب الرمال الناعمة على منحدراتها. بدء هيئة نزول على ضوء دائرة النور المنبعثة من النار التي أشعلها، كان مشغولاً بانتباهه وأدوائه، الخروج مكوبة بالقرب منه حيث حضننا الرحل، بجوارها سروع الجبال بستاداتها الخشبية العالية. وراها بقليل، تبرك ناظرتنا بعد أن عقلناها، منهجتين بعد مسيرة النهر طويلة، عتقاها ممتدة على الرمال، إلى أبعد منهما بقليل. تبدو الصحراة في غياب وضوء تحت ضوء النجوم الشحيح، إلا أنها رغم ذلك قريبة منك بَحَفْقَات قَلِيقَ.

صحارى العالم كثيرة، إلا أن هذه الصحراة هي التي يمكن أن تشكل وجدانك، في مشاقها ومصادها، واعتمادها، تزفع منك الصحراة يغيبك في فهم الصغائر، وتنزع عنك كل الأوهام التي تدفعها الطبيعة وتتسر بها ذهن البشر وتدفعهم إليّ تكوين تصورات خاصة تبعد عن الحقائق الكلية. أما الصحراة فجرد، ووضوحية، ولا تعرف المصالحات. تمر من قلب المؤر رغبته في متع الحياة وتحوله إلى أشكال مزيجة واضحة، وبدلاً تحرر المؤر وجعله يستسلم للمطلق في جوهره لا في صوره، ذلك المطلق الذي هو أبعد من كل بعيد، إلا أنه أقرب من كل قريب.

منذ أن بدأ وميّز البشر في التكون، كانت الصحراة مهد كل إيمان بالعالم الواحد. حتى في المناطق المعقدة الأطبوب متأخراً والطفيل طفلاً، كان الإحساس الغامض يوجه ووحدانته بهيمنان على ذهن البشر، ظهر ذلك في الفهم الإغريقي القديم عن «موريا» فكرة غير محددة ممثاني من ألهة جبال الأولمب، إلا أن الفهم لم يزد على كونه مشاعر مبهمة غير متبلورة إلى مفهوم متكون، إحساس بالأنوثة أكثر منه معرفة بعينية، حتى تفجّرت المعرفة ببقين متولوين بين سكان الصحراة وفي قلب الصحراة، انتبى اليقين من علية متولجة في صحراء ميداني ومنها اتبعت صوت الله إلى كلامه موسى؛ كما انتبى من صحراء الأردن التي تلقى فيها المسيح رسالة مملكة.
الرب؛ وابتثقي البقين من غار "حراة"، في تلال الصحرا بالقرب من مكة، حين نزل أول
وحي على محمد، ابن الجزيرة العربية.
نزل عليه في ذلك الممر القاهل الملفق بين الجبال الصخرية، في ذلك الوادي المأري
الذي أحرقته شمس الصحراء. نزل عليه ليصبح مفهوم ويقدم إجابة صريحة واضحة
بالإقبال على الحياة بالروح والجسد: رسالة أعطت شكلًا وتوضيمًا وهدفًا لأمة كانت بلا
شكل وقبائل شتى متفرقة. بذلك المفهوم انتشرت الرسالة في بضعة عقود مثل الوعد
والوعد حتى أقصى الغرب على مشارف المحيط الأطلسي وإلى الشرق حتى سور
الصين العظيم؛ نزلت الرسالة لتظل قوة روحية عظيمة حتى اليوم بعد ثلاثة عشر قرنًا.

* * *
أغفو واستيقظ، أفكر فيما خلا من أيام إلا أنها لم تمت: أغفو من جديد وأحلم، ثم
استيقظ من جديد وأجلس. فيتدفق العلم مخلطاً بذكريات في وعي مابين يقظة وغفو.
كان الليل قد اقترب من نهايته، والنار خمتة؛ وزيد ملتحف بملحفته ويفت في
النوم؛ وجعلتني مقعيان بلا حركة مثل مرتفعين من الأرض، النجوم لم تختف بعد، يتابع
إحساس أنه مازال هناك وقت النوم، إلا أن ضوءًا شاحبًا ويدًا ظهر في الأفق الشرقي،
خطوط ومروق من الضوء الواضح خط فوق آخر، تخلت بعوائق الظلام في شرق الأفق،
إنه تبشير الفجر، وحان وقت صورة الفجر.
في رواية سائلة من صفحة السماء رأيت نجمة الصباح التي يسميها العرب
«الزهيرة»، أو النجم الأبيض. إن سألتهم عنها سيعقولون كأن «النجم الأبيض» أو
«الزهيرة» كان في سالف الزمان امرأة...
يقولون إنه في سالف الزمان كان هناك ملكان، هما هاروت وماروت، نسياً فضيلة
التواضع التي ينبغي ألا ينساهما الملائكة، وتباهياً بنقاطهما الذي لا يمكن توحيه، كانا
يقولان: «نحن مخلوقان من النار، فوق الخطايا والذنوب والرغبات، بعكس أبناء البشر

175
ضعفاء الإرادة، أبناء الأرحام المظلمة، إلا أنهم تناسياً أن نقاها لا ينبع من إرادتهم، وأنهم صالحان لأنهم خاليان من الرغبات والشهوات، وبالتالي لم يطلب الله منهما أن يقاوموا ما لا يشعرون. لم يرض تباهياً وتكيرهما ريهم الذي خلقهما. فقال لهما: "هبطنا الأرض واختارنا نقاها وقوة إرادتنا فيها". هبط الملائكة المباهيان إلى الأرض وراحما يسيعيان في مناكبها وهما في صورة بشريّة بين أبناء البشر. في أول ليلة لهما على الأرض مراً بأمارة ذات جمال يخيب الألباب حتى إن الناس كانوا يسمونها "المائدة". حين تطلع إليها الملائكة يعين البشر ورغبات البشر، أصابتهم حيرة وبليلة، مثل أبناء البشر التهبت رغبتهم في إتيانها. قال كل منهما لها: "أشتهيك انتجبي". إلا أن المرأة المشتقة قالت لها: "هناك رجل أتمنى إليه، إن أردنتى كان من أهلياً. فذبحا الرجل، وحين كان دم الرجل مازال يقطر من أيديهما، أتياهما وأشبعا رغبتهم ووجدوا الذي كان مشتلاً، ولكن بمجرد أن انطفأ وهم رغبتهم، بدأ الملائكة الأرضين يعينان أن في أول ليلة لهم على الأرض أقروا كبيرين. هما القتل والزنا، وإن افترحوا بنائهما ليمكن له أي ممّا مادما خاليين من الرغبات. قال الله لهم: "اختاراً ما بين العاقب في الحياة الدنيا أو العاقب في الآخرة"، في مرآرة ندمهما أختار الملائكة الساقطين عقوبة الحياة الدنيا: فحكم الله عليهم أن يعلقوا في سلاسل ما بين السماء والأرض، وأن يظل معلقين حتى يوم الدين كتحذير للملائكة والبشر من أن كل فضيلة تمر ذاتها إذا خلت من التواضع، ولكن لأن عيون البشر لا ترى الملائكة، حول الله المشتقة إلى نجم في السماء إياها البشر ويتذكرون القصة، ويتذكرون مصير هاروت وماروت.

ويعود الإطار العام للأسلوبية إلى زمن أقدم من زمن ظهور الإسلام، ويبدو أنها مستمدة من أساطير أقدم نسجها الساميون حول ربتهم "عشتار". ثم نسبها الإغريق حول ربتهم "أفيروديت"، ونسبت الأثيان، عشتار وأفيروديت إلى الكوكب الذي تعرفه اليوم باسم الزهرة. أما القصة بالشكل الذي سمعتها به، قصة هاروت وماروت، فهي ليست إلا من نتاج الفكر الإسلامي، وهي تصوير لفكرة أن النقاء الخالص، أو الخلق من النزوب والعاصي، لا يحمل أي قيمة أخلاقية مادم ذلك النقاء موجودًا في غياب النواقش والرغبات والشهوات. فالاختيار بين الصواب والخطأ يتطلب وجود منطقة أخلاقية.
لم يدرك هاروت وماروت ذلك، فهما كملاكين، لم يتعرضا أبدًا للإغراء والإغواء، اعتبرا نفسهم تقيان نقيان أكثر من البشر. ولم يتحفظا أو يدركا أن إنكار «مضروبية» الاحتياجات وإشباع رغبات البدن يتبعه بشكل مباشر ويتربت عليه إنكار كل القيم الأخلاقية في المقاصد البشرية: في الإحساس بالاحتياج وفي وجود الإغراء والإغواء. إشباع ذلك الاحتياج ينشأ الصراع الذي يضع البشر في موضع الاختيار والاختيار الأخلاقي: أي أن البشر وجود وكيانة أخلاقية، إلا أنهم وهما روحًا.

على أساس من ذلك المفهوم، كان الإسلام وحده من بين كل الديانات السماوية الذي اعتبر روح البشر أحد جوانب وجوده وأنها ليست مكونًا مستقلًا بذاته، وبالتالي لا ينفصل النمو ولا السمو الروحي للمسلم عن أوجه وجوده الأخرى أو وجوده الدنيوي.

لذلك اعتبر الإسلام الرغبات الجسدية جزءًا متكاملاً من طبيعة خلق الإنسان، وأن تلك الرغبات ليست وليدة «الخطيئة الأولى» وهو مفهوم يتناقض مع مفاهيم المسيحية. بل إن رغبات البدن مكون إيجابي، خلقها الله في البشر لكي يقبلوها ويعارضوها في أوجهها الصالحة: ومن ثم، فمشكلة البشر ليست في كبت احتياجات الجسم، بل على الأصح، في كيفية توظيفها في شكل يتكامل مع مطالبته وتزامنه الروحي، وبطريقة تجعل من الحياة حياة كاملة وصحيحة.

ويظن الإسلام أن جذر المبدأ التوحيدى الوجود لدى البشر موجودة بالفطرة البشرية بعكس المفهوم السببيحي الذي يرى أن الإنسان يؤد وهو يحمل ذنب «الخطيئة الأولى»، ولكمس التعليم الهندوسية أيضًا التي ترى أن البشر بطبيعة خلقهم أدنياء ومذنبين، ولابد لهم أن يعاقوا بكل عت ومعاناة عبر سلسلة طويلة من التجسد وحلول الروح في كائنات مختلفة حتى تحقق هدفها النهائي للوصول إلى الكمال، أما في القرآن، فيقول الله جل شأنه: «أَلَكَ خُلقُوا الإنسانَ فِي أَحْسَنِ تَوْفِيقٍ» والتقديم ليس إلا حالة من النقاء لإيجادها ولا ينسوها إلا السلوكي السيء للإنسان —«فَمَّا رَفَعَهَا أَسْفَلُ سَفَلَينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ.» — 177.
لاحظت أمامنا بساتين نخيل "حائل"، وتجمعات بيوتها من بعيد، توقفنا
عند مشارفها بجوار أنقاض برج مراقبة قديم حتى نهيي أنفسنا لدخول المدينة،
فالعادات العربية لا تهون أبداً جوانب المظهر الجمالي للفرد، ويستدعى ذلك من المسافر
والمرحل أن يدخل أي مدينة يقصدها وهو في أبيه جلالة، متعشى ونظيف وكأنه بالكاد
ركب ناقة غير مرتقب ولا أشعث. استعملنا كل ما تبقى من ماء في غسل أيدينا
وجوهنا، وتشذيب ما تشبع من لحانا، وأخرجنا من الخروج النحاس ملايسنا بيضاً.
أزعنا بفراشتنا ما تراكم على العباءات من رمال خلال أسابيع السفر وما علق من رمال
بشرابات الخروج ذات الألوان البهية ووضعنا على الجمال أجمل السروج، وكذا، هيانا
أنفسنا الدخول إلى مدينة "حائل".

"حائل" مدينة عربية خالصة، دعنا نقول أكثر من بغداد بل حتى من "المدينة" فهي
لا تحتوى على أي عنصر من شعوب غير عربية، ندية في عدرية ونقاء الألوان اللطيفة
لتوها. لا تلتوي زياً أجنبيًا في أسواقها، لا تجد بالمتاجر إلا الأزياء والعباءات العربية،
والكوفية والعقال. شوارعها أكثر نظافة من أي شوارع مدينة عربية - بل حتى أنظف
من نجد مشهود بنظافتها الفائقة عن مدن الشرق. البيوت مشيدة من قوالب الطين
المجفف، لا تجد منها حائطًا متهدمًا باستثناء ركام أسوار المدينة التي تشهد بآثار
الحرب الأخيرة بين ابن سعود وبين ابن راشد، وانتصر فيها ابن سعود وغزا مدينة
حائل عام 1921.

كانت بقات مطارق صائفي النحس المتهمكين في تشكيك أنواع الأئية تتصاعد،
ومناشير التجارين تأكل الخشب في شراحة، والإسكافيون يدقون النعال والأخفاف،
جمال محملة بحطب وقرب السمن تسح طريقها في الزحام، وجمال كثيرة أحيزها
بعد الصحراء لبيعها وراحت تملأ الطرق بهديها، أكواب من خروج الجمال المزينة
والمركبة بالوان زاهية آتية من "الحسا" والأيدي الخفيفة تتفحص جودتها، وبداعة
الجاثلون الذين يكونون مشهدًا متكئًا في كل المدن العربية، يتحركون في السوق جيئة
وذهاباً، يعرضون ما يبيعون بأصوات عالية، هنا وهناك ترى صور الصيد تتفاقم فوق مجامعها الخشبية ومقديمة إليها بحب رفيعة من الجبل. وإلى جوارها كلاب صيد من فصيلة السلوقي تتمطى في الشمس بآطرافها طويلة. يبدو نحاو الأبدان في عباءات فضفاضة، خدم في أزياء نظيفة وحراس الأمير — كله تقريباً من جنوب الجزيرة — يختارون بتجار من بغداد والبصرة والكويت وأبناء حائل — أبناء حائل أولئك — من الرجال فقط، فنادراً ما تظهر النساء بعباءة تحت السواء التي تخفي الرأس والبدن — ينتمون إلى أجيال أجناس الأرض، فكل سمو الحركة وجمال المنظر لدى العرب يتجلى في أنتقى صورة في أبناء قبائل شمار، الذين قال عنهم شاعر جاهلي ما معناه: «في الشدائد رجال من صلب، وفي الخنور نساء من عفة».

وصلنا إلى حصن الأمير حيث انتظينا أن نبقى يومين، وجدنا مضيفنا يعقد مجلسه في العراء أمام باب الحصن، كان الأمير ابن مسعود ينتمي إلى فرع الجلويين من قبيلة ابن سعود وكان شقيق زوجة الملك واحده من أقوى الحكام الذين عينهم الملك على الولايات كما كان يسمى «أمير الشمال» لأنه لم يكن حاكمًا على مناطق جبال شمار وحدها، بل كل شمال منطقة نجد حتى مشارف سوريا والعراق، وهي منطقة تبلغ مساحتها مساحة فرنسا على وجوه التقرب.

كان الأمير (وكان صديقًا لي من زمن طويل) يجلس مع عدد من الشيوخ قبائل الصحراء على مصاطب من الحجر أسفل جدار الحصن، وأمامه على الأرض جلس صف طويل من «الرجاجيل» مسلمين بالنبنائ والسيوف المحدثة في أغمة فضية، لا يتركونه طوال اليوم، لا لحمايته بالطبع، ولكن دلالة على التفوذ والبيبة، ولي الرجاجيل حملة الصقر حيث تقف على أيديهم المغطاة بقفازات جلدية سميكية يليهم خدم أقل شأنًا، ثم البدو وجماعات من ساسة الجبال، حتى غلامان مرتبين الجبال — كلهم متساوون كرجال بالرغم من اختلاف وظائفهم ومراكزهم. وكيف يكون الأمير غير ذلك في بلاد لا يوجد فيها الحديث لأي رجل مهم مما يمكن وضعه بلقب «سيدى» حيث لا سيادة إلا له؟
كان الأمير يجلس مواجهًا البدو الذين جلسوا القرفصاء على الرمال في نصف دائرة واسعة وقد جاوا ليحكم الأمير بينهم في خصومات ونزاعات من كل لون.

أنختنا الجمال خارج الدائرة، وتركناها في رعاية ساحة الجمال الذين أسرعوا إليها، تركنا وتقامنا باتجاه الأمير. نهض الأمير ونهض معه كل من كانوا يجلسون جواره وكذلك من كانوا أمامه على الأرض، ومد يده إلى مصافحة وهو يرحب بنا: "أهلاً وسهلاً، طال عمركم"، قبل الأمير على قمة أنه وجبهته، وقبلنا هو على الخدين، وجعلني لأجلس بجواره، ووجد زيد لنفسه مكانًا بين الرجاح.

قدمني ابن مسعد إلى بابي ضيفيه، بعض الوجوه كنت أراها لأول مرة، وبعضها كان لى به سابقة معرفة من أعوام سابقة، كان من العروضين لي منهم الشيخ غضبان بن رمال كبير مشايخ سنحاربا شمار - أحد قلوب المحاربين الشجان الملحدين وكلت أناديه "ياعيو" ولا يخمن من يراه من مظهر ملبسه الغادي أنه واحد من أقوي المشايخ في الشمال، وأنه وهب زوجته الشابة من الذهب والجوهر ما يتطلب طبقًا للمتناقل من الأقوال خادمته سيدانها حين تخرج من الخيمة الضخمة القائمة على ستة عشر من أعمدة الخيم، غمز بعينه وهو يهم باحتضانى ثم همس في أذني: "ألم تتخذ زوجة جديدة بعد؟" وأجبته ببتسامة وهزة من كتفي.

ويبدو أن سؤاله قد وصل إلى سمع الأمير ابن مسعد، فقد ضحك عاليًا وقال:

"المسافر المعتم يحتاج إلى قهوة، لا زوجة" ثم صاح بصوت أعلى: قهوة.

كرر الخدام الأقرب للأمير صائحين "قهوة" حتى وصل الأمر بالتناك إلى آخر واحد بالصف على حافة المجلس، ثم يتابع إلى باب الحصن ويدهى الامر بداخله. في الحال ظهر خادم يحمل إبريق القهوة العربي التقليدي بيده اليسرى وعدد من الأقداح الصغيرة بيد اليمنى، ملا القدح الأول للأمير، والثاني، لي، ثم قدم لباقي الضيوف طبقًا لمكانتهم، وبلذا الفنجان مرة أو مرتين، وحين يظهر الضيف أنه اكتفى، فإنه عند إعادة ملاة يتناوله من يلهه.
كان الأمير شغوفًا لعرفة أخبار مهمته إلى حرب العراق، إلا أنه دارى رغبته عبر بعض أسئلة سريعة عما صادفني من مشاكل في الطريق، واحتفظ برغبته في معرفة التفاصيل حتى يصبح على انفراد. ثم أكمل ما كان يفعله قبل وصولي من استماع إلى شكايات أصحاب الشكاوى والآرين للتحكم في خلافاتهم ونزاعاتهم.

قد يكون ذلك الشكل من أشكال التحكم غير مقبول في الغرب، الأمير كحاكم وقاضي يحظى باحترام مطلق. إلا أنه لا يوجد أي قدر من خروج أو ذل في ذلك النوع من الامتحان وكل من الشاكى والمشكو في حقه أو الدعوى والدمع عليه يثقون ثقة مطلقة في إنسانيته الحرة; ولا يبدو عليهم ما يشي بترد أو خوف أو خشية، فأنه ثوراً قوية مرتفعة وواجتهم يوجهون الحديث إلى الأمير كما لو كان شقيقهم الأكبر، يوجهون إليه الحديث - كعادة البدو عند توجههم بالحديث حتى للملك - باسمه الأول لا تلقاه الرسمية الملكية، ولا تجد أي قدر من التعامل أو العجزة في سلك ابن مسعد. وجهه جميل بلحية قصيرة، متوسط القامة وبدنه يميل إلى الأملاء، ويشى كل ما يبدو منه بانضباط النفس وبساطة التعامل. كل صفات العظمة والبساطة والتوافق تمضى مع قوة الملكة وقدر السلطة، يحكم في المشاكل التي يمكن حلها، أما المشاكل الأكثر تعقيدًا التي تحتاج إلى دراية قانونية عميقة فيجعلها إلى قاضي المدينة.

ليس سهلًا أن تكون سلطة عليا في منطقة عظيمة من مناطق البدو. لا بد أن تتوزع كدارة كاملة لكل قبائل المنطقة، وعلاقات القرابة والنسب والصاهرة، ومعرفة بالشخصيات القيادية الفائعة في المنطقة، وفي مناطق الرعي المختلفة، كما لا بد أن تكون ملمًا بالحداث الماضي وأحداث الحاضر حتى تكون الأحكام دقيقة وعادلة عند فض اشتباكات مشاكل البدو وشكاياتهم التي قد تكون شديدة التعقيد في بعض الأحيان وتحتاج إلى حكمة ودراية ومعرفة كافية. واللبيقة لا تقل في أهميتها في تلك المجالات عن حدة الذكاء، ولا بد للصفتين أن تعملان معًا بكل دقة وحساسية حتى لا تصدر أحكامًا ظالمة، لأنه بنفس القدر الذي لا ينبغي به العرب معرفةً أسديته إليهم، لا يمكن أن
ينسوا حكمًا ظالماً صدر ضدهم أو يشعرون أنه لا يتسم بالعدل، والأخلاق في الغالب، بل دائمًا ما تكون بوخ طبيعة حتى من أولئك الذين صدرت الأخلاق ضدهم. ويتميز ابن مسعود باستمرار كل تلك الصفات أكثر من أي نائب آخر للملك على مناطق المملكة المختلفة، فهو صريح، هادي: يخلو من النزاعات والأهواء المتناقضة، إحساسه الغريزي بالصواب والخطأ يهدئه حين تتعلق لديه أسباب الاستدلال العقلي، صقلته الحياة بخبرات كثيرة وتجارب لا تحصى، ثم تمكن من تلايب الحياة بعد أن خبر دروبها ومسالكها.

كان اثنان من العدو رتا الذين يعرضان عليه في تلك اللحظة خصوصتهما وعرض كل واحد ما عده في حماة وبكلمات منفعلة. والبدو يوجهان عام يصعب التعامل معهم فهناك دائمًا جوانب من تكوينهم لا يمكن التنبؤ بها، حساسية مستثارة لا تعرف الحلف الوسطي دائمًا هناك في المكان رفيع يفصل بين التعقيم والجحيم، رأيت كيف ينزع عليهم ابن مسعود غلائهم وفورائهم الانفعالة وكيف يهدئهم كلماتهم الرقيقة البكلمة. قد تظن أنه قد يأمر أحدهم بالمصمت ويطلب الآخر بعرض ما يرى أنه حق: كلاً، لا يفعل أي من هذا، بل يترك الطرفين يتحدثان في الآن نفسه، ويتحملا بعضهما البعض، لا يتدخل إلا من أن آخر بكلمة صغيرة هنا وسؤال هناك، وينقصمان من جديد في محاولاتهم الانفعالية؛ ويستم هو ويتركون يتقالدان ثم يقاطعون من جديد بإبداء ملاحظة سديدة في الوقت المماثل. المشهد يلبس الله، تتوظف عقل الحكم في صراع طرفين هما رجلان غاضبان، لا يعد بعيدًا عن الحقيقة بالمعنى العدلي القانوني بقدر ما هو رفع الستار تدريجيًا بما هو خافٍ، وعن واقع موضوعي. ويفترق الأمير من تحقيق ذاك بكى ومرض، يستلم الحقيقة كما لو كان يستلها بِغيَر مرجي، ببطء وصبر، دون أن يدرك ذلك أي من الدعى والدعي عليه. حتى يتوقف المتخصصان فجأة، وينظر كل منهما لآخر في دمثته ويتتحقق كلاهما أنهما قد توصلوا إلى الحكم، وهو حكم عادل واضح حتى إنه لا يحتاج إلى شرح أو تفسير، وعلى ذلك يقف أحدهما في ترد، ويفرد عبئه ويشده ويشد خصمه من كنه بطريقة ودودة: «تعال»، وينسحب الخصمان بعد أن تصالحا، تعترفهما بعض الخيرة، إلا أنهما سعيدان ويتمنيان بالدعاء للأمير.
مشهد رائع وقطعة فنية فريدة: لا مثل لها، يبدو لي أنها من ذلك الجمع المثير بين الإدعاء والأشياء التي لا تعرف عنه محاكم الغرب شيئاً. إلا أنه يمارس هذا على أكمل وجه في ميدان السوق المربز أمام حصن أمير عربي...

يتراخى ابن مساعد مستندًا إلى الحائط الطيني للحصن، ليبدأ نظر المشكلة التي تليها. قوى الملامح عابس الوجه في غير تجهم، ينظر من عينين عميقين المحجرين نظرة دافئة نافذة، ووجه قادة حقيقيين من الرجال، يمثل للسيادة في أعلى مستوياتها بين بني جنسه من رجال المنطقة بعلو حس داخلي دفين.

بعض الحضور الآخرين يشعرون بالإعجاب به. قال رجل يجلس أمامي على الأرض بعد أن رفع رأسه باتجاهي وابتسمت عليه وجهه - وهو بدو من رجال قبيلة حرب، وأحد جنود الأمير: «ألا يشبه الأمير ذلك السلطان الذي قال عنه الملطي، ما معناه:

قابلته وسيده في غمده، ورأيته وسيده يقبط بالدم

في الحالين أفضل الورى، وأفضل ما فيه حسن ذكاء ورفعة.

لم يبد في نظرى أن هناك أي تعارض أو تناقض حين سمعت دومي يتشدد أبيضًا من الشعر لأحد كبار شعراء العرب الذي عاش بالقرن العاشر، بالتأكيد لم يبد لي أن هناك أي تناقض مثلما أبد تناقضًا على سبيل المثال إذا سمعت فلاحًا من باقيا في شمال أوروبا ينشد أبيضًا لـ "جوته" أو لأحد كبار الشعراء الإنجليز مثل ويليام بلاك أو شيليت. فعلى الرغم من انتشار التعليم بالغرب، فإن الثقافة الغربية الرفيعة غير متاحة للأوروبي العادي أو الأمريكي، بينما نجد أن شريحة عظمى من غير المتعلمين تعليمًا عاليًا، بل من الأميين المسلمين يشاركون بوعي في النهال من الإنجاز الثقافي الرفيع لما ضيهم، بينما استطاع ذلك البدوي الأمي أن يستدعى إلى ذاكرته أبيضًا ملامحة من شعر الملتبي ليصور بها موقفًا شهدته وتطبيق عليه الأبيات التي استلها من ذاكرته، كذلك تجد كثيرين من أهل إيران في أشيام بالية وغير المتعلمين من سقائن

183
وجمالين في أسواق، أو جند في منطقة حدودية، ويحفظون بالذاكرة نصوصًا طويلة وأشعارًا لحافظ. وجامع أو الفرودي ويتسجرون ما يحفظونه في استمتعان شديد مع جملهم التي يتحدثون بها في حواراتهم اليومية. وبالرغم من أن المسلمين المعاصرين فقدوا تلك القدرة الإبداعية الخلاقة التي جعلت من إرثهم الثقافي ذاك الإرث العظيم، إلا أنهم مازالوا على اتصال مباشر ووثيق بإذكاء النابع والذري السامية الرفيعة لأسلافهم.

* * *

مازلت أتذكر ذلك اليوم حين توصلت إلى ذلك الاكتشاف في سوق دمشق بالحي القديم. كنت أقتبص وعاءًا خارجًا يلألأ من الطين الحمراء، كان جميلاً ومتميزة وفريدًا ومستويًا مثل كرة مستطيلة قليلًا ذات أبعاد متناسبة ومتتابعة. تبرز من جداره الخارجي الذي يشبه استدامة حمودةً يدان في خيوط خارجية بسهل ملتهب يمثل تلك القوارير الإغرية المشهورة. الوعاء والديدان مصنوعان صنعة يدوية، تستطيع أن تميز ذلك بسهولة، حتى إنك تكاد تميز بصمة العامل الذي صنعها وهو بالتأكيد عامل بسيط يعمل بتشكيل الطين، حول حافةه الداخلية نقش أشكالاً نباتية دقيقة. كان بالتأكيد يعمل في سريعة وبراعة وذوق، وبدلاً تركز كافر في اعتياد يومي متواتر، إلا أنه يخلق عملًا فنيًا يحمل تلك الروعة في بساطتها تستدعي إلى الذاكرة علامة الفن السلفي في سوريا وأعمال السيراميك الفارسية التي تحظى بالإعجاب والتقدير في متاحف أوروبا مع أن أولئك العمال البسطاء لا يشعرون في أنهم تون وهم يصنعونها أنهم يقومون بأعمال تشكيلية فنية إبداعية، كلما يبرز في ذهن أنه يصنع إنا للله أو للزينة لا شيء غير إنا للله، عن تلك الآثة التي يمكن لأي فلاح أو بدو أن يشتريها في أي يوم من أي سوق مقابل بضعة قطع معدنية صغيرة.

أعرف أن الإغرق قد أبعدوا مثل تلك الإبداعات أو أفضل منها وآكثر إتقانًا، وربما كانت أيضًا في أواننا الطهي: هم أيضًا من سقائن وصمم واسواق، وجدن وعامة تشكيل أواني - ساهموا جميعًا في حضارة لم تكن تعمل فقط أعمالًا إبداعية...
لإجراء الصفاء والنزية بل حضارة تشمل كل الأفراد. وافتكارهم بجمال المصنوعات.

افتخار بحضارة راقية ذات نتاج رائع إلا أنه جزء من الممارسات اليومية.

حين كنت أتفحص ذلك الإبتكاء في سوق دمشق القديم طاب بنفسي هاتفي يبارك من سيكلون.

في ذلك الإبتكاء وجباتهم، أولئك الذين يتنسبون إثر حضارية فق في مضمونه الافتكار الخارجي...

4

أفكار من استغراق في أفكارني على صوت الأمير مسعد: «ألن تسعدنا بتناول الغداء مع الآن يامحمد؟». رفعت رأسي مطلعًا وتقتربت ذكريات دمشق في سرعه لتنصرف في موضوعها من الماضي إلى حيث تنتمي، وعدنت إلى حاضرنا الذي كنت أجلس فيه بجوار «أمير الشمال». كانت جلسة التحكيم قد أنتهت؛ وانقض جميع المشاكن واحدًا بعد آخر. نهض ابن مسعد، ونهض منه ضيفه وحرسه. وترفق جميع الرجال ليفسخ طريقًا لنا المرور. وحين كنا نمر عبر البوابة أحنا انتظامهم خلفنا من جديد وتبعونا إلى داخل فناء الحصن.

بعد فترة، كنت أنا، والأمير مسعد، والشيخ غضبان بن رمال مجتمعين حول وجبة غداء مكونة من قصعة ضخمة من الأرز وعلىها خروف كامل مشريء. بالقرب منا وقف اثنان من خدم الأمير وزوج من الكلب السلوقي.

وضع الشيخ غضبان يده على كتفي وقال: «لم تجب على سؤالي بعد… ألا توجد زوجة جديدة؟».

ضحكت من إصراره على هذا الأمر، وقلت: «عندى زوجة في المدينة كما تعلم، لماذا يتحتم على أن أتزوج بنقرية؟».

رد بسرعة: «لماذا؟ فيحسنتي الله - زوجة واحدة - وأنت مازلت في شبابك؟ ماذا؟

حين كنت في عمرك...».
قاطعه الأمير مسعد: «قيل لي، إن أداك لم يقل إلى الآن ياشيخ غضبان».

قال الشيخ غضبان: «لقد أصبحت حطامًا باللي، أطالت الله عمراً يا أمير، ولكني أحتاج أحياناً إلى جسد غض ليدفأ عظامي العجوز المسّة. ولكن آخرني...» استدار إلىٍ من جديد:

ماذا حدث لتلك الفتاة المطرية التي تزوجتها من عامين؟ ماذا فعلت معها؟

أجاب: «ماذا تساءل؟ لم أفعل شيئًا، أظن أن ذلك ما تزيد معرفته».

رد الشيخ العجوز: «لم تفعل شيئًا؟ هل كانت قبيحة إلى هذا الحد؟ أجبته: كلا، بالعكس، كانت فائقة الجمال...».

سأل الأمير مسعد: «ما الحكايّة؟ أي بنت مطيري تتحدث عنهما؟ نورنى يا محمد».

هكذا رحت «أنور» الأمير بما حدث في ذلك الزواج الذي لم يؤد إلى شيء. كانت أعيش بالمدينة وحيدًا بلالزوجة، واعتاد بدو من قبيلة مطير اسمه فهد على قضاء عدة ساعات معي يوميًا لإعداد القهوة وبسيطين بحكايات طويلة عن رحلاته الاستكشافية مع لورانس أثناء الحرب العظمى. ذات يوم قال لي: «لا ينصح للرجل أن يعيش بمفرده، دائمًا يستنفد في عروقك، لابد أن تتزوج»، وحين سأله ما زوجًا عن العروس التي يرشحها للزواج منى، أجاب: «هذا أمر سهل. ابتعد زوج أختي مطر، وهي الآن في سن الزواج، وأنا نصفها خالها، أستطيع أن أطمئن أن فائقة الجمال»، كنت مازلت أفرح حين قلت له أن عليه أن يعرف أولاً إن كان أيها موفق أم لا. وهكذا، في اليوم التالي أتى مطر نفسه مقابلتي، وكان المرج بذكاء عليه بعد عدة أقدام من القهوة، وبعض الأحاديث المترفة. أخبرته في النهاية أن فهد قد حدثت عن رغبتي في الزواج من ابنتيه، وقال: «يرغبني أن تكون زوج ابنتي، ولكن رقية مازالت طفلاً. إنها في الحادية عشرة من عمرها...».

استئشاب في غضبٍ حين أخبرته بزيارة مطر، وما قاله لي. صاح في غضب:

«إنه نذل ورغم الود الكاذب. الفتاة في الخامسة عشرة، إنه لا يحبز تزويجها من غير عربي، ولكنه يعلم صلتك الوثيقة بابن سعود ولا يريد أن يضاهيك برفضه المباشر; لذلك...».

186
ادعى أنها طفلة، ولكنني أؤكد لك أن ثدييها هكذا... ووصف بحركة من كفيفه نصف المكورتين نهدين ذات حجم مغر، وأردد: "مثل ثدي الرمان الذي يطلب من يقطعه".

التمتعت عينا الشيخ غضبان حين أتي ذكر وصف نديها وعلق قائلًا: "خمسة عشر عامًا، جميل، وعذراء... وبعد ذلك تقول لي شئ، ماذا تريد أكثر من هذا؟"

أكملت قائلًا: "صبرًا حتى أكملك باقي الحكاية. أعرف أن اهتمامي راح يتزايد، وربما ازداد بعد معارضة مطرق أبي الفتاة وهبته فهد عشر هدياً ذهبية وبنزل كل جهده لإغراء أبيها أن يزوجها إياها، وأرسلت بهدية مماثلة لأمها، شقيقته فهد. لم أعرف بالضبط ما حدث في منزلهم؛ كلما عرفته أن فهد وشقيقته بدلاً كل ما يمكنهما من ضغوط على مطرق حتى يرضي بتزويجي ابنته..."

قال الأمير ابن مسعد: "يبني أن هذا الفهد كان صديقًا ماكرًا! توقع هو وأخته عطاءً سخياً ملك يا محمد. ماذا حدث بعد ذلك؟"

حكيت لهم كيف حل يوم الزفاف بعد ذلك بعدها أيام في غياب العروس، التي طبقًا للعادات، يمثلا الأم والدها كوكيل شريعني عنها، ويتلقى موافقة العروس على توكل أبيها بشهادتي أثنتين من الشهود. وتبعت عقد القران حفل زفاف سخى متنف بضم، مع الهدايا المعتادة والعادات للعروس (التي لم أكن قد رأيتها حتى تلك اللحظة)، ولأبويها، ولبعض الأقارب القريبين من ضمهم بالطبع فهده الذي حلتي باكثر الهدايا قيمة، وفي المساء نفسه أحضرت العروس إلى بيتي بصحة أمها وبعض النسوة المحترمات، بينما كانت النساء تغني أغاني الأعراس من فرق أسطوانة المجازة على إيقاع الدفوف والطبول.

في الساعة المعنوية دخلت الغرفة التي كانت بها العروس تنتظر هي وأمها. لم أميز الأم من الابنة، كلتيهما كانت مغطاة تمامًا بملاس سوداء من الرأس حتى الأرض، وحتى أعرف من الأم ومن الابنة قلت: "يمكنك أن تنصفي الآن" فنهضت واحدة منهما وخرجت في صمت؛ هكذا عرفت أن التي بقيت هي زوجتي.
حثنى ابن رمَال عندما توقفت عن الحكى عند هذا الموضوع، بينما تطلع إلى الأمير.

ابن مسعد: "وبعد ياباني، ماذا حدث؟ وماذا فعلت؟"

أكملت: "ثم.. ظللت البنت في موضعها، تلك الفتاة المسكونة، من الواضح أنها كانت في شدة الخوف من تسليمها إلى رجل لا يعرفه. حين طلبت منها بارق صوت استطعت أن يتميزة لثامها، لم تعمل إلا أن تحكم وضع عباثها حول جسدها في خوفها.

هتف الشيخ ابن رمَال في حماس: "يفعلن ذلك دائمًا، يظهرن الخوف في البداية في ليلة الزفاف، إلا أنهن بعد ذلك يصبحن مسرورات، أليس كذلك؟"

أكملت: "حسنًا، ليس تمامًا، كان على أن أ알 على وجهها اللثام بنفسه، وحين فعلت، أنهن في غاية الجمال، وجه صماد قمح اللون، وعينين واسعة وضفتان شعر طويلتين تلت حتى الوسائد التي كانت تجلس عليها، إلا أن وجهها كان بالفعل وجه طفيلة: لم يكن عمرها يزيد على أحد عشر عاماً، تمامًا كما ذكر والدها.. دفع الشجع فهد وأخته إلى تصوير الأمر لي على أنها في سن الزواج، بينما كان المسكون مطرق بريتاً من أي كتب أو أدعاء.

سأل الشيخ ابن رمَال وعلى وجهه أمورات عدم فهم ما كنت أرمي إليه: "وبعد ما مشكلة أحد عشر ربعاً؟ البتات يكيرن، أليس كذلك، بل إنهن يكرن أسرع في فراش أزواجن...".

إلا أن الأمير ابن مسعد قال: "كلا ياشيخ غضبان، إنه ليس نجديًا مثلك. لعشق أكبر في رأسه وابتسام إلى وواصل: "لا تسمع إلى غضبان يا محمد، إنه نجدي، وأغلبنا نحن التجدين ليس لنا عقل هنا، وأشار إلى رأسه - بل هنا"، وأشار إلى موضوع ذكوريته.

ضحكتنا جميعًا، وتمت غضبان من بين لحبتنا وشاربه: "على ذلك قلدي عقل أكبر من عقولكم جميعًا، أليس كذلك يا أمير؟".

تحت إلحاحهم رحث أكمل الحكاية، أخبرتهم أنه مهما تكن وجهات نظر الشيخ غضبان، فإن صغر سن العروس لم يكن ميزة كبيرة لي، فلم أشعر نحنها إلا بالشفقة.
فقد كانت ضحية خداع خالها الوضع. عاملتها كما يعامل الأطفال، طمانتها أنه لا يوجد ما تخشى منه، إلا أنها لم تنطق بكلمة وفاضح ارتعاشها خوفها وجزعها. وجدت على أحد الأرصفة قطعة من الحلوى - شيكولاتة - قدمتها إليها إلا أنها لم تكن رأت الشيكولاتة في حياتها، فرضت ببركة ودهرية من رأسها، حاولت أن آطمها بأن أقصى عليها قصة مسلية من ألف ليلة وليلة، ولم يبد عليها أنها فهمت أي شيء مما كان أقصيه عليها. أخيرًا تمثلت بأول كلمات لها: "رأسي يرجعني..." أحضرت بعض أقراس الإسبرين ووضعتها في كفها ومعها كوب ماء، إلا أن ذلك تسبب في مزيد من خوفها (علمت بعد ذلك أن بعض السيدات من معارفها أخبروها أن الرجال الغرباء القادمين من بلاد أجنبية يخدرون زوجاتهم في ليلة الزفاف حتى يغتصبون في سهولة)، بعد ساعات أو نحو ذلك نجحت في إقناعها أن تكون لأن فريقها، في النهاية سقطت في نوم عميق مثل أي طفلة في سنها، وأعدت فراشًا لي على البساط في ركن الغرفة.

في الصباح أرسلت من يستدعي أمها، وطلبت منها أن تصطحب ابنتها معها.

بدت على المرأة الغباء وعدم الفهم؛ فهي لم تسمع في حياتها عن رجل يرفض لقمة شهية - عذراء في الحادية عشرة - وظنت أن هناك خلاً في عقله.

سأل الشيخ غضبان: "وماذا بعد ذلك؟"

أجبته: "لا شيء، طلقت الطفلة، وتركتها على حالها الذي أنتهى به. لم تكن الصفقة سيدة لأسرتها، فقد احتفظوا بالفتاة والمهر الذي سلمته وكبلك بالهدايا التي أهديتها إليهمهم وآخرينهم. أما أنا، فلم أفعل إلا ما شاءت انتشرت وذاعت أنتي لا أمك من الرجولة ما يكفي لقضي عذريتي عروس، وحاول بعض ذوي الثبات الطيبة أن يقنعنني أن هناك من عمل لي عملاً من أعمال السحر يعوقني عن ممارسة رجولتي، وأنتي لا تستعيد رجولتي ما إذا قمت بعمل سحري مضاد يبطل السحر الأول الذي أصابني بالعنة.

قال الأمير وهو يضحك: "حين أتذكر زواجك بعد ذلك بالمدينة، وإنجابك طفل، أتأكد أنك قمت بعمل سحري مضاد أقوى من الذي كان يؤثر فيه..."
في وقت متاخر من الليل، حين كنت أهم بالذهب إلى فراشي، وجدت زيدًا صامتًا أكثر من المعتاد. كان يقف بالباب، وكان من الواضح أن ذهن شارد في أفكار أخذته بعيدا عن الحاضر واللحظة، كانت ذفته مرتزمة على صدره وعيه ثابتان على التقوش الزرقاء والحضراء الطحلبية التي تزين بساطًا من خراسان مفروش على الأرض.

سألته: «كيف تشعر الآن يا زيد بعد أن عدت إلى موطنك شبابك بعد كل تلك الأعوام؟» كان فعل ذلك يرفض دخول مدينة حائل كلما كان هناك سبباً لجئتي إليها.

أجاب بتأكيد: «أدرى يا عم، أحد عشر عاماً، مرت منذ كنت هنا آخر مرة، أنت تعرف أن قلبي لم يكن يطالبوني للجفيح قبل ذلك وآوى أهل الجنوب يحكمون من بيت أبي رشيد. ولكن في الفترة الأخيرة قلت في نفسى ما ذكره الله في القرآن: «قل ليهم ما لئلك الملك تأتي الملك من نشاء وتتبع الملك من نشاء وتعز من نشاء وتذيل من نشاء مبارك في كلى».

لقد وجب الله الملك لابن رشيد إلا أنه لم يدرك كيف يستخدمه على وجه الصحيح.
 كانوا كرمانا مع الناس قساة على أهلهم وعشيرتهم، كانوا يتباهين بلا سبب؛ وتوصبوا في إرقة الدماء ودفعوا الأخ لقتل أخيه، لذلك نزع الله عنهم الملك وأعاده إلى ابن سعود. أظن أنه لا يجب أن أحزن عليهم أكثر من ذلك - فالقرآن يقول: «وعسي أن تكنوا شعما وهو خير لكم وعسي أن تجيبوا ضيما وهو شر لكم» - صدق الله العظيم.

كان هناك ابتلاع بالتسليم الجميل في صوت زيد، تسليم لا يتضمن أكثر من قبول حدث وقع ولا يمكن تغييره. ذلك التسليم الذي يتصف به المسلمون إيمان حتمية أحداث الماضي، وهو التسليم بأن ما حدث كان لا بد أن يحدث وبالكيفية التي حدث بها، لا يغيرها - وهو ما يخطئ الغربيون في فهمه بأنه نوع من الجبرية القردية المرموقة في الإسلام. والحقيقة أن تسليم السم خاص بالمحتاج الذي انتهى لا بالمستقبل.

190
أي أنه ليس رفضًا للفعل أو تجنب العمل والسعى، وهو لا يخرج عن كونه اعتبار ما حدث ليس إلا مشيئة الله.

أرد زيد: "عندما كل ذلك، لم يقص ابن سعود على شمسان، وهم يدركون ذلك، ولم يسانده NOR بعد ذلك بسيوفهم من ثلاثة أعوام حين تمر ذلك الكلب الداويش وحاول إثارة فتنة؟.

كانوا بالفعل قد نضاو بسيوفهم تحت راية ابن سعود. بكل شهامة المهزوم لم يحملوا ضغينة ضد ابن سعود ووقعوا معه ضد الداويش في العام المبين 1929، حين احتزت دعائم مملكة ابن سعود تحت وقع الهجمات التي شنها تمد البدو الكبير الذي قاده فيصل الداويش، نهضت كل قبائل شمار التي تحيا في منطقة نجد بعد أن نحووا جنبًا إلى جنبًا بقوة السلاح وكذلك استعاد سيطرة الجنوب على الشمال. كان التصالح مشهودًا على المتمردين. كان ذلك التصالح مشهودًا بعد أن كان ابن سعود قد غزا مدينة حائل بقوة السلاح، وكذلك استعاد سيطرة الجنوب على الشمال. كان التصالح مشهودًا وعظيمًا بشكل أخص على ضوء تنافس تاريخي أعمق من أي خلافات قبلية وأعمق من أي تنافس على السلطة والقوة. بين قبائل شمار وشعب جنبوب نجد الذين ينتمي إليهم ابن سعود. إلى حد كبير، كانت تلك الكراهية والنزاع القتالي بعيدًا عن تنافس الجنوب والشمال والذي امتد بطول التاريخ العربي، والتي لها ما يقابلها في دول كثيرة أخرى. وفي الغالب نجد أن اختلاف طفيف في نمط وأسلوب الحياة يترتب عليه عوائد بين قبائل من الفئات إثر بعلاقات حية، عداة قد تزيد من العداوة المترتبة على اختلافات عرقية بين أمم متجاورة.

باستثناء التنافس السياسي: كان هناك عنصر آخر لعب دوره في إزالة التنافس بين الشمال والجنوب. حدث ذلك في جنوب نجد، فيما جاور الرياض، من مئتي عام مضت حين ظهر اللصق التصحيح محمد بن عبد الوهاب، وأثار ذلك قبائل كثيرة قاوته إصلاحاته. كانت قبائل مسلمة اسمًا فقط - فقد دعا إلى ممارسة الدين في شكله التقليدي. كانت الحركة التصحيحية قد بذلت من بيت آل سعود الذي لم يكن
مشهورًا في ذلك الوقت، ودعم زعماء مدينة صغيرة، هي مدينة دارية، المصلح محمد بن عبد الوهاب بالأسلحة الناريتة مما دفع الحركة الإصلاحية إلى موقف قوي، وخلال بضعة عقود جمع حوله أغلب مناطق شبه الجزيرة وعرفت الحركة باسم "الوهابية". وفي كل الحروب الوهابية والغزوات الإصلاحية التي قامت بها خلال المائة وخمسين عامًا الأخيرة، كان أهل الجنوب من رفوا أوية تنقيته الدين، بينما ساهمهم الشمال بنصف قلب وثلا اقتتاك كامل، وبالرغم من أن قبائل شاكل كانوا نظرية تحت رأية الوهابيين، إلا أن قلوبهم ظلنا ثانية عن الإصرار الإصلاحي لأهل الجنوب، ولأنهم كانوا يعيشون على الحدود القريبة من سوريا والعراق، فقد كانوا مرتبين بهما بعلاقات تجارية مستديمة، واكتسب أهل شاكر على مر الزمن حسبًا تجاريًا عاليًا واكتسبوا صفات المصالحة وإبرام الصفقات وتبريج كلمة الصالح وهو ما لا يعرفه ولا يتصف به أهل الجنوب، فأهل الجنوب لا يعرفون إلا الوضوح الكامل وعلى مدى قرن ونصف القرن لم يشعرون إلا رفغ راية الجهاد في حمص، وفي غرسة رجال اعتبروا أنفسهم المنشقون الوليدون للإسلام وأن كل مسلمين آخرين خارجون على العقيدية ومنشقو عنها.

على الرغم من ذلك، لم يكن الوهابيون بالتأكيد طائفة مستقرة، فالطائفة الدينية تقتضي وجود تعاليم مستقرة قاصرة على أتباعها. أما في الوهابية لم تكن هناك تعاليم خاصة على العكس: سعت تلك الحركة إلى نبذ كل المدخلات الغربية والإضافات التي تسألت إلى الفكر الإسلامي عبر قرون طويلة، ودعت إلى العودة إلى جوهر تعاليم الإسلام كما جاء بها الرسول كان سوي الحركة إلى إجلاء وجه الدين وجوهره من كل ما شابه عبر القرون دون حلول وسطية ولا مساعدة، سهيلًا عظيمًا ومحاولة جليلة، وكان من الممكن أن تدريا تلك الدعوة مع مرور الزمن إلى تحرير الإسلام تحريرًا كلياً من كل ما شابه من مدخلات وخصائص أخفت الوجه الحقيقي للإسلام.

وفي الحقيقة، كانت كل الحركات الإسلامية التصححية في العصور الحديثة، بدأ تحق في الهند، والحركة السنوسي في شمال أفريقيا، وأفكار ودعوة جمال الدين الأفغاني، وأفكار محمد عبد الوهاب المصري، كانت كلها حركات تصححية.
تستمد قوتها من قوة الدفع الروحية التي انطلقت في القرن الثامن عشر على يد محمد بن عبد الوهاب.

إلا أن تبنى أفكاره الإصلاحية على يد أهل نجد عانى من قصورين أعمقًا نموها الطبيبي حتى تصبح قوة روحيَّة متتامية.

جاء القصور من ضيق النظر الذي أتسم به اتباع الحركة وسعهم إلى إجبار الناس على أداء الشعائر الدينية حرفيًا والآمر، متجاهلين أهمية التفاوض إلى الجوهر الروحى ومحترام القصور الثاني يعود كليًا إلى الشخصية العربية ذاتها، وهو تحسب الشخصية العربية وإحساسها بصور الذات، والتي لا تسمع ولا تقبل وجود اختلاف مع الآخر: وهو مركب واضح في الساميين كتفيUNK240ة عكسى يؤدي إلى التراخي والتحلل من جوانب العقيدة وهو مركب مأساوي لدى العرب بجعلهم دائمًا ما يتراوحون ما بين قطبين ولا يتخون أحدًا طريقًا وسطًا. ففي وقت ما من القرنين على وجه التقريب. كان عرب نجد أبعد عن الإسلام من أي شعوب إسلامية أخرى؛ وبعد ظهور محمد بن عبد الوهاب، اعتبروا أنفسهم لا مجرد أبطال وقادة للحركة الإصلاحية، بل أصحاب العقيدة الوحيدين والقيم عليها.

تسرب الفساد إلى المعنى الروحي للحركة الوهابية – وهو الشوق والرغبة في تجديد المجتمع الإسلامي، في اللحظة التي سعت فيها إلى تحقيق أهدافها بالحصول على القوة الاجتماعية والسياسية وكان ذلك عند تأسيس الملكة في نهاية القرن الثامن عشر وامتداد الحركة إلى أغلب أرجاء الجزيرة مع بدايات القرن التاسع عشر. ويمبرد أن أحرز أتباع محمد بن عبد الوهاب القوة الكافية، تحولت أفكاره إلى مومياوات محظورة. فالروحيات لا يمكن أن تتحول إلى خادمة القوة، كما أن القوة لا يمكن أن تصبح خادمة الروح.

إن تاريخ وهابي نجد هو تاريخ أفكار إصلاحية دينية برزت في بدايتها على أجنحة الحماس والرغبة القوية والتطلع ثم سرعان ما ابلعت في جوف المظاهرات بالقوة من المتخصصين، فكل القيم تدمر ذاتها بمجرد أن يزول عنها التوق والتشوق والحماس وتكشف أن تكون متواضعة: هاريت! وماري!
الفصل السادس

أحلام

[1]

أنا ضيفًا على أمير عربي كبير، فذلك يعني أنك تتعامل كصديق ضيف من كل من يتبعونه، من "رخافيل"، وأصحاب المتاجر في عاصمته، بل حتى من قريب بدو الصحراء في منطقة سلطته. لا يوجد الضيف بغرفة إلا ويتحقق له في الحال، طالما يمكن تحقيقها. 

للتواصل مع شخص آخر يجد نفسه مشمولًا بفؤاد الكرم والترحاب والحب الذي يحيطه حتى لو كان في سوق المدينة، والذين لا يقل في دفعة من المشاعر التي يلقاها في أروقة الحصن ورباهات وقاعاته.

لقيت العاملة الكريمة ذاتها في كل زياراتي السابقة في مدينة "حائل«، كما لقيتها في اليومين اللذين قضيتهما هذه المرة ضيفًا على الأمير بن مساعد أمير مدينة "حائل"، والمنطقة الشمالية. إذا رغبت في تناول قهوة سمعت على الفور صوت رنين الهاون الذي تطلق فيه حبوب البن الحمصة لإعداد قهوة طازجة. في الصباح، أحب كأحد وأنا أختاره على مسمع من أحد خدمات الأمير، على سرج جميل رأيته بالسوق، في اللمس أجد السرج تحت قدمي. يتحفنا الأمير بهداياه كل يوم: قطعان طويل من صوف كشمير، كوفية مزركشة، جلد غنم ببغدادي أبيض يوضع على سرج الناقة، خنجر نجدي معقوف.
بمقبض من الفضية. وأنا.. المرحلل الذي لا يثقل نفسه بأحمال زائدة، لم أجد لدي ما أهديه للأمير ابن مساعد إلا خريطة مكية للجزيرة العربية بالإنجليزية. ترجمت عليها بمشقة أسماء المناطق بالعربية، وأسعدت الهدية الأمير بن مساعد.

كان كرم الأمير بن مساعد قريبًا من كرم الملك بن سعود: وهو ما لا أستغربه بأي حال حين أتذكر قراحتهما. لم يكونا فقط أبناء عهدهما، بل إنهم أشتركا - منذ أن كان ابن سعود شابًا في مقتبل عمره وأبنا مساعد في صباه، في مواجهة المصاعب التي قابلتهما معًا، وواجها معًا تقلبات الأحوال والأحلام المبكرة عند بداية تكوين الملكة.

وبعد كل ذلك فقد ترسخت عرٍ علاقتهما بزواج الملك ابن سعود من جوهرة، شقيقة ابن مساعد، وهي السيدة التي كان لها شأن عظيم في حياة الملك ابن سعود. أكثر من أي امرأة أخرى ممن تزوجهن قبلها أو بعدهما.

وعلى الرغم من أن كثيرًا من الناس حاولوا صداقته الملك عبد العزيز بن سعود، فإن قليلًا منهم من حظي بعرفة تفاصيل حياة شخصية، وبما كان من بين أشده أموره خصوصيتيًا، فجذب الفرقة الفائقة في أمور الحب والنساء، ولو أتيت لذلك الجانب أن يقضي على سعيه فربما كان قد أدى به إلى أبعد كثيرًا مما أنجزه في ذلك الجانب. لقد وضعت قيودًا شديدة حول معرفة العدد غير المحدود من النساء اللاتي تزوجهن وطلقنهن حتى إن التوابين لشئون الجزيرة العربية من الجانب اعتبروا أنه منفيس في اللذان والتغمسية، إلا أن قليل ممن عرفوه عن قرب كانوا يعلمون أن كل زوجة من زوجات ابن سعود - باستثناء زوجة من بنات قبائل حلية لاعتبارات سياسية - لم يكن إلا رغبة غامضة لم تتحقق في العثور على بديل لذلك الحب الكبير في حياته والذي فقده ودمعه بموت جوهرة.

كانت السيدة جوهرة، أم وأبيه محمد ولال قرة في حبه الكبير وللآن، بعد أن ماتت منذ ثلاثة عشر عامًا، لم يتحدث عنها الملك قط إلا واعترته غصة تبدد في صوته. لابد أنها كانت امرأة غير عادية - لم مجرد سيدة جملية (فقد تزوج ابن سعود من جميلات كثيرات في إقباله دائم على الزواج)، إلا أنها قد وهبت تلك الحكمة - 196
النسائية الغريزية النادرة التي تمازج بين متع الروح ومتع البدن. في الغالب لم يكن ابن سعود يترك نفسه للانغماس العميق في المشاعر العاطفية تجاه النسا، ويسهر ذلك سهولة زواجه وسهولة طلاقه لهن-، أما مع جوهرة فقد كان يبدو كأنه عثر أخيرًا على الإشباع الكامل للروح والبدن ولم يذكر ذلك الإشباع من بعدها مع أية امرأة أخرى. وبالرغم من أنه كانت له زوجات أخريات أثناء حياتها، فإن مشاعره وكل حبه كان يحتفظ بها لها وحدها مكتملاً كما لو كانت الزوجة الوحيدة له. اعتاد أن يكتب فيها وعنها قصائد حب، ودائمًا، في إحدى اللحظات التي انطلقت معى فيها على سجيتها، قال لي: "كلما كان العالم مظلمًا من حولي لاحظت منه طريقًا للخروج من الخطر التي تحيط بي والصعاب التي تواجهني، كنت أجلس وأكتب إليها قصيدة حب، وحين أنتهي منها، أحد العالم قد أضاء أمامي فجأة، وينكشف أمامي ما يجب على أن أفعله."

إلا أن جوهرة ماتت أثناء وفاة الأنتونيزا الكبير عام 1919، وأودى الوباء أيضًا بحياة ابن الملك عبد العزيز البكر، وأكثر من أحبهم من أبنائه وهو الأمير تركي، وترك تلك الخسارة المضاعفة جريحًا لم ينرم أبدًا في أعمائه.

لم يكن حبه موجهًا إلى زوجة وابن فقط: فقد أحبه أباه حبًا نادرًا لا تراه إلا في أهل البشر. كان أبوه- عبد الرحمن- والذي عرفته في أعوامه المبكرة في الرياض، عطوفًا وطيبًا، إلا أنه لم يكن بارز الصفات كابن، كما لم يلبب دورةً متمرةً أثناء حياته. إلا أن ابن سعود بعد أن كسر المملكة بمجرده الشخصي وأصبح ملك البلاد بلا منازع، كان يسال مع أبيه مسلكًا شديد التواضع حتى إنه لم يكن يسمح لنفسه ولا لغيره أيضاً أن يضع قدمه في غرفة من القلعة إذا كان أبوه عبد الرحمن في غرفة تحتها، لأنه كما كان يقول: "كيف أسمح لنفسى أو لغيرى أن يسير فوق رأس أبي؟".

لم يجلس أبدًا في حضرة أبيه إلا إذا سمح له أبوه أن يجلس. مازلت أذكر المنزق الذي أوقعني فيه تواضع الملك تجاه أبيه في الرياض (أظن أن ذلك كان في ديسمبر
1927). كنت في ذلك الوقت في إحدى زياراتنا المعتادة لوالد الملك في جناحه بالقلعة الملكية: كان جالسًا على حصانه على الأرض، وكان والد الملك يحدث في موضوع ديني محبب إلى قلبه. فجأة، دخل أحد أفراد الحاشية إلى الغرفة وأعلن: "الشيخوخ قادمون". في اللحظة التالية كان ابن سعود يقف بالباب. بالطبع، أدرت النهوض وهممت به، إلا أن الرجل الكبير أمسك معصمي ومنعنى من النهوض، كما لو كان يفهمني أنني ضيفه، وأصابني حرج شديد لا تعبر عنه الكلمات لبقائي جاسسًا، بينما كان الملك، بعد أن حيا أباه، وقفًا بالباب، كان من الواضح أنه ينتظر إذنًا من أبيه للدخول إلى الغرفه. يبدو أنه قد اعتاد ذلك من أبيه، لأنه قد غمز لي بعينه وشبه ابتسامة على وجهه حتى ينزل على الحرج. في الوقت ذاته، استمر الجمهور في تفسيره وشرحه، كما لم يبق هناك أي مقاطعة لحديثه، وبعد بضع دقائق رفع بصراه، وأومأ لابنه قائلًا: "انخلِ يا بني واجلس". كان الملك في ذلك الوقت في السابعة أو الثامنة والأربعين من عمره.

بعد ذلك عدة أشهر - وكتا بعث في ذلك الوقت - جات الأخبار للملك بأن أباه قد توفى الله في الرياض. أن稚سي ما حييت تلك النظرية النقدية دون استيعاب أو فهم، ظل على ذلك بضع ثوان مظلمًا إلى من أبلقه، ثم راحت إمارات اليأس تنزف ملامحه ببطء، ذلك الوجه الذي اعتقدنا أن نراه هادئًا جدًا، ثم قفز من مجسمه وهو يصبح بصوت عال: "مات أبي"، وبخطوات واسعة جرى خارج الغرفه جارٍ عبأته على الأرض من خلفه، ثم ركض على السلام والحرس يجريين من خلفه وهو لا يدرك إلى أين يمضي، أو لماذا يمضي، ظل ينصيح: "مات أبي، مات أبي"، وعلى مدى يومين بعد ذلك رفض أن يقابل أي إنسان، لم يتناول فيهما طعامًا ولا شرابًا، وقضى النهار والليل في صلاة متصلاً.

كم من الأبناء في منتصف أعمارهم، وكمن الملك الذين كتبوا ممالكهم بمعروفه وقراراتهم قد حزنو ذلك الحزن لوفاة الأب، مع أنه مات ميتة الشيخوخة الهاينة؟
كون عبد العزيز بن سعود مملكة الواجهة الأرجاء بمجهوداته الشخصية تمامًا. حين كان طفلاً، كانت أسرته قد فقدت آخر مظاهر قوتها في مركز الجزيرة العربية على يدي من كانا حلفاء وتابعين لهم في يوم من الأيام وهم عائلة إبن رشيد الذين حكموا منطقة حائل. كانت تلك الأيام مريرة على عبد العزيز؛ فقد شهد الفتى الفخور والمتحفظ أميرًا من خارج أسرته حكم مدينة الرياض، مدينة آبائه وأجداده وهو الأمير ابن رشيد وأصبحت عائلة ابن سعود التي كانت تحكم ذات يوم كل الجزيرة العربية على وجه التقارب مزعجة عن الحكم على أديب ابن رشيد الذي لم يعد يخشىهم. وفي نهاية المطاف أصبح ذلك عبثًا لا يطلق على أبيه عبد الرحمن الحب للسلام، فغادر الرياض هو وكل عائلته، أملًا أن يقضي ما تبقى من عمره في بيته صديقه القديم حمو الكنوتي، إلا أنه لم يكن يعلم ما يفعله أقدار؛ لأنه لم يكن يعلم ما بقلب ابنه العزيز.

من بين جميع أفراد العائلة لم تكن هناك إلا واحدة تشعر بما يحتويه ذلك القلب الجياش، كانت عمه، الأخ الأصغر لأبيه، لم يعرف عنه الكثير، كل ما عرفته أن اللد كان يتحدث إليها بتآثر شديد كلما تحدث عن أيام شبابه البكر، كان يقول: أحبتي ربما أكثر مما أحبت أبناها، وحين كنا نجلس برفدنا، كانت تجلسني في حجرها وتحكي لي عن الأشياء العظيمة التي لابد لي أن أفعلها حين أكبر، كانت تقول لي: لابد أن تستعيد عظمة بيت آل سعود، تخبرني بذلك مرة بعد مرة، وتبدو أقولها لي كأنها مادية؛ ولكن أحب أن أؤكد لك يا عزيزٌ (ه) أن استعادة مجد آل سعود ليس نهاية المطاف، إذ لا يد أيضًا أن تستعيد مجد الإسلام، الناس تحتاج من يقودهم على طريق الرسول الكريم، وستكون أنت ذلك القائد، وظلت أقولها حية في قلبي.

(ه) اسم تدليل للعزّ. (الترجم).
كان ابن سعود طول حياته بنجمهها يحب الحديث عن الإسلام وكأنها رسالة أوكتت إليه، وحتى في الأيام الأخيرة، حين بدأ أن القوة الملكية أصبحت تفوق في الأهمية البطولات السابقة في سبيل المثاليات، نتجت فضحته ودقة بيانه في إقناع كثير من الناس- وربما هو ذاته- أن تلك المثاليات الإسلامية هي أهدافها التي يسعى إلى تحقيقها.

كانت الأوقات التي يستعيد فيها ذكريات الطفولة والصبا غالبًا ما تحدث خلال جلوسه مع المقربين من الأصدقاء في الرياض، وكان ذلك يحدث عادة بعد صلاة العشاء، فبمجرد أن ينتهي الملصون من أداء صلاة العشاء في مسجد القلعة، نجتمع حول الملك في إحدى الغرف لنستمع على مدى ساعة إلى أحداث من سيرة الرسول أو تفسير آيات القرآن. بعد ذلك يتصفي الملك أثين أو ثلاثة من خلصائه ليجلسوه في جناحه الخاص.

آتذكر ذات ليلة، حين كنا نخادر الغرفة التي كنا نجلس بها بعد صلاة العشاء، أدهشني من جديد الطول الفارع للملك الذي فاق كثيراً كل من حوله. واعتقد أنه قد لح اهتمامي ودهشتي ونظرة الإعجاب التي لم أتمكن من إخفائها، فقد رأيته يبتسم ابتسامة هيئة ساحرة لا يمكن وصفها وأمسك بيدى وسألني: «ماذا تنظر إلى هكذا يا محمد؟».

قلت له: «كنت أفكر، أطلال الله عمرك، أنه لا يمكن أن يخطئ أحد في تميز الملك وهو بين حشى من الناس فرآس الملك يكون فوق كل الرؤوس في أي زحام».

ضحك ابن سعود، وهو مازال ممسكًا بيدى متقدمًا ببطء عبر الردهة، وقال: «نعم، من المبهم أن يكون بهذا الطول، إلا أنه جاء على وقت لم يكن فيه ذلك الطول إلا سبيلاً من أسباب شقائي. كان ذلك من أعمام طويلة مكث حين كنت صبياً و كنت أعيش وقتها في قلعة الشيخ مبارك حاكم الكويت. كنت حبيباً جداً وطويلًا جداً، أكثر طويلة من أي صبي في مثل سنى، وكان يلقى الصحة في القلعة. أولى الملتمين لعائلة الشيخ مبارك، بل حتى الملتمين إلى عائلتي... يتخذونه هدفاً لسرخيتهم وفكاهتهم، كان شتاتًا أو مجوسية، وقد سبب لي ذلك ضياعًا شديداً، حتى ظنن أحيانًا أنه غير طبيعي. كنت خجولاً».

200
من طول قامتي الفرط حتى إنني كنت أحاول أن أخفض رأسى وعندى بين كفتي لأقصر
من قامتي حين كنت أسير عبر أرجاء القصر أو في شوارع الكويت.

كنا قد وصلنا إلى جناح الملك. وكان ابنه الأكبر الأمير سعود -وأبي المساعد- بانتظار أبيه هناك. كان في مثل عمرى، وبالرغم من أنه لم يكن في طول أبيه إلا أنه كان أكثر تجاهلاً، كما لم يكن له صفات أبيه من حيوية فائقة ودفء المعاملة وجميلية المودة. إلا أنه كان عطوفاً محبوباً من شعبه.

جلس الملك على حشية من الحشاشا المتتارة على استعداد الوفدة وأشار لنا بالجلوس، ثم أمر: "قهوة". فراح النداء يتردد عبر المرات في تتابع سريع، نداء بعد آخر: "قهوة". حتى يصل إلى مطبخ إعداد قهوة الملك على بعد بضع غرف من مكاننا: في لحظات يظهر أحد أفراد الحاشية ويخبره الذي في منطقته بإبريق القهوة النحاس في يد وأقلاع القهوة الصغيرة باليد الأخرى. يقدم القدح الأول إلى الملك ثم يوزع باقي الأقداح على الحاضرين بترتيب جليسهم بعد الملك. في مثل تلك الجلسات غير الرسمية، يتحدث ابن سعود على سجته عن كل ما وقع له أو صادفه. أو عن وقائع وأحداث وقعت في دول أخرى من العالم، عن اعتراض جديد وصلت أخباره إلى مسامعه، عن شعوب وعادات وهويات، وفوق كل ذلك، كان يتحدث عن خبراته وتجاربه الشخصية، ويشجع الحضور للمساهمة في الحديث أو الحوار الدافئ. في ذلك السياق، بدأ الأمير سعود في إدارة دفة الحديث حين استدار إلى ضاحيًا وهو يقول:

"أحد من الناس، قال لي اليوم إنه يشك في أمير يا محمد. قال إنه ليس متيفناً على الإطلاق إن كنت جاسوسًا إنجلزيًا يدعى الإسلام.. ولكن لا نتزعج؛ فقد أكدت له أنك مسلم قولاً وفعلاً.

لم أتمكن من إخفاء عبوضي وأجبته: "هذا كرم كبير منك يا أمير، أطال الله عمرك، ولكن من أين لك بذلك اليقين؟ لا يعلم الله وحده ما تخفى الصدور؟".

رد الأمير: "هذا حقيقي، إلا أنني لدى بصيرة خاصة: فقد رأيت حلمًا في الأسبوع الماضي وهبتي تلك البصيرة فيما يخصك... كنت أقف في ذلك الحلم أمام
مسجد وأنا أنظر إلى المئذنة، ففجأة ظهر رجل في شركة المئذنة، كور كلفه حول فمه وراح يرفع الأذان: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وحين دقت النظر، وجدت أن المؤذن هو أنت. حين استيقظت، تأكدت على وجه اليقين - على الرغم من أنني لم أشك في ذلك قط - أنك مسلم حقيقي. فقلت معلم فيه اسمه الله لا يمكن أن يكون هراءاً،

تأثرت بشدة بذلك التأكيد من ابن الملك، وتبينت الملك الراضية تصديقًا على كلام ابنه الأمير، ثم انتقل الملك طرف الحديث وعلق قائلاً: "كثيرًا ما يشير الله بالفعل قلوبنا خلال الأحلام لينبتنا أحيانًا بما يمكن أن يراهنا في الأيام القادمة وأحيانًا يثير لنا ما غمضنا أمامنا من حاضر. ألم يمر بك شيء مشابه يامحمد؟". 

قلت: "بالفعل حذرتني لي ذلك يا إمام، من زمن طويل مضى، زمن يسبق كثيرًا أي فكرة لي عن اعتناق الإسلام - وحتى قبل أن أضع قدمي في أي دولة إسلامية. كنت في ذلك الوقت قد بلغت التاسعة عشرة من عمري أو نحو ذلك، و كنت مازلت أعيش بعيدًا عن أسرتي بمدينة "فينانا". كنت شديد الولع بعلم حياة الإنسان الداخلية (كان ذلك أقرب تعرف للتحليل النفسي يمكنني أن أذكره للملك) لذلك حرصت على الاحتفاظ بأوراق وقلم بجواري فراشي حتى أتمكن من تدوين ما أتذكره من أحلام بنجرد تيقظي من النوم. و بفضل الوسيلة كنت أستطيع أن أذكر الأحلام ليس بدقة كاملة بالطبع ولكن بطريقة تحفظها من النسيان بعد ذلك. في ذلك الحلم الذي رأيته، وجدت نفسي في "برلين" متنقلًا في قطار الأفق الذي يستعمله هناك. كان القطار يمضي أحيانًا في أنفاس تحت الأرض، وأحيانًا فوق قناطر عالية فوق سطح الأرض.

وازيحنت الأوردة التي كنت بها بحشد كبير من أبناء البشر، كانوا كثيرين حتى إنه تذكر على أن أحد مقعدًا أجلس عليه، و كله وقوف متلاصقون. دون أن أجد حتى مسافة أو فرصة صغيرة للحركة! لم يكن هناك ضوء إلّا ضوءًا شاحبًا، فاحتشاي بينهما من مساحات كهربائي ضعيفة بالعربية. بعد فترة خرج القطار من النفق الذي كان به، إلا أنه لم يسر على واحدة من تلك القناطر العالية، فقد رأيت نسر في واد مهجور منعزل هائل.
الاتساع، إلا أنه واد من الطين غير ذي زرع، فانغشت عجلات القطار في ذاك الطين.
حتى أنه عجز عن السير، لا للأمام ولا للخلف.

نزل كل المسافرين، وأنا منهم، من العربة وبدأتنا في التطلع حولنا. بدأ الوادي من حولنا بلا نهاية، خارياً وفاقداً بلا نبتة شعث، ولا بيت ولا حتى حجر - أصابت الناس حيرة وارتباك: فقد أصبحنا جميعًا موزولين في ذلك المكان، فكيف نجد سبيلًا إلى العودة حيث يحيا الناس؟ ظهر ضوء شفق فوق الوادي الهائل الاتساع، كما لو كان تباشير ضوء فجر.

"إلا أنني لم أجده نفسي حيرة ولا ارتباكًا، فقد شقتني طريقًا مبتدأً عن ذلك التجمع البشري، ودشتشتي، وعلى مسافة عشر خطوات تقريباً، كانت هناك ناقة جائزة على الأرض، بسرجها ولجامها - بالطريق ذاتها التي رأيت الجمال تسير بها هنا يا إمام - وعلى السرج كان يجلس رجل يضع عباءة مخططة باللونين: الأبيض والبني وأكمامها قصيرة. وكانت كوفيتها مختفية وجهه حتى إنني لم أرى ملامحه، بلني يقين أن تلك الناقة المباركة كانت بانتظاري، وأن راكبها الذي لم تقدر عنه حركة هو دليلي ومرشدتي؛ وهكذا
دون كلمة واحدة اعتبت ظهر الناقة خلفه، ثم يركب الرديف هنا في الجزيرة. في لحظة، نهضت الناقة وانطلقت في خطوات حقيقية وأسلجة سريعة، أحسست بسعادة لا يمكن أن أصفها بالكلمات تشبيه داخلي. رحلنا بتلك الخطوات السريعة الخفيفة للناقة لرغم بدا لي كأنه ساعات، ثم أيام، ثم أشهر، حتى فقدت أي إحساس بالزمان، مع كل خطوة من خطوات القدرة كانت سعادتي تزداد وتتوهج، واستمر ذلك حتى شعرت كنتى أهيم في الهواء.
في النهاية، بدأ الأفق على يمينا في التوهج كما يتوقع الأفق قبل شروق الشمس. إلا أنني رأيت في الأفق البعيد ضوءًا آخر: كان ذلك الضوء يأتي من خلف بوابة ضخمة قاسية على عمودين - كان نور أبيض مثير لا يشبه ضوء الشمس المشرقة التي كانت على يميننا - كان نورًا بلا حرارة يزداد تألقًا كلما أقتربنا منه ومن البوابة وأشاع بين جوانبي سعادة تفقؤ أي سعادة يمكن للكلمات أن تصفها. وكما اقتربنا من البوابة ونظرها، أسمع صوتًا من مكان ما يعلن: "هذه آخر مدينة بالغرب" - ثم استيقظت".
تعجب الملك ابن سعود قائلاً: «يا سبحانه الله، ألم يكن ذلك الحلم أن الله سيدني إلى نور الإسلام؟»

هززت رأسى بالنهي: «كلا، أطال الله عمرك، كيف لي أن أعرف ذلك؟ لم يرد الإسلام على ذهني قبل ذلك، ولم ألقى حتى ذلك اليوم بيدي مسلم.. بعد ذلك بسببه أعوام، وكنت قد نسيت ذلك الحلم من زمن طويل، اعتنقته الإسلام. لم أنكر ذلك الحلم إلا مؤخرًا حين وجدت الأوراق التي سجلت عليها الحلم في حينه، كنت قد سجلته وقتها كما رأيته بتفاصله في منامي بمجرد أن استيقظت».

قال الملك: «هي نعمة أظهرها الله لك في الحلم يا بني! لم تتنبئ ذلك بوضوح ذلك الحشد من البشر وأنت بينهم، متوجهين إلى وجهة ليس فيها إلا الضياع بلا مصدر، وقذافبهم حيرة: ألا يرمى أولك الناس في حيترتهم إلى ما ذكرته سورة الفاتحة من القرآن في كلمة «الضالين»؟ وكلا ألتركها ورايكها اللذان كانا ينتظرانك: ألا يقابل ذلك ما ذكرته السورة: في هذين الصراطين المُستقيمين» والذي ذكرت بموضوع كثيرة من القرآن؟ وراكب الناقة الذي لم يتحدث إليه ولم يتمكن من رؤية ملامح وجهه: من يمكن أن يكون ذلك الراكون غير الرسول عليه الصلاة والسلام؟ لقد كان يجب أن يلبس جلابباً قصير الأكمام... ألم تذكر كتب السنة أن ظهوره في الحلم لغير مسلم، أو أولئك الذين لم يسلموا بعد، يكون وجهه دامساً غير ظاهر؟ وذلك النور البالا، بلا حرارة الذي ظهر في الأفق: وماذا يمكن أن يكون غير بعيد بمجرد الإنسان الذي يضيء دون أن يحرق! ولم تصل إلى ذلك النور في الحلم لأنها لم تنتظر إلى الإسلام إلا بعد ذلك بأعوام...»

قلت: «قد يكون الأمر كذلك يا طويل العمر... ولكن، ما المقصود بأقصى مدينة في الغرب والتي كانت البوابة عند الأفق تؤدي إليها؟ فالبارغم من أي شيء لم يقودني اهتدائي إلى الإسلام إلى الغرب: بل على العكس قادني بعيدًا عن الغرب».

أطرق ابن سعود إلى صمت وراح يفكر، ثم رفع رأسه وجهه تعلوه تلك الابتسامة الحلوة التي أحبها، وقال: «ألا يعني ذلك يا محمد أن اهتدائي للإسلام قد يكون أقصى نقطة في الغرب من حياتك، وأنها ستكف أن تكون حياتك بعد ذلك؟».
بعد مرحلة تحدث الملك من جديد: «لا يعلم الغيب إلا الله. إلا أن الله يشأ في بعض الأحوال أن يهدنا رؤية، بلحة مما يمكن أن يحدث في المستقبل أنا نفسى قد رأيت مثل تلك الرؤى مرتين أو ثلاث. وقد تحقق ما رأيته بالفعل. واحدة من تلك الرؤى جعلتني ما أنا عليه الآن. كنت في السابعة عشرة من عمرى في ذلك الحين، كنا نحنكم كمنفيين بالكويت، إلا أنني لم أكن أتحمل أن يحكم ابن رشيد أرض موطنى. كنت ألهى على أبي، رحمه الله. واترجموا فنحاري يا أبي، لنفرد ابن رشيد من أرضنا، لا يوجد من هو أحق بشرف الرياض منه، إلا أن أبي كان يتعاطى عن طلباتي العاصفة وكأنها حماسات خيالية. وذكرى أن ابن رشيد الآن أقوى حاكم في الجزيرة، وأنه يفرض سيطرته على مملكة تمتد من صحراء سوريا في الشمال، حتى صحراء الزعالي في الجنوب، وأي كل البدو يخشونه ويخشون بلشه.

وفي ليلة رأيت رؤيا غريبة. رأيت نفسي على صهوة جواد في أرض جردة في ظلام دامس، ورأيت محمد بن رشيد على صهوة جواد آخر، لم يكن أي مننا مسلمًا. إلا أن ابن رشيد كان يحمل بيده مصباحًا منهًا وأرففعه عاليًا. حين رأيت اقترب منه، رأيت العداوة في نظراته واستدار بجواده وركبه وانطلق به! إلا أنني طاردته، حتى قبضت على عباثته من كتفه، ثم أطبت على ذراعيه واستنزفت المصباح من يده. ونفخت فيه وأطفأتاه. حين استيقظت، تأكدت على وجه اليقين أن الله قد قدر لي أن أستعيد الحكم من بيت ابن رشيد...»

* * *

في السنة التي رأى فيها عبد العزيز ذلك الحلم، وكان ذلك عام 1897 م، مات محمد بن رشيد. وبدا ذلك في نظر ابن سعود لحظة موازية للهجوم، إلا أن أباه عبد الرحمن لم يكن يميل إلى المخاطرة بالحياة الأمنة التي يحياها بالكويت، ويخرج للقيام بمهمة مشكوك في نتائجها، إلا أن إصرار ابنه وحماسه غلباً تحفظ الأم، وفي النهاية استسلم الأب. وبمساعدة صديقه الشيخ مبارك حاكم الكويت، جمع بعض قبائل البدو.
التي كانت مازلت على إخلاصها وولائها لعائلة ابن سعود، وهاجموا قوات ابن رشيد بالطريقة التقليدية العربية، معركة بالخيالة وراركي الجمال ورامي الرايات والبيارق، وحسمت بسهولة نظرًا لقوة جيش ابن رشيد مقارنة بقوات ابن سعود المستحيلة وعاد بعدها أبوه إلى الكويت وقد أراحه ذلك أكثر مما سبب له من ضيق، وقد قرر أن يعرّق صفو شيخوخته بمغامرات حربية جديدة إلا أن الابن لم يستسلم بالسهولة نفسها. كان دائمًا ما يذكر الرؤية التي رآها في المناخ والتي انكشفت فيها على ابن رشيد؛ وعينًا في الباحة يعترض على عائشه تلك المهمة الخطيرة. ارتبط بعزلة قوية مع مجموعة من الأصدقاء الشباب - كان من بينهم أبناء عمومته عبد الله بن جلوي وابن مساعد وجمعوا معهم بعض المغامرين من البني، حتى بلغ عدد فصيلهم أربعين رجلاً.

انطلقوا خارجًا من الكويت خلسة، دون بيارق ولا طبول أو أغاني حرب حمامية، وتجنبا السير على طريق القوافل، اختبأون نهارًا وسيبرون ليلاً حتى وصلوا مشرف الرياح ونزلوا بواد مهجور. في اليوم نفسه، انتهى عبد العزيز خمسة رفاق من الأربعم رجلًا، وخاطب الباقي قال: «نحن السعة سنضع أرواحنا اليوم بين يدي الله» ستتوجه إلى الرياض - لنجزها أو لنفقها إلى الأبد. إن سمعتم أصوات قتال تناثيك من المدينة، انضموا مسرين معاونين؛ أما إذا لم يصلكم أي شيء حتى غروب الشمس، فاعلموا أننا قد متنا، وأنا أنا الله، إن حدث ذلك، عليكم بالعودة من حيث جتنا سرا وياقضى سرعة إلى الكويت».

وانطلق الرجال استسقاءً على الأقدام. عند حلول الظلام وصلوا مدينة الرياض ودخلوا من جانب مهم من أسوارها كان قد هدمه محمد بن رشيد قبل ذلك بأعوان ليذل بيه أهلها كلما رأوا أسوار مدينتهم مهترأة. ذهبون وهم يخفون أسلحتهم تحت عباقاتهم رأسًا إلى بيت الأمير. كان البيت مغلقًا فقد كان الأمير يخشى على حياته من أهل الرياض، وكان اعتقاد أن يقضي لياليه في القلعة المقابلة للنزل. دق عبد العزيز ورفاقه الباب؛ ففتح لهم عبد، تغلبوا عليه في ملع البصر وأوقفوها وكمموا فمه؛ وقاموا
بنفس الأمر، مع من كانوا بالمأذن، وكانوا في تلك الساعات بضعف، في أسرة، وتناولوا
النغمات السرية بعض النهر من خزين الأمير وقضوا ليلهم يقرأون القرآن بالتناوب.
في الصباح، فتحت أبواب القلعة، خرج الأمير ومنهباها، يحيط به الحرس والصحاب. صاح عبد
العزيز: "يا الله، بيدك روح ابن سعود"، وهم هو ورفاقه الخمسة
يسيرون المجردة من أمامهم المأذن. قذف عبد الله بن جلوي رمحه بقوة
على الأمير، إلا أنه تنحى في الثانية الأخيرة، فأنطلق الرمح ورشق في الجدار الطيني
للقلعة، وعاد ريحويت وراي - مازال الرمح مريشًا بوضعه حتى اليوم، وفتحت الأمير
في خوف وفزع إلى داخل القلعة بينما طارد عبد الله بمفرده. وهاجم عبد العزيز
والأربعة رجال الذين معه حرس الأمير، الذين كانوا متخونين رغم تفوقهم فيعدد من
هول القلعة التي أريكتهم. بعد لحظات ظهر الأمير على سطح القلعة وكان عبد الله بن
جلوي يحاصره ويسب عليه في أسلوب الهرب، وراح يطلب الرحلة التي لم تكن مضمونة ولا
مطولة في تلك اللحظات العصيبة. وحين تقهقر حتى سور السطح وسقط عليه تلقى
طمعة سيف قاتله، وصاح عبد العزيز: "أنا ابن سعود، حاكم الرياض، هلاموا بارجال الرياض،
ما أنذاك عبد العزيز، ابن عبد الرحمن آل سعود، حاكمم الشرعي، فانحر أهل الرياض
يحملون سلاحهم لنصرة رجلهم، وأقبل رفاقه من خارج المدينة في هجوم صاعق وهم
على جمالهم من أبواب المدينة وتطبوا على كل ما واجههم من مواجهة كالفريج العاصف.
خلال ساعة، كان عبد العزيز قد أصبح حاكم مدينة الرياض بلا منازع.
كان ذلك عام 1901، كان عمره آنذاك واحد وعشرين عامًا. أنهى مرحلة شبابه
ودخل المرحلة الثانية من حياته، مرحلة الرجل الناضج، والحاكم.
خطوة بعد أخرى، ومنطقة بعد منطقة استعاد ابن سعود كل نجد من آل رشيد،
ودفعهم إلى التقهقر والعودة إلى ديارهم في جبل شمار وإلى عاصمتهم في حائل. كان
ذلك التمدد واسترداد الأرض يتم كما لو كان تحت تخطيط وإشراف مجموعة من قادة
الهيئة حربية متبرسة بالخمر، وتخطيط المارك والمصارات، وتوفير المهن، وتأمين الطرق
وبعى بмагاهيم الجغرافيا السياسية - بالرغم من أن ابن سعود لم تكن لديه القيادات
المؤهلة ولم تقع عيناه على خريطة من قبل. كانت غزواتها تتم في نطاقات حليزونية
مركزها الثابت مدينة الرياض، لم يتخذ أبداً قرارًا بالهجوم على مدينة أو منطقة إلا إذا
كانت المناطق التي سبق غزوها مؤمنة تمامًا وتحت سيطرة كاملة من قواته. في البداية
اتهم إلى ما يلي الرياض من الشرق والشمال، ثم مد نفوذه إلى المناطق الغربية
من الرياض. كان زحفه إلى الشمال بطيًّا، فقد كان ابن رشيد مازال يمتلك قوات
لا يستهان بها كما كان مدعومًا من الأثراك الذين تحالفوا معه من عقود سابقة.
كما أعاق ابن سعود فقره. لم تكن المنطقة الجنوبية من نجد تبر عليه ما يكفي
من عوائد لتمويج قوات كبيرة من المقاتلين لدى زمني طويل.
أخبرني ابن سعود ذات مرة: «في يوم من الأيام كنت في قلبي إلى درجة دفعتي إلى
مهني سيف مرصع بالحجارة كبرى كان قد أهداها إلى الشيخ مبارك حاكم الكويت. ردتهن لدى مراب يهودي بالكويت. لم يكن بإمكانه أن أوفر طلاءً على سرج جملي.
فوضعته بدلًا عن أجولة فارقة من التي توضع تحت قرب الماء على الجمال.
كانت هناك مشكلة أخرى جعلت الأمر في غاية المشاقة والعسر على ابن سعود:
وي هي مشكلة قبائل الإبل.
فعلى الرغم من المدن والقرى الموجودة بالمنطقة المركزية فإن أغلب سكانها كانوا
قبائل بني بدو. وكان موقفهم الذي يخوذه مع عبد العزيز أو ضده يحدد بشكل كبير
نتائج المعارك بينه وبين ابن رشيد.
كان البدو متقلبين ويدلون مواقفهم بسهولة طبقًا لما يرون من رجحان كفة طرف
على آخر في أي لحظة، أو يوافقون من يتوجسون أنه سيستمهم غنائم أكثر. وكان منهم فيصل
الداويش، زعيم قبائل معطر، الذي كان يخ אנحياره إلى أحد الجانبين يرجع كلته على الآخر.
كان يذهب إلى حائط ويمضي من عدمه محتلاً بالهدايا والهبات، وفي أوقات أخرى يدير
ظهره لابن رشيد ويقدم على الرياض ويقسم بين الولاء لأبن سعود. ليتخونه بعد شهر
لم يكن مخلصًا لأحد، كان شجاعًا وجشعاً ويتملكه طمع وتطعع هائل للقوة والسلطة، وكثر
ما كانت مواقفهم سببًا في لبائل كثيرة قضاها ابن سعود بعيون مسدها جفاها النوم.
بينما كان ابن سعود محاصراً بكل تلك المشاكل، وانتهت فكرة بدا الغرض منها في البداية وكأنه غرض سياسي، إلا أنها تطورت وتمت وتحولت إلى فكرة عظيمة تبين أنها من الممكن أن تخير وجه كل الجزيرة العربية. كانت الخطة تهدف إلى تسكيك القبائل المرتبطة المتة. كان من الواضح أن مجرد تسكيك تلك القبائل في أماكن ثابتة لن يكون متاحاً لها اللعب على الجانبين المتحاربين. أما حياتهم كقبائل مرتبطة فقد كانت تجعل من السهل عليهم في أي لحظة حل خيامهم في وقت قصير ويرحلون بقطعان أغنامهم وإبلهم جيئة وذهاباً، من جانب إلى جانب مضاد، والعودة إلى غيروها رأيها، أما إذا استقروا فإن لجومهم إلى تقل ولائهم إلى جانب آخر سيهدرهم بفقد ممتلكاتهم المستقرة من منازل وقطعان أبل وأغنام؛ ولا يوجد ما هو أعز وأولى على البدو من ممتلكاته.

جعل ابن سعود من مسألة استقرار البدو من أهم نقاط برنامجه. وقد دعم هذا الاتجاه ما تنص عليه تعاليم الإسلام، التي كانت تعالى من شأن المستقر على المرحل، وأرسل الملك مسلمين من المشايخ ليغرسوا تلك القريمة في نفوس البدو ويلقنونهم تعاليم الإسلام الصحيحة ولم يكن يتوقع نجاحًا كبيرًا. كان تنظيم الإخوان - وهو الاسم الذي أطلقه البدو الذين أخذوا في الاستقرار على أنفسهم - قد بدأ يتخذ شكلاً وكان أول شكل مستقر للإخوان مكون من عوا - مطيري، وهي القبائل التي ينتمي إليها الداويش؛ أما المنطقة التي استقروا بها وهي المنطقة الأرطوية، فقد تم خلال بضع سنوات وتحولت إلى مدينة بلغ عدد سكانها من البدو ثلاثين ألفًا، ثم تبعتهم قبائل أخرى من البدو في الاستقرار.

تحول الحمس الدينى للإخوان وميلهم لخوض الحروب إلى قوة جديدة في يد ابن سعود، وبدأت حروبه من ذلك الوقت تكتسب شكلًا جدًا: اكتسبت وجه الحمس الدينى الذي يخوض المعارك لمن أجل مكاسب دينية بل من أجل إعلان شأون العقيدة. أما بالنسبة للإخوان، فقد كانت الولادة الجديدة للإيام تحتوي على الأقل على مضمون أشمل من المضمن الشخصية الذاتية. كانوا يلتزمون بالعهدونية وتعاملا ببساطة أو تحريف متزمن بالتعاليم الإصلاحية للمصلح الدينى محمد بن عبد الوهاب التي أعلنها.
في القرن الثامن عشر (كان يستهدف منها استعادة الوجه الحقيقي للإسلام في نقاءه الأول «وأند» كل البدع التي أدخلت إليه على مدى العصور)، كان الإخوان بل أنثى شكل يستعرضهم حماسًا يغذيه إحساس باللغز من بانهم يمثلون الوجه الصحيح الوحيد للإسلام؛ وما تأقلا إلى إله أكثر من أي شيء آخر لم يكن الحق المطلق بقدر ما كان تأسس مجتمع جديد يسمى بالعدل، ويمكن أن يسمى بحق مجتمعًا إسلاميًا.

حقيقة، كانت مفاهيم أغلبهم مفاهيمًا بدائية، وكان حماسهم يتسرب بالتعصب الزائد؛ ولم تتعليمهم وإرشادهم بشكل أفضل مع إيمانهم الدينى العميق، لكان ذلك قد خلق منهم نواة أصضيلة وحقيقة واجتماعية وروحية لبعث جديد لكل الجزيرة العربية.

واسبوع الحظر، لم يتمكن ابن سعود من التنقل تلك الرؤية وما يمكن أن يترتب عليها من فوائد وظل قائمًا وراضيًا بما عليه من مظاهر إبداعية وفهم سطحي للدين، وابتعادهم عن المعارف الدينية في الحقيقة، لم يفعل لهم إلا ما وجدوه بالكاد ضروريًا للحفاظ على حماسهم الدينى، وبعبارة أخرى، لم ير ابن سعود في حركة الإخوان إلا قوة في يد السلطة. وفي الأعوام الأخيرة قدر لهذا القصور أن يقلب ويصبح قوة مضادة تهدد الملكة التي يجهدها، وخلق ذلك أول انطباع مبكر بنقص المبقية الداخلية التي توقع شعوبه أن يتصو فيها، إلا أن خيبة أمل الإخوان في ملكهم وخييبة أمل الملك في الإخوان فقد نتجت عن عدم فهم متبادل من زمن طويل.

ففي عام 1912، ويتلك القوة الضاربة للإخوان تحت إمرة الملك، وجد ابن سعود أنه قد أصبح قويًا بما يمكنه من استعادة منطقة «الحساء» على الخليج الفارسي، والتي كانت تابعة لنجد، إلا أن الأتراك كانوا قد احتلوا قبل ذلك بخمسين عامًا. لم تكن محاولات الأتراك للأمر الجديد على ابن سعود فقد واجه قبل ذلك فصائل المدفعية التركية التي كانت تدعم ابن رشيد، إلا أن الهجوم على «الحساء» التي كانت تحت السيطرة التركية المباشرة، كان يجعل وجهًا مختلفًا: سيفضله مثل ذلك الهجوم في صدام مباشر مع قوة عظيمة لم يكن أمام ابن سعود استعدادات أخرى، فإن لم يسترد

210
منطقة الحسا بموازائها، ستظل صلاته بالعالم الخارجي مقطوعة، ولن يتمكن من الحصول على احتياجاته الأساسية من السلاح والذخيرة وضرورات الحياة اللازمة لأي جيش. برر الاحتيال مواجهة ذلك الخطر الكبير؛ ولكن الخاطرة كانت جسمية، خاصة، إذا ترتبت عليها الانفجار في حروب مباشرة ضد الأتراك، وتردد ابن سعود كثيراً قبل أن يتخذ قرار مواجهة الحسا وعاصمتها، مدينة الهفوف. حتى اليوم مازال الملك مغرمًا بإعادة سرد الظروف التي اتخذ فيها قرار مواجهة الأتراك في الحسا.

لا يترجأ منهم: يرى الملك:

«كنا قد أصبحنا على مشارف الهفوف، من فوق أطلال الذين كنا عليه كن كأرى أسوأ القولعة الحصينة التي تشرف على مدينة الهفوف. كانت الحيرة متملئة في الموارنة بين الكاسبا والخاطرة التي قد تنغص من مواجهة الهفوف. أحسست بالتعب، واشتقت للهدوء والأمان إلى بيتي، وحين ورد البيت على ذهني، طاف بخيالي وجه زوجتي جوهرة، وقُررت تتورث إلى ذهني القصائد الشعرية التي يمكن أن أقولها لها لو كانت بجانبي في تلك اللحظة. وقبل أن أتبت من ذلك، وجدت نفسي مستغرقًا في تأليف قصيدة شعرية لها، نسيت تمامًا أن أنت كما نسيت القرار الخطير الذي أُرد في اتخاذه، وبمجرد أن اكتملت القصيدة في ذهني كنت تبكيها، وضعتها في مغلف، وأمرت أحد حملة الرسائل: "خذ أسرع ناقتين ليكو، وأذهب إلى الرياض دون توقف وسلم هذه لامحمد".

وفي الوقت الذي كاد فيه الرسول أن يختبئ في زاوية طويلة من انطلاق النافذة، وجدت نفسي فجأة أتخذ قرار الحرب الذي كنت مترددًا في اختياره: سأهاجم الهفوف، وسيكتب الله النصر لي».

ثبت أن نتائج كانت في موضعها؛ فقد كان الهجوم جريئًا، اجتاح مواقع القلعة، واستسلمت القوات التركية، وسمع لهم الملك بالانسحاب بأسلحتهم ومعداتهم إلى الساحل؛ حيث رحلوا بالبحر إلى البصرة، إلا أن الحكومة العثمانية لم تكن تسلم بانتزاع الهفوف منهم بهذه السهولة. اتخذت حكومة إسطنبول العثمانية قرارًا بتجهيز حملة عسكرية للاعتدال ابن سعود واسترداد الهفوف. ولكن قبل تنفيذ القرار، انفجرت...
معارك الحرب العالمية، مما أجبر الأتراك على توظيف كل قواتهم العسكرية وتوجيهها إلى معارك أخر؛ وعندما انتهت الحرب، كانت الإمبراطورية العثمانية قد انهارت.

ومع حرمان قوات ابن رشيد من الدعم التركي، انحصر وجودهم في المناطق الشمالية المتاخمة لمناطق التخويف البريطانى والفرنسي، ولم تظهر لهم بعد ذلك أي مقاومة فعالة. وقيادة فيصل الداوشى - الذي أصبح من أشجع أنصار ابن سعود - استولت قوات الملك على مدينة «مأحيت» عام 1921. وقد بيت آل رشيد آخر مدينة كانت تحت سيطرتهم.

أما قمة توسعات ابن سعود فقد حدثت في 1925، حين غزا الحجاز، بما فيها من مدن، مكة والمدينة وجدة. وطرد أسرة الشريف حسين التي كانت قد استولت على السلطة في الحجاز بعد ثورة الشريف حسين بدعم بريطانى ضد السلطة التركية عام 1916، وبلغهزه للأراضى المقدسية علا بنيه في العالم الخارجي، وكان قد بلغ في ذلك الوقت الخامسة والأربعين من عمره.

أشاع صعوده غير المسبوق إلى حيزة السلطة والقوة في بلد عربي إسلامى مستقبل، في الوقت الذي كانت فيه أغلب الدول العربية والإسلامية تترج تحت سيطرة الاستعمار الأوروبي، أملاً لدى الشعوب العربية والإسلامية بأنه أخيرًا ظهر القائد العربي الذي سيخلص كل الأمة العربية من نير العبودية والاحتلال الأجنبى، كما نظرت إليه شعوب الدول الإسلامية غير العربية نظرتها إلى من يعيد إحياء قوة الإسلام إلى كامل مجدها بتأسيس دولة تعتمد في حكمها روح نصوص القرآن، إلا أن تلك الآمال لم تنحقق. فكما زادت قوته وتمكنت، كان يتضح أكثر أن ابن سعود لم يكن أكثر من ملك، لا يهدف إلى ماهو أكثر مما استهدفه كثير من حكام الشرق الذين حكموا بلادهم حكمًا أوتوقراطياً من قبله.

كان ابن سعود كريماً وعادلاً في حيئته الشخصية، وفيًا لصدقاته ومؤديه كما كان كريماً إزاء أعدائه في نبل وشهامته. وهب الله ذكاء فتري فائق كثيراً ذكاء أقزائه وأتباعه، إلا أنه لم يظهر ما يدل على شمول الرؤية وإلهام القيادة الذي توقعه منه.
كثرون. لقد حقق الفعل الأمن لكل شعبه في الأرجاء الشاسعة لبلاده لم يتحقق مثله في أي بلد عربي من عصر الخلفاء الراشدين المبكرين من ألف عام مضت، إلا أنه بعكس الخلفاء الراشدين، حقق ذلك الأمن بقوانين صارمة وعقوبات شديدة، لا بخلق الإحساس بالمسؤولية لدى أبناء شعوبه.

وأرسل عدداً من الشباب إلى خارج البلاد لدراسة الطب والاتصالات اللاسلكية، إلا أنه لم يشرب شعوبه كرربح في التعليم حتى ينتشلهم من وحدة الجهول التي انزلقوا إليها عبر قرون طويلة. واعتاد أن يتحدث بكل ما يبدى على إيمانه بذلك. عن عظمة الحياة الإسلامية، إلا أنه لم يفعل شيئاً لبناء مجتمع متطور عادل بالطريقة التي تحقق بها عظمة الحياة الإسلامية.

كان بسيطاً، متواضعاً، ويعمل بدون كل، إلا أنه في الوقت نفسه انغمس في ومن حوله في ترف مسرف بلا حدود. كان ملتئماً بعمق ويتبزون حرفيًّا بكل ما نصت عليه الشريعة الإسلامية، إلا أنه نادراً ما اهتم بالجهاز الروحي والفطري من تلك الوضايا التشريعية.

كان يؤدى الصلوات الخمس بانتهاء الالتزام ويقضى الساعات الطويلة من الليل في تعب وتنهد: إلا أنه لم يرد على ذته أن الصلاة وسيلة لا غاية في ذاتها. كان يحب الحديث عن مستوى الحاكم تجا رعايه، وكان غالباً مايذكر حديث الرسول ﷺ: "كلكم مراً، وكل مراً مسؤول عن رعيته"، غير أنه أهل إعداد أبنائه الإعداد الملائم لمواجهة المهاف التي كان عليهم القيام بها. وحين سأل ذات مرة، لماذا لا ينظم المملكة على أسس أقل خربية حتى يرت أبناؤه دولة منظمة ذات مؤسسات، أجاب: "لقد غزوت أرجاء مملكتي بسيئي ومجهودي الشخصي، فليبذل أبنائي أيضًا مجهودهم من بعد".

تذكر حواراً دار مع الملك عن الإسراف الزائد وغياب الرؤية الإدارية الصحيحة.

كان ذلك بمكة، في أواخر عام 1928، حين كان قائد حركة الاستقلال السورى الشهير، شקיב أرسلان يقوم بزيارة الملك. وقدمت لابن سعود إليه هذه الكلمات: "هذا محمد أسد، ابننا، عاد لتوه من المنطقة الجنوبية. إنه يهوي الرحل بين مناطق البدو".

213
أثار ذلك على الفور فضول الأمير شكيب أرسلان الذي لم يكن مجرد قائد سياسي، بل كان متعادل الاهتمامات ودارساً رفيعًا المستوى واسع الاعتقاد والعرفة، وأراد أن يعرف انطباعاتي حين علم أنني أوروبي واعتقدت الإسلام. وصفت له بعض جوانب تلك الرحلة إلى الجنوب، خاصة ما لاحظته في وادي بيشا الذي لم يطأه أي أوروبي من قبل، وحكيت له عن الإمكانيات الهائلة المتوفرة بذلك الوادي، وثراءه المائي وأرضه الخصبة التي تعد أساسًا لمشروع واحد، واستشرتك باتجاه الملك وقلت له: «أنا متأكد يا إمام، أن وادي بيشا من الممكن تحويله إلى مصدر للماء يكفي كل منطقة الحجاز، إذا تم إعادة بطريقة علمية لزراعته».

استمع الملك باهتمام، فقد كان ما يستورد من قمح لمنطقة الحجاز يستنفذ كثيرًا من دخل المملكة - وكان عجز البارود يشغل نفوس ابن سعود.

سألتني: «كم يستغرق تطوير وادي بيشا بهذه الطريقة؟»

ولأنني كنت خبيراً، لم أتمكن من إعطاء إجابة دقيقة محددة؛ واقتريحت عليه أن تقوم هيئة من خبراء أجانب بصع المنطقة، وتقدم خططاً علمية مدروسة لتطويرها، ولقت له إن ذلك قد يستغرق في الغالب من خمسة إلى عشرين عاماً حتى يحقق الوادي أقصى إنتاج من الفلاء.

تساءل ابن سعود: «عشرة أعوام؟ هذا زمن طويل جدًا. إننا معشر البدو لا نعرف إلا شيئًا واحدًا: مهما يكن بيدنا فإنا نضعه في أفواهنا وناكله. التخطيط لعشرة أعوام يشكل زمنًا طويلاً جداً بالنسبة لنا».

حين سمعنا ذلك التقليد المدهش، تطلع الأمير شكب إلى مفتاح الفم دهشة، كما لو كان لا يصدق ماسمعه، ولم أجده إلا أن أبادله النظرة المشدعة.

بدأت بعد ذلك أتساءل: هل ابن سعود رجل عظيم جرده الملك والرفاهية بعيداً عن العظمة - أم مجرد رجل ذي شجاعة وطيعية وذكاء خارق ولا يبتعد إلى ما هو أكثر من السلطة والقوة؟

214
حتى اليوم لم تكن محتضنة إجابات شافية، فبالرغم من أنني عرفت لسنوات طويلة معرفة
جيدة وعميقة، غير أن جانبي من شخصيته ظلت مستعفيةًا على فهمي لا أستطيع تفسيره.
ولا يعني ذلك أنه كان غامضًا بما جعل؛ كان يتحدث عن نفسه بلغة الجديدة، وغالبًا ما كان
ينسب خبراته إلى مصيرها التي استقامت بها: إلا أن شخصيته كانت متعددة الأوجه
حتى إنه كان من الصعب الإحاطة بكل جوانبها، كما كان ظهوره الخارجي البسيط
يخفي خلفه قلبًا مثل أعمال البحر، متعدد الانفعالات والمناقشات الداخلية.

كانت سلطة هائلة، إلا أنها لم تعتزم على القوة، بقدر ما اعتمدت على ما ترى
به قوة شخصيته، مكنته روحه الديمقراطية الحكة من تبادل الحوار والتواصل مع البلد
 الذين كانوا يقودون عليه في ماليس قدرة بالانية كما لو كان واحدًا منهم. كان يدعمهم
ينادونه باسمه الأول مجردًا من أي ألقابه، عبد العزيز. من جهة أخرى كان متحليًا
غير متسامح مع كبار موظفي ومسؤولي الدولة حين كان يبشر بخوضهم وتفاقمهم؛ فقد كان
يكري الالتفاق والتعهد، انتكر واقعة حدث بركة أثناء العشاء بالقصر الملكي. فقد أبدى واحد
من أشرافات مكة اشتملًا على "فجاجة البدو" التي رآها من بعض أهل نجد الذين
كانوا يأكلون الأرز في قبضات كبيرة؛ وحتى يظهر رقيه راح يأكل الأرز بأطراف
أصابعه، وفجأة انفجر صوت الملك قائلًا: "أنتو أيها المتائرون تكلون طعامكم بتانق وحذر
وبطراف أصابعكم: هل السبب في ذلك تعودكم النشل بأصابعكم في القاذورات؟ نحن
أهل نجد لا نخشى شيئًا من قبضاتنا: فهي نظيفة، ولذلك نأكل بعزمية بملء القبضة".

أحيانًا، حين يكون مسترخيًّا تمامًا، بيدو على فمه لبسامة لا تقل في جانيتها عن جمال
وجهه. وكدى على يقين أن الموسيقى لم تكن محترمة في الذهاب الراهب الذي كان الملك
يتمتعه، كان قد وجد نفسه في الموسيقى ومجرد أنها الموسيقى ولكن لأن الأمر كذلك،
كان يظهر ميوله الموسيقية في قصائده التي بكتها، وفي وصفه إلى لتجاربه، وخبراته،
أوغنيه عن الحب والحبال التي ذاع صيتها في نجد وقيامها الرجال على ظهور جمالهم
عبر ارتحالهم بالصحراء، وغنتها النساء في حدودهن. وأفادت طبيعته تلك عن نفسها
في نمط حياتها اليومية المنتظم والمزاج الذي كان يتلازم مع إدارة الشؤون اليومية للمملكة.
كان مثل بوليوس قصير، يمتلك قدرة عالية على متابعة أكثر من موضوع ومشكلة
في أن واحد دون أن يخلب بينها أو يشوب القصور متابعته لأي منها، وهي موهبة
مكتبه من إدارة جميع شؤون المملكة بنفسه على الرغم من اتساع أرجائها دون أن
يصيبه ذلك بها بنحو أو إحساس بالإفراط والإجهاد. ويوجد بعد كل تلك الأعباء من
الوقت ما يشبع فيه ميله وإقباله على نسائه. كانت حواسه على درجة عالية من الحد،
فقد كان يتمتع برؤية باطنية غريزية لم تخزله أبداً في إدراك دواعل كل من يتحدثون
إليه. وحدث مرارةً وقد شهدت ذلك بنفسه - أنه كان يقرأ أفكار كثير من الناس قبل
أن يتفوهم بكلمة، كما كان يستشعر مشاعر الداخلين إليه تجاهه بمجرد تخطيهم عتبة
بابه، وقد مكث ذلك من إجهاض وإفصاح محاولات عديدة تم الإعداد لها بهدف التحلي
على حياته، كما مكثته القدرة نفسها من اتخاذ قرارات فورية عاجلة وموفقة في
التطورات السياسية الظاهر.

باختصار، كان ابن سعود يتميز بصفات كثيرة من الصفات التي تخلق العظماء،
إلا أنه لم يبذل جهداً إراديًّا لإحراز العظمة، لم يكن يفترضه تلك انطوائياً، وكان يمتلك
موهبة هائلة في فهم منطق الأمور بعقلانية، وأدى به ذلك إلى الإحساس بصحة مواقفه
وأنه دائمًا على صواب في كل ما يتخذه من قرارات، وبيذك كان يتجنب محاسبة الذات.
أما من احاطوا به - رجال الحاشية والأعداد الكبيرة المحيطة به وتعيش على كرمه
وسعته - فلم يفعلوا أي شيء لتصحيح ذلك الليل المظلم بإحساسه بصواب كل ما
يتخذه من قرارات

لقد خذل الود العظيم الذي ملأه في شرخ شبابه، حين كان حالًا بطموجات
تطاول السماء، ودخل أحلام أمة ناشئة - ربما دون أن يدرك ذلك - كانت ترى فيه رسول
العناية الإلهية لانتشار الأمة الإسلامية بجمعها مما تعلته. لقد توقعوا وانتظروا منه
أن يحقق لهم ما ينشههم من خيبة الأمل كزعيم ملهم طال انظاره، ويتحدث بعض
أفضل أهل نجد بمرارة مما اعتبره خيانة للمطومات والأعمال التي راودتهم إلا أنها
لم تتحقق.

216
لن أنسى نظرة الإحباط والبؤس التي بدت على وجه صديق من أهل نجد - وكان في يوم من أشد المحسنين لقيادة ابن سعود وقفة معه في أوقات الرخاء والشدة وفي أصعب أيام تكوين المملكة - وعندما كنا نتحدث عن الملك، قال:

«حين انضممتنا إلى ابن سعود ضد ابن رشيد في تلك الأيام البكرت، وحين ركبنا معه، تحت رايات كتب عليها لا إله إلا الله، ضد خانق الإسلام الشريف حسين، كنا نؤمن أن ابن سعود «موسى» جديد أرسلته العناية الإلهية ليوقد شعبه ويخرجه من وهدة الجهل والتخلف إلى أرض الإسلام الموعودة، إلا أنه تقادس واستراح إلى ما وصل إليه من حياة الرغد والرخاء، ناسيًا شعبه ومستقبل شعبه، واكتشفنا ونحن مروعين أنه فروعون...»

كان صديقى بالطبع قاسيًا جدًا ويعبدًا عن العدل في إدانته تلك لابن سعود: لأنه لم يكن فروعًا، ولا طاغية، كان شقيقًا وبوابًا وعُنيًا ورقيق القلب والحاشية، ولم اشك لحظة واحدة في حبه العميق لأبناء شعبه. إلا أنه أيضًا لم يكن «موسى». الأصح أن إخفاقه من وجهة نظر بعض الناس يرجع إلى الطموحات التي راودتهم والصورة التي تخيلوا ابن سعود عليها، الأرجح أنه استجاب لنداء حيوية الشباب وحماس الرجولة المبكرة. لقد كان صقرًا لم يحوم بجنحته كما ينبغي.

ببساطة، آره أنه ظل على طبيعته كزعم قبيلة مطبع على المروة والشهامة وحب الخير، زعم قبيلة إلا أنها تنتشرعلى نطاق واسع متباعد الأرجاء.

(ه) بعد فترة قصيرة من كتابة هذا الكتاب (1951)، توفي الملك ابن سعود عن عمر يناهز ثلاثة وسبعين عامًا، وفيفاته انتهت مرحلة من مرحل تأريخ الجزيرة العربية. حين رأيته أخرى مرة عام 1951 (كتب أقوم برزية رسمية للملكة العربية السعودية كممثل رسمى لدولة باكستان)، بدا لي أنه كان على رأسه لأم أضع عمره فيما كان أقل مما يChess على عمله، بدأ يوجه، الذي كان يطوف بالقوة والحيوية، مليئا بالدراسة، بدأ وكيانه يتحدث عن إنسان آخر قد مات فعلًا ويا لك، من الصعب تذكره.
في الصباح المبكر، قابلت الأصوات الصادرة من ميامي في ميامي، استيقظت على صوت موسيقى عالية وصلت إلى مسامعي من نافذة غرفتي المفتوحة بحصن الأمير، مسدغ، شقشقة بحبيبة، وربود أوتار مختلفة، مثل ماذا كان وآلات نفخ مثبته تجاهها العازفة كأنها غزائي مبتدأ، أعز مقطوعة موسيقية، ثم كأعضاء آلات مفككة ميلانة الأولى، ولأنها نظامات كثيرة غير منتظمة، بدت كحل غامض من لحن وهمي وشبيه في توحيد أصواته ثم تفرقها... لا بد أنها فرقة موسيقية هائلة العدد، فالإصوات الصادرة كانت عديدة وحائط...

خطوته إلى النافذة ورحت أدكان في ضوء الفجر الوديد، إلى ما وراء ساحة السوق الخالدة، وإلى ما وراء منازل المدينة الرمادية الخفيفة من الطين الجاف، وتبنياته سقوف الدلت التي تسمع عليها أشجار الطيز، وجتمعات النخيل. وأدركت مصدر الصوت: كانت موسيقى صادرة من أبيض المياه وسط بساتين النخيل والتي كانت تبدأ عمل يوم جديد، مكتات الأبرار، كانت المياه ترجع في دلاة من الجلد باستخدام الجمال. كانت الدلاء محبوكة إلى جبال، والجبال تمر على بركة عند فوهة البحر وتنتهي بربطها إلى أحد الجبال، وكل بركة تدور حول محور خشبي وتتبتعت منها تلك الأصوات عند دورانها، تتلفت تلك الأصوات التي تتلاوت من أصوات الشبل الغناء إلى أصوات صغير وصغير، أصوات ترتفع وتت Ngọcؤ حتى يتدلى الحبل إلى آخره في باطن البحر وتتوقف البكرات عن الدوران، وتصدر صوته عاليًا مثل الصياح قبل توقفها، ويفتح صوت الصياح تدريجيًا مع ارتفاع الجبال، لتحمل ملحها أصوات انفجاع المياه في الأحواض الخشبية بجوار أبار أخرى; ثم تستخدم الجمال وتذهب ببطء بمنطقة من البحر لجذب الدلاء من أموراً الآبار، فتصدر البكرات أصواتًا جديدة والجبال تجري فوقفها حتى تصل الدلاء إلى حافة البحر. ولكن أكثر الأبار، لم توقف الأصوات للحظة واحدة، تتوقف نغماتها أحيانًا، وتختلف وتتبثين في أحيان أخرى، بعضها يبدأ في ميلاد جديد، وأخرى تختف...
حتى تسويت شلالات من الأذى والأصوات تندفع معًا ثم تتفرق وتتفضَّل عن بعضها - أزيز، تحطم، رنين - ما أعظمها من فرقة موسيقية لم تزلها ولم تضع ألحانها مخللة بشريئة: لذلك تصل تقريبًا إلى مستوى إبداع وعظمة الطبيعة، التي يصعب فهم مكتونها.
الفصل السابع

منصف طريق

[1]

تركنا «حايل» وتوجهنا على الجمال قاصدين المدينة: كنا ثلاثة;
فقد رافقنا أحد رجال ابن مسعود، وهو منصور المسافح
ليصبحنا في الطريق وإنجاز مهمة كلهائها الأمير.

كان منصور في غاية الوضاءة، أو سار في شوارع أوروبا لأداء رؤوس النساء.
كان فارع الطول، بوجه قوى، الملائم متانة القسمات، شديد الجولة، كانت بشرته
بضاء داكنة قليلًا - وهي علامه على حسن المسأله في عرف العرب - دفع العينين حلو
النظره، يعلو عنينه حجابان حسن الصورة. لم يكن به شيء من رقة زبد وحفظه،
فقد كانت ملابس وجبهة تتم عن موافقات جياشة وأضفت عليها هالة من الجديد لا تشبه
ذلك الحزن الهادئ الذي يبدو على صديقي الشمارى. إلا أن منصور، كان مثل زيد
في سعة خبراته التي أكتسبها من تنقله بين أماكن كثيرة، ولذلك كانت صحبته
متمتعة.

كانت طبيعة المنطقة مختلفة، تحولت إلى تربة يختلط فيها الرمادي بالأصفر بعكس
صحراء النقد، التي اجتازناها قبل الوصول إلى حائل. وضح لنا اختلاف الحياة البرية
في تلك المنطقة وكنت غنية بها: سحالى رمادية تندفع مارقة بين أرجل الجمال في
سرعة البرق، لتنحتي بين أعضاء شوكية ثم تراقب عبورنا بعيون لامعة، فأخ صغير

221
رمايى اللون له ذيل مثل العشب وش gerektiğini السناب، وأبيناء عمومتهم من حيوان الجربوع الذين يستطيع أهل تدربه، وقد توقفت وكان له بالفعل من أطياف ما توقف من لحمه. كانت هناك أيضًا زواحف كثيرة ذات سيقان طويلة تشبه السحلة، ولكن أكثر منها حجمًا وتشبه الضب وتحيا على أن سيقان النباتات وضعم لحما يجمع ما بين طعم النجاح والسمك، وهناك أيضًا الخناق السوداء ذات الأربع، والتي تصل حجمها إلى حجم بيسمة النجاح الصغيرة، تشاهد في الأغلب وهي تدحرج في بعرة جمل، تدفعها بسيقانها الخفيفة القوية وتميل ببدنها على أرجلها الأمامية، تدحرج كنزها الشبع باتجاه جرحها وأحيانًا تكون خلفها حفرة تنقلب على ظهورها، ثم تكافح حتى تعديل بصعوبة بالغة، وتبدأ من جديد في دفع لقيتها الثمينة بضعة بوصات أخرى لتقع وتلتقي من جديد وتعود العمل بلا كلل...

فجأة يقفز أردب بردى رمايى في قفزات طويلة سريعة خارجًا من بين أكمة أعمدة رماية، ورأينا غزالًا إلا أنها كانت أبعد من مرمى نيران نفادننا وخافت في الظل الرمادية يزداد بين النملاء...

سألتى منصور: «أخبرنى يا محمد، كيف وقع لك أن تأتي وتحيا مع العرب؟
وكيف اعتنقت الإسلام؟»
رد زيد: «سأخبرك كيف وقع له ذلك»، صممت برهة ثم أجابه: «وقع في هوى العرب أولًا، ثم بعد ذلك في دينهم، أليس ذلك صحيحًا يا عمى؟...
قلت: «ما قاله زيد صحيح يا منصور من أشهر طويلة، حين وصلت بلاد العرب، جذبني أسلوب العرب في الحياة، وحين بدأت أراجع فكرة بيني وبين نفسي، وأسأل نفسى عما أؤمن به، أرسلني ذلك إلى اعتناق الإسلام».
سألتى منصور: «وهل توصلت فجأة يا محمد وفي مرة واحدة إلى أن الإسلام هو كلمة الله الحقيقة؟».
أجابته: "لم يكن مرة واحدة، لم يحدث ذلك بل تلك السرعة لسبب واحد: ففي ذلك الوقت لم أكن أؤمن أن الله قد تحول مباشرة إلى بشر، كما كنت أعتقد أن الكتب التي يدعو البشر أنها من عند الله لم تكن إلا من وضع رجال حكماء...

حققت في منصور بعدم تصديق، وسأل معتجبًا: "كيف يمكن أن يحدث ذلك يا محمد؟ لم تؤمن حتى بالكتاب المقدس الذي جاء به موسى، أو إنجيل يسوع؟ لقد كنت أعتقد على الدوام أن شعوب الغرب تؤمن تلك الكتب على الأقل".

أجابته: "بعضهم يؤمن يا منصور، وآخرون لا يؤمنون أنها من عند الله. ولقد كنت واحدًا من أولئك الآخرين".

شروحه له كيف أن أعداءً كبيرة من أبناء الغرب كفوا عن الإمام بأن الكتب المقدسة - كتبهم أو كتب غيرهم من شعوب - هي كلمة الله الحقة، ولا يرون فيها إلا تاريخًا بشرى لطلع البشر الدين وتطوره عبر العصور.

وواصلت: "إلا أن وجهة نظر تلك سرعان ما اهتزت أول ما عرفت مصممون الإسلام، أضافت: "علمت ما علمته عن الإسلام حين وجدت المسلمين يعيشون بطريقة مختلفة مما يعتبره الأوروبيون الطريقة المثلى للحياة؛ وكتب كلا عميقًا شيئًا جديدًا من تعاليم الإسلام، أشعر أنى أكتشف شيئًا، طالما كنت أعرفه داخلي دون أن أدرك ذلك...

هكذا، رحبت أحكى لمنصور عن أول رحلة إلى الشرق الأوسط - وعن كيفية تكون أول انتساب لى عن العرب في صحراء سيناء، وما رأيته شعرته به في فلسطين وفي مصر، وفي عبر الأردن وسوريا، وكيف واتاني أول إحساس داخلي عميق في دمشق، باتني على وشك ولوج طريق لم أتوجه للوصول إلى الحق والحقيقة...، وأن ذلك الطريق انتضح أمامي رويدًا رويدًا...؛ وكيف رجعت، بعد زيارتي لتركيا إلى أوروبا، وكيف اكتشفت أنه من الصعب جداً أن أحيا في عالم الغرب: لأنه، من جهة، كنت شغوفًا بالتواصل إلى فهم أعمق لذاك الإحساس الغريب الذي انتابني عند أول معرفة لي..."
بالعرب وثقافتهم، وكنت أسعى إلى فهم أفضل لما أريد أنا من الحياة وما أتوقعه منها؛ ومن جهة أخرى، كنت قد وصلت إلى نقطة انتضع لي معها. وعندما أتى أنني لم يكن لي أبداً بعد ذلك أن أتعلم على نفسي وذاتي في إطار من الأهداف التي تكون الفكر والمجتمع الغربي.

* * *

في ربيع عام ١٩٧٤، أرسلتني جريدة "فرانكفورت نيوتن" إلى ثاني مهمة لـ  
الشرق الأوسط. كنت قد انتهت من الكتاب الذي كتبته عن رحلتي السابقة إلى  
الشرق الأوسط (تم نشره بعد رحلتي من ألمانيا بعدة أشهر تحت عنوان "رحلة غير  
حالة إلى أرض الأحلام". ورغم معاذاتي للصهيونية وميلي لشرح وجهة نظر العرب  
بالكتاب قد أحدث بعض الاحتراج في الصحف الألمانية، إلا أن الكتاب لم يحقق  
مبيعات جيدة).

مرة أخرى عبرت البحر المتوسط وشاهدت من البحر سواحل مصر ونحن نقترب منها. وكانت رحلتي من بورسعيد إلى القاهرة بالقطار تشبه من يقلب صفحات كتاب سبقت له قراءة. بين قناة السويس وبحرية المنزلة كان بعد الظهر المصري يفحص عن  
مكتونه، كان الربع البري يصبح في مجموعات كبيرة بالبحيرة وأشجار الطرفة بفروعها  
الروحية تتمازج مع الرياح. كانت بعض القرى تظهر من أن إلى آخر في السهل المتند  
الذي كان مليءاً عند بدايةه لا تغطي أي نباتات، ثم بدأ يظهر في الخالد الجاموس  
المصرى الأسود وهو متروك في تربة الربيع. وحين تحول لنا القطار إلى الغرب  
مبتدأً عن قناة السويس، غطتنا الخضرة المصرية. شاهدت من جديد النساء  
المصريات الشيقات طويلاً عظام القامة وهم يعملون في الحقول ويحملون أوانى المياه  
الفخارية على رؤوسهن دون أن يضلنها بئريهن، فكرت في تلك المشاهد: «لا يوجد  
في العالم بأنجعه - لا أفضل السيارات، ولا أجمل المناشئ العمومية ولا أمنع  
الكتب - ما يمكن أن يبعث في نفس تلك الراحة التي شعرت بها والتي أصبحت
غير موجودة بالغرب، ومهددة الآن بالضياع والاختفاء من الشرق - تلك الراحة وذلك الرضا الذين يعبران عن التوافق الساحر بين الذات الإنسانية والعالم الذي يحيط بها...

كنت أسافر هذه المرة بالدرجة الأولى من القطار. لم يكن هناك إلا مسافر من أخرى في مقصورتي. رجل أعمال يوناني من الإسكندرية، كنت قد اعتدت عادة الشرق من تبادل الأحاديث مع الأغراب في سهولة وأشركتي في مناقشة حامية راح يوجه فيها سخريتي وانتقاده لكل ما يراه، وكان المسافر الثاني عمدة مصرى، والعمدة في مصر حاكم قرية، والذي - إذا حكمنا بالقطفان الحريري الفعال الذي يرتديه، وسلسلة ساعة ذهبية سميكة تندل من فتحة قفطانه - كان غنيًا، إلا أنه بدا راغبًا عن عدم تعلمه: في الحقيقة: ويمجرد أن اشترك في الحوار معنا، اعترف أنه لا يكتب ولا يقرأ، إلا أنه أظهر فتيلًا وسكت بذلك أنيقة ملاحظاته، وكثيرًا ما تصادم بحجة قوية مع اليوناني.

كنا نتحدث، كما أذكر، عن بعض المبادئ الاجتماعية في الإسلام، والتي كانت تشير اهتمامي بشدة في ذلك الوقت، ولم يرض المسافر اليوناني بإعجابه الشديد بمبادئ العدل في الإسلام. ورد على قائلًا بالفرنسية:

"إنه ليس عادةً كما تظن يا صديقي العزيز. "ثم استدار إلى العمة قائلًا: "وأنتداأنا المسلمون ندؤون أن دينكم دين عدل: فهل يمكنك أن تشرح لنا كيف يسمح الإسلام للرجال بالزواج من فتاة مسيحية أو يهودية في حين لا يسمح لبناتكم وأخواتكم بالزواج من مسيحي أو يهودي؟ هل تسمى هذا عدلاً؟ وه؟ "

رد العمة المهب لدون أن يبدو عليه التزيد لحظة واحدة: "سأشرح لك لماذا شرع الإسلام ذلك. نحن المسلمون لا نؤمن أن المسيح - عليه السلام - ابن الله، ونحن نؤمن أنه هو موسى وإبراهيم وكلا الرسول المذكورين في الكتاب المقدس هو رسل من عند الله، وقد أرسل كل منهم إلى البشر بالطريقة نفسها التي أرسل بها خاتم الرسول، محمد - صلى الله عليه وسلم - وذلك إذا تزوجت فتاة مسيحية أو
يهودية من رجل مسلم، فهي على يقين من أنه لن يوجد بأسرتها الجديدة من يتحدث بسوء عما تؤمن به، بينما من جهة أخرى، إذا تزوجت فتاة مسلمة من غير مسلم، فمن المكد أنها ستواجه ما يسوى إلى إيمانها وعقيدتها. ربما من أبنائها أنفسهم: ألا يؤمن الأبناء عادة بما يؤمن به آباؤهم؟ هل تعتقد أنه من العدل أن تعرضها إلى ذلك الألم وتلك المهنة؟

لم يجد اليهودي ما يرد به على هذا التساؤل إلا برهة ضيق من كففه، أما أنا، فقد رأيت أن ذلك العدة الأمى بتلك العقلانية التي أشتهر بها شعبه، قد مس جوعمر وقلب تلك المشكلة المهمة، ومرة ثانية، شعرت أن أيوبًا جنيدا للإسلام تفنح أمامي، كما شعرت تماماً وأنا اتحدث إلى ذلك الحاج العجوز بمدينة القدس.

* * *

ترتب على تغير أحوال المالكة، أن أصبح بإمكان أن أعيش بالقاهرة في مستوى لم يخطر لي على بال من شهر قليلة مضط. لم أعد مضطراً لحساب القروش القليلة والتلتير في إنفاقها. ونسبت تلك الأيام التي قضيتها في أول مرة جلبت إلى القاهرة، والتي كان على أثناها أن أعيش على الخبز وحده، والزيتون واللبن، إلا أنني ظل مخلصاً لمعايير الماضي؛ فبدلاً من الإقامة في أحد الأحياء الرافية بالقاهرة، استأجرت غرفة في منزل صديقي القديم، المرأة البدينة التي قطنت عندنا في أول زيارة للقاهرة، والتي استقبلتنا بأحضان مفتوحة وقبلة على كل خد.

في اليوم الثالث بعد وصولي، وعند غروب الشمس، سمعت صوتًا قويًا لدفع ينطق من القلعة. وأضاءت حلق الأضواء من المصابيح في الشرفات العليا لتنثني مسجد القلعة. وتبعته مانى القاهرة التي أضجت شرفاتها العليا في استجابة لتناثر القلعة: في كل مكتنزة حلق من الضوء، سرت حركة غير عادية في شوارع القاهرة القديمة: إيقاع أسرع يش، باختلافية، وصارت الضوضاء الصادرة عن الشوارع أعلى صوتًا، أرى رأسمع وأشعر بإيقاع حماسي مختلف في جميع الأحواج.
كان سبب ذلك ظهور القمر الوليد، أي بداية شهر عربي جديد (يعتبر التقويم الإسلامي على الأشهر القمرية والأعوام القمرية) وكان الشهر الجديد هو شهر رمضان، وهو الشهر الذي له قدسية خاصة في التقويم الإسلامي. ففي هذا الشهر احتفالات يذكَّر بها مرتين على أربعين، حين انتقل أول وحده على محمد - صلى الله عليه وسلم - بالقرآن. وفي هذا الشهر يصوم المسلمون صيامًا كليًا عن الطعام والشراب، رجلاً ونساء باستثناء المرضى، لا يأكلون ولا يشربون (ولا حتى يدخنون) من لحظة انفجار ضوء الفجر حتى غروب الشمس لمدة ثلاثين يومًا تقريبًا. خلال تلك الأيام الثلاثين يضحي الناس في شوارع القاهرة بميض خاص في عيونهم، كما لو كانوا قد رفعوا إلى مرتبة عالية سامية. في الثلاثين يومًا تسع موافقة المذاعم التي تعلق موعدها تناول الطعام أو الامتناع عنه عند الفجر، وتسمع غناءً وصيحات فرح، بينما تشتعل الساعات والجوامع بالأضواء حتى الصباح، على أن هناك هدفين من شهر رمضان: الأول هو الامتناع عن الطعام والشراب يشعر كل امرئ بما يشعره الفقير والجائع، ويغرس هذا المسئولية الاجتماعية في الوعي البشري كفرض ديني.

والهدف الثاني هو التعود على ضبط الذات والسيطرة على النفس، وهو أحد أوجه الأخلاق الفردية وتؤكد عليها كل تعاليم الإسلام (على سبيل المثال يمنع منعاً كلياً تناول كل ما هو ضار للبدن وكل ما يذهب الوعي، ويعدها الإسلام وسيلة لإحكام الوعي لتبني الإحساس بالمسئولية). من هذين الهدفين - أخوة البشر، وضبط النفس، والسيطرة على الشهوات - بدأت أميز الخطوط الأساسية في منهج الإسلام.

في سعي إلى تكون صورة متكاملة لما يعنيه الإسلام وما يهدف إليه، استندت إفادة عظيمة من الشرح الذي قام به بعض أصدقائنا القاهرة، كان من أبرز أولئك الأصدقاء الشيخ مصطفى المراغي، وكان واحداً من أبرز العلماء المسلمين في عصره، وأحد أبرز علماء جامعة الأزهر (وقد أصبح شيخًا للأزهر بعد ذلك باعوام). كان في منتصف الأربعينات من عمره في ذلك الوقت، إلا أن قوته البدنية وتذكيره العضيل المبارز كان يضفيان عليه حيوية وتركيز إبن العشرين. وبالرغم من شعة

227
اطلاعه وحديثه، إلا أن حسن الدعاية كان من أبرز صفاته. كان تلميذاً للمصلح المصري الكبير الشيخ محمد عبده، كما كان من حضور جلسات الثوري الإسلامي جمال الدين الأفغاني، وكان الشيخ المراغي ذاته من المفكرين الإسلاميين الراصدين والناقدين لوجه الخلل. كان يؤكد على الدعاء أن المسلمين المعاصرين قد تداعوا وسقطوا دون أن يحققوا الهدف من كونهم مسلمين، وأنه من الخطا الفادح أن يقيسوا أهداف رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) على ما هم عليه الآن من نمط حياة وأسلوب فكر، قال: «بالضبط، كما نحكم قياسًا لما نراه من جفاء بين اثنين من المسيحيين على رسالة المسيح بأنها لا تدعو إلى المحبة».

لهذا التحذير، أخلينى الشيخ المراغي إلى الجامع الأزهر.

من شارع البوسكي، وهو من أكثر الشوارع ازدحاماً، وأقدم الأسواق بالقاهرة، وصلنا إلى ميدان جانبى صغير يعد عن الشارع، ويشكل أحد جوانب ذلك الميدان، واجهة عريضة من واجهات الجامع الأزهر، ندخل من بوابة مزدحمة تفضى إلى صحن مفتوح يؤدى إلى فناء واسع مكشوف للجامع، وهو مساحة مربعة مائلة الاتساع محايدة بعقود قديمة ترتكز على أعمدة. كان الدارسون يرتدين الجبة الطويلة الداكنة ومن تحتها قفطان أبيض، يجلسون على حصور من القش ويقرآن بأصوات خافتة كتبًا ونصوصات يدويه.

كانت الدروس والمحاضرات تعقد في الجوانب السقوفة. كل مدرس يجلس على فرش من العصائر تحت الأعمدة التي تمتزج في صوفة طويلة، وأمام كل مدرس يجلس الطلاب في شبه نصف دائرة أمامه، لا يرفع أي مدرس صوته أبدًا، وذلك كان على المثل القائل أن ينتبوا ويركزوا كل حواسهم حتى لا تفوتنهم كلمة. وقد يعتقد من يراهم أن مثل ذلك الاستغراق لابد أن ينتج عنه علماء حقيقيين، إلا أن الشيخ المراغي سرعان ما أطاح بتصوراتي، فقد سألني:

«هل ترى أولئك المدرسون هناك؟ إنهم مثل أبكار الهند المقدسة، إنهم كمن يأكلون كل ورقة مطبوعة يجدونها في أي مكان وأي شارع، ويلهمون كل الكتب التي

228
كتبت من قرون مضت، إلا أنهم لا يهضمونها، لم يعودوا يفكرون. إنهم يقرأون، ويحفظون عن ظهر قلب وعيون ما قرأوه ويردونه كما هو، أجيال بعد أجيال.

قال عثمان: "ولكن يا شيخ مصطفى، بالرغم من أي شيء، فال ซึ่งเป็น-الزهور هو مركز الدراسات الإسلامية الرئيسى وأقدم جامعة في العالم، وأسمه موجود في كل صفحة من صفحات التاريخ الإسلامي، ماذا عن المفكرين العظام، والمفكرين، والمؤرخين، والفلاسفة، وعلماء الحساب الذين تعلموا وتخرجوا فيه خلال القرون العشر الأخيرة؟".

أجاب بابن: "لقد كف على تخريج أهلكهم من بضعة قرون مضت"، ثم أردف: حسن، ربما كان ذلك غير دقيق تماماً، فمن حين لآخر كان يتخرج في الأزهر بعض المفكرين المستقلين حتى عصرنا الحالي، ولكن بوجه عام، أصابت الأزهر حالة من العمق مثل تلك التي يعاني منها كل العالم الإسلامي، وخدمت قوة الأزهر المحركة. أما أولئك المفكرين الإسلامية الذين ذُكرتهم، فلم يحملوا أبدًا أشياءهم أن أفكارهم ستظل تغاد وتتكرر وتحجر أجيال بعد أجيال بدلاً من تطويرها والإضافة عليها، كما لو كانت أفكار وحقائق لا يائزها الباطل. التغيير إلى الأفضل يستوجب تشجيع التفكير الحر بدلاً من ترديد الأفكار السابقة.

أعانى تشخيص الشيخ المراغى الحاذد واللاذع لحالة الأزهر. أن أهم أسباب الركود الفكري والثقافي الذي يعاني على كل أرجاء العالم الإسلامي، لا يتفسر ذلك الركود الفكري والثقافي الذي يعاني على أقدم جامعة إسلامية عقوم المجتمع الإسلامي في الوقت الراهن؟ ألم يؤثر ذلك الركود إلى التفاعلات والتقلبات السلبية لذلك الفقر الذي يعيش فيه المسلمون، وقبلهم الصامات لأخطاء اجتماعية كثيرة يتعرضون لها دون اعتراض؟

تساؤلت: هل لي أن أتغجب، بعد أن قلتم تلك الأدلة الدامغة على انخطاط حال المسلمين، إن وجدت تلك الآراء السائدة عن الإسلام في الغرب؟
الأراء الشائعة في الغرب عن الإسلام يمكن إجمالها فيما يلي: «انحطاط حال المسلمين ناتج عن الدين الإسلامي ذاته، ولا يمكن اعتباره عقيدة دينية مثل المسيحية واليهودية، وأنه أقرب إلى خليط غير مقدس من خيالات الصحراء، والحسية الشهوانية، والخرافات، والاتجاهات والإيمان بالقدر، وهي في قيم تحول بين المسلمين وبين إجراز أي تقدم اجتماعي للأرقي والأفضل؛ و بدلاً من تحرير البشر من عراقيل الخموض والظلم؛ كفليس الإسلام أكثر! ويمجرد تحررهم من العقيدة الإسلامية، وتبنيهم مفاهيم الغرب في أسلوب حياتهم وفكرهم ويكون ذلك أفضل لهم والعالم كله...»

إلا أن ما وجدته من مفاهيم وما توصلت إلى فهمه من مبادئ الإسلام وقيمه، أقنعني أن ما يردده الغرب ليس إلا مفهوماً شائعاً للإسلام. فما وجدته في القرآن لم يكن "نظرية مادية" فقط للحياة، بل على العكس، وجدته يظهر وعيًا شديداً بالخلق عبر عن نفسه بقول كل ما خلقه الله: فهو متوأمن ومنسجم بما جاز بين العقل والاحتياجات البديعة، كما يوازن بين الاحتياجات الروحية للفرد وممتاليته الاجتماعية. اتضح لي أن تخلف المسلمين لم يكن ناتجاً عن الإسلام، ولكن لم يشعه أن يحيوا كما أمرهم الإسلام، وفسألهم في التمسك بتعاليمه.

لقد كان الإسلام هو ما حمل المسلمين الأوائل إلى ذروة فكرية وثقافية سامية حين وجه كل طاقاتهم إلى تدبر أمر المعتقد والوعي المستنير كوسيلة وحيدة لفهم طبيعة الخلق وقدرة الخلق وبالتالي الوعي به فضيحته من خلقهم. لم يطلب منهم اعتماد عقيدة جامدة أو صعبة الإدراك والفهم؛ ففي الحقيقة، لم تكن توجد رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - أي عقيدة جامدة غير مفهومة.

وهكذا، كان التعطش للمعرفة الذي نرى المسلمين الأوائل يخلو من عسف وتعسف العقيدة الذي كان سائداً في أرجاء العالم، كانت المعرفة في أرجاء العالم تناسل نضالًا، مريراً، الوقوف على أقدامها ضد ما تمليه وتفرضه العقائد السائدة لديهم على عكس ذلك، كانت المعرفة في الإسلام تنطلق مباشرة من مبادئ العقيدة ذاتها. لقد أعلن النبي العربي: "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"، ونذكر جدًا
المسلمين مفهوم أن اكتساب العلم هو السبيل للإيمان الكامل ومعرفة الخلق معرفة حقيقة. ولياً تديرنا ما ذكره الرسول - صلى الله عليه وسلم - خلق الله الخدا كما خلق الدواء، تحققنا أن بحثهم عن الدواء ليس إلا تحقيقاً لإزالة الله: وذاك كانت الأبحاث الطبية تستمد دفاعاً من إحساس المسلم أنها واجب ديني وفريضة واجبة. وقراوا ما ذكره القرآن: "وَجَعَلَهُم مَا أَلَمَاهَا كُلُّ شَيْءٍ حُسْنًا أَفَأَمْرُكُمْ أَيْمَانًا" (صدق الله العظيم)، وفي سعيهم إلى النزف المعنوي الذي تضمنت هذه الآية، ودرسوا الكائنات الحية والقوانين التي تحكم موضعها وتطورها: وكأنها أسسوا مبادئ علم الأحياء. وأشار القرآن إلى تناسق دورات ومواقع النجوم وأفلام السماء كدليل على عظمة إبداع الخلق: فدرسوا علوم الفلك والحساب بحماس في الوقت الذي كانت فيه علوم الفلك مقصوربة في الديانات الأخرى. في تحديد أوقات العبادة فقط، كما نجد أن نظريات كورينثوس التي توصلت إلى أن الأرض تدور حول نفسها وأنها هي والكواكب تدور حول الشمس، وأعلنتها في أوروبا في القرن السادس عشر (وقبولها بمراعاة شديدة من متخصصي الكنيسة وكبار رجالها الذين وجدوا أن تلك النظريات تتصادم مع التعاليم الحرفية للإنجيل)؛ إذ أن التأسيس العلمي لتلك النظريات كان قد تم وضعه قبل ذلك بستمائة عام في البلاد الإسلامية. لما توصل الفلكيون الإسلاميون إلى النتيجة ذاتها، وهي أن الأرض كروية وتدور حول محورها، وصولوا إلى حسابات دقيقة لخطوط الطول والعرض؛ وأدرك كثير منهم دون أن يفهموا بالكثير والهبرطة، أن الأرض تدور حول الشمس. بالحاسوس نفسه درسوا الكيمياء والفيزياء وظائف الأعضاء، كما اقتحموا علمات أخرى كثيرة، وجد عباقرة المسلمين أنها مهمة لبناء صرح حضاري دائم ومتجدد. وفي بناء ذلك الصرح، كانوا أكثر من مقدمين بتعليمات الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقوله: "من فتّح باباً من أبواب العلم فتّح الله له باباً من أبواب الجنة"، وقوله: "من سلك طريقًا بلغ فيه علمًا سهل الله له طريقًا في الجنة".

في ذلك العهد الخلاق من تاريخ الإسلام - أي القرن الخمسة الأولى بعد وفاة الرسول - لم يدع العلم عصرًا، أعزى من عصر الحضارة الإسلامية. ولم تمنع بيوت بالأمان ما تعم كل بيوت المدن الإسلامية في ذلك العصر.
وتثمرت الحياة الاجتماعية بدورها بتعاليم الإسلام كما جاء بها القرآن، ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا المسيحية تعتبر أن الأوبئة ليست إلا عينة من الله ونقمته وعقابًا لابد أن يتقبلها ولا يحاولوا منعه أو الحد من آثاره، كان المسلمون يتبعون التعليمات الرسول الذي علمهم مواجهة الأوبئة بعزل المناطق الموبوءة والمدن المصابة. وفي الوقت الذي كان فيه حتى ملوك وأمراء أوروبا المسيحية يعانون الاستجمام نầuًا من العرف غير المستحب دينيًا، كان أقمر منزل إسلامي في العصر ذاته يحتوي على الأقل على حمام واحد، بينما كانت الحمامات العامة الرائعة متشرفة في كل الدن الإسلامة (في القرن التاسع الميلادي، كان بمدينة قرطبة في الأندلس ثلاثمائة حمام عام)، وكان ذلك أيضًا استجابًا لتعليمات الرسول من أن: «النظامة من الإيمان».

لم يعرض الإسلام المسلمين لذلك الصراع النفسي الداخلي من أن الحياة الروحية تتعارض مع متع الحياة الدنيوية، فقد قال الرسول: «اعمل لن تبتُنَّاك كأن تعيش أبدًا، واعمل لآخرئتك كأن تموت غداً».

باختصار، وفر الإسلام حافزاً قويًا للتقدم العثماني والثقافي والحضاري الذي شكل واحدة من أروع صفحات التاريخ الإنساني، وقد زود ذلك الحافز بمواصفات إيجابية حين حدد في وضوح: نعم للعقل ولا لظلم الجهل، نعم للعمل والسعي ولا للتقاس والنكوس، نعم للحياة ولا للزهد والربة. ولذلك لم يكن عجيبًا أن يكتسب الإسلام أثباتًا في طفوات هائلة بمجرد أن تجاوز حدود بلد العرب، وجدت الشعوب التي نشأت في أحضان مسيحية القديس «بوس» والقديس «أوغستين» مثل شعوب سوريا وشمال إفريقيا وإسبانيا القوطية من بعدهم، دينًا لا يُقَر عقيدة ومفهوم الخطيئة الأول لأدم وتأكيد على كرامة الحياة البشرية الأرضية، ولذلك دخلوا في دين الله آملاً، ذلك الذين حدد لهم أن الإنسان خليفة الله في الأرض.

كل ذلك يفسر كيفية انتصار الإسلام وانتشاره الواسع والسريع في بداياته التاريخية، ويفند مزاعم من روجوا أنه انتشر «بعد السيف»، لم يكن المسلمون إذن هم من خلقوا عظمة الإسلام، بل كان الإسلام من خلق عظمة الإسلام. ويفيد أن
تحول إيمانهم إلى عادة وكف عن أن يكون منهجًا وأسلوبًا للحياة، وعن تطبيق تعاليمه بوعي ودرائية، وأن يعوا ما يأمرهم به، خبا، وهج النبض الخلاق في تلك الحضارة وحل محلها التقابل والعقد وتحلل الثقافة تدريجيًا.

* * *

كانت الرؤية التي توصلت إليها، والتقدم الذي كنت أحرزه في تعلم اللغة العربية (كان أحد طلاب الأزهر يعلمني اللغة العربية في دروس يومية)، تجعلني أشعر أنني تمكنت أخيرًا مما يماثل الفتح لعقلية المسلمين، ولم أعد على يقيني السابق باستحالة أن يتقهم الأوروبي بوعي العقلية الإسلامية، كما ذكرت قبل ذلك في كتابي الذي صدر في برلين من شهر سابقة. أيقنت أنه لو تحرر الفرد تماماً من عاداته التي نشأ عليها ومنامجه الفكرية وقبل مفهوم أنها ليست بالضرورة الأساليب الصحيحة في الحياة، لأمكن له أن يفهم ما يبدو غريبًا في نظره عن عالم الإسلام.

وبالرغم من أنني وجدت في الإسلام ما يرضني الفكر والروح، كيف يرضي الدين ويشبع الفرائض، إلا أنني كنت مازلت أرى أنه من الذكاء لأي أمر ذي بصيرة أن لا يحصر فكره في إطار منهج عقائدي لم يصل إليه بذاته باقتناة مطلق.

سائت صديقى واسع المعارف الشيخ مصطفى المراضي في ذلك: "قل لي يا شيخ مصطفى: لماذا يتوجب على المرء حصر فكره في إطار تعاليم معينة وأوامر ونصوص محددة؟ ليس من الأفضل للمرء أن يترك ذلك لبصيرته الداخلية ويسظف منهمها الأخلاق والمناهج السامية؟".

أجاب: "سؤال بالتحديد، يا أخى الشاب، هو لماذا يتوجب وجود عقيدة مؤسسة، والإجابة ببساطة: فتلة قليلة من البشر - الأثينياء فقط - لديهم القدرة على فهم صوت الفطيرة الداخلية. أغلبنا يقع في شراك المتطلبات والاهتمامات الشخصية والرغبات الذاتية، فلو اتبع كل فرد هواه، سيتحول أي مجتمع إلى حالة من الفوضى الأخلاقية.

233
لا يُتفق على نمط أخلاقي موحد. وقد تسألني: ألا يوجد استثناء لذلك التعميم، مثل المستنيرين الذين يشعرون بعدم حاجةهم إلى "التوجيه"؟ ولكن أسأل، ألا يدعي أغلب الناس أنهم باستثناء الآخرين على صواب فيما يرونهم وما الذي يمكن أن ينتج عن ذلك؟

*

كان قد مضى على وجود القاهرة ستة أسابيع حين أصابتي حمى الملاريا، هل المقصود أنه أصيب بأكتشاف حمى الملاريا؟ الراجعة، كانت قد أصابتي أول مرة في فلسطين في العام السابق، بدأت الحمى بصداع في الرأس ودوار وآلام في كل أعضاء الجسم، وعند حلول الليل كنت طريح الفراش لا أقدر على تحريك أصابع، راحت السيدة "فيتيلاري" صاحبة المنزل الذي كنت أقطن به تشرف على رعايتها بحماس، وكانت تستمتع بعدم قدرتي على الحركة، إذا أن اهتمامها كان اهتمامًا حقيقيًا. كانت تعطيني لحنًا للاشرب، وتضع الكمادات الباردة على رأسي لخفض درجة حرارة بدنى المحموم، وحين اقترحت عليها أنه ربما كان من الأفضل استدعاء طبيب، ربت في غضب وغضب:

"طبيب، بوه، ما الذي يعرفه أولئك الجزارون عن الملاريا؟ أنا أعرف عنها أكثر مما يعرفه أي طبيب. لقد مات زوجي الثاني بها في ألبانيا، كنت وقتها نسكن في مدينة دوراتسو في ألبانيا وعشنا بها لأعوام، وكان المسكن يعاني من نوبات ألم، أشد مما تعاني أنت الآن، إلا أنني ظل على ثقتها بي حتى النهاية..."

كنت في حالة من الضعف والإعياء لا أتمكن معها من مناقشتها، وتركتها تسكب في جويف كميات من النبيذ المعتق اليوناني الساخن ودواء الكينين - ولم يكن ينتج بعد على شكل حبوب مخبة بمادة سكرية، بل السحوق ذاته الذي كان يسبب لي صدمة بمزاجة الرد مثل الالعقم وكان آلم تجربته أشد من آلام الملاريا - ولكن الغريب
أننى وقفت بالسيدة "فيتيللي" بالرغم من إشارة المشؤمة إلى "المحروم زوجها الثاني".

في تلك الليلة، حين كان بندي يلتهب بالحمى، سمعت فجأة موسيقى عذبة مجسمة. من الشاعر: كان صوت آلة "البيانو". لم يكن صوت واحد من تلك الآلات التي تصدر ألحانها بالطريق على أنثاي مقلقة، فقد رأيت آلات "البيانو" قبل ذلك في شوارع القاهرة: رجل يحمل صندوق الموسيقى على ظهره، وصبي يعاونه ويسير خلفه، يدير يد الصناديق؛ فتصدر الألحان فراها، قصيرة ورقية، مثل سهام تصيب أهدافها، مثل صوت تحطم زجاج، ومسافة زمنية تفصل بعضها عن بعض، لا تشعر المستمع إلى يستمع إلى حزن متكاملاً، ولكنها تجره إلى اهتزازات عصبية استجابة لأعضائه. كانت تشوه اللغز الذي يتجول عليه، إلا أنك لا تستطيع أن تنفذ إلى ما لا وجود له; فتتحول تلك النغمات إلى نوع من العذاب المضني والمرهق للأعصاب وتكرار ألحانها في صمت الليل، مثل ذوات عاصفة لا مهب منهما ولا فكاك، مثل الإيقاعات الحركية لحلاة الذكر التي أقامها الدراويش وشاهدتها في مدينة "سكتواري". هل كان ذلك من شعور أم كان من أعوام طويلة مضت؟ لقد رأيت ذلك بعد أن مررت بمنطقة ينبث فيها الصبّار بكثافة.

كانت من أغرب الغابات، تلك المدافع التركية في منطقة "سكتواري"، والتي تقع مباشرة عبر البوسفور أمام مدينة أسطنبول: مساكن وممرات بين نباتات صبّار شديد الكثافة، وتحت نبات الصبّار، أعداء لا نهائي من قبر، بعضها سقط شاهده، وبعضها مازال قائماً بموضعه وتعلوها حروف عربية تأكل بعضها بفعل الزمن.

كانت مدافعة قديمة مهجورة من أزمان، ومن أجسام مرتها التي تحلت نبتت في المقابر أشجار هائلة ذات جذور ضخمة يصل ارتفاعها إلى ستين أو ثمانين قدمًا، تنمو بالرغم من تفارت الفصول في أحضان اللوّم والسكنى الذي تجلّى في أجل صورة في تلك الأيكة التي لا تتيح لك فرصة للانقضاض. لم أشعر بمثل المشاعر التي أحسنتها في ذلك المكان، سيطر على إحساس أن الموت غير موتٍ إلا أنهم نائمون.
أو أنهم موتى عالم سمع لأحيانه أن يحيوا في سلام ، موتى من يشر ماتوا دون عجلة ...

بعد جولة قصيرة في أرجاء تلك المدينة، سرت في الشوارع الضيقة لمدينة "سكيتاريا" المبنية فوق التلال، شوارع تصعد وتبتعد في إتجاهات متباينة، وصلت إلى مسجد صغير لا تميزه إلا بعض النقوش العربية فوق بابه. كان الباب نصف مفتوح فدخلت - وقفت في قاعة معتمة قليلاً في منتصفها، بُنِىَت لِهيئة أنس يجلسون في حلقة دائرة على بساط حول رجل عجوز طاعون السن. كانوا جميعًا يرتدون قفاطين طويلة ويبسون على رؤوسهم طواقم بنيتا بلا حواف. كان الإمام العجوز يتبنا سورة من سورة القرآن في صوت رتيب وإلى جوار الجدار جلس مجموعة من الموسيقين: رفوع ودعون ونائ وقثير.

بدر إلى ذهنه أنه تجمع الدراويش الذين سمعت عنهم قبل ذلك كثيرًا: وهو نظام صوفي يسعى إلى الوصول بالوعي إلى حالة من الارتداء عن الوجود المادي إلى حالة من النقاء الروحي الخالص وذلك بأخذ حركات إيقاعية رتيبة تزداد سرعة إيقاعها وتتصاعد حتى تصل بهم إلى حالة من الانفصام عن الواقع المادي للحياة وتمكن صاحبها من تحقيق حالة من التواصل الروحي السامي والذويبان في عصمة الرب.

دام الصمت برده بعد انتهاء الإمام من تلاوة القرآن، ثم قطع الصمت صوت مفاجئ للناي، وبعدها صاحبته باقي الآلات في إيقاع رتيب متكرر، كالانتحاب كالعويل. ثم نضح الدراويش كما لو كانوا وحدة واحدة فنزعوا عنهم قفاطينهم ووقعوا بجلاليب بيضاء تصل إلى كواخلهم وعليها أذونة عند الخصور. استدار كل منهم نصف دورة في اتجاه واحد، حتى إنهم وهم يقفون في دائرة، يواجهون بعضهم: كانوا يعقدون أذرعهم في صدورهم وينحنون احتمالاً شديدًا وهم يستديرن بجنويعهم في نصف دائرة (ذكروني ذلك بفرسان العصور الوسطى في أوروبا وهم ينحون بالطريقة ذاتها أمام السيدات) في اللحظة التالية، كان الدراويش يقفون أذرعهم في الاتجاه المعاكس، الكف اليمنى ترفع واليسرى تنزل إلى الجانب. وتخرج من
حولهم مع كل نصف احتواء واستناداً لآيات مثل غناء هامس: «هو يقصرون
بأجل الصوت الهادئ الخارج من الشفاه، يبدا الدراوية في الاستدامة البثيرة حول
إذاعة على نغمات من إيقاع الدفوق والنواة التي كانت كأنها تأتي من مكان متناضب
بعد. ثم يطولون رؤوسهم الخلف ، مغمضين أعينهم، ويجتاح ملامحهم تقلص ناعم
ثم تتصاعد وتتساقط إيقاعات الحركة; وترتفع الجليبيب لتكون دائرة متصلة حول كل
درويش مثل دوايات البحر; يبدو على وجههم الانتقام والذوبان في عالم مختلف...
تحولت الدائرة إلى دوايات; اجتاحهم الانتقام، وشفاههم تكبر بلا نهاية كلمة
واحدة: هو... هو... هو... هو... أبدانهم تدور وتدور، سحبهم إيقاعات الموسيقى إلى عالم
من الرتبة التكمارية الخالية من صوت وحركة، رابطة متصاعدة، متسارعة،
تشعر وأنت الراقي كأنها تسحبك معك إلى داخل الدواء المتصاعدة. على درج يطول
في التفاف حزمي، أعلى فأعلى، دائمًا إلى أعلى، على درج صاعد متصاعد، دائمًا
إلى أعلى، صعود حزمني دائم لا تسرب عليه، ولا تصل إلى نهايته... 

لا أن أفكارك وصلت إلى نهاية حين أحسنت البالد الحائشة للسيدة "فيتيلى"
والتي وضعت حدًا لتلك الدوايات التي كانت تتصاعد في ذهني، وعادت بي من مدينة
سكوتاري، إلى برودة الغرفة الحجرية التي كنت أقطنها بالقاهرة.

كانت السيدة "فيتيلى" على صواعق: على أي حال، وأعنتني على قطر وخطوة نوية
حتى الملاريا الراجعة. إن لم يكن بسرعة، فعلًا الأقل في نفس المدى الزمني الذي
كان سيتطلب من أي طبيب محترف. خلال يومين، شفيت من الحمى. وفي الثالث
انقلت من الفراش إلى مقعد مريح، كنت مازال في حالة من الضعف والوهن
لا يمكنني من الخروج من المنزل، وراح الوقت يمر ثقيلاً، متباطنًا. ودارني مرة أو
مرتين طالب الآخر الذي يدرس للغة العربية وأحضر لي بعض الكتب لقراءتها.

شملت فكرتي ذكرى حلقة الذكر التي قام بها الدراوية في مدينة "سكوتاري".
وأتضحنت في ذهنى معاني لم تبدي لي عندما شاهدت حلقة الذكر. كان ذلك الطقس
الديني لتلك الجماعة - وهي واحدة من جماعات كثيرة شاهدتها في مختلف البلاد
الإسلامية - لا يتفق مع صورة الإسلام التي كانت تتبلور في ذهني ببطء. طلبت من صديقى الأزهرى أن يحضر لي بعض كتاب المستشرقين التي تتناول موضوع الأكران، وتبين لي أن شكي كان في موضعه، وأن تلك الممارسات والطقوس دخلة على الإسلام من جهات ومصادر غير إسلامية.

لقد شابت تأملات وأفكار التصوفة الإسلامية أفكار روحية هندية، وفي أحيان أخرى تأثيرات رهينة مسيحية - مما أضيف على بعض ذلك التصوف مفاهيم وممارسات غريبة تمامًا على الرسالة التي جاء بها النبي.

لقد أكدت رسالة النبي على أن السببية العقلية هي السبيل الوحيد للإيمان الصحيح، بينما تبعد التأملات الصوفية وما يترتب عليها عن ذلك المضمون. والإسلام قبل أي شيء مفهوم عقليًا لا عاطفي ولا انفعاليا، والانفعالات مهما تكون جياشة، تعرض للاختلاف والتناين باختلاف رغبات الأفراد وتباين مخاوفهم بعكس السببية العقلية، كما أن الانفعالية غير معصوبة بأتي حال.

* * *

من تلك الجزئيات يا منصور راح جوهر الإسلام يتضح أمامى: لحنة من هذا ومضيضة من هناك، ومن حوارات، من كتب من ملاحظات مباشرة - راحت الصورة تتكاسل ببطء في ذهني، بدون أن أرى أنها تتكمل وتكتمل داخلي...

[2]

حين حطتنا رحالةنا في الليل؛ اشغفل زيد في إعداد الخبز، عجن طحين القمح. الخشن بالماهو وبعض الملح وشكى على هيئة أرغفة مستديرة بسماك بوصة، ثم حفر حفرة في الرمال، ملأها بأغصان جافة ثم أشعل فيها النار؛ وحين خمدت السنة 238
الله ولم تتبق إلا الحميات الملتزمة، وضع الأرغفة عليها، وغطاه بما خان جافة
أشعنها النيران. بعد فترة أراح الأشجار العظيمة وقلب الأرغفة على الوجه الآخر،
ثم أخرجها بعد ذلك ودقت عليها برقة لإزالة أي رمال عائقة بالخبز. أكلنا الخبز
الطازج مع بعض الزبد والتمر. لم أكن قط خيرًا أشبه من ذلك الخبز.

أشبهنا جوونا، إلا أن فصول منصور لم يسمح. وحين تمتينا بجوار النار،
واصل إسطرلي بأسلحته عن كيفية اعتناقي الإسلام - وبحلما كنت أشرح له كيف
حدث ذلك، أهدى صعوبة سرعًا أحداث ذلك الطريق الطويل وما صاحبه من أحداث
 وأفكار حتى وصلت إلى الإسلام، كله:
الإسلام يا منصور، دخلي كما يدخل المسلم إلى منزل ليلة، دون صخب ولا
جلبة: الفرق الوحيد بالاختلاف مع المسلم، أنه دخل إلى عقل ليقتي به إلى الأبد. غير
أن الأمر استغرق أعماراً قبل أن أكتشف أنني قد أمنت من أعماقى بالإسلام ...

عاد فكرتي من جديد إلى أيام رحلتي الثانية إلى الشرق الأوسط - حين كان التفكير
في الإسلام يشغله ذهني - إلا أن الأمر بدا لي في ذلك الوقت على أنه رحلة استكشاف
ما لا أعرفه من تلك المناطق. كل يوم كان يمر كان يضيف لي معارف جديدة ؛ كما
يطرح أسئلة جديدة تتبناها داخلي من لأسد إجاباتها تأتي من خارجي. كلها أقوى
شيء ما كان كاملاً بأعماق قاع السد Slam كان أشعر مرة بعد
أخرى، أن الحقائق الجوهرية التي كانت كامنة في أعماقى دون أن أعي وجودها.
بدأت تكشف تدريجيًا، ويتكرر تطبيقها مع الإسلام.

في بدايات سنة 1964 انطلقت من القاهرة في جولة طويلة خططت لها أن تموم
عامين. عدت مرة أخرى إلى عبر الأردن وقضيت بعض الأيام مع الأمير عبد
الله، مستمتعاً بجمال الطبيعة البدوية التي لم تكن قد تأثرت بعد باتساع الحياة
الغربيه. وحصلت على موافقة فرنسية ديرتها لي جريدة، فرانتشوس نيتيدج،
وبدأت سوريا مرة أخرى. جاءت دمشق ومضت، واحتفضتني الحياة الشرقية في

239
بين الوقت لبعض الوقت، ومنها توجهت إلى مدينة طرابلس التي كانت تتبع سوريا في ذلك الوقت، كانت مدينة خارج نطاق إطار آية أحداث وتحيا حيلة سعيدة هادئة أقرب إلى النعاس. كانت القوارب الشراعية البسيطة ترسى في مرايسيها بالميناء المفتوح، كانت أشرائها اللاتينية الطراز تتموج وتثنى في هذين وأبناء المدينة يقضون أوقاتهم بالجلوس على مقاعد واطئة أمام المقام في مواجهة الميناء، يتناولون في استرخاء أقشاب القهوة ذات الرائحة الفذة وبدخن الأرائك في الأمسية تحت أشعة الشمس المشعة على الغرب، لا تجد في أنحانها إلا الهدوء والسلام والرضا مع توفر الرزق؛ حتى المتسولون بنوا وكاتهم يستمتعون باشعة الشمس المائلة للغرب، كانوا يقولون في سيريرتهم: " ما أجمل أن تكون شحادًا في طرابلس".

ثم وصلت إلى مدينة حلب، نكرت شوارعها ومبانيها بمدينة القدس، مبان حجرية قديمة كانت تبنت من الأرض، ذات ممرات مظلمة مسقوفة، ومباني هادئة صامته، ونواخذ منحوتة. أما قلب حلب فقد كان يختلف تماما عن القدس، فالجو السائد في القدس يسوده صراع التبادلات الدولية، وكانت تلك الصراعات مثل التقلص العضلي المؤلم شديد التعقيد، يمكنه هو الآخر تعقيدات المواقف الدولية، وأسفرت المعتقدات الدينية المتباينة سحابة من سم الكراهية على ساكنيها. أما حلب، على الرغم من أنها كانت خليطًا من النبدو العرب والشمرقين مع مسحة تركية لقربها منها - فقد كانت متألقة ونادرة وصحية. المنازل الحجرية بشرفاتها الخشبية تبدو حية، حتى في صمتها، كانت سوقها القديمة تتميز بالصناعات اليدوية الشرقية الدقيقة، وأحواشها ذات العبود الحجرية الملطفة بصنوف البضائع، وتفتاء مرح بين تجارها الخلاصين من أي أنواع الحسد والضغينة؛ الكل متمهل، ارتخاء وراحة تحتضن حتى الغريب وتجعله يتعالى أن تكون كل حياته بتلك الراحة والاسترخاء: عناصر كثيرة تجتمع في حلب تنفق معًا لتكون لحظة قيماً رائعة.

من حلب توجهت بالسيارة إلى مدينة دير الزور، وهي مدينة صغيرة بんだけど شمال سوريا، فتوضيت أن توجه منها إلى بغداد عبر طريق التجارة القديم المجاور لنهر الفرات، وفي تلك الرحلة قابلت زيد لأول مرة.
بعكس طريق دمشق - بغداد الذي كانت السيارات قد اعتادت سلوكه، كان الطريق المجاور لنهر الفرات من دير الزور حتى بغداد غير مطرق للسيارات. وفي الحقيقة كانت سيارة واحدة قد سلكت ذلك الطريق من قبل وصولي بعدة أشهر. وكان قائد السيارة الأرمني الذي اتفقت معه لم يخرج دير الزور بالسيارة قبل ذلك، إلا أن الثقة كانت تملؤه بأنه يستطيع القيادة عبر الطريق القديم حتى بغداد، خاصة إذا استفسر من يعرف الطريق عن بعض المعلومات التي تنقصه، فذهبنا إلى الشارع التجاري لتقصي تلك المعلومات.

كان الشارع التجاري يمتد من بداية مدينة دير الزور حتى نهايةها، وكان يُعد شكلًا غير رسمي من أشكال التقسم يفصل ما بين الجزء الحضري السوري وبين القسم البدوي، ومع أن المدينة بجمعتها كانت أقرب إلى الطابع البدوي. في أحد المحال الحديثة، كانت توجد البطاقات التذكارية سيارة الطباعة، وفيما يليه تجد بعض البذور والأقمشة في أحوال سقوط الأمطار على الصحراء، ومن النزاع الذي نشر بين قبيلة بشير - عنازة السورية وقبائل شمار العراقية: وراح واحد منهم يحكم عن الغارة التي شنها زعيم بدو نجد، فيصل الداويش، على جنوب العراق، كما ورد على لسانهم اسم رجل الجزيرة العربية العظيم، ابن سعود.

كانت الملتاج تعرض بنادق قديمة ذات مواسير طويلة ومقابض مزينة بالفضة. بطرز قديمة لم يعد أحد يشتريها الآن، لأن البنادق الحديثة الآلية أصبحت أكثر فعالية. وorable هذه الأخرى تعرض أزياء رسمية مستعملة من أرجاء القارات الثلاث، وسروج جمال من نجد، وإطارات سيارات ماركة جوديبر، ومصابيح عواصف من «ليزيرج»، وعباءات بدوية زمنية من الجروح. لم تبد البضائع العربية دخيلة بين الأنواع والأسماك الأخرى؛ كانت فوائدها العملية تعطيها شرعية وجودها. كان البدو برفوعهم العملي يعتدون بسرعة تلك السلع الجديدة كأنها من إداعهم، لم يكون أدرك تمامًا حتى ذلك الوقت ما يمكن أن تسببه «الحداثة» الغربية لأولئك الناس البسطاء الأميين...

في الوقت الذي انتشر فيه قائد السيارة الأرمني بالتقصي عن حال الطريق إلى بغداد من بعض البلد، أحسست بنين يذبح كم قميصي؛ استدرت. وجدت أمامي
رجالاً عربياً حسن الوجه تبدو عليه إمارات الجد والحزم، في بداية الثلاثينيات من عمره. قال في صوت خشن بطيء:

«إنذرك يا أفندي، سمعت أنك مسافر إلى بغداد بالسيارة وأنك تجهل الطريق.
ومستقبله. دعني أذهب معك; قد أكون ذا فائدة لك.
» أنا زيد بن غانم، من قوات (العجائب) العاملة في العراق.

لم ألاحظ إلا في تلك اللحظة لون القفطان الكاكي الذي يرتديه والنجمة صباعية الأضلاع التي يثبتها على عقاله الأسود. وهي رمز قوات الصحراء العراقية. كانت تلك القوات التي يطلق عليها العربي اسم "العجائب" قد أسسها الاستعمار التركي: وهي قوات من المتطوعين ينتظرون من بين أهله وسط الجزيرة العربية المتمرسين بالصحاري وركوب الجمال.

أخيرني زيد أنه قد ذهب إلى دير الزور بصحبة أحد ضباط تلك القوات في مهمة إدارية تتعلق بالحدود السورية العراقية. وبينما كان الضابط قد عاد إلى العراق، بقي زيد لبعض الأمور الشخصية. وهو الآن يفضل السفر معى إلى العراق بدلاً من سلوك الطريق التقليدي الذي يستلزم العودة إلى دمشق أولاً، ومنها إلى العراق، واعترف لي أنه لم يسكن الطريق الذي نحن السير فيه قبل ذلك بمحاذاة نهر الفرات، وقال إنه يعرف كما أعرف أنا أن سبب انحساء الطريق أن النهر لن يكون ملاصقاً للطريق عبر كل المسافة - و لكن، - أضاف زيد، "الصحراء هي الصحراء، والشمس والنجم هي الشمس والنجم في أي مكان، وإن شاء الله نستطيع أن نجد طريقنا إلى بغداد". أُسستني ثقتة الجادة بنفسه، وواحقت بكل سرور أن يصحبنا في ذلك السفر.

في الصباح التالي غادرنا دير الزور. وفتحت صحراء "حمادة" الكبرى أحضانها لعجلات سبارتنات التي كانت من طراز "تى - فورد". سهول لا تنتهي من الحصى الصغير، يستوى أحياناً كالأسفلت ويمتد أحياناً في تسوجات صاعدة أو هابطة من الأفق حتى الأفق المقابل.

242
أحيانًا يبدو نهر الفرات قريبًا إلى اليسار، وتبعد مياهه بلون الطمي و هادئة، بضفاف منخفضة ك كبيرة هادئة، حتى تتمع قطعة طافية من الأخشاب أو قارب فوق سطح مياهه يكشف سرعة تدفقه وجريانه، نهر عرض لا عظمة اللوك، يجري مياهه في صمت، لم يكن صاحبًا ولا أموج، ولا أمواج تهد، يمضي ممساح في شريط عريض متحرك من أي قيد يختاره مساره ومجراء عبر منحنى فلا نهائية في صحراء مترامية، ندم لند، تيب وفخار يشق طريقه داخل تيب وفخار، فالصحراء التي يمضي فيها لم تكن تقل عن قوة.

جلس زيد، مرافقتنا الجديدة بجوار السائق ضامنًا ركبته إلى صدره، التجمع في قدميه حذاء جديد من الجلد الطبيعي المغربي كان أشتراه في اليوم السابق من سوق دير الزور.

كنا نلتقي أحيانًا براكب جمال يظهر من لا مكان في قلب الصحراء، يتوقفون بجمالهم للحظات ويتأملون السيرة في دهشة، ثم يحتذون إبلهم على مواصلة السير، كانوا من رعاة الإبل، أحلال الشمس بشرتهم إلى لون برونز داكن، كنا نتوقف فترات قصيرة بمفردهنا في استراحات الطريق المهدمة ولا يوجد غيرها في صحراء لا نعرف مداها، اختفى نهر الفرات خلف الأفق، الرياح تهب بقوة على رمال الصحراء، مساحات شاسعة من الحصى تتداخل بينها جمعات عشبانية ونباتات شوكية، إلى اليمين سلاسل من التلال الواطئة وتارى من أية نباتات ذات فروع، تظهر فجأة لتفخر وراها لا نهائية الصحراء، يتسائل المرء مما يمكن أن يوجد وراء تلك التلال؟ وبالرغم من إدراك أن ما خلفها ليس إلا تلالًا أخرى ومساحات من الحصى تعرض نفسها لأجل حراوة الشمس، فإن التساؤل يظل ملألئًا بلا إجابة؟ وهدوء ما بعد الظهر لا يقطع إلا صوت المحرك وصوت احتكاك إطار السيارة بحصى الأرض، هل سقطت حافة العالم في هذا المكان وضحك تلك النهارية البدائية؟

بعد الظهر أدرك السائق زنه لنسي تزويده ماء المحرك والماء عند آخر استراحة توقفنا بها، كان الظهر غير ظاهر، وبعد لا نعلم موضعنا من مكاننا، كلما كان حولنا.
حتى الأفق المتموج البعيد لا يظهر إلا فراغًا، سهل جيري أبيض شديد الحرارة.
تجرى فوقه رياح شديدة السخونة، تأتي من الجهل وتتمضى إلى المجهول، بلا بداية ولا نهاية، بصوت مكتوم ياتى من الأبدية ذاتها.

قال السائق في لمسة شرقية (وهي صفة سائدة كدت أعجب بها أحيانًا - إلا في ذلك الوقت): "على أي حال سنصل إلى استراحة تالية"، ولكن بدا لي، "على أية حال"، هذه التي قالها السائق لن تتحقق فقط كانت الشمس لامعة، وترقوة الماء في الميدان كما يترقى الماء الفائر في غلاية الشاي على النار. التقينا ببعض البدو من الرعاة، ماء؟ لا، لا يوجد إلا على مسيرة خمسة عشر ساعة بالجمال، سائلا السائق الأرمني.
في تعب: "وماذا تشيرون؟"، "ضحكون قليلين: "شرب حليب الناقة". لا أفهم ضحكوا في أعمالهم من أولئك الرجال الذين يركبون تلك الآلة الشيطانية السريعة، يسألون عن ماء. بينما يعرف أي طفل بدو أنه لا يوجد أي ماء في تلك الأحواض.

تطور غير سار: أن بقى محاصرين في تلك الصحراء بمحرك معلق، دون ماء، ولا طعام، ونتتظر حتى تمر سيارة أخرى - ربما غداً أو بعد غد - أو ربما بعد شهر...

بمرور الوقت بدأ السائق يفقد الابتسامة اللامبالية. أوقف السيارة وحل غطاء المبرد، اندفع بخاف ماء كثيف صدر عنه هسيس وصغير من شدة انطفئه، كان معى بعض ماء الشرب في قنينة ضحيتها بها من أجل محرك السيارة. أضاف الأرمني قليلاً من الزيت على الماء، وحملتنا السيارة الشجاعة لمسافة أخرى.

قال الأرمني المتفائل: "أعتقد أننا يمكن أن نجد ماءً في تلك الجهة إلى اليمين، تلك التلال تبدو خضراء - وحيث ينمو العشب في هذا الوقت من العام، لابد أن هناك ماء. وما دام هناك ماء، لماذا لا نسوق باتجاهه؟

المنطق دائماً ما يحبطنا شيء ما لا يمكن مقاومته؛ وبالرغم من أن منطقة الأرمني كان منطقًا أخر، إلا أنه انحرف بالسيارة عن مسارنا وقاد عدة أميال باتجاه التلال.
لا تعبر الإطاحة: لم نجد ماً... كانت التلال مغطاة بحجارة متتالية خضراء اللون.

بدأ صوت الفحيح والهسس الصادق من الحركة يزداد من جديد، وبدأت مكاسب الحركة تصدر أصواتًا خشنة متذبذبة بتحطمه من الداخل، كان الدخان الرمادي قد بدأ يتصاعد من فتحة بفاغة السيارة الأمامية، بعد دقائق أخرى لابد أن يتحطم شيء ما: تحطم عامل الحركة أو شيء آخر، كنا في ذلك الوقت قد انحرفنا بعيدًا تمامًا عن طريق القوافل الذين كنا عليهم؛ وإن حدث أي اهتزاز للمحرك الآن، سنستبدل هنا بلا أمل. أفرغنا كل ما معنا من زيت في مبرد الموتور، أصبح السائق في حالة حميدة وهو يبحث عن المال، يقود تارة إلى اليمين، تارة إلى اليسار، وأحيانًا في دوار، ودواران!؛ إلا أن المال رفض أن يظهر، حتى بينما «الكوفي»، الذي أفرغته وحده في حفرة في البريد لم تظهر أي حال باستثناء أنه غفلنا في حساب من بخار الكحول جعلت زيد ( الذي لم يعرف الكحول في حياته ) على وشك القبض من شدة الغضب الذي أحس به. كانت المحاولة الأخيرة هي ما جعل زيد يتخلى عن حمودة وتعمل فكره، بحركة غاضبة جذب القفزة إلى أسفل فوق عينيه، وحيد جذبه فوق حافة السيارة الساخنة وبدأ يحدث في أرجاء السهل الصحراوي الذي كنا به، يحدث تركيز وانتباه أولئك الذين نشأوا وتربيوا في الخلاء، وأعتادوا الاعتماد على حواسهم الحادة. انتظرنا في ترقب وتحفيز دون أمل كبير، فقد أخبرنا من قبل أنه لم يمر بذلك المنطقة في حياته. إلا أنه أشار بعده تجاه الشمال وقال: هناك... كانت الكلمة التي نطقها بتكلفة أجر لا راد له: أطاع السائق الأمر في الحال، كما لو بعد أدناه أن. يتولى أحد مسئولي البحث. بثمن شديد صادق من الحركة اتجهنا إلى الشمال. جُدي رفع زيد بنهج كُنْهُ باليوم، ووضع كفه على ذراع السائق، وأمره بالتوقف. جلس للحظات ورآسه منحنٍ للأمام، مثلاً يتشبث كُل السيد؛ ويدت حول شفتيه الزمومتين ارتعاشاً طفيفة لا تدركها إلا العين الفاحصة.

ثم قال فجأة: *كلًا، قد في هذا الاتجاه*، وأشار إلى الشمال الشرقي. ثم أريد بحزم: *بسرعة*، ومرة أخرى أطاع السائق الأمر دون كلمة. وبعد دقائقين
صباح من جديد: «قف»، وقفز بفخفة من السيارة، جامعٌ عباءته الطويلة بين يديه وجرى للأمام في خط مستقيم، ثم توقف، واستدار وكسر ذلك عدد مرات كان يبحث عن شيء أو يستمع إلى صوت داخلي - نسيت الحركة والورطة التي ناعمها وأصبحت أسير مشهد رجل يستجمع كل حواسه، ما ظهر منها وما بطن ويندمج مع عناصر الطبيعة، وفجأة تحرك في خطوات واسعة في البداية ثم هرول واختفى بين تلٍ، وبعد فترة ظهرت رأسه وروح بيديه قائلًا: «ماء».

جرايني باتجاهه - وكان الماء هناك: في حفرة محمية من الشمس بصخور معلقة فوقها التعم سطح بركة صغيرة من الماء، بقايا أمطار الشتاء الماضي، كانت صفراً بديعة بها عوالق طينية، إلا أنه ماء، ما حقيقي، بعض غرائز أهل الصحراء غير المفهومة لدى رجل صحراء نجد كشفت عن موضعها، وبينما انتهكنا أنا والسائق الأرمنى في الاغتراف من سطح المياه وإفراغها في صفائح الوقود الفارقة، ونقله إلى المحرك الذي أضناه نقص الماء، تمشي زيد مبتسماً استناداً الطلب الصامت بجوار السيارة جيئة وذاته.

* * *

في ظهر اليوم الثالث وصلنا إلى أول قرية عراقية - قرية آنا على نهر الفرات - وقنا السيارة لساعات بين بساتين النخيل التي تحولتها أسوار طينية، على طول المسافة التي قطعناها كانت تنتشر قوات عجائل، وكان أغلبهم كما أخبرنا زيد من أبناء قبيلته، ينتشرون بخيالهم بين ظلال أشجار النخيل تنعكس عليهم بقع الشمس والضوء الأخضر الساقط من قمم الأشجار فبدوا في عظمة وكبيرى اللوك. حياً زيد بعضهم ونحن نرم بهم، وكانت جوانب كوفيته السوداء تخفق في الهواء وتضرب على جانبي وجهه، وبالرغم من اعتياده قسوة الصحراء وحرارتها، إلا أنه كان فائق الحساسية، فعندما كنا نمر على طريق القرى الترابية كان يلف كوفيته

246
ويغطي بها فمه تتجنب تنفيس الغبار المشار – وهو الغبار الذي لم نتأبه له وإنحن أبناء المدن المعمورة – حين أصبحت السيارة في منطقة حسية لا يثير غبارًا. أزاح كوفيته إلى الخلف في حركة ناعمة تشبه حركات الفتيات المدللة، وبدأ في الغناء: فجأة وبلا أي تمهديد بدأ في الغناء، كما لو كان جبل ينزل فجأة على واد. كان ينشد قصيدة نجدية من قصائد الشعر الغنائي – نغمات طويلة صعيرة وهبوطًا وإيقاع لا يتغير، يتدفق مثلاً تتدفق رياح الصحراء، قادمة من مجهول ومضينة إلى مجهول.

في القرية التالية طلب من السائق أن يتوقف، فقفز من السيارة وشكرني على السماح له برافقتنا، علق بندقيته على ظهره، واختفى بين النخيل، وظلت السيارة رائحة لا اسم لها – رائحة إنسانية مكتملة بذاتها، نكهة نابضة ببراءة الروح التي طال نسيانها والمستعصية على النسيان في الآن نفسه. في ذلك اليوم في قرية آنا ظننت أنني لن أزيد بعد ذلك أبداً! إلا أن الظني لم يكن صحيحاً...

* * *

في اليوم التالي وصلت إلى «حَتّ)، وهي مدينة صغيرة تقع على نهر الفرات، في نقطة التقاء الطريق الصحراوي القادم من دمشق إلى بغداد بالطريق الذي سلكته. كانت «حَت» تتوسّع تل بسواها وأبراجها، فقد كانت المدينة تشبه حصنًا قديمًا. لم تبدو بها أي حياة ولا من حولها. كانت منازلها الخارجية كأنها حواجز نبتة من الأرض؛ بلا نافذة، باستثناء فتحات ضيقة مثل فتحات الرماية بالبنادق في الحصن. ومن منتصف المدينة ارتفعت منحدرة مسجد أعلى من بيوتها.

توقفت لقضاء الليل في استراحة قريبة من النهر. وبينما كان العشاء يعد لي أنا وسائق السيارة، ذهب لاكتشاف في البئر الموجودة بالفناء، حيث جلست القرفصاء لابتطس، مددْ شخص بده وتناول الإبريق الغفوة الطويلة، وراح يسكب لي الماء لابتطس. تطلعت إليه فرأيت رجلًا متنين البنين ذا بشرة داكنة ويضع على رأسه
غطاء رأس من الفراء؛ ساعدني على الاغتسال دون أن أطلب منه. كان من الواضح أنه ليس عربياً. حين سألته من هو؟ أجاب بلغة عربية تشويهاً لكونه: « أنا من النتار، من أذربيجان.»

كانت له عينان رقيقة في رقة عيون الكلاب، وكان زيه الذي كان عسكريا في يوم ما زيناً زيناً باليه، تبادلا الحديث، بالعربيه لحيائهم، وببعض الكلمات الفارسية حيناً آخراً. وكان قد تعلمها من طالب إيراني كان يدرس بالأهرام في القاهرة. علمت أن اسمه إبراهيم. قضى أغلب عمره - وكان يتأهلا الأربعين - على الطريق الإيرانية: استغل لأعظام بقيادة عربات نقل البضائع من تبريز إلى طهران، ومن مشهد إلى بیرچند، ومن طهران إلى أصفهان، وشيراز. وذات يوم امتلك مجموعة من الخيل، وخدم كنجد في قوات الحراس الراكونية، وحارب شخصى لزعم مهارت تكمانى. وساعى خيول في استراحة أصفهان، وفي الوقت الذي التقتي، كان قد جاء إلى العراق كسائق بغل في قافلة حجاج إيرانيين إلى مدينة كربلاء. واشترى وقائد القافلة فقعد عمله في بلد أجنبي وأصبح عاطلاً.

في تلك الليلة تمددت لأمام على أركة خشبية في الغناء الذي يبلغ بالخيل. كان الجو شديد الحرارة مشبع بعقول خانقة، وجحال من أسراب البعوض تتطاير من حولي وقد انطفأ بالنسبة التي أطلقتها. ألقى بعض الصباحي ضوءاً هزيلياً لم يبدد ظلما الليل. كانت بعض الخيل مربوطة إلى أحد الجدران، وربما كانت لصاحب الخان. كان إبراهيم التتارى يمسد واحد من تلك الخيل، بطريقة تظهر وله وحده للخيل. كانت أصابعه تمسد معرفة الحصان كما يمسد الملح شعر مجبوبته. طرأت على ذهني فكرة جديدة. لقد كنت في طريق إلى إيران، وربما أغرى بها. شهورًا طويلة منتظرة على ظهور الخيل، فلماذا لا استعين بهذا الرجل؟ بالتأكيد ساكتين في حاجة إلى رجل يعرف مسارك إيران وطريقها ويعرف خاناتها كما يعرف المرء منزله.

حين أخبرته في الصباح أنني أفكر في ضمه إلى كحاصم، أوكش على البكاء من شدة امتئانه وقال لي بالفارسية: «يا حضرمة، لن نتدم على ذلك أبداً ...».
كان الوقت ظهراً في خمسة يومن بعد مغادرتي لحب حين ظهر أول مشهد لمزارع النخيل الشاسعة التي تحيط ببغداد. وبين تجمعات قمم النخيل لمعلقة مسجد ومشتنتها عالية. على جانبي الطريق كانت هناك مدافع قديمة بسيطة وفأهر مشدمة ومتشابهة بشكل طبيعي التراب الذي ظهر كحجاب من قماش فسي في ضوء شمس الظهيرة - كحاجز فسي غامض بين عالم الأموات المنقضي والحاضر الحالي. مضينا إلى قلب أشجار النخيل - ميلًا بعد ميل لا تجد إلا أعداءًا هائلًا من جذوع النخيل الصاعدة إلى السماء ومحملة في نهايتها بباسط البلع - حتى انتهت فجأة على حافة نهر دجلة. لم يكن نهر دجلة يشبه الصرف مبايض حال كانت مياهه طيني خضراء ثقيلة متكافئة بالتضيق الأزرق الجميل لنهر الفرات.

عبرنا نهر دجلة على معبر مُتاريج متهاكك، ورفعت علينا حرارة الخليج الفارسي.

لم يتبق في بغداد شيء من عظمتها وروعتها التاريخية القيمة. دمر هجوم المغول في القرون الوسطى المدينة بجميعها قلما يبق منها شيء يذكر بعظمة هارون الرشيد. لم يبق إلا مدينة موحشة كثيرة عشوائية - ربما كانت مباني مؤقتة. كانت المدينة قد بدأت في التغير والحركة، كانت هناك مباني جديدة عالية؛ فمن سبب الإدارة التركية الخالدة كانت عاصمة عربية تبرز إلى الوجود بيئة.

تركت الحرارة الشديدة بصماتها حتى على حركة البشر المثقلة. كان الناس يسيرون ببطء متناثرة في الشوارع وكأنهم يмонтون ثقيلة، بلا مرح أو نية مهابة وخلال وجوههم عابسة لا تحمل ودًا، وتغولها كوفيات مخططة بالأبيض والأسود؛ وإن رأيت مصادفة وحنا حصن الحيا وتحمل ملامحه اعتداءً وأعتزازًا بالذات لابد أن تجد أن كوفيته مخططة بالأحمر والأبيض مما يعني زنه لا ينتمي إلى بغداد، ربما كان من الشمال من سوريا أو من الجزيرة العربية.

كان يبدو على وجوه أهل بغداد كراهية عميقية للقوى الأجنبية التي حرمتهم من حريرتهم، كان تطلعهم إلى الحرية يسيطر على تفكيرهم. قد يتغير ذلك العبوس الذي
يعلو وجوهم عندما يلقون بالملاحة في الحواري الضيقة وفي المنازل المحاطة بالأسوار. لو تفحصت تلك الوجهاء، ستجد أنها لا تخالق من سحر وجانبية. وربما يضحكون أحياناً مثلما يفعل العرب الآخرون. تساهم تسير بالطرقات في ملايات زاهية الألوان، أثواب غالية ترتديها نساء منقبات باورون من الأسود والأحمر، أو الأزرق الفضي وأحمر بوردو القاني، مجموعات من الملابس الزاهية تتجه في الطرقات دون أن يصرع عينهم صوت لوقع أقدامهم.

* * *

بعد عدة أسابيع من وصولها إلى بغداد، وبينما كنت أميش في السوق الكبير للمدينة، سمعت صيتة من أحد طريقات السوق السقوفة، وتردد صداها في شوارع السوق، من إحدى رؤوس الشارع انقبع رجل هاربًا، ثم تلاه آخر، ثم ثالث، وبدأ الناس يركضون كما يطاردهم خوف يعلمون سببه ولا أعلمهم. ثم سمعت وقع حوافر خيول: وظهر راكب حمصان يركض به في خوف والناس يفسحون له الطريق، وهم هاربون، ثم مزيد من الراكضين آتين كلهم من جهة واحدة يحملون ما اشتروهم في فيضى عارمة وراحوا جميعًا يندفعون هاربين في اتجاه واحد. راح أصحاب المحلات يغلقون أبوابها في عجلة ويضعون العوارض الخشبية على الأبواب، لا أحد يتحدث إلى أحد، الكل يهرب في صمت، لا تسمع من أن إلى آخر إلا صرخات من يسقطون أرضًا أثناء فرارهم! أو صراخ طفل مفروز.

ماذا حدث؟ لا إجابة، الوجهاء شاحبة في كل مكان، اندفعت عربية بنصف ما كانت تحمله من بعضها دون سابق في حوالي السوق الضيقة، من مكان لا أراه سمعت صوت سافاق وتحطم أكون من الأراغة الفخارية وميزت صوت تتحرج بعضها على الأرض.

250
باستثناء تلك الأصوات المتتابعة وعند الناس وإلهائهم، ساد صمت ثقيل الوطأة.

مثل ذلك الذي يحدث أحيانًا في بدايات الزلزال. لم يكن يقطع الصمت إلا صوت احتكاك الأقدام العادية بالأرض؛ أو صرخة امرأة أو بكاء طفل. ثم بعض راكبي الخيل الفاغرين. فزع، فرار، وصمت. فوضى مجهود في تقطيع شوارع السوق المسقوفة.

انشمرت وسط أحد تلك الحشد عند أحد التقطيعات. لا يستطيع أن يتقدم ولا أن يتأقهق. وفي الحقيقة، لا يعرف إلى أين يجب أن يمضى. في تلك اللحظة أحسست بيد تقبض على ذراعي: التفت فوجدها زيد، كان يجذبني تجاهه خلف حاجز من البرميل بين باب محلى. همس قائلًا: لا تتحرك.

أز صوت حاد - طلقة بندقية؟ مستحيل...

من بعيد، من أعماق السوق الداخلية، جاء خليط من أصوات بشريّة. مرة أخرى...

أز صوت طلقة نارية لا يمكن أن تخطئه أذن. هذه المرة: كانت طلقة بندقية...

من بعيد أتي صوت واحد لطرقات على الأرض، كصوت حبات البازلاء الجافة حين تساقط على الأرض. اقترب الصوت ببطء وازداد علوًا، ذلك الصوت المريب المنطلق في دفاتر: تعرفت عليه أخيرًا: كان صوت مدفع رشاش.

كانت بغداد تعلن التمرد مرة أخرى، في اليوم السابق، التاسع والعشرين من مايو 1924. كان البرلمان العراقي قد أقر معايدة تتبعاً مع رغبة الشعب العراقي، معايدة صداقة وتحالف مع بريطانيا العظمى، الآن يحاول الشعب اليانس أن يدافع عن نفسه ضد صداقة القوة الأوروبية العظمى...

علمت بعد ذلك أن القوات البريطانية أغلقت كل منافذ السوق من الخارج لإجهاض خروج مظاهرة معادية. وأن كثيرين لقوا مصرعهم في ذلك اليوم نتيجة إطلاق القوات البريطانية النار بطريقة عشوائية بالسوق، ولم يظهر زيد في اللحظة المناسبة، ربما كانت قد عيَّنت عن جهل في اتجاه المدافع الرشاشة.
كان ذلك اليوم هو بداية صدافتنا الحقة، كانت حكمة زيد ورجلته تذببنا بقوة إليه، وكان من الواضح أنه أيضًا قد سل إلى أوربي شاب لم يجد لديه ما يسيء للعرب. أخبرني زيد بقصة حياته البسيطة، فقد نشأ في خدمة الأسرة الحاكمة في مدينة حائل مثل أيها من قبله، وكانت تلك الأسرة الحاكمة من قبائل شمر وهي أسرة ابن راشد; وحكي لي كيف غادر موطنه هو وكثيرون من أبناء قبائل شمار بعد أن غزا ابن سعود مدينة حائل عام 1921 وأعتقل آخر حاكم من أسرة ابن راشد، غادر ريد بلاده مفضلاً مواجهة مستقبل غامض على الخضوع لحاكم آخر ليس من أبناء قبليته.

وها هو، يضع على عقده النجمة السباعية العراقية، ويتوقف شوطًا إلى موطنه، خلال الأسابيع التي قضيتها بالعراق كنا نلفت كثيّرًا، وظلنا على اتصال في الأعوام التي تلت ذلك. كنت أكتب إليه أحيانًا، ومرة أو مرتين أرسلت إليه هدية بسيطة كنت أشربها من أحد المزابيز الإيرانية أو الأفغانية؛ وفي كل مرة يبدأ برسالة ركيزة الخط يذكرني فيها أيام العراق وأيام السفر بالسيارة بموازة نهر الفرات أو زيادة الأسود المجنحة بين أنقاض مدينة بابل.

وأخيراً، حين جئت إلى الجزيرة العربية عام 1927، أرسلت إليه في العراق طالبًا، مته يلقى بي، وقد فعل ذلك في العام التالي. ومنذ ذلك الوقت أصبح مراقبًا لي، كان مراقبًا أكثر من خادمًا.

* * *

في بدايات العشرينيات من القرن العشرين، كانت السيارات نادرة في إيران، وكان عدد محدود منها معرضًا للايجار بين المدينة الرئيسية. لو أراد مسافر أن يخرج عن نطاق ثلاثة أو أربعة طرق رئيسية، كان لابد له أن يعتمد على العربات التي تجرها الخيول، وحتى عربات الخيول لم يكن بمقدورها أن تمضي إلى كل مكان، فقد كانت هناك مناطق كثيرة بإيران لا توجد بها طريق من أي نوع. ولاستعمال مثل، يتوقف إلى
الاختلاف بالناس ومعرفتهم في أماكن معيشتهم، لم يكن أمامي بدلاً عن التنقل على ظهور الخيل؛ وذلك وخلال آخر أسبوع لي بغداد، ومعاونة إبراهيم التتارية، كنت أتوجه كل صباح إلى سوق الخيل خارج المدينة. وبعد مفاوضات دامت أيامًا، اشتريت جوادًا إلى ويلان لإبراهيم. كان جواد في لون البنديق من سلاسة من جنوب إيران، بينما كان البلغ وهو حيوان عنيف له عضلات من فولاذي - رمادي اللون من تركيا؛ كان بإمكانه أن يحمل بسهولة بالإضافة إلى راكبه، الحقائب وأجولة الأمتعة التي تحتوي على كل ضرورات الحياة.

امتدت إبراهيم جواد، وجر البلغ من مقوده وانطلق ذات صباح قاصداً مدينة خانقين، وهي آخر مدينة عراقية على الحدود الإيرانية، ونهاية خط السكة الحديدية الوارد من بغداد إلى خانقين؛ وبعدها بعد يومين بالقطار ألقه به هناك.

غادرنا خانقين تاركين العالم العربي خلفنا. أما النهضت تلال صغيرة اللون، تقف كالخ sockaddr أمام جبال شاهقة العلو: جبال الهضبة الإيرانية، عقال جديد بانتظار.

كانت نقطة العبور على الحدود بيني صغير وحيد يعرف باليه سيفان تحت شمس سطاحة كان موظفي نقطة العبور يرتدين رميًا لأسد، يحمل بيده سيفًا تحت شمس سطاحة كان موظفي نقطة العبور يرتدين رميًا رجاليًا موحدًا بابًا التائه وال artikel واليام وضمن في أقدامهم خفوقًا بيضاء. شعر بحشوة، فحصول أمشتي القليلة بطريقة وضوح ولكن متحفظة! ثم وجه أخرهم، حيث قائلًا: «كل شيء مضبوط جنب العالي. كرمك على صحارينا، هل تستطيعين بتناول كوب من الشاي معنا؟».

بينما كنت ماؤت مندشًا من تعب الطربية، ورد إلى ذهني مدى الاختلاف بين العربية والفارسية، رغم أن احتواء الفارسية على كثير من المفردات العربية. تبدو الفارسية ذات نغم جميل، وتبدو مفرداتها الناعمة الجميلة الرقيقة. بمقاطعها الصوتية وكأنها لفة "غربية" بعكس الأصوات الحادة للغة العربية.
لم تكن المسافرين الوحيدين، كانت هناك عربات مثقلة بالآمال من المنسوجات، يجر كل منها أربعة من الخيول، وكانت هناك قافلة من البغال على مقربة. كان رجال القافلة يطهون طعاماً على نار أشعلوها. بدا أنهم تخلوا عن فكرة استكمال السفر في الحال، بالرغم من الوقت كان في الساعات الأولى بعد انطساد النهار. قررت أن تفعل الشيء نفسه ولا تذكر السبب. قضيتنا الليل في العراء فوق أغطيتنا التي فرشناها على الأرض.

في باكورة الفجر بدأت العربات والقافلة في التحرك باتجاه الخيابان المارة، ركنا وسرنا معهم، كان الطريق صاعدًا باتجاه الباخرة، سبقنا القافلة والعربات البطيئة، توغلنا أعمق في مناطق الأكراد الجبلية، أرض الرعاة الشقر طوال القامة.

رأيت أول راعي من عند أحد منحنيني الطريق، كان يخرج من كوك واطئ مصنوع من أغصان الأشجار الجافة وقدم لنا دون كلمة رعاياً خشبياً ملبيًا بلين دسم. كان يافقُ في السابعة عشرة من عمره تقريباً، حافي القدمين، في ملابس رئة، قدر الوجه والبدن وأثار غطاء رأسه بادية على شعره المصغر. حين كنت أشرب اللبن البارد المضاف إليه قليل من الملح، رأيت من فوق حافلة الوعاء العيون الزرقاء التي كانت مصغوبة إلى وجهي في تأمل، كان يعينه بريق لامع مثل ذلك الذي نجده في عيون الحيوانات المولدات لتوها - نعاس بديئي - لم تكسر أصابته شيء بعد...

فيما بعد ظهرنا وصلنا إلى قرية كردية من الخيام تقع بين سفوح التلال. كانت تشبه خيمة بدو العراق وسوريا: غطاء خشبي مصنوع من شعر الناعم مزود على بعض الدعامات الخشبية والأجتاب من القش للجدول. كان جدول ماء يتدفق على مقربة من الخيام؛ وتجتمعت على حافلنا طيور بيضاء، وتحت على صخرة في الماء مجموعة من طيور اللقلق تنقر أجذبتها في متعة. كان رجل يرتدي سترة زرقاء يتجه في خطوات حثيثة إلى الخيام. وكانت امرأة تحمل إبناً فخرياً على كتفها تدوين السلم، ترتدي ثوبًا أحمراً فضفاضاً طويلًا، كانت سيقانها الطويلة بادية من تحت ملابسها؛ سيقان طويلة ومتشبدة مثل أوتار الكمان. ركعت بجوار حافة الماء على ركبتيها ومالت.
على الماء تملاجرتها، يمال غطاء رأسها الأحمر مس طرفه سطح الماء وكأنه تيار من الدماء ينسكب في الماء. بعد ذلك بفترة جلست على حافة الماء بصحة رجل عجوز أربع فتيات في شرخ الشباب كلّهن نواح سحر خاص طبيعية بلا افتراض نتيجة حيانيات الحرة بين أحذان الطبيعة؛ كان جمالهن من ذلك النوع الذي يعتقد أنه عقيق وطاهر، فخاير واعتداد لا يدري بك ولكن تدركه من الضحل والتواضع الذي يغلب عليه. كانت أجملهن ذات اسم موسيقى هو: تتو (وتنطق مقاطعه كما تنطق بالفرنسية)، كانت جهبتها مغطاة حتى حاجبها الرقيق يوشك أحمر، وجفافها مصبوغين، من تحت الوشاح، تباث من أذنيها سلاسل فضية رقيقة؛ في كل لفته من رأسها كانت السلاسل تصدر صوتاً معدنياً رقيقاً.

استمتعنا جميعاً بالحوار الذي تبادلناه بالرغم من لغتي الفارسية الضعيفة (الأكراد لغة خاصة بهم، ويُفهم أغلبهم الفارسية ولغتهم مشتقة منها)، كان نساء بسائتى لم يذهن بأسداً إلى خارج نطاق قبيلتهن؛ وكان يفهمهم سهولة ما أريد قوله، غالبًا ما كان يجدن الكلمة التي أشعر في نطقها. سألناهن عن حياتهن، وما يقنن به من أعمال، أجبن عن سؤالين بثنيه بتحملو الحلم، وي khiển الخبر على حُشوات الحدث، ويحيين الناس، يخضعن اللبن في قرب جلدية حتى يتحول إلى زبد؛ ويغزلن بمغزال يدوي خيرٍ، من صروح الأغذام، ويسجنون الأسطبة والسجاجيد في أنماط قديمة قدم جنسهن ذاته، ويهملن ويلدات الأطفال، ويرينون أزواجهن الراحة والحب...

حياة لا تتغير: اليوم مثل الأمس والغد... عند أولئك الرعاة لا وجود للزمن، باستثناء كر الأيا، والليالي والفصل، فالليل جُعل مظلمة للنوم، والنهار مضيئًا لقضاء حاجات الحياة وضرورةاتها، والشتاء مُعرف باشتداد برودة الجو وندرة الكلا، والعُشب على سفوح الجبال، فيتنقرون بقطانتهم وخيامهم إلى السهول الأكثر دفئاً، إلى ما بين النهرين بالقرب من نهر دجله، وحين يعود الدفء تدريجيًا معلناً نمو الصيف يبطوته، ورمانة اللافح، يعودون إلى الجبال، إما إلى الموضع ذاته، وإما إلى موضع غيره في نطاق منطقة القبيلة.
سأبت الرجل العجوز: "ألم ترغب قط في الحياة في منزل من الحجر؟" لم
ينظر الرجل بكلمة طول فترة حديثنا مع النساء، وكان يستمع مبتسمًا إلى الحوار،
ورحت عليه سؤالًا آخر: "ألم ترغب قط أن يكون لك حقل ملكًا؟".

هزر الرجل العجوز رأسه ببطء وقال: "كلا... إذا توقفت المياه بلا حركة في بركة،
فإنها تفسد وتتعكر وتتعفن: أما حين تكون متحركة ومتدفقة فإنها تظل نظيفة
ونقيٌّ...".

* * *

بمرور الزمن انسحبنت نكبات كردستان إلى الماضي. على مدى ثمانية عشر
شهرًا تجولت في إيران، طولاً وعرضًا. وتعزف خلخل تلك المدة على أمة جمعت
داخلها حكمة شتاتين قريبتين من الزمن، فدوران وغضب أمة يشاهد غضب الأطفال
لا يمكن التنبؤ بموعد وقوعه؛ أمة قد تنظر بتكاسل ويرود إلى ما يحدث لها وما يقع
 حولها - وفي لحظة أخرى تجدها تنتمض في هيئة عنيفة غاضبة. استمعت بالجو
الحضاري في المدن الكبرى؛ ومضت بين الرياح العاصفة في السهوب الواسعة.
قضيت ليالي في قلعة حكام المقاطعات وتحت أسر أعداد كبيرة من الضمي، كما
قضيت ليالي في خانات واستراحات كهيمة خربة تقع متباقية بها طوال الليل لقتل
العقارب قبل أن تتركها. ساهمت وشاركنا في كل أشكال الحياة في إيران، من موانئ
عليها ضمًا م što جون كنت ضيفًا على قبائل بختياري وكاشتاغوي وموائد أخرى
عليها ديوك تركية ممشوقة بالمشمش لكبر التجار؛ حضرت احتفالات محرم والمسيرات
المدنية، واستمعت إلى القصائد الرقيقة للشاعر الإيراني العظيم حافظ المغنية
على العود.

تمشي بين أشجار الحور في أصفهان، وأعجبتني مداخل القصور العظيمة،
وواجباتها الرائعة كأعجبتني روعة سجل قباب مسجدها الكبير. أصبحت اللغة
الفارسية سلسلة على لسانى كاللغة العربية، خضعت حوارات كثيرة مع المتعلمين في المدن، ومع الجنود، رجال القبائل، ومع التجار في الأسواق، ومع أعضاء في الوزارة، وكبار رجال الدين، مع الدراويش الجاللين، وبكبار الحشائشين في الاستراحات المنتشرة على الطرق، عشت بالمدن والقرى، وعبرت الصحراوات، وقضيت المستنقعات الملاحية، ونستبد نفسي كليًا، وفقدت الإحساس بالزمن في تلك البلاد الجبحة، صاحبة الحضارة القديمة، والتي تخلفت عن مواكبة الحضارات الحديثة، عرفت على الشعب الإيراني وأ لاو أسمح حياتها وأفكاري، كنا لوندنا قد ولدت بينهم، كانت تلك البلاد و تلك الحياة مليئة بالتعقيدات، مثل جوهرة ثمينة قديمة، خبا تومجها، ولم تتل مكتана قربة من القلب تملأت شفاوية الإراج الذي أحسسته نحو العرب.

على مدى ما يزيد على ستة أشهر رحت أمجح جبال أفغانستان، وسهرتها، وواسعتها، ستة أشهر في العالم لا يحمل فيه الرجال بنادقهم لمجر الزينة، وفيها يجب أن تحرص على كل كلمة وكل خطوة ولذلوجدت طلقة رصاص تأتي مفردة تجاهك أحياناً كنا ننضطر أنا وإبراهيم التتاري ومن يرافقنا للدفاع عن أنفسنا عند هجوم عصابات قطاع الطريق، التي كانت أفغانستان تغص بهمن في ذلك الوقت، ولكن إن حدث وكان اليوم يوم جمعة، توقفت العمليات عن أي نشاط لها، فالسرقة والقتل حرام في اليوم المخصص لصلاة الجمعة.

دات مرة، بالقرب من مدينة قنداهر، نجيت من الموت بأعجوبة لأنني نظرت مباشرة إلى وجه امرأة ريفية جميلة تعمل بأحد الحقول، ووجدت بين الفصول في قرى مستعمرة هندوكش، أناسًا يتحدثون من سلاسة القائق المحارب، فنفي، وصوبته، على مدى أسابيع كنت ضيفًا على أمان الله خان، ملك أفغانستان في كابول، وتناقشت على مدى ليال طويلة مع علمائه حول تعاليم القرآن، وفي ليال أخرى تناقشت مع أبنائه خان، في خيامهم السوداء، ووثقت لهم: إن الأفضل لهم أن يطوفوا في المناطق القبلية المحاربة ليحولهم على الإقلاع عن تلك الحروب.
فِي كل يوم من أيام العامين الذين قضيتهم في إيران وأفغانستان كان اليقين ينمو داخل بانتى أقترب من إجابات نهائية عن تساؤلاتي.

* * *

قلت: "هكذا كنت أقترب من الإسلام يا منصور، يفهمي لحياة المسلمين كنت أقترب يوميًا من فهم أفضل للإسلام. كان الإسلام دائمًا الأعلى في ذهنى...

قال زيد وهو يدقق النظر إلى ظلما السما، "حَان وقت صلاة العشاء.

انتظمنا لأداء الصلاة الأخيرة لذلك اليوم، اتجهنا ثلاثتنا نحو مكة. وقف زيد ومنصور جنبًا إلى جنب وتقدمت أمامهم لأؤمهم (فَقَد ذكر الرسول أن صلاة اثنتين وأكثر هي صلاة جماعة).

رفعت كفي وبدأت: اللَّه أَكْبَر، ثم تلوت سورة الفاتحة من القرآن ثم تبعتها بسورة الإخلاص حتى أتممنا الصلاة.

هناك بعض الأشياء يجعل الرجال يتقاربون من بعضهم مثل صلاة الجماعة. ويصدق ذلك على كل الديانات، إلا أنه أكثر صحة فيما يخص الإسلام، فبالإسلام يرتبط على إيمان حقيقي أنه لا وسيلة بين الخلوق وخلقه، وجيب أن أشكال الكيانة والإسلوب الموضوعي الدينى، يجعل كل مسلم يؤمن أنه يشارك بإيجابية في عمل جماعي من أجل العبادة، وأنه لا يحضر فقط لمشاهدة وسطاء يقومون بالنيابة عنه بدأء طقوس العبادة، لذلك يؤدى كل المسلم صلاة الجماعة، ولأنه لا يوجد أسرار ولا طقوس مقدسة في الإسلام، فإن كل مسلم يبلغ ورشيد بإمكانيه القيام بأي وظيفة دينية، كان يؤم المسألين في صلاة الجماعة ويقوم بإجراءات عقود الزواج أو بالصلاة على الليل قبل نفسه لا توجد حاجة في الإسلام إلى ترسيم وظروف وتخصصات دينية لعبادة الله: أما العلوم الدينية ومرشدو المسلمين، فهم أناس بسطاء يستمتعون بالسماة الطيبة التي تدلي على أنهم على دراية واسعة بأمور الدين وأحكام التشريع (أحيانًا يحققون السماة الطيبة، وبعضهم لا يستحقونها).

258
استيقظت عند الفجر: كانت جفوني مقلقة بالتعاس، هب على وجهي نسيم ناعم رقيق، له همزة رقيقة تفصل ما بين خفوت الليل والنهار الوليد.

نهضت لأغلب آثار التعاس المتبقية في جفوني. كانت المياه الباردة كمسة من بارى بعيدة متناينة - جبال تكسوها أشجار داكنة الخضرة، وتفرعات مائية تتحرك وتتدفق وتظل نقية... جلست وأملت رأسي للخفف حتى يظل وجهي مبللاً بالماء لأطول وقت، هبي نستماة على بلال وجهي، حنت عليه بذكرى طيبة لأيام باردة، لأيام الشتاء الطويلة الماضية... جبال ومياه متدفعة... والتزحلق على الجليد وبياضه الناصع. والبيض للفتت لذى اليوم من أعماق ماضى حين ركبت جوادى وقته على جليد الجبال الإيرانية الناصع البساح دين أن أميز طريقًا أسرى على هُذائه، أنقدم نحو الأمام، كل خطوة من خطوات الجواد تغوص في بطن الجليد والخطة التالية.

أشد جهداً من سابقتها في تسلق الجليد الزلج...

في ظهر ذلك اليوم كما أتذكره، استرحنا في قرية تقطنها مجموعة غريبة تشبه القرية، كانت القرية عبارة عن عشر أو اثنتي عشرة حفرة في الأرض تتغطي كل منها قبة منخفضة من الأعشاب والطين، مما أضيف على تلك المستوطنة الفريدة المنعزلة - كانت في جنوب إيران، في مقاطعة كيرمان - مظهر مدينة الظلمة القائمة تحت الأرض. بدأو مثل مخلوقات سلفية كما في القصص الخيالية، ناس مزمنون صاعدين من تحت الأرض من فتحات مظلمة ليتموَّلوا غرابا يندر وجودهم في تلك المنطقة. على قمة واحدة من تلك القباب جستل امرأة شابة تمشط شعرها الأسود المجعد الأشعث. أتبت وجهها اليابروت لعينيها شبه مغمضتين باتجاه شمس منتصف النهار الشاحبة. وانطلقت من حجرتها أغنية بصوت خافت بإحدى اللغات المحلية، أحاطتها معصمها بأسوار معدنية راحت تروسو مع حركات يديها، وهي تمشط شعرها، كان معصمها دقيقين وقويين مثل أقدام الحيوانات البرية في الغابات البدائية.
الأبعاد: في أطراف المخبرة من البرد، شربت شابًا وعرقًا - كثير من العرق - 
أنها وجدت أن الحارس الذي يصعبنا، وحين ابتلاعها مشوهة جواوبي، كنت مخضرموًا تمامًا، 
تنتسبت به في عدو سريع، بدأ العالم كله مسوسطًا أمامي في رحينة لا نهائية وبدا 
شافعًا في عيني كما لم يبدو من قبل؛ رأيت نشطته الداخلية الخائفة وأحسست بنضجه 
الذين في تلك الأصقاع البيضاء الخالية، اندهشت من خفاء كل ذلك عنى من دقيقة، 
مختلقت أن كل الأفواه على ما يبدو بلا إجابة مائدة أمامنا في انتظار أن 
ندركها، بينما نحن - الحملى الساكن - نطرح الأسئلة وننتظر أن نفتح الأسرار 
الإلهية نفسها لنا؛ بينما ننتظر تلك الأسرار أن نفتتح نحن أنفسنا لها...

فتحت الأرض المستوية نفسها أمامنا، هزمت جواوبي وطررت مثل شبح في ضوء 
المورى ناصع الشفافية، والجليد والبرد يتشابان من حواري الجواد ويبتذفان حولي 
كميل من الشرارات المتطايرة، وأرعدت حواري جواو في صوت مدبأ فوق جليد 
الأنهار المجددة...

اعتقد أنه كان ذلك الوقت الذي أدركته فيه، بالرغم من أنني لم أكن أعي ذلك تمامًا، 
انفتحت باب النعمة الإلهية أمامي - تلك النعمة التي حدثني عنها الأب «فليكوس» من 
زمن طويل مضى حين كنت منطلقيًا إلى رحلة كان ممدّداً لها أن تغير كل حياتي: 
انكشاف النعمة الإلهية التي تحدد لك بوضوح أرك الشخص المنتظر...

مر أكثر من عام ما بين انطلاقاً المجنون على جواو فوق الجليد والبرد قبل أن 
أعتنق الإسلام، ولكن حتى في ذلك الوقت قبل إسلامي، كنت انطلق دون أن أعي ذلك، 
في خط مستقيم كمسار السهم المطلق، باتجاه مكة.

جف وجهي البيل، وتراجعت في مخيلتي ذكرى ذلك اليوم من أيام شتاء إيران 
الذي انقضى منذ ما يرى على سهبة أعدم. تراجع ذلك اليوم وتقهيره إلا أنه لم 
يختف: فهذا الماضي قطعة من هذا الحاضر.

تيار هواء بارد، تنفس صباح يواد يجعل الأعشاب الشوكية ترتفع، وتتجوم تبدأ 
في الخفوت والذبول. انتهى يا زيد، انتهى يا منصور، انتهى... فلنعود النار 
بالطب وندع قهرتنا ثم نضع السروج على الجمال ونركب إلى يوم آخر، عبر الصحراء 
التي تستقبلنا بأذره مفتوحة.
الفصل الثامن

كانت الشمس تتشكل على الغروب حين ظهرت أمامنا فجأة أغلى سوداء تتلوى معترضة طرقنا. كانت سمكية مثل ذراع طفل وطولها نحو ياردة. توقفت وأدركت رأسها نحونا، في رد فعل ألي انفصلت من على سرج ناقتى وحلت قريبينتي من علاقتها. ركبت على ركبتى وصوبت - في اللحظة نفسها، سمعت صوت منصور من خلفى يصبح: "لا تطلق النار - لا تطلق .." إلا أنني كنت قد ضغطت على الزناد وانطلق المقنوف. تلقت الحية لثوانٍ، وتلف ببنها، ومات.

ظهر إلى جواري وأنا مازلت على ركبتى وجه منصور يحمل علامات الضيق والاعتراض على ما فعلت. قال: "لم يكن عليك أن تقبلها .. على كل حال ليس أثناء غروب الشمس: هذا هو الوقت الذي يخرج فيه الجن من تحت الأرض، وغالبًا ما يتخذ شكل حية .. ". ضحكات وقت لحظ.. "لا أظن يا منصور أنك تصدق حكايات العجائز عن الجن الذي يتخذ شكل الحياة والأفاعي." رد منصور: "طبعاً أومن بوجود الجن. أليسوا مذكورين في كتاب الله؟ أما الشكل الذي يتخذونه فانا لا أدرى .. سمعت أنهم يتخذون أشكالًا غريبة لا يتوقعها أحد .. ".

261
فكرت: ربما تكون محقًا يا منصور، لا يمكن أن نفترض أنه باستثناء الوجود الذي تذكره الحواس، توجد مخلوقات لا تدركها حواسنا؟ لا يعد إنكار ذلك نوامًا من التكبير الفكري يدفع الإنسان المعاصر إلى رفض احتمال وجود أشكال أخرى للحياة باستثناء ما ندرك وما يمكن قياسه؟ إن وجود الجن، مهما تكن طبيعتهم، لا يمكن إثباتهما بوسائل وأنواع علمية. كذلك لا يمكن للعلم أن يثبت عدم وجود حيوانات أخرى تختلف قوانينها البيولوجية اختلافًا كليًا عن قوانيننا. وأنها حيوانات فوق قدرة حواسنا على إدراك وجودها إلا في ظروف استثنائية خاصة.

لا يمكن أن تكون هذه الاستثناءات حالات تتقاطع فيها الحيوانات تحت ظروف استثنائية وخاصة مع حياتنا، ويطلق على ذلك ظواهر غير طبيعية، وأطلق عليها القدماء أسماء مثل أشباح، أو عفاريت، أو غيرها من ظواهر «ما فوق الطبيعة» الخارجة والخارقة لما نعرفه من قوانين طبيعية؟

ركبت نافذة من جديد ورأسي مشغول بتلك التساؤلات، وابتسامة تشكل تعلو وجهي من أميرى مثل جعله نمو تتشكل أكثر جموًا من أناس عاشوا على النوم ملتصقين بالطبيعة، استدار زيد على سرجه ووجه حديثه إلى برزانته التي أعهدها:

«منصور على حق يا عمى، كان عليك ألا تقتل الأفعى، ذات مرة، من سنين طويلة مضت - حين هجرت حائل بعد أن استولى عليها ابن سعود - أطلقت النار على أفعى مثل تلك الأفعى وانا في طريقي إلى العراق، وكان ذلك أيضًا في وقت الغروب، بعد ذلك حين توتفقت لصولا الغرب، شعرت فجأة بخلق في ساقتي وكأنهما مربوطتان إلى أثقال من رصاص وإحساس حارق في رأسى، ثم دوي في رأسى هدير مثل هدير شلالات الياه المحددة، واشتعل إحساس حارق في أطرافى كانوا أمسكت بها السنة لهب، لم أستطع أن أتمسك لأظل واقفًا، فسقطت على الأرض فلم يبق في ذلك الظل، ولكنني أتذكر أنني استطعت في النهاية أن أقف على قدمي فوجدت رجلاً غريبًا يقف إلى يميني وأخر إلى يسارى، قاداني إلى قاعة واسعة شحيحة الضوء»

262
ميلينة بهيئة رجال يروحون جيئة وعدها في حماس ويتحدثون إلى بعضهم، بعد فترة تبين أنهم فريقان، كما لو كانوا أمام هيئة محكمة، وجلس عجوز ضئيل الحجم إلى منصة عالية في أقصى القاعة؛ بدا كأنه قاض أو رئيس، أو ما شابه ذلك، وفي الحال تبين أنّى المتهم.

قال صوت: لقد قتله قبل مغرب الشمس تمامًا ببنديقتة. فهو مذنب. وقال صوت آخر من الفريق المضاد: «ولكنه لم يكن يعلم من يقتل، ونطق اسم الله حين جذب رزاح بندقيته، ولكن فريق الاتهام صاح: لم ينطق باسم الله، ورد الفريق الدافع في صوت واحد كأنهم جوقة إنشاء: سمي، سمي، سمي، باسم الله، واستمر ذلك لفترة، اتهام ودفاع. حتى كسب فريق الدفاع في النهاية، واتخذ القاضي في صدر القاعة قراره ونطق بحكمه: «لم يكن يعلم هوية القتيل. كما أنه نطق باسم الله فعلًا. أعيدوه إلى هناك.»

وسحبني الرجلان اللذان أحضرائي إلى تلك القاعة وهما مسلحان، وأعدائي إلى الظلم الدامس الذي كنت فيه، وأرداني على الأرض كما كنت. فتحت عيني، وجدت نفسى ممّدًا بين جوالين من أجولة الجيب، التي كانت مكوبة على الجانبين ومفرود عليها قماش خيمة لحميني من حرارة الشمس. بدأ من درجة الضوء أنتا أقربنا من منتصف النهار، وأن رفاقى قد حطوا رحالهم، ورأيت نوقيا على مبعدة ترهى على منحدر تل. إردت أن أرفع يدي، إلا أن أطرافي وكبدي كان في غاية الضعف، حين مال أحد رفاقى وجهه نحو مستلعمًا حالي، قلت بصوت واهن: «قهوة» فقد كنت أسمع بالقرب مني صوت هاون طحن حبوب القهوة، فقفز رفيقى الذي كان يستطيع حالى صاحبًا: «لقد نطق، لقد نطق، استعاد وعيه» - وأحضروا لي قهوة طازجة ساخنة. سألتهم: هل فقدت الوعى طوال الليل؟ ردوا متعجبين: طوال الليل؟ أربعة أيام بلياليها وانّت لا تحرك، كنا نحملك كما يحمل جوال الجيب على أحد الجمال، وتركك من جديد عند حلول الظلماء؟ كنا نفكر في دفك هنا في هذا الموضع. ولكن الحمد والشكر لله الذي يذهب الحياة ويخذها، الحلى الذي لا يموت ...».

263
وهكذا كما ترى يا عمي، لا تختل أفتعي عند غروب الشمس.

على الرغم من أن نصف وعيي ظل مبستماً من قصبة زبد، ظل نصف وعيي الآخر يشعر بآذى القوى غير المرئية في عتبة الأمعاء المقرن، إحساس بأصوات تتراوح، إلا أنها كانت من الرقة حتى إنه يصعب على الأذن التقاطها، وإحساس بالعداوة في الفرانغ: جعل إحساسًا واهياً بالندم يتغلب على لقتلي الأفعى عند غروب الشمس.

[2]

بعد ظهر اليوم الثالث لمغادرتنا مدينة "حائل"، توافقتنا لسق جمالينا من أباد "أرجة" في واد دائر رحب بين تلال وغابة. كان البئر كبيرًا وملتهب بالماء العذب في منتصف الوادي؛ كل بئر منهما ملك مشاع للقبيبة - الغربي ملك لقبيبة حرب، والشرقي ملك لقبيبة سهيل، وكانت الأرض من حولهما جرداء خالية من أي نبات مثل راحة الكف، فكل يوم وعند منتصف النهار ترد إلى البئرين مئات الجمال قادمة من مراة بعيدة لترتوى، وتدهس كل نبتة تهم بالبروغ وتزعمها أقدام الجمال التي تعد بالمئات.

حين وصلنا كان الوادي مليئًا بالحيوانات، وقطعان جديرة تظهر من بين التلال التي تستهرها الشمس، حول البئرين كان هناك تزاحم وتدافع، فليس من السهل سقاة كل تلك الحيوانات. كان الرعايا يسحبون الماء من البئرين في دلاء من الجلد متربطة إلى حبال طويلة، ويساهمون عملهم بالغتاة الزيت إضافة إلى عملا من رفع الدلاء وإفراغها وإدائها من جديد إلى قاع البئرين: كانت الدلاء كبيرة جدًا، وحين تمثلو بالماء تصبح ثقلة حتى أنها تتطلب أيدى كثيرة لرفعها من أعمق البئر.

من البئر الأقرب لنا - بئر مثير - سمعت الرجال ينشدون للإبل:

ارتووا لا تتركوا ماء

البئر مليئ بالنعم ولا قاع لها

264
كان نصف الرجال ينشدون المقطع الأول، بينما يرد عليهم النصف الثاني بالمقطع الأخير، ويكونون كل مقطع عدة مرات في إيقاع سريع حتى يظهر الدلو على حافة البئر؛ ثم تتولى النساء إفراز الدلاء في أحواض السقي، أعداد من الجمال تتراحم منفرعة للأمام، تهدر وتعدو أصواتها، تجتر في نشوة، وتتراوح حول أحواض البئر.

بينما كان الرجال يبدعون من إثارة أنها صانعين، «هوو... وى... هوو...» كلما تدفغ أعقاقها الطويلة الرنة فوق أعناق رفاقها لتروى عطشها، تدافع وتتراوح لجمال نبيه فاتحة اللون وداكته، وجمال صفراء وأخرى في لون العسل وأسود أقرب البيت، وتملك المكان الرائحة النفاذة لعرقها وويلها.

في الوقت الذي تملا فيه الدلاء من جديد، يسحبها الرجال إلى أعلى، ينشدون

نشيدًا آخر:

لا شيء يروي عطش الجمال
إلا نعمة الله وكد الرجال
ويتكرر مشهد اندفاع الماء في الأحواض، واحتساء الجمال الماء، ونداء الرعاة.
والإنشاد المتكرر.

رفع أحد الرجال المسنين كان يقف بجوار حافة البئر يده ملحوظًا باتجاهنا وصاح:
«حياكم الله يا مسافرين، تفضلوا»، بينما نزع بعض الرجال أنفسهم من زحام البئر واندفعوا باتجاهنا. أخذ أحدهم زمام ناقتنا وأناخا حتى أتجره في راحة، وسرعة أفسحوا طريقًا لنوقتنا إلى حوض الماء، وسكبت النساء الماء في الحوض، وألتو مسافرين، فقد كان ذلك يعتني الآلواة في السقاية.

قال زيد: «أليس عجيبًا أن نشهد الآن سلامًا بين حرب ومظير بعدما كانا متصاربين؟» (كانت قد مررت ثلاثة أعمام فقط على إخماد تمرد قبائل مظير ضد الملك، في حين كانت قبائل حرب من أشد مؤيدي الملك ومؤازريه). أكمل زيد قائلاً:
«هل تذكر يا عمى آخر مرة كنا فيها هنا؟ وكيف تجنينا المرور بابار (آرحا) وسرنا في دائرة واسعة حولها ليلًا لأننا لم نكن نرى هل نجد عندها عدوًا أم صديقًا؟».

265
كان زيد يشير إلى تمرد البدو الكبير في عام 1928 - 1929 ، وكانت أزمة هزة أركان
ملكة ابن سعود حتى جذورها ، وفترة من الزمن كنت مشاركًا في تلك الأحداث.
ففي بداية عام 1927 ، كان السلام يسود كل أرجاء المملكة العربية السعودية
كان نضال ابن سعود للسيطرة على زمام الملكية قد حقق أهدافه . وكان حكمه لمنطقة
نجد مستقبلاً . خضعت «حائل» ، ومنطقة قبائل شمار ، ثم خضعت له منطقة الحجاز
بعد أن طرد منها أسرة الشريف حسين عام 1925 ; ومن بين قادة الملك العسكريين
البارزين كان هناك فيصل الداويش المشكوي في مراميه والذي كان يسبب قلقًا
للملك في الأعوام المبكرة لتكون الملكية . كان الداويش متمرداً وظاهرًا في خدمة الملك
وفي إظهار ولائه مرة بعد أخرى ، في عام 1931 قام بغزو حائل بأمر من الملك ; في
عام 1942 قام بغارة جريئة على العراق لقطع الإمداد البريطاني لأسرة الشريف
حسين بالحجاز ، وفي عام 1925 استولى على المدينة وله بدورًا حاسمًا في غزوة
جدة . وفي صيف 1927 ، كان يتبعه باكاليد الغبار بين أتباعه من الإخوان في
الأرطاوية ، التي لا ت Размер كثيرون عن حدود العراق .

شهدت تلك المنطقة على مدى أعوام طويلة هجمات بنوية كثيرة بسبب هجرات البدو
المستمرة حديثاً عن الكلا والماء ; ولكن طبقاً لاتفاقيات متعاقبة بين ابن سعود وبريطانيا -
التي كانت مسؤولية عن العراق - نصت تلك الاتفاقات على أن توضع أي عوائق أمام
هجرة القبائل التي لا مفر منها ، وعلى عدم إقامة أي تصميمات من أي نوع على
جاليات الحدود بين نجد والعراق . في صيف عام 1927 شهدت العراق حسناً دفاعيًا
عند الآبار الحدودية في منطقة بيساياسا » ، وأعلنت رسميًا عزمها على بناء حصون
أخرى على طول الحدود . وسُبّبت ذلك حالة من القلق والتوتر بين قبائل شمال نجد ؛
إذ كان ذلك يشكل تهديداً لوجودهم ، لأنه يحولهم من آبار الماء التي لا يحظى عناها
والتي يعتمدون عليها اعتمادًا كليًا . وأحتج الملك ابن سعود على ذلك الخرق الصريح
للاتفاقيات الربرمة ، ولم يلق - بعد شهر - إلا إجابة نراوية من المندوب البريطاني على
العراق .

266
قال فيصل الداويش لنفسه - وهو رجل كان طبعه عمليًا: "ربما يجد الملك أنه من غير الملازم محاربة البريطانيين - ولكن أرى أنا الشجاعة للقيام بذلك"، وفي آخر أكتوبر 1927، انطلق على رأس قواته المسمى بالإخوان، وهاجم حصن بيسايا ودمروه، ولم يترك فيه عراقيًا واحدًا.

وظهرت الطائرات البريطانية فوق الموقع، وقامت بالاستطلاع فقط وعادت دون أن تسقط قنبلة واحدة. كان من السهل عليهم أن يقضوا على قوات الداويش (وهو ما كنت نتيجة لهم تنصيص الاتفاقيات الموقعة مع ابن سعود)، ثم سموا المشاكل بعد ذلك الطريق الدبلوماسيًا. ولكن، هل كانت الحكومة البريطانية بالعراق تريد فعلاً التوصل إلى حلول سلمية للنزاع؟

توافد الرسل من قبائل شمال نجد على ابن سعود ليدفعوه إلى القيام بحملة عسكرية ضد العراق. ورفض ابن سعود بحرز كل تلك المطالب، وأعلن أن الداويش مارق، وأصدر أميره لأمير "حائل" أن يشدد المراقبة على منطقة الحدود، وقطع المخصصات المالية التي كان يعطيها لقوات الإخوان كما قطعها عن القبائل التي كانت تحت سيطرة الداويش؛ أما الداويش فقد اختفى بالانزلاق بانتظار حكم الملك عليه. وتم إبلاغ الحكومة العراقية رسميًا بالإجراءات التي اتخاذها ابن سعود وأبلغوه أن الداويش سيلقي جزاءه، وفي الوقت نفسه طلب ابن سعود من العراق أن تلتزم تمامًا بتصنيف الاتفاقيات الموقعة.

كان من الممكن أن ينتهي ذلك النزاع الجديد بسهولة، ولكن حين وصل الأمر إلى ما وصلته إليه، أرسل للدبلوماسي البريطاني على العراق رسالة إلى ابن سعود بعث فيها أنه سيرسل سريًا جويًا لاستجابة قوات الإخوان التابعة للداويش (الذي كان قد عاد إلى موطن قبيلته) حتى يجبرها على طاعة ملكها؛ ولأنه لم يكن يوجد بريق بالرياض، أرسل ابن سعود رسولاً عاملاً إلى البحرين، وأرسل برقيته من البحرين إلى بغداد، يحتف بها على تلك الإجراءات العسكرية التي تتبناها قوات بريطانيا، وذكرهم بالاتفاقيات التي تمنع كل طرف من اختراق الحدود الموقعة.
الخارجين على القانون لدى الطرف الآخر . وأكد أنه لا يحتاج «المساعدة» البريطانية لتقديم سلطته ونفوذه ضد قوات الداويش ، وفي آخر الرسالة حذر البريطانيين من أن أي غارات جوية على نجد سيترتب عليها آثار خطيرة من استثارة غضب الإخوان ، الذين كانوا غاضبين أصلاً نتيجة إقامة تحسينات على الحدود من جانب العراق ».

لم يبق إندلاع الملك آدنان صاغية . قرب نهاية شهر يناير 1928 - بعد ثلاثة أشهر من حادثة «بيساسا» - قام سرب طيران إنجليزي بقصف منطقة نجد ، وأثار حالة من الفزع بين بدو قبائل مطير ولقى رجال ونساء وأطفال وحيوانات مصرعهم دون تمييز . وقامت كل جماعات الإخوان في الشمال بإعداد حملة للانتقام من العراق ؛ وكان لابن سعود فضل كبير في إثارةهم عن القيام بأعمال انتقامية فلم تقع إلا مناوشات بسيطة على الحدود .

** *

استدعى فيصل الداويش لل🔊سد النزاع إلى الرياض ، إلا أنه رفض الحضور ، وبرر ما فعله بأنه كان لصالح الملك . وضاعفت أسباب شخصية أخرى من إجحاسه بالاستياء . فقد رأى أنه خدم الملك بنفاذ وإخلاص ، ورغم ذلك لم يعين إلا أميرًا على الأرطبة - التي كانت رغم عدد سكانها الكبير ، لا تعد فعلاً قرية كبيرة - وأن قيادته للقوات لم تكن دورًا حاسمًا في الاستيلاء على مدينته «حائل» - وعن الملك الأمير ابن سعود وهو ابن عم الملك أميرًا عليها . وفي حملة الحجاز قام بفرض حصار على المدينة لشهور طويلة حتى استسلم من بنا ، ولم يعينه الملك أميراً عليها ، كان تطلبه إلى السلطة لا يدفعه يهداً ولا يستقر . قال نفسه:

»ابن سعود ينتهي إلى قبيلة عزة وأنتمي أنا إلى قبيلة مطير . ونحن متساويان في نبل الحب . فلماذا أعرف أنا يلعو ابن سعود وزعامةه ؟» مثل ذلك التفكير كان لعنة في تاريخ العرب : فلم يكن أي منهم يعترف أن غيره من الممكن أن يكون أفضل منه .

268
 subsidi للإخوان واحدًا بعد آخر فضل ابن سعود عليه ممن أولئك.

الإخوان سلطان بن بوجاد شيخ قبيلة عتبة القوية، وآخرهم "غطس" الذي كانت من أقوى مراكز الإخوان في نجد. كان سلطان قد انتصر على قوات الشريف حسين في موقعة "طربة" عام 1918، وغزا الطائف ومكة عام 1924، فلم يذكله أيضًا أن يكون أميرًا فقط على "غطس"؟ لماذا لم يعينه الملك أميرًا على مكة؟ أو لماذا لم يعينه على الأقل أميرًا على الطائف؟

كان مثل فيصل الداويش، برئ أنه خُدع في حق من حقوقه، وكان صهرًا للداويش.

في خريف عام 1928، دعا ابن سعود لعقد اجتماع لزعماء القبائل وعلماء الدين في الرياض لفض تلك النزاعات. حضره كل زعماء القبائل تقريبًا باستثناء ابن بوجاد والداويش. وإنما في غرب، أعلن أن ابن سعود كافر ومرتد، لأنه عقد اتفاقات مع الكفار - الإنجيل - وأدخل إلى أرض العرب آلات شيطانية مثل السيارات والهواتف وأجهزة البرق والطائرات. بينما أعلن العلماء المجتمعون بالرياض بالإجماع أن مثل تلك المخترقات لا يسمح الدين بها فقط، بل يبحث عن طلبها لأنها تزيد قوة ومعارف المسلمين، وأن النبي (عطى) في صدر الإسلام كان لديه صلاحية عقد المعاوضات مع غير المسلمين. إذ كانت تلك المعاوضات توفر الأمن والإسلام والحرية للمسلمين.

لا أن المتمردين استمروا في ادعاءهم ووجدوا أنفسهم صاغيون لدى بعض البيضاء من الإخوان، كانوا محدودي الوعي والإدرار بدرجة لا تمكنهم من الحكم على سياسات ابن سعود؛ لذلك كان من السهل إقناعهم أنهم تتم تأثير من الشيطان. كان تقاضى ابن سعود عن تعليم الإخوان وتحويل حماسهم الدينية المجردة إلى قوة مستنيرة.

قد بدأ يُسفر عن وجهه السُيِّئ.

أصبحت بارزة نجد مثل خليفة نحل، مبعوثين غامضون ينتقلون على جمال السريعة من مكان لآخر ومن قبيلة لآخر، واجتماعات سرية لزعماء قبائل تعقد عند آبار بعيدة غير مأهولة، وأخيرًا، انفجر تمرد قبائل مطر ومتيبة وبعض القبائل الأخرى التي انضمت إليهم.
كان الملك صبورًا، وحاول أن يكون متوفهمًا. أرسل الرسل لزعماء قبائلتمردين
ودعاهم للتناهض الودى العاقل؛ ولكن بلا طائل. وأصبح شمال ووسط الجزيرة العربية
مسرحاً ل أعمال السرقة والتهرب، وانعدم الأمن الذي كان يسود نجد ولدت محله
فوضى، واجتاحت عصابات الأخوان جميع أنحاء نجد من كل الاتجاهات، يهاجمون
القرى والقوافل والقبائل التي ظلت على ولائها للملك.
وبعد صدامات محلية كثيرة بين التمردين والقبائل الموالية للملك، قامت قوات
الملك بخوض معركة حاسمة في سهول سيبالا، في قلب نجد، في ربيع 1929، في
جانب كان الملك على رأس قوة كبيرة؛ على الجانب الآخر، كانت قبائل مطير وعذبة
وبعض القبائل المتحالف معها. وانتصر الملك في تلك المعركة استسلم ابن بوجاد
بلا شروط وعادوا به إلى الرياض مكبلًا بالاغلال. أما الداويش فقد أصيب بجروح
خطيرة؛ وقيل: إنه على شفا الموت. وأرسل ابن سعود، الأرق قليلاً من بين كل
الزعماء العرب، طبيبه الخاص ليشرف على علاج الداويش - وشخص ذلك الطبيب،
 وهو طبيب سوري شاب، أن إصابة الداويش إصابة خطيرة بالكبد. لن تتم الداويش
أكثر من أسابيع؛ وعلى ذلك قرر الملك «سندعه يموت في هدوء، لقد نال جزاءه من
الله».، وأمر أن يرسل عدوه المصاب إلى أهله بالارطاشية.

إلا أن الداويش كان أبعد ما يكون عن الموت، لمتك إصابة بتلك الخطورة التي
ظلت الضابط الشاب، وشفى تمامًا خلال أسابيع وهرب من الأرطاشية، وهو مصمم
أكثر من أي وقت مضى على الانتقام.

* * *
كان هروب الداويش سببًا في إحياء دوافع التمردين. وأشع أن الداويش موجود
بنفسه بمكان قريب من حدود الكريت لجمع قبائل جديدة من حوله، بالإضافة إلى قوة
قبائل مطير التي لم تتاثر بشدة بعد الهزيمة السابقة.
ولكن أول من انضم إليه قبيلة عجمان، وهي قبيلة صغيرة إلا أنها اشتهرت بأس رجليها في الحرب وتبعهم في منطقة الحسا على الخليج الفارسي، كان شيخهم ابن حمدانين خالاً لفيصل الداريش، وعدا ذلك لم يكن ود مستوحلاً بين ابن سعود وشيخ عجمان. فمن أموال سابقة قاموا بِذبح شقيق الملك الصغير، سعد، وخوفاً من انتقام الملك، هاجروا إلى الكويت. ثم عفا عليهم ابن سعود بعد ذلك وسمع لهم بالعودة إلى أرض آبائهم، إلا أن البقية ظلت حية بالقلوب، ثم اشتعلت على هيئة عدوانة بعد أن اغتيل زعيم عجمان وبعض أتباعه في معسكر أحد أقارب ابن سعود.

وهو ابن الأكبر لأمير الحسا، أثناء التفاوض للتوصيل إلى نسوية.

وكان تهافت قبائل مطبتر قريبة عجمان بمثابة الشرارة التي اندلعت بين قبائل عتبية في قلب نجد فأجتذبت من جديد، وجمعوا من جديد تحت زعامة زعيم آخر بعد القبض على بوجاد في المعركة السابقة، وأعلنوا تمردهم وعصيانيتهم من جديد. وأجبروا الملك على تحويل كل قواته من شمال نجد إلى وسطها. كان الفتن مريرة، ولكن مع الوقت كانت كفة ابن سعود ترجع، فقد راكز يحققه الانصارات على قبائل عتبية، قريبة بعد أخرى، حتى عرضوا الاستسلام. وفي قرية تقع بين الرياض ومكة، أعلن زعيمهم الاستسلام وأعلن ولاه للملك - ومرة أخرى عفا عنهم الملك، أماً في التفرغ للداويخ وبقاء التمردين في الشمال. وبمجرد عودة الملك إلى الرياض تراجعت قبائل عتبية عن ولائها للمرة الثانية وجدوا أعمالهم العدوية، وأصبح الملك يعرض خسراً ضد عتبية للمرة الثالثة لإنهاء تمردهم. وللمرة الثالثة هزمت عتبية وتشتت شملهم، وبدورتم منشآت وقواعد الإخوان في غطاط تدمر كاملاً.

وكانت غطاط أكبر من الرياض، واستقرأ سلطة الملك من جديد على وسط نجد.

استمرت الحروب في الشمال. كان فيصل الداريش وحلفاؤه قد عززوا مواقعهم بالقرب من الحسا، وقام ابن مسعد أمير حائل بمهاجمتهم مرة بعد أخرى بالنيابة عن الملك. وترتب عليهما، على الملا أن الداريش قد قتل، وكان يثبت بعدها أنها شائعة كاذبة. هذا عاش عينداً لا يتصلح سقط ابنه الأكبر وسبعمائة من مقاتليه صربي.
الحرب، إلا أنه لم يتخل عن القتال، وطرح السؤال نفسه: من أين يتلقى الداویش الدعم المالي الذي لا غنى عنه للاستمرار في الحرب كل ذلك الوقت؟ ومن أين يحصل على أسلحته وذخيرةه؟

كانت هناك تقارير غامضة وغير محددة، أن الثوريين الذين انتزعوا ابن سعود بمرارة لعقده معاهدة مع الکفار، يتعاملون مع البريطانيين ويتحالون معهم ضد ابن سعود. كانت هناك شائعات أن الداویش يذهب كثيرًا إلى الكويت فهل يقوم بذلك فعلًا؟ ودون معرفة السلطات البريطانية! ألا يمكن أن تكون الاضطرابات المثيرة في مملكة ابن سعود تخدم مصالحهم وأغراضهم أجل خدمة؟

* * *

ذلك مساء صيف عام 1929، كنت بالرياض، أنت إلى فراشي مبكرًا، وقبل أن تستغرق في النوم، رحت أتصفح كتابًا قديمًا عن القبائل العمانية وأصولها، ووجدت زيد يحضر إلى غرفتي فجأة قائلًا:

»هناك رسول من لدى لشيوخ، ويريدك أن تذهب إلى القلعة.»

ارتبطت ملابسي على عجل وتوجهت إلى القلعة. كان ابن سعود ينتظرني في جناحه الخاص، مترنعاً على ديوان وأكواب من الصحف العربية من حوله وإحدى صحف القاهرة بين يديه، ثم على تحيتي بإيجاز دون أن يقطع قراءته، وأشار إلى أن أجلس جواره. بعد فترة رفع بصريه، ونظر إلى الخادم الذي كان يقف بباب الغرفة وأشار بيده ليتركتا بمسربنا. وبمجرد أن أغلق الخادم الباب، وضع الملك الصحيفة جانبيًا وراح ينظر إلى برمته من خلف زجاج نظارته اللامعة، كما لو كان لم يرني من فترة طويلة (مع أنيت قضيتي معه بضع ساعات في الصباح) سأنتى: «مشغول بالكتابة؟». قلت: "كلا يا طويل العمر، لم أكتب حرفًا من بضعة أسابيع ".
قال: «كانت مقالات مثيرة تلك التي كتبتها عن مشاكلنا الحدودية مع العراق.»
كان يشير إلى بعض المقالات التي أرسلتها إلى جريدة في أوروبا من شهرين،
ونشرت مقالات منها في صحيفة القاهرة. وأعادت تلك المقالات في توضيح حقوق
مهمة. ولأنني على دراية كبيرة بالملك، كنت أدرك أنه لا يتحدث عشوائيًا وأن لديه
شيئًا محددًا يهدف إليه، ولذلك ظلت صامتًا، منتظرًا أن يكمل حديثه. وبالفعل أكمل
حديثه:

»ربما تود أن تكتب المزيد فيما يحدث في نجد - عن ذلك التمرد وما وراءه. كان
هناك بعض الانفعال الطفيف في سوته وهو يكمل: عائلة الشريف حسين تكرهني.
وأبناء الحسين الذين يحكمون بغداد وعبر الأردن سيظلون على كراهيتهم لي، فهم لن
ينسوا أبداً أنني انتزع الحجاز منهم. يوجد أن تنهر مملكتي حتى يتمكنوا من
العودة إلى الحجاز... أما أصدقاؤهم، الذين يتظاهرون أنهم أصدقائي أيضاً، فقد لا
يجبون أيضًا أن تتبقى مملكتي مستقرة... إنهم لم يبقوا تلك الحصون بلا سبب يريدون
إشعال حرب ويدفعوني بعيدًا عن الحدود الشمالية...»

من خلف كلمات ابن سعود، كنت أختيل صوئًا شبحيًا - مد خطوط سك حديثة،
على الرغم من أنها ما زالت متخطأتين، إلا أنها قد تصبح واقعًا بالغد. وهو مشروع
بريطانيا لوضع سك حديث بين حيفا والبصرة. كانت الشائعات عن تلك الخطوة
معروفة من سنين. كان البريطانيون يخططون لتأسيس الطريق البري إلى الهند:
وكان ذلك سبيًا في فرض وصايتهم على فلسطين وعبر الأردن والعراق. لم يكن مد
خط سكة حديد من البحر المتوسط إلى الخليج الفارسي مجرد إضافة جديدة لخطوط
الإمبراطورية، بل كان يعني حماية كبيرة لخط أنابيب النفط الذي سيستمد من العراق
عبر الصحراء السورية حتى مدينة حيفا. من جهة أخرى، كان خط سكة حديد حيفا -
البصرة لا بد أن يمر بولايات ابن سعود الشمالية، ولم يكن الملك يقبل أبداً ذلك الاقتراح
البريطاني. لا يمكن أن يكون بناء تلك الحصون على خط الحدود الفاصل بين العراق
وئد والذي يخرج كل الاتفاقيات المبرمة، المرحلة الأولى من مخطط دقيق لإحداث

273
اًضطرابات في تلك المنطقة المهمة "التبرير" إقامة منطقة عازلة شبه مستقلة، وتكون أكثر ميلاً إلى البريطانيين؟ من الممكن أن يحقق لهم فيصل الداعش مثل ذلك الهدف مثل عائلة الشريف، هذا إن لم يكن أفضل منهم في تحقيق مأرب البريطانى. لقد كان من أهل نجد المراقد شمالها، وله أتباع أقوياء بين الإخوان، وكان يدعو الدينى مجرد ستار يدرك بسهولة من يعرفون ماضيه؛ كل ما يريده الداوشي السلطة وحدها. لم يكن هناك شك، أنه لو حارب دون معاونة من جهات مجهولة، لم يكن ليصمد أمام ابن سعود. ولكن هل كان بمفرده فعلًا؟

بعد برهة صمت، أكمل الملك حديثه: "لقد كنت أفكر، كما يفكر الجميع، في موضوع إمدادات السلاح والذخيرة المتوفرة باستمرار للداوشي لديه الكثير منها، ولهي أموال طائلة أيضًا، جاءت تقارير بذلك. وقد كنت أتساءل، إن كنت تود تزك، تكتب عن هذه الأمور - أقصى تلك المصادر الغامضة التي تم الداوشي بالسلاح، والمال، لدى شكوكي الشخصية حول تلك المصادر، وربما هو أكثر من شكوك - إلا أنني أفضل أن تكتشف بنفسك ما تود اكتشافه، فقد أكون على خطأ."

هذا هو الأمر إن، فكل الملك كان يتكلم بطريقة عرضية، وبنفاسة الحوار المعتاد، إلا أنه من الواضح أنه كان يزن كل كلمة قبل أن يقولها. نظرت إليه بتركيز، بشا جبهة مبتسماً بعدما كان في منتهى الجدية من لحظة ماضية. وضع له ربيتى وهزها قائلًا: "أريدك يا بنى أن تعرف لنفسك - من أين حصل الداوشي على السلاح والذخيرة والمال الذي يبذلله ويبذله في سخاء وسلام حساب. لا يوجد لدي شكل عن الجهة التي تمويه، ولكن أحب أن أخبرك، يوجد هناك غير متورط في النزاع، كل العالم بالحقيقة الخافية وراء تمرد الداوشي. أظن أنك تقدر على التوصل إلى تلك الحقيقة."

كان ابن سعود يرى تمام الوعي ما يفعله. لقد كان يعلم على الدوام أنني أحبه، وعلى الرغم من أنني لم أتفق مع سياساته، كما لم أفحص أبداً عدم مواقفه تلك، إلا أنه لم يحبب أبداً تقتله بي وغالبًا ما كان يسألني الرأي، واعتقد أن ذلك يرجع إلى يقينه من أن ي لا أنتظر أي مسكة شخصي، وأنني لن أقبل وظيفة بحكومته إذا ما.
عرضها علىً ، فقد كنت أفضل أن أبقى حراً . وهكذا ، في تلك الليلة التاريخية من صيف عام 1929 ، اقترح على بهدء أن أنطلق لأكتشاف سر الخديعة السياسية الكامنة خلف تمرد الإخوان - وهي مهمة تتراوح على مخاطرة شخصية وتطلب بذل جهود كبيرة .

كان «الشيوخ» يعلم أنني لن أخذله . فباستثناء حبي لشخصه ولبلده ، فإن المهمة التي أطلقتها إلى تبادل معلومات وحافلة بكثير من المغامرات المثيرة ، فضلاً عما يمكن أن أحققه من «سبق صحفي».

قلت له: «على عيني ورأسي أمرك يا طويل العمر ، سافر بالتأكيد كلا ما يمكنني عمله».

قال: «لا يوجد لذي شكل في ذلك يا محمد ، وأتوقع أن تحتفظ بأمر هذه المهمة سراً . قد تتراوح على مخاطر - وماذا عن زوجتكم؟»

كانت الزوجة فتاة من الرياض تزوجتها في العام السابق . ولكنها لم تكن الملك فيما يخصها قائلاً: «إنها لن تتمكن يا إمام ، اليوم فقط كنت أفكر في طلاقها ، يبدو أنني لا ننساب بعضاً».

ابتسم ابن سعود ابتسامة العارف: فطلاق زوجة لم يكن شيئًا غريبًا عليه.

سألتها: «وماذا عن بقية ناسك - أفرقةك وأهلك؟».

قلت: «لا يوجد مّن سيعلن الحداد على ما أظن إن حدث لي مكره ، باستثناء زيد بالطبع ، ولكنه سيصبح يحي على أي حال ، وما يفق لي سباق له بكل تأكيد».

قال: «خير إن شاء الله» ، قبل أن أنسى: «ستحتاج إلى بعض المال لتلك المهمة» - ودفع بده تحت حشية خلفه ، وأخرج كيسًا وضعه في كتفه ، من وزن الكيس خمنت على الفور أنها عملات ذهبية . فكرت بيني وبين نفسي: «كم كان على يقين ، حتى قبل أن يحدثى ، أنتى سأوافق...»
حين عدت إلى بيتي، نادت زيد الذي كان مستيقظًا بانتظار عودتي، سالته: «لو طلبت مثلك يا زيد أن تصحني في مهمة تطوي على مخاطر هل تفعل؟».

أجاب زيد: «هل تظن يا عمي أنني أدعك تذهب وحده، مهما كانت المخاطر؟ إلى أين سنتذهب؟».

قلت له: «سنتذهب للاكتشاف من أين يحصل الداويش على أسلحته، وأمواله والملك يصر أن لا يعلم أحد أي شيء عن هذه المهمة حتى نتمها، لذلك يجب أن تحترز.»

لم يهتم زيد بتأكيد احتفاظه بالسر، ودخل مباشرة إلى الجوانب العملية وسألتني: «لا يمكن بالطبع أن نسأل الداويش أو رجاءه؟ فكيف سنعرف ذلك؟».

في طريق عودتي من القلعة، كان ذهني يقبّل الأمر، بدأ لي أن أفكر بداية لأبد Así أن تكون من إحدى مدن وسط نجد، حيث يوجد كثير من التجار الذين لهم علاقات تجارية بكل من العراق والكويت، وأخيراً، استقر رأيي على مدينة «شقرة»، عاصمة ولاية وشيم، وهي على مسيرة ثلاثة أيام من الرياض، وهناك أيضاً يمكن أن يساعدني صديقى عبد الرحمن السباعي.

شهد اليوم التالي إعدادنا لبدء تلك المهمة. ولتجنب لفت الأنظار، حذر زيد من أخذ أي شيء من مخازن الملك كما كنا نفعل قبل أي ارتحال، وأن يشباب كل ما تحتاجه من السوق. عند حلول الساءة، كان زيد قد اشترى كل ما تحتاج من مواد غذائية: عشرتين رطلًا من الأرز، وعشرين رطلًا من الدقيق، وقرية سمن، وتمر، وين، وملح. كما اشترى أيضًا قرتين جديدتين للماء ودلوًا من الجلد، وحبلاً طويلًا مجدولاً من شعر الماعز يكفي لإدلاه في أعماق الآبار. وأعدنا أنفسنا بالأسلحة الملائمة ونخبة كافية. ووضعنا في الخروج غيارين من الملابس لكل منا، وارتدى كل منا عباءة ثقيلة لستعدين بها مع الأغذية لاتقاء برد الليل في الصحراء. كنا نوقنا في أحسن حال بعد أن قضت أسابيع في الرعي والراحة. وكانت الناقة المتاحة ولهبها لزيد من أجود نوق السباق العماني، بينما كانت ناقتي «شمالية» النسب كانت ملكًا ل الأمير راشد على مدينة حائل، وأهداها لي ابن سعود.
بعد حلول الليل، خرجنا من الرياض، عند الفجر كنا وصلنا وادي حنيفة، وهو مجرى مائي كبير وجاف يقع بين سفوح التلال – وكان موقعًا لمعركة حاسمة جرت أحداثها من ثلاثة عشر قرنًا بين قوات المسلمين في عهد أبي بكر رضي الله عنه، خليفة الرسول، وأول خليفة إسلامي، وقوات مسلمة الكذاب الذي عادى المسلمين لسنوات طويلة. كانت تلك المعركة على التوالي للDMI للمسلمين في قلب الجزيرة العربية، وسقط فيها كثير من صحابة الرسول (عليه السلام) شهداء، وما زالت قبورهم واضحة إلى اليوم في المنحدرات الصخرية للوادي.

قبل منتصف النهار مرنا على أطلال مدينة «عبيانا» وكانت ذات يوم مدينة تزدهر بعد كبير من سكانها، وتلت بطول وادي حنيفة. بين صفوف أشجار الطراء كانت هناك بقايا ذلك الماضي: جدران منازل متداعية، وأعمدة مسجد ذات صدوع، بقايا منازل كانت تشي بالفخامة هنا وهناك، كلها تنام عن مستوى رفيع من الفن العمالي مقايرة بالمنازل الطينية البسيطة التي نراها اليوم في نجد. وبقال: إنه حتى منتصف عام مضت، كان كل وادي حنيفة من «درية» (وهي العاصمة الأصلية لعائلة ابن سعود) حتى عبيانا – وهي مسافة تربى على خمسة عشر ميلًا – كانت كلها مدينة واحدة، حتى إنه حين ولد ابن الأمير «درية»، نقلت النساء نياً لولدت تتجاوز أسطح المنازل، في دقائق قليلة حتى نهاية «عبيانا». أما قصة هيجر سكان مدينة «عبيانا» لها فهي قصة غامضة مليئة بالأساطير التي يصعب تمييز الصحيح منها. المحتمل أنها هجرت أثناء حكم أول أمير سعودي حين رفض أن ينضم تحت لواء المصلح محمد بن عبد الوهاب؛ أما القصة التي يحكيها الوهابيون فتدعم إلى أن ما حدث للمدينة كان غضبًا من الله، أنضبت كل أبار عبيانا في ليلة واحدة، مما أجرب سكانها على هجرها.

في ظهر اليوم الثالث طالتنا من بعيد حوط وأبراج حصن مدينة «شقوا» التي كنا نقصدها، وظهرت قمم النخيل عالية فوق المنازل، مضيئة بين بساتين النخيل في شوارع خالية، تذكرنا أن اليوم جمعة وأن أهل المدينة الآن بالمسجد الجامع لصلاة
الجمعة. من أن لآخر كنتا نرى إحدى النساء بعباءة سوداء تغطيها من رأسها حتى قدميها، تتدهم لوعلة لوجود غريب، ثم تسحب نقاً فقوه وجهها في سرعة وحجل وارتباك.

أطفال يلعبون ويلعون في أماكن متفجقة في ظلال المنازل؛ وحرارة شديدة تجثم بوطئها حتى هامات النخيل.

توجهنا مباشرة إلى منزل صديقي عبد الرحمن السباعي، وكان في ذلك الوقت مسؤول بيت المال للولاية. ترحتنا أمام الباب المفتوح لنزله، ونادي زيد من الفنان: "باويد" - حين ظهر الخادم من داخل البيت مسرعاً، قال زيد: "ليكم ضيوف".

بينما كان زيد مشغولاً بتحل الأحمال على الجمال بمساعدة الخادم في فناء البيت، تصرفت كائناً في بيتي، وأشب خادم آخر النيران تحت إبريق القهوة. وعند أن ارتفعت أول رشفة أرتفعت أصوات من الفنان - أصوات إستيأة وإجابات: لقد عاد صاحب منزل. من على درج السلم وقبل أن أراه كان صوته يرتفع مرحباً، ثم ظهر بفراش الباب وذراعاه مفتوحان في ترحيب: «كان رجلاً رقيقاً قصير القامة والحية، وعينين عميقتين وبرودتين في وجه بخش».

رغم من حرارة الجو كان يرتدي مطرفاً طويلياً من الفرو تحت الواجهة. كان ذلك المنطق أحد أهم مقتنياته، لا يكاد بدأ من إعلام من لم يعلم بتاريخ ذلك المنطق الذي كان ذات يوم من ممتلكات الملك الحجاز السابق، الشريف حسين، وقد كان من نصيب عبد الرحمن حين شارك في غزو مكة عام 1924، لا أذكر أنه رأيته بدون ذلك المنطق.

احتضنتي في حارة، وشب على أطراف أصابع ليتمكن من تقبيل على الخدين، وترحيبه بدا ينقطع: «أهلاً وسهلاً ومرحباً، أهلاً بك في بيتي المواضع يا أخي. مباركة الساعات التي ساقتليها هنا».

ثم تلى الترحيب الأسئلة التقليدية: من أين، وإلى آين، وحال الملك، والأمطار، وإن كنت سمعت أي أخبار عن سقوط أمطار - كان من المت laut البولاد كل الأخبار.
العربية شفاهة. قتله: "عينازة" في قلب نجد هي مقصود - لم يكن ذلك دقيقًا تمامًا، إلا أنه لا يعد كثيرًا عن الحقيقة.

في أعوام سابقة، كان عبد الرحمن يعمل بالتجارة فيما بين نجد والعراق، وكان معروفًا لتجار البصرة والكويت. ولم يكن من الصعب دفعه إلى الحديث عن تلك الأماكن وعن الذين قدموا مؤخرًا منها (جُمعت أن وجود فيصل الداويش بالقرب من الكويت، يعني أن الكويت أو البصرة مصدر إمداداته). عرفت من عبد الرحمن أن أحد أبناء عائلته البسام المشهورة في عنيزة - وهو أحد معارفي القدامى - قد مر بالكويت وهو عائد من البصرة، وأنه تنبذ المرور بالمناطق التي يوجد بها المتمردون تجنبًا للمخاطر، لذلك عاد عن طريق البحرين إلى نجد، وهو في "شفقا" في الوقت الحالي، وأنه سيرسل في طلبه أو أردت لقاءه: وطبقًا لعادة عربية متصلة كان الوالد حديثًا إلى مكان، يزار ولا يزور، بعد فترة قصيرة، كان عبد الله البسام قد انضم إلينا في مجلس القهوة في بيت عبد الرحمن.

كان عبد الله على الرغم من انتظامه إلى أكبر عائلة تعمل بالتجارة في نجد، غير ميسور الحال. كانت حياته مليئة بطيب رخاء وأيام عصر - والصار أغلب - لم تقتصر خبرته في الحياة على منطقة نجد، بل شملت القاهرة، وبغداد، والبصرة، والكويت، والبحرين، وميامي. يعرف كل من يستطيع أن يعرف في تلك البلاد ومماثلاته من كل ما يجري في البلاد العربية. أخبرته أن شركة ألمانية كلفتني بالبحث عن وكي مساهمة تنصير إليه معدات زراعية في البصرة أو الكويت، ولأن الشركة تعرض على عمولة كبيرة، فانى مهتم بالتوصل إلى أنسب التجار في المدنتين لتحفيذ ذلك العرض.

ذكر البسام أسماء عديدة، ثم أضاف:

"أنا متأكد أن تجار الكويت سيهتمون بالمشروع، وإنهم دائمًا يستوردون سلعًا من الخارج، والظاهرة أن التجارة متعشة جدًا هذه الأيام - حتى إن رسائل كثيرة من الزيارات الصغيرة تصل كل يوم مباشرة من دار سك العملة في "ترست"."
أصابني ذكره للرياضات الفضية الجديدة بجرة داخلية. فهذا النوع من الرياضات الجديدة، مع رياضات ماراثونًا وترزيزاً، يشكل معًا، بالإضافة إلى العمليات العربية الأخرى، العمليات الرئيسية في كل الجزيرة العربية. لقد سكت تلك الرياضات في مدينة ترغيست، ويعتبر بقيمة ما تحتويه من فضية، عدا عمولة بسيطة، تسكن لخليفة الحكومات والتجار الكبار الذين لهم تجارة كبيرة مع البلاد، ولا يقبلون إلا عمليات فضية وذهبية. فلم يكن البدو يقبلون التعامل بالعمليات الورقية، كانت العملية المفضلة رياضات ماراثونًا وترزيزاً، والواقعة أن استيراد كميات كبيرة من تلك العمليات من قبل تجار الكويتيين، يدل على أن تعاملات كبيرة تتم الآن بينهم وبين البدو.

سألت السياح: لماذا يستورد التجار الكويتيين رياضات جديدة الآن بالذات؟ قد في لهجته شيء من الحيرة: لا أدرى، إنه يتحدث عن شراء لهوم الإبل من البدو بالقرب من الكويت لبيعها في العراق وأسعارها مرتفعة، هذه الأيام على الرغم من أيها لا أدرى كيف يتوقعون أن يجدوا عملاً جمالاً الآن في الصحراء قرب الكويت مع تلك الاضطرابات الواقعة.. هذا ما يخبرني، ثم أضاف ضاحكًا: أعتقد أنه أربع لهم شراء جمال للركوب من العراق ويبيعونها للاهباش ورجاله، ولكن الدوايش بالطبع ليس لديهم المال لدفع ثمنها.

هل لا يملك المال حقًا؟

في تلك الليلة قبل أن أرى إلى فراشي في الغرفة التي خصصها مضيفنا لنا، سحب وزيد إلى جانب من الغرفة، وقال له: سنذهب إلى الكويت.

قال: هو ي شأن الأمر سهلًا يا عمي، إلا أن بريق عينيه كان أكثر صراحة من قوله، فقد وضعت عيناه لا يحبه فقط للمواقف الصعبة، بل بإقباله على شديد الخطورة منها. كان عن العبث أن نسافر إلى الكويت عبر الاراضي التي يسيطر عليها رجال الملل، لأنه سيثبت بعدها مائة ميل تفصلنا عن حدود الكويت وتسيطر عليها قبائل مطير وقلعة عجمان. كان يمكن السفر إلى الكويت بالبحر عن طريق البحرين، إلا أن

280
ذلك كان يتطلب تصريحًا من السلطات البريطانية ويذك نعرض كل تحركاتنا الرصد والتابعة. وكان من الصعب سفرنا عن طريق الجوف، ثم عبر الصحراء السورية، ثم العراق. حتى الكويت لدينا سندر على مئات من نقاط التفتيش والتحري بسوريا والعراق. لم يتبقي إلا الطريق البري المباشر إلى الكويت والملاح بالمناطق المادية. فكيف نخترق تلك المائة ميل وندخل إلى الكويت دون أن يكتشف أمرنا؟ كان من الصعب الوصول إلى إجابة، ولذلك تركنا إجابة السؤال للمستقبل، واضعاً ثقتنا في حظى الحسن والفرص الملائمة التي لا أعرفها الآن.

أراد عبدالرحمن السباعي أنت يستيقظ في ضيافته بضعة أيام، ادعى له أن أمامي أعمالًا تجارية مهمة، تركنا نغادر في الصباح، بعد أن أضاف إلى مخزوننا من اللؤلؤ كمية من لحم الدم الجاف - وكانت إضافة شهية إلى طعامنا المحصور في أصناف بسيطة، واصبر أن أزوره في طريق العودة، ولم أجد ما أجيب به إلا: «إن شاء الله».

* * *

من «شغرا»، ارتحلنا على مدى أربعة أيام باتجاه الشمال الشرقي دون أن يقابلنا أحد. مرة واحدة استوقفنا قوات موالية للملك من بدو العوارم التي تكون جانبًا من قوات الأمير ابن مساعد، ولكن الخطاب المفتوح من الملك جعلهم يعاملونا أفضل معاملة. وبعد إجراء الضيافة المعتادة، واصلنا طريقنا.

قبل فجر اليوم الخامس وصلنا إلى منطقة لا تنتهي إليها سلطات ابن سعود. من الآن أصبح من المجال الارتحال نهارًا، وأمانتنا أصبح في السير ليلاً وخلسة.

حتطنا رحالنا في ممر مناسب لبعيد كثيرًا عن طريق وادي الرمة، وهو مجرى مائي جاف قديم كان يجري من شمال الجزيرة حتى الخليج الفارسي، مليء بأشجار الطرفة والأعشاب مما كان يوفر لنا غطاءً مائلاً للاختفاء بينها أثناء التهمر. عقينا

281
نوفئنا جيدًا، وأطمئناها مجريش الشعرى ونوى التمر - حتي لا نطلقهما للرعي - واسترخينا في انتظار حلول ظلام. لم نجرب على إشعال نار حتى لا يكشف نخانها عن موضعنا، وأكتملنا بوحجة من التمر والماء. تبين لنا أن حرصنا كان ذا فائدة عظيمة في ذلك اليوم، حين وصل إلى سمعنا صوت إنشاد أحد إمسكا بقیاور الجمال حتى لا تزمن أو تقرر، وضغطنا أنفسنا إلى جدار الممر الصخري ونادقا جاهزًا في أيدينا علا صوت الغناء مقتربًا: ميّزنا منه كلمات: (لا إلا إلا الله، إلا إلا إلا الله)، وهو الإنشاد الذي أحله الأخوان محل أناشيد وأغاني الارتفاع. لم يكن هناك أي شك أنهم من قوات الأخوان، وفي هذه المنطقة لا يمكن إلا أن يكونوا من الإخوان العبدون صادقين بعد فترة ظهرنا على حافة رابية، تعلو بالكامل حافة الممر - كنا جميعًا مجتمعة من شجاعة أو عشرة راكبين يقتدون ببطء في صف واحد، أشكالهم محددة يوضوح على خلفية من صفحة السماء. كان كل منهم يضع غطاء رأس أبيض فوق قبعة مخططة باللونين الأبيض والأحمر، على صدورهم حزامان عريانان ينقاطمان فوق الصدر ومع كل منهم بنقية معلقة إلى سرج الجمل من خلفهم موكب كبير يتأرجح للأمام والخلف، ثم للأمام والخلف، على إيقاع خطو الجمال وعلى وقعت إنشاد اسم الجلالة العظيم الذي يسأله استعماله: (لا إلا إلا الله)... كان مشهدًا يوجي بالقوة إلا أنه كان في الوقت نفسه محبطًا ومحزناً. كانوا يرفاً يرمّي الإيمان لديهم أشياء أكثر من الحياة، اعتقدوا أنهم يحاربون من أجل الدين الخالص إعلاء كلمة الله، لا يعلمون أن حماسهم وتحرقهم قد وظف وآسيأ استخدامهم لتحقيق تطلعات قادرين لهم لا ضمير له ولا خلق سيعي إلى تحقيق السلطة والنفوذ...

كانوا من الناحية الملاءمة من المر التي لا تكشفنا، أو كانوا بالجهة الأخرى لرأونا بمنتهى الوضوح كما نراه نحن الآن من بين الأعياس. وحين اختلفوا عن أنظارنا والإنشاد الدينى مازال على شفاههم، تنفسنا الصداع في ارتباك. همس زيد: "إنهم مثل الجن، أجبته: "نعم، هم مثل الجن الذي لا يعرف المرح بالحياة، ولا خوف الموت... شجعان وأقوياء الالتزام، لا ينكرون أحد ذلك - ولكن كل ما تدور حوله أحلامهم لا يتجاوز الدم والموت والجنة..."
كرد فعل للقاء الديني الإخواني المتجمهم، بدأ زيد يغني أغنية حب سورية: «أيتها العذراء ذات البشرة الخضرية...» ومجرد أن ساد الظلام، بدأنا السير خفية باتجاه الكويت البعيدة النائمة.

* * *

فجأة، تعجب زيد مندهشاً: «انظر هناك يا عمي، هناك نار» كانت ناراً صغيرة لبوني حط رحلائه، قد يكون راعياً بصرفه؟ ولكن أي راع هذا الذي يجري على إشعال النار هنا إلا إذا كان من التمردين؟ من الأفضل اكتشاف الأمر، لو كان رجلاً بصرفه لأسكن التغلب عليه بسهولة، ونستقي منه معلومات قيمة عن تحركات الإخوان وأماكن تواجدهم بتلك المنطقة.

كانت منطقة رملية، ولم يصدر عن خطوات الجميل أي صوت حين كنتا نقترب في حذر من النار. على ضوء النار ميزنا شكل بوني بصرفه يجلس القرفصاء. كان يبدو وكأنه يحملق في اتجاهنا في الظلام، ثم حين تأكد له أن هناك قادمين، نهض بلا تعلم، مربعًا نراءاته على صدره ليظهر لنا أنه غير مسلح، وانتظر بهدوء دون أي حركة تشي بخوف.

صباح زيد بحدة: «من أنت؟» وصوب بنديقته باتجاه البدو ذي الملابس البالية.

ابتسم البدو ببطء ورد بصوت عميق: رنان: «أنا صلبيي...»

اتضح الآن سبب هدوئه. فهو ينتمي إلى قبيلة غريبة تشبه الفجر (على الأصح مجموعة قبائل) لم تكن أحدًا طرفًا في أي حرب من الحروب التي لا تنقطع بين بدو الجزيرة العربية: لم يعابروا أحدًا، فقله هاجمه أحد أبدًا.

كان بدو الصلوبية (المفرد صلبيي) لغرًا أمام كل الباحثين. لا يعرف أحد أصلهم على وجه اليد. من الثابت أنهم ليسوا عربيًا: فعيبتهم زرقاء وشعرهم بنى فاتح بغض

283
النظر عن بشرتهم الداكنة من حرارة الشمس، مما يفضح انتهاهما للمناطق الشمالية في آوروبا. ويذكر المؤرخون العرب القدامى أنهم من نسل الصليبيين الذين أسرهم صلاح الدين وأرسلهم إلى الجزيرة العربية، وأسروا بعد ذلك، وبالفعل تجد أن اسم صلبي له نفس جذر اللغة: صليب وصلبي - لا يعلم أحد مدى صحة هذا التفسير.

على أي حال يعتبر البدو أن الصليبية ليسوا عرباً ويعاملونهم بارزة وتعال. وهم يفسرون سر ذلك الازدراد، الذي يتناقض بحدة مع إحساسهم العالي بالمساواة بين البشر، فهم يؤكدون أن أولئك الصليبية ليسوا مسلمين حقيقيين ولا يحيون كمسلمين، ويؤكدون أنهم لا ينتمون، بل يتناسلون كما تتناسل الكلب بلا زواج، ودون أن يرثوا حتى علاقات المحارب، ويدعون أنهم يتأكلون الألماح أكلها. وقد يكون كل ذلك من قبيل المبالغات. فأنا أميل إلى الاعتقاد بأن بعض الصليبيين بانتظامهم إلى جنس مغاير هو ما جعل البدو، الذين يهتمون بالأسنان والسلالات - إلى وضعهم في دائرة خاصة لا يتجاوزونها حتى لا تختلط الأنساب، وهو دفاع غريزي عن ثقافة السلالات، إذا كان الصليبيين يشكلون إفراداً جماعياً، فذالك لأنهم جميعاً يتمتعون بجمال فائق، ورجالهم أطول من رجال العرب، وملامяхم وأجسامهم متناسبة ومتناسقة؛ أما نسائهن ففئات الجمال، عدا أجسامهم الجميلة وحركتهن الرشيقة.

والصلبيون يلقون تقديرًا من بدو الصحراء كبيطريين، ففي مداواة الحديثات المرضية، وفي صناعة السروج، وأعمال الحدادة والمعدن، وبالرغم من أن البدو يحتقوف الصناعات الفنية حتى إنهم لا يمارسونها، فإنهم لا يستغرون عنها، ولذلك يضمن الصليبة ذلك الفراق، وهم عدا ذلك رعاة منازل، ووقت كل شيء، صيادون مهرة لا يضرون، وقدرتهم على اقتفاء الأثر قدرة أسطورية، ولا يضاهيها في ذلك إلا بدو الحرة على حافة الربع الشمالي.

أحسنت بالارتياب حين وجدت الرجل صلبي، قالت له صراحة: إننا من رجال ابن سعود - لم يشكل ذلك خطرًا على ضوء معرفتي أن الصليبية يكون احترامًا شديدًا للسلطة - وأمرته أن يفتي ناره، فعل، ثم جلسنا على الأرض في حوار طويل.
لم يخبرنا بالكثير عن أماكن تواجد قوات الداوش، لأنهم كما قال: «في حركة دائبة، مثل الجن، لا يمكنهم بمكان واحد لفترة طويلة»، طمانيني على الأقل بهأنه لا توجد في الوقت الحالي جماعات كبيرة للإخوان على مقربة منا، وبالرغم من وجود جماعات صغيرة تعبر الصحراء باستمرار عبر كل الاتجاهات. فجأة، وانتتني فكرة ألا يمكننا الاستفادة من خبرات الصليبي ليقودننا إلى الكويت؟

سأتأتي: هل ذهبت قبل ذلك إلى الكويت؟

ضحكات الصليبي قائلًا: «مرات كثيرة، لقد بعت هناك جلود غزلان، وسمنًا، وصور جمال. عدا ذلك، عدت منها عشرة أيام فقط».

قلت: «إذن يمكن أن تقودنا إلى الكويت؟ أقصد أن تسيرنا في طريق لا يسلكا الإخوان؟»

للحظات راح الصليبي يفكر، ثم أجاب بعد فترة تردد: «ذلك ممكن، ولكنه خطر كبير على، إذا قبضوا على صحبتموك، لكن ... قد يكلف ذلك كثيرًا.»

قال: «حسنًا ...» تبنت ارتجاف الطعم في صوتي - «حسنًا يا سيدي، إذا أعطيتني مائة ريال قد أستطيع أن أقودك آمنًا إلى الكويت بطريقة لا يراها أحد إلا طيار السماء».

كانت المائة ريال تساوي عشر جنود ذات ذهبية (٣)، وهو مبلغ بسيط في مهمة كمهمتنا، وربما لم يستك الصليبي في حياته مبلغًا يمثل تلك القيمة.

قلت له: «موافق، سأعطيك مائة ريال - عشرين الآن والباقي بعد وصولنا إلى الكويت».

لم يتوقع دليلنا المنتظر أن يجاب طلبه على الفور، وربما أحس بالندم ؛ لأنه لم يطلب شيئاً أعلى، لأنه بعد أن فكر قليلاً، أضاف: «ولكن ماذا عن الناقة إذا قدمك إلى الكويت ثم عدت، ستكون ناقتي المسكونة قد هلكت تماماً، وليس لدي غيرها.»

(٣) كانت المائة ريال تساوي أيضاً خمسين جنيهًا إسترلينيًا بأسعار ذلك الوقت.
لم أرغب في إطالة المفاوضات، أجبته على الفور: "سأشترى ناقتك، وستركبها أنت حتى الكويت، وهناك ستهبها لك كهدية - ولكتك ستقودنا في العودة أيضًا".

كان ذلك أكثر مما يمكنني وشتهي - نهض في خفة وابتهاج، وأخذت في الظلم.
ثم ظهر بعد دقائق، يسحب ناقة عجوز، إلا أنها بدت قوية بعد بعض المحاذاة والمساومة. استقر السعر عند مائة ومصين ريالًا للناقة، يتقاضى منها خمسين الآخر.
نها، ويتقاضى بقية نفسي مع باقي الكفاية في الكويت.

أخرج زيد كيس النقود من أحد خروج ناقته وبدأ في عد قطع العملات في حجر الصلوبى. من طبيع ملابسه أخرج قطعة قماش كان يصر فيها نقوده، وبينما كان يضيف ريالات إلى ما معه، فلت نظرى بريق قطع العملة الجديدة التي كانت معه.

أمرت قائلًا: "أنا أضع كفي على يده: "توقف، دعني أن تلقى العملات الجديدة التي ملكت.
في حركة متبردة، كما لو كان يخشى أن نسرق ماله، وضع الصلوبى قطع العملة في كفي، كانت حوارها حادة مثل العملات السكواحة حديثًا ولم تتم حوافتها بعد من كثرة التداول، أشعثت عود ثقاب وفحصتها بعناية، كانت بالفعل ريالات «ماريا تيريزا»، جديدة كما لو كانت قد خرجت الآن من دار سك العملة، ووجدت خمس أو ست قطع أخرى بنفس الجدة.

سألته: "من أين حصلت على هذه الريالات؟".
أجاب في حماس: "لقد كسبتها بشرف، أقسم لك يا سيدي... لم أسرق هذه النقود. أعطوا لي متيرون من أسايب من الكويت، لقد اشترى مني سرج جمل لأن سرجه كان باليًا..."

سألته: "متيرون؟ هل أنت متاكد؟".
أجاب: "متاكد يا سيدي، ليقتنى الله إن كنت كانًا... كان من رجال الداوشي، واحد من المتمردين الذين كانوا يقاتلون مؤخراً أمير حائلاً، هل ارتكب جرمًا إذا
أخذت منه مالاً مقابل السرج؟ لم أكن أقدر أن أرفض البيع، وأنا متأكد أن «الشيوخ» إقطاع الله عمره سيضيفهم ذلك ...»، طمنائه أن الملك لن يضيع منه، فقطم قبله، واستجوابته من جديد، وعلمت أن أفراداً آخرين من الصلوبيين تلقوا ريالات جديدة من أتباع الداوش مقابل سلع وخدمات ...

أثبت الصلوبي أنه دليل لا يضاري. على مدى ثلاث أيام قادنا في مسارات التفاوض حول المناطق التي سيسيطر عليها التمريون، قادنا عبر مناطق مقفرة حتى إن زيد الذي يعرف تلك المنطقة جيداً، لم يرها في حياته من قبل. قضيتنا أوقات الظهيرة متخفين بلا حركة، ذات مرة قادنا إلى حفرة بها ماء، لا يعرفها حتى بعد المنطقة كما أخبرنا، ركبت مياهها البنية الراكدة ظماً نوقنا كما أعدنا على قرنا، رأينا مرتين فقط بعض جماعات الإخوان عن بعد، إلا أنهم لم يرونا.

فيا بعد ظهور الصباح الرابع من مقابلتنا للصلوبي، بدأ في الأفق مدينة الكويت.
لم تحاول دخولها من اتجاه الجنوب الغربي الذي قدمنا منه كما يفعل القادمون من نجد ودخلناها من الغرب على طريق القادم من البصرة، حتى يعتقد من يرانتنا أننا تجار قادمون من العراق.

بمجرد دخولنا مدينة الكويت ذهبنا إلى مجمع سككى ملك لتجار من معارف زيد منذ أن كان في قوات «العجائل العراقية»، واستراحنا من عناء السفر كما لو كنت في بورونا.

كانت الحرارة المشبعة بالرطوبة تشدد على شوارع الكويت الرملية وعلى البيوت المشيدة من قوالب الطين الجاف؛ ولانتهاء على السهوب المفتوحة في نجد وجدت نفسى غارقاً في الرطوبة. إلا أنه لم يكن هناك وقت نضيعه في الراحة. تركنا الصلوبي يحرس الجمال مع تعليمات مشددة آلية أخذ أي أحد بالجهة التي أتينا منها - وتوجهت أنا وزيد إلى السوق لتقوم بتحريتنا الأولية.

لم أكن على دراية بالكويت ولم أرد أن أشرفي؟، وجدت على مقهى مدة ساعة، أحتى القهوة وأخذ الأرزه، حتى عاد زيد، كان من الواضح من
علامات الانتصار البابدية على وجه أنه توصل إلى معلومات مهمة. بادرت قائلًا:

"هيا نتحدث في الخارج يا عمي، من السهل أن نتحدث في السوق حتى لا يستمعنا أحد، لقد عدت إليك بشيء مهم - ولي أيضًا" ومن تحت عبائته أخرج عقالين وكوفيين عراقيين من الصوف البنى الشميك. أردف زيد: "هذه تجعلنا عراقيين" تأكد زيد باستفسارات الخفية أن أحد زملائه القدامى - وهو أحد رفاقه وقت أن كان يعمل بالتهريب عبر الخليج الفارسي - يعيش الآن بالكويت، ومارس يعمل بالتهريب.

قال: "أو بحثنا عن أحد الأشخاص أمامه أقارب تجار السلاح في الكويت فإن نجد أفضل من بندر. إنه شمالي مثلي - واحد من أولئك الحملي العنيدين الذي لا يمكن أن يرضيه بالوضوعة لحكم ابن سعود. ويجب أن نخبره أننا نعمل بعشيقة - ومن الأفضل أن نخبره من ابن أثينا؟ لأن بندر ليس غبيًا - إنه في غاية النذكاء، لقد خدمته كثيرا فيما مضى ولا يجب أن أثق به الآن.

سألنا عنه حتى وصلنا إلى منزله في حارة ضيقة مجاورة للسوق. كان طويلاً نحيلًا في نحو الأربعين من عمره، عيناه نصف مغلقتين، تعلو وجهه ملامح من عيان عصر هضم! إلا أن ملامحه اكتست بسعادة حقيقية حين رأى زيد. وسبى لون بشرتي الأبيض قدمني زيد إلىه بصفة تاجر تجاري مستقر في بغداد وأعمل في تصدير الخيل من البصرة إلى بومباي.

إضافة زيد: "لم تعد تجارة الخيول مربحة هذا الأيام، خاصة بعد أن حصر تجار عنيزة وبريدة هذه التجارة بينهم".

أجاب بندر: "هذا صحيح، لم يكتف أولئك الجنوبيون الأذئان التابعون لابن سعود بالاستيلاء على بلدنا، ويسعون الآن للاستيلاء على أراقنا أيضًا...".

سألت زيد: "وماذا عن تجارة البنادق يا بندر، لايد أنها تجارة رابحة هنا؟ مع وجود كل أولئك المطيري والعمانيين الرايغين في لي رقية ابن سعود - هو؟

أجاب بندر: "كان هناك عمل كثير. وهو كيفي مرفدًا، حتى بضعة شهر مضت كنت أكسب الكثير من المال بشراء البنادق من عبر الأردن ثم أبيعها لرجال الداويش، ولكن كل ذلك انتهى الآن، انتهى تماماً. لا تستطيع أن تبيع بندقية واحدة الآن".
سأله زيد: "كيف ذلك؟ الداوتشي يحتاج بنادق الآن أكثر من أي وقت مضى.

أجاب بندر: "هذا صحيح، بالفعل يحتاج، إلا أنه يحصل عليها بثمن لا تستطيع لا أنا ولا أنت أن نوفرها بسعر مثله. إنه يحصل عليها في صناديق قادمة من عبر البحر - بنادق إنجليزية - جديدة تقريبا - مقابل عشر ريالات للبندية مع مائتي طلقة رصاص.

تسلل زيد في اندهاش حقيقي: "تبارك الله، عشرة ريالات للبندية ومعها مائتي طلقة، ولكن هذا مستحيل...".

بدا الأمر مستحلاً بالفعل، فقد كانت البندية في ذلك الوقت من طراز "لي- أنغلد" مثلماً إلى خمسة وثلاثين ريالًا، دون طلقات؛ ولد وضعتنا في الاعتبار أنricks بالكويت قد يكون أقل قليلاً من نجد، فإن فارق السعر الكبير يستعصى على الفهم.

ابتسم بندر في استياء وقال: "يبدو أن الداوتشي لديه أصدقاء أقوياء.. أقوياء جداً..."

بعض الناس يقولون: إنه سيصبح ذات يوم أميراً مستقلاً بشمال نجد.

قلت: ما تذكره يا بندر جيد وجميل، الداوتشي سيستقل فعلاً عن ابن سعود، إلا أنه لا يملك مالاً، وبدون المال لم يكن الإسكندر ذاته يستطيع أن يبنى مملكة.

أنفجر بندر في ضحكة عالية: "ماله الداوتشي لديه الكثير من المال - ريالات جديدة، تلك في صناديق، مما تأتي البنادق في صناديق من عبر البحر.

سألت: "صناديق ريالات؟ هذا غريب جداً. من أين يحصل بدورى على صناديق ريالات جديدة؟".

أجاب بندر: "لا أعلم من أين، إلا أنني متاكد أن بعض رجاله يسلمون يوميا كميات من الريالات الجديدة تصلهم من مختلف تجار المدينة. لماذا؟ بالأسفل فقط رأيت FBI بن مشهور في البيئة يشرف على إنشاء تلك الصناديق من أحد المراكب".

289
كانت هذه الأنباء ... وأنا أعرف فرحان جيداً، كان الابن الأكبر لأخي ذلك الأمير السوري البوذي نوري الشعلان، الذي حارب ذات مرة إلى جوار لورانس ضد القوات التركية. قابلت فرحان أول مرة في دمشق عام 1942، وكان سيئ السمعة لتوافده الدائم في أماكن الترفيه المشبوهة. بعد فترة طرد هو وعمه من دمشق مع بعض أبناء قبيلته، وهي قبيلة »الروالا«، وذهبا إلى نجد حيث تحول فرحان فجأة إلى تقي، و»ورع«، وانضم إلى حركة الإخوان. قابلته بعد ذلك للمرة الثانية في مدينة حائل، وكان في ذلك الوقت يضع على رأسه عباءة بيضاء كبيرة دالة على إيمانه وقوه، وهي العملية التي يضعمها الإخوان، وكان ينعم بكرم الملك تمر الإخوان، وحين ذكرته، وحن في حائط بلقائنا السابق في دمشق، غير الموضوع بسرعة، وتجاهل سؤالي. كان أحقق ومتطلعًا كما كان من قبل، وأرى في تمر الداويش فرصة مواتية لكي يستقل بإمارة الجوف، وهي واحة تقع إلى شمال صحراء النفود الكبرى في الجزيرة العربية، كما في أي مكان آخر، كان التمردون يتبعون نفس العادة السيئة في تقسيم جلد الأسد قبل اصطياده.

سألت بندر: »أي أن فرحان هنا بالكويت الآن؟«.

أجاب: »نعم، إنه يحضر إلى الكويت كثيرًا، مثلهم مثل الداويش، ويدخل ويدخج، كما يشاه من قصر شيخ الكويت، يقولون: إن هناك وใหญ كثيرًا بينه وبين الشيخ.

سألته: »ولكن لا يعترض البريطانيون على دخول الداويش وفرحان إلى الكويت؟«، لقد أعلنوا من بضعة شهور أنهم لن يسمحوا بالداويش وأعوانه بدخول الكويت.

ضحك بندر من جديد: »فعلًا قالوا ذلك، ولكن أخبرتك: للداويش أصدقاء أقوياء... لا أعرف إن كان هذا بالكويت الآن أم لا، ولكن فرحان موجود هنا الآن، إنه يذهب كل مساء إلى الجامعة الكبير، لصلاة المغرب - تستطيع أن تراه بعيدًا إن كنت لا تصدقني.«.

وبالفعل رأيناه.
عملنا بما أشار به بندر، توجهنا أنا وزيد في باكورة اللصاف إلى قرب الجامع الكبير، انحرضنا وسط جماعة من البدو، كان من الواضح أنهم من بدو نجد متوجهين إلى الجامع، كان في مقدمتهم رجل في الثلاثينيات من عمره، وكان أقصر قليلاً من البدو المحليين به ومن يتبعونه، كان بمعنى الطائفة وتبني وجهه مختصرة، تعرفت عليه في الحال. ولا أدرى إلى اليوم إن كان قد تعرف على أم لا! فقد التقت عينانا للحظة، وسحبت نظريه في سرعة وآثار الفاجعة باد على وجهه، كما لو كان يحاول أن يستدعى من ذاكرته صورة باحة لأحداث قتمة، ثم استدار مبتدأ، وبعد لحظة احتفظت هو وأتباعه بين الجمع المتجه إلى المسجد الجامع.

قررتنا ألا تطول إقامتنا السرية في الكويت بلا سبب غير انتظار أن نرى الداويش أيضاً.

وأكد صحة المعلومات التي حصلنا عليها من بندر، معلومات أخرى جمعها زيد، من معارفه بمدينة الكويت. اتضح أن الإمدادات الغامضة للداويش من بنادق «لي انفليد» والتي يرويه أمرها على أنها «مشتراة» - تشير بوضوح إلى الوسطاء من تجار الكويت المشهريين بتجارة السلاح؛ وكذلك الأموال الكبيرة من ريالات «ماريا تيريزا» والتي يتم تداولها مؤخرًا في أسواق الكويت من الممكن أن تقتفي أثرها وصولاً إلى فيصل الداويش ورجالة; ولكن لا يتح إننا التواصل إلى أرصدة المالية ولا التواصل إلى أي مستندات، إلا أنه أصبح لدينا براهن على صحة شكوك الملك التي أخبرني بها.

أتممت مهمتي، وفي الليلة التالية اتخذنا طريقنا خليصة إلى خارج الكويت كما أتينا. وأثناء تحريرتنا بالسوق، علم الصلبى أنه لا توجد الآن قوات للمتمردين في ذلك الوقت جنوب الكويت، واتجهنا جنوبًا إلى إمارة الحسا، التي كانت تحت سيطرة الملك الكاملة. بعد ليلتين من السير السريع، قابلنا بالقرب من الساحل فصيلة من بد بنى حجر الذين أرسلهم أمير الحسا لاستطلاع أخر مواقع المتمردين، وبختنا بصحبتهم إلى نطاق الأراضي الخاضعة لسلطة الملك. وبمجرد أن أصبحنا آمنين في
ملوكَةَ ابن سعوُد، اقتُرِقَتْنا عن دَلِيلنا الصُّلوبِي، الذِّى تلَقَى مِكافَاهَةً بَرضَا وسَعَادَةً، واتجه بعَدًى باتِجاه الغَرب عَلى نَاقةٍ، أُهَدِيتَها إِلَيْهِ، بِيَنَّا وَاكُلَنا طَرِيقَنا إِلَى الْبَيْضَ. 

* * *

أُثْبِتَتْ سَلَسلَةُ القَمَالاتِ الذِّى كُتِبَتْهَا أنَّ التَّمَرَدِينَ مَدعوَونَ مِن قَوَةٍ أُورَوبِيَة عَظمَى. وَأَشَرَتْ فِي ذَلِك القَمَالاتِ أنَّ الْهَدَف الأَسْاسَى لِلْكَلَّةِ المُؤَامِرَةِ هُوّ نَفَعُ حَدُودِ مَلِكَةَ ابن سعوُد إِلَى الْجَنَّوْن لفَصِّلَ النَّقَطَة الشَّمْلِيَة وَتَحْوِيلَهَا إِلَى إِمَارَةٍ مُسْتَقِلَّةً تِفْصِّل بَينْ السَّعوُدِيَةِ وَالْعَرَاقِ، مَا يُمْكِنُ البَرِطَانِيَّينَ مِن مَّدْ خَطْ سَكَكِ حَدِيدَةٍ مِنْ بَعْرِ تلكِ الْوَلَائِةِ المُسْتَقِلَّةِ يُصِلُّ الوَسْبِ بين الْبَصَرَةِ وَحَيْفاً. وَعَدَا ذلِكَ، كَانَ تَمْرَد الْداوِيَش يَوْفِرُ أَسْبَابٌ وَجُدَّ اسْتَطَرَابَاتٍ مُسْتَمَرَّةٌ تَنكِلُ مَلِكَةَ ابن سعوُد وَتَجْعَلُهُ فِي وَضَعٍ لَا يُسْمَحُ لِبَرَضَتِ الْبَرِطَانِيَةِ كَمَا فَعَلَّ قَبْل ذلِكَ، حِينَ رَفَضَ مَنْحَ البَرِطَانِيَّينَ مِيَازَاتَ خاصَّةٍ، أَوْلَاهُا: اسْتَنْجَارُ مِيناء رَبّيغ الْوَاقِعُ شَمْلَ جَدَة لِإِقَامَةٍ مَّقَامَةً بَحْرِيَّةٍ، والثَّانِي: السِّيَّرَةُ عَلَى خُطْ سَكَكِ حَدِيدَةٍ دِمْشَقَةٍ المَدِينَةُ الَّذِي يَمِدُّ عَلَى الأَرَاضِيِّ السُّعوُدِيَّةَ. وَكَانَت مِزْيَمَةَ ابن سعوُد تَحْقِقُ لِلْبَرِطَانِيَّينَ الْهُدْفِينَ مَعَاً.

أَثَّرَتِ القَمَالاتِ رُبَدَ أَفْعَلَا وَاسْعَةً فِي أُورَوَياَ وَفِي الْعَالِمِ الرُّبَيْعِ (خَاصَّةً مِنْ خَلِالِ الصَّحِيفَةِ الْمِصْرِيَّة)، وَرَبَّما كَانَ الكُشْفُ المُبَكِرُ لَأَبَادَ ذَلِكَ المَخْتَطِ سِبْبًا إِلَى إِجْهَاضِهِ عَلَى أَيَّ حَالِ طَوْلِ النَّسَبِيَّ خُطْ سَكَكِ حَدِيدَ حَيْفاً – البَصَرَةُ عَلَى الْرَّمَٰلِ الطَّائِقَةِ الَّتِي صَرِفَتِ عَلَى الْدِّرَاسَاتِ الأَوْلَى، وَلَمْ يَسْمَعْ شَيْئَ مَنْ مِنْ ذَلِكَ الْمَخْتَطِ بَعْد ذلِكَ أَبَدًا.

مَا حَدِثَ بَعْد ذلِكَ أَصْحَبَ وَقَائِعًا تَارِخِيَّةً: فِي صِفِيفٍ عَامٍ ١٩٢٩ احْتَجَ ابن سعوُد عَلَى سَمَامَ الْبَرِطَانِيَّينَ لِلْداوِيَش بْحَرْيَةٍ شَرْهَةُ الأَسْلَحَةِ وَالْذِّخِيرَةُ مِنَ الْكُوْتِ، وَلَٰكِنْ لَمْ يُكَنْ يَمْكُ الَّذِي مَرْتَعَّ عَلَى آنَ قَوَةٍ أُجْنِبِيَّةٍ يَهُذِيَ تَبْعِيض السَّلَحَ لِلْداوِيَش، فَقَدْ كَانَ احْتِجَاجُهُ منْصُوبًا عَلَى السَّمَامِ لِبِشْرَاءٍ أَسْلَحَة. وَرَدَتْ الْسَلَطَاتُ الْبَرِطَانِيَّةُ بِأَنَّ تَجَار
الكويت هم من يبيعون السلاح للمتسردين وأنها ليست لها سلطة على التجار ولا تستطيع أن توقف ذلك بعد أن وقعت اتفاقية جدة عام 1967، والتي تقضي برفع الحظر عن مبيعات السلاح إلى الجزيرة العربية. وإذا أراد ابن سعود - كما جاء بردهم - أن يشتري سلاحًا من تجار الكويت فليفعل… وحين اعتراض ابن سعود محتجًا بأن الاتفاقية ذاتها تقضى أن يمنع الطرفان أي أنشطة في أرض كل منهما تهدد سلامتهما وأمن الطرف الآخر، تلقى ردًا بأن الكويت لا تعد «أرضًا برطانية» ولا تحت الحماية البريطانية، حيث إن الكويت «مشيخة مستقلة ولا تتبع برطانيا بها إلا علاقات تعاهدية». وفقد استمر التمرد. في آخر خريف 1969، تولى ابن سعود بنفسه قيادة المعارك، وصمم هذه المرة على مطاردة الداويش حتى الكويت لو اضطر إلى ذلك وإذا ظلت تلك الحدود مفتوحة الداويش - كما كانت مفتوحة له على اليوام - كقاعدة ينطلق منها، ومفتوحة للمتمردين كمهاجرين. وأمام ذلك الموقف الصلب من ابن سعود الذي أصر في الوقت نفسه على استمرار الاتصال بالسلطات البريطانية، تنازلت السلطات البريطانية أن من الخطر الاستمرار في تلك المأزورة أكثر من ذلك وارسلت السلطات البريطانية طائرات وعربات مصفحة لمنع الداويش من التقهقر إلى الكويت. ووجد الداويش أنه خسر قضيته؛ لأنه لن يتمكن من الصمود أمام الملك في معركة مفتوحة؛ فبدأ في التفاوض. كانت شروط الملك محدودة واضحة: أن تسلم القبائل المتمردة؛ وأن يسلموا سلاحهم وخيلهم وجمالهم؛ وأنه سيبقى على حياة الداويش، على أن يقوم في الرياض ولا يغادرها.

كان الداويش يتم تلك النشاط والحيوية والحركة الدائمة، ووجد أنه لا يستطيع ولن يحتل أن يظل يحب السلاح ويتضح حريته؛ فرفض الشروط وقاتل حتى آخر خندق ضد قوات الملك الأقوى كثيرًا من قوته، وتم سحق كل المتمردين، وهرب الداويش، وبعض قادة المتمردين إلى العراق، وكان منهم فرحان بن مشرح، ونايف أبو كلاب، زعيم عجمان.

وطلب ابن سعود من السلطات العراقية طرد الداويش من بلادهم. وبعض الوقت بدأ أن الملك فيصل، ملك العراق، سيرفض طلب ابن سعود محتجًا بالتعاون العربي.
العريقة التي تقضي بإيواء اللاجئ واستضافته؛ إلا أنه رضي. في آخر عام 1930 تم تسليم الدايش الذي كان في غاية المرض إلى قوات الملك وأرسل إلى الرياض. وبعد بضعة أسابيع اتضح أنه مريض فعلاً في هذه المرة مرض الموت، فأمر ابن سعود بكرمه المعهود بإعادته إلى أهله بالأردن، وفي الأردن، وصلت حياته العاصفة إلى نهاية.

ومن جديد، ساد السلام أرجاء مملكة ابن سعود.

* * *

من جديد عاد السلام ليحل حول أبار أرحا، صاح البندو المطرى العجوز، بينما كان رجاله يعاونوننا في سقي جمالنا: "أطال الله أعمالكم، شاركونا النعمة". كان من الواضح أن الأحذق والضغائن والمناوات التي كانت سائدة بالمأذين القريب قد نسيت ومحبت تماثلًا، كما لو كانت لم تقع أبدًا.

والأبد لهم طبائع غريبة: فهم سرير الاشتعال والغضب في دوايات لا سيطرة عليها حتى ولو بالتخيل، كما أنه سريغ الهواء ويعيد بمثابة إلى إيقاع الحياة الهادئ العادي فيلب عليهم التواضع والطيبة: دائمًا الجنة والجحيم متلازمان.

سحبوا الماء لتوقنا بالدلاء الكبير، وأنشد الرعاة الطيورين معًا:

ارتووا لا تتركوا ماء

البر مطية بالنعم ولا تاع لها

[3]

في الليلة الخامسة من مغادرتنا لحائل أنا، وزيد، ومنصور، وصلنا إلى سهل المدينة، ورأينا هيئة جبل أحد المعتمة. كانت الجمال تتتحرك بخطى متهالكة منبهة.
فقد قطعنا مسافة كبيرة من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من تلك الليلة. كان زيد ومنصور صامتين، وكنت أنا أيضًا صامدًا على ضوء القمر ظهرت مشارف المدينة، بحوائط ذات الشرفات، ومئذنة المسجد الرسول.
وصلنا إلى البوابة الشمالية، التي يطلق عليها البدو اسم البوابة السورية. أغلقت الجمال لما رأيت هيئة الأبراج الدفاعية فوق البوابة، واستمتعنا عصيتي إجباراً على المرور من البوابة.
أصبحنا الآن من جديد في مدينة الرسول وعدت إلى بيتتي بعد تجوال طويل في الصحاري: المدينة أصبحت بيتتي من أعوام طويلة، يسود شوارعها هدوء عميق شهير بها ويخيم على شوارعها الهادئة الخالية من أن لا آخر ينحض كلف في تكاسل حتى لا تطأ أقدام الجمال. رجل يسير بحزان يفتي; تارجح صوته في نفحة رقيقة حتى تلاشي في حارة جانبي دخلها، فوق رؤسنا تتخلل شرفات ونواذ سوداء نائمة وصامتة.
الجو الذي يغمره ضوء القمر دافئ مثل الحليب المازج.
وصلت بيتتي.
تركنا منصور قاصداً بعض أصدقائه بالسيدة، أنكشفنا أنا وزيد راحلينا أمام باب البيت، عقلهما زيد وهو صامت وبدأ في إنجاز الخروج من على ظهورها، دقيقة الباب. بعد لحظات سمعت وقع أقدام وأصواتاً من الداخل، سطع ضوء الصباح من شراعة الباب، سحبت مزاليج من مواضعها، وضاحت خادمتى السودانية العجوز منضهة في سعادة حين وقع بصراها على:
«عاد سيدى »...
الفصل التاسع
رسالة فارسية

كان الوقت عصرًا، كنت جالسًا مع صديق في بستان نخيله الذي يقع بالكاد خارج البوابة الجنوبية للمدينة، نسجت أمراض النخيل نسيجًا من مساحات رمانية وخضراء في خلفية البستان، مما جعله يبدو بلا نهاية. كانت أشجار النخيل مزابت صغيرة وواطئة، وأشعة الشمس تتراقص على جذورها وعلى الأقواس المذيبة لطرفها. كان يشعُر لونها الأخضر أثوبًا تهب في هذا الوقت من كل عام، بينما كان البساط السمييك من حشائش الفصة ذا لون أخضر لا تشوبه شائبة.

[1]

على القرب أمامي تنهر أرض المدينة، قديمة، رمانية، مشيدة من الأحجار والطوب اللبن، أبرزه تبرز إلى الخارج في موارد متباعدة منه. من خلف برج السور الواجهة له بد أشجار نخيل بستان آخر ولكنه يقع داخل سور المدينة، نوافذ المنازل بتيتان اللون وشرفات تبرز هنا وهناك، بعضها شهد مرتزقًا على السور وأصبح جزء منه، على مبعدة، تبدو المناظر الخضراء لسجد الرسول، عالية ورشيقة مثل أطماعنا، وتبدو من بينها القبة العظيمة الخضراء التي تخفي وتغطي منزل الرسول الصغير - الذي كان بيتًا في حياته ومدفون في مماته - إلى أبعد من ذلك، خلف المدينة تبدو
الصخور اللمساء لجبل أحد: يبدو كستارة خلفية لآذان مسجد الرسول البيضاء، وتيجان أعراس النخيل وكثير من منازل المدينة.

بدت شمس العصر مبهرة الضياء - مثال زجاج نقي خلف سحب بيضاء متالقة المدينة بجمعها تسحب في ضوء يتراوح بين الأزرق والذهبي يتقاتط مع خضرة أعراس النخيل. رياح عالمة تلهو بالسحب العالية. سحب، عادة ما تكون خادعة لا يمكن أن تحدد في المدينة بيقين: السماء مليئة بالحسب، لابد أن هب، فحتى مع تكاتف السحب وثلتها كما لو كانت حبب بعض الغيوم، غالبًا ما تتوقف ريح مزمنة معاكسة وتفرق السحب وتسكب جمعها، وتتحول أوجه من كانوا يتوقعون الفي في أسف صامت، يتمتعون: لا حول ولا قوة إلا بالله - بينما تتأقث السماء مجددًا بسرعة صافية لا ترجم.

سلمت على صاحبي وتركته. سرت باتجاه بوابة المدينة. مرّ رجل بجواري يقود حمارين محمفين بحشائش خضراء بينما امتصي ثالث. رفع يده محييًا وقال: "السلام عليكم". ردته سلامه بالكلمات ذاتها. امرأة بدوية شابة قادمة في مواجهتي، رداً عنيها فضفاض طويل يمسد الأرض من خلفها ونصف وجهها الأسفل مغطى بنقابًا، عيناها متلألأتان شديدتان السواء حتى إن شمس صمعت عينيها وحذقتها اندمجتا في لون واحد، مترددة لخطوة، بادية التوتر كحيوان البراري في عفوان حبيته.

دخلت المدينة وعبرت ميدان المناخة الواسع الكبير إلى شوارع المدينة، تحت القوس الضخم لباب مصر، جلس صرافوا العملات يمنون بقطع العملات القاسية والذهبية، دخلت السوق الذي لا يزيد عرضه عن اثني عشر قدمًا، إلا أنه يزدحم بمحلات توج بالحيوية وتبتسم بالحياة.

الباعة يتناولون ملعتن عن بضائعهم بتفاني جميلة الوقف، أغذية رؤوس، شيلان من الحرير وأوردة من صوف كمشير تجذب عيون المارة، علاقات مدخلة عليها أشغال فضية تتزين بها نساء البدو - أسوار، خلخيل، عقود، حلقات آن.
بائحوا العطور يضعون صناديق مليئة بمسموحات الحنطة، وأكياس صغيرة حمراء
لتلوين الجفون، قناني مختلفة ألوانها من زيوت وعطور، أكواب من توابل، تجار من
نجد يبيعون ملابس بديعة وسروج جمال، سروج ملونة بالأحمر والأزرق من شرق
الجزيرة. بائع حائل يدور نحباً وجثية، ينادي بأعلى صوته معلناً عن أسماحة إيرانية
وعباءات من وبر الجمل يحملها على كتفه، بيده وراءه شاي نحاسي. فيضان من بشر
في الاتجاهين، أثاباص من المدينة ومن أنحاء الجزيرة العربية ومن جميع البلاد- كان
موسم الحج قد انتهى من زمن قصير - أثاباص من صحارى السنغال ومن ترجي، من
جزر الهند الشرقية والمحيط الأطلسي، من استراحان ومن زمن، بالرغم من كثرة
الناس وضيق الطريق، لا يوجد تسرع أهواء، لا تدفع ولا تزاحم، في المدينة لا
يركب الزمن أجنحة الفحل.

ب رغم التباثين في أجناس البشر وألوانهم وأزيائهم، إلا أنه لا يثير العجب في
شوارع المدينة، لا يظهر التباثين إلا للعين التي تحاول تحليل ما تراه، كل من يسكن
المدينة، دائمًا كان أم مؤقتًا، يتكيف بسرعة في مجتمع المزاج الواحد والسلوك الواحد،
بل يتعدى ذلك إلى وحدة التعبير على الوجه، كلهم واقعون في حب الرسول، المدينة
مدينتها وهم ضيوف عليها.

حضوره الروحي بعد ثلاثة عشر قرنًا مازال حيًا كما كان هو حيًا به. له وحده
يعود فضل تحويل قرى متناهية كانت تسمى بثرب إلى مدينة يحبها كل المسلمون حتى
اليوم كما لم يحب أحدًا مدينة مثلها في جميع أنحاء العالم.

ليس لها اسم خاص بها، على مدى يزيد عن ألف وثلاثمائة عام يطلق عليها
المسلمون مدينة النبي. وعلى مدى يزيد عن ألف وثلاثمائة عام يتجمع الحب هنا حتى
أن كل ألوان البشر وكل تعبيرات وجههم وحركتهم تكتسب نوعًا من التماثل الأسري
الواحد، كل اختلاف في الشكل والظهر يدخل في تحول فرعي حتى يصبح تجانس
واحد.
هذه هي السعادة التي يشعر بها المرء دومًا هنا - هذا التوحيد المتعدد. وبالرغم من أن حياة المدينة اليوم بعيدة عما كان يهدف إليه الرسول، وبالرغم من ضعف العيون الزوجي في أيامنا عن أيام الرسول، هنا وفي جميع أرجاء العالم الإسلامي، فإن رباطًا معنويًا لا يمكن وصفه يتصل بذلك الماضي الزوجي العظيم مازال حيًا حتى الآن. لم تتن مدينة من الحب من أجل إنسان عاش بها، ولم يحدث أن مات إنسان من ألف وتلائمًا عام، ولم تكل مثل هذا الحب لذاته شخصه، مثلما نال الرسول الذي يرد تحت القبة الخضراء الكبرى. لم يدع أبداً أنه أي شيء آخر عدا كونه من البشر الفياني، ولم ينسبه له المسلمون أبداً أي قداسة غير بشريّة أو ألوية، فما فعل أتباع أنبياء أخرون من قبله بعد موت أولئك الأنيباء، وأذك القرآن ذلك وشدد عليه. وأكد بشريّة محمد: «ما مُحَمَّدُ إلا رُسُولٌ فَرَّقَتْ مِنْ فِي هِيِّ الرُّسُلَ أَفَإِنَّ مَاتٌ أَوْ قُلُّ انقَلَبْتُ عَلَيْهِمْ أَعْقاَبًا».

قد أكد القرآن في أكثر من موضوع على بشريّة محمد وأنه من خلق الله مثل كل البشر: «قل لا إله إلا الله وليست نفعاً ولا ضرًا إلا ما شاء الله». أكد القرآن، وأكد الرسول أنه بشير مثلهم، وعاش كأي رجل، ينعم بالمرح، ويعلق المرض الذي يعاني منه البشر، لذلك أحظى من كنوا حوله ومن عاشوا معه بحبهم.

وتجاوز ذلك الحب حياته وامتد في قلوب أتباعه من المسلمين. لقد عاش في المدينة، وينطق بحب كل حجر من أرجاجها العتيقة. تستطيع أن تلمس ذلك الحب بيده، إلا أنك لا تستطيع أن تغبر عنه بأي كلمات، مهما كانت بلاغتها.

[6]

قلت له: «كنت بحائط والنفوذ».

سألتي: «هل تبقى هذه المرة لبعض الوقت؟».

أجبته: «كلا يا أخي، سأسافر إلى مكة وإن شاء الله بعد غد».

300
نادي الزغبي على صبي المقهى المقابل، في الحال كانت أقدام القهوة تصدر
رذينة المألوف وهو يضعها أمامنا.
سانتي الزغبي: «ولكن لماذا تذهب يا محمد إلى مكة الآن؟ لقد انتهى موسم
الحج ...»
قلت: «ليست رغبة في الحج، لقد حُجِّحت خمس مرات، لدى شعور أني لن أبقى
طويلًا في الجزيرة العربية، وأرغب في رؤية أنحاء المدينة التي بدأت حياتي بها في هذه
البلد...، ثم أضفت ضاحكًا: «حسناً يا أخي .. سأخبرك بالحقيقة، أنا لا أدرى
ب فكرة لماذا تسيطر على فكرة الذهاب إلى مكة، وأشعر أنه لم أجد لدي أن أذهب ...».
هذ الزغبي رأسه علامًا عدم الرضا: «تترك هذه البلاد وتغادر أخوك؟ كيف
وانتك القدرة على هذا القرار؟»
مرت هيئة شخص مألوف لي وهو يمضى مسرعًا في خطوات حثيثة: كان زيد،
وكان من الواضح أنه يبحث عن شخص ما. تأتيه: «إلى أين يا زيد؟».
التقت وعاد بوجه جاذب قائلًا: «أنت مَن أبحث عنه يا عمتي، وجدت كون من
الرسائل الرسالة إليك في مكتب البريد وكانوا على وشك إرجاعها إلى مرسلها. ها هي
قد أخبرتها إليك، السلام عليك يا شيخ الزغبي».
جلس متبرعاً أمام متجر الزغبي، تصفحت ملفات الرسائل: رسائل عديدة من
أصدقائي في مكة، رسالة من رئيس تحرير جريدة «نيو زيورخ ديتونج» السويسرية،
التي أعطت لما لها، وخطاب من الهند، يطلبون مني الحضور للتعرّف على أكبر
مجتمع إسلامي في العالم، ووضع رسائل من دول مختلفة بالشرق الأوسط، ورسالة
عليها خاتم بريد طهران .. كانت من صديق على آغا الإيرانى، وكان لم
يراسلني من عام، فحتى رسالتهم وتطعت إلى صفحاتها المليئة بالسطوره
بطريقة «الشيكاستا» (*)، كتب على آغا:
(«) المعنى الحرفي للفكرية، وهي الشكل الناري للخط العربي، وتستعمل في الكتابة السريعة.
إلى أحب أصدقائي، أخى، وضيوف عماني، المحترم جداً أسد أغاد، أبطال الله، عمره وحمي خطاه، أمين.

عليكم سلام الله ورحمة الله وبركاته دائماً وأبداً، نحن نصل إلى الله أن ينفيع عليكم بموفور الصحة والسعادة، ونعلم أنه يسعدكم أن تعرفوا أنت أيضاً في كامل الصحة والحمد لله.

لم نكتب إليكم منذ فترة طويلة بسبب عوامات الحياة التي صادقتنا في الأشهر الماضية، توقيع الله والدي، رحمة الله عليه - من عام مضى، وأنا أكبر الأبناء، وانشغلت ببعض الوقت بشؤون الأسرة بعد وفاة والد. وقضت مشيئة الله لعباده الذي لا يستحق فضله أن ينعم عليه بنعم لم يكن يتوقعها، فانتقلت على الحكومة بفضل الله برتبة مقدم، كما تأمل أن يجمنى الزواج بفتاة جميلة وفاضلة، هي ابنة عمى الثانية شيرين - وذالك تصل أيام عدم الاستقرار إلى نهايتها.

كما هو معلوم لقلكم الصديق. لم نخل من ارتكاب معاصي وذنوب وأخطاء في ماضينا - ولكن ألم يقل الشاعر حافظ:

يا الله، يا من أوجدت الواح الخشب في قلب لجة البحر

ألم يكن بمشيئة أن تجعل البحر يابس.

هكذا سيستقر علي أغا في نهاية الأمر ويصير زوجاً محترماً. ولم يكن محترماً حين التقيه أول مرة، كان ذلك من أكثر من سبعة أعوام مضت في مدينة "بام" التي كان قد أقصى إليها.

على الرغم من أنه كان في السادسة والعشرين من عمره في ذلك الوقت، إلا أن مضيه كان حافلاً بالإثارة والنشاط، وشارك في الأحداث السياسية التي سبقت وصول رضا خان إلى السلطة، كان بإمكانه أن يقوم بدور مهم في طهران لو لم ينفصل في حياة الله والبعث، وكان موجوده في ذلك الوقت بمدينة "بام" الثانية في جنوب

302
إيران تواصل زعيم من أبهة واسع النفوذ، على أمل أن ينصلح حال ابنه إذا ابتدأ عن متع طهران وممسراتها يملأتها، إلا أن على أغا وجد في بام ما يعرضه عما اقتده في
طهران، وجد النساء، والنساء، وخدت الأثيوبي الذي كان يتعاطى بكترة.

في ذلك الوقت، عام 1965، كان على أغا قائد الحامية المحلية في مدينة بام ال
برتبة ملازم. كنت حينها أستعد لعبور صحراء داشيلوت، وتوجهت إليه بخطاب
توصية من حاكم ولاية كيرمان - وكان بدوره قد تلقى خطاب توصية من رضا خان،
رئيس الوزراء الديكتاتور.

كان في ذلك الوقت في بستان من أشجار البرتقالي، والدفلة، والنخيل وتسقط من
بين أغصانها عالية بقع من أشعة الشمس. كان يرتدي قميصًا خفيفًا، وجلس على
بسط مفروش على الحشائش، وعلى البساط بقايا طعام، ونصف قنينة من العراق،
اعتذر على أغلال من العراق قائلاً: «من الصعب أن تجد نبئًا في هذه الحفرة المعرونة»،
وجبرينى على مشاركته ذلك العرق المحلي - وهو مرعب يذهب إلى الرأس فورًا
مثل لطمة قوية - بعين لاحقة نافذة بصره بسرعة على صفحة الخطاب الموافق إليه من
كيرمان، ثم وضعه جانبي وقال: «حتى لو لم تأت بتوصية، كنت سأصحبك بنفس
لعبور تلك الصحراء. أنت ضيفي، لن تتحرك تسرف وحيد عبر صحراء البالوشي».
كانت صحراء داشيلوت في منطقة البالوش.

نهض شيخ كان حتى تلك اللحظة جالسًا في بقعه مخفية في ظل شجرة، كانت
امرأة شابة ترتدي رداءً حربيًا أزرق فاتح اللون يصل إلى ركبتيها. ومن تحته سروال
أبيض بلوشي واسع. كانت ذات وجه مليئ شهواني يبدو كان نيرمانًا تتدلّع داخل
ملابسها، وشفت مثلاثين حمراوان، وعينان جميلتان غامضتان النظرة بشكل
محير؛ وقفونها مخصصة بالحناء.

همس على أغا بالفرنسية: «إنه كفيفة الصر، ومغنية رائعة».

303
أعجبني عطاءه الشديد وحنونه البالغ والاحترام الفائق الذي يتعامل به الفتاة، بالرغم من أنها مفهمة تنتقد إلى تصنيف يضعها في مصاف الغانيات؟ إلا أنه كان يعاملها بذات المعاملة التي كان يعمل بها سيدات مجتمع طهران الراقي.
جلسنا ثلاثتنا على البساط، وبينما نشغله رفعها رفعها وضحكه المحشو بالأفيون. تحدثت إلى الفتاة البلوشية، على الرغم من فقتها البصر. إلا أنها كانت تضحكت من أعماقها ضحك من تسكن قلب السعادة، كانت لها تعليقات جسورة ومضحكة ومخلجة من تلك التي لا تخجل منها المرات.
حين انتهى على أغا من تدخين غليوته، تناول بيدا برقة وقال:
» هذا الغريب النمساوي الذي معنا الآن، يجب بالتاكيد أن يستمع إلى واحدة من أغانيك؛ لم يسمع في حياته أغنية بلوشية.
»  بدأ على الوجه الذي يطلع إلى لا مكان سعادة حالة تناولت نعومة لحمه يغمسه على أغا إليها ورحت تجرج кварة وتضبت نغماتها. غنت بصوت عميق أبعذ أغنية رعاية بلوشية، بدأ الأغناء كأنها صدى للحياة ذاتها من شفتيها الدافئة...
» اعتدت من أفكارتي إلى متابعة قراءة فقرات رسالة على أغا.
» أتسأل إن كنت مازلت تتذكر تلك الأيام يا أخى وصديقى المحترم، وكيف سافرتا معًا عبر صحراء داشيلوت، وكيف كان علينا أن نقاتل دفاعًا عن أنفسنا ضد العصابات البلوشية؟
هل أتذكر؟ ضحكته في سريرتي من تساؤل على أغا الساذج، رأيت في أعمق ذاكرتي صحراء داشيلوت الخالية، أو الصحراء المقفرة التي تنشر خواها اللانهائي من بلورستان حتى قلب إيران، كنت أتذوق عبر تلك الصحراء الوصول إلى سيبيرستان، أقصى حدود شرق إيران، ومنها أواصل رحلتي إلى أفغانستان.
وحيث كنت قادماً من "آخريمان"، لم يكن يوجد مسار آخر.
توقفت أنا وعلى والحراس البلوشين، عند واحة خضراء على حافة الصحراء للنكرى جمالًا ونشبتري مُؤن لطريق طويل أمامنا. كنا ننزل في محطة البرق الهند أوروبية.

كان مدير المحطة رجلًا طويلاً حاد النظرات، لم يرفع بصرة على وقائي صدي ثمين.

همس إلى على أغا: «خذ حذرًا من هذا الرجل، إنه من رجال العصابات أنا أعرفه جيدًا وهو يعلم ذلك. كان لصًا كبيرًا حتى بضعة أعوام مضت، أما الآن فإنه يملك مالًا كبيرًا وأصبح محترمًا في ظاهره - مازال يكسب أموالًا كثيرة من بيع الأسلحة لزملائه القدامى من رجال العصابات، وأنتظر اللحظة الملائمة لأقبض عليه متلكًا. إلا أنه ذكي ومن الصعب إثبات أي شيء ضدّه. منذ أن عرف أن نساوئ سال لعابه، فأتت الحرب العالمية كان النمساويون والألمان يحاولون إثارة القبائل ضد الإنجليز؛ وكان معهم حقائق مليئة بالعمليات الذهبية، وصاحبنا هذا يعتقد أنّه تحمل واحدة من تلك الحقائق.

وأفادنا ذكاء مدير المحطة إفادة جمة، تمكّن من العثور لنا على جملين من أفضل جمال الركوب. وقضينا ما تبقى من اليوم في شراء قرب الماء، وجبال من شعر الجمال، وأرز، وصم واغراض أخرى لزمة لرحلة عبر الصحراء.

في عصر اليوم التالي تحركنا، سبقتنا على أгал بصحابة أربعة من الأعركة لتصève مكان نحت فيه رحالنا أثناء الليل، وسرعان ما تلاشت جمالهم واختفت في الأفق البعيد. أما أنا وإبراهيم والحارس الخامس فقد تبعناهم على مهل.

تخرجنا على الجمال (كانت أول مرة أركب فيها جمالًا) الرشيقة الأطراف، سنا في البداية عبر كتبان ملية صفراء لا تنمو فيهما إلا أعشاب قليلة، ثم دخلنا إلى صحراء مكشوفة، وادت صائدة أجرد لا تبدو له نهاية، مسطح تمامًا وخلال من أي نتوء أو بروز، بدأ وقائي هو الذي ينطلق على الأفق، لا حجر، لا صخرة، لا بنتة عشب. لا صوت لحيوان، ولا صوت لطير أو حتى خنفساء يكسر ذلك الموت الفاحل.

305
حتى الربع ضاع زخماً، كانت تسعى واطئة دون صوت، كما يهبط حجر من حافة هاوية... لم يكن ذلك ما يطلق عليه صمت الموت، بل كان مالم يولد بعد ذلك الذي لم يدب فيه حياة، الصمت الذي سبق في الوجود الكلمة الأولى.

ثم انبث صوت وحطم الصمت. تصاعد صوت بشرى مفاجئ، مرح، مبتهد، ساعد في الهواء الساكن وظل معلقاً في الفراغ حيث صعد: يبدو كأنك لا تسمعه فقط، بل تراه، صوت وحيد، لا يشبه ولا ينتداخل معه أي صوت في ذلك السكون البدائي الأول، ثم تدفق عبر سهوب الصحراء. كان صوت الحارس البلوشي، كان يغني أغنية من أغاني ارتحالاتهم القبلية القديمة، جزء من ملحمة شبه مغناة، تتبع سريع لكلمات ساخنة وناعمة لم أفهم منها كلمة. جرى صوته على نفمات مبتئية في مستوى صوتي واحد، باستمرارية متتالية ظلت تدفق حتى وصلت إلى قمة عالية، كما لو كانت تحتضن في ثابتها لحظاً مضيناً في ترديد صوتية ثانوية متواصلة من أعمق الحلق، كشف تكرار وتغيير المنغمة المتناولة عن ثورة صوتية غير متوقعة من ذلك الحارس بنغماته الصوتية الطويلة - ممتدة وغير محدودة مثل الأرض التي ولد عليها...

كان ذلك الموضوع من الصحراء الذي كنا نمضي فيه في ذلك الوقت يطلق عليه "صحراء أجراس أحمد"، فقد سنين طويلة ضللت قافلة كان يقودها رجل اسمه أحمد طريقها في ذلك الموضوع، ومات كل من كانوا بالقافلة، الحيوانات والبشر، وحتى اليوم، يقال: إن أصوات الأجراس التي كانت معلقة برقب حيوانات القافلة تدوي أحياناً في تلك المنطقة، وتسمع أصوات القوافل المارة بالمكان - أصوات شبحية، حزينة تغوي الفاقدين فيضلا الطريق ويلقوا حطامهم في الصحراء القاحلة.

بعد غروب الشمس مباشرة وصلنا إلى الموضع الذي اختاره على أغا والحارس لإقامة خيمتنا وسط منطقة تنمو فيها أعشاب الكاهور - وهي آخر أعشاب نراها على مدى الأيام التي سنقطع فيها الصحراء. أشعلنا ناراً من أعشاب جافة، وصنعوا
الشاي الذي لا مفر منه - بينما كان على يدخن أفيونه في غليونه. أطعمنا الجمال
شعر به مجرينًا وأخذناها في دائرة من حولنا. وعندما أğa ثلاثة من الحراس على
قمم التلال من حولنا للحراسة. كانت المنطقة التي كنا نخيم بها مسرحًا لعمليات
شياطين الصحراء الجسورين، وهم عصابات الإغارة من البلوش الجنوبيين.
كان على أغا قد انتهى بالكاد من تدخين غليونه واحتبس شايًا، وبدأ يشرب العرق
بمفرده - فلم أشعر برغبة في مشاركته الشراب - حين دوت فجأة طلقة رصاص
حطم جدار صمت الليل. دوت طلقة ثانية إلا أنها كانت من إحدى نقاط حراستنا رداً
على الأولى أعقبتها صرخة أثية من الضلام. ألقى إبراهيم - الذي كان حاضر
البيضة - الرمال على النار بسرعة ليطفئها. ثم توالى إطلاق الرصاص من كل
الاتجاهات.
كان حراسنا غير ظاهرين. إلا أن أصوات ندائهم لبعضهم كان مسموعًا. لم
تعرف عند المهاجرين، فقد كانوا صامتين، ولم يظهر من جهتهم إلا رميض الطلقات.
من أن أخيرًا مرة أو مرتين ميزت على الولد شبح يرى أبيض سرعان ما كان يختفي.
أزى طلقات واطئة فوق روسنا، إلا أنها لم تسقب أي منا. بالتدريج قل إطلاق النار
وتبعض طلقات أخرى اتبعت الضلام صوتها. واختفى المهاجرون - الذين لم يتوقعوا
بقطننا - بنفس السرعة التي أتوا بها.
نادي على الحرام المحيطين بنا في نقاط الحراسة وعقدنا اجتماعًا قصيرًا.
وقرننا مغادرة المكان فورًا لاحتمال عودة المهاجرين بثداء كبير.
كانت الليلة مظلمة بلون القار، فقد كانت السحب كثيفة وراطنة وتحجب نور القمر
والنجوم. وكقاعدة، فإن من الأفضل السفر ليلةً في الصحراء في موسم الصيف!
ولكن في ظروف عادية لم تكون لنتجاة بالسير في تلك العتامة خشية أن نضل الطريق.
في الماضي، اعتاد ملك إيران السابقون على وضع أعمدة إرشادية ترشد القوافل.
ولكن مثل أشياء كثيرة، اختفت تلك الأعمدة، وعلى أي حال لم تعد لها الأهمية نفسها.
فأعدم ألسلاك البرق التي مدها البريطانيون في بداية القرن من الهند عبر صحراو دايشؤوكت حتى كامبرمان، كانت تؤدي الغرض نفسه، بل كانت أفضل كوسيلة إرشاد.
ولكن في ليلة مثل تلك الليلة، لم تكن أعدم ألسلاك البرق ظاهرة في ذلك الظلام الدامس.
اكتشفنا أنها فقدنا أثر أعدم ألسلاك البرق فاصابنا الفزع، فبعد نصف ساعة،
قال الحارس الذي كان يسير بناقته إلى على أنا:
«حضرت، لم أعد أرى الأسلالك...»

صمتنا من الفزع لحظات.. فأبى الاماء موجودة فقط على مسار أعدم الأسلالك، وعلى مسافات كبيرة من بعضها، فإن ضلئنا الطريق فمن المحت أننا سنموت عطشًا مثل قائدة أحمد الأسطوري.
تحدث على أغا بطريقة مغايرة تمامًا لما أعرفه عنه، وهم المؤكد أن الأفيون والعرق.
كانا وراء ذلك.. فقد أخرج مسدسه من جرابه ونظر في الحارس:
«أين الأسلالك، لماذا لم تنتبه يا ابن الكب؟ أه.. أنا أعرف.. أنت متفاقي مع العصابات وتضللنا حتى نتوه وتموت عطشًا، ونذاك نكون ضحية سهلة».
كان ذلك التوتيد والتانتيب غير عادل بكل تأكيد، فالبلاشفي لا يمكن أن يخون من أكل معه خبرًا وملحًا. كان من الواضح أن الحارس يؤلم لذين الاهام لزميله، وانكسروا لنا براغتهم، إلا أن علي أنا اتفجر من جديد:
«اخسرسوا.. عليكم بالعثور على الأسلالك فورًا، وإلا ساقتلكم واحدًا بعد آخر».
«أحرق الله أبائكم».

لم أتبين وجههم في الظلام ولكنني كنت أعرف كيف يشعر البلوش عند الإحالة؟
لم يهتموا حتى بالإجابة ولا بالرد. ثم فجأة قسلم أحدهم نفسه عن تجمعا - وكان هو الحارس الذي فقد أثر ألسلاك البرق - وضرب جمله بسвоته، واختفى في الظلام.

308
صاح على أغٌر.: "إلى أيٌن تذهب؟" ولم يقلق إلا كلمات غير واضحة. لثوان، على
وقت أقدم جمده مسموعة على حمص الأرض، ثم غاص الصوت في ظلام الليل ولم
يعد له وجود.

بالرغم من اقتطاعي التهام من دقيقة ضمت ببراءة البليني مئاً محسوب على أغٌر
إليه، إلا أن الشكوك راحة ذيل ذنب الآن إلى رجال العصابات. كان على أغٌر على
حق بعد فترة سمعته أغٌر يسحبو ذراع آمن أسدسها وعلت منه. أما إبراهيم
فقد كان مازاليلخول قريبته المعلقة. جلسنا بلا حركة على ظهر الجمال. زمجر أحد
الجمال بنعمة. لم استطع مقبوض بندقيّة الحارس بسرجه. مر دقيقًا طويلة، كنت
سمع فيها صوت تنفس الرجال. ثم فجأة جاءت صيحة من مسافة بعيدة، بالنسبة
لى لم تد بـ "أووووووو"، إلا أن البلوشين كانوا يفهمون مغزٌة تلك الصيحة، إذ
كر أحدهم كفاح مهبه، وصاح بحماس في اتجاه الصوت بكلمات باللغة الابراهيمية.
من جديد جاء ذلك الصوت البعيد. استدار أحد الحارس إلى على أغٌر وقال بالفارسية:
"الأسلاك يا حضرت، لقد وجد الأسلاك؟ انداح التوتر. تبتنا مصدر الصوت وتُحن
نشعر بارتاح، وراح يجهتنا بصوته من أن لآخر وحيين وصلنا إليه، شبُّ على سرجه
وأشار في الظلّ: "هذا هو سلك البرق".

وبالفعل، بعد عدة لحظات كننا نصدمون بالمسالى الأسلاك البرق. ما فعله أغٌر في
تلك اللحظة كان من السلوكيات المميزة له. فقد أمسك بالحارس من حزامه، وجذبه
باتجاهه ومال على سرجه، وقبله على ونجنتي وهو يقول: "إنه أنا لا أنت. أنا ابن
الكلب، سامحني يا أخى.

عرفت بعد ذلك أن الحارس ابن البراري سار في منحنى مترعجة حتى سمع من
مسافة نصف ميل صوت طنين الريح. وهي تصنع بالمسالى. فشعرنا، وهو طنين لم
أتمنى من سماعه وأنا تحت السلك مباشرة. كان من الأصوات التي لا تسمعها أدنى
الأوربيتين. تقدمنا ببطء وحذر. في الليلة الظلماء، من عامود برق لم نراه إلى عامود

309
برق آخر يطويه الظلام، أحد الحراس يسبقنا وينادينا علينا في كل مرة يصل فيها إلى عامود تال. لقد وجدنا طريقنا وصمنا على ألا نتفقد مرة أخرى.

* * *

أفقت من ذكرياتي وذهلت إلى رسالة على أغا أكمل قراءتها:
» بترقتي إلى رتبة مقدم، أصبح شخصي المتواضع في هيئة الجنرالات; وذلك يلامعني يا صديقي الحبيب وأخي، أكثر من حياة الحاميات في مدينة إقليمية.«
وأنا متأكد أنها كذبت يا علي، كان على أغا شغوفًا بحياة العاصمة، ومكافحتها خاصة - مكاسبها ودسانيها السياسية، ويفعل راح يصف لي في رسالته الأعمال السياسية في طهران، والمناسفات والمعاناة التي لا تنتهي تحت السطح الظاهر، ومناورات معقدة تقوم بها قوى أجنبية تهدف منها إلى بقاء إيران في حالة من عدم الاستقرار. يجعل من المستحيل على تلك الأمة الموهوبة أن تقف على أقدامها من جديد:
» تتعرض الآن لضغوط شركة نفط بريطانية من أجل تمديد امتياز النفط، وذاك تطبيق من أمر عبوديتنا. السوق يموج بالإشاعات، والله وحده يعلم إلم يؤدي كل ذلك.«

كان البازار - السوق - يلعب دائمًا دورًا كبيرًا في الحياة السياسية للدول الشرقية، ويصدق ذلك على وجه الخصوص على بازار طهران. فالبازار هوقلب إيران الخفيف الذي ينبض بإصرار رافض كل الفساد والانحدار الذي يتعرض له البلاد من بين سطور على أغا بدأ لي ذلك البازار وكأنه مدينة بذاته، بدأ لي وكأنه قائم أمام عيني ينبض بالحياة و كان كأه في الأمس:
البازار في طهران شبكة ضخمة من القاعات والمسالبات والمرات مغمورة ومصممة باقوا مدببة على الطريق الرئيسي، وبعد بضعة متاجر صغيرة مبعثرة مليئة بسلع

310
ريشة، توجد باحات مسقحة مليئة بألوان أنواع الحصير الأوروبي والآسيوي؛ ثم محلات حيكة الملابس، ثم واجهات العرض الزجاجية الملائمة بالحفرية للفسيحة من الصناع، ثم تناوب محلات الأقمشة اللونية من بخارى والهند مع محلات البسط الفارسية - بسط عليها رسومات حملات الصيد وأشكال الفرسان على صهوات جيادهم، وأسود وفهود، وبيغواط، وطباره وروحول برية؛ مسقحة من الزجاج والياز وزجاجات وأدوات حيكة؛ جانب معتم للمظلات بيضاء جانب آخر لباس من جلد الأغنام المذهبة والزخرفة من خرسان: كلها معرضة في تلك القاعات الهائلة الطول والتي تعتدي على عرض كميات هائلة أكثر من اعتدائها على حسن التنسيق والعرض.

في الحوارا المشبعنة اللاهليانية والملائمة بالبضائع والسلع المتباينة من مصنوعات يدوية وسلع تجارية، تجد أن محلات مرتيناي جزءًا من نوع التجارة والحرف.

في مكان، تجد صفًا طويلًا من السرويجية وصانعي الأشغال الجميلة، واللون الأحمر هو اللون الغالب في دباغة الجلود التي تقوم راحتها النفاذة في مكان بلجمه، يليهم الحائدون: ومن كل كوة - أغلى المخلص عبارة عن كرى مرتفعة لا تزيد مساحة كل منها عن ثلاث أو أربع أكراد ويسودها ضيجه آلات الحيكة وهي تعمل، خارجها أربعة طويلة معلقة ومعرضة للبيع، كل محلات تعرض الأرزية ذاتها، حتى تعتقد أن لا تقطع أي مسافة وتغادر أنك تراوح مكانك لتكرر أشكال الأرزية المعلقة، وينتدب الانتباه نفسه في أماكن متباينة من البازار، إلا أن غازارة التماثيل في كل موطن لا يتبناه تجارة لبازار: فتكسير الغريب وسطه بإعجاب قلق، حتى لو زرت البازار للمرة المائة، تجد دائمًا أن الحال ثابت كما هو لا يتبدد ولا يتغير - إلا أن ذلك الأشياء التي يمتلك أحوال المحيط التي تغير أشكالها ولكن مادتها التي تكون منها ثابتة لا تتغير.

بازار أشغال النحاس: معروفة من أصوات أجراس برونزية يأتى من أصوات طرق النحاس؛ أشكال متباينة من مشغولات البرونز والنجاس، يحاولون الألواح الإليزبية التي لا شكل لها ولا جمال فيها إلى آنية وأحواض وصواني وكتوس، أصوات الطرق...
يقين صوتي متغير النغمات عبر كل بازار الم单元 - كل صانع يستجيب لإيقاع الصناع من حوله - حتى إنه لا يبدو أن هناك نغمًا نشارًا على الأذن: مناطق العاملين بطرق مصنوعات متماثلة في مختلف المباني - إلا أن اللحن واحد.. في عمق بريق من كونه موسيقي، تبدو الرغبة الاجتماعية في التجانس والتي تظهر القيم الخافية للروح الإيرانية.

بازار العطور: ردهات وممرات صالحة من أعمدة السكر، وأجولة الأرز، وأكواب من اللوز والفستق، وعين الجمل، وجوهرة الطيب، براميل مليئة بشمار المشمس المجفف، والزنجبيل، صوانا نحاسية مليئة بالقرفة، والكربي، والفلفل الأسود، والزعفران، وذنور الخشخاش، آنية مليئة بالكحالي والفانتازيا، والكمون، والقرنفل، وأعشاب غريبة لا حصر لها، وذنور نباتية تعمق المكان بروائح قوية. ومن فوق حافة الورزنج، النحاسية اللامعة، يتربع صاحب المتجز، مثل بودا، بساقية المرتبتين، ينادي بين الفينة والفينة على المارة عارضا بضاعة.

كل الأحاديث تدور في همس في هذا المكان: لا يمكن لمرء أن يصعد صوتًا في مكان يتدفق فيه السكر برقة من جوال إلى ميزان، كما لا يمكن لمرء أن يكون صاحبًا في مكان يوزن فيه الزعتر والبتسون... إنه سلوكي يتوقف مع رقة المادة، وهو السلوكي ذاته الذي يُمكن الإيرانيين من نسج الأساطير الغنية التي يرويها من آلة لا نهائية لخيوط الصوف - خفيفًا بخيط، جزء من بوصة بجوار جزء من بوصة - حتى يتم اللوحة وتكتمل في جمال زاه، وذلك ليس مصادفة أن تكون الأسطورة الإيرانية فريدة وثمينة في جميع أرجاء العالم: لأن يمكن للمرء أن يعد ذلك الاستغراق الصامت والتفكير المبدع والتكريس الكامل لحوار المرء موجود فيما يفعله في أي مكان آخر تجد مثل تلك المعين الدائمة التي لا يعني لها مرور الوقت شيئًا أمام صبرها ومثابرتها على ما تفعل.

في كوى أخرى كهفية، أكبر قليلًا من الكوى السابقة يجلس ناسخوا الأشكال المتمننة الدقيقة، يقلدون منمنمات قديمة في مخطوطات يدوية مرفقة في القدم.
وتحولت إلى مرق بفعل الزمن، يقلدون في رسومات بديعة وخطوط وألوان تأسر الألباب الجوانب الجميلة من الحياة: جماعات صيد، حب وسعادة وأيام، يعملون بفرش دقيقة ورقية; الألوان لا تخلط في أوعية ميتة، بل تخلط في كف الرسام الحية، وتوزع في نقاط على أصابع الكف اليسرى.

على صفحات جديدة يمارس الرسامون إعادة الخلق والحياة، نقطة بعد أخرى، وخط بعد آخر، وظل بعد ظل، تجري الألوان جنبًا إلى جنب على خلفية ذهبية. فتبرز المنسوجات جديدة ومتألقة، أشجار البراقيل الباهتة في الحديقة الملكية في الرسوم القديمة تتسعش من جديد، وتنبع وتزدهر في النسج الجديدة، في ربيع جديد; وانسحبت النแชมปات الرقاقات في أردة الحرير والفراء يظهرن من جديد إيماءات الغرام وإشارات الحب وأماراته على النسخ الجديدة، وشرق الشمس من جديد على لعبة البولو التي يمارسها الفرسان بألوان زاهية جديدة... خطًا بعد خط، بقعة لونية بعد أخرى - وظل بعد ظل، يتبع الناسخون الصامتون خطى المغامرات الإبداعية الخلاقة لفنانين ماتوا من زمن بعيد، كانوا يمثلون حبيًا لما يفعلون ونجمهم سحره.

يجعلك الحب والثقافة البادية عليهم تنسي عدم كمال النسخ المقدمة...

يمر الوقت، والناسخون منحنون منكبون على أعمالهم، لا يعبأون بالزمن. يمر الوقت، وفي تفاصيل الباسات القرنية تختزل السلسلة اللفظية الحديثة بصبر ودوب محلات البازار، مصباح كريسيو من شيكاغو، ملابس قطنية مطبعة من مانشستر، غلاية شاي من تشيكوسلوفاكيا، كلها تقدم منتصرة، إلا أن الناسخين يجلسون متيري الساقين على وسائد قماش مهترئة، ينقبون بأعين رقيقة وأنامل دقيقة في إبداعات قديمة، ويضفون على رحلات الصيد الملكي ومحبياتهم بعضًا جديدًا يومًا بعد آخر...

الناس في البازار لا حصر لهم: رجال يرتدين الملابس الأوروبية، وأخرون يرتدون العبادة العربية الطولية فوق الملابس الأوروبية، ورجال محافظون يرتدون القفطان وعمائر حريسة، مزارعون وفنانون في سيرات رزق...
درواصل - وهم متزعمون إيران الأرستقراطية يتوصلون جلبيبيد بيضاء واسعة، وأحياناً يضعون على ظهورهم جلود فهود، أقوية البدين وشعورهم طويلة، نساء الطبقة المتوسطة يرتدون حسب إمكاناتهم ملابس حمرية أو قطنية، غير أن اللون في كل الأحوال أسود، مع التقاب الطهارى التقليدي القصير المريح بعيدًا عن الوجه؛ أما الفقراء فيرتدون أزياء من القطن ذات ألوان صارمة. أما الملابس الكبار (رجال الدين) فيركبون جروح فارهة أو بقال ويستثيرون بنظاراتهم العدائية الصامتة.

كأنها تتساءل: ما الذي تفعله هنا؟ هل أنت من الذين يعملون على دمار بلادنا؟

أدت المؤامرات والسياقات الغربية بشعب إيران إلى أن يتشكل في كل ما هو غريب. ولا يوجد إيرانى واحد يتوقع أن يأتى أي خير لبلاده من أولئك الفرندية، إلا أن على أطا لام يكن مشائماً بسبيبة: "أكبرت قراءة الرسالة":

"إيران بلد عتيقة - إنها ليست على استعداد للموت. كنا على اليوام مقهورين. اجتاحت بلادنا أم أخرى عديدة، كلاما موضوا إلى حال سبيلهم، وظلت إيران حية في فقر وقه، في جهل وظلم: إذا أتنا مازلتنا أحياء. ومع ذلك إلى أن نمضى في سبيلنا الخاص بنا. حاول العالم الخارجي أن يرغمنا مرارًا على انتهاج وسائل أخرى للحياة - إنهم دائمًا كانوا ينشئون. نحن لا نجاجي القوى الخارجية بالعنف؛ ولذلك نبدو الآخرين كنا استسلمنا، إنما من قبيلة المورمون - وهي تلك النحلة الدقيقة الصغيرة التي تحيا أسفل الجدران. ربما تكون قد رأيت يا نور قلب كيف تتهاوى المنازل ذات الجدران القرية فجأة بلا سبب واضح مرير انهيارها المفاجئ. ما السبب؟ لا شيء إلا ذلك النمل الدقيق والذي يظل على مدى أعوام ينخر بصير ممرات، وحفر في قواعد البناء يتقدم في كل مرة مقدار سمك شعرة، ببطء، وصبر، ودأب، في كل الاتجاهات، حتى تفقد الجدران توازنها في النهاية وتنهار. نحن الإيرانيون مثل ذلك النمل. لا نواجه القوى الأجنبية والغربية. تعتن وضعيج لا طائل من ورائه، بل نتركهم يظهرون أسرأ ما لديهم، ونحفر نحن في صبر ممثنتنا وكهفنا، حتى يأتي اليوم الذي ينهار فيه ما شيدوه ..."
هل رأيت ما يحدث خيّن تقذف حجراً في الماء؟ يغطس الحجر، وتظهر حلقات متتابعة على سطح الماء. وتنتشر تدريجياً ثم تتلاشى ويسكن سطح الماء كما كان. نحن الإيرانيون مثل ذلك الماء، الشاه، أطال الله عمره يحمل أعباءً ثقيلة ينوه بحملها، فالإنجليز في جانب والروس في جانب آخر. ولكن لا يوجد لدينا شك أنه بفضل الله، سيجد طريقاً لإنقاذ إيران.

لم تكن ثقة على أغا الضمينية في رضا شاه في غير محلها. كان رضا شاه من أهم الشخصيات الحيوية التي قابلتها في دولة إسلامية، وكذلك من بين كل من قابلت من ملوك، ولا يمكن مقارنتها إلا بابن سعود.

قصة صعود رضا شاه حتى وصوله إلى حكم البلاد تشبه القصص الخيالية، ولا يمكن أن تتحقق إلا في دول الشرق فقط، حيث تلعب الشجاعة الشخصية والإرادة القوية دوراً رئيسياً حتى إنها يمكن أن ترفع أمراء من ظلال الظلم إلى سدة السلطة والقوة والسيادة. حين عرفته في أول إقامة لي بطهران في صيف عام 1924، كان رئيسًا للوزراء وكأنه إيران بلا منازع.

لم يكن الشعب الإيراني قد تغلب على صدمته في ظهور رضا شاه المفاجئ وصعوده السريع إلى السلطة حتى وصل إلى السيطرة على دفة إدارة البلاد. مازالت أنكر تجنب موظف إيراني يعمل بسفارة الألمانية في طهران، وهو يقول لي: «هل تعلم أنه من عشر سنوات فقط كان رئيس وزراء يقف حارساً كجندى نظامي أمام باب هذه السفارة؟ وأنت قد أعطيته أحباطاً رسائل من السفارة لتسليمها إلى وزارة الخارجية وأزجره قائلًا: أسرع يا ابن الكلب، لا تتلكا في البازار وأنت في الطريق...».

بالفعل، لم تكن قد مضت سنوات طويلة منذ أن كان الجندي رضا يقف حارساً أمام مبانى السفارات والمباني العامة في طهران. أتخيله واقعًا في زيه الرسمي الذي يمثل فرقة القزاق يميل على بنديقته وهو يحمل موقس في الأنشطة التي تدور من حوله في الشوارع. يراقب الإيرانيين، وهم يمضون جيئة رهابًا مثل أشباح في حلم، وأراه 315.
جالساً في بروة الليلى بجوار مجارى الأنهار، كما كان يفعل زملائه الجند. كان يسمع صوت الآلات الكاتبة التي تأتيه من خلفه من داخل البنك الإنجليزي الذي يتولى حراسة بابه، واندفاع الناس المسرعين، وذلك الحفيف المتسارع للحياة الذي جلبه الأوروبيون في ذلك البنى في طهران بواجهته الزرقة الخضراء، ربما مرت في ذنهه لأول مرة في حياته تساؤلات متعجبة:

«هل يجب أن تكون الأمور في طهران هكذا... هل تعمل الشعوب الأخرى وتجاهد... بينما تجري حياتنا إلى الخلف مثل حلم؟ لم يتل رضا أي قبر من التعليم، ولم يذهب إلى أي مدرسة. ربما كانت تلك اللحظات هي التي انتسبت إليه رغبة التغيير، راودته في تلك الأثناء أهداف عظيمة، وإحساس بالاكتشاف ورغبة في الثورة تضيء في ذنهه وتسمى صامتة للتعبير عما يعتمل في نفسه.

ربما وقف في أوقات أخرى حارساً خارج باب حديقة سفارة أوروبية لدولة عظمى، تتحرك أشجارها المتمتعة بها مع الرياح، ويخشخش حصى المرات تحت وقع أقدام الخدم الإيرانيين العاملين بالسفارة برزيمهم الأبيض الموحد. في ذلك المبنى المقام بسط الحديقة تسكن قوة غامضة؛ تبعث الرهبة في كل إیراني يتخلى أسمائها وتجعله يصفح من هميتته ويعتنى بحسن مظهره قبل ولوجها. أحياناً تصل العريات التي تجرها الخيل وينزل منها كبار المسؤولين الإيرانيين من الساسة. كان الجندي رضا يعرفهم شكلاً، فهذا الرجل كان وزير الخارجية، وذاك وزير المالية. كان يبدو الخوف دائمًا على وجههم مخلوطًا بالتوتر والتوتر، ملامحهم مشدودة عند دخولهم من تلك البوابة، وكان يتشوق إلى رؤية التعبير الذي يبدو على وجههم وهم يغادرون مبنى السفارة، أحياناً يرى البشاشة والسحور كما لو كانوا قد أتعلق عليهم بخير وفضل عميم؛ وأحياناً يخرجون شاحبين مهمومين، كما لو كان حكمًا بالإلزام قد صدر عليهم، وأن أولئك الناس الغامضين داخل السفارة هم من أصدروا الحكم، ويبعث الجندي رضا متسائلاً: «هل يجب أن تكون الأمور كذلك...؟».
ويحدث أحيانًا أن يخرج موظف إيراني مهرولاً من مبنى السفارة التي يحرسه رضا، ويذيع رسالة إلى يده قائلاً: "خذ هذه الرسالة وانذرب بها إلى فلان أو غيره من الجهات. لا بد أن توصلها بسرعة يا ابنا الكلب، وإلا غضب السفير"; اعتاد رضا زن يوجه إليه الخطاب بتلك الطريقة، فرسالته من الضباط لم يبدوا أي قدر من الحساسية تجاه السمات فيما يوجه إليهم من حديث. من المحتمل - كلا، بل من المؤكد - أن تكون الصفات مثل ابن الكلب تصيبه ببطيئة في كرامته، كان يدرك ويوثق أنه ليس ابن كلب، بل ابن أمة عظيمة أنجبت عظماء مثل رستم، وداريوس، وأنوشوروان، وكاى خسرو، وشاه عباس، ونادر شاه. ولكن ما الذي يعرفه أولئك الذين بداخل السفارة عن ذلك؟ ما الذي يدركه من القوى التي تتحرك مثل تيار صامت دائم داخل صدر جندي يبلغ من العمر أربعين عامًا وتشكك أحيانًا على تفجيز ضلوعه وتسعله بعض أنامله في يأس من لا يملك قوة لتغيب كل ذلك: "أه لو كان بديئاً ...
و كثيرًا ما كانت رغبة تأكيد الذات التي تشتعل صدور الإيرانيين تلهبهم فيهبون في ثورة عنيفة غير متوقعة، كما كانت تحدث أرضًا الجنود تجعل إدراكه أصفى ورؤيته أوضح للاتفاقيات التي تمر بها بلاده ...
كانت الحرب العالمية قد انتهت. وبعد الأزمة البلشفية في روسيا، انسحبت القوات الروسية التي كانت تحتل شمال إيران; وفقدت بذلك وجيزة فجر الشيوعيون الإيرانيين اضطرابات في ولاية تبليز الإيرانية الواقعة على بحر قزوين، وقاد ذلك الثورات الشيوعية "كشخک خان" وهو من أصحاب التفوق ودعمت قوات نظامية روسية في البحر والبحر. وأرسلت الحكومة الإيرانية قوات من الجيش لتقضي على ذلك الثورات، إلا أن القوات الإيرانية السليمة تنظيماً وسلبياً كانت تتالى هزيمة بعد أخرى؛ ولم تثبت الفرقة التي كان يخدم بها رضا - وكان قد بلغ الخمسين من عمره في ذلك الوقت - أنها أفضل من غيرها من قوات الجيش الإيراني.
بمجرد أن أدارته فرقتها ظهرها وبدأت في الفرار بعد صدام سيء الحظ مع الأعداء، لم يستطيع رضا أن يمنع نفسه من التعبير عن مشاعره الدفين ولا أن يكتبها أكثر من
ذلك، فقد خطأ خارج صفوف القوات المنكوبة الهارية، وسماح بالعلى صوته حتى يسمع الجميع: "لماذا تفررون أيها الإيرانيين؟ أنتم إيرانيون!". لابد أن شعر في ذلك الوقت بما أحسه "تشارلز" الثاني عشر ملك السويد حين سقط مصابًا في معركة "بولتافا"، ورأى قواته تهرب في فزع، ونادى عليهم بصوت بايس: "لماذا تفررون أيها السويديون؟ أنتم سويديون!". ولكن الفارق أن الملك "تشارلز" كان ينزف من جروح كثيرة، ولم يكن هناك ما يملكه إلا صوته، بينما كان الجندي رضا غير مصاب وبيدهي مسدسه "الوزر" محشوارًا بالطلقات - كان صوته قويًا ومهدئًا وهو يوحن رفاقه:

"من يهرب سأطلق عليه النار، سأردئه بصاحبه حتى لو كان شقيقًا".

كان ذلك التجنر جديدًا على الجنود الإيرانيين، وحول محل الفوضى التي تسودهم، دهشة. وأصبحوا يتوقفون إلى معرفة: ماذا بذن ذلك الرجل؟ بعض الضباط احتجوا وبيبنوا عدم وجود أي مأمورهم، حتى إن واحدًا منهم سيئ قائلًا: هل تقولنوا أنت إلى النصر؟

ربما كان رضا قد أفرخ الشحنات الانفجارية المراکمة في نفسه منذ أعوام طويلة، وأضاءت فجأة كل أمال الصامتة الخرساء. لقد رأى طرف حبل سحري يتدلى أمامه فجأة: فامسك بطرف الحبل، ولم يفلت به ذلك أبدًا.

رد على الضابط قائلًا: قبل أن أقودكم للنصر، ثم استدر إلى الجنود وسائلمهم:

"هل تقبلوني قائدًا لكم؟".

لا توجد أما بتأصل فيها نموذج البطل بعمق كما هو بين الإيرانيين، بدأ لهم ذلك الرجل بطلًا. نسي الجنود فزعهم وفرارهم، وتمكنوا هادئين "أنت قائدنا"، ورد رضا: وهو كذلك، ساقودكم وسانتقل كل من يحاول الهرب. غاب أن أحدًا بعد ذلك لم يفكروا في القرار. خلونوا من كل ما يعرفهم، وثبتوا سناكمهم في بنادقهم، وتحت قيادة رضا البطل الفرقية وأسرت سرية روسية في مفاجأة عسكرية، وجعل ذلك قوات إيرانية أخرى لتفتت تحت زعامة رضا، وقهروا العدو وطاردوه - بعد ساعات كانت المعركة قد حمستت لصالح الإيرانيين.

318
بعد عدة أيام، وصلت برقية من طهران بترقية رضا إلى رتبة نقيب، وبذلك أصبح بإمكانه أن يلحق باسمه لقب «خان».

كان قد أمسك بطرف الحبل السحري الذي ظهر أمامه وبدأ في تسلقه. أصبح اسمه فجأة من الأسماء المعروفة والمشهورة في ترقيات سريعة متتالية أصبح مقام ثم عقيد ثم قائد لواء. في عام 1971، قام بتغيير انتقال عسكري وصحفي شاب اسمه ضياء الدين وثلاثة ضباط آخرين، وقبضوا على مجلس الوزراء الفاسد، ووصفه قائد لواء، أجبر الشاه أحمد، ضعيف الشخصية، على تعيين مجلس وزراء جديد، أصبح فيه ضياء الدين رئيسًا للوزراء، ورضا خان وزيرًا للحربة. لم يكن يقرأ ولا يكتب، إلا أنه كان مثل الجن والشبل في سعيه إلى السلطة، وأصبح (النموذج) للجيش والشعب، الذين رأوا فيه بطلًا إيرانيًا لم يروا مثله من دهور.

على المسرح السياسي الإيراني تتغير المشاهد بسرعة. فقد اختفت فجأة ضياء الدين من على المسرح، ليظهر كمنفي في أوروبا. وأصبح رضا خان رئيسًا للوزراء. بعد ذلك انطلق شائعات في طهران أن رضا خان، ضياء الدين، والشقيق الأصغر للشاه وكان رمزا للعهد، تأمروا للإطاحة بالشاه عن العرش؛ ودار الهمس - ولا يعلم أحد حتى اليوم مدى صحة ذلك - أن رضا خان قد خان أصدقائه في آخر لحظة ومضى أن يغامر بمركزه في تلك المؤامرة المشكوك في نتائجها وآخرب الشاه بتفسيرات المؤامرة. وبغض النظر إن كان ذلك صحيحًا أم لا، نصع رضا خان الذي أصبح رئيسًا للوزراء، الملك شاه أحمد أن يقيم بارحة ترفيهية إلى أوروبا، وصحبه في موكب عظيم بالسيارات حتى حدود العراق، وقائلاً: إننا قادل الشاه على الحدود: لا أعتقد جلالتك في أي ححلة إلى إيران، يمكنك حينها أن تقول: إن رضا خان لم يفهم شيئًا في هذا العالم.

لم يعد يقبل أن يشارك أحد السلطة؛ كان في الحقيقة المتصرب الفعلي في كل شئون إيران. كان مثل ذئب جائع، وألقى بنفسه مكرسًا كل إمكاناته الشخصية في خضم العمل. كان لا بد أن يصبح كل أحوال إيران من القمة إلى القاع. أصبحت

319
الإدارة التي كانت مفكرة إدارة مركزية، أما النظام الزراعي القديم الذي كان يستد
زراعة كل الولايات إلى من يدفع أعلى ثمن، فقد ألغاه، وألغى أن يكون المحافظين من
المرزبانات، وأصبح يبيعهم من قبله، أما الجيش، وهو ابن الدكتور المدل فقد أعاد
تنظيمه على النمط الغربي. ثم بدأ في شن حملات على زعامة القبائل العنيدين الذين
كانوا يعتبرن أنفسهم مليوكا صغارًا وكانوا غالبا ما يرفضون الأوامر التي تصدر من
طهران؛ وتعامل بكل قسوة مع تنظيمات العصابات التي كانت تبث الرعب في
الأقاليم. وتم تنظيم الإدارة المالية للدولة بمعارنة مستشار أمريكي؛ وبدأت الضرائب
والجمارك تتر عوائد منتظمة، واستعاد النظام بعد الفوضى العارمة.

وكما لو كان يقتني أثر خطى كمال أتاتورك في تركيا الذي قاد الحركة الكمالية،
بزغت فكرة الجمهورية في إيران، كانت كشائعة في البداية، ثم مطلوب من مطالب
الطليعة المتقدمة من الشعب - وأخيراً كهدف مباشر بعد ذلك. ولكن يبدو أن رضا خان
قد أخطأ في ذلك التوجه ولم يحالفه التوافق. لقد أساء تدبير ذلك الأمر: خرجت
مظاهرات قوية غاضبة من الجماهير الإيرانية.

لم تكن تلك المعارضة الشعبية للجمهورية ترجع إلى أي حب للبيت الحاكم، فلم يكن
هناك إيراني واحد يكن أي عاطفة حب لعائلة «كشار» والتي تعود إلى أصول تركية.
وكان الشعب بمجرد أسرة أجنبية. وهي أسرة الشاه أحمد. كانت المعارضة لسبب
مختلف تمامًا، هو خوف الشعب الإيراني أن يفقدوا دينهم مثل الأتراك الذين فقروا
دينهم بعد أن أعلن كمال أتاتورك نظام الدولة العلمانية. في جهلهن. لم يفهم
الإيرانيون أن الشكل الجمهوري يتفق تمامًا مع تعاليم الإسلام أكثر من حكم العاهل
العالمي؛ وتحت تأثير القادة الدينين - وربما لخوفهم من إعجاب رضا خان الواضح
بأتاتورك - أحس الإيرانيون أن الإسلام مهدد، وكان الإسلام القوة الهيمنة على
الشعب الإيراني بجمعه.

وقعت أحداث شغب كثيرة واضطرابات بين أبناء الحضر، خاصة في مدينة طهران،
خرجت الحشود الغاضبة، مسلحين بالعصى والحجارة، وجمعت أمام قصر الإدارة

320
الذي يقع به مكتب رضا خان، وعُينوا لاعيين رضا خان ومصطفى الدكتور الذي
تحول إلى نصف إله. وانصرف به محاربه، أنه دفعهم جناً جنابةً، وخرج واصبحت فرد عادي غير مسلمين، وغادر
المبنى في عتبة، عنها تجربة الخيول. وبحل أن خرجت العربة من البابا الخارجي،
قبيضت الحشود الثائرة على اجتهاد جناء وأوقفوا الرعب، وجعل بعض الثائرين بابها
وصاحت الحشود: «جروه إلى الخارج، أخرجوه إلى الطريق»، إلا أنه كان قد بدأ
الخروج بنفسه، ووجهه يسير بالغضب، وبدأ بضرب الأقرب إليه على أكتافهم
وروسهم ببعض قيادتهสำคم وهو يصير في غضب: «إعدوا يا أبناء الكلاب، كيف
تجاسرت على ذلك، أنا رضا خان، ارجعوا إلى الناسك وفراشمكم»، وصممت
الحشود التي كانت تهدد بالويل والشبح وقتل طاغية من دفائق قليلة، وتحت وطأة
جبارته وشجاعت ونظراتها النارية؛ تقهقرها قليلاً، ثم ذابوا واحداً بعد آخر، واقتلاوا
في الشوارع الجانبية.
مرة أخرى تحدث قائد عزيم إلى شعبه: حديثهم غاضبًا، وارتاغ الشعب وفزع،
ربما كانت مشاعر رضا خان باحترامه للشعب قد بدأت في تلك اللحظات، وغطي
شعوره ذلك على حبه لشعبه إلى الأبد.
بالمثل من نجاح رضا خان في إيران هيمنتها وقوة شكيمتها، إلا أن النظام
الجمهوري لم يتحقق. كانت الزوابع التي أثيرت حول تلك الخطة تثبت أن القوة وحدها
لا يمكن دون تقويد «حركة إصلاحية» في مواجهة مقاومة شعبية. لا يعود ذلك إلى أن
الإيرانيين يعارضون الإصلاح، بل إن الشعب شعر غريزيًا أن تطبيق نظام
دستوري غربي مستورد من خارج البلاد، يعني القضاء على آمالهم في التوصل إلى
نظام سليم، نابع من ثقافتهم وعقاويلهم الإسلامية.
لم يفهم رضا خان ذلك، إلا في ذلك الوقت، ولا بعد ذلك أبدًا، فإلى النزول عن شعبه
تلاشي حب الشعب له وحل محله بالتدريب كراهية وخوف. بدأ الشعب يتساءل:
ما الذي فعله ذلك البطل لبلده؟ راحوا يعودون إنجازات رضا خان: إعادة تنظيم

321
الجيش؟ ولكن كان ثمن ذلك باهظًا، فقد أضاف أعباءً ساحقة من فرض ضرائب
باهظة على شعبٍ فقيرٍ يعاني من الفاقة وشظف العيش؛ قضى على تمرد القبائل؟
إلا أنه قضى أيضًا على أبطال الشعب؛ أقام المباني الشاهقة الجديدة في طهران؟
إلا أن الباس والفاحة قد ازداداً بين المزارعين والفلاحين في الأقاليم، بدأ الناس
يتنكرون أن رضا خان كان حتى سنين قليلة مضت جنديًا معدمًا – وأصبح الآن أغني
رجل في إيران، ومالك لساحات من الأرض لاحصر لها – فما هي "الإصلاحات"
التي تتحدث عنها؟

هل تعد المباني الشاهقة الفخمة الجديدة وما تحويه من مكاتب في مدينة طهران
والفنادق الفخمة التي ارتفعت هنا وهناك بتوجيه من الدكتوروف تمثل أي قيمة في
تحسين أحوال جمعية الشعب الفقيرة؟

***

عرفت رضا خان في المرحلة التي كان فيها رئيسًا للوزراء، ومهمًا كانت صحة
الشاعر التي كانت تتردد عن طموحاته وتطلعاته وأمثاله، إلا أنني تبينت عظمة ذلك
الرجل من اللحظة الأولى التي استقبلت فيها في مكتب في وزارة الحرب في. ربما
كان كان ذلك المكتب أبسط مكتب دخلته في أي مكان، وفي أي عصر، يشغله رئيس
وزراء، كان هناك مكتب، وأريكة مغطاة بقمش أسود، ومقدمين، ورف للكتب،
وبساط جميل إلا أنه غير ثمين؛ نهض الرجل عند دخوله، وجدته طريلًا، في منتصف
الخمسينيات من عمره، يرتدي ملابس عسكرية كاكية اللون دون أي رتب أو نياشين
أو شارات.

قدمني إليه سفير ألمانيا، الكونت "فرانز ديرشولنبرج" (بصفته ممثلًا للصحيفة
الألمانية) ومع أنه كان أول حوار سياسي رسمي بيننا، إلا أنني ميزت الحياة العنيفة
التي يتصف بها رضا خان، تطلع إلى بعينين نورين حادتى النظرات من تحت

322
حاجين كثيفين شاب شعرهما ، عيون فارسية تحتجب خلف جفون ثقيلة ، فتبدو النظرة كأنها خليط من السوداوية والحزن والقسوة والتشد . كانت هناك خطوط شبيهة بالعارة حول أنفها وشفتينها ، إلا أن اللامع المشدوة على عظام الوجه الثقيلة أفشلت قوة إرادة غير عادية جعلت شفتاه مزومتين فيندا توتر الفكين . وحين تستمع إلى صوتهما الخافت - صوت رجل تعود على قول ما له أهمية وقيمة ويزن كل كلمة قبل أن ينطق بها - يستولى عليه انطباع بأنك تستمع إلى رجل أمضى ثلاثين عامًا بالجيش مع اعتزاز شديد بالذات يعبر خلف صوتهما . وتجد من الصعب أن تصدق أنه من ستة أعوام فقط كان رضا حاكم مازال رقيبًا بالجيش ، ومن ثلاثة أعوام فقط تعلم القراءة والكتابة .

لا بد أنه شعر بأهميته الشديدة بشخصه - وربما شعر باهتمامي الشديد بشئون الشعب الإيرانية - فقد أصر أن تلك المقابلة يجب أن تكون الأولى والأخيرة ، وعاني أنا و"شولينبرج" لتناول الشاي في الأسبوع التالي في مقره الصيفي في منطقة شيرمان ، وهو منتجع يموج بالأشجار الخضراء على بعد بضعة أميال خارج طهران .

انتفقت مع "شولينبرج" أن أمر عليه أولاً ( كان مثل باقى السفراء يقضى الصيف في منطقة شيرمان ) ، ثم توجه معاً إلى منزل رئيس الوزراء هناك . وحدث أنني لم استطع المروز عليه في الوقت المحدد . كنت قد اشترتي عربة صيد خفيفة ذات أربع عجلات يجرها جواران فهران تشيطان . أما مدى نشاطهما فقد اتأتيل لم تاماً خارج طهران ببضعة أميال ، فقد طالت بهما رغبة شربة جعلتهما يرفضان في عناد البحار أن يمضيا للأمام خطوة واحدة ، وأصرنا على الاستدارة والعودة إلى طهران . بنزلت كل جهدي على مدى عشرين دقيقة لدفعهم إلى السير إلى "شيرمان" ، ولكن بلا طائل ، في النهاية جعلت إبراهيم يعود بهما إلى طهران وانطلقت على أقدامي باحثًا عن وسيلة انتقال أخرى . سرت حوالي ميلين ووصلت إلى قرية وجدت بها عربة خفيفة واكتريتها ، وحين وصلت إلى منزل السفير الألماني كنت قد تأخرت ساعة ونصف عن
الموعد المتفق عليه وجدت "شولينبرج" يروح جيشه وذهبًا في مكتبه مثل نمر غاضب
متحفز، واختفت تمامًا كل رقته ودمامته، فبحسه الدبلوماسي المجلوب على الطبيعة
البروسية صارمة النظام، كان ذلك الخرق للالتزام يصل بالنسبة إليه إلى مرتبتة الكافر
والإلحاد. أول ما وقع بصبره على انفجار في ثورة غضب عاتية:

"لا يمكن أن تفعل ذلك، لا يمكن أن تفعله مع رئيس الوزراء... هل نسيت أن
رضاء خان دكتاتور، وأنه مثل أي دكتاتور، شديد الحساسية والاعتزاز بكرامته؟".

كانت إجابتي الوحيدة: "يبدو أن خيولك نست تلك المنطقة المهمة يا كونت
شولينبرج"، حتى لو كان إمبراطور الصين، كان من المستحيل أن أصل في الموعد.

وحكيت له ما حدث.

عند ذلك، بدأ الكونت يستعيد حس الدعاية وانفجار في ضحكة عالية:

"بحم الله لم يصادفني مثل ذلك الموافق أبدًا، هيا بنا - رأمل ألا يصفخ الخادم
الباب في وجهنا...

بإلا أن الخادم لم يصفخ الباب في وجهنا. حين وصلنا قصر رضا خان كانت حفلة
الشاكي قد انتهت من زمن وانتفعت كل المدعوين، إلا أنه لم يبد على الدكتاتور أنه قد
تضايق بأي حال من حال خروق القواعد البروتوكول.

وحين سمع مني سبب تأخري، تسأل: "حسناً، أحب أن أرى خيولك، إنهم
ينتمون على ما اعتقد إلى الحزب المعارض، لا أدرى إن كان من الملازم أن نضعهم
رهن الاعتقال أم لا".

وبعد أن تخلف عن الموعد المحدد كان في صالحٍ فقد كان سبباً في تأسيس
علاقة شخصية غير رسمية بين رئيس وزراء إيران القوي وصحفي صغير السن مثلي,
واجتاح لئ ذل تلك العلاقة بعد ذلك أن أتجول بحرية في جميع أنحاء إيران، وهي حرية
غير متبعة لأي أجنبى.

324
لم تنشر رسالة على أغا إلى رضا خان الأيام المبكرة، ذلك الرجل الذي كان يحيا في بساطة لا يصدقها أحد ويغلب عليه حب إيران؛ كانت رسالته تشير إلى رضا شاه بهلوئي الذي صعد إلى عرش الطاورس عام 1925؛ وتشير إلى ملك نهي جانبًا كل مظاهر التواصل ويصعى الآن إلى اقتفاء أثر كمال أتاتورك في بناء دولة ذات وجه حضاري غريبي في بلاده الشرقية العتيقة...

وصلت إلى نهاية الرسالة:

«بالرغم من أنك الآن يا صديق الحب في المدينة المباركة للرسول الكريم (ع)، فإنني أمل لا تكون قد نسيت صديقك الذي لا يساوي شيئاً، ولا تنسى بلده أيضاً».

الله أبا على أغا، يا صديق أبيامي في إيران - أو نور قلبي – كما تقولوا أنه جعلتم رسالتكم أغرق بين ثنايا الذكريات: أنا الذي أصبحت مخمورًا بحب بلاد فارس بعد أن عرفتها عن قرب، تلك البلاد العريقة، الجوهرة التي ضاع بريقها بين ذهب عتبق ورخام مشروخ وركام تراب وظلل باهتة لحضارات أصيلة، ظلائل كل الأيام والليالي في بلدك الممكلة، ومعين أبناء شعب الحالة بحياة أفضل...

مازالت أذكر مدينة «كير منشاه»، أول مدينة إيرانية آرها بعد أن عبرت جبال كردستان، مدينة يغلبها جو غريب، شاحب، معمر، مكتومة الصوت، وخانعة - وإن أقول رئة ويبالية، لاشك أن فكر كل مدينة شرقية يكمن قريبًا من سطحها، مرنى بوجود أكثر من أي مدينة أوروبية... إلا أنني كنت قد اعتدت ذلك - إنه ليس فقرًا بالمعنى الاقتصادي بالرغم من أنه باد بكل مظاهره، مع أن«كير منشاه» كانت تعد من المدن ذات الرخاه في إيران، ما أقصده الفقر النفسي والعواني، ذلك النوع من الانتشار والإحباط الذي يزين على الناس، شيء ما على صلة مباشرة وثيقة بهم ولا علاقة له بالحالات الاقتصادية.

الشعب كله يتميز بعبور واسعة سوداء تحت حواجه كثيفة، يتنابل عند جذر النهض، يقفون ثقيلة كالحجاب، أغلب الرجال نحفاء (لم أر رجلاً مثليًا أو سمينًا في
إيران)، لا يضحكون بصوت مرتفع أبدًا، في تبسمهم الصامت يكمن شبع سخريته، وتجاهل وتبدي كأنها تخفي وتبطن أكثر مما تظهر. لا تحوي في حركة ملامع وجهها، لا إيماءات بالرأس تدل على المشاركة والتتفهم، لا تجد إلا حركات محددة ومقننة: كانوا كنّ يضعون أقنعة على وجوههم.

وكمما في كل بلد الشرق، تتركز الحياة في الأسواق، وتظهر الأسواق في عين الغريب خليطًا من الألوان البنيّة، والبنى المذهب، والأحمر، وأوانى نحاسية لامعة هنا وهناك، بعض فن خزف أزرق فوق واجهات بعض المحلات مرسوم عليها أشكال وهيئة لفسان بعينين سوداء وتنانين متجانحة، لو دققت البصر وأمعنت النظر تجد بالسوق جميع الألوان التي عرفتها الشارع، إلا أن أي من تلك الألوان المتباينة لا يمكن أن يستقلق لون ذاته في تلك الظلال الواسعة تحت أسقف تحت شوارع الأسواق وتجعلها غارقة في عتمة نعاسة، كانت قمم أسقف شوارع السوق مفتوحة على مسافات مشتركة بفتحات صغيرة تسمح بدخول ضوء النهار، ومن خلالها تسقط أشعة الشمس الساقطة من الفتحات على شكل أعمدة رفيعة، لا يبدو أن المارة يخترونها بل تبدو وكأنها تخترق المارة.

الناس في البazar هادئين مذهبين صامتين كالأشباح، لو نوه أحد التجار عن بضاعته فإنه يفعل ذلك بصوت خفيض؛ لا ينادون بأصوات عالية أو كلمات متغيرة كما يفعل العرب في الأسواق العربية.

نسيج الحياة هنا من نفوس هادئة، الناس لا يتراوحون ولا يدفع بعضهم ببعضًا: كانوا مذهبين - ذلك النوع من التهذيب الذي يبدو كأنه ينحيه أمامك من فرط تأبه، إلا أنه في الواقع يوقلك على بعد ذراع.

يغلب عليهم البهوس ولا يبدرون بفتح حوار مع غريب، وإذا تحدثوا فإن شفاههم هي التي تتكلم، أما أرواحهم فإنها هناك في خلفية بعيدة، تنظرون، وتزن الأمور وتوزنها، منفصلة عن الواقع العاش...
على مقهى جلس عمال على حشائش من القش، كانوا خليطًا من فناني النسخ وعمال، وسائقين شاحنات، مجتمعين حول قصعة معدنية مليئة بالجرارات اللتهبة. وإرجلين طويلين من الخزف، كانت رائحة الحشيش النافذة تعيق المكان، يدخنون في صمت؛ كل في دوره يذبح أنفاسًا سميكة، ثم يمرر القصبة إلى من يليه. ثم أدركت ما لم أدركه من قبل: كثيرين، كثيرين جدًا، من يدخنون الحشيش، بعضهم في الغرفة، وآخرين خفية. أصحاب المتأجر داخل خاناتهم الصغيرة، والمسكنين تحت أقواس بوابات القنوات الكبيرة؛ طارقًا تحت احتكاك ومشكلة داخل محلاتهم في أوقات راحتهم: كلهم يدخنون الحشيش وكلهم تعلوا ووجوههم ملامح الوجه النسجية من الواقع، ومنهكة، ونظاراتهم تحمل في فراغ لا تعرف مداد...

كانت آزهار الخشชาش تبرعها المثلثة تراب في جميع أنحاء البازار، وعندما طريقة أخرى تناسب الأطفال، فقد كان الأطفال يأكلون بذورهم في مداخل البيوت وفي الأركان الخالية. يقسم طفلاً أو ثلاثة ما معهم من بذور باتاعة وثودة الكبار، دون ذاتية طفولية - ولكن أيضًا بلا مرح الأطفال وحيويتهم.

ولكن كيف يمكن أن يكونوا غير ذلك؟ لقد أعطوه من مهدهم شراب بذور الأفيون حين كانوا يكرون، فيعطونهم ذلك الشراب حتى يلمموا ولا يزعجونهم. حين كبروا وبدأوا يجوبون الطرقات والشوارع، كانت صفات الهدوء والطيبة والوداعة قد بهتت وتلاشت.

أدركت بعد ذلك السر فيما شدني وهزَّ أممًا حين شاهدت أول مرة العيون الحزينة التعبئة للإيرانيين: كانت العيون الحزينة تعبير عن القدر الأساسي لذلك الشعب. أدركت أن الأفيون ينتمي إليهم كما تتلمى الابتسامة التعبئة لتعاستهم الداخليه - والأفيون ينتمي إلى فقراء الشديد و بالإملاقهم، ولا يبدو عبيًا ولا نقية - بل ربما كان ذا فائدة لهم، وعونًا لهم - عونًا ضد ماذا؟ إنها أرض العجائب التي لا تكفر عن طرح تساؤلات كثيرة...
توقف فكرى طويلًا عند التطبلاغات عن مدينة «كيرمنشاه»، أول مدينة إيرانية
أوقف فيها، وظلت التطبلاغات متجاورة بشكل إلزامًا مشروعة إلّا أن مادية لم تسير على مدى
عام ونصف قضيتها بإيران، كان السائد والدائم في كل مكان في أنحاء إيران تلك
التعاسة والاكتئاب والانقباض الذي تراه على كل الوجوه. تلاحظه في القرى كما
تلاحظه في المدينة، في حياة الناس اليومية كما في المناسبات والأعياد والاحتفالات
الدينية. وبالفعل، كانت مشاعرهم الدينية تختلف عن المشاعر الدينية للعرب، فهي
تحمل صبغة قوية من الحزن والعداء، لأنهم مازالوا يبكون أحداث مأساوية وقعت من
ثلاثة عشر قرنًا مضت، يبكون استشهاد الإمام على رضى الله عنه، ابن عم
الرسول - أبو زوج ابنته رضي الله عنهما، يبكون استشهاد ابنه علي، الحسن
والحسن رضي الله عنهما، ويبعد ذلك عندهم أحمد مهما يدعو إليه الإسلام، وعما يدفع
البشر إليه، ويحثهم على انتفاه في الحياة الدنيا...

في الأساطير في مدن وقرى إيران، ترى مجموعة من الرجال والنساء مجتمعين
في حلقية كبيرة حول درويش متجول، داعية يبني يلبس ملابس بيضاء، وجد فهد
معقل على ظهره، يمسك بيد عصا طويلة وبالأخرى وعاء من ثمرة جوز الهند مفرغة
يجمع بها الصدقات، يلقى إنشادًا، يصف مغنيًا، يصوف مرتبًا، عن صراع الخلافة
بعد موت الرسول في القرن السابع الميلادي، قصة حزينة مأساوية دامية، مكونة من
إيمان وصم وموت - تجرى بشكل ما في حكايتها كما يلي:

استمعوا إلى أيها الناس، استمعوا لما حدث لن اختيارهم الله، وكيف سالدم
نسل الرسول على الأرض.

كان هناك نبي أحب الله وحياً بالهداية إلى مدينة المعرفة، وكان باب تلك المدينة
آنقى وأخلص وأشجع وأحكم أتباعه، وزوج ابنه، أسد الله، وخلفه الشرع، إلا
أن أشقياء البشر وأشراهم اغتصبوا حق أسد الله وجعلوه آخر خليفة للرسول،
ولم يعد موت أول مغتصب، تلاه واحد مثله من محبي البشر، وثلاه ثالث بعده.
وتحقت إرادة الله فقط بعد موت المغربب الثالث، وزبى أسد الله مقعده الشرعي كقائد للمؤمنين.

ولأ أن أعداء الله كانوا كثيرون؛ وفي يوم كان ساجداً بين يدي ربه، اغتالوه بالسيف، اهتزت أركان الأرض من بشاعة الفعل الكافر، وناحت الجبال، وذرفت حجارة الأرض الدموع.

فلتحل لعنة الله على الأشرار، وبحل عليهم عذاب الله الأبدى.

استولى مغتصب جديد على الخلافة وأتَّكر حق أبناء أسد الله، الحسن والحسين، ابن قتادة المباركة. قتلوا الحسن بفسحة دس السم له؛ ولما هب الحسن للدفاع عن الحق، أزهقوا روحه الطاهرة في كربلاء حين كان منحنئًا على بركة ماء ليروي ظهاؤه بعد المعركة.

فلتحل لعنة الله على الأشرار، وتتروري دموع الملائكة في كربلاء المباركة. اجتخت رأس الحسين، رضي الله عنه - التي كان يقبلها الرسول، بفسحة، وعاد بهدون، رأس إلى الخيمة التي كان أولاده يبكون فيها وينظرون عودته.

منذ ذلك اليوم يدعو المؤمنون لله أن ينزل لعنته على المتدينين منذ ذلك اليوم يبكون موت عليه والحسن والحسين رضي الله عنهم؛ وأتمهم أيضًا يا مؤمنين، ارفعوا أصواتكم بالوعود والدعاء على مصخرهم - الله يغفر ذنب من يبكون نسل الرسول ...

وتدعف المرئية النساء إلى نهينة البكاء، بينما تسال دموع صامتة على لحي الرجال.

مثل تلك «المحات» تمثل فعلاً نصيرة عميقة مستمدة من صورة تاريخية حقيقية لتلك الأحداث المباركة الدامية التي أحدثت شرحاً لم يكن جبره وانقسامًا لم ينكن تخطيه في عالم المسلمين: أقسم المسلمون إلى سنّة، وهم الأغلبية؛ يؤمنون أن بأن اختيار الخليفة كان صحيحاً، والشيعة الذين يصركون على أن الرسول اختار على...
 الزوج ابنته، كريمة شرعى وخلفية له. وفي الحقيقة، مات الرسول دون أن يسمي أي خليفة له قبل وفاته، فاختار المسلمون أقدم رفيق مخلص له خليفة، وهو أبو بكر، وتلا أبا بكر عمر، ثم ثالوث عثمان، وités يباع المسلمون على الخلافة إلا بعد وفاة عثمان رضي الله عنه.

لم تكن هناك شائبة في أي من الخلفاء الذين سبقوا على، وكتبت أعرف ذلك أثناء وجودي في إيران قبل الإسلام. كانوا بالفعل الأثيل والأعظم في التاريخ الإسلامي بعد الرسول، وكانوا في حياة أخلص وأقرب الصحابة، لم يكونوا بالتأكيد "مفتصين" للخلافة، واختارهم المسلمون بإرادة حرة خلقها فيهم الإسلام. لم يسوا إلى السلطة، وأدى رفض على رأيهم القبول باختيار عموم المسلمين للخلافة إلى نشوب الصراع على السلطة بعد ذلك، إلى مصير على، مما أدى إلى تحول الخلافة في عصر الخليفة الخامس، معاوية، من شكل الانتخاب الديموكراسي للخلافة إلى ملك يتوارث الأبناء، ثم أدى بعد ذلك إلى مصير الحسين في كربلاء.

على، كنت أعرف كل ذلك قبل وصولي إلى إيران؛ أانى أدرى به، فقد أدرى بعد وصولي إلى إيران من كم المشاعر التي تثيرها تلك الأحداث التي وقعت من ثلاثة عشر قرناً، بين أبناء الشعب الإيراني، كلما ذكر اسم علي، أو الحسن، أو الحسين.

بدأت أتساءل: هل هي السوداوية الدفينة في الإيرانيين ومشاعرهم المأساوية التي دفعتهم إلى تبني المذهب الشيعي؟ أم أن حجم المأساة التي وقعت للشيعة هي التي أدت إلى صياغة الإيرانيين تلك الصياغة المأساوية؟

بدأت الإجابة المذكورة تتكون في ذهنى على مراحل وعلى مدى شهور. ففي منتصف القرن السابع الميلادي، قهرت جيوش عميرة الإمبراطورية sassانية في بلاد فارس، ودخل الإسلام إلى تلك البلاد، كانت العقيدة الزرادشتية الفارسية قد تراثت وانكشرت إلى مجرد عبادة إصلاحية متصلا، ولم تصدق أمام الفكر الدينى الجديد الملء بالحيوية والقادم من الجزيرة العربية. في الوقت الذي دخل فيه الغزور العربي بلاد فارس، كانت إيران تمر بمرحلة امتناء جمعي وفكرى كانت تنشى بإرهابات

330
ميلاض قومي جديد. وأهاض من الغزو العربي الأول في إعادة الظل القومى الفارسي;
توقف الامتداد القومي التاريخى لفارس، بعد أن تبناه ثقافة وفكر وأخلاق الإسلام
الذي جاء مع الفاتحين.

مثل دخول الإسلام لإيران، كما مثل لبلاد كثيرة أخرى، ظفرة اجتماعية تقدمية
كبيرة، فقد دمر الإسلام النظام الطبقي وخلق مجتمعًا جديدًا مبنيًا على الحرية
والمساواة، وفتح قنوات جديدة لانطلاق الفكر والطاقات الثقافية التي ظلت جامدة
ومكبوتة لعصور طويلة: إلا أن أهل بلاد فارس لم ينشؤ أنهم أبناء داريوس
وإكسيركسس ولم ينشؤ مشاعركهم القومية، ولم ينشؤ الرابط العضوي بين ماضيهم
وحاضرهم، الذي تفجر فجأة في موجهة فكر جديد. كان شعب فارس يجد نفسه
في الثنائية المعقدة بين الزرادشتية وبين عقيدة وحدة الوجود المثلة في المناصر
الأربعة – الهواء، والرمال، والنار، والترب - ووجدت تلك الثنائية الدينية نفسها في
مواجهه دينية توحيدية لا تهادى ولا تصالح وتنتطلع إلى المطلق. كان الانقلاب حادًا
ومؤلمًا لم يسمح للإيرانيين بوضع وعيهم القومي والذين في مرتبة تابعة للمفهوم
الإسلامى الذي يتجاوز القوميات ويعلو فوقها. وبالرغم من تسارعهم إلى اعتناق
الإسلام وقبولهم الإرادى للديانة الجديدة، إلا أنهم قرروا في لا وعيهم بين انتصار
الإسلام والهيبة القومية الفارسية: وكان إحساسهم بأنهم هزموا، إحساس مؤلم
بكل ما يحتويه من غموض وأدى إلى تقويض إحساسهم القومي بالثقة بالنفس على
مدى قرون تالية. ويعكس آم كثيرة دخليها الإسلام وأدى إعتناقه له إلى خلق نبضات
إيجابية دافعة للتطور، كان أول رد فعل إيراني - وهو ما دام بعد ذلك طويلًا-
إحساس شديد بالهوان، وكبح للاستياء في أعمالهم.

كان عليهم كبح استيائهم وتخفيض وطاته في ثنايا وأعمال اللامعى؛ لأن الإسلام
أصبح العقيدة السائدة في إيران. وفي مواجهتهم النفسية لكراهتهم للعرب لغزوهم
بلادهم؛ لجأ الإيرانيون بلا وعي منهم إلى ما يطلق عليه علماء التحليل النفسي
المغالاة أو "المبالغة المضادة"، بدأوا يعتبرون الدين الذي دخل بلادهم على أيدى

331
الغزاة العرب دينًا خاصة بهم، وهم أصحابه. قاموا بذلك بلا وعي من خلال تحويل وجه العرب المسلمين العقل réseau رحمة الله الذي لا غموض فيه إلى نقضه:

غموض خيالي وعواطف انقباضية غامضة.

تحول الإمام الذي يمثل للعرب واقعية وإحساس بالحاضر الزمني ومصدر الحرية

وراحة النفس، إلى تحرق للغيبيات والغموض والرمز.

كما تحول الفكر الإسلامي الذي يؤكد على وجود الله الذي لا تدركه الأفكار إلى مبادئ غامضة (كان لها سوابق في فارس قبل الإسلام) - عن التجلي المادي لله، خاصة فين لونا ما تمنى من اختارهم الله، والذين نقلوا الاختيار الإلهي بالوراثة إلى أبنائهم وذرتهم من بعدهم. بمثل ذلك الميل، مثل اعتناق الإيرانيين لأفكار الشيعة قرآناً وسنة رحبة ناسب ذلك التكوين النفسي، فلا يوجد شك أن تجلي الشيعة بما يقرب من التأثير على ونسله تخفى في ثناياها تجسيد الإله واستمرار تجسيره في نسله - وهي فكرة نحتية تمامًا على الإسلام ورغبته علي محتجزه، إلا أنها قريبة جدًا من القلب الإيراني.

لم يكن مصادره أن يموت الرسول دون أن يسمى خليفة له، وقد رفض بالفعل تسمية خليفة له حين سُلّف في ذلك من قبل فترة قصيرة من وفاته. لقد أراد أن يؤمن بذلك الموقف: أولاً، أن الجانب الروحي من الدين والشريعة لا يمكن تثريثه. ثانياً: أن قيادة الأمة لا بد أن تنتج عن انتقاء حر يقوم به المسلمون بأنفسهم، لا أن تكون "بامر" من الرسول أو "بترسيم" منه (ودك كان تسمية خليفة يتضمن كل ذلك - إلا أنه لم يفعل). لقد ألغى عامادًا فكرة أن تكون قيادة الأمة قيادة رسولية وراوية، إلا أن ذلك ما هدف إليه شريعة الشيعة. لم يصرا فقط على التشريع على مبدأ الخلافة الرسولية (في تناغم واضح مع روح الإسلام)، بل احتفظ بذلك الحق الشافعي الرسولي "لنس الرسول" فقط، أي قصره على ابن عم الرسول ووجوه ابنه على.

وسله رضي الله عنه من بعده.

332
لقد جاء ذلك متلاحمًا تمامًا مع الميول النفسية الغامضة للإيرانيين. لقد انضموا إرادياً إلى مسؤول أولئك الذين ادعوا أن جوهر روح محمد انتقلت إلى علي ونسله، لم يكتف الإيرانيون بإنشاب روح الغموض والآلهز فيهم، كان هناك دافع لا إرادى آخر لاختيارهم تلك المبادئ واعتناقتها، فإن كان عليًا هو الرب والخليفة الشرعي للرسول، فإن الخلفاء الثلاثة الذين سبقوا علي، لابد أن يصفوا كمغتصبين للخلافة، وكان منهم عمر، وهو عمر ذاته الذي غزا إيران. ووفر ذلك سبباً لتحويل الكره القومي لمن غزا الإمبراطورية الساسانية إلى كره عقائدي ديني - تلك العقيدة التي أصبحت خاصة بقرر: أصبح عمر هو من نزع حق على وأبناءه الحسن والحسين وحرمهم من حقهم الإلهي في خلافة الرسول، وأن عمر بفعله ذلك لم ينصع لإرادة الله، بل عاده، وأنهم لدعم إرادة الله ومشيئة، لابد من دعم حزب على... ومن داخل عداء قومي، ولدت شريعة دينية مغايرة.

كان تنظيم وتمجيد الإيرانيين للعقيدة الشيعية تعبيراً عن احتجاج صامت على غزو العرب لإيران. أدرك الآن لماذا يلعب الإيرانيون عمر بكراهة تفوق في مرارتها تلك اللعنت التي توجه إلى المغتصبين الآخرين لخلافة على... أبو بكر، وعثمان - فمن المفروض من وجهة نظر الشريعة الشيعية أن يكون أبو بكر، الخليفة الأول، المنتمى الرئيسي والمغتصب الأول، إلا أن عمر هو من غزا إيران.

كان ذلك هو السبب الكامن وراء التشدد المبالغ فيه في تيجيل علي في إيران. أصبح ذلك التيجيل الذي يصل إلى حد القداسة زمزاً للانتقام الإيراني من العرب المسلمين (مع أن الإسلام ينتهي بشدة عن تقدير البشر بما فيهم محمد). ومع أن الشريعة الشيعية والتشريع بوجه عام لم يبدأ ولم ينتهي في بداية في إيران، وهناك شيعة آخرون في بلاد إسلامية أخرى، فإن مشاعر الشيعة الآخرين خارج إيران ليست حادة مثلاً هي في إيران، حيث تسيطر كلية على مشاعرهم وخيالهم. وحين بخرج الإيرانيون مشاعرهم الدفينة ويعبرون عنها بالحاد والتواء على مصرع علي، والحسن والحسين، فإنهم لا يتوتون فقط على مصرع علي وأبنائه، بل يكون أنفسهم وضياع عظمتهم القومية التي زالت لأبد...
الإیرانیون شعب سوداوى ومكثث بالفعل. وانهکست كابتهم على برايهم وأرضهم - تلك الأصقاع المتمندة التي تبدو بلا نهاية، وعلى ممراتهم الجبلية وطرفهم المتمندة بين المدن، وعلى قراهم المنتشرة في مساحات واسعة المبنية من الطين، وعلى مشهد قطعان الأغنام التي تساق في النسيء في موجات بيئة رمادية إلى الأحمر. وعلى حياة المدن التي تتساقط القطرات الشحيحة البطيئة على الدوام، دون تقدم صناعي أو معرفى بالمح، كل شيء يبدو مغفلًا في أحلام محجبة، وكل وجه تعلوه إمارات انتظار كسائل مترئ. لا تسمع أيها أي مسيقي في الشوارع. إذا علا صوت أحد الشبابين بالغناء في حظيرة استراحة على طريق نائي، فإنه غناء يخرق الأذن بغرابة. لا يغتنى علينا إلا المنحدرون من الدراويش، هم بدورهم لا ينشدون إلا تلك الآتى الشهيرة العديدة عن على والحسن والحسين، آتى مغلفة بالدموع، يتمضى كالخمار المركز المعتق في روس المستعينين، رعب مخلوط بحزن، أو رعب الحزن، إلا أنه حزن محيب ومرغوب فيه، يغلف كل الشعب.

في أسماء الصيف في طهران، ترى الرجال والنساء جالسين بلا حركة حول مجارى المياه التي تجري في الشوارع تحت ظلال أشجار البدار الضخمة. يجلسون محملين في المياه الجارية، لا يوجه أحدهم الحديث الآخر. يستمتعون فقط إلى صوت خرير الماء في صمت لا يقطعه إلا صوت حكيف أوراق الأشجار عند هبوط النسيم. كلها أتينهم تذكرت مزمار داود:

« على ضفاف نهر بابل، جلسنا وتبكتنا...

يجلسون على ضفاف الماء مثل طيور ضخمة داكنة خرساء، شاردى الدهن في الصمت المصاحب لخرير الماء، أفكارهم متسحبة إلى بعيد مقصور عليهم، عليهم ودهم، وخصوص بهم ودهم... ماذا ينظرون؟ ولأي هدف؟ وأنشد داود:

علقتنا قيثارةتنا على أشجار الصفصاف.»

334
انهض يا زيد، هيا بنا - ووضعت رسالة على أغا في جيبى، ونهضت موجعاً الزغبي الذي هز رأسه قائلاً: لا يا أخي، اترك زيد معي، ما دمت تبخل على بحکاية ما صادفتك في الشهور الماضية، دعه يحكى لى ما صادفكم. أم تظن أن أصدقائك لم يعودوا يهتمون بما يحدث لك؟
الفصل العاشر

دجال

سريت عبر حواري ضيقة متعججة في أقدم حي من أحياء المدينة: بيوت من الحجر، يتوقف كمست각ها اللون، وشرفات معلقة فوق الحواري; مما حولها إلى ما يشبه الدهاليز الضيقة، يزداد ضيقها في بعض المواضع حتى لا تسمع بمرور شخصين متقابلين إلا بالكاد، وجدت نفسي أمام واجهة مكتبة حجرية بناها من مائة عام باحث تركي، كان الصمت العميق يسبق الفناء الخارجي الذي يلي البابون.

[1]

عبرت الفناء ذي الأرض المهدة بباحور مستوية متوازية الحجم وتبسطه شجرة ساكنة فروعها بلا حركة، دخلت القاعة السقوفة تحت جوانبها من الداخل خزائن كتب بواجهات زجاجية، يصفح خلفها آلاف من المخطوطات اليدوية، تضم أندر أنواع المخطوطات في العالم الإسلامي، كتب ومخطوطات قديمة خلقت عظيمة الحضارة الإسلامية: عظمة انقى فن وابدت مثل رياح الأمس.

حين كنت أنظر إلى الكتب والنصوص ذات الأغلفة الجلدية، كان اختلاف الحال بين مسلمي الأمس وأيام يوجعني كلمة مؤثرة ...
سمعت صوتيًا آخرني من شرودي : "ماذا يشغلك يا بنى؟ هل بناء نظرة المرارة تلك المرسومة على وجهك؟"

استدرت باتجاه الصوت - رأيت المتحدث جالسًا على بساط بين نافذتي، على ركبتيه ملحد ضخم، كان صديقي القديم، الشيخ عبد الله بن بليجيد. كانت عيناه النافذتان تحتويان بنظرة دافئة وأنا أقبل جبهته وأجلس إلى جواره. كان ابن بليجيد من أعظم علماء نجد، وبالرغم من تشدد الوهابيين وتزمتهم، إلا أنه كان واحدًا من أعظم العقول التي عرفتها في البلاد الإسلامية. كانت صديقتنا عونًا كبيرًا لي في حياتي بالجزيرة العربية وأضفت كثيرًا من البهجة والسعادة على حياتي، وكانت كُلّ مسموعة في مملكة ابن سعود أكثر من أي إنسان آخر، باستثناء الملك بالطبع. أفق اللجد الذي كان يقرأه وأدتنائي منه، وهو يطلع إلى متسائلاً في صمت.

قلت له : "كتبت أفكار يا شيخ في الدير الذي ابتعدنا فيه هذا حتى وصلنا إلى حاضرنا البائس وهو منزلة التي نحن عليها"، قلت ذلك وأنا أشير إلى الكتب. أجاب الشيخ : "نحن لا نحصص يا بنى إلا ما زعناه". كنا عظام ذات يوم : الإسلام هو ما جعلنا عظامينا كحالة رسالة، ويقرر ما أُخشننا في حمل تلك الرسالة، كانت قلوبنا ملتهمة وعقولنا مستنيرة؛ ولكن بمجرد أن تسينغ الغضب الذي كلفنا الله به من حمل الرسالة، سقطنا ... لقد ابتعدنا كثيرًا عن هذا... وأشر بدوره إلى الكتاب، لأننا ابتعدنا كثيرًا مما علمتنا إياه الرسول - علية الصلاة والسلام - من ثلاثة عشر قرني مضت.

بعد فترة صمت وتأمل سالتي : "كيف يمضي عملك؟"، كان يعلم أنتي كنت مشغولًا بدراسات مرتبطة بالتاريخ الإسلامي المبكر.

قلت له : "أعرف لك يا شيخ أنها لا تمضي على الوجه الذي أيقظه... لا أجد راحة في أمورنا ولا أرى سببًا لذلك. عدت من جديد إلى التجوال في الصحراء".

نظر إلى ابن بليجيد بعيون باستمالة - تلك العيون الحكيمة التي تنفذ إلى أعماق الأمور - ثم سبد لحيته المصبوبة بالحنين بأصابعه، وقال:

338
لم تقل عليك حقيقةً، كما أن لبدنك عليك حقيقةً ... تزوج.»

لأتذكر بالطبع أن الزواج يعد في نجد حلاً لأى نوع من أنواع الصيرفة، لذلك لم استطع أن أمنع ضحكة عالية خرجت متي: «ولكنك يا شيخ تعرف أن تزوجت منذ عامين، وولد لي ابن هذا العام.»

هذا الرجل العجوز كنت فيقول: «إذا كان قلب الرجل مسترتعاً مع زوجته، فإنه يقضي في بيته أغلب وقته، وأيضاً لتمكّن في البيت...» وعندما ذكر أن يضاهر الرجل، تفتقذ لنفسه زوجته الثانية (كان هو ذاته له ثلاث زوجات، وقيل لي: إن أصغرهن، التي تزوجها من شهرين تبلغ بالكاد السادسة عشر، مع أنه تجاوز السبعين).

استنفت الحديث متسائلاً: «كم تقول ربما لا يضاهر الرجل أن تفتقذ لنفسه زوجة ثانية، ولكن ماذا عن الأولى؟ ألم يضاهرها ذلك؟».

رد قائلاً: «يا بني، لو كانت المرأة تستحوذ على قلب زوجها كله، لن يفكر ولن يحتاج للزواج من أخرى، أما إن لم يكن جماع قلبه معها - هل يفدها أن تحتفظ بنصف قلب ونصف مشاعره؟».

لم أجد بالطبع إجابية أرد بها على ذلك. فالإسلام يوصى بالتفاهم بالزواج من واحدة، إلا أنه يسمح بالزواج من أربع زوجات في أحوال استثنائية، وقد يسأل امرئ لماذا لم يمنع الإسلام الحق نفسه للمرأة أيضًا، إلا أن الإجابة بسيطة: فيض النظر عن حقيقة الحب والعواطف الذي دخل حياة البشر على مدى تطور الجنس البشري، فإن السبب «البيولوجيا» الكامل وراء الرغبة الجنسية في كلا الجنسين هو التناسل، وبينما يكون بقدرة الاثنين أن تحمل طفلاً في المرة الواحدة من رجل واحد فقط، وتحمل الطفل في أحسائها لعدة تسع أشهر قبل أن يصبح لديها القدرة على حمل طفل آخر، نجد أن طبيعة خلق الرجل مختلفة حتى إنه من الممكن أن يهب طفلاً في كل مرة يضافع فيها امرأة. وهكذا نجد أن طبيعة الخلق لن تضيف شيئًا إذا وحب المرأة غرزة وحق تعدد الأزواج، نجد أن غرزة التعدد لدى الرجل من وجهة نظر التناسل.
م国际合作. ومن الواضح أن العنصر البيولوجي المرتبط بالملتمة البدنية وحدة.
ولا يوجد اختلاف على أنه أهم عنصر في شؤون الحب، أو عنصر أساسي وهو المحدد في شؤون مؤسسة الزواج الاجتماعية. ومع الحكمة التي تأخذ في اعتبارها الكامل الطبيعة البشرية، فقد أخذ التشريع الإسلامي في حسبانه الوظيفة الاجتماعية -
البيولوجية للمواج (والذي يشمل بالطبع العناية بالنساء)، لذلك سمح للرجل بالزواج من امرأة، بينما لم يسمح للمرأة بالزواج من أكثر من رجل، وفيما إذا كانت العناية في زوجة أخرى - لا ترد نجاحاً، وحين لا يوجد الرجل يجب زوجة من كل قبيلة ومصالحه، لا يزيد من نقصه لأسباب العناية بالنساء، فإنها الزواج من أخرى، مع موافقة الزوجة الأولى بمشاركة امرأة أخرى لها في زوجها، وإن لم توافق على ذلك، فمن حقها الحصول على طلاق ويكون لها حرية الزواج مرة أخرى من رجل آخر. على كل الأحوال - حيث إن الزواج في الإسلام ليس مقدساً، بل تعالى مدنى. فإن حق الطلاق من الطلاق دائمًا لطرفية العلاقة. ومشاعر العار التي تصاحب الطلاق بدرجة أخرى في المجتمعات غير الإسلامية غير موجودة في الإسلام (مع استثناء المسلمين الهنود)، الذين تأثروا في هذا الشأن بتواجدهم على مدى قرون في مجتمع هنودي.
يحزم الطلاق تحريمًا مطلقًا.
وفي الوقت الذي تتبع فيه الشريعة الإسلامية لكل من الرجال والنساء حريات الزواج والطلاق، فإنه يعد الزنا من أشد أنواع العقوبات الكبيرة، فمع تلك الحقوق، لا يوجد تبرير عاطفي ولا حسب لقرار كبرى الزنا. وقد كان لتخلف المسلمين على مدى قرون طويلة أثره على التخلف الاجتماعي الذي جعل من الصعب على المرأة أن تطلب بحقها في الطلاق بالحرية التي قد تقدمها التشريع؛ لذلك، لا يلزم الإسلام في عزلة المرأة على مدى قرون في مجتمعات إسلامية كثيرة، بقدر ما تلام العادات الاجتماعية المختلفة، ولا يوجد في القرآن ولا في حياة الرسول أي محايد على ممارسة المرأة لحقها في طلب الطلاق، إلا أن تلك الشوارع الاجتماعية تسرّب إلى حياة المسلمين من المجتمع البيزنطي.
кусة الشيخ ابن بليع بدء استغراقا في التفكير بفهم العرائف للنفس البشرية قائلًا:
» لا حاجة بيك إلى اتخاذ قرار متسرع. ستتخذ ذلك القرار يا بني، حين يتوجب عليك اتخاذه وتشعر بالحاجة إليه.

[2]

ساد السمات أرجاء المكتبة. كنت والشيخ ابن بليع بدء من المكتبة. سمعنا صوت الموظة يذن مصليا لمضمار من مسجد صغير قرب من المكتبة. وبعد لحظة ارتفاع الأذان من المذنب الخمس لمصرد الرسول الذي لا نزالا من موضعنا وترتفع في فخار حول القبة الخضراء للمسجد.

بدأ موزن إحدى المذنب الخمس في ترديد: اللّٰه أكبر في صوت عميق خفيف...
وقبل أن ينعي تكبيراته الأولى بدأ الموظي في المذنب القريب منها في الأذان بنغمة صوتية أعلًى قليلاً من الأول: اللّٰه أكبر، اللّٰه أكبر، بينما كان موزن الثالثة يرتفع صوته بالتكرار بتباطؤ. كان الأول قد أنتهى من التكبير، وبدأ - والآن يصاحبه التكبيرات الأولى من المذنبة الرابعة والخامسة - النداء الثاني: أشهد أن لا إله إلا اللّٰه - بينما كانت أصوات المذنبين من المذنبة الثانية ثم الثالثة تنزلق على أجنحة صوتية ناعمة.. أشهد أن محمد رسول اللّٰه - بالطريقة نفسها كان كل نداء ينكر مرتين من كل من المذنبين الخمسة، واستمر الأذان يتباطع وتداخل أصواته، حتى على الصلاة. حتى على الصلاة. بعد الفلاح، بدأ كل صوت وكأنه يوقف النداء الذي يلغي ثم يجتمع معًا بعد ذلك، ليتلاشي، ويرتفع من جديد عند موضوع آخر للمذنب آخر، وهكذا حتى نهاية الأذان: اللّٰه أكبر، اللّٰه أكبر، اللّٰه أكبر، اللّٰه أكبر، اللّٰه أكبر، اللّٰه أكبر، اللّٰه أكبر.

ذلك التحمر الصوتي الفريد بين مؤذن المذنبات، موجىهم وموجىهم من المذنب المختلفة لمثل أصواتا إنسانية فريدة. عند الأذان يخفق قلب ويفقد إلى حلق في جب

341
منير لهذه المدينة وأصوات مؤذنيها، بدأت أدرك كل تجولي لم يكن له إلا هدف واحد:
وهو أن أصل وأحقق المعنى من ذلك الأذان...
قال الشيخ ابن بليخيد: «هيا بنا إلى المسجد لنصلى المغرب».

* * *
كان مسجد الرسول قد أصبح على وضعته الحالية في منتصف القرن التاسع عشر، إلا أن بعضًا منه يعود إلى عصور أقدم - بعضه يعود إلى عصور المماليك المصرية، وأجزاء أخرى أقدم من ذلك.

كانت ساحة المسجد، التي تحتوي على قبر الرسول، تشغل المساحة نفسها التي شيدها عليها خليفة المسلمين الثالث، عثمان رضي الله عنه، في القرن السابع للميلاد. ووفق ذلك المساحة تنحني القبة الكبيرة الخضراء، مزخرفة من الداخل، وعلى آيات قرانية، وتحمل السقف صفوف عديدة من أعمدة الرخام وتقسم الساحة الداخلية تقسيماً متناسقاً ومتناضقاً، ويفتح الأرض الرخامية أبسطة نفيسة، ووفق المحاريب الثلاثة مصابيح زيتية من البرونز، وكل محراب عبارة عن تجويف حائم على باتجاه مكة: واحد منهم للإمام الذي يؤم المصلين في صلاة الجماعة، ومئات المصابيح معلقة في سلاسل نحاسية طويلة، وهي مصابيح من البالور الزجاجي، في داخل كل منها مصابح زيتية يضاء بزيت الزيتون وتنتشر كلها في الليل ضوء رقيقًا على صفوف المصلين. أثناء النهار يمتلى المسجد بنور أقرب إلى الأخضر وتجعله يشبه قاع البحرية؛ ويبعد المصلين بقدرهم القرية كأنهم يصلون في ماء، في حين يأتى صوت الإمام من أول ساحة المسجد خافتاً بلا سدى.

أما قبر الرسول فهو غير مرئي، وتخفيه سائر سمكة محاطة بأسوار برونزية أقامها في القرن الخامس عشر الميلادي السultan المملوكى المصري قايتباى. وفي الحقيقة، لا توجد مقبرة بالمعنى المفهوم للكلمة، فالنبي قد دفن في حفرة في بطن في
غرفة نفسها في المنزل البسيط الذي عاش به رسول الله ﷺ، وبذلك تم عزل المنزل عن العالم الخارجي، كان المنزل في حياة الرسول ملاصقًا للمسجد؛ وعلى مر العصور، ثم توسيع المسجد حتى شمل المنزل والمحفّز معًا.

صفوف الأبرسة تغطي الباحة الداخلية للمسجد؛ وصفوف من البشر جالسين يقرأون القرآن، أو يتحاربون، ويعضوهم صامت في انتظار إقامة صلاة المغرب. كان ابن بيلحيد مستغرقًا تمامًا في صلاة صامتة.

من على بعد، بالقرب من الحرم، ارتفع صوت قارئ يتنوّع آيات القرآن كما يحدث دائمًا قبل صلاة المغرب. كان يندل في ذلك اليوم "سورة الفلق"، وهي أول ما نزل على محمد من القرآن - والتي تبدأ بأبيات: "آوْرَا بِبَاسِمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" يتلك الكلمات نزل وحى الله لأول مرة على محمد في غار حراء بالقرب من مكة.

كان محمد يتعبد وحيدًا، كما اعتقد أن يفعل، يصلى للحقيقة بقلبه، حين ظهر له فجأة ملك. أمره قائلًا: "اقرأ". كان محمد شاهد أن أهل عصره وموطنه لم يتعلّم أبدًا القراءة، وفضلًا عن ذلك، لم يعرف ما الذي يريده الملك أن يقرأ، أجابه في روع: "ما أنا بقارئ". حينئذ، ضمه الملك ضمة قوية شعر محمد معها أنه فقد قواه؛ ثم أطلقه الملك وأعاد عليه الأمر: "اقرأ". ومرة ثانية يجيبه محمد: "ما أنا بقارئ". فضمه الملك ضمة أخرى حتى خارط قواه وظن أنه ملاق حتقه؛ ثم أطلقه، ومرة ثالثة يأتيه الأمر كالرعد: "اقرأ". وحين أجابه محمد للمرة الثالثة:

في روع: "ما أنا بقارئ"، قال الملك:

"آوْرَا بِبَاسِمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" خلق الإنسان من علق، آوْرَا وربك الأكرم

الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم."

وهكذا، بإشارة ضمنية من القرآن إلى وحي البشر وفكركهم ومعرفتهم، بدأ نزول القرآن على محمد، واستمر نزوله على مدى ثلاثة وعشرين عامًا، حتى توفي الرسول في المدينة في سن الثالثة والأربعين.
إن قصة تجربته الأولى مع تجلٍّ الملائك له، تنكر المرء بشكل ما، بمسارعة يعقب ملك الرعب كما جاء في سفر التكوين من التوراة. ولكن بينما قام بعقب الملائكة واشتكبه معه في صراع، أسلم محمد نفسه لضمن الملائل له في خشية ورهبة وفزع حتى «خارت قوته». ولم تتبق فيه قدرة إلا على سماع صوت لا يستطيع معه أن يحدث إن كان الصوت يأتي من خارجه أم من داخله. لم يكن يعلم أن عينه من تلك اللحظات أن يكون ممتلئًا وخلاياً في الآن نفسه: ممتلئ كءشر، فالبشر تماهم الاحتياجات والرغبات البشرية والوعي بحياتهم ذاتهم، وفي الآن نفسه أداء خالقة متقلبة لتعاليم الرسالة من الوحي. لقد تجلت أمامه الحقائق غير المرئية للحقيقة الأزلية: الحقيقة التي تضفي وحدها قيمة ومعنى على كل المدرك وكل الحادث في الوجود.
طلب منه الملائل أن يقرأ» ما يدرك منها على كل البشر، فقد يعلم منها الإنسان مالم يعلم»، وما لا يمكن أن يعرفه بذاته.
ارتع محمد من المضامين العظيمة التي تضمنتها تلك الرؤية في أول أيام نزالت عليه، كان مثله مثل موسي أمام العليقة المشتهلة في البريء، يشعر أنه دون ما يطلب منه وأنه لا يستحق وضمه النبوة السماء ويرتعد أمام فكرة أن الله اختاره هو دون غيره من البشر. وقيل: إنه عاد مرتقًا إلى مكان، ودخل بيته وهو ينادي زوجه خديجة قائلاً وهو يتردد: «زميلتي، زميلتي!» كان يريد مثل غصن شجرة في مهب الريح. فشادته بذكر، حتى سكن روعه. ثم أخبرها بما وقع له، وقال: «أنا خائف»، إلا أن خديجة توضو رؤيتها الذي لا ينتج إلا عن حب. أدركت على الفوت أن خائف من عظم المسؤولية التي ألقته على عاتقه؛ وقالت له مطمئنة لخفته: «أبكي، فوالله لا يخزرك الله أبداً»، وأدركته كذب الرحمن، ومصدق الحديث، وتزود الأمانة، وتحمل الكُل، وتقرير الضيف، وتَعين على نواب الحق». ثم انطلقت به إلى ورقة وهو ابن عم لخديجة كان يدين بالسحرة، وكان يقرأ الكتاب المقدس بالعبرية؛ كان ورقة بن نافع في ذلك الوقت رجلاً مسئًا. وكان بصبره قد كفَّر.
قالت خديجة لورقة: «اسمع من ابن أخيك»، وحين أعاد عليه محمد ما وقع له.
رفع ورقة ذراعيه في ورع وخشية وقال له : « هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران ، ليتني فيها جذع ! ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك ! » ، سأله محمد في دهشة : « أمخرجهم هم ؟ » قال ورقة : « نعم ، إنه لم يجي رجل قط بما جئت به إلا عودى ».

وبالفعل ، عاداه قومه على مدى ثلاثة عشر عامًا ، حتى هجر مكة إلى المدينة كان أهل مكة غلاب الأكباد قساة القلوب.

* * *

وعلي أي حال ، هل من العسير أن نتخيل قسوة القلب التي أظهرها أهل مكة حين أنباههم محمد بدعوته أول مرة ؟ كانوا مجردين من أي دواعي روحية ولا يعرفون إلا التواضع الماديه والعسية : لم يؤمنوا إلا بأن الحياة الأفضل لا تتحقق إلا بكسب المال والمزيد من المال . مثل أولئك الناس تتبدو فكرة تسليم أنفسهم بلا مساومة إلى دعوة أخلاقية ودينية - كلمة الإسلام تعني حرفيًا الاستسلام والتسليم إرادة الله - دعوة مستحيله لا يمكن قبولها . عدا ذلك ، كانت دعوة موسى تهديدًا مباشرًا للنظام القائم وتطهير القبائل وترتب السلطة ، وكان كل ذلك عزيزًا على أهل مكة . وحين بدأ الدعوة إلى التوحيد وأعلن أن عبادة الأصنام إثم عظيم ، فإنهم لم يروا في ذلك تهجماً فقط على معتقداتهم الموروثة عن أجدادهم وأجدادهم ، بل رأوا فيها محاولة لتدمر نظامهم الاجتماعي . على وجه الخصوص ، لم يعجبهم ولم يرضهم تدخل الإسلام في شؤونهم « الدينية » التي اعتبروها أنها خارج نطاق الدين والعبادات - مثل الشؤون الاقتصادية ، والمساواة بين البشر ، والسلوك الاجتماعي العام - وكان تدخل الدين الجديد في تلك الجوانب لا يتفق مع مصالحهم الماديه ، وتنسق حياتهم كما يعيشونه ، ومصالح قبائليهم . بالنسبة لهم ، كانت العقيدة جانبيًا شخصيًا - مسألة موقف فرد أكثر من كونها سلوك اجتماعي .

345
كان ما يرونه على التقيض تمامًا لما دعى إليه النبي العربي من إيمان. كانت دعوته تشمل الممارسات الاجتماعية والمؤسسات الاجتماعية والسلوكيات الاجتماعية، وكانت تصيبه الدهشة حين يقولون له إن الدين ليس إلا وعياً شخصيًا فقط ولا دخل له بالسلوك الاجتماعي. كان ذلك الجانب من دعوته ما كان مكروهاً لهم أكثر من أي جانب عداه. ولما تتداخل العقيدة التي يدعو إليها محمد في الجوانب الاجتماعية، ربما كانت عداوته ورفضهم للدعوة أقل حدة.

بلا شك تضافوا من الدعوة إلى الإسلام لأن مضامينه الدينية كانت تتناقض ومعتقداتهم البدنية؛ إلا أنه كان من الممكن لهم أن يؤمنوا بها بعد بعض المقاومة وبعض التدبر تتجاوز كما استسلموا وتوافدوا مع الدعوات الفردية لاعتناق المسيحية قبل ذلك - إذا كان الرسول قد أتبع نمط التبشير الصحيح وكرس نفسه فقط لدعوة الناس إلى عبادة الله، وإلى الصلاة له من أجل خلاص نفوسهم، وأن يسلكو سلوكًا حسناً في أمرهم الشخصية، إلا أنه لم يتبع النمط الصحيح، ولم تقتصر دعوته على الإيمان بالله، ولا القيم والمصطلحات الفردية، كيف يرجو؟

إن ربه يأمره أن يقول في صلاه: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة»، لقد سبقت آتنا في الدنيا حسنة، ثم تبعتها «وفي الآخرة حسنة»، وذلك لأن الحاضر يسبق المستقبل، وثانيًا، لأن الإنسان مكون من مركبات تتطلب الإشراك في الدنيا قبل أن يكون لديه قدرة على التطلع إلى نداء الروحانية وآخر الآخرة. لم تكن دعوة محمد تدعو إلى جوانب روحية منفصلة ومستقلة عن حياة البشر المادية الدنياية؛ كانت الدعوة تتركز كلياً على مفهوم: أن الروح والبدن ليسا إلا وجهان للوجود البشري، لم تقتصر دعوة محمد على الاهتمام بالجانب الروحي وحده لدى أفراد منفصلين، وكانت دعوته تهدف إلى منهج اجتماعي يضم لكل فرد من أفراد المجتمع الإسلامي أكبر قدر من الإشباع البدني والمادي، وبذلك يوفر له أسباب النمو والتطور الروحي.
بُدأ يدعو الناس إلى أن أعمالهم جزء من الإيمان: فالله لا يأمر البشر بالإيمان فقط ولكن يأمرهم أيضًا بالعمل الطيب. ودعا بقوة إلى مساندة الضعيف إذا تعرض لظلم من هو أقوى منه. ودعا إلى ما لم يسمع به أهل مكة من قبل من أن المرأة والرجل متساويان أمام الله، وأنهما مكلفان بالتساوي؛ ومضى إلى ما هو أبعد من ذلك حين أعلن - وهو ما أرعه كل كفار مكة - أنى للمرأة حقوق، لا بانتسابها للرجل كام أو أخت أو زوجة أو ابنة، بل كي يكون إنسان مستقل بذمته المالية، أي أن تكون لها ملكيتها الخاصة، وأن تقوم بالأعمال المالية والتجارية بنفسها ولنفسها، وأن تكون مسئولة عن نفسها في أمور زواجه، وأمان البيض والخمور وحرمها، لأنهما كما ذكر القرآن: "رجس من عمل الشيطان".

ونهي الإسلام عن استعباد بشر ليشر، ونهي عن الري، والاحتكار والمزدحية باحتياجات الناس الأساسية - وهو ما يسمى في عالمنا المعاصر "المضاربة". كما نهى عن الحكم بصحة السلوكيات أو خططها متاثرين بمنزلة الفرد من قبيلة أو أمة، ودعا إلى أن الشرعية الوحيدة - المقبولة أخلاقيًا - تهدف إلى مصلحة الجماعة التي تسبق مصلحة الفرد، وأنها لا تتحقق إلا بحرية البشر وقبولهم المشترك والواعي للهدف من الحياة المعتمد على مقاييس أخلاقية.

لذلك أصر النبي على إعادة النظر في كل المفاهيم الاجتماعية والتي كانت حتى ذلك الوقت ميتة وفوق أي مراجعة، وهكذا، كما نقول في عصرنا "أتدخل الدين في السياسة"، وقد كان ذلك توجهاً ثورياً في ذلك الوقت.

كان مشتركًا مكة، شأنهم شأن البشر في كل مكان وزمان، على إنتاج تام بأن ما تشارؤ عليه من نظم اجتماعية وعادات فكرية وسلوكيات في الأصل. لذلك كان طبيعيًا أن يرفضوا تدخل الدين الجديد في نظم العلاقات القائمة، أو رفضوا أن يكون الروي والإيمان بوحدانية الله مرتبطة بتغيير اجتماعي جذري، فاتهموا دعوته بأنها غير أخلاقية، وتحريضية، و"تتناقض كل أعراف الملكة السائدة". وحين تأكد لهم أنه ليس مجرد حالم بل يعرف كيف يلهم الناس، لجأوا إلى مواجهته بالعنف وراحوا يؤدونه وآتباعه ما وجدوا إلى ذلك سيبلًا...
بطرق أخرى، تحدى كل الأنبياء «القيم الراشدة» التي كانت سائدة في عصورهم لذلك تجد أنهم قد سخر منهم جميعًا واضطهدوا من أقوامهم - وآخرون وخارتهم محمد، ما زال يسخر منه في الغرب حتى اليوم.

[33]

بمجرد الانتهاء من صلاته المغرب، أهات البدو بالشيخ ابن بيليعيد، كانوا من بدو نجد وأبناء المدن الراغبين في الاستفادة من علمه وحكمته، بينما كان يجب أن يستمع إلى تجارب الناس وما يواجهونه من مشاكل وما يروتين في أسفارهم البعيدة. لم يكن السفر إلى مناطق بعيدة بمستغب على أهل نجد، بل كان عادة من عاداتهم حتى إنهم يطلقون على أنفسهم «أهل الشداد» أي أهل سروج الجمال - وسرج الجمال كثيرين منهم ألف من الفراش - ولابد أن سرج الجمال كان أكثر ألفًا لذلك الشاب من قبيلة حرب الذي كان قد انتهى بالكاد من حكايته ما صادفته بالعراق، حيث رأى لأول مرة «الفرنجة» من الأوروبيين، ويدعون بذلك الاسم إلى الفراعث الذين عرفهم العرب أثناء الحروب الصليبية.

سأله الشاب: «قل لي يا شيخ، لماذا يضع الفرنجة قبعات على رؤوسهم تطلل أعينهم؟ كيف يمكن أن يروا السماء؟.»

أجاب الشيخ وهو يغمز لبعينه: «لأنها أخرى ما يعودون رؤيته، ربما يخشون أن تذكرهم السماء بالله، وهم لا يريدون أن يتذكرون خلال أيام الأسبوع، ويتذكرون في آخره فقط.»

ضحكتنا جموعًا، إلا أن البدو الشاب كان مصراً في بحثه عن المعرفة فسال من جديد: «ولذا يكون الله كريمًا معهم كل هذا الكرم ويهبهم كل هذه الثروات ويضن بها على المؤمنين؟.»

348
رد الشيخ بليهيد: «أه، الأمر سهل يا بنى، إنهم يعبدون الذهب، ولذلك فإلمهم جميعهم - ولكن صديقى هنا - ووضع يده على ركبتي «يعلم عنهم أكثر مما أعلم فقد أتى من بينهم، وأخرج الله - جلت قدرته - من ذلك الظلم إلى نور الإسلام».

التفت إلى البدو الفجوف بالعرفة وسلماني: «هل ذلك صحيح يا أخى، هل كنت من الفرنجة؟»، وفيه هزته رأسه بالإيجاب، وردائه يهمس قائلاً: «تبارك الله، تبارك الله الذي يهدى من يشاء... قال لي يا أخى، لماذا لا يهم الفرنجة بذكر الله؟».

أجابه: «تلك قصة طويلة، لا يمكن شرحها بكلمات قليلة. كل ما أستطيع أن أقوله لك بإيجاز أن عالم الفرخجة أصبح عالم النجوم، المخادع، المبهمر، هل سمعت حديث النبي عن أنه في آخر الزمان سيتبع أكثر الناس المجال، منتقدين إنه الله».

وبينما كان يستطلع إلى التساؤل على وجهه، رويت له، بعد أن رأيت علامات الاستحسان على وجه الشيخ ابن بليهيد، نبأ النبي عن ظهور ذلك المخلوق الفاقم، «النجل»، والذي سيأتي بينين واحدة، ولكنه وهي قوة خاصة اختصه الله بها، حتى إنه سيمر بعينه الواحدة كل ما يحدث وما يجري مما يبدو موضعه، ويعمل بذاته أي حدث مما بعد في أركان الأرض القصبة، ويعمل بإمكاناته الطيران والتحليق حول الأرض، وسيكشف عن كنوز من الذهب والفضة من تحت أعماق الأرض، وسسيقق الفي، وجعل النبات ينصر سريعاً بأمر منه، سيُبيت ويحبى حتى إن كل ضعيفي الإنسان سيتوددون أنه الله ويسجدون أمامه ويعبدونه. لا يعرفه إلا المؤمنون أقوياء الإنسان ويتمرون من قراءة ما كتب على جبهته بحرف من ثان: «كافر بالله»، سيعرف أولئك فقط أنه مخادع، وقد جاء ليختبر قوة إيمانهم بالله».

مخاطراتها العلمية العجيبة تمكن الإنسان من أن يسمع ويرى ما في آخر الأرض بما يُفوق قدرته المباشرة على الرؤية والسمع، ويفتقد مساحات شاسعة من الأرض في زمن بسيط وسرعة كبيرة، ويعارف الحضارة الغربية المعاصرة "تسقط الأمطار وتتمو النباتات أسرع من معدلاتها العادية"، كما تكشف عن الثروات الخفية بباطن الأرض، ومقاييسها الطبية تشفي من أشرف على الهلاك، بينما تدمر المحروبة والجوانب العلمية المرعبة الحياة على الأرض، ويبقى قوتها ما تشكل إغراءً، وبريًا حتى إن ضعيف الإنسان يعتقد أنها القوة الحقيقية في الوجود أو أنها الله. إلا أن من ظلوا على إيمانهم بخالقهم يرغبون بوضوح أنهم إن عبدوا "الدجال" فإنهم في الوقت ذاته ينكرون وجود الله الخالق الواحد...»

صاحب الشيخ ابن بيلعيد: "أصبت يا محمد، أصبت" قال ذلك، وهو يدق براحة يده على ركبتي في حمص: "لم ترد إلى ذهني مثل تلك الرؤية للدلائل: إلا أنك مُحق، فبدلاً من أن يوقن البشر أن تقدمهم وتقدم العلم هبة من الله، راحوا يعتقدون بشكل متزايد في حماقة، أن ذلك التقدم غاية في ذاته، وأنه يستحق العبادة.

* * *

فعلًا، فكرت بيني وبين نفسى - سخر الإنسان الغربي نفسه لعبادة "الدجال". لقد فقد من زمن طويل كل براءة وفطرة وكل تكامل داخلي مع الطبيعة، أصبحت الحياة غزراً أمامه، أصبح متشكلًا، وبذلك عزل نفسه عن مجتمعه من البشر وأصبح يعيش في عزلة داخلية، وحتى لا يفيض في تلك الوحدة، فإنه يسعى إلى قهر الحياة والتغلب عليها بوسائل خارجة عن فطرته. لم تعد حقيقة أنه حي تهبه أمانًا داخليًا، لا بد أن يصارع على الدوام من أجل مزيد من الحياة، بمعاناة وكذبر، من لحظة إلى لحظة من أجل مزيد من الحياة كانتها غاية في ذاتها. ولأنه فقد كل تكيف روحي لما
فوق المادة، قرر أن يحيا بلا بُعد روحى، ودفعه ذلك إلى اختراع وسائل آلية ميكانيكية تكون حليفة له وناشئه الميل المحموم البائس إلى التقنية والمتمكن من قوانينها ووسائطها. راح يخترع كل يوم آلات جديدة، ومضيف على كل منها بعضًا من روحي وبدعها تقاتل بدلاً منه ليستمر وجوده زمنًا أطول. إنهم يفعلون ذلك! إلا أن ذلك يخلق لهم على الدوام الاحتياجات الجديدة، ومخاطر جديدة، ومخاوف أكثر تدفعه إلى اختراع حلفاء جديد مصنوعة في عشة لا يرتد أبدًا. لقد فقد جانبه الروحي في العجائب الدائرية للآلات المتزنة، وفقدت الآلات الهدف الرئيس منها - أن تكون حامية ومخصصة للحياة الإنسانية - وتحول إلى آلهة بذاتها، آلهة مفترسة من الصلب، ويبدو أن منباشرا ودعاء ذلك الإله لا يرتؤى لا يعون أن سرعة تطور التقنية الحديثة ليست فقط نتيجة لنمو العقل، بل نتيجة للبأس الروحي، وأن تلك المنجزات العظمى التي يعتقد أنها يقهر بها الطبيعة ليست في حقيقتها إلا ميل دفاعي: فخاف واجهاتها البراقة يكمن الخيف من المجهول.

فشل الحضارة الغربية في تحقيق توازن متآلف بين حجاج الإنسان الدنيوي وتطعيمه الروحي. ألف الغرب القيم الروحية الأخلاقية السابقة دون أن يكون قادرًا على تقديم أي تسوية أخلاقى وروحي آخر. أخفى كل شيء للسبيبية العقلية. وبالرغم من كل التقدم في مجال التعليم، لم تقدر الحضارة الغربية على الكبح ميل الإنسان الأحمق في السقوط فرسية للشعارات والنظريات الاقتصادية، مما كان يبشرها التي يعتقد الديماغوجيون الفوضويون أنها ملهمة. ولتبنت الحضارة الغربية مفهوم تقنية وتنظيم الفكر الروحى - إلا أن أمم الغرب تظهر على الدوام على عجزها عن السيطرة على القوى التي أطلق علماً عقولها، ووصلوا إلى مرحلة أصبحت فيها القوة العلمية المطلقة، ماضية يداً مع الفوضى العالمية المتزايدة. ومع غياب أي قيم دينية وروحية، أصبح المواطنين الغربي غير مستفيد أخلاقيًا وروحياً من نور المعرفة الهائل التي يطرحه العلم، ولذلك ينطق عليهم ما ذكره القرآن:

«فمثَّلَهُمُ الكَتَبُ الَّذِي أَعْلَاهُ اعْلَاً أُذْهَبَتْ مَا حَوَّلَهُ ذَهَبْتُ بِنَوْمِهِمْ وَتَرَكْهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُضَىِّعُونَ (٦٦) صَمَّمْتُ عِنْي فَهُمْ لَا يُرَجُونَ» (صدق الله العظيم)
إلا أنهم في عجزة عمائمهم، يعتقدون عن افتتاح أن حضارتهم هي التي ستنهى العالم وتحقق له السعادة ... في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فكرنا في ترويج الدين السيخي في جميع أنحاء العالم؛ إلا أن حماسهم الدينية قد فقد حتى إنهم أصبحوا بعد ذلك يعتبرون الدين موسكي خلفية ملطفة في حياة البشر. يسمح له بمساحة الحياة لا التأثير فيها في سعيه للحياة "الحققة" - وبدأ يتزوجون بدلاً من الدين، التعامل المماثل لتمثيل "الحياة الغربية"، وهو الإيمان بأن كل المشاكل البشرية يمكن حلها في المصانع والمعامل وعلى مكاتب المحللين الاقتصاديين والإحصائيين، وكذلك كيف تتحقق نهاية "الجالس" ...

[4]

ساد الصمت لفترة طويلة. ثم تحدث الشيخ من جديد: "هل كان تحقق من معرفة الجالس هو ما دفعك إلى اعتناق الإسلام يا بني؟".

قلت: "بشكل ما كان كذلك على ما أظن؛ إلا أن ذلك كان الخطوة الأخيرة"، قال:

"نعم، الخطوة الأخيرة، لقد إخبرتني ذات مرة بقصة إيمانك بالإسلام، ولكن متي وكيف أشرك في ذلك لأول مرة أن الإسلام هو هدفك ومبتعتك؟".

قلت: متي؟ دعني أتذكر ... أظن أن ذلك كان في يوم شتوى في أفغانستان حين فقد جواوي حدوة، وبحث عن حداد في قرية تبعد عن الطريق الذي كنت نسير عليه؛ في تلك القرية قال لي رجل: "ولك مسلم، أنت فقط لا تعرف ذلك". كان ذلك قبل إسلامي بمئات من أشهر. كنت في ذلك الوقت في طريقي من مدينة "حيرات" إلى مدينة "كابول" ...

* * *

كنت في طريقي من مدينة "حيرات" إلى مدينة "كابول"، كنت على جيادنا، أنا، وإبراهيم الفتى، وأحد الجنود الأفغان، كنت نقطع وقتنا سهول وممرات منطقة...
هنيو - كوش المغطاة بالجلد في وسط أفغانستان. كان الجو شديد البرودة والجليد الأبيض يغطي كل الجهات وتنهض في كل الجبال شاهقة الارتفاع، جبال سوداء وأخرى بيضاء من تراك الجليد عليها.

كانت في ذلك اليوم أشعر بالأسى والسعادة في أن شعرت بالأسى لانفصال الناس الذي عشت بينهم، بسوار حجاب سميك داكنة عن نور العقل والقوة والتمايل الذي يمكن أن يوفره لهم إيمانهم بالإسلام، وكنت سعيدًا لاقترابي من نور ذلك الإيمان، الذي رأيته قريبًا مني ومن فكرني وأراؤه كما أرى تلك الجبال السوداء والبيضاء - كان قريبًا مني حتى أكاد أمسكك بديدي.

بدأ الجواد يعرج وظهر صوت رنين عند حافرة: كانت حدوة أحد حوافره تشك على السقوط ولم تعد مثبتة إلا بمسمارين فقط.

سائت مرافقنا الأفغاني: هل توجد قرية قريبة يمكن أن نجد بها حدادًا؟ أجاب: "قرية دح - زانجي على مسافة فرسخ من هنا، بها حدادًا، وحكيم (حاكم) حزارات يله حصن بها.

وهكذا، توجهنا إلى دح - زانجي فوق جليد ناصع البياض، سرتنا ببطء حتى لا أقوى الجواد.

كان الحكيم، أو حاكم الإقليم، رجلاً شاباً قصير القامة بوجه مرح، كان ودودًا وأسعده أن يكون لديه ضيف أجنبي، فقد كان يشعر بالوحدة في حصته المتطوع.

وبالرغم من أنه كانت تربطه علاقة قرابة وثيقة بالملك أمان الله، ملك أفغانستان في ذلك الوقت، إلا أنه كان من أكثر من قابله تواضعًا في كل أفغانستان، وأصر على إضافتى يومين.

في مساء اليوم الثاني جلسنا حول غذاء حليب وفحم كالمعتاد. بعد الغداء، قام رجل من القرية بالترفيه علينا بفتحة محلية غناها بمصاحبة عزف على عود بثلاثة أوتار.
غنى بلغة الباشتو - وهي لغة لم أفهم منها شيئًا - إلا أن بعض الكلمات الفارسية كانت تنتشر بين كلمات الأغاني بحريئة. وكانت الغرفة دافئة أرضها مغطاة بالросول وتتشر برد ثلجي يأتي من الفنادقة. غنى على ما أنكر عن معركة داوود وجوالات - عن الإيمان حين يواجه قوج خامسة - وبالرغم من عدم تمكنى من متابعة كلمات الأغنية، إلا أن مفهومها كان واضحًا في ذهنى، بدت الأغنية هادئة متفاوضًا، ثم ازداد وقعتها في صعود انفعالى عنيف حتى وصلت إلى صيحة النهاية العالية المتصورة.

حين انتهت الأنشودة على الحاكم قائلاً: "كان داوود صغيرًا"، إلا أن إيمانه كان كبيرًا. "فلم أمتلك نفسى وقلت باندفاع: "أنت كثيرون ويهودكم قليل". نظر إلى مضيقين مدهشين. خجلت مما قلت دون أن أمتلك نفسى، وبدأت بسرعة في توضيح ما قلت. واتخذ تفسيرًا شكل آلة مشاركة كسيف جارف. قلت: "كيف حدث أنكم معظم المسلمين فقدتم الثقة بأنفسكم. تلك الثقة التي مكتشف من نشر عقيدتم في أقل من مائة عام، من الجزيرة العربية إتجاه الغرب حتى المحيط الأطلسي، وإلى الشرق حتى أعماق الصين، والآن مستسلمين بكل سهولة وكلاً ضعف إلى أفكار وعادات الغرب؟ أضاء أجدادكم العالم بالعلوم والمعرفة والفنون، فيما كانت أوروبا تائهة في بربرية وجهل. لماذا لا تقدمون على استعمال قواكم وشجاعتكم وتستعيدوا إيمانكم الفعال؟ وكيف يصبح أثاثرك، ذلك التثبيك التالف الذي ينكر كل قيمة الإسلام، رمزًا لكم في الإحياء والنهوض والإصلاح؟":

ظل مضيفي صامتًا دون أن يفوه بكلمة. كان الجليد قد بدأ في التساقط من الخارج. وشعرت مرة أخرى بموجة مختلطة من الآسيى مع تلك السعادة الداخلية مثل تلك التي شعرت بها ونحن نقترب من دخ - زانجي. أحسست بالعظمة التي كانت عليها تلك الأمة، وبالخزى الذي يلف ورثتها المعاصرين.

اردت مكملًا سيل أستلمي: "قل لي، كيف دفن علماؤكم الذين الإيمان الذين أتى به نبيكم بكل صفاته ونقائه، تحت ركام من المناقبات العقيلة لتوافه الأمور؟"
وكيف حدث أن نيلحكم وكبار ملاك أراضيكم يغرقون في الثروة والغني والنعم، بينما يغرق أعظم المسلمين في الفقر والقدرة والصمم - مع أن نبيكم علمنا أن: لا يؤمن أحدكم إن شبع وجاءه جائع؟ هل يمكن أن تفسر لك كيف دفعتهم النساء إلى هامش الحياة - مع أن النساء في عصر الرسول والصحابة ساهمن في كل شئون حياة أزواجهن؟ وكيف أصبت أغلبيتكم جاهلية وأمية، وأقليتكم من يعرفون القراءة والكتابة؟ بالرغم من أن نبيكم أعلن: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

كان ضيفي مازال يحمل في دوّن كلمة، وبدأت أعتقد أن انفعذري ربما سيبه ضيفاً. كان الرجل صاحب العود والذي لا يعرف الفارسية ينظر مشدووًا لذلك الأجنبي الذي يتحدث بتلك الحدة وذلك الحماس إلى الحاكم. في النهاية جذب الحاكم ثوبه الأصغر الواسع وأحكمه حول جسمه، كما لو كان يشعر بالبرد: ثم همس:

«ولكن ... أنت مسلم.»

ضحكت وأجبته: «كلا، أنت مسلمًا، ولكن رأيت الجوائز العظيمة في رسالة الإسلام مما يجعلني أشعر بالغضب وانا أراكم تضيعونه ... سامحتي إن كنت تجدرت بحدة. أنا لست عدوًا على أي حال.»

إلا أن ضيوفًا هزّ رأسه: «كلا، أنت كما قلت لك: أنت مسلم، إلا أنك لا تعلم ذلك ... لمأكل الآن وهذا أن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله - وتصبح مسلمًا بالفعل بدلاً من أن تكون مسلمًا في قلبك فقط؟ قلها يا أخى، قلها الآن، وسأذهب ملعّنًا إلى كابول وأصحبه إلى الأمير، سيستطبقك باذره وأحضان مفتوحة كأحد منا. وسيهبك بيتنا ويسئاننا وماشية، سنحبك جميعًا، قلها يا أخى ...»

قلت له: «لو قلتها في أي وقت، فسأقولها حين يستقر فكري عليها وأستريح لها، لا من أجل منازل الأمير ويسائته». استمر إصرار الحاكم: «ولكنك تعرف عن الإسلام أكثر مما يعرف أي منا، فما الذي لم تعرفه أو تفهمه بعد؟»
قلت له: «الامر ليس مسألة فهم، بل أن أكون مقتناً، وأن أقنع أن القرآن هو كلمة الله، وأنه ليس ابتداع ذكي لعقلية بشرية عظيمة».

ولم تصح كلمات صديقي الأفغاني من ذهنى على مدى شهر طويلة بعدها. من كابول تجولت في أفغانستان على مدى أسابيع، عبر مدينة «غازي» القديمة، والتي انطلق منها من ألف عام مضت الغازى العظيم محمود في غزواته للهند، ثم عبر قندھار التي تميز أهلها بائهم أصلب وأشد المقاتلين؛ ثم عبر صحراء أفغانستان الجنوبية الغربية، ثم عدت إلى مدينة «حيرات»، نقطة بداية جوتي الأفغانية.

كان ذلك عام 1926، وقريب نهاية الشتاء غادرت «حيرات» في طريقي عبر رحلة طويلة للعودة إلى موطنى في أوروبا. ركبت القطار من حدود أفغانستان إلى مدينة مارف في تركستان السوفيتية إلى سمرقند وبخارى وطشقند، ثم عبرت أصفاخ تركمان إلى جبال الأرال ثم إلى موسكو.

بدأ انطباعى الأول (والذي استمر بعد ذلك) عن روسيا السوفيتية في محطة قطار مارف في تركستان السوفيتية، كان بالحطة ملصق كبير ضخم يصور أحد أفراد «البلوريتاريا» (3) الشباب يرتدى زي العمال الأزرق ويركل رجلًا مصنًا بلحية بيضاء يرتدى ثوبًا فضفاضًا ويخرجه من بين سحب السماء، ومكتوب تحت اللصق:

«هكذا أطاح عمال الاتحاد السوفيتي بالله في سماواته» والتوقيع: «اتحاد بوزبيزينكي» (وتعني اتحاد الملاحة) في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية».

كانت الدعاية الرسمية الملحدة تفرض نفسها في كل مكان: في المبانى العامة وفي الشوارع، وكانت الأسماكن المثالية المفضلة للكل المقصات بجوار دور العبادة، وفي (4) الطبقة العاملة (الترجم).
تركستان كانت المسجد الإسلامية هي المستهدفة. ففي حين لم تكن صلاة الجماعة
ممنوحة بقرار رمسي، إلا أن السلطات كانت تقوم بكل ما من شأنه إعاقة الناس
عن الصلاة. وقيل لى في أكثر من مناسبة، خاصة في بخارى وطشقند: إن
جواويس السلطة تسجلن أسماء كل من يتوجه إلى أي مسجد لأداء الصلاة
وجمعت السلطات نسخ القرآن وأخفوها وألقوها في الزرائب ومزقوها. وكانت الوسيلة
المفضلة لشباب الملاحدة إلقاء روس خنازير في ساحت المساجد.

عبرت حدود بولندا حتى آخر حدود الاتحاد السوفيتي بمشاعر عميقة من الارتياح
بعد أسابيع قضيتها في عبر المناطق الآسيوية والأوروبية لروسيا السوفييتية. توجهت
رأسًا إلى فرانكفورت وذهبت في الحال إلى مقر الصحيفة التي أصبح أكثر ألفة إلى
عرفت أن اسمها أصبح من الأسماء المعروفة في فترة سفرى الأخير، وأنتى أصبحت
واحدًا من أشهر مراسلي صحف وسط أوروبا.

بعض مقالاتي خاصة تلك المقالات التي تنادت التركيبة النفسية شديدة التعقيد
للمجتمعين جذبت اهتمام كثير من المستشرقين البازتين وقبي ما يفوق الاعتراف
بأهميتها. واتلقت دعوة إلقاء سلسلة محاضرات في أكاديمية الجغرافيا السياسية
في باريس - وقيل لى: إنه لم يحدث من قبل أن رجلاً في مثل عمرى ( لم أكن قد
جاوزت بعد السادسة والعشرين ) قد حقق ذلك التميز. وأعيد نشر مقالتي الأخرى
في صحف كثيرة بالتفاقي مع فرانكفورت نيتونيج؛ حتى إن واحدة من تلك
المقالات نشرت في ثلاثين مطبعة مختلفة. وبوجه عام، كانت جولتي الإيرانية
مثيرة جداً...

* * *

خلال وجودي تلك المرة في أوروبا تزوجت إلزا. لم تضعف حبنا الفترة التي
ابتعدتها عن أوروبا على مدى عامين، وجدت أن حبنا قد ازداد أكثر واستطعت أن
أنزع من فكرها مشكلة فارق السن بيننا.

357
احتفلت في البداية قائلة: كيف يمكن أن نتروج؟ أنك لم تكمل السادسة والعشرين، وأنك تخطفت الأربعين. فكر في هذا: حين تكون في الثلاثين، ساكون أنا في الخامسة والأربعين، حين تكون في الأربعين، ساكون أنا عجوز شمطاء ...

ضحكت وقتل لها: لا يهم، لا أتخيل أي مستقبل بذوك.

واستسلمت في النهاية.

لم أكن مبالية حين قلت لها إنني لا أتخيل أي مستقبل بدونها. كان جمالها وعطفها ونقاهتها الغريزية يجعلها تبدو لي شديدة الجاذبية حتى إنني لم أكن أرى أي امرأة غيرها. وكان حسن فهمها لما أريد من الحياة، كأنما ورتلعتها أنشد صلاة، وأقرب إلى التحقيق.

في واحدة من المناسبات، وأنا بعد أسبوع تقريبا من زواجهما، قالت: ما أغريك دون كل الناس، تستنكر الغموض وتترفض في كل دين. مع أنك أنت نفسك غامض، تصل وتتواصل مع الحياة من حولك بطرازات أناملك وترى في الأمور اليومية العادية أمراً عالياً من الفهم والتعقيد فيما يبدو للفكر الآخرين أموراً عادية.

ولكن في اللحظة التي تحدث فيها عن الدين، تتحول إلى عقلاني تماماً. الأمر عكس ذلك عند كل الناس...

غير أن إذا لم تكن مدهشة بالفعل، فقد كانت تعلم ما أبحث عنه حين كنت أحدثها عن الإسلام، ومع أنها لم تشعر بنفس إلحاح البحث كما كنت أشعره، إلا أن حبها لي جعلها تشاركني كل اهتماماتي.

كثيراً ما كنا نقرأ القرآن معاً ونتناقش حول ما ورد به من أفكار؛ وأصبحت إلزام.

تتآثر مثل يوماً بعد آخر بالتكامل الداخلي بين تعاليمه الروحية وإرشاداته الدينية. لم يطلب الله من البشر كما جاء بالقرآن طاعة، بل طاعة طاعة عمى إلا عقل أو فهم أو إدراك. بل كان القرآن يوجه الخطاب دائمًا إلى العقل والفهم والإدراك. لم يستدله الله بذاته على مصرض البشر، بل يقول لهم: إنه أقرب إليهم من حبل الورد، كما
لم يفصل بين الإيمان به وسلوك البشر الاجتماعي، وفوق كل ذلك، لم يقرر مبدأ أن الحياة صراع بين المادة والروح أو الجسد والروح، كما لم يقرر منهج أن الطريق إلى النور يستلزم تحرير الروح من أعباء مطالب البشر (الخلاص في الفهم المسيحي)، وأن البني كل شكل من أشكال رفض الحياة أو رفض رغبات البين أو إماتتها أو كتبها حين قال: لا رهبة في الإسلام.

لم يعرف برغبات البين كفريزة إيجابية فقط، بل تعامل مع البين كفضيلة أخلاقية مسلمة بها، كثيدة من نعم الله التي أنعم بها على البشر، ولم يعلم المسلمون فقط أن يعتمدوا حياتهم وفق ما أحل الله لهم، بل إنهم ملزمون بذلك.

كانت صور نهائية متكاملة للإسلام تتبلور في ذهن، وبِيقين، كان يدعس النافذة في أوقات كثيرة وهو يتكون داخلي بما يشبه الاستشراق العقلي والفكري، أي أنها كانت تتم دون وعي وإرادة من، كانت الأفكار تجمع ويضمها ذهنى إلى بعضها في عملية تنظيم ومنهجية لكل الشدران مع المعلومات التي عرفتها عن الإسلام خلال الأعوام الأربعة الأخيرة. رأيت في ذهنى عمل معماري متكامل يتضمن معالمه رويدًا رويدًا، لكل ما يحتويه من عناصر الاكتمال وتناغم الأجزاء والمكونات مع الكل المتكامل في توازن لا يخل جزء منه بآخر، توازن مقتضى بلا خلل ويشعر المرء أن منظور الإسلام ومسلماته كلها في موضعها الملازم والصحيح من الوجود.

لقد وقف رجل من ثلاثة عشر قرناً وقال: لست إلا بشر فان كلفني خالق الوجود أن أحمل رسالتك إليكم حتى تجري في صلاح يتفق مع منهج خلقه وأمرني أن أذكركم بوجوده، وهو القادر، العالم، وأن أقدم لكم منهجًا للدنيا والآخرة. إن قلتم تذكرني لخدمي ورسالتي إليكم فاتبعوني.

كان ذلك هو جوهر رسالة محمد.

كان المنهج الاجتماعي الذي قدمه على قدر من البساطة يتناسب مع عظمةه. بدأ ذلك المنهج من المقدمة الموضوعية بأن البشر مخلوقات اجتماعية وذات احتياجات
بيولوجية عضوية وأن الله خلقهم هكذا حتى يعيشوا في جماعات وشغوب وقبائل.
حتى يشعرون احتياجاتهم البدنية والعاطفية والفكرية: فهم باختصار يعتمدون على بعضهم البعض، وأن رقي الفرد الروحي (الهدف من كل الأديان) يتوقف على مدى ما يلتقي به من عون وتشجيع وحماية من حوله من أفراد المجتمع - الذين يتوقعون منه بالطبع أن يقوم بالدور نفسه تجاههم - هذا التساند الاجتماعي البشري المتبادل بين أفراد المجتمع كان السبب الأساسي في عدم انفصال الإسلام عن الجوانب الاقتصادية والسياسية. كان المفهوم الإسلامي يعتمد بشكل أساسي على تكافل وتساند أفراد المجتمع، وذلك كان تتزامن علاقات أفراد المجتمع لأبد أن يركز على عدم وجود أي عراقيل في حياة الفرد مع وجود كثير من السلاسة لتحقيق شخصيته.
كان هذا هو المفهوم الأساسي للإسلام لوظيفة المجتمع. لذلك كانت رسالة محمد التي تؤول على نشرها على مدى ثلاثة وعشرين عامًا لا تتحسر فقط في الجانب الدينى الروحي الخاص بالعبادة وحدها، بل في تأسيس مجتمع تسوده العدالة. تتضمن النهج الإطار السياسي العام لما يجب أن يكون عليه المجتمع الإسلامي - الإطار العام فقط- لأن تفاصيل الاحتياجات السياسية مرتبطة بالظروف التاريخية، وذلك فتفاصلها مترابطة لظروف المجتمع، كما تضمن حقوق الفرد على المجتمع وواجبات المجتمع على ضوء التطور التاريخي نحو المجتمعات. تضمن التشريع الإسلامي كل نواحي الحياة، الروحية والبدنية حقوق الفرد وحق الجماعة على الفرد: مشاكل البدن ومشاكل الروح والفكر، المشاكل الجنسية والاقتصادية، مضت كلها جنبًا إلى جنب مع مشاكل الإيمان والعبادة، احتلت كل الجوانب موضعًا في تغليماات التي لم يعد أي جانب من جوانب حياة البشر غير مهم أو تأثر ولم تشنِّه مبادئ التشريع - لم يستثن التشريع أي أمر، ديني أو ثقافي أو اقتصادي، وصولاً إلى مبدأ الحكم، ليس كل الدرج.
كل مواد التشريع الإسلامي وضعت لفائدة كل أعضاء المجتمع الإسلامي، دون تمييز بالولاية، أو الجنس، أو الامتثال القبلي أو مرتبة اجتماعية. لم يخط النبي نفسه بأي امتيازات لنفسه أو لزريته. لم تعد هناك امتيازات خاصة لرتبة اجتماعية.
على أثر تقع على مرتبة دينية؛ واختفى من الإسلام تمامًا مفهوم الطبقة الاجتماعية. كل الحقوق والواجبات والفرص المتوفرة تنطبق بالتساوي على كل أفراد المجتمع من المسلمين، لا احتياج لكاسح كصورت بين الإنسان وعالمه، لأن الله: 

» إعلم ما بين أيديهم وما خلفهم «. لم يعرف الإسلام بغير طاعة الله ورسوله، ثم الولاء للمجتمع الإسلامي المقررة بشريعة تأسيس مجتمع إسلامي طبقًا لما أمر الله به، وحرم ذلك الولاء والطاعة لأمة سيدان بالحق أم بالغيرة. ولترسبق مبدأ أن الطاعة لله أعلم النبي أكثر من مرة؛ ليس منا من تشيع لقبيلته، وليس منا من حارب في سبيل انتخاب قبيلة، وليس منا من مية في سبيل قبيلته.

كانت كل المؤسسات السياسية والتوجهات السياسية البنية على معتقد ديني محصوره في الفهم الضيق للفقه أو الدولة. وحتى اللوك الآلهة في مصر القديمة لم يتجاوز فكرهم وادي النيل وسكانه، وفي الدولة الدينية المبكرة لليهود البارعين، حيث كان من المفترض أن الحاكمية لله، فإن الرج هذا كان رج أبناء إسرائيل فقط. أما في الفكر القرآني الإسلامي فإن الأمر عكس ذلك تماما، لا يوجد للإنسان إلى قبيلة ولا اعتبار خاص لإسلام عامة. المبدأ الأساسي في الإسلام إقامة مجتمع إسلامي لا يعرف الولاء التقليدي لقبيلة ولا لجنس بذاته. وهذا الخصوص، يُعد الإسلام والمسيحية نوا توجه واحد، فكليهما لهما توجه واحد من إقامة مجتمع من البشر تربطهم عقدة واحدة بغض النظر عن انتخاباتهم القبلية أو القومية. إلا أن المسيحية قد قدمت نفسها بتوجه ديني فقط، وحدث من أمنها بها على أن يعطوا ما لف القرص لفيص، وذكر قصص دعوتها على الجانب الديني الروحي فقط.

أما الإسلام فقد قدم بوشمي بناء سياسي عدد فيه الإيمان بالله المتبوع الذي تستمد منه سلوكيات المجتمع، كما يعد الإيمان بالله الأساسي الوحيد لكل المؤسسات الاجتماعية. وقد كان محققاً للبشر ما لم تحقق له المسيحية - خط الإسلام فضلاً خاصًا في التطور الإنساني، لقد خلق مجتمعًا إنسانيًا مفتوحاً أمام كل البشر المؤمنين بالإسلام مقارنة بما سبقه من ديانات، قصص الذين على جنس بعينهم، أو ديانات قصرت الذين على منطقة بعينها.
لقد أوجدت رسالة الإسلام حضارة لا مكان فيها لجنس على آخر، لا مكان فيه
الميزات الخاصة، ولا تقسيم طبقية، وكهونات وتسلسل هياكل دينية، ولا كيانات
ولا حقوق متماثلة لنبأة محضة، وفي الحقيقة لم ينطوي على أي ميزات بالوراثة على
الإطلاق كان الهدف خلق مجتمع يدين الله بالإسلام ويحكم نفسه بديموقراطية
واختيار المحاكم. كانت أهم صفة بارزة لحضارة الإسلام - وهي الصفة التي انفرد
بها دونًا عن كل الحضارات البشرية السابقة عليه أو الناحية له - أنها منتبقة من
إرادة حرة لشعورها. لم تكن مثل حضارات أخرى سابقة وليدة قهر وضغوط وإكراه
أو تصارع إرادات أو الصراع على مصالح، ولكنها كانت جزء وكل من رغبة حقيقية
أصيلة لدى كل المسلمين. مستمدة من إيمانهم بالله وما حظهم عليه من إعمال
فكر وعمل. ولهذا كان تعاقد الاجتماعي أصيل: لا مجرد كلام أجوف يداعب
به جيل تنام عامية مكالمتهم. من المؤسسات وأنفسهم وأمورهم
الحضارة الإسلامية. يقول القرآن: "إن الله أشير لمؤسساتهم وأنفسهم وأمورهم
بأيام آلهة يقاطعون في سبيل الله يقاتلون ويتقاتلون بعدًا علًا، فبصبه في التوراة والإنجيل
والقرآن، فهم أوفي بعهده من الله في سبيله، أدركوا ببعضهم الذي يباعتم به وخذل هو الفوز العظيم" (صدقت الله العظيم).

لقد أدركت أن ذلك الفوز العظيم - العقد الاجتماعي الوحيد المسجل تاريخيًا-
تحقق فقط على مدى زمني قصير جداً، أو على الأصح أن على مدى زمني قصير
تحقق العقد على نطاق واسع. فبعد أقل من مائة عام من موت الرسول بدأ الشكل
النقي الأصيل للإسلام يدب فيه الفساد، وفي القرن التالي بدأ المنهج القوي يزاح
إلى الخليفة. وبدأت الصراعات الخصبة والعرقية من أجل الهيمنة والسلطة تحل محل
العقد الاجتماعي الإسلامي البنى على رجال أحرار ونساء أحرار، وبدأت الوراثة
الملوكية تحل محل الانتقاء الحر للقيادة وهو ما كان يتعارضًا مع المفهوم السياسي
للإسلام كتمارض الشرك مع التوحيد، وتزامن على ذلك صراع الانتقاء العائلي والقبلي،
والتفصيل القبلي والاضطهاد، وتقليص الدين حتى أصبح وسيلة للسلطة والقوة:

362
باختصار تحوّل إلى صراع المصالح المعروف على مدى التاريخ. وعلى مدى زمني حاول المفكرون الإسلاميون أن يحفظوا نقاء العقيدة، إلا أن من أنتم بعدهم كانوا أقل قدرة من سابقيهم وتقاعسوا عن الجهاد ولا كانوا واجروا أفكارهم، وتوقفوا عن التفكير المبدع والجهاد الخلاق واكتشفوا بترديد أفكارهم، من سبقوهم من أجيال حاولت الجهاد — وتناسوا أن كل الجهادات رهينة زمنها ولا تصلح لغيرها من أزمن وأنها غير معصومة، وبالتالي تحتاج إلى تجديد مستمر. كانت القوة الدافعة الأولى للإسلام، كافية لوضعه في قمة سامية من الرقي الحضاري والفكري — في العلوم والأدب والفنون مما دفع المؤرخين إلى وصفها بالعصر الذهب للإسلام؛ إلا أن تلك القوة الدافعة قد ماتت لنقص الغذاء الروحي الدافع لها، وركبت الحضارة الإسلامية عصرًا بعد عصر افتقاد القوة الخلاقة المبدعة.

* * *

لم يكن لدى أي أوهام عن الحالة المعاصرة للعالم الإسلامي بين الأربعة أعوام التي قضيتها في مجتمعات إسلامية أن الإسلام مازال حيًا، وأن الأمة الإسلامية متمسكة به بقبول صامت لنهجه وما بذلته وعليه، إلا أن المسلمين كانوا كالملوشين، غير قادرين على تحويل إيمانهم إلى أفعال مثيرة لمجرد أقوال، إلا أن ما شغله أكثر من فشل المسلمين المعاصرين في تحقيق منهج الإسلام، الإمكانيات المتضمنة في النهج ذاته. كان يكتفي أن أعترف أنه خلال مدى زمني قصير، اقتصر على بداية التاريخ الإسلامي، كانت هناك محاولة ناجحة لتطبيق هذا النهج؛ وما أمكن تحقيقه في وقت ما، يمكن تحققهم في وقت غيره، ما كان يهمه، كما فكرت في داخلي، أن المسلمين شربوا من التعليمات الأصلية للدين وركزوا إلى التراخي والفساد والجهل ما الذي حدث وجعلهم يبتعدون عن المثلاليات التي علمهم إياها الرسول العربي من ثلاثة عشر قرنًا مضت — ما دامت تلك المثلاليات مازالت متاحة لهم إن أرادوا الاستماع إلى ما تحمله من رسالة سامية؟
بداً، لمحةً: إذا كنت من أهل العالم الحالي، فهناك حاجة إلى تعاليم تلك الرسالة أكثر.

كثيرًا من البشر الذين عاشوا في عصر محمد، لقد عاشوا في بيئات ظروف أبسط كثيرًا مما نعيش فيه الآن، ولذلك كانت مشاكلهم وصعابهم أقل بكثير من مشاكلنا ومصاعبنا. العالم الذي كنت أحياناً فيه - كله - كان يختبئ في غياب أي رؤية عامة لما هو خير وما هو شر فيما يخص الإيمان والجانب الروحي للبشر، وبالمثل، غياب رؤية عامة للجانب الاجتماعي والاقتصادي. لم أؤمن أن ما يحتاجه الفرد هو خلاص الروح بالفهمن الديني، بل أؤمن أن المجتمعة المعاصر هو الذي يحتاج إلى الخلاص. لقد أحسست ببعض تأثير أكثر من أي وقت مضى أن مجتمعنا المعاصر يحتاج إلى أسس فكرية عقائدية توفر تشكيلًا من أشكال التعاقد الاجتماعي بين أفراده، وأنه يحتاج إلى إيمان يملكه يدك خواء التقدم المادي من أجل التقدم ذاته - وفي الوقت نفسه يعطي للحياة نصيبيها؛ وأن ذلك سيضمنا ويرشدنا إلى كيفية تحقيق التوازن بين احتياجاتنا الروحية واحتياجاتنا البشرية، وأن ذلك سينقذنا من كارثة محققة تتجه إليها بسرعة.

* * *

إن أباع إن قلت: أثناء تلك الفترة من حياتي شعفت فكرى مشكلة الإسلام كما لم يشغله دماني شيء آخر من قبل. كنت في ذلك الوقت قد تجاوزت مرحلة الاستعفاف الفكرى، وتجاوزت فكرى مرحلة الاهتمام العقلي والذهني بين غريب وثقافة غريبة، لقد تحول إلى بحث معموم عن الحقيقة، واستطاعنا في البحث عن الحقيقة تحوّلت المفاهيم المتاحة التي مررت بها في آخر عامين إلى أفكار وذكريات باقية بلا معنى. حتى إنه أصبح من الصعب على أن أركز فكرى لكتابة الكتاب الجديد الذي كلفني رئيس تحرير صحيفة "فرانسفورت نيوتينج" بكتابته.

في البداية، لاحظ دكتور سيمون بتسامح نفوري من المضي في كتابة مادة الكتاب. ورأى أنه نفاد من رحلة طويلة انتهت معها بعض الراحة، ثم وجد أن زواجًا أيضًا...
يستمدم التوقف لفترة عن الكتابة. ولكن حين امتدت راحة السفر، وامتدت إجازة الزواج أكثر مما اعتقد الدكتور سيمون أنه كافٍ لى ذكر لي أنه قد أن الأوان أن أعود إلى أرض الواقع.

وفي حقيقة الأمر، كان الرجل في غاية التفهم والتقدير لكل ظرف، إلا أنه لم يبد لي كذلك في حينه. كان سؤاله المتكرر والملح عن مدى التقدم في إنجاز الكتاب يتي باثار عكسية لا يريده هو، وأحسست أنه يضغط على لا مبرر. وفقدت كل رغبة في إنجاز ذلك الكتاب. كنت أكثر اهتماماً بما أسعي للكشف عنه أكثر ما كنت مهتمًا بوصف ما رأيته.

في النهاية علق الدكتور سيمون على ذلك في سخط قائلًا: لا أظن أنك ستكتب هذا الكتاب أبداً، إنما تعاني منه هو رعب الحرية وبشيء من الاستفزاز أجبته:

"ربما كان مرضى أكثر خطورة مما تعتقد. ربما أعانى من خوف الكتابة".

ردد بحجة: حسنًا، إذا كان هذا ما تعاني منه، هل تعتقد أن فرانكفورتر نيوترنجر

هي المكان الملائم ك؟".

وأدت كلمة إلى رد، وأدى رد إلى استفزاز. حتى تحول الأمر إلى تشاجر. في اليوم نفسه استقلت من العمل في صحيفة فرانكفورتر نيوترنجر وعادت بالسبوع رحلت أنا وإلي إلى برلين.

لم أكن أرى بالطبع هجر الصحافة لأنها بغض النظر عن الحياة الجديدة التي توفرها لي، والثقة التي أشعر بها في الكتابة، كانت الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن أعود من خلالها إلى المجتمع الإسلامي، وقد أردت العودة إلى ذلك العالم الإسلامي بائي شن. وبالسمعة الجيدة التي حققها في الأعوام الأربعة الأخيرة، لم يكن من الصعب الاتفاق مع صحفي آخر، وتوصلت إلى اتفاق سريع مع صحفيان آخرين: صحيفة نيو زوريخ نيوترنجر، التي تصدر من زوريخ، وصحيفة "ميجرام" التي تصدر من أمستردام، وصحيفة "كولون نيوترنجر" التي تصدر من ميجرام. 365
كولونيا. أصبحت مقالاتي عن الشرق الأوسط تنشر في ثلاث صحف - لا تصل إلى مستوي فرانكفورتر نيتينج - غير أنها من أهم الصحف الأوروبية.

استقرنا المقام مؤقتاً هنا وإلا في برلين، ونتوق أن أكمل سلسلة محاضراتي التي كنت ألقيها في أكاديمية الجغرافيا السياسية، كما نويت أن أواصل دراستي للإسلام.

وعدد أصدقاء الثقافة والفكر بعودتي من جديد إلى برلين، إلا أنني وجدت أنه من الصعب استعادة علاقتنا القديمة كما كانت عليه في الوقت الذي سافرت فيه إلى الشرق الأوسط. شعرت ببعض الغموض عنهم؛ لم نعد نتحدث من نفس المنطق كنتى الفكرية. على وجه الخصوص، لم أجده أحداً من أولئك الأصدقاء يمكنني أن أحدثه عن انشغلائي بالإسلام وأتوق منه أن يأخذ الأمر بجدية ويتفهم ما يهمني. لقد هزوا رسومهم جميعاً في دماغنا وتعجب حين حاول أن أشرح لهم أن الإسلام كمفهوم فكرى واجتماعي يمكن أن يarkan بين النظريات والمعتقدات الأخرى. وبالرغم من تفهمهم أحياناً لعقلية بعض ما يذهب إليه الإسلام إلا أن آلبهم كان يرى أن الأديان القديمة أصبحت شيئًا ينتمي إلى الماضي، وأن عصرنا ومماتنا يحتاج إلى منهج إنساني آخر جديد.

ولكن، حتى من كانوا لا يرفضون الأديان رفضًا كبيرًا، كانوا يميلون بلا سبب إلى تبني المفهوم الغربي الشائع الذي يرى أن الإسلام يتمأسى بالشيوان الدينية، وأنه ينقصه الروحانية التي يتوقع أي أمر أن يجدها في أي دين.

ما أشهدني بالفعل، أن أكتشف أن ذلك الجانب من الإسلام هو ما جذبني إليه من أول لحظة - وهو عدم فصل الإسلام بين الوجود المادي والوجود الروحي للبشر والتأكيد على السببية العقلية كسبيل للإيمان، وهو الجانب ذاته الذي يتعرض عليه مفكرو أوروبا الذين يتبنون السببية العقلية كمنهج للحياة. ولا يتعلقون عن ذلك النهج العقلاني إلا حين يرد ذكر الإسلام.

لم أجد أي فارق بين الأقلية المهتمة بالأديان والأغلبية التي ترى أن الدين أصبح من المفاهيم البالية التي عفا عليها الزمن.

366
مع الوقت، أدركت مكمن الخطأ في منهج كل منهما. أدركت أن مفاهيم من تربوا في أخئاب الأنفاق المسيحية في أوروبا بما تتضمنه من تأكيد على قوته ما فوق الطبيعة التي يجب أن توجد بشكل أقصى في أي دين - تبنوا مفهومًا عقليًا يسود بينهم جميعًا وينتقض من الجوانب الروحية. كان ذلك مقصورًا على المؤمنين بالمسحية. فمع تطور تعود أوروبا على نسق الفكر المسيحي، تعلم حتى "الناثرين" أن ينظروا إلى أين دين آخر من خلال عدسات مسحية، فيعيدون أي فكر ديني "صالح"، لأن يكون دينًا، إذا عجزت مسحة غامضة خارقة للطبيعة تبدو خافية وفوق قدرة العقل البشري على استيعابها. ومن منظورهم، لم يُفهم الإسلام بتلك المتطلبات.

فقد أكد الإسلام على تكامل الجسد والروح في الحياة البشرية في تكامل فريد. إن نظرة الإسلام إلى الوجود تختلف عن الرواية المسيحية التي تمر على كل المفاهيم الغربية، وإن قبلت ما لا مفر من قبوله فسيؤدي بك إلى مناقشة صلحية ما يليه.

عن نفسى، كنت أوقن أنني في طريق إلى الإسلام، وجعلت تردد اللحظة الأخيرة أؤجل الخطوة النهائية التي لا مفر منها. كانت فكرة اعتناق الإسلام تمثل لي عبور قنطرة فوق هاوية تفصل ما بين عالمين مختلفين تمامًا: قنطرة طويلة حتى إن المرء عليه أن يصل إلى نقطة اللامعودة أولًا قبل أن يتمكن من تين الطرف الآخر لقنطرة وبداية الجانب الآخر. كنت أعني تمامًا أنني لو اعتنقت الإسلام سأضغط لخلع نفسى نهائيًا من العالم الذي وُلدته ونشأت فيه. لم تكن هناك حلف أخرى. لم يكن من الممكن لأمير ملك أن يتبع دعوة محمد ويظل بعدها محتفظًا برفاته الداخلية مع مجتمع يتصف بثنائية للمفاهيم المتعارضة والمتمنحة. كان تساؤل الأخير الذي كنت مترددًا أمامه هو: هل الإسلام رسالة من عند الله، أم أنه حكيمة حكمة رجل عظيم، إلا أنه غير مفهوم...

ذات يوم - كان ذلك في سبتمبر 1926 - كنت أنا وإلزنا نتقل بنقطان الأنفاق في

367
برلين عائدين إلى بيتنا. كنا بحرية الدرجة الأولى التي يستقلها الأغنياء وميسوري الحال. وقع نظرًا بطريقة عفوية على الرجل الذي كان يجلس مواجهًا لي، كان يرتدي ملابس أنيقة غالية الثمن، كان من الواضح أنه من رجال الأعمال الناجحين وكان يضع حقيقة أوراق ومستندات غالية الثمن على ركبتيه، كما كان يضع في أحد أصابعه خاتمًا ماسيفًا ثمينًا. طاف بذئني بصورة ألم أن ذلك الرجل ربما هو عليه من مظاهر ثراء يتماشى ويتناوب مظهره مع حالة الرخاء والانتعاش التي كانت سائدة في وسط أوروبا في ذلك الوقت. كان رخاء واضحًا للعيان بعد أعوام من سوء الأحوال الاقتصادية وارتفاع معدلات الكسر والضخم، ثم انقلب الحال رأسًا على عقب وحده فترة الرخاء التي كان حسن المظهر أحد دلالاتها، وأصبحت الغالبية تندى أشد الشيام وتناناً أغلب المالكولات. لم يكن الرجل الذي كان يجلس مواجهًا لي استثناءً للحال. حين طاف بصري بوجهه، لم أجد أي أثر لسعادة، كان يبدو عليه القلق، لم يكن قلقًا فقط، بل تبدو عليه التعاسة، ونظرته تحلق إلى لا شيء، وزاوية فمه متقابلتان كما لو كان يعاني ألمًا - إلا أنه ألم غير عضوي - وحتى لا يبدو صفيقاً حوله بصري عن وجهه ونظرت إلى من كان بجواره، كانت سيدة أنيقة تتحمل أيضًا على وسيلة علامات التعاسة، كما لو كانت تتمثل في عقلها تجربة ما غير سارة، أو تمر بتجارب سيئة وحياة تعساسة نسبها ألمًا داخليًا ؛ إلا أنها كانت ترسم على شفتيها ابتسامة مرسمة جامدة ربما اعتادت عليها.

بدأت أنفطاع حواشي إلى كل الوجوه في الغرفة التي كنا بها - كانت كلها وجه نتمي إلى طبقة تنمو بملبس جيد ومالك جيد، إلا أن كل منها كان يشي بتعاسة داخليّة عميقًا ومعاناة واضحة على الملامح، تعاسة عميقة حتى أن صاحبه لم يع أنها تبدو على صفحة وجهه.

كانت ظاهرة غريبة. لم أر من قبل كل هذا الكم من الوجه البائسة التغييسة، أو ربما أني لم أكن أدقق كثيرًا في وجوه الناس في أوروبا من حولي. كان انطبعي من القوة حتى إني همست به إلى إزالا، فراحها في الأخرى تتفحص خفية الوجه التي.
تحيط بنا بخيبة الفنانة الرسامة التي لها دراية بتقديم ملامح الوجه، قبل رسمها بالفراشة. استدعت إلى المنكسة، وقالت: أنت على حق، يبدو عليهم أنهم يعانون عذاب الجحيم. لا أريد إن كانوا يعانون معاناتهم أم لا؟!

كانت أوقن أنهم غير واعين، وإنما كانوا يستمروا في إهدار حياتهم على هذا المنوال، لأن أي تمسك داخل، دون أى هدف أسمى من مجرد "تحسين مستوى معيشتهم". دون أن يزيد عن الاستحواذ المادي، أكبر قدر منه، وقدي حقق لهم مزيد من القوة والسطوة.

عذنا إلى البيت ومالنا نفكر بما رأينا، تطلعت بالصدفة إلى مكتبي، كانت عليه نسخة مفتوحة من القرآن كنت أقرأ فيه قبل خروجنا. وصاروا إليه، النقطة المصحبة لأعيده إلى مكانه، حين هممت بإغلاقه، سقط بصري على الصفحة التي كانت مفتوحة.

أما، وقرأت:

"أَلَّا يَكُونُ التَّكَاثُرُ كَزَّةٌ لِّلْمَقَابِرِ، كَلَّا، سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا، سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا، لَوْ تُعْلَمُونَ عَلَى الْيَقِينِ، ثُمَّ لَمْ تُرُونَهَا عِينَ الْيَقِينِ، ثُمَّ لُسُرَّنَ بَيْنَ عَيْنِ الْيَقِينِ، ثُمَّ هُدُيَّةٌ عَلَى الْيَقِينِ (٨) (صدق الله العظيم).

وقت لحظات مشدودة، وانا أحبس أنفاسي، وأحسست أن يداي ترتفعان، فناولتني لزعا وقبلت لهما: أقرئى هذا، لا تجنب هذه السورة على ما رأين في قطرات الأنفاس؟

لقد كان القرآن يتضمن الإجابة، إجابة حاسمة قضية على كل شكوك وأطلحت بها بلا رجعة. أيقنت بما تناول أن القرآن الذي أمسكه بين يدي من عند الله، ومع أنه أمام الناس من ثلاثة عشر قرنا مضت. إلا أنه تنبأ بما سيعني من عصر ألي معقود، متطلبه الأشباه، كمسندا.

لقد اتصف البشر بالطمع في كل العصور، إلا أنه لم يصل الدرجة التي أصبح عليها في عصرنا، حتى أنه تحول إلى هاجس يعمي الأنصار عن رؤية أي شيء آخر عداه. تطلع ورغبة لا تقاوم، الاستحواذ على المزيد، الحصول على المزيد اليوم أكثر مما حصلنا عليه أمس، والحصول في الغد على أكثر مما حصلنا عليه اليوم، عفريت.
يركب أعناقه البشر ويجد قلوبهم يدفعهم إلى الركض نحو أهداف توضّح وتبرق على البعد ، ويُجد أن يحصلوا عليها يكتشفون أنها هباء وأن هناك أهداف أخرى أشد بريقًا ، ما تزال ذاتية في الأفق البعيدة إلا أنها أكثر إغراءً في كضون من جديد ليكتشفوا أنها أيضًا لا قيمة لها بمجرد تحققيها . جوع لا يشبع لتحقيق مكاسب لا تنتهي ، وينخّر في روح الإنسان ؛ كلا ، أو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ».

أيقنت أن تلك الآيات لم تكن نتاج حكمة رجل عاش من ثلاثة عشر قرناً في الجزيرة العربية النائية عن أوروبا . لم يكن بمقدوره مهما أتى من حكمة أن يتبناها بهذا العذاب النفسي والعُنين والتعاسة والجحيم الذي سيصيب أبناء القرن العشرين .

كان الصوت الصادر من القرآن أعظم كثيرًا من صوت محمد ...

[5]

حل الظلام على باحة مسجد الرسول ؛ لم يبدد إلا ضوء المصابيح الزينة المدلاة بسلسل طويلة بين الأعمدة الرخامية الحاملة لعقود المسجد . كان الشيخ عبد الله بن بليلتحد جالسًا ورأسه مادة بين كفتيه على صدره وعيناه مغضبان . يظن من لا يعرفه أنه غارق في النعاس ؛ ولكن يُعرف أنه كان يعتمد إلى حكايته وتفاصيل قصة إسلامي باستغرق عميقة ، بوائهما بما يعرف عن تجارب البشر وخبرات حياتهم ومحتوى قلوبهم . بعد فترة طويلة رفع رأسه وفتح عينيه ، سألته :

وأبدع ، ماذا فعلت بعد ذلك ؟

قلت : « فعلت ما يجب أن فعله يا شيخ ، كان لي صديق مسلم بحثت عنه حتى عثرت عليه ، كان هنديًا وكان رئيسًا لرابطة المسلمين في برلين ، قلت له : إنني أستقر رأيي على اعتناظ الإسلام ، مد لي يده اليمنى ، ووضعتي كفتي في كفه ، وفي حضور أثني من الأشخاص ، أعلنت : 

370
أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله (ﷺ).

وبعد ذلك بعدة إسابيع أسلمت زوجتي أيضًا.

سألت: وماذا قال الناس عن ذلك؟

قلت: لم يعجبهم ذلك بطبيعة الحال، حين أرسلت إلى أبي رسوله وعرفته بإسلامي، لم يرد على رسالي، بعد ذلك بعدة شهور أرسلت إلى شقيقتي رسالة قالت فيها: أن أبي يعتبرني قد مت ثم أرسلت إليه برسالة ثانية قلت له فيها: إن إسلامي لم يغير موقفي منه ولم يقل من حبي له، بل على العكس أمرني الإسلام أن أشتر وحدها أكثر من أي مخلوق آخر... ولم أثق رداً على تلك الرسالة أيضًا.

قال ابن بليحه: لا بد أن أبيك متمسك جداً بدينه...

قلت: كلا يا شيخ، ليس متمسكًا بدينه كما تظن، وهذا هو الجانب الغريب، لقد اعتبرني مرتدًا، لا عن دينه (لم أن منه أي تمسك بدين)، ولكن مع المجتمع الذي نشأنا بين ظهوران وثقافة وفكر ذلك المجتمع.

سألت: ألم تز أبداً منذ ذلك الحين؟

قلت له: كلا، بعد فترة قصيرة من إسلامنا أتاني زوجتي رحنا عن أوروبا، لم نحنقل أن نبقى بها أكثر من ذلك ولم أعد إلى هناك من ذلك الحين. (ﷺ)
الفصل الحادي عشر

جهاد

[1]

«إنا أغادر مسجد الرسول، أطبلت يد علي يدي: ولكن استدرت مستطولاً، رأيت الميئين الطبيبين لسيدى محمد الزواري السنيسي. قال بسماء: «ما أسعدني وأنا أراك بعد كل هذه الشهور الطويلة، بارك الله تلك الخطة في مدينة الرسول المباركة.»

سرنا بيدًا بيد على الطريق المعبد بالحجارة المستوية والذي يفضي من مسجد الرسول إلى السوق. كان يرتدي البرنس الأبيض الذي يرتديه أهل شمال أفريقيا، وكان من الشخصيات المعروفة في المدينة، فقد عاش بها لأعوام طويلة. توقفنا أكثر من مرة، فقد كان من يقابلنا يصافحه بحرارة وإجلال، لم يكن ذلك يعود إلى كبر سنّه البالغ سبعين عامًا، بل يعود إلى كونه أحد قادة أبطال ليبيا الذين يحاربون في سبيل استقلال بلادهم.

قال ونحن سائرون: «أدى أن أعرفك يا بنى أن سيد أحمد موجود هنا بالمدينة، صحته ليست على ما يرام، سيسعده أن يراك، إلى متى ستبقى بالمدينة هذه المرة؟»

أجابته: «حتى بعد غد، لت أغادر المدينة بالطبع قبل أن أزور سيد أحمد، والأفضل أن أزوره الآن.»

373
لم أحب أحدًا بالجزيرة مثلما أحببت سيد أحمد، لم يدانه أحد في تضحياته التي ضحها بجهده وبكل ما يملك لتحقيق هدف غير شخصي وهو تحقيق استقلال وطنه. 
كان عالماً ومقاتلاً، كرس كل حياته لإحياء مجتمع إسلامي مترابط، ينافس من أجل استقلاله السياسي، وكان على يقين من أنه لا يمكن تحقيق أي من الهدفين بمعزل عن الآخر.
مازلت أذكر أول لقاء لنا من سنين طويلة في مكة...
فإلى شمال مكة يقع جبل "أبو قبيس" الذي دارت حوله أساطير كثيرة في الموسيقى الثقافية. فوق قمتها كان يوجد مسجد أبيض بمنظارين قصيرتين، ومن هذا المسجد يمكن أن ترى منظر وادي مكة الرائع والكعبة في قاعة تتوسطها مسترة ملونة محددة...
لا استثناء على سقوط الجبال من كل الجهات. وإلى أسفل قليلاً من قمة جبل أبو قبيس، كان هناك تجمعًا من مباني حجرية مغلقة على حافة صخرية مثل تجمع أعشاش الصقور. كان ذلك التجمع هو مركز الآخوة السنوية.
كان في ذلك الوقت منفياً ولا سبيل إلى عودتي إلى ليبيا بعد ثلاثين عامًا من القتل ضد الاستعمار الإيطالي لبلاده وسبعة أعوام في رحلات مكوكية من البحر الأسود حتى اليمن، وكان اسمه شهر في العالم الإسلامي، فقد كان سيد أحمد هو السنوسي الكبير. لم يضطر أحد في تأريخ مضايا المستعمرين في شمال إفريقيا، لا نسيان القادر الجزائري في القرن التاسع عشر ضد الاستعمار الفرنسي، ولا عبد الكريم في المغرب ضد الاستعمار الفرنسي أيضًا. وعلى الرغم من أنها أسماء لا ينساهها المسلمون إلا أن أهدافهما كانت سياسية في المقام الأول تسعى لتحقيق الاستقلال. بعكس منهج سيد أحمد الذي كان ينطوي على إحياء ديني إسلامي لتحقيق من خلال الاستقلال والهتاف الإسلامية الجديدة.
قد تمكن إليه في مكة في ذلك الوقت حاجي عجوز سالم زعيم مسلمى جاوة، والذي كان يقود هو الآخر حركة نضال مسلمي أندونيسيا من أجل الاستقلال، وكان قد...
حضر إلى مكة ليؤدى فريضة الحج. حين علم سيّد أحمد أنى اعنتقت الإسلام حديثًا، مد إلى يده مصافحًا وقال في ود:

«مرحبًا بك بين إخوتك، يا أخى الأصغر...»

كانت ملامحه تحمل إمارات التعب والإجهاد، وتبدو المعاناة محفورة على جبهته فوق عينيه، كان بلحية قصيرة شيباء، ومن حسي تحوطه تجاعيد الآلام المرتزمة على ملامحه، كان تعبًا، يرتخت جفنه وفتوه على عينيه فبدت ناعستين؛ كان صوتيًا هيبًا إلا أنه مليء بالآس، غير أن وجهه كان يشتعل في أحيان أخرى بالحماس فتستعيد العينان بريقهما ويرفع صوته قويًا موجلاً، ومن ثنايا العبادة البيضاء يرتفع ذراعه في حماس كجناح صقر يعم بالطيران.

كان صاحب فكرة ورسالة لو كتب لها التحقق، ربما كانت قد أحبت نهضة إسلامية جديدة: وفي متابعة شيخوخته ومرضه وانهيار نتاج كل عمره، لم يفقد بطل شمال إفريقيا بريقه.

لم يكن يملك حق اليأس، إذ كان على يقين أن التطلع إلى إحياء العقيدة الإسلامية وتحقيق الاستقلال السياسي - والتي نشأت من أجلهما الحركة السنوسية - لا يمكن محوها من قلب المسلمين.

* * *

كان جد سيّد أحمد، وهو العالم الإسلامي الجزائري محمد بن علي السنوسي (يعود اللقب إلى قبيلة بنى سنسوس)، قد أمن بفكرة الأخوة الإسلامية في النصف الأول من القرن التاسع عشر وأنها إن تحقق ستمهد الطريق لاحترام وحدة إسلامية جديدة. وبعد أعوام من التجوال والدراسة بين بلاد عربية عديدة أقام محمد بن على أول زاوية سنوسية على جبل أبو قبيس في مكة سرعان ما انتقحها فيها كثيرين من بدور الحجاز. ولم يبق بمكة وعاد إلى شمال أفريقيا، واستقر في جنوبى، وهي
وحادات تقع بين ولاية فزان في ليبيا ومصر ، ومن جفوف انتشرت رسالتها مثل انتشار النار في الهشيم في جميع أنحاء ليبيا وما جاورها وحين مات محمد بن علي عام 1859 كان السنوسى ( واصبح اسم كل كبير للحركة ) قد مد رسالته على منطقة واسعة تمتد من سواحل البحر المتوسط حتى المنطقة الإستثنائية في أفريقيا وحتى منطقة قبائل الطوارق في الصحرا الجزائرية.

ولا يطلب مصطلح «دولة» إلا على المنطقة التي انتشرت فيها رسالتها ولا على محتوى ومضمون الرسالة التي أمن بها فالمسلمون الأول الكبير لم يهدف أبدًا إلى تأسيس حكم خاص له أو لنسله من بعده : كل ما هدف إليه نهضة أسس ملائمة لإعادة الإحياء والنهضة الإسلامية في كل جوانبها الاجتماعية والسياسية والأقتصادية. واتحقق ذلك الهدف لم يسع إلى ما يعكر أو يثير التنظيم القبلي القائم، كما لم يتحدى الحاكم المعين على ليبيا من قبل الدولة العثمانية التي كانت ليبيا تابعة لها بل كرس كل جهد لإذلال البدو في خيامهم مبادئ الإسلام ونشر فيه الوعي بأخوة المسلمين التي حض عليها القرآن والتى اختلفت خلال القرون الماضية بسبب النزاعات والصراعات القبلية. ومن خلال الزوايا العديدة التي انتشرت في شمال أفريقيا، حمل السنوسيون رسالتهم إلى أبعد القبائل، وحققوا في خلال عقود قليلة تحولاً إعجازيًّا بين العرب والبربر على حد سواء.

قلت المشاكل المزمنة بين القبائل تدريجيًا واغتلت المشاكل، وتحول من كانوا محاربين صحراويين جميعهم إلى إخوة متعاونين يروث لم تعرف بينهم من قبل، كان أبناؤهم يتلقون التعليم في الزاوية - كان تعليمًا يشمل تعاليم الإسلام، كما يشمل الفنون اليدوية والمشغولات التي كانت القبائل تزدري العمل بها - كما قاموا بحفر كثير من الآبار الأكبر والأجود في مناطق كانت غير مأهولة على مدى قرون، وإرشادهم ظهرت للوجود مجتمعات إسلامية منظمة وواضحة في مناطق عديدة من الصحراء، كما شجعوا أعمال التجارة وساعد السلام الذي أرسى أسسه بين القبائل على تأمين طرق التجارة مما جعل الانتقال آمنًا على الطريق التي كانت تخشى القوافل المرور بها.
لتجنب الاعتداء عليها وسرحبها وتهبها. كان نفوذ الحركة السنوسية حافزاً على التغيير، بينما رفع التزامها الدينى من المستوى الروحي والأخلاقي في المجتمعات الجديدة. على وجه التقارب ارتفعت كل القبائل بالزعامات الروحية السنوسية الكبير؛ بل إن السلطات التركية العثمانية التي كانت تحكم مدن الساحل الليبي وجدت أن سلطة الحركة على القبائل تسهل الأمور في تعاملهم مع القبائل التي كانت تثير المشاكل من قبل.

هكذا، في الوقت الذي ركز فيه الحركة موجودة على ترقية ونمو وتعليم شعوب الداخل، تحول نفوذها مع الزمن إلى شكل لا يختلف كثيراً من نفوذ الحكومات. ذلك النفوذ وتلك القوة اعتماداً على قدرة الحركة على تحويل البدو البسطاء وقبائل طوارق شمال إفريقيا من شكل ديني لا يعرف إلا القشرة إلى بدو أكثر وعيًا بروح الإسلام الحقة، وتنمية الوعي بروح الاستقلال والعمل إلى الحرية والكرامة الإنسانية والأخوة الإسلامية.

ولم تظهر في العالم الإسلامي بعد العصر الذهبي للإسلام حركة إسلامية واسعة النطاق تعد الطريق إلى وحدة إسلامية تمثيل الحركة السنوسية.

إلا أن ذلك العهد للسام من نشر الدعوة والوعي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وصل إلى نهايته، عندما راحت القوات الفرنسية تزحف جنوبًا من الجزائر باتجاه إفريقيا الاستوائية، محتجزة جزءًا بعد جزء أماكن كانت مستقلة. كانت تحت النفوذ الروحي للحركة السنوسية. ووجد ابن مؤسس الحركة، محمد المهدي، وخليفة أبيه من بعد موتاه، نفسه مجابراً على تجريد السيف الذي لم يغمد بعد ذلك أبداً. وكان ذلك التضاع الطويل جهادًا إسلاميًا حقيقًا - فقد كانت حرب للدفاع عن النفس والعقيدة، ويركز القرآن في تعريف الجهد:

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَنِدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعَتَّدِينَ (146)

وأقتلوهم حيث تتفشمنهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل. ولا

377
تقاتلهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلونهم فيه فإن قاتلوهم فقاتلهم كذلك جزاء الكافرين.

(111) فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم (صدق الله العليم).

الإلا أن الفرنسيين لم ينتهاو كما تذكر الآية، فقد حملوا رايتهم ثلاثة الألوان على
سناك بندقهم إلى أعمق وأعمق في بلاد إسلامية.

ولما مات محمد المهدي عام 1902، تولى ابن شقيقه، سيد أحمد، قيادة الحركة
السوسية، كان قبل توليته وبعد توليته يخوض غمار الحروب ضد القوات الفرنسية التي
راحت تضغط عليهم بما يعرف الآن إفريقيا الاستوائية الفرنسية، وحين غزا
الإيطاليون طرابلس وبرقة عام 1911، أصبح لزاماً عليه أن يقاتل في جبهتين. إلا أن
ذلك جعله يحول كل جهد الحركة إلى العدو الجديد الذي احتل شمال ليبيا. حاربهم
في البداية بمعاونية من الأتراك، ولا انسحب الأتراك من ليبيا في الحرب العالمية،
وجد نفسه يحارب وحده. وشُنّ سيد أحمد والمجاهدين السوسيون غاراتهم على
الغزاة بنجح بالرغم من تفوق الإيطاليين الكاسح في العدد والسلاح، وتقضف نفوذهم
حتى لم يتجاوز بعض الدن الساحلي.

كان البريطانيون قد ثبتوا أقدامهم في مصر ولم يكن في صالحهم تعدد وتوسع
إيطاليا في شمال إفريقيا، كما لم يكونوا على عداء مع الحركة السوسية؛ لذلك كان
موقفهم المحايض إلى مصلحة الحركة، فقد كانت كل إمدادات المجاهدين السوسيين
تصل إليهم من مصر، وكان شعب مصر يتعاطف مع الحركة ويؤيدها. وكان يمكن
للحركة أن تنتجه في طرد الإيطاليين من بارقة نهائياً بتوفر جيات بريطانيا.

ولكن في عام 1915، دخلت تركيا الحرب العالمية متحالفة مع ألمانيا، وطلب
السلطان العثماني بصفته الخليفة المسلمين من الحركة السوسية أن يقفوا إلى جانب
الأتراك بمهاجمة القوات البريطانية في مصر. وكان البريطانيون قد طلبو من سيد
أحمد أن يظل على الحياط مقابل اعترافهم السياسي بشريعة الحركة السوسية في
ليبيا، وأن يتخلى له عن بعض الواحات المصرية في الصحراء الغربية.

378
لو كان سيد أحمد قد قبل ذلك العرض، لكان اتبع ما يليه عليه التفكير المتطلقي، فهو لا يدين بشيء للأتراك الذين انسحبوا أمام البريطانيين من ليبيا وتركوا يقولهم وحدهم، في الوقت الذي لم يقدم فيه البريطانيون على أي عمل عدائى ضد الحركة السنوسية، بل على العكس، أغمضوا عيونهم عن الإمدادات التي تنقل إليهم من مصر - وكانت المصدر الوحيد للحركة - وفوق كل ذلك، كان الجهاد مع برلين التي تحالفت معها تركيا لا يحقق ما يذكره القرنان عن الجهاد: فتركيا المسلمة في ذلك الوقت لم تكن في حالة دفاع عن النفس وتحالفت مع قوة غير إسلامية في حرب عدوانية.

وهكذا، كانت الاعتبارات الدينية والسياسية تلزمها اتجاه واحد لا يديل له، وهو أن يظل بعيداً عن حرب ليست حربه. كان كثير من قادة الحركة السنوسية - ومنهم صديقى سيد أحمد الزوارى - ينصحون سيد أحمد أن يظل على الحياض في الحرب الدائرية بين تركيا وبريطانيا، إلا أن فرسانه "الدرين كوشوتية" تجاه خليفة الإسلام غلب مناطق العدل ودفعته إلى اتخاذ القرار الخطأ، وهاجم الإنجليز في صحراء مصر الغربية.

كان صراع الضمير أكثر مأساوية في حالة سيد أحمد، فلم يكن هناك مكسب أو خسارة شخصية، بل كانت الخسارة للحركة التي حملت قضية كبرى كرس سيد أحمد حياتها من أجلها وحياة جيلين من قبله. وعرفت الوثيقة به، لم يكن لدى شك أن دواقع لهذا القرار الخطأ لم يكن بها دواضع شخصية، بل كانت من وجوهة نظره رغبة في الحفاظ على وحدة مسلمي العالم، إلا أنه من وجهة نظر سياسية، كان قراره أسوأ قرار اتخذه في حياته بجمعها، فيبدأه الحرب ضد البريطانيين، ضحى، دون أن يعى ذلك في حينه، بكل مستقبل الحركة السنوسية.

من ذلك الحين، وجد نفسه مجردًا على القتال في ثلاث جبهات: في الشمال ضد الإيطاليين، وقسم الجنوب الغربي ضد الفرنسيين، وقسم الشرق ضد البريطانيين. في البداية، حقق بعض النجاح، كان البريطانيون يعانون من تقدم القوات التركية والألمانية باتجاه قناة السويس من فلسطين، فخُلقت الولادات في الصحراء الغربية.
لتركيز قواتهم في منطقة قناة السويس، فاحتلها صدام أحمد، ونشرت قواته الرافكة البحري觑 والتي كان يقودها محمد الزواوي (الذي عُرف بمحبة وقوة ذلك القرار)، وأخذوا الصحراء الغربية حتى مشارف القاهرة.

ثم تغير مسار الحرب العالمية: توقف التقدم السريع للقوات الألمانية والتركية نحو قناة السويس من شبه جزيرة سيناء، وتحول هجومهم إلى تقدم، ثم بدأت بريطانيا هجومًا مضادًا على السويسريين في الصحراء الغربية، وأعادوا احتلالهم للواحات الحضرية وأبار المياه، وقطع لحمر الوحيد لإمدادات المجاهدين من مصر. كانت المؤن الداخلية والسلاح والذخيرة لا تكفي ولا تأتي بحajas سكان مشتبكون في معارك حياة أو موت ضد إيطاليا؛ كما لم تقدم الغواصات الألمانية والنمساوية التي كانت تقوم بعمليات إنزال سرية إلا معونات رمزية.

في عام 1917، وأمام ذلك الوضع الحرج، أقنعوا مستشاروه أن يذهب إلى أسطنبول سراً في غواصة، ومن هناك يرتب لدعم أكثر فاعلية. وعهد قبل أن يسافر بقيادة الحركة في منطقة طبرق إلى ابن عمه، سيد محمد الإدريسي (5)، الذي كان أكثر ميلًا للمهادنة والتفاوض مع الإنجليز والإيطاليين، ووافق البريطانيون - الذين لم يحبوا من البداية أن يدخلوا في صراع مع السويسريين على أرضهم - على الصلح؛ وضغطوا على إيطاليا لقبول التفاوض.

وبعد فترة اعترف به الإيطاليون «أمّرًا على السويسريين»، واحتفظ باستقلالية شكلية في ولاية برقة حتى عام 1922، بعد أن رجع الإيطاليون عن اعترافهم حتى يسيطروا على كل ليبيا. ولذا، سيد إدريس محتجًا إلى مصر في بداية عام 1922، بعد أن عهد بقيادة السويسريين إلى زميل من أهل الثقة هو عمر المختار، ووقع خرق الإيطاليين للاتفاق سريًا، واشتعلت الحرب في فزان من جديد.

(5) أصبح ملكًا على ليبيا عام 1952.
في الوقت نفسه، واجه سيد أحمد في تركيا خلافًا بعد خلاف. كانت نيته أن يعود إلى فزان بمجرد أن يحقق الغرض الذي جاء من أجله، إلا أن ما جاء من أجله لم يتحقق أبدًا.

فبمجرد أن وصل إلى إسطنبول، واجه مكانة كثيرة أرجأت عودته من أسبوع إلى أسبوع، ومن شهر إلى شهر، وكان من الواضح أن دوائر صنع القرار الحيوية بالسلطان العثماني لا تريد للحركة السنوسيات النجاح. كان الأتراك يخشون أن يتأتي يوم يصحوا فيه العرب ويستعيدون زعامة العالم الإسلامي، وكان انتصار السنوسيين من عوامل التعجيل بتلك الصحوة، التي قد يحظى فيها السنوسي الكبير موضع الخليفة العثماني، وعلي الرغم من أنه عوائل باتورام شديد في تركيا كقائد للمجاهدين السنوسيين، إلا أنه أصبح بصورة غير رسمية محجورًا في تركيا.

وانتهت الدولة العثمانية عام 1918، وتلى انتصارها احتلال الحلفاء لإسطنبول، وكان ذلك علامة على انهيار آماله التي عقدها على تركيا، وفي الوقت نفسه أغلقت أمامه كل احتمالات العودة إلى برقة.

كان إلحاح العمل من أجل قضية وحدة المسلمين لا يترك لسيد أحمد أي فرصة أن يعيش بلا نشاط. فبينما كانت قوات الحلفاء تنزل في إسطنبول، عبر البوسفور إلى آسيا الصغرى لينضم إلى كمال أتاتورك – الذي كان يعرف في ذلك الوقت باسم مصطفى كمال – وكان قد بدأ لتوه في تنظيم المقاومة التركية داخل الأناضول.

ولابد أن نتذكر أن النضال البطولي لكمال أتاتورك في البداية كان تحت رايات الإسلام، وأن الحماس والحماية الإسلامية لدفاع عن الدين الإسلامي هما وحدهما اللذان وهما الأمة التركية فيها الوقت المظلم القوة ضد القوة الطاغية اليونانيين المدعومين بكل موارد ومصادر الدعم من الحلفاء.

وضع سيد أحمد كل ثقله الروحي في خدمة القضية التركية، فكان ينتقل في أرجاء الأناضول مناشدًا مسلمي تركيا دعم الغازي «المدافع عن الإسلام» مصطفى كمال.

381
كانت جهوده ووزن اسمه إضافة كبيرة أدت إلى نجاح الحركة الكمالية بين فلسطين الأناضول المسلمين البسطاء الذين لم تكن تعتني لهم الشعارات القومية أي شيء بدأ ما كان يعني لهم الإسلام كل شيء حتى التضحية بأرواحهم في سبيله.

ومرة أخرى يرتكب «النسوسي الكبير» خطاً جديداً في حكمه على الأمر. وبالتالي خطأ قراراته - لا فيما يخص الشعب التركي المسلم الذي قاده حماسه الدينى إلى تحقيق النصر، بل فيما يخص نوايا قادئه الذي لمجرد أن تحقيقه للفوز له النصر، كشف عن هدف رئيسي يختلف عن الأهداف التي ترك شعبيه يتوقعها. فبدلاً من أن يجعل الإسلام منطقاً لرغبته في التغيير، تخلى أتاتورك عن الدين الإسلامي الذي أعلن أنه غير ضروري. كان بإمكانه أن يوظف حماس شعبي الدين لإنجاز التقدم دون أن يعزله عن كل ما يشكل ثقافته الروحية الإسلامية وجعل منه أمة عظيمة.

بعدم رضا مرير عن إصلاحات أتاتورك المعادية للإسلام، انسحب سيد أحمد من كل الأنشطة السياسية نهائياً في تركيا. وغادرها أخيراً عام 1933 إلى دمشق. ومن هناك، بالرغم من معارضته لسياسات أتاتورك الداخلية، حاول أن يخدم قضية وحدة المسلمين بإغراق سوريا بالاتحاد مع تركيا. وراقبت حكومة الانتداب الفرنسي على سوريا ما يفعله بعدم ارتياح. وبنهاية عام 1944، عرف أصدقاؤه أن القبض عليه من السلطات الفرنسية أصبح وشيكة، فهرب بسياقة من دمشق عبر صحراء سوريا حتى مشارف نجد؛ ومنها وصل إلى مكة، واستقبله بترحاب الملك ابن سعود.

[2]

سألت الزوايا: «كيف حال المجاهدين يا سيدى محمد؟» سأله لأنى لم أكن أعرف شيئًا عن أحوال بركة منذ عام.

أظهر وجه سيدى محمد الزوايا المستدير ذو اللحية البيضاء وقال: «الأثداء ليست جيدة يا بني، انتهى القتال من شهر. لقد انكسر المجاهدون؛ أطلقوا آخر رصاصة. لا توجد إلا رحمة لله تحمي شعبنا التمس من انتقام المحتلين...».
سألته: «سيد إدريس؟
أجابني ويتنهد: «سيد إدريس! سيد إدريس مازال بمصر، ينتظر لا حول له ولا قوة- ينتظر ماذا؟ إنه رجل جيد باركه الله، إلا أنه ليس مقاتل. إنه يحيا مع كتبه، السيف غير ثابت في يده ولا يناسبها...
قلت: «ولكن عمر المختار - بالتأكيد لم يستسلم للأعداء، هل فر إلى مصر؟
توقف سيدى محمد عن السير والانتفت إلى م小额قة في دهشة: «أي! إنك حتى لم تعرف هذا؟
سألته: «أعرف ماذا؟
قال برقة: «يا بني، سيد عمر يرحمه الله، مات من عام».
مات عمر المختار... أسد برقة، الذي لم تعقه سنواته السبعين عن القتال من أجل حرية بلده: مات... لقد كان على مدى عشرة أعوام كنثة روح ورمز لشعبه للمقاومة ضد هدف ميسيس - ضد القوات الإيطالية التي تفوقهم عددًا بساعات مرات ومسلحين بأحدث الأسلحة، من سيارات مصفحة، إلى طائرات حربية ومدفعية - بينما لا يملك عمر والمجاهدين نصف الجائعين إلا بنادر وبعض خليل يستخدمونه في شن هجمات فردية في بلدهم التي تحولت إلى معتقل كبير...
لم أصدق أن ذلك كان صوتي وأنا أقول له: «إلى مدى العام ونصف الأخبار، منذ أن عدت من برقة كنت أعرف أنه هو رجوليه متيت. كم حوارت حينها بإذن والتهام بالانسحاب إلى مصر مع من تبقى معه من أحياء من المجاهدين ليحافظ بحياة من أجل شعبه... وكان بكل هدوء يرفض محاولات إقناعه، وهو يوقن أن الموت أولا شيء غير الموت ينتظره في طريق: والآن، بعد مائة معركة، حل الموت الذي طال توقعه...
لكن قال لي ... متي سقط؟
هذا محمد الزواوي رأسه في أسي، كنتا حينها نخرج من شارع السوق الضيق إلى ميدان المناخ الواسع المظلم، وقال:
«لم يسقط في معركة، لقد جرح ووقع أسيراً، ثم قتله الإيطاليون... شنقوه مثلما يشنق أيا لص عادي...»

تجلب متسائلًا: «كيف جرّوا على ذلك؟ لا يجرؤ جراشيساني ذاته أن يقوم بذلك العمل الهمجي».

أجاب بابتسامة مريرة: «ولكنه فعل، كان الجنرال جراشيساني ذاته هو من أمر بشنق عمر المختار. كان سيدى عمر ورجاله في عمق منطقة يسيطر عليها الإيطاليون، كان في تلك المنطقة قبر سيدى رافع من الصحابة، فذهبوا لزيارة قبره والترحم عليه، وعلم الإيطاليون بوجوده وحارسوا الودى بقوات كبيرة. لم يكن هناك أي طريق للهرب، ودافع سيدى عمر هو والمجاهدون عن أنفسهم حتى لم يبق إلا هو واثنان من المجاهدين. وفي النهاية أصابت جواده رصاصة وسقط من على صهيته سقطة شديدة قاسية، إلا أن الأسد العجوز استمر يطلق رصاصه بندقيته حتى أصابته طلقة في رأسه فاستمر في إطلاق النار بيده الأخرى حتى نفقت نخيلته، فأسرروه وكيلوه وساقوه إلى سولووق. وهناك مثل أمام الجنرال جراشيساني الذي سأله: » ما قولك لو أن الحكومة الإيطالية بعطف منها ورحمته دعتك تعيش، هل تعود أن تعيش ما تبقى لك من عمر في هدوء وسلام؟ إلا أن سيدى عمر أجابه: لن أتوقف عن حركيكم حتى تغادروا بلدي، أو تغادر روحي بدني، وأقسم لك بالله الذي يعلم ما تخفي الصدور أو لم تكن يداي مقيدتان في هذه اللحظة لضفت بك بيدى الخاليتين وأنا عجوز ومصاب كما أنا... وضحاك الجنرال جراشيساني وأصدر أمره بشنقه في ساحة سوق بلدة سولووق؛ وشنقوه. ثم ساقوا آلافًا من المسلمين بالقوة رجالًا ونساءً من معسكرات التجميع التي كانوا بها وأجبروهُم على مشاهدة قاندوهم وهو معلق في جبل المشنقة».

(6) وقع هذا العمل الفروسي الإيطالي في ١٦ سبتمبر عام ١٩٢١.
كانت يدى مازالت بيد سيدى محمد الزواري ونحن نقترب من الزاوية السنوية. كان الزلزال مخيفًا على الميدان الواسع، وابتدأنا عن ضوضاء السوق الذي أصبح خلفنا، لم نكن نسمع إلا صوت الرمال المنحلة تحت صنادلنا. كانت إيل نقل البضائع باركة في مجموعات متفرقة ونرى أشياء في الظل، ومنازل بعيدة في الطرف البعيد من الميدان تبدو غير واضحة أمام خلفية من سماء ملونة بالغيوم. ذكرتني هيئة البيوت بحافة غابة بعيدة - كانت مثل غابات أشجار الصنوبر في هضبة طبرق حيث التقیت للمرة الأولى والأخيرة بسيدى عمر المختار، وراحت ذكري تلك الرحلة التي لم تشر شيئًا تتراكم داخلها براحةها المتساوية من ظلام ومطارح وموت، ورأيت بين سبيل الذكريات وجه سيدى عمر المختار وهو يمنحك على لهب نار صغيرة، وأذكر صوته الأشجع: لا لاذ أي نقاتل في سبيل ديننا وحريتنا حتى نطرد الفتاة أو نموت...
لا يوجد خيار آخر...

* * *

كانت مهمة غريبة تلك التي سافتى إلى طبرق في آخر يناير عام 1931 قبل المهمة ببضعة شهور - في خريف عام 1930 على وجه الدقة - وصل السوسي الكبiry إلى المدينة. قضيت ساعات مع صحبة محمد الزواري، ناقشت الوضع المبهم منه للمجاهدين الذين كانوا ينضلون في برقة تحت قيادة عمر المختار. تبين أنهم إن لم يلتقوا مساعدات عاجلة وفعالة من خارج ليبيا، لن يتمكنوا من الصمود.

كان الموقف إجمالًا في برقة كما يلي: كانت كل المدن الساحلية، وبعض المراكز شمال الجبل الأخضر تحت سيطرة الإيطاليين، وكانوا يسيرون دوريات بين تلك المراكز مكونة من عربات مصفحة وأعداد كبيرة من الخيالة، وأطقمهم من الجنود الأيطاليين، وتدعمهم أسراب طائرات مقاتلة تشن الغارات على مناطق المجاهدين. لم 385
يكن البدو (وهم الكتلة الرئيسية من مجاهمي عمر المختار) يتحركون من أي مكان دون أن يتم رصد تحركهم فورًا وتهجهم الطائرات من الجو. حدد كثيرًا أن طائرات الاستطلاع كانت ترصد وجود تجمع للقبائل وتقلب أقرب نقطة حسينة باللاسلكي من أماكن تواجد البدو، في الوقت الذي تمنعهم الطائرات من التفرق بدماغها الرشاشة حتى تصل الدرعات، وتسير مباشرة باتجاه الخيام بما فيها من بدو وتقتل بلا تميزين كل ما يمكن قتله من رجال ونساء وأطفال وإبل ومواشي، ومن يبقى على قيد الحياة كان يساق إلى الشمال إلى معسكرات تجمع هائلة محاطة بأسوار شائكة أقامها الإيطاليون على الساحل.

في ذلك الوقت، بالقرب من نهاية عام 1930، كانوا قد سافروا إلى تلك المعسكرات حوالي شماليين ألف بدوي و멋ات الآلاف من إبل ومواشي والأنعام، ولا يوجد بتلك المعسكرات ما يكفي لطعام جميع هذا العدد. فراح الموت في المجمعة يحسب أرواحهم بشكل مخيف. عدا ذلك كان الإيطاليون يقيمون سرًا عازلاً من الأسلاك الشائكة يفصل ليبيا عن مصر يمتد من الساحل حتى واحة جغوب لمنع المهاجرين من الوصول على إمدادات من مصر. كانت قبيلة المغاربة تقاتل في شرارة واستبسل تحت زعامة قائد «الاطاوش» ذراع عمر المختار الأيمن، في غرب منطقة الساحل من طريق، في حين كان الإيطاليون قد استعمروا مناطق باقية القبائل بطرقهم في العدد والتسليم. وفي عمق الجنوب كانت قبيلة رازوية تحت زعامة أبو كريم البالغ من العمر تسعين عامًا مما تزال تقاوم في يأس بعد أن أرحتهم الإيطاليون عن موطنهم في واحة جالو. أما في الوسط، فقد الجوع والأمراض يحصدان البدو حصدًا.

لم تتجاوز القوات التي يوظفها عمر المختار في أي وقت الألف رجل، لم يكن ذلك لنصي في الرجال، بل إن نمط حرب الإفاندات الفائقة الذي كان عمر المختار يقوم به يتطلب سرعة الحركة لمجموعات صغيرة ضارية تظهر فجأة من حيث لا يشعر بها. أحد لتحصين قافلة إيطالية متحركة أو نقطة ثابتة حسينة تستولى منها على السلام، وتختفي فجأة كما ظهرت فجأة في غابات أشجار الصنوبر أو في وديان خفية بين
جبال منطقة طبرق. لم يكن من الممكن للكشاف الصغير الذيعدد مهما كانت شجاعته وإصرارها على الشهادة أن تحقق نصرًا حاسمًا على العدو يمتلك إمدادات ومصادر سلاح غير محدودة من رجال وعظام. كان السؤال المطروح هو كيف ندعم المجاهدين ليتمكنوا ليس فقط من إنزال خسائر بالغة، بل لاسترداد المواقع التي تركز فيها العدو واحتفظها، ثم التمسك بتلك المواقع عند أي هجوم مضاد لاستردادها.

كان دعم المجاهدين السنوسيين يعتمد على عدة عناصر: تدقق مستمر لإمدادات الغذاء من مصر، حيث يعاني المجاهدين من نقص الغذاء معاناة شديدة؛ وأسلحة قادرة على الصمود أمام الطائرات المجدية والصواريخ المدرعة - كانوا يحتاجون بناءً مضادة للدموع، ودفاع عن رشيشة ثقيلة، وأفراد مدربياً جيدًا وقادرين على استخدام تلك الأسلحة وتدريب المجاهدين على استعمالها؛ وأخيرًا، إيجاد نظام اتصالات لاسلكي بين مختلف مجموعات المجاهدين في هضبة طبرق وبين مستوين الإمداد والتموين من خلال الحدود المصرية.

لتشكلٍ نجتمع على مدى أسبوع تقريباً كل ليلة، أنا، والسنوسي الكبير سيدى محمد، لنناقش ما يمكن عمله. كان رأي سيدى محمد أن الإمدادات غير المنظمة للمجاهدين لن تجدي. كان يؤمن أن واحة الكفرة، في جنوب صحراء ليبيا، والتي كانت مركز قيادة الحركة السنوسي في أيام سيدى أحمد لابد أن تصبح من جديد نقطة المركزية لقيادة كل أعمال المقاومة الحربية القادمة؛ لأن الكفرة كانت مزراعاً بعيدة عن أيدي الإيطاليين. وقد تكون أفضل لقوافل الإمداد (على الرغم من طول الطريق وصعوبته) في الانتقال ما بينها وبين واحة الفرافرة البحرية في مصر، وذلك يكون هناك ضمن أفضل وسائل الإمدادات بطريقة منتظمة، كما أن الكفرة من الممكن أن تكون مكاناً صالحاً لإيواء آلاف البند الذي يلجأون إلى مصر ويجدون في معسكرات بها، وبذلك يتوفى مصدر للمقاتلين لتدريبهم على أعمال الحرب تحت قيادة عمر المختار في الشمال. فإذا تم تحصين الكفرة فإنها من الممكن أن تصبح أمام هجوم الطائرات.

387
المغيرة ويصبح القصف بالقنابل من ارتفاعات عالية غير مؤثر في تجمعات حصينة منشورة في منطقة واسعة.

وقال السياسي الكبير: إنه إذا كان ممكنًا إعادة تنظيم خطط النصارى فإنه سيعود بنفسه إلى الكفرة لقيادة العمليات الجديدة من هناك. أما أعتقد أن أصدرت أنه لكي تنجز مثل تلك الخطة فإنه من المحتم على سيد أحمد أن يعيد تأسيس علاقات جديدة مع البريطانيين الذين هاجموهم بلا داع عام 1915. وكنى تحسين العلاقات لا يبدو مستحيلًا، فالبريطانيين لم يكونوا سعداء بنوايا إيطاليا التوسعية، خاصة بعد أن أعلن «موسوالي» للعالم أجمع نواياه في إعادة إحياء الإمبراطورية الرومانية على سواحل البحر المتوسط، وكانت عينه على مصر يوجه خاص.

كان اهتمامي بالحركة السنوية لا يعود إلى إعجاب شخصي ببطولاته الفائقة، وشجاعتهم في قضيتهم المادلة؛ ما كان يهمى أكثر من ذلك هو الأثر الذي سيتركه الانتصار السنوسي إن تحقق على العالم العربي كله. ومن ثم، مثل كل المسلمين، كان ابن سعود محترمًا لمئات كما حقيقي لحركة إحياء الأمة الإسلامية، ثم ثبت أن أنها كانت آمال وحيدة، ولم أجد في العالم الإسلامي كل حركة أصيلة تبني تحقيق المجتمع الإسلامي مثلا وجدت في الحركة السنوية، وكانت الحركة السنوية في ذلك الوقت تحارب معركة الخندق الأخيرة من أجل البقاء.

ولعرف سيد أحمد بمشاعر تجاه القضية السنوية، استدار ونظر نظرة مباشرة إلى عينه وقال:

«هل تذهب إلى طريق بسما وتراعف بنفسك على ما يجب عمله لمساعدة المجاهدين؟»

وأما كان بإمكانك أن ترى الأشياء أوضح مما تراه عينيًا.

نظرت إليه وهزت رأسى بالموافقة، دون كلمة، بالرغم من يقينى بقثته بي، إلا أن ما طلبه مني جعلني أحبس أنفسى. كان إقدام على مغامرة بهذه الجسامية يجعلني لا أجد الكلمات المناسبة؛ ما أثارني هو احتمال أن أقوم بشيء للحركة التي ضحي رجال كثيرين بأنفسهم في سبيلها.
مد سيد أحمد يده إلى رف فوق رأسه وتناول مصحف مطوف في قماش حريري.
وضع كتاب الله على ركبتيه، وتناول كف来自ين بين كفيه ووضعها على القرآن.
وضعهما على القرآن، وقال: "آقسم يا محمد، بالله الذي علم ما تخفي الصدور.
أنك ستظل مخلصًا للمجاهدين… ".

أقسمت؟ ولم أكن على يقين وإيمان بقسم أقسمته في حياتي مثما كنت على يقين
من التزامي المطلق بهذا القسم.

* * *

كانت المهمة التي أسندها إلى سيد أحمد تتطلب سرية مطلقة: وإن علاقتي
بالسوسني الكبير كانت معروفة، وتحت بصر الأبعاد الأجنبية في جدة، لم يكن من
المستحيل أن أسافر إلى مصر بشكل واضح وظاهر وأتعرض لاحتمال مراقبتي
 وإجهاض مرمومي. كان كشفنا لخفايا استمرار تمرد فيصل الداوش والجهات التي
تقوم تمرده لا يدعم موقف البريطانيين، ولابد أن نركب قتار لم تصل بضعة
أيام بعد الوصول إلى مصر. لذلك اتفقنا أن أذهب إلى مصر خفية دون أن يشعر بـ
أحمد. قررنا أن أبحر البحرين الأحمر في أحد المراكب الشراعية العربية ونقل خفية
على أحد السواحل المهجرة جنوب مصر دون أوراق أو صور أو تأشيرة
دخل، وفي مصر أنتقلنا إلى هيئة رجل حيازي، وكان بصر كثير من أهل مكة
والعربية الذين يذهبون إليها لأغراض التجارة أو البحث عبر تورنت أداء فرضية الحج.
وقد كان ذلك من المشاكل الملحوظة في ريف مصر ومدنها - ولأنه أحدث اللهج
الجاكيزية بإيقاف مطلق، كان بإمكاننا أن ننتقل بحرية في مصر بصفتي أحد أبناء
الديثتين القديسين.

تطلب الإعداد للسفر بضعة أسابيع، وشمل تبادل الرسائل سراً مع سيدى عم
المختار في طريق ومع المراكب السوسنية في مصر، وبدأت السفر في الأسبوع الأول

389
من يناير عام 1931، بصحبة زيد من ميناء ينبع بالحجاز من مكان غير مطوق على الشاطئ. اخترتنا ليلة بلا قمر، وكان سيرنا على مشيتي غير ممهد بصندلنا غير يسير ومضني، فقد تعرضت وسقطت على الأرض وفي سقطتي ضرب مقبض المسدس الذي كنت أخفيه تحت قفطاني الحجازي ضلموعي، وأحيا بذلك في ذهني جوانب خطورة مهتمة التي كنت مقدمًا عليها.

ها أنتو أمضي إلي موعد مع ربان مركب عليه أن يأخذني في مركبه عبر البحر الأحمر وننزل خفية على شواطئ مصر، لم أخذ معي أي وثائق تفضح شخصيتي، فإذا قبض على في مصر، لن يكون من السهل أن أثبت لهم من أنا. ورغم ذلك فإن خطر البقاء عدة أسابيع في السجون المصرية لا يقارن بالمخاطر الأخرى التي قد أتعرض لها. كان علي أن أشكي طريقي عبر كل الصحراء الغربية لقصر، متجنبي عيون الجواسيس الذين يعملون لصالح إيطاليا لرصد التسلسل عبر الصحراء الغربية المتاخمة لليبيا، وقد تصادفنا دوريات من الغربيات المسحية الجندزية في أعماق بلاد لا يوجد فيها إلا السلاح.

لماذا فعل ذلك؟

على الرغم من أن اقتراح المخاطر لم يكن جديداً على، فإنني لم أسعى إلى المخاطر لمجرد الإثارة. وحين كنت أقترح المخاطر فإن ذلك كان دائماً استجابة لاحتياج محور يرتبط بوعي أو بلا وعي بنمط حياتي كما كنت. فكيف ينبغي ذلك على المهمة التي أنا يسير إليها؟ هل هناك أي احتمال أن ما أفعله قد يحل دفعة الأمر لصالح المجاهدين؟ أم أردت أن أصدق ذلك، إلا أنني كنت أؤمن في أعمق قلبي أن جهاد لا طائل من وراءها. إذن لم أذا بحق الله أغرر بحياتي كما لم أغمر بها من قبل.

ودون أمل من وراء تلك المغامرة؟

إلا أن الإجابة كانت حاضرة حتى قبل أن يكتمل السؤال في لم عيني.

فحين اعتنقت الإسلام وقبلته كمنهج حياتي، اعتقدت أن كل تساؤلاتي وسعى للبحث قد رست على نهاية. ولكن تدريجيًا، وبطءًا، بدأت أعي أن مجرد إسلامي لم

390
يكون النهاية، لقد وجدت أن قبولي لنمط الحياة، كان يعني، في على الأقل، الارتباط الكامل بعين إيمانك نفسه - لا بالإحساس والمشاعر فقط، ولكن بالعمل على ما فيه صالح المجتمع الذي أنتشيء إيمانه. بالنسبة لي، كان الإسلام طريقاً; إلا أنه لم يكن نهاية - وكان ماجاهيدي عمر الخيار يقتلون بيأس ويدافعون دماهم من أجل الحرية ليسروا على الطريق نفسه الذي اختبرته، طريق الإسلام، كما فعل صحابة الرسول من ثلاثة عشر قرنًا، وأن يكون نافعًا لهم مما يقتني من عدم جدوى المهمة ونتائجها، كان يبدو لي فرضية كالصلاة...

ما نحن وصلنا إلى الشاطئ، كان هناك قارب؟ بمجدافين ترجمه الأمواج واسياً على خصر الشاطئ باستمراراً بيثنا إلقاء إلى الامام، الشعاعي الذي كان يتزخرنا في عمق اليماء بعيداً في الظلام، حين كان ينهب الرجل المسك لمجدافين ونحن نقترب، قلت لزيد:

"أخي زيد، هل تعرف أننا ذاهبون إلى المغامرة؟ أخطار كثيرة في الهمة، التي قمنا بها لكشف سر استمرار تمرد فيصل الداويش والإخوان؟ لا تتطلع إلى الحياة الأبدية، بالديانة ولياء الأصدقاء؟ «.

أجاب زيد: "طريقك طريقي يا عم، ألم تقول لي بنفسك أن اليماء الراكدة تتعطن؟ هيا بنا - حتى تجري اليماء وتهنئ تقياً...".

كانت المركب واحدة من تلك المراكب الشراعية الكبيرة التي تسمى «دهو» ومضى كثير منها بين السواحل والموانئ العربية، مشيدة بجذعها من الخشب، وتبعد منها راهنة الأسماك وأعشاب البحر، بموجات عالية مرتفعة عن سطح الماء، وصاربتين على الطرق اللاتيني، وبينهما قمرة واسعة وطائفة السقف. كان ربان المركب رجلًا عجوزًا من مسقط، له عينين ضيقان مثل خزيرتين تطلان من تحت عوامة ديدرة ملونة، نظراته تشبه بكثرة المخاطر التي واجهها في حياته والمغامرات الكثيرة التي صادفها;

ولم يبد أن خنجره الكبير المليّف ذى المقبض الفرنسي المثبت في حزامه قد وضع لجرد الزينة.
قال ونحن نصعد إلى سطح المركب: "مرحبًا، يا مرحباً يا أصدقائي، هذه ساعة سعد.

تساعد في عقلي، كم مرة من قبل رحب بالحجاج الفقراء الذين ينقلهم من مصر دون تفكير في راحتهم وينزلهم على سواحل الحجاز حتى يبنجوا الأعياء المالية الثقيلة التي تعرضها السلطات السعودية على من يودون أداء فريضة الحج لله؟ كم مرة وجه عبرات الترحيب ذاتها إلى تجار الرقيق الذين يخالفون الشريعة الإسلامية ويسترون الأثيوبيين الفقراء الذين بيعهم في أسواق الرقيق في اليمن؟

عزيت نفسي عن ذلك بأن الخبرائق التي اكتسبها ريس المركب، مهما كانت أسبابها، ووافقها قد تكون مفيدة لنا، فهو يعرف طريقه في البحر الأحمر بخبرة لا توجد إلا لدى قليل من البحراء، ويمكننا الاعتماد عليه في إنزالنا بمكان مأمون على سواحل مصر.

* * *

بعد أربع ليال قضيتناها على ظهر الدهون، نزلنا من جديد إلى قارب المجابيف ونزلنا بموضع على الساحل المصري شمال ميناء القصير جنوب مصر رفض الريس أن يقبل أجراً؛ لأنه كما قال مكرساً" قبض ثمن النقل من رؤسائه "و"الله مكص".

كما توقفت، لم يكن من الصعب أن نتخين في القصير التي اعتاد أهلها رؤية أهل الحجاز بملابسهم المميزة. في الصباح التالي ركبت سيارة عامة متاهكة متجهة إلى أسياط على نهر النيل، وانحشت بين سيدة بديهة جداً كانت تحمل على حجرها قفصًا مليئًا بالحجاج ورجل فلاح عجوز، يمجرد أن رأى راح على الفور بروى ذكرياته حجمه الذي أداء من عشرة أعوام، ومن القصير بدأنا أن وزيد أول خطوات رحلتنا الإفريقية.
كنت أعتقد على اليوين أن المتفق يشعر أنه محط الأنظار المتشكلة من جانب كل من يربونه، وأن الناس سرعان ما يكتشف حقائقته، إلا أنني لم أشعر بذلك، فخلال السنين التي قضيتها بالجزيرة العربية ذيت في حياته أهلها حتى صرت بالفعل واحداً منهم كرغم أنه لم أشارك أهل مكة ولا المدينة شؤون التجارة، إلا أنني لم أشعر بإفتلاع وأننا أقيم بدور معهد الحجاج في مناقشات مطولة مع ركاب آخرين عن فضائل الحج، كما تقصص زيد الدور نفسه بانغماس كامل، وقضينا الساعات الأولى من رحلتنا في مناقشات ممتعة.

من أسباب ركنا القطار حتى مدينة صغيرة هي بنى سوييف، وذهبنا مباشرة إلى منزل حلفة اوصلنا بالاسمنتين، وهو إسماعيل الدهني، وهو رجل قصير بدين ذو ملامح مرحة، يتحدث لهجة أهل صعيد مصر. كان تاجر ملادس متوسط الحال، ولم يكن من المشهورين في المدينة كلا أن ولاه للحركة السنوسي كان شديداً وواصة لسيد أحمد. وبالرغم من وصولنا إلى بيتنا في ساعة متأخرة، إلا أنه أيقظ الخادم ليعد لنا وجبة طعام، وحين كنا بانتظار الطعام، عاد علينا سرد الترتيبات التي أعدها لرحلتنا.

بمجرد أن تلقى رسالة سيد أحمد، اتصل بشخصية مروفة في العائلة المالكة في مصر من المؤدين للحركة السنوسي، وتحمس ذلك الأمير جدًا للمهمة التي أقوم بها. وأمر بوضع كل الأموال اللازمة تحت تصرفي، وإعداد الإبل والابنات من الأدلة الأكفاء لقياستنا حتى ط BroadcastReceiver. في تلك اللحظة، أخبرنا مضيفنا أنهم بانتظارنا واحد بساتين النخيل خارج مدينة بنى سوييف.

وتخلصت أنا وزيد من الوزي الحجازي، الذي قد يثير الشكوك في الصحراء الغربية ولبنسا سراويل قطنانية وقصصاً على نمط ما يلبسه أهل شمال إفريقيا وبرنس صوفي، وكذلك الذي يرتديه غرب مصر وشمال ليبيا. وأحضر لنا من طابق تحت الأرض بمنزله مسديس من صناعة إيطالية: "حتى يكون من السهل علينا الحصول على نخبة لهما من التي جذبت المجاهدين". في الليلة التالية قادنا مضيفنا إلى
خارج المدينة. كان لدينا من قبائل سعودي بالواد على الذين يعيشون غرب مصر وشمال ليبيا. وكانت الحركة السسسورية تضم كثير منهم. كان أولهم واسمه عبد الله، شديد الحيوية وشارك في العام السابق في معارك منطقة طبرق بين المجاهدين والجيش الإيطالي، وزودنا بخدمات كثيرا مما يمكن أن يواجهنا هناك. والآخر، الذي نسبت اسمه، كان نحيلًا معتل المزاج نادراً ما يتحدث إلا أنه كان من النقاء. كان معهم أربعة جمال بذاتها قوية وسريعة من فصائل جمال البشارية وتم اختيارها بعناية، وعلى سرير ركاب لا تختلف عن تلك التي ألقتها في الجزيرة العربية. وما كان علينا أن نتحرك طول الوقت بسرعة، لم يكن هناك وقت لإعداد وجبات مطبوخة؛ لذلك كان تمويننا بسيطًا: جوال من التمر، وجوال أصغر من السكين المثلث المخبوط برفقى تمر، وقرب ماء على ثلاثة من الجمال.

قبل منتصف الليل بقليل، احتضننا إسماعيل التهامي مودعًا وهو يدعو الله أن يشملنا برعايته، كان متأنئًا بعمق. وقيادة عبد الله غادرنا بستان النخيل، وسرعان ما كنا تحت ضوء قمر ساطع، نجري بالجمال في إيقاع سريع فوق سهل صحراوي حصوي باتجاه الشمال الغربي.

ابتدأنا عن طريق القوافل المتعددة حتى لا تلتقي بدوريات حرس الحدود المصرية، إلا أن السير إلى الشمال لم يكن يشكل خطرًا. قطعنا في الليلة الأولى حوالي ثلاثين ميلاً، وتهزنا في النهاية بين تجمعات لأشجار الطرفة والأعشاب، في الليل الذي التالية قطعنا الطريق بمعدلات أكبر، وفي فجر اليوم الرابع كنا قد وصلنا إلى حافة المناخ الكبير الذي توجد به الواحات البحرية.

توارين خلف صخور ضخمة على حافة المناخ الكبير - كانت الواحات عبارة عن تجمعات سكنية متعددة بشكل كل تجمع إحدى القرى، كانت القرية الرئيسية قرية البناعيتي - نزل عبد الله منحدراً من الحافة الصخرية إلى المناخ الكبير، الذي تنمو به أشجار النخيل بغزارة لبقائها حلقته الاتصال بالواحات المحيطة بقرية البناعيتي. كنا نعرف أنه لن يعود إلا بعد حلول الليل ولذلك تتدننا لتنام في ظل الصخور المبشرة. راحة

394
لممتلئة بعد ليلة من الركوب الطويل في ليلة باردة، لم أتمكن من النوم نوعاً عميقاً فقد شغفت ذهنى أفكار كثيرة.

أعادت في ذهنى مراحل خفنتها، بدأ لي أنه لن يكون صعباً المحافظة على طريق دائم ومنظم بين بني سويف والواحات البحرية بقوالب يتم الإعداد لها بعناية. وعلى الرغم من أن مكتبة مراقبة الحدود كان بحرية البيضاء (وكانا نرى مبانيه البيضاء وحنى على الحافة الصخرية التي تعلو المنخفض) ، كما يمكن أن ينشئ محطة اتصال لاسلكية في إحدى تلك القرى المنعزلة جنوب الواحات البحرية . وأدان لي عبد الله ذلك بعد أن عاد هو والاحتفال العجوز الذي كان حلفة اتصالنا بالباويتى. لم تكن الواحات البحرية تحت سيطرة محكمة ولا رقابة دقيقة، والأهم من ذلك أن كل أهل الواحات كانوا يؤدون الحركة السنوية.

بعد أربع ليال أخرى من السير المتواصل، عبر وديان حصوية، ثم عبر فوائق الصخرية كثيرة، ثم كثبان رملية مسطحة؛ تجاوزنا واحات «سترا» غير المأهولة ببحيراتها المألوفة التي يحيط بها تربة اليوس ونخيل الكثيف، ثم عبر قوس «أرف» بصخرة الجيرية المتعارضة اللعنة النجوم والكنوز. والتي كان ضوء القمر يخلق منها أشباحاً مخيفة كانتنا في العالم الآخر. بعد نهاية الليلة الخامسة، تبدى لنا أول ملامح واحة سيوة.

كان من أعز أمانيتي لزمم طويل أن أزور تلك الواحات النائية التي كان بها معبد آمون صاحب النبوءات الشهيرة في العالم القديم؛ ولم يحقق رغبتي قبل ذلك. وما هي الآن تبدو أمامي على ضوء الفجر المتزايد: استعداد مائل لأشجار النخيل لا أرى نهايته يحيط كل مرتفع تقع عليه بيوب أهل الواحة. كانت البيوت تبدو كأنها مقامة في كهوف صخرية تنتصب طابقًا فوق طابق على منحدرات التل وتصعد باتجاه منصة مخروطية تحت أعلى التل. كان تجمعًا غريبًا للمساكن مثل تلك التي تراها في الأحلام. أمسك بتبليبي رغبة ملحية أن أطوف بنواحيها الغامضة وأن أتجول عبر شوارعها التي شهدت عصور الفراعنة وأن أشاهد حطام المعبد الذي استمع فيه
كرسوس » ملك ليديا إلى نبوة كهنة المعبد بموته، وعلم فيه الإسكندر الأكبر بأنه سيد قوة العالم كله. ولكن بقي شفيفاً مرة أخرى دون تحقيق، فبالرغم من قربها من إلا أنها ستظل مغلقة دوني. مكان مثل هذا مؤثر عن العالم الخارجي يلاحظ فيه أي وجه غريب بمنتهى السهولة، وسيكون من المحامات أن أفعال ذلك: كانت الواحة تكاد تقع على الحدود الليبية وبالتالي كانت تحت الرقابة الصارمة للإدارة الإيطالية عن طريق ناقلة الأخبار الذين تدفع لهم السلطات الإيطالية. أنتجت نفسي في أسي أنه ليس من نصيب أن أزر سيرة هذه المرة، وصرفتها عن ذهني.

لكننا حول الواحة في نصف دائرة من جنوبها، ثم أتنفس الجبال في فج بين الصخور ينمو فيه نخيل برى. ودون أن يرتاح عبد الله، لأنه لم يكن لدينا النية للتوقف طويلاً في منطقة الحدود إلا للضرورة، ذهب للقاء حلفة الاتصال وطلب منه أن يتلقانا فهو عبورنا الحدود. بعد بضع ساعات عاد ومعه دليلان آخران وأربعة جمال أخرى غير مستنفذه القوة. كان الدليلان من ندو برجه بالجبال الأخضر ومن رجال عمر المختار، وأرسلهم بنفسهم ليقودانه عبر المفصل بين وحات جفروب التي يحتلها الإيطاليون وواحات جالو، حتى هضبة طبرق، حيث كنت سأنتقى بعمر المختار.

ودعنا عبد الله وصديقه اللذان استجرا عائدين إلى قريتهم بمصر؛ وقيادة المجاهدين، خليل وعبد الرحمن، بدأنا رحلة الأسبوع في صحراء بلا ماء تصعد بالتدرّج حتى هضبة الجبل الأخضر. كانت أصعب رحلة صحراء عرفتها في حياتي، وبالرغم من عدم وجود مخاطر كبيرة من اكتشاف الدوريات الإيطالية لنا، إلا أننا لجتنا إلى الاختفاء والسكن نهارًا والسير ليلاً. وكانت ضرورة الابتعاد عن خط الآبار التي تفصلها مساحات شاسعة تجعل من الرحلة غذاً مهبلاً ويحلها إلى ما يشبه الكابوس. لم نتمكن إلا مرة واحدة من سقى جمالنا وإعادة مل قرب مياهنا من بئر معزولة نائية في وادي المرا؛ وثبت ذلك قلة حيننا. وصلنا البئر متأخرين عما خططنا له، كان نور الفجر قد بدأ يتبلع حيننا نسحب أول دلو لسقي الجمال، ومنذنا انتهينا كانت
حافة الشمس قد بزغت فوق الأرض، وكان يفصلنا عن المنخفض الصخري الذي نوينا أن نختفي فيه نهارًا ساعتين من السير السريع بالجمال. ولكن بمجرد أن عاودنا السير سنغنا صوت مشقوق لمحرك طائرة يحطم صمت الصحراء، بعد دقائق كانت طائرة ذات محرك واحد تحوم فوقنا، راحنا تنخفض في دوائر. لم يكن يوجد مكان للاختباء ولا للاحتفاظ فقدنا من على ظهر الجمال وانتشرنا متفرقين، في تلك اللحظة فتح الطيار نيران رشاشةه، صحت: «انطفحوا، انطفحوا على الأرض، ولا تتحركوا، تظاهرنا بالموت». إلا أن خليل الذي اعتاد على تلك المواجهات لم يتظاهر بالموت، فقد تصدى على ظهره ورأسه على حجر، وثبت البندقية على ركبته وبدأ في إطلاق النار على الطائرة الهابطة في اتجاهنا. لم يكن يطلق النار عشراتًا بل كان يصوب قبل كل طلقة كما لو كان فيتدريب على الرماية. كانت بطولة فائقة من خليل انجهت الطائرة مباشرة في هبوط انقضاضي، وأثارت زriority من الرمال المنطلق منها، وربما أن إحدى طلقات خليل قد أصابت الطائرة، فقد ارتجت فجأة ثم وجهت مقطعتها إلى السماء، وطارت على ارتفاع عالٍ. كان من الواضح أن قادئها قد قرر أن أربع رجل لا يمكن أن يكونوا هدفًا يستحق المخاطرة بالطائرة. حام مرة أو مرتان فوقنا، ثم اختفى في اتجاه الشرق، في اتجاه واحة جغوب.

قال خليل ببهدو، ونحن نعيد تمجتنا: «الإيطاليين أولاد كتب جبناء، يعيشون قتل البشر، ولكن لا يجب أن تتعرض بشرتهم لخدش».

لم يصب أحد منا بذوى إلا أن جمل عبد الرحمن مات برصاصة. نقلنا قرب الماء التي كانت معلقة بالجمل البين إلى جمل زيد، وركب عبد الرحمن ردينًا لزيد.

بعد ذلك بثلاث ليال وصلنا إلى غابات أشجار الصنوبر بالجبال الأخضر وأبدنا ونحن نشعر بامتتان جمالنا المجهدة بخول كانت بانتظارنا في منطقة نائية في حراسة مجموعة من الماجدين، من تلك اللحظة أصبحت الصحراء خلفنا؛ وسرايا عبر هضبة متردجة في الارتفاع يقطعها عدد لا نهائي من مجاور لبيئات الجافة وطبقتان بأشجار الصنوبر المنتشرة التي تتجمع في بعض المناطق بكثافة لا يمكن اختراقها. تلك المنطقة.
البرية التي لا مسالك فيها والواقعة في قلب المنطقة التي تحتلها إيطاليا هي أرض الصيد بالنسبة للمجاهدين.

* * *

حملتنا أربع ليالي أخرى من السير إلى «وادي التعبان» - وكان اسمًا على مسمى، حيث وصلنا ونحن في غاية التعب والإجهاد، كما نستنبط في ذلك الوادي بعمر المختار، كان مكانًا خفيًا في منطقة أشجار كثيفة، ربطنا خليونا إلى نتوء صخري، وانتظرنا وصول أسد الجبل الأخضر. كانت ليلة باردة لم تظهر في سمائها نجمًا ويسودها صمت عميق.

كانت أمامنا بضعة ساعات قبل وصول سيدى عمر المختار؛ ولأن الليلة كانت مظلمة ظالماً دامساً، رأى البدو من قبائل بركة أن تتخلص من ماء القريب ونُعيد ملتها بماء جديد نقي من بئر «بوسفورية» الواقع على بعد عدة أميال إلى الشرق، وكانت توجد نقطة إيطالية حسية تبعد نصف ميل فقط من بئر «بوسفورية».

قال خليل: «لن يجازف أولئك الملاعين يترك تحصيناتهم في ليلة مظلمة». وهكذا، انتقل خليل بصحة زيد على ظهر الخيل ومعه قرية ماء فارغتين بعد أن لفوا ثيابًا قديمة على حواف الجبال حتى لا يصدر منها صوت على الأرض الصخرية. اعتفت في الظلم، بينما تلاصقتنا أنا وعبد الرحمن طلبًا للدفاع بجوار صخرة واطئة.

كان من الخطر الشديد إشعال أي نار.

بعد ساعة أو نحو ذلك، طلقت بعض أفرع أشجار الصنوبر، وصدر صوت خفيف لصنبل على الصخور، تيقق صديقى في الحال ووقف منتبهًا للحظة وبدقيته بين يديه وتقدم في الظلم، وصدر صوت مثل صوت ابن آوى من بين الأحراش الكثيفة، كبر عبد الرحمن كفهه حول فمه بصوت مماثل فظهر أمامنا شبحين لرجلين كانا على أقدامهما ويهملان بندقيتيهم. حين اقتربنا قال أحدهما:
الله معك، سيدى عمر قادم.

وقفنا نتنصت في الظلام، بعد عشر دقائق أخرى طلقت أشجار الصنوبر وظهرت أشباح ثلاث رجل آخرين، ظهر كل واحد منهم من جهة مختلفة وبنادقهم في وضع استعداد، وحين تيقنوا من صحة شخصيتنا، انتشرنا من جديد بين أشجار الصنوبر في اتجاهات مختلفة، كانت إجراءات وقائية للحفاظ على سلامتي زعمهم، ثم رأيتهم قادمين راكبًا جواده وحافره ملقوًا أيضًا ببصمة قديمة وعلى كل جانب، يسير رجالان وآخرين من خلفه، وحين وصل إلى الصخر التي كنت أنتظر عندما، ساعدتي أحد الرجال على الترجل من على ظهر جواده، لاحظت أنه يسير بصرعية (عرفت بعد ذلك أنه أصيب في اشتباك مع العدو قبل عشرة أيام)، على ضوء القمر الذي بدأ في الظهور بدأت آهات بوضوح، كان رجلاً متوسط القدام، قوي البنية، تحتي وجهه لحية بيضاء قصيرة، وخطوط عميقة في ثنايا وجهه، كانت عيناه عميقتي المحجرين، ومن التفاصيل التي حولتها يمكن أن تخمن أنهما في ظروف مغايرة من الممكن أن ينفرجا في ضحكات من القلب، أما في تلك اللحظة، فلم يكن بهما إلا ظلمة ومعاناة وشجاعة فائقة.

خطوت للأمام للقائه وأحسنت بقبضته القوية.

قال: «مرحبًا يا بني!»، كانت عيناه وهو يقول ذلك تمساحي بدقة واستحسان.

كانت عينانا رجل أصبحت المخاطر خيزة اليوم.

فردت أحد الرجال بطنية على الأرض جلس عليها سيدى عمر بثقل من إصابته.

انحنت عبد الرحمن وقبل يده، وبعد أن استانته، أنشغل بإشعال نار صغيرة تحت
الجوانب المخفية للصخرة. وعلى الضوء الشاحب للنار الصغيرة راح سيدي عمر يقرأ رسالة سيدي أحمد التي أرسلها معي. قراها بعثة، ثم طوحاها، ووضعها على رأسه للحظات - وهي علامة احترام وإخلاص لم أر مثيلاً لها في الجزيرة العربية - ثم استدار إلى مبتسمًا، وقال:

«سبيدي أحمد، أطل الله عمره، يقول عنك كلمات طيبة. يقول إنك مستعد لمعاونتنا، ولكن لا أعلم من آين تأتي المساعدة ماعدا معونة الله، القادر، الكريم، لقد وصلنا إلى نهاية وقتنا».

قلت: «ولكن الخطة التي يعرضها سيد أحمد، لا يمكن أن تشکل بداية جديدة؟ إذا كان من الممكن ترتيب إمدادات منتظمة لواحة الكفارة وتصبح قاعدة عمليات للأيام القادمة، لا يمكن بذلك السيطرة على الإيطاليين.

لم أرى في حياتي ابتسامة مرة كتلك الابتسامة التي لا أمل فيها على وجه عمر الختار ولا كلماته التي رد بها على قائلًا: «الكفارة؟ ستغاث الكفارة. احتلها الإيطاليون من أسبوعين ...».

أخذتني تلك الأدباء، لقد رحنا أنا وسيد أحمد تضع الخطط على مدى الشهر الماضي، وكانت كلها تعود على أن تكون الكفارة مركز القاومة المتين. يضاء الكفارة لم يتبق تحت أيدي الجنسيين إلا الهضبة المعينة لجلب الأخضر - لا شيء متاح أمام تضييق الخناق التواصلي الذي يقوم به الإيطاليون، ويضع موقعٍ بعد موقع، خنق بطيء مستمر، إلا أنه لا ينتظى ...

سألت: «كيف سقطت الكفارة؟».

بإشارة واهية من يده أشار عمر الختار لأحد الرجال بالتقدم، وقال: «هذا الرجل يحكي لك كيف سقطت ... إنها واحدة من قليل هم استطاعوا النجاة من الكفارة، ووصل بالأسد فقط».

جلس الرجل مترعماً أمامي، وذهب أطراف برنسي بالبالي حول بدن. تحديث ببطء دون ارتجاف في صوته، إلا أن وجهه التحيل كان ينقل علامات كل الرعب الذي شهده.
قال: «جاء الإيطاليون إلى الكفرة في ثلاثة أرطال من السيارات المدرعة والمدفعية الثقيلة من ثلاثة اتجاهات مختلفة. وجاء الطائرات على ارتفاع منخفض وقصفت المنازل والساجد وبساتين النخيل لم يكن بالراحة إلا بضعة مئات من الرجال القادرين على حمل السلاح. وكان بقى السكان من النساء والأطفال والعجائز. دافعنا من بيت إلى بيت، إلا أنهم كانوا يفوقونا كثيراً، ولم تبق إلا قرية الحواري التي تركزها. كانت بناقتنا عديمة الجدوى في مواجهة عرباتهم المصفحة. أرضيناقيلينا من استعمال الحرب. وهربنا أنا إلى بستان نخيل، وختبكت بمكان غير ظاهر. وانتظروا فرصة أجرع فيها من بين قواتهم: طول الليل كنت أسمع صرخات النساء والجنود يغتصبون. في اليوم التالي آتت امرأة عجوز إلى مخيمات وأحضرت لي خبزًا وأمًا، وقالت: إن الجنود الإيطالي أحضر كل الأحياء وجمعهم أمام مقبرة سيدى محمد المهدي؛ ومزق أمام أعينهم القرآن إلى مزرق وألقاها على الأرض وداس عليها بحذائه. وصاحب: 

«دعوا نبيكم البديع يساعدكم الآن، إذا استطاع»، ثم أمر بقطع أشجار النخيل وتدمير الأبار وحرق كتب مكتبة سيد أحمد. وفي اليوم التالي أمر بالرحيل. الكبار وطلبة الدين في طائرة... ثم قنقوهم منها من على ارتفاع كبير. طوال الليلة الثانية كنت أسمع بكل النساء ومسارحبا وضحكات الجنود الإيطاليين وطلقات رصاصهم» استطاعت في النهاية أن تخفى إلى الصحراء مستثمرة بظلم، ووجدت جمالًا شارداً قهوة مبتدأً عن الكفرة. ...

 حين انتهى الرجل من حكايته المرعبة، أدناني سيدى عمر منه بلطف ومال على قائلًا: «هكذا يا بنى، لقد اقتينا كما ترى من نهاية وقنتنا».

وإجابة على تساؤل بدا في عيني دون أن أقوله، قال: «نحن نقاتل لأننا لابد أن نقاتل في سبيل دينا وفي سبيل حربنا حتى نجلل الفاضل أو نموت دون ذلك. ليس أمامنا اختيار آخر. إننا لابد ولابد إلينا راجعون. لقد أرسلنا النساء والأطفال إلى مصر حتى لا نشغله بهم ونامهم حتى يأتين الله بموتنا.»
تزايد صوت كان مكتومًا في البداية ثم أصبح عاليًا ومقتربًا في السماء. بحركة تلقائية سريعة ألقى أحد الرجال برسال على النار فاطفًا، كانت طائرة لم تظهر إلا بشكل عام على صفحة السماء، مرت من فوقنا متجهة إلى الشرق، ثم اختفت صوت متحركًا ترديجيًا.

قلت له: "ولكن يا سيدى عمر، أليس من الأفضل لك أن تتوجهالمجاهدين الانسحاب إلى مصر والطريق مازال مفتوحًا؟ من مصر يمكنك جمع اللاجئين من طبرق وتقون جيش أفضل تنظيماً. لابد أن يتوقف النضال من هنا لفترة حتى يستعيد المجاهدين قواهم.. البريطانيون في مصر لا يسعدهم وجود إيطالي قوي إلى جوارهم؛ وقد يغضبون أنفسهم عن إعداد قواتك في مصر خاصة إن أقنعتهم أنك لا تعاديهم...

قال: "لا يا بنى، لقد نفت أوان ذلك، ما تتحدث عنه كان يمكن ترتيبه من خمسة أو عشة أو ستة عشر عامًا مضت، قبل أن يقرر سيد أحمد أطل الله عمره أن يهاجم البريطانيين بمساعدة الأتراك الذين تخلوا عنا بعد ذلك، الآن فات الأوان. لن يحرك البريطانيون إصبعًا لجعل مهمتنا أسهل؛ وقرر الإيطاليون أن يحاربونا حتى النهاية لسحق أي احتمال للمقاومة في المستقبل، وإن ذهب الآن أنا والمجاهدين إلى مصر، لن نتمكن أبدًا من العودة، فكيف نخوض أبناء شعبنا ونتركهم بلا قيادة لقمة سائدة ليبيدهم أعداء الله؟ "

سألته: "وماذا عن سيد إدريس؟ هل يشاركك الرأي يا سيدى عمر؟ 

قال: "سيد إدريس رجل طيب وابن طيب لأب عظيم، إلا أن الله لم يمنحه القلب القادر على مواصلة الجهد...

كان في صوت عمر المختار هم ثقيل، ولكن بلا قنوط، وهو يشرح لي المسار الطويل الذي لا بد من سلوكه من أجل الحرية، كان يدرك أنه لم يبق أمامه إلا الموت، إلا أن ذلك لم يحمل له أي جدوع ولا خوف، لم يكن بالطبع يسعى إليه؛ إلا أنه أيضًا لم يحاول أن يتفاداه.
كنت على يقين أنه حتى لو عرف نوع الموت الذي ينتظره، لم يكن أيضًا قد حاول أن يتقاداه أو يتجنبه. كان يبدو واعيًا بكل خسائر نفسه أن كل إنسان يحمل مصيره داخله، أينما حل، وكيفما فعل.

بدت بعض أصوات صادرة من جهة الأشبال. كانت خائفة حتى إن الرجل لا يعيها في الأحوال المعادية. إلا أن الحال الذي كنت فيه لم يكن عاديًا. نميز أصوات واهية توقفت فجأة، وبدأت من جديد بعد لحظات. وتباعدت الأشبال وظهر من بينها زيد وخليل بصحبة الاثنين من الحراس، وكانت الخيل محملة بقرب الماء المتفحّكة.

وعندما رأى خليل، عمر المختار، اندفع لتقبيل يده، واستمرت عينا سيدى عمر برضة على وجه زيد، ووضع يده على كتف زيد، وقال: «مرحبًا بك يا أخى من موطن أبيشي. من أي عرب أنت؟ - أخبره زيد أنه ينتمي إلى قبائل شمار، أومأ عمر مبتسماً: «إذن أنت من قبيلة حاتم الطائي، أكرم رجل عرفه العرب ... (6).»

وضع أحد رجال عمر بعض النمر على قطعة قماش أمامنا ودعنا إلى تناول تلك الوجبة البسيطة. أكلنا بعض النمر، ونهض المقاتل العجوز وقال: «حان وقت ذهابي يا إخواني، نحن قريبون من النقطة الإيطالية الحصين في «بوصفية» وأوكش النهار على الطول ولا زوده أن يضيء ونحن هنا.»

ركينا وسربنا خلف سيدي عمر، بينما تبعتنا البقاون سيرًا على الأقدام ويمجرد أن خرجنا من الأخدود، وجدت أن مراقب سيدي عمر كان أكثر كثيرةً مما كنت أتوقع: واحدًا بعد آخر راحوا يظهرون من خلف الصخور والأشجار ويتضمنون إلينا، بينما كانت هناك جماعات متفردة بعيدًا إلى اليمين وإلى اليسار. عدا ثلاثين رجلاً من خلفنا يتحركون في سكون وفي خفة البندود الحمر.

(6) مقالات وشاعر من عهد ما قبل الإسلام، أشتهر بالكرم وأصبح اسمه رمزًا لكوك الفضيلة التي يوليها العرب اهتمامًا فأطلقها. وكانت قبيلة شمار التي ينتمي إليها زيد أحد أفرع قبيلة الطائي.

403
قبل الفجر وصلنا إلى مركز القوة الرئيسية لعمر المختار، وكانت قواته في ذلك الوقت تجري على مائتي رجل. كان مركزهم في أخدود عميق ضيق، ونيران صغيرة مشتعلة هنا وهناك تخفيفها الصخور ولا تظهر من الخارج. كان بعض الرجال نائمين على الأرض، وأخرين يذروون كأشباح في ضوء الليل الشحيح مشغولين بمهام مختلفة - ينظفون السلاح، يجلبون ماء، يظهرون طعامًا، أو يعتنون بالجيش الذي كانت مربوطاً إلى أشجار هنا وهناك. كانوا كلهم يرتدون أسمالًا باليه، ولم يمهم منهم يرتدي برنساً كاملاً. كان بعضهم يضع ضمادات في أماكن مختلفة من أجسادهم مما دل على اشتباك وقع حديثًا مع العدو.

لهذه وجدت امرأتين بالعسكر، واحدة مسنة والأخرى شابة. كانتن جالستان بالقرب من نار صغيرة، يصلحان سرجًا مقطوعًا بمخز كبير.

قال سيد عم، وهو راية دهشتي الصامتة: «الأنثان يذهبان معنا حينما ذهبنا، رفضنا الحياة في أمان في مصر مع النساء والأطفال الذين رحلوا، إنها آم وابنتها، كل رجالهما ماتوا في النضال.

بحثنا على مدى يومين وليلة - انتقل أثناها للعسكر إلى مكان آخر في غابات الجبل الأخضر - أنا سيد عم وكل احتمالات ترتيب إمدادات منتظمة للمجاهدين.

فبذلك كانت المعونات التي تصل من مصر بسيطة وغير منتظمة.

فمنذ أن توصل سيد إدريس القليم بمصر إلى تفاهم مع البريطانيين، أصبحوا يتسامحون مع التنشيط السنوي عبر الحدود طالما كان بسيطًا، ولم يهتموا بمجموعات المقاتلين الصغيرة التي تخرجت الحدود حتى مدينة السلم الساحلية المصرية لبيعها غرام المدينة - وأغلبها يغشى إيطاليا - وعندما لا يجديهم ففي مسيس الحاجة إليها.

كانت تلك المهام في غاية الخطورة بالنسبة للمجاهدين، ولم يكونوا قادرين على القيام بها كثيرًا خاصة بعد أن أنجز الإيطاليون قسمًا كبيرًا من جدار الأسلاك.
الشائكة الذي يفصل ليبيا عن مصر. وافقت سيدة عمر على أن البديل الوحيد من الممكن أن يكون طريق إمدادات عبر الواحات البحرية والفرافرة وسبيوة في مصر، إلا أنه تشكك في إمكانية أن يظل هذا المسار خافياً عن أعين الإيطاليين.

(ثبت بعد ذلك أن مخاوف عمر كانت في ملحها. فبعد ذلك بشهور وصلت قافلة إمدادات إلى المجاهدين، إلا أن الإيطاليين رصدوها وهي تعبير من الفجوة الأمنية بين واحتي جنوب وجالو. فاقاموا نقطة حفظية في المسافة بين الواحتين في بير طرقاوي، كما زاروا من نواعير الطائرات، مما جعل من تكرار تلك المهمة مستحيلاً.)

كان على أن أفكر بالعودة، لم أكن متحمسًا للعودة من المسار الذي جئت منه، فقد كان طويلاً ومهلكًا، وسائت سيدة عمر إن كان هناك طريقًا أقصر، وأخبرني أن هناك طريقًا أقصر، إلا أنه شديدة الخطورة: من خلال حائط السلسلة الشائك الذي أقامه الإيطاليون، ثم إلى السليم، وكان هناك جماعة من المجاهدين ينجون في ذلك المسار لإحضار طحين من السليم، وقال لي: إن شئت يمكنك الذهاب معهم. وقررت أن أذهب معهم ورددت أنا وزيد الشيخ عمر المختار الذي لن أراه بعد ذلك أبداً، لأنه أسر بعد ذلك بثمانية شهور وشنقه الإيطاليون.

* * *

بعد أسبوع من السير - ليلًا فقط - على أرض وعرة وعبر غابات الصنوبر على الحافة الشرقية للجبل الأخضر، وصلنا إلى الحديدي بالقرب من النقطة التي قررنا أن نختبر حائط الأسلاك منها. لم نختبر ذلك الموضوع عشوائياً؛ فعلى الرغم من أن حائط الأسلاك كان قد امتد إلى أغلب مناطق الحدو، فلم يكن قد اكتمل تمامًا في بعض مواضعه. في بعض المناطق، ومنها المنطقة التي اختبرناها كانت هناك مبان واحدة يبلغ عرضها أربعة أقدام وارتفاعها ثمانية أقدام، بينما في مناطق أخرى كان يوجد ثلاثة أسوار متماثلة معلقة فيdãoمة خرسانية ذات قواعد أسمتية قوية.

405
وكانت النقطة التي اخترناها تبعد نصف ميل فقط عن نقطة إيطالية حسينة مكونة من سيارات مصفحة؛ كان التفصيل لهذه النقطة عن غيرها أنه لم توجد حراسة قريبة منها.

لا أنها مكونة من ثلاثة صفوف من الأسلاك الشائكة القوية.

كانت الترتيبات قد أعدت لتلتقي بجماعة من مؤيدي الحركة السوسية عبر الحدود.

ينتظرونا بحيوانات ركوب. لذلك لم يكن ضروريًا أن نعرض الخيل للخطر، فأخذنا بصحة بعض المجاهدين العائلين، بينما اقتربت المجموعة من الأسلاك الشائكة على الأقدام قبل انسحاب الليل. كان النظام هو الحماية الوحيدة لنا بعد أن قطع الإيطاليون أي أشجار وأعشاب طويلة الحدود.

نشرنا حراسة على بعد بضعة مئات من الياردات إلى الشمال والجنوب، وتقام ستة رجال ومعهم قصافات أسلاك وتفازات جلدية سميكة حصلوا عليها من غارات سابقة على الإيطاليين العاملين بالسور. رفض المجاهدين على بطولتهم، وغطيتما تقدمهم ببنادقنا المستعدة للعمل. كانت لحظة مصيبة أرهفت فيها سموعي لأواني صوت، لم أسمع إلا صوت احتكاك الحضي تحت الزاحفين نحو الأسلاك وصيحة طائر مر من فوقنا، ثم بدأ صرير المناشير التي راحت تعمل في الأسلاك. وبهت في سموعي رغم وهنها كائنًا أصوات انفجارات - ثم تبعها صوت قصافات الأسلاك، ونشر وقطع ، إلى أعمق وأعمق في لفائف السلك المتراكمة بعرض أربعة أقدام.

انطلقنا صيحة أخرى لطائر عبر الظلام؛ إن الصوت هذه المرة كان من أحد رجال الحراسة كإشارة تتبعه معلنة عن خطر قادم، في اللحظة نفسها ميزنا صوت متحرك يقترب. وظهر من بعيد نور كشف مثالي في الهواء. مثل رجل واحد ابتلعنا أرضيًا، ما عدا جماعة الأسلاك التي راحت تعمل بسرعة يانسة وتخليها عن الحذر وراحوا يعملون بكل قوة وسرعة يدرون بمقابض البنادق ويقصرون بالقصافات والقصافات كان مسهم جن. بعد بضع ثوانٍ انطلقنا رصدًا من حارسنا الشمالي. كان طاقم السيارة المدرعة قد رأوه حين سقط نورهم الكاشف عليه، ثم سمعنا الصوت الكثيف للمدرعة يتقدم نحونا وسقط التور الكاشف علينا وثلثه طلقات من الدفع الرشاش.
ومرت الطلقات فوق رؤوسنا وهي تذمر وتتوبر، وأطلقتنا نيران بنادقنا عليهم ونحن منبطحين على الأرض.

صباح أحد المجاهدين: «النور الكافش، النور الكافش، صوبوا على النور» -ثم انطلتا النور الكافش بعد أن حملته إصابة محكمة فتفوقت السيارة المرعة عن تقدمها إلا أن مدفوعها استمر في الابتلاع بعشوائية. في تلك اللحظة سمعنا صوتًا من رجال الأسلاك تعلن أنهم أجروا المهتمة، حشرنا أنفسنا واحدًا بعد آخر في الفتحة الضيقة والملاسوح وأحاسانا تحتك بشوك الأسلاك، وسمعنا أصوات ركض فردى حراسنا، وهم يلحقون بنا. كان الإيطاليون لا يغادرون المراعي ولا يسيطرون في معركة مفتوحة، فظروا في مكانهم. بعد لحظات كانا على أرض مصرية واستمروا في العدو تلافحنا الطلقات من الجانب الآخر من الحدود، أضاء نور الفجر ونحن على أرض مصرية بعيدًا عن الخطر. من بين عشرين رجلاً -ومهم عدد جماعتنا - كان هناك خمسة مفقودين، من المؤكد أنهم ماتوا. كما أصيب أربعة إلا أن إصابتهم كانت غير خطيرة.

قال أحد المجاهدين المصابين: «كان الله رحيماً بنا، أحييًا! نفقد نصف الرجال عند عبور الأسلاك. ولكن أن يموت من لم يشأ له الله الموت... إلا يقول الله في كتابه العزيز: "ولَا تَحَسِّبُ الْخَيْبَاتِ انْفَضَالًا فِي سُبْلِ الْحَقِّ أُمُوْتًا بِأَيْضًا عِنْدَ رَبِّهِ يُخَفُّونَ.»

في الأسبوعين التالية، رحلنا مرورًا بمرسي مطروح إلى الإسكندرية، ثم إلى صعيد مصر، ومن الصعيد على ساحل البحر الأحمر بالدهو إلى ميناء ينبع، ثم وحدنا أنفسنا أبداً وزيد من جديد بالدابة.

استغرقت المهتمة بأكملها شهرين، ولم يلحظ أحد غيابنا عن الحجاز.

* * *

حين كنت أقترب بصحبة محمد الزواري من الزوايا الستينية المتواضعة بالمدينة كان صدى الأصوات والياقين يدوي في ذهني. تختلط الأصوات برائحة أشجار
الصويرة، وقلبى يتقبض من صوت رصاص طائر فوق رأسى، وألم تساؤل بانس،
ثم اختفت نكريات هضبة طبرق، وظل الألم يستوحش على نفسي.

 مرة أخرى أقف أمام السنوسي الكبير، تطلعت إلى الوجه المتعم للمقاتل المعجز،
مرة أخرى قُبِلَت اليد التي أمسكت بالسيف كل هذا الزمن الطويل حتى إنها لم تعد
تقدر على حمله أكثر من هذا.

قال لي: "بارك الله فيك يا بنى وسلمك من كل سوء... مرح أكثر من عام منذ أن
التقينا آخر مرة؛ وكان ذلك العام يحمل معه نهاية آمالنا، ولكن الحمد لله مهما كانت
مشيئته...".

كان عاماً مؤسفاً بالفعل لسيد أحمد: أصبحت التجاعيد حول نميه أعمق وصار
صوته أخفى. لقد انكسر الصقر العجوز، كان يجلس متمتعاً على البساط، والبرنس
الأبيض محبوب حول بده انقاء للبرد، يحمل دون أن يتكلم في أبعاد بلا نهاية.

همس: "لو كنا أقضنا عمر المختار، لو كنا أغريناه بالفرار إلى مصر حين كانت
الفرصة ما تزال سانحة...".

واسيته قائلاً: "لم يكن بمقدور أحد إنقاذ سيدى عمر، لم يكن يريد أن ينجو.
كان يفضل الموت إذا لم ينصبر. كنت على يقين من ذلك حتى آخر لحظة قادته فيها
يا سيدى أحمد.

أوأ سيد أحمد بشدة: "نعم، أنا أيضاً كنت أعرف ذلك، أعرف ذلك .. إلا أنتي
عرفته متبخرًا جدًا. أفكر أحيئًا أنتى أخطأت في ذهابى إلى إسطنبول لتباعة
القضية من هناك، سبعة عشر عامًا مرت ... ألم يكن ذلك بداية الموت، لا لعمر
وحده، بل لكل السنوسية؟ ".

408
لم أجد إجابة مناسبة أدر بها ، خاصة وأنثى أمنت على الدوام أن قرار سيد أحمد
بشن حرب لم تكن ضرورية ضد البريطانيين كان أكبر خطأ قاتل أرتكبه في حياته
باجمعها .

أضاف سيد أحمد : «لكن ، كيف كان يمكن أن أفعل العكس حين طلب مني خليفة
المسلمين أن أعناه ؟ هل كنت مصيبًا ، أم كنت أحقق ؟ ولكن من غير الله ، يمكن أن
يقرر إن كان المرء مصيبًا أم أحقق ، خاصة إذا اتبع نداء ضميره ؟».

تساءلت في نفسي :

من يستطيع حقًا أن يقرر ؟

كان رأس السنوسي الكبير يتأرجح ببطء من جانب إلى جانب في حيرة مؤللة ،
وعيناه محوجبتان خلف جفونه المنسدلة ؛ وببقيين مفاجئ أدركت أنهما لن يلمعا بريق
أمل بعد ذلك أبداً (:)

م توفى سيد أحمد بالدينة في العام التالي (1333).
الفصل الثاني عشر

نهاية الطريق

تركنا المدينة في وقت متأخر من الليل، سالكين الطريق الشرقي، الذي سار عليه النبي في آخر حج له إلى مكة، قبل وفاته بعده أشهراً. ظلنا راكبين طول الليل، وقسط من الفجر الذي بدا ينبعث، بعد وقفة قصيرة لأداء صلاة الفجر أكملنا سيرنا في ضوء للنهار الوادي، كان نور اليوم الجديد رماديًا ينفد من سماء ملبدة بالغيوم. بعد الظهر بدأ المطر يهطل. سرعان ما ابتثلنا حتى التصقنا ملابسنا بأبديان، عثرنا على تجمع صغير للبدو بعيدًا إلى يسار الطريق، قررنا أن نلوئ عنهم في إحدى الخيام حتى توقف المطر.

كان تجمعًا صغيرًا لبدو ينتمون إلى قبيلة حرب، استقبلونا بترحاب: «أتال الله أعماركم، مرحباً بكم». فردت بطانيتي على جلد ماعز كان مفرحًا بخيمة الشيخ، في حين راحت زوجته - لم تكن منقبة الوجه كعادة بدوية تلك المنطقة - ترحب بنا هي الأخرى. بعد ليل قضيتهما راكبةً، غلبنا النوم بسرعة على صوت تساقط المطر على سقف الخيمة.

411
استيقظت بعد عدة ساعات على صوت المطر الذي كان مازال ينهر، كان الظلام يحيطني، كلاً، لم يكن ظلام ليل، كان ظلام الخيمة التي امتلأت برباطة الصوف المبتل، فردت ذراعي متميّزة فاصطدمت في بدرج جمل كان خلف رأسه على الأرض. كانت عودة خشب السرج تغري بالمس، جرت أصابع أعلو رمانة السرج ونزلت حتى وصلت إلى أمعاء الجمال الجافة التي تربط أجزاء السرج معًا، كانت بحواف حادة ولها صلابة الحديد، لم يكن بالخيمة أحد غيري.

نهضت بعد فترة وتوجهت إلى فتحة الخيمة. كانت قطرات الأمطار تحفر حفرًا في الرمال، حفر لا تعد ولا تحصى، تظهر من في لحظة وتختفي في لحظة تحت وقع قطرات أخرى. كانت قطرات المطر ترش سطح صخور الجرانيت المجاورة إلى اليمين. لم أر أحدًا على مرمى بصري، في هذا الوقت من اليوم يخرج الرجال للرعي؛ كانت الخياط الأخرى تقع إلى أسفل قليلاً في الودى بجوار شجرة أكاسيا صامتة صمت عصر يوم مطير. خرجت من إحدى الخيم نفثة من دخان صعدت في الهواء - لقد بدأ الاستعداد لإعداد وجبة العشاء، كانت نفثة دخان ضعيفة واهية لا تصدت أمام يوم مطير، زحفت إلى جانب، حاولت الثبات بلا جدوى، كانت تبدو مثل شعر امرأة يتطاير في الهواء، بدت التلال الواطئة ومرتفعات الرمال الصغيرة كأنها تتمايل خلف قطرات المطر المنهمر؛ كان الجو ممتع بروائح الماء وشجر الأكاسيا والصوف المبتل.

قل تساوق المطر تدريجيًا حتى توقف، وبدأت السحب في التشتيت تحت أشعة شمس الساءة، سرت باتجاه صغراء جرانيت عملية. كان يسطحها فجوة في حجم قصعة كبيرة تتنس لعروف كامل مشوي فوق أرز مطهي؛ كانت الفجوة مليئة بالماء، لم أوضع ذراعي بها وصل الماء إلى كوعي، كان دائمًا ويدفع ليه، ولا حرك ذراعي داخله، أحسست كان جلد يرتوي. خرجت امرأة من إحدى الخيام تحمل إبناً نحاسي ضخم على رأسها، كانت ذاهبة للماء من تجمعات ماء الصخور، ذراعها ممتدان إلى الجانبين لأعلى وتمسك بأصابعها أطراف ثبيثا الأحمر الواسع الضفاض، فبدت وكان لها جلادين، تمكنت برقة وهي تقترب كما يمكن الماء الساقد من أعلى الصخور، رأيت أنها في جمال الماء، من مسافة سمعت أصوات
الإبل العائدة من الرعي ظهرت في مجموعات من خلف تلك الصغيَّة، تنازح على وقع خطوات مرتين، يسوقهم الرعاة بأصول حادة قصيرة "غرمر، غرمرر..."، ثم يدعونها تيكرفتش أستهمت البنية في حركات رجاحة متموجة، ومع هبوط الليل كانوا علقوا سبقانها الأمامية، ثم توجه الرجال إلى الخيام، كل إلى خيمته.

أقبل الليل بظلام الرقيق وبرودته المتعددة، أضاءت نار مشتعلة أمام كل خيمة، كانت تصل إلى مسامع النساء وأصوات أوانى الطعام وهي تتصادم وتختك ببعضها، وضحك النساء التي تتداخل معها ندوات الرجال أحيانا، ثقت الماعز والأغنام التي رجعت بعد الرجال، وبني كل أحيانا كما تبئ الكلاب عادة في كل الليالي، في كل خيام البيت في الجزيرة العربية، لم أرى ذا؛ ربما كان هناك نائمًا في إحدى الخيام. سرت ببطء باتجاه الجمال الباركة، كانت قد حفرت بثقلها حفرًا في الرمال فيركت في ارتفاع، كان بعضهم يجتر ما أكله في حين مدت جمال أخرى أعناقه على الرمال.

در ببعضها وأنا أمّة أمامها مداعِبًا سناها الدهني، رأيت قلواً صغيرًا يتصق بأبه بشدة؛ كان مذعورًا من مدادرات فقير وأفقًا، بينما أدارت أمه رأسها باتجاهي، ونفعت بقلم مفتوح، أمسكت مبرق الفلو بسرعة وبدفت وجهي في صوب ظهرها، سكن في الحال، وبدا، زال خوفه، كان دفع جسم الحيوان الصغير يخترق وجهي وصدري؛ تحت راحة يدى أحسست بهما يتفتق في شيريان رقبته؛ أحسست أنه يسرى في شرايبتي أنا ويبعض في إحساسًا طاغيًا بالانتحام بالحياة، غلبتني رغبة طاغية أن أذهب فيها ذويًا تامًا وكلياً.

[2]

ركينا وسربنا، كانت كل خطوة تقطعها الجمال تنعنى من نهاية الطريق، سنراح أربعة أيام في سهول ساطعة، شمسها؛ كنا نتأمل الليل تحت صفحة نجوم السماء على الرمال، ونستيقظ في بروعة الفجر؛ كنت أتقر بالطريق من نهاية طرقي.
لم يكن لي طريق آخر عدا هذا الطريق؛ ومع أنني لم أتعرف عليه على مدى سنوات
بداية عمرى، إلا أن مكة كانت دائماً هي هدفي واتجاهى. كانت تناوبتى من زمن
 طويل قبل أن يعنى عقلى أنها تناوبتى، كانت تعلن بصوت قوى: "ملكتكى في
الحياة الدنيا كما هي في العالم الآخر؛ فملكتكى للجسم كما هي للروح، تسع ما
يفكر به الإنسان وما يحسه ببدنه وما يفعله - تجارته وصلاته، فراش نومه وعلاقته
بالآخرين; ملكتى لا تعرف حداً ولا نهاية"، وحين أيقت من ذلك على مدى الأعوام،
أدركت إلى أن أنتمى، كانت أخوة الإسلام بانتظارى من مولدى؛ واعتققت الإسلام،
وتحقت آمالى في الانتهاء، لا تكون جزءًا من كل واحد.

من الغريب أن أول تجربة لى كمسلم بين مسلمين، كانت تجربة أخوة ... ففي
الأيام الأولى من يناير عام 1927، تركت أوروبا من جديد، ولكن كانت إيزا زوجتي
تصحبني تلك الليلة ومعها ابنى الصغير، متجهين إلى الشرق الأوسط ؛ أدركت أن
رحيلت تلك الليلة عن أوروبا سيكون الأخير وإلى الأبد.

مضت بنا السفينة على مدى أيام في البحر المتوسط، في أيام مشرقة السماء
وعلى سطح البحر، نرى أحيانًا سواحل بعيدة، ونختبر سفن أخرى تنضِب إلى
جهات مختلفة، اختلفت أوروبا بعيدًا خلفنا وتسينى على وجه التقرب.

كانت نزل أحيانًا من قمرى الفخامة العلوي وأجوس في الأدوار السفلى الرخيمة
بأشربها الحديدية المثبتة إلى الجدران، وكان أغلب ركاب الأدوار السفلى من
الصينيين، وبعض مواطني الشرق الأوسط من الحرفيين والتجار العائدين إلى بلادهم
بعد أعوام من العمل المضني قضواها في أوروبا. وكانت هناك مجموعة صغيرة العدد
من عرب اليمين ركبوا من "مارسيليا"، كانوا عائشين إلى بلادهم، كانت ضوضاء
ورؤى الموانئ الأوروبية مازالت عالقة بهم؛ كانوا مازالوا تحت تأثير الأعوام التي
قضواها في تزويج مراحل السفن بالفحم في سفن أمريكية وإنجليزية وألمانية؛ يمكن
عن المدن العريقة: نيويورك، بوينس إيريس، وهامبورج.
طُلِعوا ذات يوم إلى بريق المجاهل، فرحلوا من ميناء عدن كعمال سفن؛ غادروا
عالهما الذي يعرفونه واعتقدوا أنهم ينتمون أنفسهم باحتضان غرابة العالم غير
المفهوم لهم: سرعان ما تصل السفينة إلى عدن وترتاج ذكرياتهم عن العالم الغريب
وتصبح ماضيًا. يستعيدون وضع العمامه أو الكوفية بدلاً من القبعة، يحتفظون
بالآمس كذكرى، ويعودون إلى قراهم في أعماق الجبال في اليمن.

ولكن هل يعودون الرجال أنفسهم كحالهم الذي خرجوا عليه? أم يعودون بشر
مختلفين؟ هل قيض العرب على أرواحهم أم مسح مشاعرهم؟ تحوالت مشكلتهم في
ذهني إلى مشكلة أكبر ذات مضمون أشمل.

لم يصل العالم الإسلامي والعالم الغربي إلى درجة الاحتكاك التي أصبحا عليها
اليوم. وكان الاحتكاك يتضمن صراعًا ظاهرًا وخفيًا. وتحت وطأة ثقافة الفكر
الغربي، تtridge أرواح كثير من المسلمين واللمان. لقد سقطوا تحت وطأة مفهوم
متنافض مع مفاهيمهم، يتضمن أنه كثي يحققوا مستوى أفضل من العيش، لابد أن
يحسنوا مستوى إدراكهم. فسقطوا في وذة التقدم التي سقط فيها الغرب حين قلص
دور الدين إلى نزعة خانتة مصاحبة; وذلك تأقلموا ولم ينموا. فكل حماكة معادية
للإبادة، ولا بد أن تجعل البشر أعرضًا...

لا أرفض أن يتعلم المسلمون من الغرب، خاصة العلوم والتقنية، فاكتسب العلم ليس
تقليدية ولا حماكة. فالعلم ليس شرقيًا ولا غربيًا، وكل المكتشفات العلمية ليست إلا
حلقات في سلسلة لا تنتمي إلى المساعي العقلية للجنس البشري كله. كل عالم يكمل
على ما أنجزه الآخرون إن كانوا من أمره أو من أمرة أخرى; عملية مواصلة من البناء
من عصر إلى عصر، ومن حضارة إلى حضارة. حتى إنه لا يجوز أن ننسب منجزات
عملية معينة كملك مقصور على عصر بعينه دون آخر يليه.

في كل عصر، كانت توجد أمة أنشط من غيرها من الأمم، تضيف إلى الموجود من
المعرفة. ولكن على مدى البعيد يصبح ما أضافته علمًا مشتركة ومشروعة لكل البشر
أن يزيدوا عليه. لقد كان هناك عصر كانت فيه الأمة الإسلامية أكثر نشاطًا وحيوية من
غيرها من الأمم، ونقلت إلى أوروبا كثير من المخترعات التي كانت رائدة في حينها، بل نقلت إلى أوروبا ما هو أهم كثيرًا من المخترعات، وهو المنهج العلمي الذي شيدته عليه أوروبا علمها وحضارتها.

لم تجعل مكتشفات وأبحاث جابر بن حيان من الكيمياء «كيمياء عربية»؛ ولا يمكن وصف الجبر والهندسة بأنها علوم إسلامية، مع أن الجبر ظهر للوجود على يد الحوارمي، وظهرت الهندسة على يد البنائى، وكلاهما كان مسلمًا، تمامًا كما لا يمكن لأحد أن يتحدث عن نظرية الجاذبية الأرضية الإنجليزية، مع أن من اكتشفها وصاغها كان رجلاً إنجليزياً. كل المجزات والمعرفة ملكية عامة للبشر، لذلك تبني المسلمون، كما يجب أن يفعلوا المناهج المعاصرة الحديثة في القيم والتقنية، لا يكونون إلا كمن يتمتع غريزة التطور التي تتيح للبشر الاستفادة من إنجازات الجنس البشري، ولكن إذا تبنوا - ولا يجب أن يفعلوا - أشكال وأنماط الحياة الغربية وسلوكيات أهل الغرب وعاداته وفهامةه الاجتماعية، سيكونون خاسرين، لأن ما سيأخذونه عن الغرب في تلك المناحي ليس أفضل مما وجبت لهما ثقافتهم وما توجههم إليه عقيدتهم الإسلامية.

ولاحتفظ المسلمون برباطة جأشهم وقبلوا التقدم كوسائل لا غابات، أن يستعيدوا فقط حريتهم الداخلية، بل ربما ينقلون للمواطن الغربي السر المفقود لحولة الحياة.

* * *

كان بين اليمينين بالسفينة رجل قصير نحيف له أنف مثل السقر ووجه حاد كان التأثير مشعلة في ملامحه؛ إلا أنه كان هادئًا ومتزمنًا. حين علم أنني أسألت حدثًا، أظهر لي ودًا صادقًا، كنا نجلس ساعات على سطح السفينة يحكى لي عن قريته باليمن. كان اسمه محمد صالح.

416
ذات مساء زرته في الأنواع السفلى من السفينة، كان أحد رفاقه من اليمنيين رافداً في سريره يعاني من حمى شديدة، ولم يهتم طبيب السفينة بالنزول إليه لفحصه. ولم تبين أنه يعاني من حمى الملاريا، أعطته بعض حبوب "الكينين" حين كنت مشغولاً بالرخص، اجتمع اليمنيون في أحد الأركان حول محمد صالح ضئيل الجسم، كانوا في اجتماعهم الجانبي المتهامس ينظرون إلى، في النهاية تقدم واحد منهم - رجل طويل ذو وجه بنى زيتوني وعيناه سوداوان حادتان - ورد لي يعد ببعض الفرقاطات الفرنسية المجدعة، وقال: "جمعنا هذا البلاغ، للأسف هو مبلغ بسيط، تفضل واقبليه".

خطوات الخلف متدهشًا، وقالت لهم: إنني لم أعط صديقين دروة مقابل المال. قالوا: "كلا، كلا، نحن نعلم ذلك، ولكن تفضل واقبليه، هو ليس ثمنًا، بل هدية من إخوتي". نحن نسعى به، وذلك نهيك النقود، أنت مسلم وأخونا، بل أنت أفضل منا، لأننا ولدنا مسلمين، وأباؤنا وأجدادنا كانوا مسلمين. أما أنت فعرفت الإسلام بقلبك... اقبلها يا أخى.. من أجل خاطر النبي".

كانت مازالت أسيرقناعاتي الأوروبية، ودافعت عن موقف قائلًا: "لا يمكن أن أقبل هبة أو هدية مقابل خدمة أسديتها إلى صديق مريض... عدا أنني معنى ما يفنيني من مال؛ أنت بالتأكيد تحتاجه أكثر مني. على أي حال، إن كنت مصرين على وجب تلك النقود، هبها للقراء في بورسعيد".

أعاد اليمنى الاعتراض: "كلا، اقبلها منا وإن لم تشأ الاحتفاظ بها، هبها من نفسك للقراء".

كانوا يضغطون ملحيين، وصدموهم رفضي فأصبحوا صامتين في حزن، كما لو كنت رفضت، لا نقودهم، بل حبهم الذي يقدمونه إلى، وأدركت فجأة أنني ربيت في مجتمعات تقيم جدراناً بين الأفراد، بعكس المجتمع العربي الإسلامي الذي لا توجد به أي حوائط تعزل أبنائه عن بعضهم قالت: "هاتوا النقود يا إخوتي، قبلتها... واشكركم".

417
قلت لزيد: «قدًا إن شاء الله تكون بمكة، ستكون النار التي تشتعلها الآن يزيد.
أخر نار! وصلت الرحلة إلى نهايتها.»
رد زيد: «بالتأكيد يا عمي ستكون هناك نيرانًا أخرى، ورحلات أخرى بانتظارنا.»

قلت له: «ربما يا أخى زيد، إلا أنتى أعتقد أن الرحلات الأخرى لن تكون في هذه البلاد. تجولات بالجزيرة العربية كثيرًا حتى أصبحت في دمي، وأخشى إن لم أغادرها الآن إلا أفادتها أبدًا، لابد أن أرحل يا زيد، ألا تذكر المثل: إن الماء لابد أن يتدفق ويتحرك حتى يظل نقيًا؟ أريد رأيًا مازلنا مازلنا مازلنا مازلنا ماذا ينوي كيف يعيش إخواننا المسلمين في باقي بلاد العالم - في الهند، والصين، وجاوة...»

قال زيد بفزع: «لا أظن يا عمي أنك أصبحت لتتحب بلاد العرب؟»

قلت له: «كلا يا زيد، بالطبع أحبها كما أحببتها على الدوام، وربما أكثر من ذي قبل - إنه يؤلني التفكير فيما يمكن أن يجلبه لها المستقبل من مشكلات بعد أن عرفت أن الملك يفكر في فتح البلاد أمام الفرنجة، ليلجأ الأموا إلى البلد: سيسمع لهم بالتنقيب عن النفط في المسا والبحث عن الذهب في المجاز - يعلم الله وحده ما يجلبه ذلك على البلد. لن تظل هذه البلاد على ما هي عليه الآن.»

من بين طنين صمت ليل الصحراء الساكن ارتفع صوت أقدام جمل يعدو. أتى راكب وحيد وأحزمة السرج محلولة تتلاير من حوله، وعبءًا تطير خلفه وهو خارج من الظلام، وتقدم باتجاه نارنا، وأوقف جمله بطريقة مفاجئة، وقفز من فوقه دون أن ينبيخه. وبعد السلام عليكم، وعليكم السلام السلام السلام، وجلس السلاسل مجلسًا محققًا دون أن ينطق كلمة أخرى، ثم قال وفك سرج الجمل، وكوم خروجه بجانب النار، ثم جلس على الأرض، وهو في صعقة، بوجه محتقن الملامح.
قال زيد، الذي أتضح أنه يعرف الرجل: «وهب الله عمرًا يا أبا سيد» ظل أبو سيد صامداً في حين استدار زيد قائلًا: «هذا الشيطان واحد من رجالي ابن سعود».

كان أبو سيد فاحم السواد؛ وشت شفعته الفيلقينان وشعره الأجد، الذي لم أطرافه الطويلة في خصلتين خلفه بأصله الإفريقي. كان يرتدي ملابس ثمينة، وكان خنجره - وربما كان هدية من الملك - مطلي بالذهب؛ وكانت تائفته من السلالات الفالية التي، فقد كان لونها عسلياً، من سلالة شمالي، رفيعة الأطراف، دقيقة الرأس، بكتفين قويين، وكفيتين ضاربين.

سأله زيد وقف حريص صمتته الذي طال: «ماذا جرى لك يا أبو سيد؟ ألا تريد الحديث مع أصحابك؟ هل ركبك جن؟».

همس أبو سيد: «إنها نورا»، بعد أن حلت القهوة الساخنة عقدة لسانه، حكي لنا عن نورا، كانت فتاة ناجية من مدينة الرأس (ذكر اسم أبيها وكتاب أرفعه)، كان قد رآها خفية من فوق سور وهي تجلب الماء مع النساء - قال: «شعرت وأنا أراها أن قطعة من جمر ملتهبة سقطت في قلبي، عشقتها، إلا أن أباهها الكلب، لم يرض أن يزوجي إياها، راعي الخنازير - قال: إن ابنته تخفّي حين تزاني، عرضت عليه مهرًا كبيرًا، ومساحة من أرضي، وأصر على الرفض، ثم زوجها من ابن عمها، لعن الله هو والابن».

كان وجهه الأسود القوي يضم أحد جوانبه نور النار المشتعلة، وجعله تراقص ضوء النار على وجه يشبه من بعاني عذاب الجحيم. لم يحتل أن يجلس أكثر من ذلك، نضح واقفًا، شغل نفسه للحظات بالسرج، ثم عاد قرب النار، وقف، ركض في الظلام، كنا نسمعه وهو يجري في دائرة واسعة حول المكان الذي كنت نجلس به، يصبح، ويصبح: «نار نورا تحرقني، نار نورا تحرق صدرني»، ثم يصبح منتحبًا.

«نورا، نورا».
اقرب من النار من جديد وراح يدور حولها في دائرة، وقفطانه يطير مثل شبح
للي على ضوء النار المتراقص، والطابع المحيط. هل فقد عقله؟ لم أظن ذلك. ربما
خرجت من ثانيا عقلاً نشأ البدائي الأول انفعالات الأجداد الأفريقيين الذين كانوا يعيشون
بين الأعشاب، ذكريات من عاشوا على ذكر المفاريات والانفجار وتمطر في الغابات
الأفريقية. في وقت قريب من الزمن الذي نزلت فيه الوضمة الإلهية على نور البشر
وحولت نعمة الحيوان إلى نعمة الإنسان؛ ولم تكن الشرارة بالقوة التي تكتب جمال
الدوافع غير المكثفة وتحولها إلى انفعالات راقية - للحظة بدأ لي أن أرى قلب أبو
سيد أمامي: كثرة من لحم وماء يصعد منها نار ودخان الغرام كما لو كان يحتقق في
نار حقيقية - ويشكل ما بدا لي من الطبيعة أن يصرخ بذلك الصوت المفلل المخفيف
ويجري في واعي مثل مجنون، حتى أُجبر جمالي العقولة أن تنقض خوفًا من على
ثلاثة أرجل...
عاد إليها وألقى بنفسه على الأرض. تبينت ملامح امتعاض بادية على وجه زيد من
انفجارات أبا سيد الثالثة من أي تحكم - كان المزاج العربي الرافض الأصيل يزديدي
الانفعالات والمشاعر الغرامية المنفلتة - إلا أن قلب زيد الرقيق سرعان ما رقّ لحاله.
أمسك أبى سيد من أكامله فرفع رأسه وحلق في زيد بعيدين غامضين، جذبه زيد إليه؟
وقال: "أبو سيد، كيف تنسى نفسك إلى هذا الحد؟ أنت متقال، أبا سيد... لقد
قتلت كثير من الرجال وكدت أن تُقتل مرات - والآن تطيع بك امرأة؟ يوجد نساء
كثيرات غير نورا... يا أبا سيد... يا بطل... يا أحقن".
أن الرجل في صوت خفيض، ورفع كفه إلى وجهه، في حين استطاع زيد: "اسكت
وارفع رأسك: هل ترى ذلك الخط المثير في السماء؟"
رفع أبو سيد بصره إلى السماء في دمثة، وتابعه أنا بطريقة لا إرادية إصبع زيد
المشير إلى صفحة السماء وتابع الخط الشاحب الأكثر نورًا. وغادر المسار في كل
مواضعه ويجري من أفق إلى أفق... كان درب الثبات، ولكن حكمة حدو الصحراء لا
ترى فيه إلا المسار السماوي للكبش الذي نزل لإبراهيم حين أطاع أمر ربه والإيمان

420
يملا قلب ورفع السكين ليذبح ابنه البكر. وظل مسار الكبش باقياً إلى الأبد على صفحة السماء، تذكرنا برحمة الله ونعمته. وذكرى للفداء الذي أنزل للماء ألم قلب إنساني، هو قلب إبراهيم - وسلم عليه - لن يأتون من بعده. ولن يعانون الوحدة أو تاحو في الصحراء، ولن يتعثر في الحياة، ويبكون في وحدتهم معززلين في بيداء حياتهم. استمر زيد، ويهمل موقف في اتجاه السماء، يتحدث بوقت ويفت، كما يتحدث حكايا العرب: "هذا مسار الكبش الذي أرسله الله إلى سيدنا إبراهيم حين هم بالضحية، بابنه البكر طاعة لأمر ربه هكذا يظهر الله رحمته لعبده... هل تظن أنه ينساك؟"

تحت وقوع كلمات زيد، رقص وجه أبا سيد في تсаول مثل ذلك الذي يظهر على وجه الأطفال، أصبح أفاداً حالياً؛ وراح مثل تمييز يتابع معلم ينتظر باتجاه السماء، محاولاً أن يجد على صفحتها إجابة على يأسه الذي يتمر في قلبه.

[4]

بسهلة ويسر ترد صورة إبراهيم وكبش للفداء إلى الدين في هذا البلد، لاحظ أن ذكرى أبا الأبدى حياة بقوة بين العرب أكثر مما هي حياة بين مسيحي الغرب الذين تركز عقيدتهم على العهد القديم والإنجيل، وكذا اليهود الذين تميل لهم التراث كلمة العرب الأولي والأخيرة لا تحت الحضور الروحي للزك إبراهيم إلا في الجزيرة العربية والعالم الإسلامي. لا من غزارة التسمية باسمه فقط، بل من ذكره المتكرر في القرآن وفي صلوات المسلمين اليومية كأول من دعا إلى عبادة واعية لله الواحد. ويفسر ذلك الأهمية التي يوليها الإسلام للحج السنوبي إلى مكة والذى ارتبط من اصور سحيفة بقصة إبراهيم.

لم يصبح إبراهيم معروفًا للعرب - كما يظن أهل الغرب - بعد أن أقسم محمد اسمه في رسالته في محاولة منه "لاستعارة عنصر الدين الإسلامي من اليهودية".
لأنه من الثابت تاريخيًا أن شخصية إبراهيم كانت معروفة للعرب قبل الإسلام من عصور قديمة ترجع إلى عصر إبراهيم ذاته، كما أن ما ذكر في القرآن عن إبراهيم معبر عنه بدقة لا تترك شكًا في أنه يعيش في واحة الوعي العربي من عصور طويلة قبل محمد: فاسمه وسيرة حياته يذكران على الدوام دون تهديد للتعرف به، حتى إن القرآن حين كان ينطي بعد نزوله على أول من استمعوا إليه، لم يشعروا عن ذلك الاسم ولا يعلمون يكون. وكان يحتل أيضًا مكانة مرفوعة في أنساب العرب، كأن أول من خلال إسماعيل لعرب الشمال الذين يكونون اليوم حوالي نصف عرب الجزيرة العربية وتنتمى إليهم قبيلة محمد وهم عرب قريش.

لم تذكر التوراة إلا بداية قصة إسماعيل وأمه هاجر، لأن تطوراتها اللاحقة لا تهم الأمة العبرية، إلا أن الموروث العربي لعرب ما قبل الإسلام لديه كثير من تفاصيل قصة إسماعيل.

وطبقًا لذلك الموروث العرفي المتناقل شفاهة، ترك إبراهيم هاجر وإسماعيل في المنطقة التي توجد بها مكة الآن، في وادي بين جبال صخرية عارية قاحلة تحت شمس حارقة وأرياح ساخنة وإثارة حتى إن الطيور الجارحة تعاف نزولها، وحتى اليوم مع امتلاك وادي مكة بالبيوت والشوارع والبقر من كل الأجناس، ما زالت مكة تعاني من قسوة الطبيعة وتحوم فوق المناخين حول الكعبة أشباه تلك الآلاف من السنين منذ أن وضع إبراهيم أول أساس لبيت الله في مكان موحش وصامت و.VALUE من أي أثر الحياة.

بعد المكان الياس في قلب هاجر، جارية إبراهيم المصرية التي تزوجها وولدت له ابنًا فكرهها سارة زوجة إبراهيم الأولى. كان لابد لإبراهيم أن يبيع هاجر وابنها إسماعيل وكان حزينًا وهو يقوم بذلك، إلا أنه كان عميق الإيمان برحمة الله التي بلا حد، ويقول سفر التكوين في التوراة إن الله خفف عنه قائلًا: لا يفع في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاربتك.. وأناب الجارية أيضًا سأجعله أمة لأنه نسلك.
ترك إبراهيم المرأة الباكية وطفلهما في الواد، وترك معهما قرية ماء، وكيسًا مثزًا بالتمر، وعاد راجعًا إلى الشمال باتجاه ميدان، ومنها إلى كنعان. وكان بالوادي شجرة«سراحا زرقاء»، جلست هاجر في ظلها وطفلها في حجرها، لم يكن حولها إلا رمال ومنحدرات صخرية، وشمس حرارة مشرقة يبهر ضوئها المنعكس على الرمال والصخور البيضاء. كان ظل الشجرة أروع ما في المكان، إلا أنه صامت صمت القبور، صمت مرعب لأي كائن حي! كان الوقت يمضي متناقلاً ببطء، فكرت هاجر: لو يظهر أي كائن حي هنا، طائر، حيوان، أو حتى وحش مفترس. ولكن لم يظهر إلا الليل الذي حل، كان الليل مريحًا مثل كل ليالي الصحراء، قبة كبيرة من الظلام ونجمين تعلقت من حرارة ياسها. دبت فيها بعض الشجاعة، أطلعت طفلها بعض التمر وارتواها من قربة الماء.

مر الليل، وجاء يوم آخر، وليلة أخرى، ولما حل اليوم الثالث بحرازته الشديدة، كان ماء القرية قد نفد، وأطبق الياس عليها بكل قوته، أصبح الأمه مثل علاء مشعم، وبيكى الطفل وراح صوت بكائه يضعف كلما مر الوقت، صرخت هاجر دعائية، ولم يظهر أي جديد، طار أدفها من معاناتها ابنها المحتضر، راحت تركض غادية وراءها، ونبرعها مراعى إلى السماء، راحت تركض بين تلتين: والإحياء ذكرى سعيها ذلك، يسعى الحجاج مهما فعلت بين التلين سبع مرات، راحت تصيح كما صاحت من قبل:

«أنت الكريم، يارحمي، من يرحمني إن لم ترحمني أنت؟»

ثم أتتها إجابة ما سألت: انفجر من الأرض ماء غزير راح يتدفق على الرمال، صاحت هاجر من الفرح واتبعت بوجه طفلها إلى الماء المتدفق حتى برتوها، وشبت من بعددها وهي تصيح بين شقاقاتها المتصلة: «زمي، زمي»، وهي كلمة لا معنى لها، ربما كانت محاكاة لصوت الماء المتفجر من الأرض، كأنها تقول: «تدفق، تدقق»، وخوفًا من ضبايع الماء في الرمال، صنعت حوله حافة من الرمال، وتحولت مع الوقت إلى بئر يعرف الآن باسم بئر زمزم موجود حتى الآن.
أصبحا الآن بمثمن من الموت عظيماً، وكفاههم التمر لوقف طويل. بعد بضعة أيام، مرت جماعة من البيض مهاجرة من جنوب الجزيرة، كانوا يبحثون عن مكان ري جديد، مروا بالقرب من الوادي فرأوا أسرابًا من الطيور تحوم فوقه، فعلموا أن به ماء. دخل منهم بعض الرجال إلى الوادي مستطلعين، وجدوا سيدة تجلس وحيدة ومعها طفلها بجوار حافة بئر عظيمة. استأذن منها الرجال في أدب إن كانت تسمح لهم بالإقامة في واديها. وافقت بشرط أن يظل البئر ملكاً لابنها إسماعيل وأبنائه من بعد.

أما إبراهيم، فذكر الموروث المعرفي العربي أنه عاد إلى الوادي بعد زمن وجد هاجرًا وأباه أحياً، كما وعده الله. منذ ذلك الوقت راح يزورهما كثيراً، حتى بلغ إسماعيل مبلغ الرجال وتزوج بفتاة من قبيلة جنوبية. بعد ذلك بإعام رأى إبراهيم رؤية تأمره ببناء بيت لله بجوار بئر زمر، وهكذا، بمساعدة ابنه إسماعيل بنى النموذج الأول لبيت الله الذي مازال قائماً حتى اليوم يعرف باسم الكعبة، حين كانا يقطنان الصغر ببناء البيت في دين التوحيد، أدار إبراهيم بصراه في السماء وقال ملبيًا: "لبيك اللهم لبيك". لذلك يرفع المسلمون أصولهم بالتلبية نفسها حتى اليوم، وهم يقتربون من مكة للحج.

[5]

"لبيك اللهم لبيك".

كم مرة سمعت فيها تلك التلبية في المرات الخمس التي قمت فيها بداء فرضة الحج؟ بدأ لي أنني أسمعها الآن، وإنما ممد على الرمال بالقرب من زيد وأبي سيد بجوار النار المشتعلة.

أغلقت عيني فاختفت النجوم واختفي القمر، وضعت ذراعي على عيني وأنا مستلق على ظهرني، فحبثت الضوء النافذ من جفوني إلى عيني، وراحت الأصوات تخفت.
لا أسمع إلا "البلك أي عقيل وخفقان تدفق الدماء في أذني كأن الدم يخفق مثل أمواج متتالية ترتطم بجدران سفينة، ويخفق مثلاً يخفق صوت ماكينة" كنّا أسمع خفقات ماكينة وأشارب بارتجاج سر السفينة وأشرب منكماها ورائحة زينتها وأسمع نداء "البلك اللهم لبلك صادر من منئ الحناجر على متن السفينة التي حملتني عند أول حج لي من ستة أعوام من مصر إلى الجزيرة العربية، فوق صفقة البحر الأحمر. كانت جبال قارة إفريقية إلى يميننا، وجبال شبه جزيرة سيناء إلى يسارنا - وكلاهما صخري عاري، وكانت المسافات بينهما تتبعك كلما مضينا بالخليج حتى أصبحت أشباح بعيدة تشعر لرأيها أن هناك بابسة إلا أنك لا تراها. بعد الظهر، دخلت السفينة إلى متسع البحر المفتوح، كانت المياه زرقاء مثل مياه البحر المتوسط.

كان كل ركاب السفينة من الحجاج، أعداد كبيرة لا أعرف كيف اشعت لهم. كانت شركة النقل الجشعة قد ملأت السفينة حتى حافتها بالحجاج دون أي تفكير في راحتهم، على السطح، في القمر، في الممرات، على الدرج، وفي قبلات طعام الدرجة الأولى والثانية، في أماكن ربط السفينة عند الرسو: في كل ثغرة متاحة حشر الناس حمارًا. كان أغلب الحجاج من مصر ومن شمال إفريقيا، كانوا كلهم في غاية التواضع لا يشك في ألوههم إلا ما سمعوا إليه، وهو فضيلة الحج، فتحملوا دون تذمر كل أنواع المصاعب التي كان يمكن تجنبياً أولاً جشع أصحاب السفن.

كنا يجلسون على ممرات السطح، في مجموعات متزاحمة، رجال ونساء وأطفال، يديرون بصعوبة وجبات طعامهم، كانوا ينضلون ذهاباً وعودةً لجلب بعض الماء في كيزان من الصفيف، كل حركة كانت عذاباً بين هذا الحشد البشري المضغوط، كانوا يتجمعون في زحام الهند حول صنابير المياه القليلة للوضوء في أوقات الصلاة، كما كانوا يهملون من الهواء الرديد في أعماق السفينة التي كانت تستعمل أثناء العام في غير موسم الحج كمخازن لنقل البالات وصناديق البضائع، من يرى ذلك يدرك قوة إيمان أولئك الحجاج. لم يهتموا بذلك المصاعب، كانوا مستغرقين أينما كانوا في التفكير بمكة، لا يتحدثون إلا عن الحج، في انتفاضة يضيء وجههم، والنساء
تفنّى أغانيات جماعية عن المدينة المقدسة، ومرات بعد مرات يتكرر النداء: "لي بك اللهم لي بك ".

في اليوم التالي دوت صافرة السفينة معلنة عن وصولها إلى ميناء رابغ الصغير شمال مدينة جدة، وطبقاً لعادة كان حاجي شمال إفريقيا يرتدين ثوب الإحرام في هذا الموضع، وهو مكون من جزأين غير مختلطين من نسيج أبيض قطني أو صوفي، أحدهما يلف حول الخصر حتى ما يلي الركبتين، والآخر يلف على الكتف، والصدر، وتبقى الرأس عارية، حتى لا تكون هناك مشاعر اعتزاز أو اختلاف بين المسلمين القادمين من جميع أنحاء العالم لزيارة بيت الله، ففرق بين وجه وقوميات وأجناس وأعراق وغنى وفقر، ففرق بين عالى الكتلة في قومه أو بسيطها حتى يعلم البشر أنهم متساوون أمام الله، وأنهم أخوة في الله.

اختقت من حولي كل الملابس الملونة للرجال: لا ترى طريوشًا تونسيًا أحمر، ولا برس مغربي أبيض، ولا جلابيب مصرية ملونة، في كل ما حولك لا ترى إلا ملابس الإحرام البيضاء المتواضعة خالية من أي تزيين، ملتهبة حول أبدان تتتحرك بعزة وفخر، أما النساء قريبين بملايسين حتى لا يتبصرون إلى كشف أجزاء من أبدانهن، لم يظهر على السفينة يعد لبس ملابس الإحرام إلا اللونين، الأبيض للرجال والنساء، والأسود لبعض النساء المصريات.

في فجر اليوم الثالث رست السفينة أمام سواحل الجزيرة العربية، تجمع عدد كبير من الحجاج بجوار حاجز السفينة يتعلمون إلى أرض الجزيرة التي كانت تتضح بالتدريب مع انتشاع ضباب الصباح على صفحة البحر، انتشرت أشباح سفن أخرى تحمل الحجاج، وصفحة الماء صفراء شاحبة في مواضع خضراء عطيفة في مواضع أخرى، بدت ألوان الشعب الإنجليزية تكون سلسلة مهذبة للساحل، في الشرق باتجاه الساحل بما يشبه التل، منخفض واداكن، ونما أشرقت الشمس، اتضح أنها مدينة جدة التي ترتفع بجانبها من الحافة باتجاه المركز، مشيدة من أحجار ورية، ورمادية صفراء من صخور مرجانية.

426
وأسوار الشرفات الخشبية، التي تحولت بفعل الرطوبة والزمن إلى الأخضر الرمادي، ارتفعت مئذنة في المنتصف، بيضاء مستقيمة كأصبح مرتفع.

تصاعد من جديد صوت التكلبة: «لبيك اللهم ليبيك»، صيحة تهز الأعمال فيها استسلام لله، وحماس انتشر بين الحجاج على السفينة وعبر صفحة الماء باتجاه البلد الذي به معقد الآمال العظيمة كانت أملهم وأملها: بالنسبة لي كانت رؤية ساحل الجزيرة العربية خلاصة سنوات من البحث، نظرت إلى إلزا التي كانت ترافقتني في المج، قرأت المشاعر نفسها في عينيها...

ثم رأينا أجنحة بيضاء كثيرة تخفق من الأرض باتجاهنا، كانت القوارب الساحلية يبتسمها البيضاء اللاتينية تشق طريقها فوق صفحة الماء الهادئة بنعومة ودون صوت بين السُّهاب الموجاوية الخفيفة تحت سلع الماء. اقتربت وانت في التصقت بالسفن، وطوت أشرعتها واحداً بعد آخر في خففة وسرعة كما لو كانت تختبئ من عملاق قادم ليأكلها، ثم ارتفع صباح النوبة الذين راحوا يقفزون من مركب إلى مركب، ثم اكتشفوا سَلْم السفن ليغطشوا أمتثلة الركاب الذين أمثالا سعاده لرأي الأرض المقدسة.

كانت المركب التي نزلنا بها ثقيلة ومريضة وخشنة التصميم عند مقارنتها بالصواريخ العالية الرشيقة والأشرعة العريضة: لابد أن المركب الذي ركبه الغامري البحر سندباد كان من الطراز نفسه، كان سندباد ينطلق إلى مغامرات لم تطلبه منه، يرسى إلى جزيرة، وفجأة يكتشف أنها ظهر حوت... في مراكب مشابهة أبحر الفنيقيين قبل سندباد جنوبًا في هذا البحر، على الخليج العربي لجلب التوابل والعطور، وكتوز باد أوفير...

الآن،نحن الورث الأقسام لأولئك الغامرين العظام، نبحر عبر شعوب مرجانية، متجنبين مواضعها في استدارات واسعة: الحجاج في ميلاء الإحرام البيضاء مدسوسين بين حقائب وصناديق وحزم مربطة، ضيوف صامتون في نشوة منتظرة.
أنا أيضًا تأمل في الأحلام والتوقعات، هل يوجد ما يعمق حياتنا أكثر من الحج؟ وجدت نفسى في جزءًا من التفكير في سينما من جديد، فحين غادر شواطئ بلده، كان مثلي تمامًا - لا يفكر فيما يجلب المستقبل، لم يتنبأ ولم يخطر بهذه كما هكذا. ولم أرد أنا إلا أداء الحج، ولكن حين وقعت له تلك المغامرات كما وقعت لي، لم يستطع أي منا بعدها أن ينظر إلى العالم كما كان ينظر إليه قبل مروره بتلك المغامرات.

ومع أنه لم أتفاجئي أشياء غريبة في طريقي مثل كان أو عفاريت محسورة أو طائر رَجْع مملوء، لم يصدق السينما بحار البصرة، إلا أن حجي الأول كان مقدر له أن يعمق حمائي أكثر مما عمقت حمائي المغامرات العجيبة التي صادفتة. أما إذا فقد كان الكورب ينتظرها هناك؛ ولم يكن لدي أي منا أي توقع بعد قرينا منها؛ ولكني لم أدرك أنني أغادر، وانزوعت خلفي، ودون أي إشار، وصل عالى القديم إلى نهايته، عالى أفكار الغرب ومشاعره، ومساعيه وتصوراته ومفاهيمه. كان باب عالى القديم يغلق في صمت من خلفي، صمت مطلق حتى إنني لم أدرك ذلك ولم أشعر به؛ اعتقدت أنها رحلة مثل كل رحلاتي السابقة التي تحولت فيها إلى بلاد أجنبية، وبعد بعدها إلى ماضي الذي تركه، إلا أن الأيام كانت تستكشف عن وجه آخر، تتغير معه كل اتجاهات آمال ورغباتي.

**

في ذلك الوقت، كنت قد زرت دولًا بكثرة من دول الشرق، كنت أعرف إيران ومصر، أفضل مما أعرف البلد الأوروبية، وأعرف كابول معرفة ثامنة منذ أن كنت عن أن تكون غريبة بالنسبة لي، وأسواق دمشق وأصفهان التي اعتدتها. لذلك قفز إلى ذهني تعبير ما أشبه "حالة رأيت سوقًا جدًا لأول مرة". لم أر إلا خليطًا غير متجانس وتقليد بلا روح ما كنت أراه بكميات هائلة، واتقان فريد في أسواق الشرق الأخرى. كانت
شوارع السوق مغطاة بخيل وأقمشة بالغة لحمايتها من الشمس الحارقة؛ كانت أشعة الشمس تتدفق من ثقوبها في أعمدة مائلة منبرة. بالشوارع مطاعم مفتوحة يشوى أمامها علامة سوداء قطع اللحم المشوية في أسياب على الفحم المشتعل؛ ومقاهي مفتوحة تشتهر بأسوان وأراجب مشهورة لامعة ومقاعد مصنوعة من جريد التخيل؛ محلات لا تحمل معنى ملثية بنفسيات البيضات العربية والشرقية. الحرارة الشديدة ورтокين الأسماك والشعاب المرجانية والتراب في كل مكان. زحام في كل الأماكن. حجاج كثيرون في ملايين الإحرام البيضاء مقابل اللباس الملونة لأهل جدة الذين أعتادوا وأثقوا الاختلاط بكل مسلم العالم. تجد أحيانًا أيا من الهند، بيتا أبا الأم خليط من الملابس والعرب - ربما تروج جدة كنفة من جهة أباها من أصل أوربي، ومن جهة أمها من نسل صومالي. نورات حية نتاج قرون من مواسم الحج ونتائج المجتمع الإسلامي الذي لا يعرف تفرقة على أساس من لون ولا جنس.

وعدا الاختلافات الناتجة عن الحج، كانت جدة في تلك الأيام مكان الوحيد في الحجاز المسموح فيه بإقامة غير المسلمين. كان من المعتمد أن ترى لافتات محلات بلغات أجنبية وأناس بذياء استثنائيه بيضاء وقبعات الحماية من الشمس، كما كانت توجد بها الفئصليات الأجنبية.

كانت الروايات والأصوات تنتهي إلى عالم البحر أكثر من انتمائها إلى عالم اليابسة.

 إصوات روايات الماء، والسفن التي ألقت مراسليها خارج الشعاب المرجانية، ومراكب الصيد ذات الأشرعة المثلثة البيضاء - عالم لا يختلف عن عالم البحر المتوسط.

أما المنازل، فالبرغم من الاختلافات القليلة بينها، فقد كانت مفتوحة لتسهيل البحر وجهات غزة بالزنارف، ونشب مختلف بين الطراز العربي. تسمح لن البالداخل أن يرى من الخارج ولا يمكن لن من الداخل، مئات لا تنتهي في طرازها إلى البحر المتوسط، كما أنها لا تعتبر أيضاً عن الجزيرة العربية.

كانت جدة تنتهي بشكل أخص إلى عالم سواحل البحر الأحمر، الذي ينتج الطرق العمارية ذاتها على ساحليه.

429
أما الجزيرة العربية ذاتها فقد أعلنت عن نفسها بسماء في لون الصلب، وتلال صخرية جرداء، وكثبان رملية إلى الشرق من جدة، وأنفاس العظمة والندمة اللذان يختلطان بغرابة في السهوب العربية الواسعة.

* * *

بعد ظهر اليوم الثاني من وصولنا إلى جدة بدأت قافلتنا رحلتها إلى مكة، شاقاً طريقها خلال زحام الحجاج، والبدو، والجمال المحمولة وغير المحمولة، وجمال الركاب والحمير المزينة عند الباب الشرقي للمدينة، وسيارات رائحة وراجعة - كانت السيارات الأولى في السعودية - محمولة بالحجاج وأيوبها تصدر أصواتاً عالية. يبدو أن الجمال أحسس أن السيارات أعدائها الجدد، فقد كانت تجزف كلما مرت سيارة، وتتكسر إلى جوار الهوئ وتمد أعناقها للأمام والخلف لا تتعرف إلى أي تهرب. عهد جديد يزهر على تلك الحيوانات العالية الصورة، عهد يشعرها بالخوف والتشائم.

بعد فترة كانت المدينة البيضاء قد أصبحت خلفنا، وجدنا أنفسنا فجأة في الصحراء في واد متسع رمادي ينير، مهجرين، تنبت فيه أشجار شوكية متناثرة، وينبع حشائش جافة، وتلال رملية معزولة واطلتها تبرز من الوادي كما تبرز الجزر من البحر، وتحدها من الشرق مرتفعات صخرية رمادية زرقاء، خلطاتها حادة ولا حياة فيها. كانت قوافل الحجاج تسير في هذا السهل، جمال بلا عدد، واحد وراء آخر، منئ وآلاف من الجمال المحمولة ببضائع وحجاج وحقائب، تختفي أحياناً خلف تلال لتشمر من جديد. بالتدرير احتت مساراتها في طريق رملي واحد، صنعته مسيرات الجمال والبشر عبر القرون.

في صمت الصحراء، وخلفية صوتية من أقدم الجمال التي لا تحطم الصمت بقدر ما تكون خلفية ثابتة له، ونداءات عشوائية من ساقي الجمال من البدو، أو أغاني الحجاج الخفيفة هنا أو هناك، غلبنا فجأة إحساس جارف - كان من القوة
حتى إن المرء من الممكن أن يطلق عليه رؤيا: رأيت نفسي على قنطرة تمتد فوق هاوية غير مرئية، قنطرة طويلة حتى إن الجهة التي كنت قد بدأت منها العرب احتفظ بين الوضاء لبعدها الذي أصبحت عليه، بينما طرفها الآخر الذي كنت أتجه إليه ينضب بالكماد دون تفصيل. كنت أقف بالمنتصف، وخفق قليلاً، وانا في منتصفها بين طرفها، ابتعدت عن بدايتها إلا أنني لم أكن من نهايتها، بدأ لي على مدى ثوان طويلة، آني سأقضي هكذا بين طرفيها، فوق هاوية ساحقة - حتى صاحت امرأة مصريّة: نفاجاً بصوت أبشعتي: "لبيك اللهم لبيك!" انقطعت رؤيتي وتلاشت.

في كل جوانب كنت أسمع الناس تتحدث بكل اللغات، يصبح بعضهم أحجاماً معًا "لبيك اللهم لبيك!" أو تغتني فلاحة مصرية: أغنية في حب السنقل، بينما ترسل امرأة عربية من أعمال حلقها غريبة (وهو صوت عالٍ يعبر عن الفرح والسعادة تطلقه الإناث العربيات، ويطلق عليها في مصر زغوريدة)، اعتنى على إطلاقها في المناسبات السعيدة - مثل الزواج، ولادة مولود، ختان، المناسبات الدينية ومنها الحج بالطبع في عصور الحرب المبكرة، كانت بنات رؤساء القبائل تركز مع الرجال وتخرج للحروب حتى يحرون الرجال على الإقدام والشجاعة (كما كان من العار أن تقتل إحداهن والأمسا أن تفصر)، فكانت الغطرسة تسمع في ميدان القتال.

كان أغلب الحجاج على محافات، اثاث على كل جمل - كان السير يبعث الدوار ويثير الأعصاب، مهتزة لا تتوقف. يغفو المرء لبضع دقائق، ليصبحو على توقف مجافٍ وغزة مفاجئة، ثم ينام من جديد، ليستقش من جديد، وسائق قافلة الجمال يراقبها على الأقدام ينادى الجمال بفصول مفاجئة وحادة، وواحد أو أكثر منهم يشاد على إيقاع الخطوات الواسعة للجمال.

في الصباح وصلنا قرية "بحرا", وتوقفت القافلة لتقضي بها النهار كان السير يبدأ ليلاً لتجنب قيظ النهار وحرارة اللافحة.

تلك القرية - في الحقيقة لم تكن إلا صفين من المقامات عبارة عن أكوام من جريد النخيل ومسجد صغير - إلا أن ذلك الموضوع كان في منتصف المسافة بين جدة ومكة.
معالم الصحراة كما هي بلا تغيير منذ أن غادرنا جدة: تلال رملية متناثرة، وجبال صخرية في الشرق تفصل الأرض الساحلية الواطئة عن هضبة المنتصف العالمية.

إلا أن تلك الصحراوات تحولت إلى ما يشبه معسكر جيش ضخم بعدد لا يُحصى من الخيام، والجمال، والملحات، ولغات كثيرة مختلفة- عربي، هندوستاني، ملايو، فارسي، صومالي، تركي، باشتو، أمهري، ويعلم الله كم هناك من لغات غير ذلك.

كان ذلك هو التجمع الحقيقى للأمم رابية واحدة، والكل يرتدى الملابس ذاتها وهي ملابس الإحرام، ومن العسير ملاحظة أي اختلاف، بما أن كل الأجناس ليست إلا جنسًا واحدًا هو الجنس البشري.

كان الحجاج منهمكين بعد رحيل الليل، لم يعرف إلا قليل منهم كيف يستقل وقت الراحة، كانوا لا يرتاحون، يتحركون من مكان آخر، إدراهم تبحث عن شيء تفعله، حتى لو كان فتح الحجابة وإعادة إغلاقها، ولا فقد الإحساس بذلك كما لو كان في بحر من سهادة غير راضية.

كان ذلك ما حدث لأسرة في الخيمة المجاورة لخيمتي، كانوا حجاجًا من قرية بنغالية، لم يتدبوا كلمة واحدة، جلسوا متربعي السيسان على الأرض، وراحوا يحملون بنذرات ثابتة باتجاه الشرق، اتجاه مكة، إلى الصحراوات التي كانت تتمتع بحراة لاففة وتنفت نارًا، ملهم تفشي الإسلام كم لكانوا أمام بيت الله، أو في حضرته، كان رجالهم على درجة عالية من الجمال، رشيقي الأنساب، شعرهم طويل حتى الكتفين، وحبي كثرة، واحد منهم رقد مريضاً على سجادة وجلس إلى جواره شابتان، مثل طائرتين ملونين صغيرتين بسراويلهن الزرقاء والحمراء الفضفاضة، وفستانين فضي مزركش بألوان كثيرة، وضفائر شعرهن السميكة تتدلى على ظهورهن؛ أصفنهم كانت تضع حلقة ذهبية في منخارها.

بعد الظهر، مات الرجل المريض، لم ترفع النساء أصواتها بالنواح كما يفعلن في دول الشرق، لأن الرجل مات في الحج، على التراب المقدس، فهو شهيد. قام الرجال بفسله، ثم لفوه بملابس الإحرام كآخرما يلبس، وقف واحد منهم أمام الخيمة وكور
كفيك حول فمه ونادى للصلاة: «الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، صلاة الله عليه وسلامه جميعًا».

تقاطر الرجال من كل النواحي بملابس الإحرام، ووقفوا صفوفًا خلف الإمام كجند جيش عظيم. حين صلوا عليه، حفروا قبرًا، وقراً رجل مجهز ببعض من القرآن، ثم أهالوا الرمال على الحاج اليمين، الذي مدده على جانبه، حتى يتجه وجهه إلى مكة.

* * *

قبل شروق شمس اليوم الثاني، راح السهل الرملي يضيء، وتقاطب التلال من بعضها؛ مررت عبر ممر ضيق، ورأيت على ضوء الفجر الشاحب زول مبانى مكة، ودخلنا إلى شوارعها مع شروق الشمس.

كانت بيوت مكة تماثل بيوت جدة، ينواعذ غريبة من الأخشاب المشقه والشرفات ذات الأسوار، ولكن بدأ أن الأحجار التي بنيت منها كانت تقل من الأحجار المزججية لباني جدة. كان الوقت مبكرًا في الصباح، إلا أن الحرارة كانت شديدة. أمام منازل كثيرة، كانت توجد أرائك ينام عليها المتعبون. ضاقت الشوارع أكثر، وكانت غير معبئة سرونا عبرها باتجاه مركز المدينة. كان قد بقي أيام على موعد الحج وزحام الشوارع شديد. أعداد هائلة من الحجاج بملابس الإحرام وأعداد لا تقل عنها مازالت بملابسها العادية التي تنتمي إلى جميع دول الأرض. ساقطين يسيرون منحنيين يحملون على ظهرهم قرب الماء النقية أو يحملون عصا غليظة على أكتافهم يتدلى منها من كل ناحية صفية نفذ تستعمل لحمل المساء للسقاية: مكلارين، حمير ركوب بأجراس معلقة في رقبتها وريت زينة على سروجها، وحتى تكتمل الفوضى، تأتي جمال من اتجاه معاكس محملة بمحفظ مخال، تختر وتهدر بكل الأصوات، كانت هناك فوضى في الشوارع الضيقة، حتى إنك تعتقد أن الحج الذي يتم كل عام على مدى قرون طويلة، قد أتى فجأة لأول مرة دون استعداد. في النهاية، لم تعد قافتتنا قافلة، تحوت إلى فوضى من جمال ومفاهة وأمنة وحجاج وسانتي جمال ووضوء.
كانت قد رتبت من جدة أن تسكن في منزل مطوف مشهور اسمه حسن عبيد، إلا أنه لم تكن هناك فرصة للإثراء على بيته أو عليه في تلك الفوضى. فجأة، سمعت صوتًا ينادي: "حسن عبيد، هل هناك حجاج لحسن عبيد؟"، وتماما يخرج جن من زجاجة وجدت شابًا يقف أمامنا، وبدافع عميقة، طلبت منه أن تتبعه، كان حسن عبيد قد أرسله ليقنتما إلى منزله.

بعد إفطار غنى قدمه لنا المطاف، خرجت، يرشدنا الشاب الذي استقبلنا قبل ذلك إلى طريق الحرم. سرنا خلال شوارع مزدحمة، أمام جزرائين سلخوا جلود الماعز، وعلقوا: وأمام بناء خضراء فرشوها على حصر من قش مجدول على الأرض، وبين أسراب من ذباب ورائحة خضراوات، وتراب وعرق: ثم عبر شارع سوق ضيق مغطى لا توجد به إلا محلات ملايس: مهرجان من ألوان. وكثير أسواق أخرى في غرب آسيا وشمال إفريقيا، كانت الحواستن عبارة عن فجوات صغيرة تعلو الأرض بياردة، ويجسد كل صاحب حانوت ماربحة أمامه، تحبطه أكواب ملايس من كل أنواع الأفمليشة وبمختلف الألوان، ومعطلا فوق رأس كل طرُز ملايس الأمم الإسلامية.

مرة أخرى، شعوب من كل بقاع الأرض، وأزهار، وتعبيرات متباينة، بعضهم بعمائم وبعضهم عارئ الرأس، بعضهم يسير صامتًا خاضعًا وجهه ومسبيته في يده، والآخرين يركضون في حمام في الزحام: خليط، أجياس بنية للصوماليين، يلعبون كالناحاس في ملايس صارخة الألوان؛ وعرب من أعلام الجزيرة العربية، ووجه نحيلة بلح كثيّة وخطوات متانة، والآخرين ضخامت الأجسام أوزبكين من بخارى، وكانوا يمزالوا بملابس بلادهم، من قفطان سميكي وحذاء طويل حتى الركبة بالرغم من جو مكة اللافع، بيوت من جاوة بوجه مكشوفة وأعين مثل الشعر، مغاربة متانة الخطر يتهون بالبرنس الأبيض، وأهل مكة بملابسهم البيضاء ورسومهم الغطاة، فلاحون مصريون بوجه تعلون فرحة وإثارة، ونساء هنديات بزيهن التقليدي فبدين مثل خيام متحركة؛ الفلولتا السودانين تبكت ودائعي في ملايسهم الزيادات وغطاء رأس أحمر: سيدات صينيات دقيقات الحجم مثل فراشات ملونة، وخطوات صغيرة وأقدام دقيقة مثل حوافر الغزال.
صباح ومحام من كل ناحية حتى تشعر أنك في قلب موجة عاتية ولا تتمكن من
رؤية تفاصيل صورة مكتملة. كل المشاهد الطافية على عدد كبير من اللغات واللغات.
إيماءات حماسية وإثارة حتى وجدنا أنفسنا أمام باب من أبواب الحرم

كانت بوابة ثلاثة الأقواس بدرج حجري يصعد إليها، جلس عليها شجاعه
نصف غرامود إليها ذراعًا محبلا. ثم رأيت لأول مرة الساحة الداخلية التي كانت في
مستوى أرضا من مستوى الخارج — أوطأ كثيرًا — كانت مفتوحة أمام العين كالعوداء;
مساحة مربعة واسعة تحيطها من كل جانب عقود شبه دائرية محدودة على أعمدة، في
مركزها معلم ارتفاعه أربعين قدماً، تنزل عليه ستائر سوداء بحزم عريض مذهب في
أعلاها وعلى أيات من القرآن.

هذه هي إنذ الكعبة، موضوع شوه ووقت ملايين الناس على مدى قرون طويلة. في
سبيل وصولهم إليها ضموا تضحيات عظمى على مدى القرون؛ في الطريق إليها مات
كثيرون؛ ووصل إليها كثيرون ممن يعانون الحرام ويشتفو العيش؛ كان هذا اللبنى
المكب غاههم وأسمي زهائفهم، وكان الوصول إليه هو كامل التحقق.

هامي الكعبة هناك في المنتصف، مكب مكلل (رباد الاسم العربي على الشكل)،
مغطى تمامًا بستائر سوداء، يقف جزيرة هادئة في ساحة الحرم الواسعة: أهدأ من
أي شكل معماري آخر في العالم. أراد الأول من بني الكعبة — عبيد بن بكر من عهد
إبراهيم عدة مرات على الشكل نفسه — أن يصنع مثالًا لتوضيع البشر أمام الله. لقد
ادرك من بناؤها أنه لا يوجد جمال في الإيقاع العماري والمحلل، ولا اكتمال في
الخطوات، مهما كانت عظمتها، يمكن أن يتناسب مع عظمة الله، لذلك لجأ إلى أبسط
مجسم ثلاثي الأبعاد يمكن تخييله — مكب من الصخر.

لقد زرت مساجد وجواهر وميزات إسلامية كثيرة صنعت منها الأيدي الخلاقة كل
أنواع الفنون والأشكال، رأيت جوامع شمال إفريقيا، التي تبدو ك بصورة رائعة
للصلاة مشيدة من الرخام واللمر الأبيض، ورأيت مسجد قبة الصخرة في القدس:
قبة عظيمة مكتملة فوق بناء رشيق، حلم من الخفة والثقل دون تعارض؛ ورأيت
الجواهر العظمى في إستانبول، جامع السليمانية، وجامع «بني فاليد»، وجامع بايزيد،
وجوامع بركة، في آسيا الصغرى، وجامع السقافنى في إيران - إيقاع ملوكين من
الحجارة والصخور والمليويني الخرزفي الملون، والفسففساء، ومداخل هائلة تعلو الأبواب
المفضضة، ومآذن شاهقة، مستديرة من الرصاص بشرفات من الأزرق التركزى،
وساحات مغطاة بالرخام، ونوافير مياه وأشجار نادرة عتيقة، عظيمة حتى في قدمها.
رأت كل ذلك - إلا أنني لم أشعر برهبة أمام أي منها كما أشعر بها الآن أمام
الكعبة، لقد اقتربت بانيتها تمامًا من التعبير عن مفاهيمه الدينية. في البساطة
المطلقة للمكب، في التخلي عن كل إدعاء بشري للجمال الفني، لقد فكر: «مها كان
قدر الجمال الشكلي الذي يمكن للإنسان أن يصنعه بعقله ويده، سيكون من قصور
الخيال أن يظن أنه يتناسب مع عظمة الله، ولذلك، فإن أبسط شكل يمكن أن يدركه
العقل البشري هو أعظم شكل يتناسب مع عظمة الله»، ويبدو أن المنطق نفسه هو
الذي وجد مصمم بساطة الأهرام المصرية - على الأقل وجد الذهن البشري متنفسًا
لخياله في الأبعاد الهائلة التي بنى عليها الأهرام، أما هنا، في الكعبة، فيتحدث
الشكل من التخلي البشري عن كل إدعاء، ويتحدث عن التسلم لله، ولا يوجد مثل
ولا شبهة للبساطة العظيمة لبناء الكعبة على وجه الأرض كلها.

* * *

لا يوجد إلا مدخل واحد للكعبة، وهو باب مغطى بطائرة رقيقة من الفضة في
الجانب الشمالي الشرقي، على ارتفاع سبعة أقدام من سطح الأرض، ولا يمكن
الوصول إليه إلا باستعمال سلم يوضع أمام باب الكعبة بضعة أيام من كل عام،
والكعبة من الداخل، وهي مغلقة عادة (رآيتها من الداخل بعد ذلك في مناسبات
أخرى)، بسيطة جداً: أرضها من الرخام عليها بضعة بسط، ومصابيح من البرونز
والفضة تتدى من دعامات السقف كالشبيبة، وداخل الكعبة، لا يحمل في الحقيقة أي
معنى في ذاته، فقداسة الكعبة تخص المبنى بأكمله كقبة لكل العالم الإسلامي في اتجاه هذا الرمز إلى وحدانية الله، يوجه مئات الملايين من المسلمين أوجهم نحوها في الصلوات الخمس كل يوم.

في الركن الشرقي من مبنى الكعبة يوجد حجر أسود متروك دون سائر، ويشبه إطار فضي عريض، وأحدث تقبيل المسلمين له على مدى أجيال متتالية وقرون طويلة من الزمن، تجويقاً بالحجر، وكان تقبيل المسلمين له سبيلاً في سوء فهم كبير من المسلمين، فقد أشاروا أنه جزء من صندقد وضعه محمد كتصاص مع مشركين مكة، وذلك مجافيا تمامًا للحقيقة. فالقبيلة موضوع تمجيل لا موضوع عبادة، أي أنها لا تعبد، وكذلك الحجر الأسود موضوع تمجيل لأنه كل ما تبقى من البيت الذي أسسه إبراهيم، ولأن شفاه محمد قبلته في حجة الوداع قبل موته، فإن الحجاج يفعلون ذلك اقتداء به، كان الرسول واعياً أن كل أجيال المسلمين من بعد سنتدبي به في كل أفعاله وأعماله، وكان يعلم أنه يتقبلي للحجر سنتدقي شفاه كل أجيال المسلمين من بعده في وضع تقبيله للحجر في اختضان رمزية، أقوى من الزمن، وأقوى من الموت، لكل أمه في حجها. والحجاج، حين يُقبّلون الحجر الأسود، كأنما يحتضنون الرسول ويحتضنون كل المسلمين الذين جاعوا هنا من قبلهم وكل المسلمين الذين سيأتيون هنا من بعدهم.

لا ينكر أي مسلم أن الكعبة كانت موجودة من عصور طويلة قبل محمد؛ ولكن مغزياها في تلك الحقيقة، والنبي لم يدع أنه أوجد دينًا جديدًا. على العكس، قال: إن الاستسلام لله، والتسليم لشيئته - الإسلام - كان طبقًا لما يذكر القرآن، فطرة الإنسان التي خلق عليها منذ فجر الوعي الإنساني، وأن ذلك هو ما دعي إليه إبراهيم، وموسى، وعيسى من قبله وكل من جاء إلى البشر من أنبياء كانوا مسلمين - ورسالة القرآن ليست إلا خاتمة الرسالات من الله. كذلك لا ينكر أي مسلم أن ساحة الحرم المقدس كانت مليئة بالأصام والرموز الوثيقة قبل أن يحملها محمد؛ تمامًا كما حمل موسى العجل النذري الذي صنعه قومه في طور سيناء: لقد كان البشر يعبدون الله.
في موضع بيته الذي أقامه إبراهيم قبل عصور من ظهور الأصنام في ساحته، لم يفعل محمد إلا أن استعاد البيت الذي أقامه إبراهيم للغرض الأصلي الذي شيد من أجله.

* * *

وقفت آثار البيت الذي أقامه إبراهيم واندثر عظمته دون قدرة على التفكير (ال أفكار والانعكاسات تأتى إلى المرء بعدما يؤمن طويلًا) من نواة فرح داخلي انتهت بهجة وفرح ازدادت وعلت مثل الصمت الشجي.

كان بلاط الرخام يغطي الأرض في دوائر حول الكعبة تعكس ضوء الشمس يسير عليها بشكر كثير، رجال ونساء، يطوفون حول بيت الله. كان من بينهم من يكونون، وأخرون يدعون الله جهèرة في الصلاة، وغيرهم ممن لم يجد كلامًا ولا دمعًا، راح يطفو ورأسه منكسر في الأرض...

من شعائر الحج أن تطوف سبع مرات حول الكعبة. لا تتوقف تبعيدك للكعبة، ولكن لتذكير المسلمين ب أساسيات الحياة، فالكعبة رمز لوحدة الله، وطوف السلمين حولها رمز لانشطة الحياة، يتضمن أن عبادة الله لا تكون بالفكر والمشاعر، وحدهما، وكل ما يمكن تسميته الحياة الداخلية، بيل بالفعل البدني والجسدي، أي بالمعنى والفعل، وذلك يكون الوجود الإلهي محور الوعي الذهنلي والفعل البدني.

طُلْفَت أُنا أيضًا ببطء وأصبحت جزءًا من التدفق الدائر حول الكعبة. يظهر ويخفي رجل أو امرأة بالقرب مني، صور منفصلة تظهر أمام بصري ويخفي، رجل أسود عملاق بملابس الإحرام، وبسحة خشبية ضخمة يلفها حول معصميه. ظهر ثم اختفى بين الزحام، رجل ملاولي عجوز حاذاني لفترة يحرك يده كأنه في حيرة، ثم اختفى. عينان خضراءان تحت حواجب شفعته – إلى من تنتمى؟ ضاعت في الزحام. ضمن
زحام الناس أمام الحجر الأسود، كانت هناك امرأة هندية شابة، كان من الواضح أنها علية، على وجهها الرقيق توق واشتقاق، واضح وضوح قاع الماء الشفاف، كيفاً مرفوعان في ضراعية في اتجاه الكعبة، أصبحها ترجع كما لو كانت في صلاة صامتة.

طفت، وطفت، مرت الدقائق لا أعرف لها عداً، اختفت كل ما كان بقلبى من مرار ومشاغل، أصبحت جزءًا من تيار يدور آه، هل كان ذلك هو معنى ما نفعله: أن نعي أن المرء جزء يدور في ذلك؟ هل يصبح إدراك ذلك نهاية كل حيرة؟ ذاب الدقائق، وتوقف الزمن، وكان الكعبة مركز الكون.

**

ماتت إلزا بعد ذلك ببضعة أيام.

ماتت فجأة بعد مرض لم يستغرق أسبوعًا، بدأ المرض في أوله كأنه توقف من الجو الحار والطعام الذي لم تعتمده، إلا أنه تطور ليصبح مرض استوائي غامض وقف أمامه الأطباء السوريين حائريين وبائعين. وأطبق الظلم وال придется الخالص من حولي دفعتها في مقبرة من الرمال في مكة. ووضعت حجرًا على مدعاتها. لم أشأ أن أنشق عليه أي شيء: فالتفكير في نقش يمثل تفكيراً في المستقبل، ولم أكن قادرًا على استيعاب أي تفكير في المستقبل عند موتها.

بقى معي ابن إلزا الصغير، أحمد، لبنة عام رافقتني في أول رحلة لي إلى أعمق الجزيرة العربية - وكان شجاعًا وهو ابن عشة أعوام. بعد فترة كان على أن أودعه أيضًا، فقد أقنعتن أمه أن الأفضل له أن يذهب إلى مدرسة في أوروبا، لم يبق من إلزا إلا ذكريات وحجر على مدفنتها في مدافن مكة، وظلما لم يرتفع عن إلزا بعد زمن. بعد زمن طويل من ارتدائه في أحضان الجزيرة العربية.
[1]

أوغل الليل، إلا أنها بقينا جالسين حول النار، كان أبو سيد قد خرج من حالتة الانفعالية وتحول إلى حالة من الهدوء؛ كانت عيناه حزينة ومتعبتان ويبدو عليه الإنهاك؛ تحدث إليها عن نورا كما يحدث أمرئ عن شخص عزيم مات من زمن، قال:

لزيد: "لم تكن جميلة، أنت تعرف ذلك، لقد أحببتها ...

القمر مكتمل فوقنا، مثل اكتمال خلق الوجود الإنساني. لم يكن من الغريب أن يعتقدعرب الجاهلية أن القمر من بنات الرعب - وتخيلوا ذات شعر طويل وأنها ربة الخصب وأسموها "اللات"، ذات قوة غامضة خاصة بالتناسل على الأرض في ذلك تهب الحياة للبشر والحيوانات.

واحتفاء بها اعتاد الشباب والشابات في مكة والطائف قبل الإسلام على الاحتفال باكتمال القمر كل شهر في الخلاء، يقضون الليل في قصف ومرجة والتناجك بدلاً من إلقاء الشعر، يراق الخمر من أوانيه الفخارية، وإن النبي كان أمحى مثل الدم وهبهم نسوة، ربط الشعراء بينهم وثناء المرأة في قصائدهم الشعرية - كان الفخر وحبة الشباب يتدفقان في حجر اللات التي تناثر مثلما يلتقي القمر في تمامه، وتعلو كما يطر طائر ماك الحزين. وانتقلت ربة الشباب والتناسل القادرة بصنعها من جنوب الجزيرة العربية إلى الشمال حتى وصلت إلى اليونان على شكل الربة "ليتو"، أم "أبو لول".

من فوائد الطبيعة الغامضة لعبادة اللات وآلهة أخرى حتى الوصول إلى مفهوم وحدانية الخالق في القرآن، كان الطريق طويلاً، إلا أن إنسان الجزيرة اعتاد على قطع مسافات طويلة على طريق الروح مثل باقي البشر، حتى إنه يمكن أن نطلق على ذلك التاريخ الطويل "تاريخ البعث عن إيمان".

كان التساؤل والسؤال الدائم، يبحث عن المطلق.

440
حتى في العصور المبكرة، حين لمّا العالم المهير لهم أذهانهم بصور الآلهة والمعادر والجنان، كانوا يدركون أن هناك إلهًا واحدًا فوق كل الآلهة التي يصورونها، إله غير مرن، لا يمكن إدراكه لأن فوقي قوة الإدراس، إنه أزلي فوق كل موجوداتنا. لم تكن اللات وأخواتها المقدسات، مناوة والعزم، إلا إن الأمهات الروب الوسيطات بين الإله الذي لا يدركه والعالم الذي يدركه، رمز لقوى لا يفهمونها أحادًا بالطفولة البشرة، إلا أن أعماقهم كانت تدرك وجود الإله الواحد، كامن في أعماقهم، جاهز على الدوام ليشع عِن توقدًا إلى إيمان واعٍ كيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك.

لقد كانوا بشرًا عاشوا في عزلة بين سماء قاضية وأرض أقسى، وكانت حياتهم جافة بين تلك الفراغات اللانهائية الوحشة القاسية، لذلك وجدوا أنفسهم في حاجة إلى قوة تحتضن وتحتوي كل الوجد، قوة مغيرة وتنصرف بعدل مطلق ورحمة معاناتهم وحكمة عظمى، الله المطلق، بيطن في المطلق ويشغ حكمته في اللانهائية.

ولكن لأنّ من صنعه، فهو أقرب إليه من حبل الورد...

* * *

انطلقت النار، نام زيد وأبو سيد، بالقرب منا جمالنا الثلاثة، باركة على الرمال المغمورة بضوء القمر، تجتر طويلها ويصدر منها صوت مضغ هادئ، وتتوقف من حين لآخر. حيوانات عظيمة كان بعضها يغير موضعه وحده صدره بالرمال، أو يهدر من أنفه كأنه ينتعد، حيوانات عظيمة بل تعبير معين يميزها بخلاف الخيل التي غالبًا ما يكون لها شخصية متميزة؛ نعم، تختلف الجمال عن كل الحيوانات التي يسكرها الإنسان، فهي مثل الصحراء الواسعة التي تنتمي إليها والتي تختلف بدورها عن أي أرض أخرى، دون تعبيرات محددة تتأرجح بين أضداد ومتناقضات، حالة مزاجية متقلبة، إلا أنها متوضعة إلى أبعد حد.
لم أتمكن من النوم، قمت أتجول واعتليت أحد التلال، كان القمر منخفضًا في الأفق الغربي وينبر التلال الصخرية الغريبة والتي ترتفع من السهل على هيئة أشباح. من هذا الوضع حتى مكة، تنخفض الأرض في انحدار متدرج حتى ساحل البحر الأحمر، تخليد من أي حياة، بل قرى، بل منازل، بل أشجار صلبة في تجردها الواضحة تحت ضوء القمر، من تلك الأرض الملوحة الخالية من الحياة، من بين هذه الوديان الرملية والتلال سماء، انبعثت أكبر عقيدية بنية مؤكدة للحياة في تاريخ الإنسانية.

كانت الليلة دافئة وساكنة، الضوء الشحيح والمسافات البعيدة أظهرت التلال وكنها تتمايل. تحت ضوء القمر الساطع تذهب ضوء أزرق شاحب، ومن وسطه انراق ضوء رمزي شفاف، ذكري شبيهة، تحمل كل ألوان الأرض، إلا أن النور الأزرق غير الأرضي نسخها جميعًا، ظهر ثابتًا دون تحول ولا تبدل، كأنه أفق ثابت، كأنه دعوة إلى ما لا يعرف كنهه.

غير بعيد من هنا، يقع سهل عرفات، مختمًا عن عيني في منتصف هذه البرية، يجتمع عليه الحجاج في يوم من العام كذكرى لهم بأخير تجمع، حين يكون على كل امرئٍ أن يجيب أمام الله بكل ما فعليه في حياته، كم مرة وقفت هناك، حاسر الرأس، في ملبس الإحرام، بين حشد المعمر في ملبسهم البيضاء حاسرى الرؤوس، من القاروات الثلاث، وجهاً متجهة إلى جبل الرحمة الصاعد من وسط السهل الواسع، تتفق منتظراً في الظهيرة وفيم بعد الظهر، في تأمل لذلك اليوم الذي لا مفر منه.

وأنا واقف على الحافة الصخرية للتل الذي كنت عليه، أعطم باتجاه سهل عرفات الذي لا أراه، وضوء القمر الفضي يقطع على السهل الذي أمامي والذي كان منبتً من حظة مضت، انبعت به فجاة الحياة، ظهر على أديمه كل البشر الذين مروا به من بداية الإسلام، وتصاعد من حضو أصوات ملايين الرجال والنساء الذين ساروا بين مكة وعمرات عبر ثلاثة عشر قرناً من الزمان، استيقظت أصواتهم وأصوات الحيوانات التي ركبوها، رأيتهم يرثون ويركبون حيواناتهم ويجمعون في حشد لا نهائي - كل
الحشود التي جبت في ثلاثة عشر قرناً أسمع أصوات أيامهم الماضية؛ جمعتهم
أجنحة الإيمان معًا في أرض ليس فيها إلا صخرور ومرال وتبدو ميتة بلا خفقة قلب
الآن تتوهج بفوة الحياة فوق قوس الزمن، وذيعت قوة الأجنحة الهائلة إلى مجالهم
ورده في مدارهم وتركلهم، وجذبت أيام ماضية الثانية وحولتها إلى حاضر، ومرة
أخرى أركب عابراً وادي عرفات...

أركب في ركض مربعد فوق السهل، وسط آلاف وألاف من البدو المحرمين في
أثواب بضاءة، عائدين من عرفات إلى مكة — كنت نقطة ضئيلة في بحر، بين موجة من
عدد لا ينهي من جمال راكض عليها راكبوها تهز الأرض هزًّا، وترجها رجاء
موجة لا يقف أمامها شيء، وبديرة القبائل تخفق على صواريها الحالية، تخفق مثل
الطبول، ويصبح الحرب القبلية المروية يمرق الفراق: «يا رواجا، يا رواجا تحيي
بها أبناء قبيلة عتيقة اسم جدهم العظيم الأول، ويدعو عليه هتاف آخر من جهة أخرى
في قوة: «يا عوف، يا عوف» من حاتجر أبناء حرب، ويرد بعدم في صوت متحد:
«شمار، يا شمار» من أقصى الجناح الشرقي للحشود المدفعية.

عُدّنا راكبين، مندفعين عبر الوادي، نظير فوق السهل، أحسست أنا نظير على
أجنحة، مغمورين في سعادة وصفاء خالص، سعادة لا تعرف نهاية ولا حدًا ...
والرياح تهمي بصيحات من المرج والفرح في أذني: «أبدًا، أبدًا، لن تكون غريبًا بعد
الآن».

أخ عن يميني وآخر عن يسارى، لا أعرفهم، إلا أنهم ليسوا غريباء عنى، في
اندفاعنا العنيف الصاخب كنا جسدًا واحدًا يمضى إلى هدف واحد، العالم رحب
امامنا، وفي قليوبنا تشتعل الشرارة التي اشتعلت في قلوب صاحبة الرسول.

يعلم إخوتي عن يميني وإخوتي عن يسارى أنهم قصروا عن الغير المتوقع منهم،
ويعلمون أن بمرور القرون تضاقت قلوبهم واختت عزمهم، إلا أن وعد التحقق باقٍ
في قلوبهم... في قلوبنا...
بدل أحد الراكبين صبيحة قبيلته بنداء إيماني: «نحن أخوة في الله»، ونسلم أمرنا
للله»، ورد عليه آخر: "الله أكبر، الله أكبر". توحي كل حجاج القبائل في صيحة واحدة. لم يعودوا يد نجد المستغرقين في فخرهم القبلي، يعرفون أن الأسرار الإلهيّة في انتظارهم. في انتظارنا... وسط آلاف من أقدام الجمال العادية، وخفق البيارق، تحوّلت صيامتهم إلى هدير منتصر:
"الله أكبر".

tدفقت الصيحة، كموجة هائلة فوق رووس حجاج الجزيرة على الجمال المنقعة
عنواً، واستنفشت السهل كله، وتجتاح تلتمد وتتمشى الأرض بجمعها: "الله أكبر".
تجاوز الرجال الحياة الصغيرة الخاصة بكل منهم، يدفعهم إيمانهم للأمام. في توحد، نحو أفق غير مرن، في تحقق لم يعد ضئيلاً ولا مخيفًا; حشر وجدت نفسها ويوظفها، شروق شمس التحقق. في هذا التحقق، يقف الإنسان أمام كل النعم التي وإليها الله
له؛ وقفته فرح، ومعرفته حريّة، وعلمه أرض بلا حدود...

رائحة أجسام الجمال، لهائها وشخيرها وهديرها، وقع أقدامها المليء؛ صيام
الرجال، خبط علاقات البنادق بجناب السروج، غبار وعرفو سعيدة مستبهرة؛
وسعادة مفاجئة تحل بين وتسرى في أعطافى.

استمرت ملتفة خلفًا وأنا على سرج نافتي، رأيت خلفي الكتلة المتالجة المتسوقة
من الاف الراكبين في ملابس بيضاء، وخلفهم، القنطرة التي عبرت عليها طريق حياتي
وجئت عبرها إلى هنا: كانت نهاية خلفي تمًا في تلك الحشود البيضاء، بينما
كانت بدايةها قد اختفت في أعمق أخفت معالها.
المؤلف في سطور

محمد أسد (ليوبولد قايس)

ولد لأبى وآمرين يهوديين بإحدى مقاطعات النمسا عام 1900م التي ضمت لألمانيا بعد ذلك، اسمه الأصلي ليوبولد قايس، وتسمى بعد إسلامه باسم محمد أسد عام 1926م. عمل صحفيًا ومراسلاً للكثير من صحف وسط أوروبا وألمانيا وهولندا وسويسرا عن منطقة الشرق الأوسط وإيران وأفغانستان والهند. عاصر وشارك في كثير من الأحداث التي شكلت مستقبل المنطقة الممتدة من ليبيا حتى الهند قبل وبعد إعلان دولة باكستان الإسلامية المستقلة. من أهم أعماله:

- مقالات صحافية من فلسطين في عشرينيات القرن العشرين مؤيدة للحق العربي.
- وذلك قبل إسلامه.

- الإسلام على مفترق الطرق.
- مجلة عرفات الإسلامية باكستان.
- الطريق إلى مكة، وكتب بالإنجليزية ونشر بإمريكا ثم إنجلترا وترجم بعدها إلى الألمانية والسويدية والهولندية والفرنسية والأوردية.
الترجمة في سطور

رفعت السيد على

تخرج في كلية الطب جامعة القاهرة عام 1975م
حصل على دبلوم الدراسات العليا في الأنثروبولوجيا من جامعة القاهرة عام 1994.
كاتب مقالات سياسية و أدبية و علمية بعديد من الصحف والمجلات.

الأعمال المترجمة المنشورة:

1 - عصور في فوضى - من الخروج إلى إختناص

إيما نويل فليديكوفسكي
دار سينا 1995
طبعة أولى
دار حور 2000
طبعة ثانية

2 - عوالم في تصدام

إيما نويل فليديكوفسكي
دار حور 1999
طبعة أولى

3 - التاريخ الإجرامي للجنس البشري

كولن ويلسون
دار حور ديسمبر 2001
طبعة أولى

4 - الحياة الجنسية في مصر القديمة

ليز مانيش
دار حور 2002
طبعة أولى

5 - قزم بين العمالقة

ماث رولوف و تريسي سومز
دار شرقيات 2002
طبعة أولى

6 - رجود العالم

كارل ساجان
دار حور والعربية 2003
طبعة أولى

7 - والد ديزني

كاترين وريتشارد جرين
مختارات ثقافية 2002
طبعة أولى

طبعة ثانية

446
8 - تهويد التاريخ - خمسة مجلدات
إيمانويل فلايكوفسكي - بالمشاركة مع رضا الطويل - أحمد عمر شاهين - أحمد عباس - فاروق فريد العربية وحور
طبعة أولى 2004

9 - توت عنخ آمون - مؤامرة الخروج
أندرو كولينز وكريس أوجيلفي هيرالد دار العلوم
طبعة أولى 2005

10 - مراسلات عظماء ملوك الشرق الأدنى
تريفور برايس دار العلوم
طبعة أولى
المشروع القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى، ينطلق من الإجابات التي حققتها مشاريع الترجمة التي سبقت في مصر والعالم العربي، ويسمى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمدًا المبادئ التالية:

1- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية.
2- التوازن بين المعارف الإنسانية في المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية.
3- الانحياز إلى كل ما يؤمن لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب.
4- ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى إطار المرجع في الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التي تضع القارئ في القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين.
5- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق رش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة.
6- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة.
جمال عبد الرحيم
ألبرت خفيف
منيرة كرناة
محمد عبد إبراهيم
عاصف أحمد وإبراهيم قلعي ومحمود ماجد
احمد محمود
المدى الأخر
مارتين تايرس
احمد محمود
محمد السيد علي
مباحث عبد الفاتح ماجد
ماهر جيجلائي
عبد الوهاب طارب
محمد ياخور والمليار ريسف الأطلسي
محمد أبو العطا
لطفي قطوم تعادل تمردش
مرسي عبد الدين
محسن مصلي
علي يوسف علي
محفور علي مكي
محفور السيد ماهر البطرطي
محمد أبو الطالب
السيد السيد سليم
صبري محمد عبد الفتى
باشر: محمد الجودري
محمد خير الدقغي
مباحث عبد الفاتح ماجد
رسيس عوض
رسيس عوض
عبد الليصف عبد الحليم
الموقد الأخر
أشرف الصباغ
أحمد فؤاد مصطفى وموهيدا محمد فهمي
حسين محمود
فؤاذ مخي
حسن ناظم وعلى حاكيم
حسن بيريمي
بريجيت شيلر
آن كروين
بيتر والكيد
أن فكتور
بيتر جران
شيماء بارير
أوكتياف بات
الأديم هكسي
ريحان دينا وجوين باين
بابا نوروا
ريون ووياه
فرانسوا دوما
ه . ت . نوريس
الإسلام في البلقان
جمال الدين بن الشيخ
داري بابونيا خ. م. بينتاليستي
ب. نيلانغ. ب. جيسيتري بيرد بيل
أ. ف . أنجلين
ج . مايكل والثون
هولاند كايم
ويلياند
ه. كريكور فيروسي
لوسكا
فريدريك غريسيا لوكي
كاسوس مونثيت
جوهانز إينتن
شارلوت سيمور - سمييت
رومان بارت
تيني ريلك
إرنو وود
برتراند راسل
إنتونيو جالا
فوينات بيرنوا
فالنتين رايسن
تأريخ النقد الأدبي الحديث (ج1)
برتراند راسل (سيرة حياة)
في مأزق الكسب ومقالات أخرى
خمسة مسرحيات أدبية
مختارات شعرية
ناشط المجري وتسع أخري
الإنسان في سرقات القرون الوسطى
عبيد الله發展 إبراهيم
أخرىن شناج وروبرت
داري فو
ت . س . إلبيت
چين بك . توميكنز
ل . ع. سيمينونا
صلح الدين والملاك في مصر
أحمد جمل
سمية رمضان
نواة أحمد سالم
منى إبراهيم وعائشة كمال
ليز النقال

إشراف: روفعباس
مجموعة من الترجمين
محمد الجندى وإيزابيل كمال

منيرة كرمان

أحمد محمد إبراهيم
أحمد فؤاد بايع
سمحة الدموي
عبد الواهب غوبر
بشر الساعي

أميرة سعيد نوره
محمد أبو العصا وأخرين
شوقي جلال
أليس بطر
عبد الواهب غوبر
ملعت الشاب
أحمد محمد
ماهر شفيق فريد
سرور توفيق

كايلا سليم
وجيه سماع عبد السبع
مصطفى ماهر
أمل الجبر
نفيذة علية
حسن بومي
علي السري
سلامة محمد سليمان
أحمد حسان
علي عبد لله الباني
عبدالفتاح مكارى
علي إبراهيم مونفي
اسمه إبراهيم
منيرة كروان

راية العصر
سيرام حماد كنجي يسكن المستنقع بن شريف
فرجينيا ووف
سوميتا طسون
لليلي أحمد
النهضة الإنسانية

الخادس، والسفراء في الثقافة الإسلامية
ليلى أبو لد
الليل في كتابة المرأة العربية
قائمة موسى
جوسيف فوبي

الإمبراطورية الممارسة وفلانتينولا
مجلة الرسالة: أعماء الرسالة الألمانية
جوسيف غوبير
قلعة الهبة: قليل
فولانج إيرس
صفاء متحا
سيراز بستنية

الرواية الإسبانية العاصمة
ماريا دياز سبريس جايرتا
الشريحة الثانية
مجلة الموفين
مايكل فتستين
طريق على
باري ج. كيب
ت. ت. بينوت
النهاية
فاحد الباشا

نظرة شاملة في الحالة العربية على مصر
جوسيف ماري موالي
عالم التعزيز بين الحلم والعيش
أندريه جريلنكن
بيراسفال (مسرحية)
ماجر
حيث تتقلى الأثر
مجموعة من المؤلفين
أ. م. فرستر
نوفمبر
قضية تنوير في البعث الاجتماعي
د. كلاودي جولتوني
كارولس فونتيس
الوجه المجرد (رواية)
هوجين برست
مسنويتان
القصة القصيرة: النشرة وتحت القلم
إيسيديرون إيمبرت
النثرية الشعرية عند كارل ولز
روبرت ج. ليتمن
التجربة الإغريقية

112
114
115
116
117
118
119
120
121
122
123
124
125
126
127
128
129
130
131
132
133
134
135
136
137
138
139
140
141
142
143
144
145
146
147
148
149
150
الاسم الإسلافي في القرن السابع عشر - 227
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن - 228
نزاع النقل للوحة - 229
عن الزمان والزمان والزمان - 230
العقيق أو الجيل الجديد (مسرحية) - 231
ماذا بعد الاله - 232
فكرة الحضارة في التاريخ العربي - 233
الإسلام في السياق - 234
 Skipping to page 235
ديوان شمس تيريرى (ج1) - 235
الولاية - 236
 넘어 רופין - 237
 smarty - 238
السياحة والترفيه - 239
 العربي في الأدب الإسرائيلي - 240
 الإسلامي والرنين واليمن - 241
 تاريخ تيار مدينتي الإسلامية - 242
جمال إبراهيم السوقي - 243
ميليشيا دوماكي - 244
الطيع (رواية) - 245
باب سرا وابتذا - 246
منشورات قصصية - 247
الثقافة الجماهيرية والحداثة في مصر والآخرين - 248
حقل عن الخضرة (مسرحية) - 249
دريج شاتاميرك - 250
عند غرب الصراع - 251
โมسوعة علم الاجتماع (ج1) - 252
رائدات الحركة النسوية المصرية - 253
تاريخ مصر العظمى - 254
ديف رونسون وجودي جروفيز - 255
أقسم الله القفص - 256
ديف رونسون وجودي جروفيز - 257
أقسم الله القفص - 258
حريص الخير - 259
Documentation of the writings of Dr. Anouar El-Sadik - 260
رسالة إنسان سبأ - 261
سيرة إبراهيم غارف - 262
عوم لازار - 263
 الأوامر - 264
العديد عن الإمام عبد اللطيف عبد اللطيف - 265
العديد عن الإمام عبد اللطيف عبد اللطيف - 266
المجدان - 267
جابريل جارسيا ماركيث - 268
الدانة - 269
مريما - 270
ادارة الدراسات الجامعية - 271
أحمد أبو صالح - 272
 בתחום المكتبة - 273
أحمد أبو صالح - 274
العلوم - 275
أحمد أبو صالح - 276
العلم - 277
أحمد أبو صالح - 278
العلم - 279
أحمد أبو صالح - 279
روفات متحدة
365
366
367
368
369
370
371
372
373
374
375
376
377
378
379
380
381
382
383
384
385
386
387
388
389
390
391
392
393
394
395
396
397
398
399
400
401
402
403
404
405
406
407
408
409
410
411
412
413
414
415
416
417
418
419
420
421
422
423
424
425
426
427
428
429
430
431
432
433
434
435
436
437
438
439
440
441
442
443
444
445
446
447
448
449
450
451
452
453
454
455
456
457
458
459
460
461
462
463
464
465
466
467
468
469
470
471
472
473
474
475
476
477
478
479
480
481
482
483
484
485
486
487
488
489
490
491
492
493
494
495
496
497
498
499
500
501
502
503
504
505
506
507
508
509
510
511
512
513
514
515
516
517
518
519
520
521
522
523
524
525
526
527
528
529
530
531
532
533
534
535
536
537
538
539
540
541
542
543
544
545
546
547
548
549
550
551
552
553
554
555
556
557
558
559
560
561
562
563
564
565
566
567
568
569
570
571
572
573
574
575
576
577
578
579
580
581
582
583
584
585
586
587
588
589
590
591
592
593
594
595
596
597
598
599
600
601
602
603
604
605
606
607
608
609
610
611
612
613
614
615
616
617
618
619
620
621
622
623
624
625
626
627
628
629
630
631
632
633
634
635
636
637
638
639
640
641
642
643
644
645
646
647
648
649
650
651
652
653
654
655
656
657
658
659
660
661
662
663
664
665
666
667
668
669
670
671
672
673
674
675
676
677
678
679
680
681
682
683
684
685
686
687
688
689
690
691
692
693
694
695
696
697
698
699
700
701
702
703
704
705
706
707
708
709
710
711
712
713
714
715
716
717
718
719
720
721
722
723
724
725
726
727
728
729
730
731
732
733
734
735
736
737
738
739
740
741
742
743
744
745
746
747
748
749
750
751
752
753
754
755
756
757
758
759
760
761
762
763
764
765
766
767
768
769
770
771
772
773
774
775
776
777
778
779
780
781
782
783
784
785
786
787
788
789
790
791
792
793
794
795
796
797
798
799
800
801
802
803
804
805
806
807
808
809
810
811
812
813
814
815
816
817
818
819
820
821
822
823
824
825
826
827
828
829
830
831
832
833
834
835
836
837
838
839
840
841
842
843
844
845
846
847
848
849
850
851
852
853
854
855
856
857
858
859
860
861
862
863
864
865
866
867
868
869
870
871
872
873
874
875
876
877
878
879
880
881
882
883
884
885
886
887
888
889
890
891
892
893
894
895
896
897
898
899
900
901
902
903
904
905
906
907
908
909
910
911
912
913
914
915
916
917
918
919
920
921
922
923
924
925
926
927
928
929
930
931
932
933
934
935
936
937
938
939
940
941
942
943
944
945
946
947
948
949
950
951
952
953
954
955
956
957
958
959
960
961
962
963
964
965
966
967
968
969
970
971
972
973
974
975
976
977
978
979
980
981
982
983
984
985
986
987
988
989
990
991
992
993
994
995
996
997
998
999
1000
إمام عبد الفتاح إمام

إمام عبد الفتاح إمام
صلح عبد الصبور
تبيل سد
محمد مكي
محمد عبد الله الجعدي
مراد سابع
كماليا صحيح
نبي مللي
خليفة وليام
خيبر يان
خانجي ميليك
عملية تحرير
طيب فواز
كيفان
غادة أبو غزالة
سابق
أشرف الصباح
جعفر هبوب وروبرت فان لين
ريوس
كرزالي مالبار
غان فرنسيس لينتير
ديفيد بابتون ويهارد سليما
ستيف جونز بورين فان لين
أنجيو جيليلي ويكيكر زارين
ماري بيرد ومايكل ماكينيس
روج كولنوجود
ويلي بيرس
خانجي ميليك
ميليش بريدنوت والسامي ليب
ألى ف. ستون
كسي د. أيوفات- س. زنيكن
مجموعة من المؤلفين
حاتم سيفان وكرستوفر نوريس
دورا ديرا
لغة السراج لحضرة اللاتمج
تأريخ إسبانيا الإسلامية (من 401)
دراسة مشروع حزمة
ساهم محمد الزمر
محمد عبد الله الجعدي
جابري سيفان وكرستوفر نوريس
مؤسف مجهول
ليفي بير فساس
عبر تحليل حزمة
 вашего تحليل في تاريخ القرن الحادي عشر
ثرية بُناني قوم
نافوش بنس
أشرف أسدي
فيليب بوسان
العمر والصلح
وريج هابمار
نعمتات شريفة محمد (14)
 يوسف زليخا (شعر)
رسائل عبد الراحم (شعر)
نعيم الدين عبد الرحمن الجامعي
نعم الدين عبد الرحمن الجامعي
تنيز
كل شيء عن التحليل الحبكة
كينتفر جراي
أشرف أسدي
هل يهبة السردين وقصص أخرى
نشأة كلاك
بتر نابور
عمر الشكر: دراسات عن الرواية
نور الدين عبد الرحمن الجامعي
تنيز
سروان
جمال الأديب
أشرف أسدي
العمر والصلح
وريج هابمار
تنيز
كل شيء عن التحليل الحبكة
كينتفر جراي
أشرف أسدي
هل يهبة السردين وقصص أخرى
عمر الشكر: دراسات عن الرواية
نور الدين عبد الرحمن الجامعي
تنيز
جمال عبد الرحمن
شيرين عبد السلام
راتانا إبراهيم يوسف
أحمد محمد نادي
سمير عبد الحميد إبراهيم
إيزابيل كمال
عيسى عبد الرزاق فرج
ريهام حسن إبراهيم
بهاء الصيني
سعدي الشيرازي
محمد علاء الدين منصور
سمير عبد الحميد إبراهيم
عثمان مصطفى عثمان
ماري الروبي
عبداللهيف عبد الحليم
_ZERO_FILL_(6)
ضريح محمد الخضري
فاضل أحمد محمد
سلمان عبد الأمير محمد
محمد على
إمام عبد الفتاح إمام
أحمد عبد الفتاح إمام
إنام عبد الفتاح إمام
ياهو الجوني
محمود عبد المنعم
محمود منصور
عمر حسن بكر
قلية خميس
حمادة إبراهيم
جمال عبد الرحمن
طلعت شايمي
عثمان الشهابي
نادر محمد إبراهيم
أحمد مصطفى بدو
سنيل ياد
جوتن جرايس
رو. ل. براسك
أساسيات اللغة
تاريخ طبرستان
نضرة الحجاز (شعر)
القصص التي يحكىها الأطفال
هيئة الطوارئ (رواية)
مواعظ سعيد الشيرازي (شعر)
قلم وقصص أخرى
الأشراف والدين الكبرى
الحالة الليبية (رواية)
_mid_point_(17)
مماضيات ورسائل لندسية
في قلب الشرق
القوى الإرث الأساسية في الكون
بول يعق
الإمام سيراف (رواية)
ال사항
أحمد عبد القادر
أحمد السهاف
لورانس جين: كيت شين
شيل توري و 있도록 ريد
ديفيد ميرفيتش وأن كاركس
ويلتر نيل إندل
أحمد: كامي
أحمد عبد الفردان وآخرون
زياى سارة والآخرون
ج. با. ماه، أيه وآي، ويركز زير
توبر شتيمور وبورغند كور
ديفيد إيرام
ربطة نسيج
أيزي بضاء
إبراهيم
الاستثنائيات في القرن 19
الآليات المبكرة بالكلام كتب
مجموعة من المؤلفين
حفل فشاركنج
برتراند راسل
كارل بيور
جيفنيه أكرمان
إشارات: صلاح فضل
محمد عزازي
أمل الصبان
أحمد كمال عبد الله
محمد مصطفى بدو
779
780
781
782
783
784
785
786
787
788
789
790
791
792
793
794
795
796
797
798
799
800
801
802
803
804
805
806
807
808
809
810
811
812
813
814
815
816
محمود سيد أحمد هويدي مذر محمد إمام عبد القادر إمام جمال عبد الرحمن جمال عبد النبا إمام عبد الفتاح إمام إمام عبد الفتاح إمام عبد الملك السادات محمودي

فريدريك كويلستون
مرمر جلفر
سوزان وارول أوكين
مرثييس غارسيا أريتال
توم تنتربرج
نور ميهر للاقتصاد السوداني
ستوارت هود رايتا جاستن
داريان إيرد وجوبر جريفيز
عبد الرحمن الصادق محمودي ويليام بيرن مايكل بارنتي
لويس جينيرج
شيلين فانليك
ستيفن ديل
جوزيف رويوس
روى الفلسفة الحديثة
نصور حضير قديمة
اهتمام م. بيريرسكي وأخرين
جارى م. برودستي وجرين
ثلاثة من الرحلات
ميجيل دي ثريانتس سايبرفا
مؤلفات ثريانتس سايبرفا
بون كرويس
أرنولد دانتسون
فرديناند نيرتين
مملكة إفريقيا (ح) 3
ثراث المعرفة التي
 жизни في النظم والفلسفات
 grundtvig وليي شنت ر. ك. شونج
 السياقات والنظم المقدسة
 أور شين
 كوك موريا
 روز محددة
 سيرة ماجد
 النسوية وما بعد النسوية
 هانس روبيتس باوست
 النقد الإيديولوجي
 التاريخ الحضاري
 المرحلة الهندي إلى الجزيرة العربية
 فين الذين أرادوا إلقاء
 الحب الذي كان وقاصداً أخرى
 إيمانويل فسرل
 محمد قادري
 أسامة فياضة
 نصوص قصصية من روائع الأدب الأثري
 نصية
 محمد على يوسيف المحترف
 جي. فارجيت

445 - تاريخ الفلسفة الحديثة (مح)
456 - لتنصب (رواية)
457 - الفلسفة في الفكر السياسي الغربي
458 - الفلسفة الإسلامية
459 - نمو مفهوم الاقتراضات الزاردة في الفلسفة
460 - القائمة النائية
461 - أوقات
462 - أوقات
463 - الوثائق المرجعية
464 - الديمقراطية
465 - صمود
466 - حكايات حب وفلكلور فرسونية
467 - التفكير السياسي والنظرية السياسية
468 - روح الفلسفة الحديثة
469 - نصوري حضير قديمة
470 - الأراضي والحدود في النويداء
471 - وصلة لاستكشاف أفرقيا (ح) 3
472 - دون كيشون (القسم الأول)
473 - دون كيشون (القسم الثاني)
474 - الأدب وال نحو
475 - مصري: أم كلثوم
476 - آرثر المبناية بعد: بيرن ليين
477 - طرق العودة من ما قبل التاريخ حتى القرن السادس عشر
478 - السياقات والنظم المقدسة
479 - المحقق (سحرية)
480 - تسليح ج (مترجم)
481 - النسيجن
482 - مساعدة الإصلاح والردود الفعلية
483 - سيرة جامع
484 - النحو
485 - التنهج
486 - التاريخ الحضاري
487 - المرحلة الهندي إلى الجزيرة العربية
488 - فين الذين أرادوا إلقاء
489 - الحب الذي كان وقاصداً أخرى
490 - إيمانويل فسرل
491 - محمد قادري
492 - أسامة فياضة
493 - نصوص قصصية من روائع الأدب الأثري
494 - نصية
495 - محمد على يوسيف المحترف
496 - جي. فارجيت

٠٠٠
محمد صالح الشالح
شرف الصوفي
حسين عبد ربه المصري
مجمعية من الترجمين
مصطفى رياض
أحمد علي بديوي
ليصل بني خضراء
طلعت الشابي
سهر فراج
هالة كمال
محمد نور الدين عبدالمعم
ينا كرما في مكتبة المعرفة
إسحاق السداق
إسحاق السداق
عبدالهادي فهمي الجمال
شلقي هييم
عبد الله أحمد إبراهيم
قاسم عبد اسم
عبد الرحمن عبد الجمال
جمال عبد الناصر
مصطفى إبراهيم فهمي
مصطفى بيموي عبد السلام
فؤاد مالكي ديجال
صبري محمد حسن
سيّد عبد المجيد إبراهيم
عاشّد أحمد محمد
أحمد الأنصاري
أمل الصبان
عبد الوهاب بن
علي إبراهيم نونى
علي إبراهيم نونى
محمد صطيفي بديوي
نادية رفعت
محبي الدين مريز
جمال الجريزي
جمال الجريزي
جازم محفوظ
عمر الفاروق عمر
خطوات إلى طالب الصروتات
- 493
كتاب الهوى: الخروج في النهار
- 494
الجري
- 495
الجيم
- 496
المحتشم والساحة في أفريقيا (جزأ)
- 497
الجري والساحة في الشرق الأوسط
- 498
الجري والساحة في الشرق الأوسط
- 499
تعلّمات الأمة والمجتمع والنور
- 500
في مقدمة: دراسة في السيرة النبوية العربية
- 501
أثر جودة هامر
- 502
أصول بديلة
- 503
مختارات من الشعر الفارسي الحديث
- 504
كتابات أساسية (جزء)
- 505
كتابات أساسية (جزء)
- 506
عندما كان قبيساً (رواية)
- 507
سيدة النجمة (مسرحية)
- 508
الإله反腐 في معركة سلام
- 509
الأتيت
- 510
كيكي (رواية)
- 511
كتابات السكين
- 512
كابيل السكون
- 513
البهار
- 514
دخل إلى النظرية الأدبية
- 515
عندما ألقائنا في عالم الإسلام
- 516
خريج
- 517
لمجتمع
- 518
استكشف الأرض والكون
- 519
محاضرات في المقالة الحديثة
- 520
محمد يوسف
- 521
قاطع تراجع معركة الحديبة
- 522
أميرك كاسترو
- 523
الفن الحليفي الإسلامي والمدجن
- 524
الليل (مسرحية)
- 525
دوم صيد في بيرغ وقصص أخرى
- 526
أعمال: السياسة الليبية
- 527
أعمال: كافكا
- 528
أعمال: تريومفي والماركسية
- 529
بدائع العلماء إقبال في شعراء الأديب
- 530
محمد إقبال
- 531
دلالات على ظهور إبراهيم
تاثير ديب
رريف الشرقيين
السيد عبد الظاهر
كارل السيد
جمال الخيزري
علي الدين السباعي
أحمد محمد
تأد العمارى محمد
محمد قدير عمارة
محمد إبراهيم وقاسم عبد الرحمن
حميد الدين مرز

إبراهيم اعتلاء
إشراف: محمد فتحي عبد اللهادي
سليم عبد الأمير حمدو
سليم عبد الأمير حمدو
سليم عبد الأمير حمدو
سليم عبد الأمير حمدو
سليم عبد الأمير حمدو
سليم عبد الأمير حمدو
عبدالناصر حمدو
ماهر أوجيجاتي
عبدالناصر رزق إبراهيم
محمود مهدي عباد الله
علي عبد الله على صالح رمضان السيد
محمود عبد الحافظ وعلى كرخان
يبر الخيزري
آمنة فوزي
محمود مرزجي
إبراهيم عبد الرحمن محمد
جمال عبد الرحمن
بومي على تنديل
محمود علوي
محمد آمن
أيمن بك مسر السيشكلي
إيمن عبد العزيز
وقاء إبراهيم ورمضان باسماوي
توافق على مصوترك
مصطفى إبراهيم نهدي
محمود إبراهيم السعدني

هوسي باشا
سير ويريت حاي
إميليا دي ثريتانا
بيروت ألوى
ريشارد إيجينانس وأسكند زارتي
حسن بيرية
نجير وود
أميري كاسترو
كارلو كولو
أديم مزينوتشي
جورج ماهر وجودي جروتس
جورج فيليب سيلترجر
ماريو بوزي
موشك وشمير
أحمد محمد
موشك وشمير
لاعبون أبادى
موشك وشمير
ليزابيث مالكومس وروي أرمز
مجموعة من المؤلفين
أنبيس كارول
فيالس ديبا
نخبة
هنري بيرت
الثورة المدنية (1903)
إنضجاح الثلاث
تمكين المرأة
اتصالات من الإليزابيثية الشامية التقليدية
السهر والملع
اللغة المغنية (1915)
الأمم المتحدة
الرسومات في أستراليا (17)
الصحة العالمية
سيمفونية الطيور
برنارد لويس
ريتشارد هاريس

573 - أقدم أف: فريد
574 - مصري القديس في عيون الإنجليزين
575 - الاقتصاد السياسي للنيل
576 - فكر ثابت
577 - مخاطرات بيتوكي
578 - الجماليات عند كبيس وفنت
579 - آقدم الله تشورسكي
580 - 다만 الانجليزية (15)
581 - الحفص يومون (15)
582 - مصري على نفقات (15)
583 - الجيزة (15)
584 - سفر (15)
585 - الأصر احتاجاء (15)
586 - السينما العربية والأفريقية
587 - تاريخ تطور الفن الصيني
588 - أنموذج الأثاث
589 - تكتب المجلة
590 - أساليب في الفنون الثقافية
591 - الشاعر والملع
592 - الثورة المدنية (1915)
593 - قわかり الرسومات في أستراليا (17)
594 - أقدم أف: فريد
595 - الهجم والسناج في Africa (17)
596 - الصحة العالمية
597 - مصري غني
598 - مصر ينجو
599 - كتاب نشر
600 - الإسلام في التاريخ
601 - التوسوية والكشف
602 - ليزابيث مالكومس وروي أرمز
603 - النزاعات الثنائية
604 - الكلاسيفية (17)
605 - مخاطرات بيتوكي
606 - قصة البردي اليوناني في مصر
الشاعر محمد حسن

الشاعر محمد حسن

علي إبراهيم منيري

فائز صالح

محمد محمد يونس

محمد فريد حجاب

منى قطان

محمد رعت عواد

أحمد محمد

أحمد محمد

جلال البتا

عابيد الهاجري

بشير السعالي

الشاعر السعالي

أمير نينو ويوسف الرحمن حجازي

يوسف عبد الناج

غادة العواني

محمد برادة

獴قى على منصور

عبد الوهاب علوي

عمر محمد الليسي

عزة المحيسي

الشاعر محمد حسن

بإفراح: حسن طلب

رازي محمد

حمادة إبراهيم

مصطفى البهشام

سيمون كريم

سامي محمد جلال

بدل المفاجع

فؤاد عبد المطلب

أحمد سالم

حسين حنشي

محمد قدير عمار

محمود عبد المنعم

سيمون عبد الحليم إبراهيم

فتح الله الشهيج

هاري ستين فيليبي

هاري ستين فيليبي

أجنر فوج

رفائل لويد جيرومان

تير إيجلتن

فضل الله ابن حمدي الحسيني

كون ماكل هول

فوزية أحمد

ألفيس سيبرن

روبرت يانج

هوراس بيك

تشارلز فليبس

ريلان استنوبلي

ترامس ماستاناك

عمر الخديوي

أي شينغ

سعاد قانعي

نخبة

غادة المروان

الشاعر جما الإبراهيمي

جمال عبد الفتاح

قراصاته شعرية (2)

نخبة

تشارلز دارين

نيلسون جيوبان

أحمد بلو

قرين برل من البعثة الأمريكية

سيدي الثاناه

منشورات من الشعر الأفريقي

نخبة

دوارس براون

السلاسل والدورات في مملكة فانديسيا

الحب وتوفينه (شعر)

مكية الإسكدرية

الشين والتكيف في مصر

جودة عبد الخالق

جاب شهاب الدين

ف. روبرت هنتر

روبرت وين وارين

تشارلز ميرتون

الأميرة آنا كريستينا

برتريان رسل

چراغان ميل وروبرت فان لون

عبد الناجي الدربابادي

هوارد د. دارتن
عبد الوهاب علوى
سهر نبيه
💛 نتائج
 wysokości
عذار حالًا
الخ
هيل فليب
عذار حالًا
الخ
الخمسي
كليف محسن ومحمد ماهر طه
الموضوعات
خالد عباس
صبيحة إبراهيم
عبد الطيف عبد الحليم
هاشم أحمد محمد
صبري إبراهيم
صبري إبراهيم
 אחmad شافعي
عثمان قطر
هاشم أحمد محمد
جلال عبد الناصر ومعبد الياس بلال جاد الرب
على ليلة
إلياس إبراهيم
عايدة البطرسي
هنان يسري
ماهر البطريقي
علي عبد الله صالح
إميل أسامة
جمال القناعي
محمد علاء الدين منصور
في إيران
عمر علي
بفأ وعصام فريد
곽군서
جوستاف أوبروكر
جوستاف أوبروكر
كيرجنتون
نجيم
محمد إقبال
ديوان API
محمود إبراهيم السيد
بفأ وعصام فريد
كيرجنتون
كيرجنتون
كيرجنتون
كيرجنتون
كيرجنتون
كيرجنتون
كيرجنتون
كيرجنت
كيرجنت
كيرجنت
كيرجنت
كيرجنت
كيرجنت
كيرجنت
صبیر محمد حسن
نقح الله الشيخ وأحمد السماحي
ابن عبد الفتاح
رامسو عوض
صلبجد الامام
عذروه
راشد بيجانيسي وأوسكار زارينت
جمال الجزيري
محمد الحبري
ريم بن عبد الواحد ميلاني
فيغتينورن وودجي جريفي
فريدونس وودجي جريفي
أحمد عبد القاجار وإمام
إمام عبد تعالج إمام
أحمد عبد تعالج إمام
أحمد عبد تعالج إمام
أحمد عبد تعالج إمام
بسمة عبد الرحمن
منى البرنس
عبد العزيز الحيمي
أمين الشباري
محمد علاء الدين منصور وأخرون
عبد الحليم منكر
عمرو
وفي عبد القادر
رفع عام
عالد نجيب بشري
محمد محمد الخطيب
هناء عبد القاجار
سليمان البستاني
سليمان البستاني
عائشة
أحمد القيحي الخليل
نسخة من المترجم
نسخة من المترجم
نسخة من المترجم
جميلة كمال
علي شعبان وأحمد الخطيب

- 189
- 188
- 187
- 186
- 185
- 184
- 183
- 182
- 181
- 180
- 179
- 178
- 177
- 176
- 175
- 174
- 173
- 172
- 171
- 170
- 169
- 168
- 167
- 166
- 165
- 164
- 163
- 162
- 161
- 160
- 159
- 158
- 157
- 156
- 155
- 154
- 153
- 152
- 151
- 150
- 149
- 148
- 147
- 146
- 145
- 144
- 143
- 142
- 141
- 140
- 139
- 138
- 137
- 136
- 135
- 134
- 133
- 132
- 131
- 130
- 129
- 128
- 127
- 126
- 125
- 124
- 123
- 122
- 121
- 120
- 119
- 118
- 117
- 116
- 115
- 114
- 113
- 112
- 111
- 110
- 109
- 108
- 107
- 106
- 105
- 104
- 103
- 102
- 101
- 100
- 99
- 98
- 97
- 96
- 95
- 94
- 93
- 92
- 91
- 90
- 89
- 88
- 87
- 86
- 85
- 84
- 83
- 82
- 81
- 80
- 79
- 78
- 77
- 76
- 75
- 74
- 73
- 72
- 71
- 70
- 69
- 68
- 67
- 66
- 65
- 64
- 63
- 62
- 61
- 60
- 59
- 58
- 57
- 56
- 55
- 54
- 53
- 52
- 51
- 50
- 49
- 48
- 47
- 46
- 45
- 44
- 43
- 42
- 41
- 40
- 39
- 38
- 37
- 36
- 35
- 34
- 33
- 32
- 31
- 30
- 29
- 28
- 27
- 26
- 25
- 24
- 23
- 22
- 21
- 20
- 19
- 18
- 17
- 16
- 15
- 14
- 13
- 12
- 11
- 10
- 9
- 8
- 7
- 6
- 5
- 4
- 3
- 2
- 1
 рукويه شنقاوي
 توفيق على منصور
 محمد عراد
 محمد عراد
 مرفق ياقترب
 أحمد هيكل
 رزق بنسي
 شوق جلال
 سمير عبد الحميد
 محمد أبو زيد
 حسن النعيمي
 إيمان عبد العزيز
 سمير كريم
 باستي جمال الدين
 بإشراف: أحمد عثمان
 علاء السباعي
 نمر غوري:
 محمد يوسف
 عبد السلام حيدر
 على إبراهيم مونفي
 خالد محمد عباس
 أمال الروبي
 عاطف عبد الحميد

- 721: فلسفة المكلفين في الإسلام (مجلة)
- 722: الصوفية وقصص أخرى
- 723: تحنيات ما بعد الصوفيون
- 724: السيرة الفردية
- 725: الإضياع النفسي
- 726: الوليسكوين في المغرب
- 727: ح بد البحر (رواية)
- 728: المولة: تعني العمالة والتمييز
- 729: الثورة الإسلامية في إيران
- 730: أفضل شمل السهول الأفريقية
- 731: النزاعات والشيوعية في النزاعات والشيوعية
- 732: إنجهورونت ممنون
- 733: مائدة عمليات (مسرحية)
- 734: يوسف في فلسطين
- 735: سن السيرة في العبارة
- 736: الكوفتات الشعبية (مجلة)
- 737: شغور ل. أبوبكر
- 738: جدار والجرجاء
- 739: جدير بجرجاء
- 740: خاتم السيدة
- 741: الإسلام وآليات الأمم
- 742: آثار حارة
- 743: الكفاح: منظور دوائي
- 744: ديانة الإسلام بالمغرب (شعر)
- 745: إقبال ابن النصفي
- 746: تاريخ التحليل الاقتصادي (مجلة)
- 747: الاستنارة في فلسفة السينما
- 748: تضوير الفيلم
- 749: إكلينيكيان للعالم
- 750: المجلة
- 751: الإسرا والمعراج في تراش الشهر الفاس
- 752: ألمانيا بين عقدة الطبيعة والخوف
- 753: الثورية والثورية
- 754: الشرق والغرب
- 755: تاريخ النشر الإساسي خلال القرن العشرين
- 756: ناز غرام التساحرة
- 757: تجارة الكحلاة
- 758: الإحساس بالعبارة
جلال المفتي
السيد الأسود
فاطمة نعمة
عبد المالك صالح
نهجى عمر
حازم محفوظ
حازم محفوظ
غاغى بن وخليل أحمد خليل
غاغى بن
محمود فهدي حاجزى
رضا النحاس وخيام زاهر
صيربي التهابى
صيربي القفاص
محمد محمد بيش
عزم عمر
حازم محفوظ
سهر عبد الحميد إبراهيم وسارة تاكاشي
سهر عبد الحميد إبراهيم
نبيل بدران
جمال عبد القادر
طمع السريري
جمعة سيد يوسف
سهر حنا صادق
سحر توفيق
إياس صادق
خالد أبو الزيت البتاجي
منى الدروبي
جهان السيد
ماهر حبيبي
رواف وصفي
شبيان مخز
علي عبد الروف البمبي
حزمة المزينى
مولى عبد محمد
القرن والأدب
الدين والشعرى للقرون
هيرميتا وولف
ماريا سولياك
أريكي بيا
 غالب الدلمى
طيب وهرد الدلمى
خواجه مير دير الدلمى
تيبرى منتش
سريب سمير الحسينى
الغراب المخلل
محمد فهمى حاجزى
فريدريك هستيان
بينيتو بيريت جالديس
ريكاردو جوريواليس
إليزابيث ريت
السيدة برنيطكا
السيد سجيوتو سوبرا
بريجت ما بعد الحصاد
داخسة للعمر والصبر (ج2)
جهد وروب ستيرجيز
مجموعة من المؤلفين
تيبرى أحمد الدلمى
فرد الدين العطار
جيمس ل. ليبري
مويار أحمد أحمد ورشا القادر
تبتية
غلام رسول مهوى
غد بدران
مارفن كارلوسون
قيل جورج وول وريدنج
دبيث أ. روف
كازيل ساجان
مارجريت آتريد
جورجيو بوه
ميريل سلاف فرنز
هايتي
الفرانكوفونية العربية
الشعر والمعلم المطور في مسرد القببة
محمد الشيشى
دمي ميخائيل
جيمز جريفيثس
موراد زن
منشاتة من الشعر الإسباني (ج1)
أثار جديدة في دراسة اللغة والأدب
751
752
753
754
755
756
757
758
759
760
761
762
763
764
765
766
767
768
769
770
771
772
773
774
775
776
777
778
779
780
781
782
783
784
785
786
787
788
789
790
791
792
793
794
795
796
طلعت شاهين
سيرة أب الحسن
عبد الحميد فهمي الجمال
عبد الحزام توقيف
إيصاد: محسن يوسف
شرين محمود الرفاعي
عزة الخميسي
درويش الحلوسي
طارق البري
محمود ماجد
خيري ديمة
أحمد محمود
دليدي دايليو ليش
محمود سيد أحمد
محمود سيد أحمد
حسن الجبالي
فريد الزاوي
نور أمين
أمل الرويبي
مصنف ليل زيدان
أحمد شادي
براء الدين عزبة
محمود لطفي جمعة
ناصر أحمد وحاشي جمال الدين
ناصر أحمد وحاشي جمال الدين
طابوس أندي
عبد العزيز بقش
محمد نور الدين عبد المنعم
أحمد شافي
ريب مناخ
عبد العزيز توقيف جاود
عبد العزيز توقيف جاود
محمود علي جرج
ريسبي شtte
مجدى عبد الحافظ
محسن علاء الدين منصور
محسن النادي وعلي عاصم
حسن النعيمي
محسن الدمرش
محسن علي الدين منصور

- 797: الأزهار في ليلة متممة (شعر)
- 798: الرسالة النافذة للأطفال
- 799: سلم سنوات
- 800: قضايا في علم اللغة التربوي
- 801: نحو مستقبل أفضل
- 802: سلم رعاية في الآداب العربية
- 803: التغيير والتنمية في القرن العشرين
- 804: سوسيلوجيا الدين
- 805: من لا زعم لهم (رواية)
- 806: الطبكتة العليا المصرية
- 807: بحري قبي: تشريح مفكر مصري
- 808: الشرق الأوسط والولايات المتحدة
- 809: تاريخ الفلسفة السياسية (1)
- 810: تاريخ الفلسفة السياسية (2)
- 811: تاريخ التحول الاجتماعي (مج)
- 812: تحرير المرة السحرية في الحياة الاجتماعية
- 813: لم أخرج من باب (رواية)
- 814: الحياة السحرية في مصر الرمضانية
- 815: فن النكتة (مج)
- 816: العربي الأمريكي
- 817: مانعة آفاقون: كلام في الحب
- 818: المرأة والحرية في القرن 18 (1)
- 819: الرجل والحرية في القرن 18 (2)
- 820: شمس (مسرحي) (ميزات الأرغام)
- 821: هفت بيك (شعر)
- 822: عن الربيع (شعر)
- 823: وچاص اسود (شعر)
- 824: دله الريما
- 825: مرأة تحتا في إيطاليا (بي) (بيدلا الترجمة)
- 826: مرأة تحتا في إيطاليا (بي) (بيرات الترجمة)
- 827: وأد سريج في إيطاليا (بي) (بيرات الترجمة)
- 828: التقسيم السريبي (ميزات الأرغام)
- 829: مناظرة حول الإسلام والعلم
- 830: رق العقيق
- 831: تعلم اللغة (ميزات الأرغام)
- 832: تأليف الحيل الاقتصادي (دي)
- 833: تحرير المرة السحرية (مج)
- 834: كنز الشعر
علاء منصوري
مدوح البستاوي
علي قميصر
علي عبد السلام
ليلى صبري
جمال الجريد
فؤذ حسن
محمد منصور
محمد محمد يونس
طارق كريم
طيب الشايب
عابد نجيب شرفي
أحمد حمود
عبد الهادي أبو ريدة
بدر توفيق
جابر مصطفى
ياسمين مراز
سيما محمد
قطرس
علي إبراهيم منوفي
علي إبراهيم منوفي
افتشاح سولوم
كامل عبد الماجي
بيمي عبد الله
صبري
عادل صبحي كلا
محمد خليل
محمد السعداء
محمد علي الدين منصور
عبد الرحيم الزقائي
شوقي جلال
محمد علي الدين منصور
محيي محمد
محمد علي الدين منصور
شوقي جلال
حمادة إبراهيم
حمادة إبراهيم
محسن فرجاني
بيتر أوربان
بدر الدين والمغرب
هاني فيض
تولان، سبتي
نادر تلمي
ستيان دريتش
جورناليسينج
روبرت شيرين
فرانسيسكو ماركيت
باتو بيانو
أندرو بيرتون
يوهان تومان
إيف شيميل
بان ميلين
سيد هورنر
سيمون
أبراهيم
وادي النهر
أول خان
فترة الثلاثة
رسالة خمس في الأفق والأنفس
المهنة الإستثنائية
الشعر العربي:
الشعر العربي
الشعر العربي
شعر إبراهيم
شعر إبراهيم
محسن فرجاني
شيماء محيي
دنيس داود
محمود رضا محيي
روبرت داود وأخرون
خليج
خليج
مارا
كتاب الطائر
عزة الصبيعة
عزة الصبيعة
عزة الصبيعة
 отлично مازا
عزة الصبيعة
عزة الصبيعة
عزة الصبيعة
عزة الصبيعة